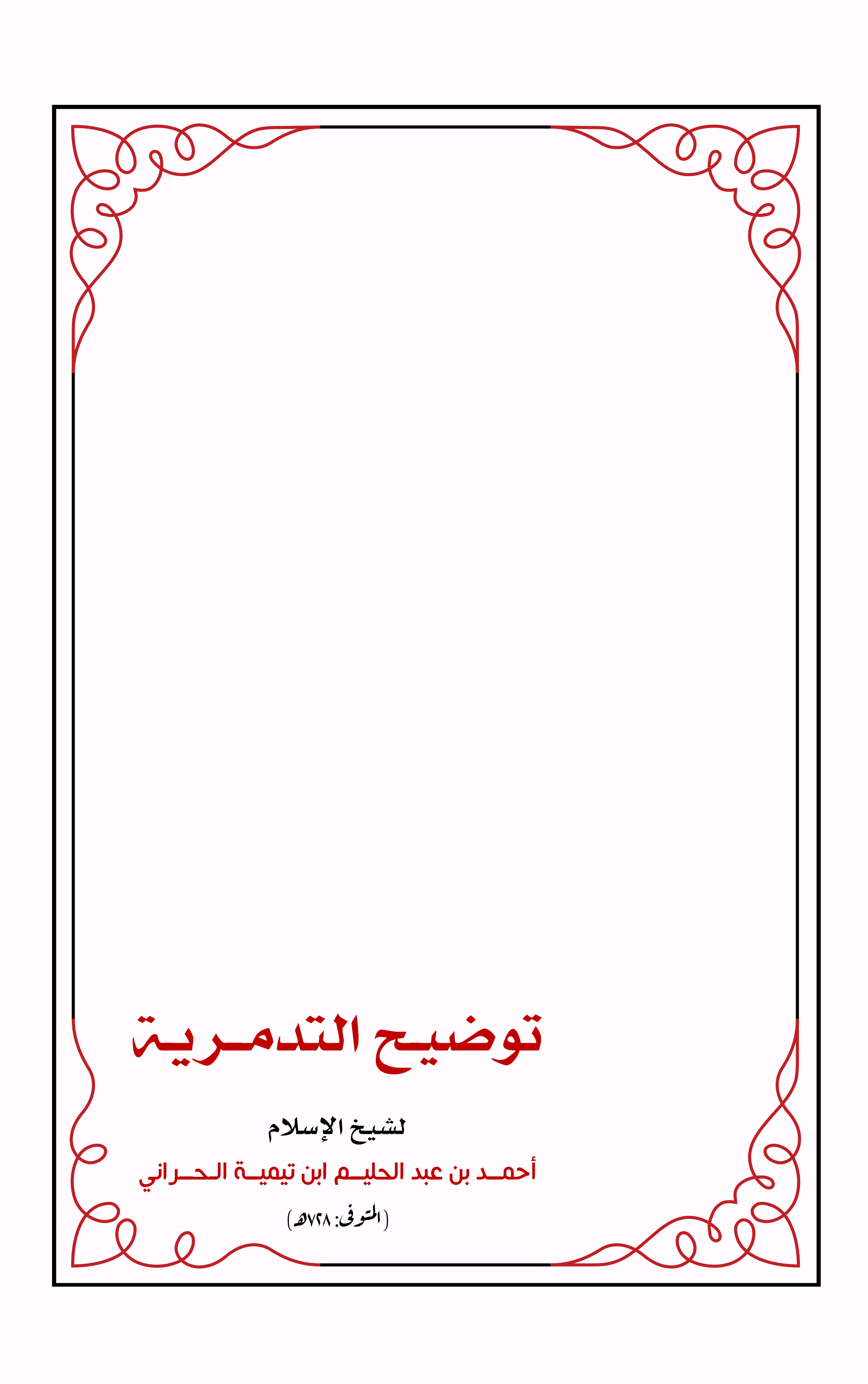


توضيح التدمرية

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني

(المتوفى: ٧٢٨هـ)



توضيح التدمرية

لشيخ الإسلام

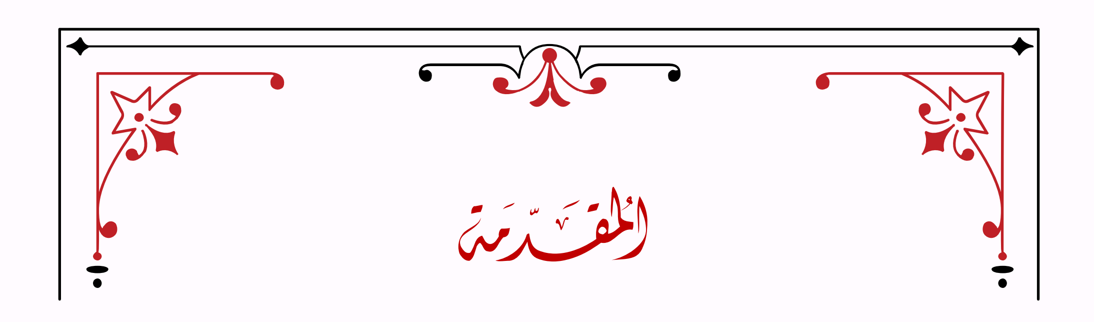
أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني

(المتوفى: ٧٢٨هـ)

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَن يَهْد الله فهو المُهْتدي، ومَن يُضْلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، وبعدُ:

فإنَّ أَصْدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدْي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعدُ: فإنَّ «الرِّسالة التدمرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تضمَّنتْ شَرْحَ قواعدَ نافعة في توحيد الأسماء والصفات وتوحيد العبودية، وتضمَّنتْ شَرْحَ دِين الإسلام ومِلَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبَيَّنَتْ ما في عقيدة الإيمان بالله والإيمان بالرُّسل من التَّلازُم، وهذا تبيينٌ لحقيقة الدِّين، ومعنىٰ الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله».

وشَرَح شيخُ الإسلام في الرسالة التدمرية عقيدة الإيمان بالقَدَر، وبيَّن ما يجب اعتقاده في ذلك، وما توجبه من توحيد الله.

وشيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في شَرْحه لذلك كله، بيَّن ضلالات أنواع فِرَق المبتدعة في مخالفة الحق، تبييناً للحق وتحذيرًا من الباطل.

ولضرورة كلِّ مُسْلم إلىٰ معرفة دِينه وتحقيق الشهادتين؛ فإنّه يجب عليه طلبُ الحق في ذلك، واعتقادُه، والتَّديُّن به، والدعوة إليه، قال تعالىٰ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [محمد: ١٩].

واستعنتُ بالله في شرحِ هذه الرسالة؛ أداءً لواجب تبيين العِلم، وتعاونًا مع المسلمين في تبيين الحق والتحذير من الباطل.

فإنّ العناية بشرح التوحيد من أَوْجبِ الواجبات المتحتمات، وقد كَتَب شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ «الفتوىٰ الحموية» في شرحِ توحيد الله في أسمائه وصفاته، وسَلَك في هذه الفتوىٰ الطريقة الأثرية بنقل اعتقاد السابقين الأَوَّلِين، وفي «الرسالة التدمرية» سَلَك المنهج نفسه مع الردِّ علىٰ شبهات المُعطِّلة الجَهْميَّة وفُرُوعهم في ذلك.

والرسالة التدمرية أبطلت معقولات المُعَطِّلة الضَّالة التي قدّمها المبتدعة علىٰ القرآن والسُّنة، فجزىٰ اللهُ شيخَ الإسلام عن الإسلام خيرًا.

وحَرِصتُ في شرحي للرسالة التدمرية علىٰ تقريب معانيها للفَهْم، وتكميلِ شرحِ شيخِ الإسلام بإفادات علماء الإسلام من كلِّ طبقة.

ومَن قرأ «الفتوىٰ الحموية»، و«الرسالة التدمرية»، و«بيان تلبيس الجهمية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، واستعان قبل ذلك بربه لهدايته، أيقنَ أنّ تصديق

أخبار الوحي والانقياد لها توحيدٌ، وأنّ تكذيبَ الوحي وتقديمَ أوهام وخيالات ومعقولات الجهمية وفروعهم عليها كفرٌ وإلحادٌ.

وقراءةُ التدمرية وشروحاتُها فيه تعليمٌ للتوحيد، وتصحيحٌ لاعتقاد المسلمين، وفيه تعليمٌ لكيفية المُحاجَّة عن التوحيد، وإبطالِ الإلحاد والردِّ عليه.

ومدارسةُ التدمرية وشروحاتُها تَزِيدُ اعتقادَ المُوحِّدِين يقينًا بصِدْق إخبار الله عن نفسه، وضَلَالِ مَن كذَّب بها.

والرَّدُّ علىٰ شبهات الجَهْميَّة المُعطِّلة وفروعهم ضرورةٌ لتصحيح عقائد المسلمين الذين أَضلَّهم الجهمية بتلبيساتهم الباطلة، ولا تزال طائفة من علماء الأُمَّة وطلبة العلم يكشفون ما في شبهات المُضِلِّين من الزَّيف والضَّلَال، جعلنا اللهُ جميعًا من المُتواصِين بالحق والصبر.

وتلقِّي الدِّين -خصوصًا العقيدة- عن السابقين الأَوَّلِين طمأنينةٌ بصوابِ وصحة المُتلقَّىٰ، وهو من أسبابِ توارُثِ الأُمَّةِ دِينَها عن الصحابة عن مُعلِّمهم النبي ﷺ.

أسأل الله ﷻ أنْ يُوفِّقَ المسلمين للعلم النافع والعمل الصالح، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتبه

حمد بن إبراهيم العثمان



قال المصنف رحمه الله:

أمَّا بعدُ: فقد سألني مَن تعيَّنتْ إجابتهم أنْ أكتبَ لهم مضمون ما سمعوه مني في بعض المجالس، من الكلام في التوحيد والصفات، وفي الشرع والقَدَر، لِمَسِيس الحاجة إلىٰ تحقيق هذين الأصلين، وكثرة الاضطراب فيهما، فإنهما مع حاجةِ كلِّ أَحَدٍ إليهما، ومع أنَّ أهل النظر والعلم والإرادة والعبادة، لا بُدَّ أن يخطر لهم في ذلك من الخواطر والأقوال ما يحتاجون معه إلىٰ بيانِ الهُدَىٰ من الضَّلال، لاسيما مع كثرة مَن خاض في ذلك بالحق تارةً، وبالباطل تارات، وما يَعْتَرِي القلوب في ذلك من الشُّبه التي تُوقِعها في أنواع الضلالات[1].

الشَّرْح

بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية في بداية رسالته التدمرية السبب الباعث لكتابتها، وهو إجابة مَن سأله تدوين ما سمعوه منه من شرحِ عقيدة التوحيد والإيمان بالقَدَر، ولضرورة بيان ذلك لكل المسلمين؛ فإنه أساس الاعتقاد والعمل، ولكثرة مَن خاض في ذلك بالباطل، فوجب بيان الحق نصيحةً لله ﷻ ولكتابه ولرسوله ﷺ وسُنَّته ولأئمة المسلمين وعامتهم.

والعالِمُ يجب عليه تعليمُ العلم وأداؤه للأُمَّة، خصوصًا ما يتعلق بالتوحيد وما ضَلَّ فيه المسلمون، هذا من أسباب هداية الناس وظهور الحق؛ ولذلك قام شيخ الإسلام بهذا الواجب المُتعيِّن عليه.

(١) التدمرية (ص٣)، تحقيق: الشيخ د. محمد السعوي، ط. الأولىٰ، ١٤٠٥هـ.

وفي خاتمة رسالته هذه حَثَّ شيخُ الإسلام العلماءَ وطلبة العلم علىٰ بيان الحق وردِّ الباطل حيث قال[١]: «كلما ضَعُفَ مَن يَقُوم بنور النبوة قَوِيت البدعة».

ولا يجوز للعلماء كتمان العلم بل يجب عليهم بيانه، ويتأكَّد مع ضرورة الحاجة إليه لقلة مَن يُبلِّغه، أو لضَلَال وتعالُم مَن يُبلِّغ البدع ويُبرِّر الشرك والضَّلال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العلم يجب بَذْله، فمَن سُئل عن عِلْمٍ يعلمه فكتمه، ألجمه الله بلجامٍ من نار يوم القيامة، وهو يَزْكو علىٰ التعليم، لا يَنْقص بالتعليم كما تَنْقص الأموال بالبَذْل، ولهذا يُشبَّه بالمصباح».

فتعليم التوحيد وبيان السُّنة، والردُّ علىٰ الشرك والبدع، من أسباب حِفْظ الدِّين، وهداية الناس، وظهور الحق.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يجب علىٰ العالِم (ت:٣٦٠هـ)[٣]: «يَدْفع بحقِّه باطِلَ مَن خالَفَ الحق، وخرج عن جماعة المسلمين، فيكون غَلَبَتُه لأهل الزَّيغ تَعُود بركته علىٰ المسلمين».

---

(١) التدمرية (ص١٩٤).

(٢) التوسل والوسيلة (ص٣٧).

(٣) أخلاق العلماء، الجامع لكتب الآجري (١/ ٢٣٢).

والعلماء الناصحون للإسلام سَعْيُهم يكون في تعليم العلم والإعانة علىٰ حِفْظ الدِّين وتَبْيينه، وإحياء السُّنن، وإخماد البدع، والهداية إلىٰ صراط الله المستقيم، والتحذير من السُّبل المُفرِّقة للدِّين.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنَّ من طلاب العلم أُناسًا لهم عقولٌ مؤيدة، وآدابٌ جميلة، وفُهُوم حَسَنة، يُحِبُّونَ أنْ يُحْيوا سُنَن رسول الله ﷺ وسُنَن أصحابه، ويُمِيتوا البدع، ويُحبُّون جَمْع العلم وكثرته، ليحفظوا به علىٰ المسلمين شريعتهم».

وبيانُ الحقِّ وردُّ الباطل هو من خِصال خيرية هذه الأُمَّة، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «المعروف: التوحيد، والمُنكَر: الشِّرك».

وقد قام علماء السَّلف بواجبهم في تبيين العِلم، ونصرة الحق، وردِّ الباطل علىٰ أحسن ما يكون في كلِّ مسائل الدِّين، خصوصًا في مسائل العقيدة، وخصوصًا في المسائل التي كَثُر فيها القول بالباطل.

(١) فرض طلب العلم، الجامع لكتب الآجري (١/ ٣٦١).
(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٦٧).

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أَحَدٍ إلا سيكلمه ربُّه، ليس بينه وبينه تُرْجُمان، فينظر أيمن منه فلا يرىٰ إلا ما قَدَّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرىٰ إلا ما قَدَّم، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة»، رواه البخاري ومسلم.

قال أبو عيسىٰ الترمذي رحمه الله[(١)]: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ، حدَّثنا أبو السائب، حدَّثنا وكيع يومًا بهذا الحديث عن الأعمش، فلمَّا فرغ وكيع من هذا الحديث قال: مَن كان ههنا من أهل خراسان فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان؛ لأنَّ الجَهْمِيَّة ينكرون هذا».

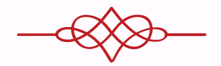
فلتأخُذِ الأُمَّة بأسباب خَيْرِيّتها، فتُبيِّن العلم، وتُظهِر الحق ولا تكتمه، وليَحْذر العلماءُ من التشبه بأحبار أهل الكتاب الذين كتموا الحق وَهُم يَعْلمون، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٢)]: «في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسالكهم، فعلىٰ العلماء: أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدَّال علىٰ العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد وَرَد في الحديث المَرْوِي من طُرُقٍ متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن سُئل عن عِلمٍ فكَتَمه أُلجم يوم القيامة بلِجَامٍ من نار»».

(١) جامع الترمذي (٤/ ٦١١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤).

وقال تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فيجب علىٰ العلماء إنكارُ كلِّ باطِلٍ؛ من شِركٍ، وكُفْرٍ، وبدعةٍ، ومعصيةٍ، ومُؤلَّفاتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عامّتها في تبيين الشرعِ وعقائِدِه وأحكامِه علىٰ أحسن ما يكون، وفي الردِّ علىٰ المشركِين والمبتدعِين.



قال المصنف رحمه الله:

فالكلامُ في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر، الدائر بين النفي والإثبات، والكلام في الشرع والقَدَر هو من باب الطلب والإرادة، الدائر بين الإرادة والمحبة وبين الكراهة والبُغْض نفيًا وإثباتًا.

والإنسانُ يَجِد في نَفْسه الفَرْق بين النفي والإثبات، والتصديق والتكذيب، وبين الحُبِّ والبغض، والحَضِّ والمنع، حتىٰ إنّ الفَرْق بين هذا النوع وبين النوع الآخَر معروفٌ عند العامة والخاصة، معروفٌ عند أصناف المتكلِّمِين في العلم، كما ذَكَر ذلك الفقهاء في كتاب الإيمان، وكما ذَكَره المقسِّمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان، فذَكَروا أنّ الكلام نوعان: خبرٌ وإنشاء، والخبر دائر بين النفي والإثبات، والإنشاء: أمرٌ، أو نهيٌ، أو إباحة.

وإذا كان كذلك فلا بُدَّ للعبد أن يُثْبِتَ لله ما يجب إثباتُه له من صفات الكمال، وينفي عنه ما يجب نفيُه عنه مِمَّا يُضادّ هذه الحال(١).

الشَّرْح

التوحيد والإسلام والإيمان حقيقته: تصديقُ خبرِ اللهِ عز وجل، والانقياد لأمره ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فالمؤمنون بالله عز وجل صَدَّقوا أخباره، وآمَنُوا بِوَحْيِه فيما ذكرَ من أسمائه وصفاته.

وليس لمُسْلِمٍ أن يُكذِّبَ إخبار الله عن أسمائه وصفاته، فاللهُ أَعْلم بنَفْسه وبما

(١) التدمرية (ص٣، ٤).

يُخْبِر عن ذاته وصفاته التي هي غاية في الكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، يعني بذلك: نَفْسه الكريمة، فهو الذي يَعْلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أَخْبَركم بذلك، وأَبانَ لكم من عظمته ما تَسْعَدُون به من معرفته، فعَرِفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك».

فأهل السُّنة والجماعة آمَنُوا بما أَخْبر به اللهُ عن نفسه وبما أخبر رسول الله ﷺ عن أسماء الله ﷻ وصفاته.

قال العَلَّامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٩٩هـ) عن عقيدة أهل السُّنة[2]: «يَعْلمون حقًّا يقينًا أنّ ما قاله رسول الله ﷺ فعَلَىٰ ما قاله؛ إذ هو كان أَعْرف بالرب جل جلاله من غيره، ولمْ يَقُل فيه إلا حقًّا وصِدقًا ووَحْيًا، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]».

ومَن أنكر ما سَمَّىٰ ووَصَف الله به نفسه، كان من الضالين، وعلى الله من الكاذبين، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١][3].

وقال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منهج المبتدعة في نصوص الوحي في أسماء

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٦٨٤).
(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٨٩).
(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٢٦).

الله وصفاته[١]: «إذا سمعوا خبرًا في صفات الرب ردُّوه أصلًا، ثُمَّ تأوَّلُوه بتأويلٍ يقصدون به رَفْع الخبر من أصله».

ومَن أنكر ما وَصَف الله به نفسه لم يكن من المُوحِّدِين.

قال نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «مَن أنكر ما وَصَف الله به نفسه فقد كَفَر، ومَن شَبَّه الله بخَلْقه فقد كَفَر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله ﷺ تشبيه».

وقال أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[٣]: «إن أَصْل الإيمان بالله الذي يجب على الخَلْق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثةُ أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد إنِّيَّته -حقيقته-، ليكون بذلك مُبايِنًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يُثْبِتُون صانعًا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته، ليكون مُبايِنًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أَقَرُّوا بالصانع، وأشركوا معه في العبادة غَيْرَه.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها، من العلم، والقدرة، والحكمة، وسائر ما وَصَف به نفسه في كتابه؛ إذ قد عَلِمنا أنَّ كثيرًا ممَّن يُقِرّ به ويُوحِّده بالقول المطلق قد يُلْحِد في صفاته، فيكون إلحادُه في صفاته قادحًا في توحيده، ولأَنَّا نَجِد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقادِ كلِّ واحدةٍ من هذه الثلاث والإيمان بها».



(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٨٩)، باختصار.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١٠).

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٢٠، ٢٢١).

قال المصنف رحمه الله:

ولا بُدَّ له في أحكامه من أنْ يُثْبِتَ خَلْقه وأَمْره، فيُؤْمِن بخَلْقه المتضمن كمال قدرته، وعموم مشيئته، ويُثْبِت أَمْره المتضمن بيان ما يُحبّه ويرضاه من القول والعمل، ويُؤْمِن بشرعه وقدره إيمانًا خاليًا من الزَّلل.

وهذا يتضمَّن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له، وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل، والأول: يتضمَّن التوحيد في العلم والقول، كما دلَّتْ على ذلك سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ودلَّت على الآخر سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهما سورتا الإخلاص، وبهما كان يقرأ ﷺ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

فأمَّا الأول -وهو التوحيد في الصفات-: فالأصل في هذا الباب أنْ يُوصَف الله تعالى بما وَصَف به نفسه، وبما وصفته به رُسُله نفيًا وإثباتًا، فيُثْبَت لله ما أَثْبَته لنفسه، ويُنْفَى عنه ما نفاه عن نَفْسه(١).

الشَّرح

أَمَر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أول العقيدة التدمرية بتحقيق التوحيد العلمي والعملي المُتضمِّن لحقيقة الدِّين كلِّه، قال: الأول: يتضمَّن التوحيد في العلم والقول، كما دلَّت على ذلك سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، والثاني: التوحيد في القصد والإرادة والعمل، كما دلَّ عليه سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى؛ من الأَحَدِيَّةِ المنافية لمُطْلَق

(١) التدمرية (ص٤-٧).
(٢) زاد المعاد (ص١٠٠، ١٠١).

المشاركة بوجهٍ من الوجوه، والصَّمَدِيَّة المُثْبِتة له جميع صفات الكمال التي لا يَلْحَقها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ونَفْي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصَّمَدِيَّة وغِنَاه وأَحَدِيَّته، ونَفْي الكُفْء المتضمِّن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمَّنت هذه السورة إثباتَ كلِّ كمالٍ له، ونَفْيَ كلِّ نقصٍ عنه، ونَفْيَ إثباتِ شبيهٍ أو مثيلٍ له في كماله، ونَفْي مُطْلَق الشريك عنه.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يُباين صاحبه جميع فِرَق الضَّلال والشرك».

وتوحيد القصد والطلب يكون عن توحيد المعرفة والإثبات، فتوحيد الأسماء والصفات هو الأساس الباعث لتحقيق توحيد العبودية لله، فتوحيد الألوهية هو الانقياد لأمر الله ونهيه، وذلك إنما يكون عن تعظيم الله وحُبِّه وخوفه ورجائه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أصل العمل عملُ القلب، وهو الحب والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «التألُّه: هو المحبة، والطاعة، والخضوع».

وبيَّن سيِّدُ الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه والناس كافة أن الذي يستحق العبودية وحده مَن كان له الكمالُ في أسمائه وصفاته، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٣).
(٢) الجواب الكافي ص٢٤٠.

قال شيخُ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يقول: ما تصنع بعبادة ما هذه صفته، اعبدِ الذي إذا دَعَوْته سَمِع دعاءكَ، وإذا أُحِيطَ بكَ أبصركَ فنصركَ، وإذا نزلَ بكَ ضرٌّ دَفَع عنكَ».

فإلهُ الحقِّ هو الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

وتوحيد المسلم لربه طوعًا فيعبده وحده لا شريك له، وهو الذي انقاد لأمره وحُكْمه وقضائه الكوني كلُّ مخلوقٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وعبوديةُ المسلمين لربِّ العالمين عبوديةٌ لأرحم الراحمين؛ لأن ألوهية ربنا قائمةٌ بالرحمة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «ألوهيته مبنية علىٰ الرحمة».

وأسماء الله ﷻ وصفاته نُعُوتُ عظمةٍ وجَلالٍ، وكلها دالَّةٌ علىٰ كمال الله في ذاته وأقواله وأحكامه، وهذا المُوجِب للتألُّهِ له وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٤٩).

(٢) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٠٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه قائم بالقِسْط، وأنه العزيز الحكيم.

فتضمَّنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمَّنت عَدْله المنافي للظلم، وتضمَّنت عِزَّته وحكمته المنافية للذُّلِّ والسَّفَه، وتضمَّنت تنزيهَهُ عن الشرك والظلم والسَّفَه، ففيها إثباتُ التوحيد، وإثباتُ العدل، وإثباتُ الحكمة، وإثباتُ القدرة».

ومن قيامه بالقِسْط: أَمْره عِبَاده أن يكونوا قَوَّامِين بالقسط[٢]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

والمخلوق الذي يجري فيه قضاء الله الكوني، إذا أسلم لله رب العالمين وأتىٰ بما يوافق إرادة الله الشرعية كان ذلك خيرًا له في دِينه ودنياه، وكان ذلك سبب سعادته في الدَّارَين.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن الغاية التي يُحِبّ لهم ويَرْضَىٰ لهم، والتي أُمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خُلق العِبَادُ له، أي: هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مَرْضِيِّين محبوبِين».

وعبادة الله وإن كانت تكليفًا، فهي مصلحةٌ للعِباد، وسببٌ لاستقامة أحوالهم، وتحقيق مصالحهم، ودَفْع المَضَارّ عنهم، ورِضَىٰ ربهم.

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٢/ ٥١).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٢/ ٥١).
(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٢/ ٢٣١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الله سبحانه أَمَر عِباده بما أمرهم به؛ رحمةً منه وإحسانًا وإنعامًا؛ لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم ومآلهم؛ إنما هو بفعل ما أمروا به، وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قِوَام للبدن إلا به، بل أعظم، ليس مجرد تكليفٍ وابتلاءٍ كما يظنه كثيرٌ من الناس، ونهاهم عمَّا نهاهم عنه صيانةً وحِمْيةً لهم؛ إذ لا بقاءٌ لصحتهم ولا حِفْظٌ لها إلا بهذه الحِمْيَة».

وهذا كلُّه يوجب علينا عبودية الله وطاعته وشكره، قال زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «انظر مَن كان رِضاه عنكَ في إحسانك إلىٰ نفسك، وكان سَخَطُه عليكَ في إساءتك إلىٰ نفسك، فكيف تكون مكافأتُكَ إيَّاه».

وتوحيدُ اللهِ إثباتُ خَلْقِه وأَمْرِه، كما أنه اعتقادٌ جازِمٌ وعبوديةٌ خالصة لله فهو ضرورة لكل مُسلِمٍ في تَوَلِّي الله له، وهو من أسباب طمأنينة قلب العبد وسكونه إلىٰ ربه، ومن أسباب كفاية الله له.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ليس المُنتَهىٰ إلَّا إلىٰ الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلىٰ خَلْقِه ومشيئته وحكمته وعِلْمه، فهو غايةُ كلِّ مطلوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ لأجله فمحبته عناءٌ وعذاب، وكلُّ عملٍ لا يُراد لأجله فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمعَ ما يُراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]،

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٨٤).

(٢) تهذيب الكمال (٣/ ٦٥).

(٣) الفوائد (ص٢٩٣).

واجتمع ما يُراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فليس وراءه سبحانه غايةٌ تُطلب، وليس دونه غايةٌ إليها المنتهىٰ.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئن ويسكن إلَّا بالوصول إليه، وكلُّ ما سواه مما يُحَبّ ويُراد فمُرادٌ لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهىٰ، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلىٰ اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداءُ المخلوقات من اثنين».

والله ﷻ إنما أخبرنا في القرآن أنه مع المُتّقِين، ومع المؤمنين، ومع الصابرين، ومع المحسنين، وأنه يدافع عن الذين آمَنُوا، حثًّا علىٰ ولاية الله بتوحيده، والإيمان به، وعبوديته، ونصرة دينه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه المدافعة بحسب إيمانهم، وعلىٰ قَدْرِه؛ فإنْ قَوِي الإيمان قَوِيت المدافعة، فمَن وَجَد خيرًا فليحمد الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه».

وتضمَّن كلامُ شيخ الإسلام شَرْحَ معانِي التوحيد، فيُثْبِت المؤمن أَمْرَ الله المتضمن ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويُثْبِت أحكامه الشرعية، ويَشْهَد مقاديره الكونية جارية في حق المخلوق علىٰ قدر التزامه بأوامره الشرعية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العبد دائمًا مُتقلِّب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج -بل مُضطر- إلىٰ العَوْن عند الأوامر، وإلىٰ اللطف عند

---

(١) زاد المعاد (ص٣٣٢).

(٢) الفوائد (ص٢٩٣، ٢٩٤).

النوازل، وعلىٰ قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل؛ فإنْ كَمُل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا نالَهُ اللطف ظاهرًا وباطنًا».

وعبودية الله هي شُكْره علىٰ نِعَمه التي أنعم بها علينا، وهي كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ، فاللهُ الذي خَلَقَكَ في أحسنِ تقويم، وأَسْبَغ عليكَ نِعَمه، حقُّه شُكْرُه بعبادته.

والمسلمون شاهَدُوا من آثار إحسان الله، وَجُودِه، وكَرَمِه، ورِزْقِه، ما جعلهم يَتألَّهُون له وحده لا شريك له؛ شُكْرًا لنِعَمِه وأداءً لحقِّه.

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «النِّعم الكثيرة التي لا تُعد ولا تُحصىٰ الدَّالة علىٰ سعة رحمة الله، وَجُودِه، وبِرِّه، وذلك كله يدعو إلىٰ تعظيم مُبْدِعِها وبارِئها، وشُكْرِه، واللَّهج بذِكْرِه، وإخلاص الدِّين له، وهذا روحُ الإيمان وسِرُّه».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فالنعمةُ بإرسال محمد ﷺ والوحيُ الذي أُوتيه فتزكَّىٰ واهتدىٰ به الخَلق أعظمُ نعمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «كان إنعام الله به -ﷺ- أفضل نعمة أنعم بها علىٰ العِباد».

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧٩-٨١) باختصار.
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٠٢).

فالهداية التي حَصَلتْ للناس باتِّباع القرآن وعبادة الله بما شَرَع، أعظمُ نعمة. نعمةٌ سببٌ لزَكاءِ الاعتقاد والقول والعمل ودخولِ الجَنَّة، لا رَيْب أنها أفضلُ النِّعم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1]: «الحمد لله علىٰ نعمة الإسلام، التي هي أعظم النِّعم، وأُمُّ كلِّ خيرٍ، كما يُحِبُّ ربنا ويَرْضَىٰ».

فالمخلوق في ضرورةٍ إلىٰ ربِّه في كل شيء، واللهُ هو الغني الحميد، ومَن شَهِد ذلك من نَفْسِه، عَبدَ ربَّه واستعان به، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ[2]: «النظر إلىٰ فَقْرِ المخلوقات كلها، واضطرارها إلىٰ ربها من كل الوجوه؛ وأنها لا تستغني عنه طَرْفة عينٍ، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار.

وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء، والتضرع إلىٰ الله في جَلْبِ ما يحتاجه من منافع دِينه ودنياه، ودَفْعِ ما يضره في دِينه ودنياه».

ومِمَّا يشاهده المسلمون من توحيد الله: تجدُّد نِعَم الله، واندفاع نِقَمه، وتدبير أمور خَلْقِه، ونفاذ قضائه، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[3]: «يغفر ذنبًا، ويُفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٩٩).

(٢) التوضيح والبيان لشجر الإيمان (ص٧٩-٨١) باختصار.

(٣) بدائع التفسير (٤/ ٣٢٤، ٣٢٥).

ويأخذ ظالمًا، ويفك عانيًا، ويُغنِي فقيرًا، ويَجْبُر كَسِيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقِيل عَثْرةً، ويستر عَوْرةً، ويُعِزّ ذليلًا، ويُذِلّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة ويأتي بأخرىٰ، ويُداوِل الأيام بين الناس».

ومن شهود التوحيد: ما أَدْرَكه المُوحِّدُون من النعيم العاجل في الدنيا الذي صار من مُبشِّرات الله لهم بمثواهم في البَرْزخ والآخرة، فهُمْ في جَنَّةٍ مُعجَّلة، عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «**ذاقَ طَعْم الإيمان؛ مَن رَضِي بالله ربًّا، والإسلامِ دِينًا**» رواه مسلم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**جُعلتْ قُرَّة عيني في الصلاة**» رواه أحمد والنسائي من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن المُخلِص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب لا أحلىٰ ولا أَلَذّ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدِّين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب مُنِيبًا إلىٰ الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]».

وانظر إلىٰ شهود التوحيد الذي تَحقَّق به النبيون عليهم الصلاة والسلام في عبادة وموالاة ربهم ودعائه بأسمائه الحُسْنىٰ التي تناسب ما دَعَوْا به، قال إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار: (حسبي الله ونِعْم الوكيل)، وقال محمدٌ ﷺ وصَحْبُه حين اجتمعتْ أحزابُ الكُفْر لقتالهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(١) العبودية (ص١٢٣، ١٢٤).

وشَهِد سَيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ توحيد الله في إجابة أدعيته، قال تعالىٰ مُخْبِرًا عنه أنه قال عن ربِّه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

والمؤمن يَشْهد توحيد الله في خَلْقه وأَمْره، والكافر يجحد شهود التوحيد كِبْرًا وعُلُوًّا، ومنهم مَن تَدْركه أسباب تواضعه للحق فيخضع لله وحده ويعبده وينقاد لأمره ونهيه بعد ذهاب معاندته للحق.

والكافر الذي شهد التوحيد واستكبر عن الانقياد لله، إذا ذهب عنه مُلْكُه ومالُهُ الذي غَرَّه، أَدْرَكَ أنه غَبنَ نَفْسه وسعىٰ في هلاكها، وتمنىٰ لو كان من المسلمين الموحدين.

قال الله تعالىٰ في شأن المُخْتال ببُسْتانه الذي تَجبَّر وأَنْكر المعاد، وتألَّىٰ على الله؛ لو كان ثَمَّ معاد فسيكون ثوابه خيرًا مما أُوتيه في الدنيا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٤].

وقد حَثَّنا الله علىٰ تدبُّر آياته الشرعية والكونية الدالة علىٰ ألوهيته وحده، فالقرآن كلام رب العالمين الذي لم تستطع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.

ومن توحيد الله في خَلْقه وأَمْره: ما تراه من عقوبات الله القدرية علىٰ مخالفة أَمْرِ الله ونَهْيِه الشرعي، فيوجب ذلك لكَ مجاهدة نفسك علىٰ الانقياد لأمر الله ونَهْيه، والمبادرة إلىٰ محو آثار الذنوب والسيئات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وشَرَح شيخ الإسلام ما يتضمَّنه الإيمان بخَلْق الله، من الإيمان بكمال قدرته وعموم مشيئته، فالإيمان بذلك يستلزم توحيد الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الربوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له.

وعظمته المُطْلقة تستلزم إثباتَ كلِّ كمالٍ له، وسَلْبَ كلِّ نقصٍ وتمثيلٍ عنه، وحِلْمه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلىٰ خَلْقه.

فعِلْمُ القلب ومعرفته بذلك توجب محبته، وإجلاله، وتوحيده، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور».

والموجب لعبودية الله أنه ربُّ العالمين، وخاطَبَ الحنفاءُ من الرُّسل مَن ضَلَّ من البشر في اتخاذ الأرباب مع الله وعبادتهم، بدعوتهم لتوحيد الله في عبادته؛ لتفرُّدِه بالربوبية للخَلْق جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والله يُربِّي عِباده بخَلْقِهم علىٰ الفطرة، وتكميل فطرتهم بتعليمهم شَرْعه، وعندما جادَلَ فرعون في ربوبية الله -جحودًا- وقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الرَّبُّ: هو الذي يُربِّي عَبْدَه فيعطيه خَلْقه، ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله من العبادة وغيرها».

---

(١) زاد المعاد (ص٦٦٦).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٥/ ١٨).

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «اللهُ سبحانه لـمْ يَـذْكر هـذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له، بل ذَكَرها لبيان أنه المستحق للعبادة دُونَ ما سواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتمُّ التوحيد، وهما إثبات صفات الكمال، ردًّا علىٰ أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو، ردًّا علىٰ المشركين».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «المعنىٰ: ولله الأسماء الدالة علىٰ المعاني الحسنة، والأوصاف الجميلة، من الرحمة، والمغفرة، والحِلْم، والعفو، والرزق، والتعظيم، والتحميد، والتقديس ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: اسألوه بأسمائه الحسنىٰ وتَوسَّلُوا إليه بها، كقولكَ: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا حليم».

وبكمال ربوبية الله وأسمائه وصفاته وظهور آثارها، حاجَّ اللهُ المشركين بانتفاء الشريك له سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ .... فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٥].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «هو الله الذي هدىٰ الخَلق إلىٰ الحق، وأوضحه لهم علىٰ ألسنة الرُّسل، وجعل لهم برهانًا فاصلًا وسببًا مُوصِلًا مُميِّزًا بين الحق والباطل يُسمَّىٰ العقل، فهذا الله الذي هدىٰ الخَلق إلىٰ الحق ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: ٣٥] فيما أَمَر ونَهَىٰ وشَرَع».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٨٣).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣١٥).

(٣) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٤).

ولذلك ذَكَر اللهُ صفات كمالِه تنبيهًا لخَلقِه لتفرُّده بالكمال الموجب لإفراده بالألوهية والعبودية، قال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «معناه: فذلكم الذي صفته هذا هو ربكم الحق».

وقال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [يونس: ٦٦] أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله؛ فإنه ليس لله شريكٌ أصلًا وعقلًا ولا نقلًا».

فالله ﷻ الذي خَلَقنا وأَوْجَدنا من العدم، ورَزَقنا وأحيانا، وهدانا بشرعه، وإليه المعاد، فيحاسبنا بعد بَعْثنا، هو وحده لا شريك له المستحق للعبادة، لا رب ولا إله سواه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أي: لا يَقْدر أَحَدٌ منهم علىٰ فعلِ شيء من ذلك، بل اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو المُستقِلُّ بالخَلْق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] أي: تَعالَىٰ وتَقدَّس وتَنزَّه وتَعاظَم وجَلَّ وعَزَّ عن أن يكون له شريكٌ أو نظيرٌ أو مُسَاوٍ».

---

(١) تفسير القرآن (٢/ ٣٨١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٠٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٧، ٩٨).

والآيات الكونية كلها دالةٌ علىٰ عظمة الله، وربوبيته، ووجوب إفراده وحده بالألوهية والعبودية، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٢، ٦٣].

وبشهود ربوبية الله، وخَلْقه، وأَمْره، وآثار صفاته، تَحقَّق المسلمون بأنه لا إله إلا الله، وانتفاء وجود الشريك، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٩٢٧هـ)[١]: «احتجَّ عليهم مُوبِّخًا، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أفاللهُ الذي هو رقيبٌ علىٰ كلِّ نَفْسٍ، يَعْلم خيرَها وشرَّها، وجوابه محذوفٌ تقديره: كمَن ليس كذلك، وهي أصنامكم؟

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد: ٣٣] المعنىٰ: أفمَن له القدرة والوحدانية، ويُجعل له شريكٌ، أهلٌ أن ينتقمَ ويعاقِبَ أَمْ لا؟ والأَنْفُس من مخلوقاته، وهو قائمٌ علىٰ الكل.

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٣/ ٤٩٦، ٤٩٧).

﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ بَيِّنُوا شركاءكم بأسمائهم وصفاتهم حتىٰ نَعْرِفَ هل يجوز أن يعبدوا.

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: تخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنه لا يَعْلم لنفسه شريكًا.

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ أي: تسمونهم شركاء من غير أن يكون لذلك حقيقة».

وقد أمرنا الله بتدبر آثار صفاته، فقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن ظهور أثر هذه الصفة -الرحمة- في الوجود كظهور أثرِ صفةِ الربوبية والمُلْك والقدرة؛ فإنَّ ما لله علىٰ خَلْقه من الإحسان والإنعام شاهِدٌ له بالربوبية التامة الكاملة، وما في العالَم من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهِدٌ بمُلْكِه سبحانه».



(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٧٩).

قال المصنف رحمه الله:

وقد عُلم أن طريقة سلف الأُمَّة وأئمتها: إثبات ما أَثْبته من الصفات، من غير تكييفٍ ولا تمثيل، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيل(١).

الشَّرح

أسماء الله وصفاته ﷻ صفاتُ كمالٍ، فإثباتُها علىٰ ظاهرها من غير إبطالٍ وتعطيلٍ لمعانيها، ومن غير تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين، توحيدٌ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وسلفُ الأُمَّة آمَنوا بما وَصَف الله به نفسه كما أخبرهم الله ﷻ عن نفسه، وكما أخبر عنه رسوله ﷺ.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن مَن مضىٰ من الأُمَّة لم يزالوا يقولون في ذلك كما قال الله ﷻ، لا يَعْرِفُون له تأويلًا غير ما يُتلىٰ من ظاهره».

وإنكار صفات الله ﷻ تكذيبًا أو تحريفًا، هو في حقيقته إنكارٌ لذات الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إن جحود صفاته مُستلزِمٌ لجحود ذاته».

وقال سيِّدُ الحنفاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُنكِرًا علىٰ قومه عبادة الأصنام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

---

(١) التدمرية (ص٧).
(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص١٥٤).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١).

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)(١): «أيُّ خيرٍ عند مَن لا ينطق، ولا ينفع، ولا يضر؟!

فإنما يَدُور الجَهْمِيُّ في كلامه واحتجاجه على إبطال صفات الله، ليُبْطِلَ موضع الضُّر والنفع والمنع والعطاء، ويأبىٰ الله إلا أنْ يُكذِّبَه ويَدْحَض حُجَّته».

والمشركون اتخذوا الأصنام شركاء مع الله، رجاءَ نفعِهم ونَصْرِهم، وما أغنت عنهم آلهتهم التي يَدْعُون من دون الله.

ويومُ القيامة يَظْهر غبنُ المشركين أكثر، حيث لا تملك لهم آلهتهم نفعًا ولا شفاعةً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤]، تَقْريعٌ لهم وتَوْبِيخٌ علىٰ ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم -إنْ كان ثَمَّ معاد-، فإذا كان يوم القيامة تَقطَّعت بهم الأسباب، وانزاح الضَّلال، وضَلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون، ويناديهم الرب جل جلاله علىٰ رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ويُقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧٧، ٥٧٨).

شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: في العبادة لهم، فِيكُمْ قِسْطٌ في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] قُرئ بالرفع، أي: شملكم، وبالنصب، أي: لقد تقطَّع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: ذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] من رجاء الأصنام والأنداد».

وتوحيد الأسماء والصفات هو الأساس لتوحيد العبودية، فالمسلمون يعبدون الله وحده لكمال نُعُوته وصفاته، وتفرُّدِه بذلك، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال تعالىٰ في بيان اختصاصه بهداية خَلْقه إلىٰ الحق: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الذي يَهْدي إلىٰ الحق مطلقًا هو الله تعالىٰ، والذي لا يَهْدي صفةُ كلِّ مخلوق».

والله ﷻ إنما أخبرنا عن صفاته لنتألَّه له وحده؛ لأنها صفاتُ كمالٍ، ليست لغيره، والله ﷻ تَمدَّح نَفْسه بذِكْرِها، لنُثْنِي عليه بها، وليُؤْمِن المسلمون بحقائقها، فيَدْعُون ربَّهم ويعبدونه حبًّا ورجاءً وخوفًا، وليزدادوا تحقُّقًا وإيمانًا بأنّ الله ليس كمثله شيء.

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٣/ ٤٨٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ذَكَر سبحانه من صفات كماله وعُلُوِه علىٰ عَرْشِه، وتكلُّمه وتكلِيمه، وإحاطة عِلْمه، ونُفُوذ مشيئته، ما هو مُنْتَفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدلِّ دليلٍ علىٰ بطلان إلهيتها وفسادِ عِبادتها.

ويَذْكُر ذلك عند دعوته عباده إلىٰ ذِكْره وشُكْره وعِبادته، فذَكَر لهم من أوصاف كماله ونُعُوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلىٰ المبادرة إلىٰ دعوته والمسارعة إلىٰ طاعته.

ويَذْكُر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم؛ لتَعْرِفَ القلوب مَن تخافه وترجوه.

ويَذْكُر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقَلَّ أنْ تَجِدَ آيةَ حُكْمٍ من أحكام المُكلَّفِين إلا وهي مُختَتَمةٌ بصفةٍ من صفاته أو صفتين، وقد يَذْكُر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

فيَذْكُر صفاته عند سُؤَالِ عِباده لرسوله ﷺ عنه، ويَذْكُرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتىٰ إنَّ الصلاة لا تنعقد إلا بذِكْرِ أسمائه وصفاته، فذِكْرُ أسمائه وصفاته رُوحُها وسِرُّها يَصْحَبها من أوَّلِها إلىٰ آخِرها؛ وإنما أَمَر بإقامتها ليُذْكَرَ بأسمائه وصفاته.

وأَمَر عِباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته، ففتح لهم باب الدعاء رغبًا ورهبًا ليَذْكُرَه الداعي بأسمائه وصفاته فيَتوسَّل إليه بها، ولهذا كان أفضل الدعاء ما تَوسَّل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]».

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٩٣-٢٩٤).

ومن أعظم ما ضَلَّ المُعَطِّلةُ في نَفْيه أو تحريفه من صفات الله ﷻ: الصفات الخبرية، ومن ذلك: صفة المحبة، والضحك، والغضب، والعجب، والفرح، وغيرها.

وهذه الصفات معانيها ما دَلَّتْ عليه ألفاظُها من غير تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين، فكما نُثْبِتُ صفات: السمع، والبصر، والعلم، والحياة لله ﷻ، كذلك نُثْبِتُ له ما وَرَد في الوحي، من صفات الضحك، والعجب، والفرح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ليس في آيات الصفات وأحاديثها مُجْمَلٌ يحتاج إلىٰ بيانٍ من خارجٍ، بل بَيانُها فيها، وإن جاءت السُّنة بزيادةٍ في البيان والتفصيل».

وقال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، فهذا الناطق من كتاب الله يُستَغنَىٰ فيه بظاهر التنزيل عن التفسير، وتَعْرِفه العامَّة والخاصَّةُ، غير هؤلاء المُلْحِدين في آيات الله الذين غالطوا فيها الضُّعفاء، فقالوا: نُقِرُّ بها كُلِّها. لأنَّها مذكورة في القرآن، لا يُمْكِن دَفْعُها، غَيْرَ أنَّا لا نقول: «يحب، ويرضىٰ، ويغضب، ويَسْخط، ويَكْره»».

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عرفوا معاني تلك الصفات، وأَمَرُّوها كما جاءت، ولَمْ يستشكلوها، ولذلك لَمْ يسألوا النبي ﷺ عنها، فنَفْيُها تكذيبًا أو تحريفًا لمعانيها مُشاقَّةٌ لسبيل المؤمنين السابقين الأوَّلين.

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٢).
(٢) النقض علىٰ بشر المريسي (ص٦٤٥).

والعلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أثبت صفات الله، من السمع، والبصر، والرضا، والضحك، والكلام، قال[1]: «مَن كذَّب بهذا، أو ردَّه، أو شكَّ فيه، أو طَعَن علىٰ راويه، فقد أعظم الفِرية علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ».

وأَظْهرَ علماءُ المسلمين الناصحين بُطْلانَ تأويلات المُبتدِعين؛ بمخالفتها دلالة ألفاظ القرآن والسُّنة، وبمخالفتها لتفسير الصحابة والتابعين.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «يُقال لهذا المُعارِض المُفترِي علىٰ الله: قد فَسَّرتَ هذه الآية علىٰ خلاف ما عَنَىٰ الله، وفَسَّرها رسولُه ﷺ، وعلىٰ خلاف ما فَسَّرها أصحابُه، قد رَوَيْنا تفسيرها عنهم في صدرِ هذا الكتاب بأسانيدها المعروفة المشهورة، علىٰ خلاف ما فَسَّرتَ وادَّعيتَ عن هؤلاء المُفسِّرين.

فمَن مُفسِّروكَ؛ هؤلاء الذين تحكي عنهم أنهم قالوا: فيها كذا، وقال آخرون: فيها كذا؟ فمَن هؤلاء الأوَّلون والآخِرُون؟ فاكشفْ عن رؤوسهم، وسَمِّهم بأسمائهم؛ فإنكَ لا تكشف إلا عن زِنْدِيقٍ، أو جَهْمِيٍّ لا يُؤْمِن بالله ولا باليوم الآخِر، ولا يُحكَمُ لكَ بتفسير هؤلاء المُعَنْعِنِين علىٰ تفسير هؤلاء المَكْشُوفِين الذين سَمَّيناهم لكَ من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين.

أصحاب التفسير معروفون من أصحاب النبي ﷺ والتابعين عند الأُمَّة، مثل: ابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وأُبَيّ بن كعب، ونظرائهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) الشرح والإبانة علىٰ أصول السنة والديانة (ص٢١٢، ٢١٣).
(٢) النقض علىٰ بشر المريسي (ص٤٩٧، ٤٩٨).

ومن التابعين، مثل: سعيد بن جبير، ومجاهد، وأبي صالح الحنفي، والسُّـدِّيِّ، وقتادة، وغيرهم، فعن أَيِّهِمْ تحكي هذه التفاسير التي تَرْويها علىٰ رب العالمين؛ فإنَّا لمَّا وجدناهم مُخالِفِين لِمَا ادَّعيتَ علىٰ الله في كتابه، أَتَيْنَاكَ بها عنهم في صدر هذا الكتاب، منصوصةً مُفَسَّرَةً».



قال المصنف رحمه الله:

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه -مع ما أثبته من الصفات- من غير إلحادٍ، لا في أسمائه ولا في آياته، فإنَّ الله ذمَّ الذين يُلْحِدُون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

الشَّرْح

الإلحاد: لغةً: هو المَيْل، قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أصلُ الإلحاد في كلام العرب: العُدُول عن القصد، والجَوْرُ عنه والإعراض. ثم يُسْتَعْمَلُ في كل مُعْوَجٍّ غيرِ مستقيمٍ، ولذلك قيل لِلَحْدِ القبر: لَحْدٌ؛ لأنه في ناحيةٍ منه، وليس في وسطه. يُقال منه: أَلْحَدَ فلانٌ يُلْحِدُ إلحادًا. ولَحَدَ يَلْحَدُ لَحْدًا ولُحُودًا».

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠]: الإلحاد: وَضْع الكلام على غير مواضعه[3].

وقال قتادة: هو الكفر والعناد[4].

(١) التدمرية (ص٧).
(٢) جامع البيان (١٠/ ٥٩٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٣١).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٣١).

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أمَّا قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فإنه يعني به المشركين.

وكان إلحادهم في أسماء الله أنهم عَدَلُوا بها عمَّا هي عليه، فسَمَّوْا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها اللَّاتَ، اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو الله، وسموا بعضها العُزَّىٰ، اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو العزيز».

فالنصوص الواردة في القرآن والسُّنة من الأخبار عن أسماء الله وصفاته، تصديقُها إيمانٌ، وتكذيبُها وتحريفُها عن ظاهرها كفرٌ وإلحاد.

فالمسلمون يتألَّهُون لله بمعاني أسمائه وصفاته، فيتوجهون إليه، ويعبدونه بحقائق ما آمَنوا به من صفاته، والمُلحِدُون في صفاته تكذيبًا أو تحريفًا ما ﴿قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الله تعالىٰ عظيمٌ، له كلُّ وصفٍ ومعنىٰ يوجب التعظيم، بحيث لا يَقْدر إنسانٌ ولا مخلوق أن يحصي الثناء علىٰ الله بعظمته.

ومعاني التعظيم نوعان: **أحدهما**: أنه تعالىٰ موصوف بكلِّ صفةِ كمالٍ، وله من ذلك الكمال الذي وُصف به أكملُه وأعظمُه وأَجَلُّه، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة، حتىٰ إن من عظمته أن السماوات والأرض في كفِّ الرحمن كالخردلة في يد المخلوق، كما قال ذلك ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وقال تعالىٰ:

(١) جامع البيان (١٠/ ٥٩٦).

(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٣٨، ٣٩) باختصارٍ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

النوع الثاني من معاني عظمته تعالىٰ: أنه لا يستحق أَحَدٌ التعظيم من الخَلق غَيْرَه تعالىٰ، فيستحق علىٰ العِباد أن يُعظِّموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه: أنْ يُطاعَ فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر. ومن تعظيمه وإجلاله: أن لا يُعترض علىٰ شيءٍ ممَّا خَلَقَه أو شَرَعه، بل يخضع لحكمته، وينقاد لحكمه».

والمُكذِّب بأخبار الله عن أسمائه وصفاته والمُحرِّف لمعانيها، تَوَعَّده اللهُ بوعيده؛ لإلحاده.

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ليس بأمرٍ من الله لنبيه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك حتىٰ يَأْذَنَ له في قتالهم؛ وإنما هو تهديدٌ من الله للمُلْحِدِين في أسمائه ووعيدٌ منه لهم، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]، وكقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦].

وهو كلامٌ خَرَج مَخْرَج الأمر بمعنىٰ الوعيد والتهديد، ومعناه: إنْ نُمْهِل الذين يُلْحِدون -يا محمد- في أسماء الله إلىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوه، فسوف يُجْزَوْن -إذا جاءهم

(١) جامع البيان (١٠/ ٥٩٩).

أَجَلُ الله الذي أَجَّلَهم إليه- جزاءَ أعمالهم التي كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه، وتكذيب رسوله ﷺ».

قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وَجْهُ الإلحاد فيها: أنه لمَّا أثبتها الله لنفسه، وجب علينا أن نُثْبِتَها له، فإذا نفيناها كان إلحادًا ومَيْلًا بها عمَّا يجب فيها».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيه حثٌّ علىٰ عبودية الله بحقائق أسمائه وصفاته الحسنىٰ، وهذا المعنىٰ دَلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، وهو عامٌّ لنوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فالتألُّه لله بحقائق أسمائه وصفاته هو الدِّين كله، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فمَن تألَّه لله محبةً وتعظيمًا وإجلالًا عَبدَه بشرعه الذي بَعَث به رسولَهُ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيه حثٌّ علىٰ الثناء علىٰ الله وحده بكمال صفاته.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن المحامد والمدائح والنُّعُوت الجليلة الجميلة أوصافٌ لله تعالىٰ، فله كلُّ صفةِ كمالٍ، وله من تلك الصفة أكملُها وأعظمُها.

(١) شرح العقيدة الواسطية (١/ ١٢٠).
(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٥١).

فكلُّ صفةٍ من صفاته يستحق عليها أكملُ الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المُقدَّسة، فله تعالىٰ الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته؛ لأنها كلها مدائح وكمالات، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين الفضل والإحسان وبين العدل والحكمة».

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠] وعيدٌ إلهي، وهو زَجْرٌ عن الإلحاد في آيات الله الكونية والشرعية.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن آيات الله الكونية[(١)]: «الإلحاد فيها أن ينسبها إلىٰ غير الله استقلالًا، أو مشاركةً، أو إعانةً».

فالتوحيدُ: إثباتُ ربوبية الله وحده لكل مخلوق، وإثبات أسماء الله وصفاته، وعبودية الله وحده لا شريك له، وشُكْره سبحانه هو حقيقة عبوديته.

قال تعالىٰ: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٩٢٧هـ) [(٢)]: «﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ التي عَدَّدها عليهم. ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، بعبادة غير الله».

فالواجبُ: توحيد الله في ربوبيته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وألوهيته، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (١/ ١٢٥).

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ٤٧).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من أحكام الأمر والنهي: أن شريعة نبينا محمد ﷺ صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكلُّ وقتٍ ومحلٍّ يُحتاج إليها فيه، بل لا تصلح الدنيا والآخرة إلا بالعمل بها، ولهذا كانت من أعظم الأدلة على كمال مَن أَنْزَلها، وعِلْمه، وحكمته، وصِدْق رسوله ﷺ».

فالحاصل: أنَّ كلَّ اعتقادٍ مائلٍ عن الحق في أسماء الله ﷻ وصفاته، هو إلحادٌ فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تأويل التحريف من جنس الإلحاد؛ فإنه هو المَيْل بالنصوص عمَّا هي عليه: إما بالطعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلَفْظِها.

وكذلك الإلحاد في أسماء الله تارةً يكون بجَحْد معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بإنكار المُسمَّىٰ بها، وتارةً يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها، فالتأويل الباطل هو إلحادٌ وتحريفٌ وإنْ سَمَّاه أصحابه تحقيقًا وعرفانًا وتأويلًا».



(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٧٦).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧).

قال المصنف رحمه الله:

فطريقتهم تتضمَّن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتًا بلا تشبيهٍ، وتنزيهًا بلا تعطيلٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. ففي قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ ردٌّ للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ردٌّ للإلحاد والتعطيل[1].

الشَّرْح

شَرَح شيخ الإسلام ابن تيمية اعتقاد السلف في توحيد الله في أسمائه وصفاته؛ لأنهم خير القرون كما قال النبي ﷺ: «**خيرُ الناس قَرْنِي، ثُمَّ الذين يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم**»، مُتفقٌ عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولأنَّ الله جعل رضاه في اتباع السابقين الأوَّلين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وذَكَر شيخ الإسلام اعتقاد السلف ليتبيَّنَ المُسلِمُ وعيدَ المُشاقّ لهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وأولُ مَن أَنْكَر ما وَصَف الله به نفسه هو الجَعْد بنُ دِرْهَم، وتَبِعَه علىٰ ذلك الجَهْم بنُ صَفْوَان، والصحابة رضي الله عنهم أَدَّوْا إلينا ألفاظ القرآن كما تَلَقَّوا ذلك عن رسول الله ﷺ، ومعلومٌ أنهم أَدَّوا معانيه إلىٰ التابعين، وأثبتوا نصوص الصفات علىٰ ظاهرها، ولمْ يُحرِّفوها، ولمْ يَنْهَوا عن اعتقاد ظاهرها.

---

(١) التدمرية (ص٨).

والتابعون الذين تلقوا معاني التفسير من الصحابة أَمَرَّوا نصوص الصفات كما جاءت، وفَسَّرُوا معانيها بظاهر ألفاظها، ومن المنقول عنهم في ذلك: تفسير مجاهد وأبي العالِيَة للاستواء بالعلو.

والإجماعُ عن التابعين بالإيمان بصفات ربِّ العالمين معلومٌ، نَقَله عنهم منطوقًا أتباعُ التابعين، قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله في السماء، ونُؤْمِن بصفاته».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «اتفقتْ كلمتهم -الصحابة- والتابعين بَعْدَهُم على إقرارها وإمرارها، مع فَهْم معانيها وإثباتِ حقائقها».

وتَوارَثَ الأئمةُ من بعد التابعين عقيدة القرون المُفضَّلَة، وأَثْبَتُوا صفات الله ﷻ كما جاءت على ظاهرها، من غير تعطيلٍ ولا تمثيلٍ ولا تفويضٍ لمعانيها، قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة».

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «صَدَق مالِكٌ، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء».

وقال الوليد بن مسلم: «سألتُ مالكًا، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد عن أحاديث الصفات، فقالوا كلهم: أَمِرُّوها كما جاءت».

قال العلَّامة أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٦٠هـ)[٣]: «إن أهل الحق يصفون الله ﷻ بما وَصَف به نفسه ﷻ، وبما وَصَفه به رسولُ الله ﷺ،

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).
(٢) الرد على الجهمية (ص٣٣).
(٣) الشريعة (٢/ ١٠٥١).

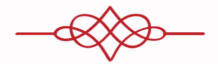
وبما وَصَفه به الصحابةُ ﷺ. وهذا مذهب العلماء ممَّن اتَّبع، ولمْ يبتدع».

وقال العلَّامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)[١]: «أصحاب الحديث -حَفِظ الله تعالىٰ أحياءهم ورَحِم أمواتهم- يشهدون لله تعالىٰ بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويَعْرِفُون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وَحْيُه وتنزيله، أو شَهدَ له بها رسوله ﷺ، علىٰ ما وردتِ الأخبارُ الصِّحَاح به، ونقلتِ العُدولُ الثقات عنه، ويُثْبِتُون له جل جلاله ما أَثْبَته لنفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خَلْقه».

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الكلام في صفات الله ﷻ: ما جاء منها في كتاب الله أو رُوِيَ بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله ﷺ، فمذهبُ السلف إثباتُها وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونَفْيُ الكيفية عنها، فهذا إجماعٌ معلومٌ مُتيقَّنٌ عند جميع أهل السُّنة والحديث».

فعلماء الأمصار المُتَّبِعُون للسلف كلُّهم يَصِفُون اللهَ بما وَصَف به نفسه وبما وَصَفه به رسولُه ﷺ.

قال العلَّامة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «نحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا: أنَّا نُثْبِت ما أَثْبَته اللهُ لنفسه، نُقِرُّ بذلك بألسنتنا، ونُصَدِّق ذلك بقلوبنا».



(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٦٠، ١٦١).
(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).
(٣) التوحيد (١/ ٦٢).

قال المصنف رحمه الله:

والله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، قال أهل اللغة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: نظيرًا يستحق مثل اسمه، ويقال: مساميًا يساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثلًا أو شبيهًا؟

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فسبَّح نفسه عمَّا يصفه المفترون المشركون، وسلَّم على المرسلين؛ لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه؛ إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات[1].

(١) التدمرية (ص٨-١٠).

الشَّرح

نصوص القرآن جاءت بذِكْر أسماء الله ﷻ مُفصَّلة؛ لأنها صفاتُ كمالٍ تَمدَّح اللهُ بها نَفْسَهُ، وهي دالَّةٌ علىٰ معانٍ عظيمة من نُعُوتِ ربِّ العالمين، وذِكْرُها مُفصَّلةً ثناءٌ علىٰ الله، ومن أسباب تألُّهِ المُوحِّدِين لله باعتقاد حقائقها.

وقد أَعْلَمَنا اللهُ في كتابه مُفصَّل معاني أسمائه وصفاته بذِكْرِ ما تتضمنه الأسماء والصفات العظيمة من تفاصيلها، وفي هذا تبيينٌ لوجوب اعتقاد معاني صفات الله مُفصَّلة، ومن ذلك: أنه سبحانه ذَكَر لنا ما تتضمنه صفة الخَلْق من معاني الإرادة والعلم والقدرة، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وأَمَرنا الله ﷻ أن نُثْبِتَ له كل صفاته، وننفي عنه المماثلة وصفات النقص، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اسمه «الأحد» دلَّ علىٰ نَفْي المشاركة والمُمَاثَلة، واسمه «الصمد» دلَّ علىٰ أنه مستحق لجميع صفات الكمال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن صفات التنزيه يجمعها هذان المَعْنَيان المذكوران في هذه السورة:

أحدهما: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمَن ثبَتَ

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٥٧).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٥٩).

له الكمال التام انتفىٰ النقصان المضاد له، والكمالُ من مدلولِ اسمِه «الصَّمد».

والثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة، وهذا من مدلول اسمه «الأحد».

فهذان الاسمان العظيمان: «الأحد، والصمد»، يتضمنان تنزيهه من كل نقصٍ وعَيْب، وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثِلٌ في شيء منها، واسمه «الصمد» يتضمَّن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمَّن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونَفْي جميع صفات النقص، فالسورة تضمَّنتْ كلَّ ما يجب نفيه عن الله، وتضمَّنتْ أيضًا كلَّ ما يجب إثباته».

وذَكَر اللهُ صفات جلاله في القرآن مُفصَّلةً ليَدْعُو الخَلق إلىٰ معرفته وتوحيده وعبوديته بمقتضىٰ ذلك، وأخبرنا الله أن من الإيمان به: العلم بصفاته، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذَكَر سبحانه من صفات كماله، وعُلوِّه علىٰ عرشه، وتكلُّمه وتكليمه، وإحاطة عِلْمه، ونفوذ مشيئته، ما هو مُنتفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدلِّ دليلٍ علىٰ بُطْلان إلهيتها وفساد عبادتها.

ويَذْكُر ذلك عند دعوته عِباده إلىٰ ذِكْره وشُكْرِه وعبادته، فذَكَر لهم من أوصافِ كماله ونُعُوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلىٰ المبادرة إلىٰ دعوته والمسارعة إلىٰ طاعته.

ويَذْكُر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم لتَعْرِف القلوب مَن تخافه وترجوه.

ويَذْكُر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقلَّ أنْ تَجِدَ آيةَ حُكْمٍ من

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٩٣-٢٩٤).

أحكام المُكلَّفِين إلا وهي مختتمة بصفةٍ من صفاته أو صفتين، وقد يَذْكُر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]».

وحثّنا النبي ﷺ على حفظِ أسماء الله الحسنى، وفِقْه معانيها، والتألُّهِ لله بحقائقها؛ ليكون ذلك من أسباب دخولنا الجَنَّة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لله تِسْعٌ وتسعون اسمًا، مَن أَحْصَاها دَخَل الجَنَّة**».

إثبات صفات الكمال لله ﷻ والإيمان بها دلَّتْ على بُطْلانِ الآلهة التي عَبَدها المشركون، فهي معبوداتٌ ناقصة ليست فيها أوصاف الكمال، وهي مَرْبُوبَة لله.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «قال تعالى في آلهة المشركين المُعطّلين: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فجَعَل سبحانه عدم البطش والسمع والمشي والبصر دليلًا على عدم إلهية مَن عُدمت منه هذه الصفات.

وقد وَصَف سبحانه نفسه بضدِّ صفةِ أوثانهم، وبضدِّ ما وَصَفه به المُعطِّلة والجَهْمِيّة، فوَصَف نفسه بالسمع، والبصر، والفعل باليدين، والمجيء، والإتيان، وذلك ضد صفات الأصنام التي جَعَل امتناع هذه الصفات فيها دليلًا على عدم إلهيتها.

فتأمَّلْ آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفنُّنِها واتساعها وتنوِّعها، تَجِدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المُتفرِّد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيهٌ ولا مِثالٌ».

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ومعرفةُ مُفصَّل أسماء الله وصفاته، والمنفي عنه من صفات النقص هو من أسباب التوحيد، وبُطْلان الشرك وقَطْعِ أسبابه، وبذِكْر صفات الله أقام الله براهين توحيده، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وهكذا معرفة اسم الله «القاهر» وصفةُ قَهْره لكلِّ المخلوقات، تنفي الشرك عن الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فكلُّ الخلائق تحت قَهْرِ الله، يجري فيهم أَمْرُه وقضاؤه، وَهُمْ مَرْبُوبُون مقهورون لله.

والموحدون بما شهدوا من صفات كمال الله صاروا دعاةً لتوحيده، فقد شهد المسلمون بقيام الله بالقِسْط، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالمسلمون إنما وحَّدُوا الله بما أثبتوه له من صفات الكمال، وأَفْرَدُوه بالألوهية والعبودية بسبب ذلك، وأمَّا المشركون فما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه بشركهم، وأثبتوا له صفات النقص.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]،

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وحقيقة الشرك تسويةُ الخالق بالمخلوق، وصَرْفُ حقِّ الله الخالص لغيره، وكل ذلك لا يكون إلا عن جهلٍ بالله.

واللهُ أَمَرنا بالعلم بألوهيته وما يُحقِّقُ توحيدَهُ، ولذلك يجب علينا: معرفةُ ما أَثْبته الله لنفسه، وما نفاه عن نفسه، واعتقادُ ذلك، والتعبد لله بحقائقه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] والمُثبِتُ لله ﷻ صفات الكمال هو الذي عَلِم أنه لا إله إلا الله، وأنه ليس كمثله شيء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الموصوف بهذه الصفات، والأفعال، والعلو، والعظمة، والحفظ، والعِزَّة، والحكمة، والمُلْك، والحمد، والمغفرة، والرحمة، والكلام، والمشيئة، والولاية، وإحياء الموتىٰ، والقدرة التامة الشاملة، والحُكْم بين عباده، وكونه فاطر السماوات والأرض، وهو السميع البصير، فهذا هو الذي ليس كمثله شيء؛ لكثرة نُعُوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها علىٰ وجهِ الكمال الذي لا يماثله فيه شيء».

واللهُ خاطبنا في القرآن بإثبات صفاته تفصيلًا؛ لنُحقِّقَ عبوديته، ونتألَّه له بحقائق صفاته، فنعبده محبةً ورغبةً وخوفًا، قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٤).

وأخبرنا اللهُ بصفاته الموجبة لدعائه وعبادته وحده، حيث كان الشركاء مُعطَّلِين عن كمال الرب الذي يجيب مَن دَعَاه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

واللهُ ﷻ ذَكَر لنا صفاته؛ لنتبيَّنَ تفرُّدَه بالكمال الموجب لعبادته، ولنتبيَّنَ ضَلال وخسارة مَن كَفَر به أو أشرك معه غيره.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يخبر تعالىٰ أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومَلِيكها، والمُتصرِّف فيها، وكلٌّ تحت تدبيرِه وقَهْرِه وكلاءَتِه».

وقال ابن كثير[(٢)]: «قال السُّدِّيُّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السماوات والأرض، والمعنىٰ: أن أَزِمَّة الأمور بيده ﷻ، له المُلْك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير».

واستدلَّ سَيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بصفات الله علىٰ وحدانيته، قال العلَّامة أبو القاسم هبة الله الطبري اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٤١٨هـ)[(٣)]: «استدلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأفعاله المُحْكَمَة المُتْقَنَة علىٰ وحدانيته بطلوع الشمس وغروبها، وظهور القمر، وغيبته، وظهور الكواكب وأُفُولها».

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٦٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٦٥)، باختصار.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٢١٨، ٢١٩).

واستدلَّ النبي ﷺ لإسلام المؤمن بما يُثْبِته من أسماء الله وصفاته، فإنه سأل جارية معاوية بن الحَكَم السُّلَمِي: «أين الله؟» قالت: في السماء، ثم قال لها: «مَن أنا؟» قالت: رسول الله، قال لمولاها: «أَعْتِقها فإنها مُؤْمِنة»، رواه مسلم.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله[1]: «هذا دليلٌ على أنَّ الرَّجُل إذا لَمْ يَعْلم أن الله ﷻ في السماء دون الأرض، فليس بمؤمن».

وقيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله: بماذا نَعْرِف ربَّنا؟ قال: «بأنه فوق سماواته، على عرشه، بائِنٌ من خَلْقه»، رواه عبد الله بن أحمد في السُّنة بإسنادٍ صحيح[2].

وأمَّا ما نفاه الله عن نفسه في القرآن؛ فإنه في أكثره نفيٌ مُجْمَلٌ، والمقصود منه: تنزيه الله عن النقائص.

وإثبات المسلم حقائق أسماء الله وصفاته مُفصَّلة، ونَفْي صفات النقص عنه، يكون ذلك تحقيقٌ لتوحيد الله بإثبات كماله ونَفْي المِثْل له، فتكون قلوب المُوحِّدِين قد تألَّهتْ لله بأَحَدِيَّته ونَفْي النظير له.

قال ابن القيم رحمه الله[3]: «قام بقلوبهم -المُوحِّدِين- من فَهْمِ حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله سبحانه لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن: أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

(١) الرد على الجهمية (ص٢٢).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا مستفيض عنه، تلقاه أئمة الهدى بالقبول». بيان تلبيس الجهمية (١/ ١٠١).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٦٣).

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

ومعرفةُ المُفصَّل من مُجْمَل معاني أسماء الله وصفاته، زيادةٌ في الإيمان ومن أسباب تعظيم الله وإجلاله، فمَن عرفَ أنَّ الله يتكلم، وأن كلماته نوعان: قدرية وشرعية، وازداد عِلْمُه بكلمات الله بما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، ازداد تعظيمًا لله وتألُّهًا لله، وكان اعتقاده بكمال الله يقينيًّا.

وانظر إلىٰ فَرْقِ ما بين معرفتنا بصفة كلام الله وبين معرفة الملائكة: فمعرفتنا لكلام الله بما بَلَّغَهُ إلينا رسولُه ﷺ، ومعرفة الملائكة له عن سماعٍ، فإذا تكلَّم اللهُ بالوحي صعقتِ الملائكةُ وخضعت لعظمة الله.

وعلماء السُّنة شرحوا معاني أسماء الله الحسنىٰ، وبَيَّنُوا ما في الأسماء من المعاني الجامعة، من ذلك: اسم «القَيُّوم» الدال علىٰ كل صفات الله الفعلية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم علىٰ كل شيء، وقائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت، وأنه تعالىٰ هو القائم بنفسه، المُقيم لغيرِه، القائم عليه بتدبيره، وربوبيته، وقَهْره، وإيصال جزاء المُحْسِن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه لكمال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويَرْفعه، يُرفع

(١) طريق الهجرتين (١/ ٩١).

إليه عملُ الليل قبل النهار وعملُ النهار قبل الليل، لا تأخذه سِنةٌ ولا نومٌ، ولا يَضِلُّ ولا يَنْسىٰ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح اسم الله «الكريم»[(١)]: «الاسم «الكريم» يتناول معاني منها: الجُود؛ فإنَّ فيه معنىٰ الشرف، والسُّؤْدُد، ومعنىٰ الحِلْم، وفيه معنىٰ الإحسان».

ويَقْرِن الله ﷻ بين أسمائه الحسنىٰ؛ لأنه بمعرفة كلِّ نُعُوته التي أخبرنا بها يَظْهَر بها كمالُه وعظمته أكثر، فيزداد المؤمنون إيمانًا وتألهًا لربهم، من ذلك: اقتران اسم الله «العَلِي» مع اسمه «العظيم».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يفيده اقتران هذين الاسم[(٢)]: «معرفة إحاطة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعالَم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠].

ولهذا يَقْرِن سبحانه بين هذين الاسمين الدَّالَّيْن علىٰ هذين المعنيين: اسم العلو الدال علىٰ أنه الظاهر، وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال علىٰ الإحاطة، وأنه لا شيء دونه[(٣)]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٣٨).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٤٢).

(٣) قال ابن القيم: «ظهر علىٰ كل شيء وكان فوقه، فبطن مكان أقرب إلي كل شيء من نفسه، وهو محيط به» طريق الهجرتين (١/ ٤٢، ٤٣).

فنصوصُ الوحي أخبارها في إثبات أسماء الله وصفاته تفيد وصفه بصفات الكمال، وتنزيهه عن النقائص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الصفات نوعان: إثباتٌ ونَفْيٌ، فصفات الإثبات كالحياة والعلم والقدرة، والنفي تنزيه الرب تعالىٰ عن الشركاء والأولاد وسائر النقائص.

وطريقة القرآن في ذلك إثبات صفات الكمال لله تعالىٰ علىٰ وجه التفصيل، مع تنزيهه عن التمثيل.

والتنزيه يجمعه نوعان: **أحدهما**: أنه مُنزَّه عن النقائص مطلقًا، ونفسُ ثبوتِ الكمال له ينافي النقص.

الثاني: أنه مُنزَّه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال.

ولهذا كان مذهبُ سلفِ الأُمَّة وأئمتها أنهم يَصِفُون الله تعالىٰ بما وَصَف به نفسه وبما وَصَفه به رسوله ﷺ، من غير تكييفٍ ولا تمثيل، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيل، إثباتٌ بلا تمثيلٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وهذا إبطالٌ للتمثيل، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وهذا إبطالٌ للتعطيل».

وإثباتُ كمالِ صفاتِ اللهِ وتنزيهه عن النقائص هو من معنىٰ (لا إله إلا الله)؛ فإنَّ كلمة التوحيد حقيقتها: إثبات الألوهية الحَقَّة لله، والكفر بالآلهة الباطلة سواه، والألوهية الحقة إثبات صفات الكمال لله، ونَفْي النقائص عنه.

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٣٢، ٤٣٣).

ومَقامُ خيرِ البَرِيَّة في الثناء على الله بإثبات صفاتِ كمالِه وتنزيه عن النقائص معلومٌ؛ فإنه إذا قام يُصلِّي يقول في استفتاحه بعد تكبيرة الإحرام: «**لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، الخير في يديكَ، والشرُّ ليس إليكَ**»، رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهكذا يجب على كل مسلم تحقيق توحيده بإثبات أسماء الله وصفاته، وتنزيهه عن كل نقصٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن التوحيد نقيضه الإشراك بالله تعالى والتمثيل له بخَلْقه».

وصَدَق شيخ الإسلام، ويدلُّ لقوله حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَخْنَعُ اسمٍ عند الله: رَجُلٌ تَسمَّى بمَلِك الأملاك، ولا مالك إلا الله**»، رواه البخاري ومسلم.

وإثبات أسماء الله وصفاته هو من الإيمان بما تضمَّنته من أحسن المعاني، وهو من الثناء على الله بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «إن أسماء الرب تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حُسْنى؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالَّةً على مدحٍ ولا كمالٍ».

والمسلم يَذْكُر الله ويعبده بالأمرين جميعًا؛ بذِكْرِه بصفات الكمال، وبتنزيهه عن النقائص بتسبيحه.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٩).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٠).

وتأمَّلْ فائدة اقتران ذِكْر الله بالحمد والتسبيح؛ فإن الحمد هو وصفُ المحمود بصفات الكمال محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، والتسبيح هو تنزيه الله عن النقائص، فهذا اعتقاد المُوحِّدين العابدين لربهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن أسماءه تعالىٰ الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ هي موضع الحمد، ومن تمام حمده: تسبيحه وتنزيهه عمَّا وَصَفه به أعداؤه والجاهلون به ممَّا لا يليق به.

وكان في تنوُّعِ تنزيهه عن ذلك من العلوم، والمعارف، وتقرير صفات الكمال، وتكميل أنواع الحمد، ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه.

ولهذا كان تسبيحه تعالىٰ من تمام حمده، وحمده من تمام تسبيحه، ولهذا كان التسبيح والتحميد قَرِينَيْن».

فالمسلم يناجي ربَّه، بذِكْره وبالثناء عليه بما يَعْرفه من صفات كماله، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا أَحَد أَحَبُّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**»، رواه البخاري ومسلم.

فالمسلم إنما يُعظِّم جلال الله في قلبه إذا كان مؤمنًا بصفات كماله، مُثْبِتًا لها، ومُنزِّهًا لله عن صفات النقص، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السبعة الذين يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضَتْ عَيْناه**».

ولولا أن المسلمين يُثْبِتُون العلو لله، لَمْ يرفعوا أيديهم إلىٰ السماء يَدْعُون ربهم.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

والمُوحِّدون يُنزِّهون الله عن النقائص، والكافرون بضد ذلك ينفون عن الله كمال صفاته، ويصفونه بالنقائص، ويُشْرِكون به، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فالواجب علىٰ المُوحِّدين: إثبات كمال الله، وتنزيهه عمَّا يصفه به المشركون.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لمَّا اشتملت هذه السورة علىٰ ذِكْر ما قاله المشركون في الله ﷻ، ونسبوا إليه ما هو سبحانه مُنزَّه عنه، وما عاناه المُرسَلُون صلوات الله عليهم من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، خَتَمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عمَّا وَصَفه به المشركون، والتسليم علىٰ المُرسَلِين ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ ما قيَّض لهم من حُسْن العَواقب».

والكافرون والمشركون عاقبتهم النار؛ بما وَصَفوا الله من صفات النقائص وعبدوا غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «يُخْبِر تعالىٰ عن يوم القيامة: أنه تَسوَدُّ فيه وجوه وتَبيَضُّ فيه وجوه؛ تسود وجوه أهل الفُرقة، وتبيض وجوه أهل السُّنة والجماعة، قال تعالىٰ ههنا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكًا وولدًا، ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم».

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٤٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٦٤).

وشرُّ الخَلق مَن نفىٰ عن الله صفات كماله وأَثْبَت صفاته لمخلوقاته، فمَن اجتمع فيه ضَلَال الشرك والتعطيل فهو أضلُّ البشر.

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «كانت الجهمية والمعتزلة المُلْحِدة الضَّالة بإنكارهم مشيئة الله، وجَحْدهم قدرة الله، وتكذيبهم بصفاته، وإبطالهم لأسمائه كمَن سَلفَ من إخوانهم من صُنُوف الملحدة والمشركين ومن الوثنية الذين قالوا: إلَهَيْن وخالِقَيْن، أحدهما: يخلق الخير، والآخَر: يخلق الشر، حين أَكْذَبَهُمُ اللهُ بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١]».

وحقيقة التألُّه لله ﷻ لا تكون إلا بمعرفته، فالعلم بأسماء الله وصفاته الذاتية والفعلية هو الأساس لتوحيد الله وعبوديته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن الإله علىٰ الحقيقة هو الغني الصَّمَد الكامل في أسمائه وصفاته».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «مَشْهد الألوهية هو مشهد الحُنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العِباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات؛ ولذلك كان أكمل الخَلق فيه أعرفهم بالله وأسمائه وصفاته».

وكلَّما قَوِيَت معرفة المؤمن بربه ازداد شُكرًا وذِكرًا وعبوديةً لله رب العالمين، وازداد خشيةً وخوفًا ورجاءً ومحبةً لله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٩٢).

(٣) طريق الهجرتين (١/ ٩٢، ٩٣).

ومراتب الناس عند الله بحسب ما قَرَّبتهم معرفةُ الله من التألُّه له، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**معرفة الله سبحانه نوعان:**

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس؛ البَرُّ والفاجر، والمُطِيع والعاصي.

والثاني: معرفة تُوجِب: الحياء منه، والمحبة له، وتعلُّق القلب به، والشوق إلىٰ لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأُنْس به، والفرار من الخَلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصَّة الجارية علىٰ لسان القوم، وتفاوُتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عَرَّفهم بنفسه وكَشَف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكلٌّ أشار إلىٰ هذه المعرفة بحسب مقامه وما كُشف له منها، وقد قال أَعْرفُ الخَلق به: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أَثْنيتَ علىٰ نَفْسِكَ**»، وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يُحْسنه الآن».



(١) الفوائد (ص٢٤٨، ٢٤٩).

قال المصنف رحمه الله:

وأمَّا الإثبات المُفصَّل: فإنه ذَكَر من أسمائه وصفاته ما أنزله في مُحْكَم آياته، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الآية بكمالها، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1].

الشَّرْح

شَرَع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذَكَر ما يجب اعتقاده في أسماء الله وصفاته، بِذِكر أمثلة ممَّا وَرَد في القرآن من الأخبار عن أسماء الله وصفاته.

وأَوْلَىٰ وأفضل ما يجب ذِكْره وتعليمه في ذلك: مُدارَسة سورة الفاتحة، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص.

سورة الفاتحة هي أُمُّ القرآن، وهي السَّبْعُ المَثاني، وإليها ترجع معاني القرآن كله، وقد تضمَّنت الثناء علىٰ الله ودعائه.

فقد تضمَّنت سورة الفاتحة إثبات المحامد كلها لله وحده، وذِكر الرحمة، والربوبية، والمُلْك لله.

والحمدُ: هو وصفُ المحمود بصفات الكمال محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، فمَن حَمدَ اللهَ فقد ذَكَره بكل أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ، وهذا الحمد أَوْجَبه كمالُه.

---

(١) التدمرية (ص١٠).

قال وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الحمد لله: شُكْر لا إله إلا الله».

والحمد لله حقيقته: عبودية الله، فتوحيد الله هو إثباتُ صفاتِ كمالِه وعبوديته.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الحمد: هو الثناء علىٰ الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، المشتملة علىٰ الحكمة التامة، فلا بُدَّ في تمام حَمْد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له، فالثناء المُجرَّد من محبةٍ وخضوع ليس حمدًا كاملًا».

فالحمد لله هو أفضل الذِّكر، وخير الأعمال، قال النبي ﷺ: «**الحمد لله تَمْلأ الميزان**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي أحقُّ ما قال العبد، وأحقُّ ما يجب أن يُعمل؛ فلذلك كان الحمد أول ما أنطق اللهُ به آدم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، يتضمَّن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالىٰ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنىٰ، وهي اسم «الله» و«الرب» و«الرحمن».

فاسمُ «الله» متضمِّنٌ لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمن» متضمنٌ لصفات الإحسان والجُود والبِرِّ. ومعاني أسمائه تدور علىٰ هذا».

(١) قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي (٣/ ١٠٩٧).
(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٢).
(٣) الفوائد (ص٢٦).

والثلاث آيات الأُولَىٰ من سورة الفاتحة هي في توحيد المعرفة والإثبات، وبقية آيات السورة في توحيد القصد والطلب، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٥-٧].

وسورة الفاتحة انتظمت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية في قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات في قوله تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، وتوحيد العبودية في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وسورة الفاتحة بيَّنَتْ أنّ توحيد الأسماء والصفات أساس التوحيد، فالمسلم إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدي، وهو إنما يَقُوم يُصلِّي عبوديةً لله ويناجيه لاعتقاده بكمال صفاته، ويقول مناجيًا ربه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فيدعو الله بنوعي الدعاء: دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

فسورة الفاتحة سورة عظيمة ترجع إليها كل معاني القرآن.

قال القاضي أبو يعلىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تُسمىٰ أُمّ القرآن، وأُمُّ الشيء أَصْلُه ومادته، ولهذا سَمَّىٰ اللهُ مكةَ أُمَّ القُرىٰ لشرفها عليهن؛ ولأنها السبع المثاني؛ ولأنها تشتمل علىٰ ما لا تشتمل عليه سورةٌ من الثناء والتحميد للرب تعالىٰ، والاستعانة به، والاستعاذة، والدعاء من العبد، علىٰ ما قال النبي ﷺ: يقول الله تعالىٰ: «**قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي**» الحديث المشهور».

وقراءة سورة الفاتحة ركنٌ في كل ركعة، فلا تصح صلاة بدون قراءةِ أُمِّ الكتاب.

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٢٥٢).

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أمَّا قولُ النبي ﷺ لأُبَيٍّ: «**هل تَعْلم سورةً، ما أَنْزَلَ الله لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها؟**» فمعناه: مثلها في جَمْعِها لمعاني الخير؛ لأن فيها الثناء على الله ﷻ بما هو أهله، وما يستحق من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره؛ لأن كلَّ نعمةٍ وخير منه، لا من سواه، فهو الخالق الرازق لا مانع لِمَا أَعْطىٰ، ولا مُعْطِي لِمَا مَنَع، وهو محمود علىٰ ذلك؛ وإنْ حُمد غيره فإليه يعود الحمد.

وفيها التعظيم له؛ وأنه رب العالَم أجمع ومالك الدنيا والآخرة، وهو المعبود والمستعان.

وفيها تعليم الدعاء والهدىٰ، ومجانبة طريق مَن ضَلَّ وغَوَىٰ، والدعاء لباب العبادة، فهي أجمع سورة للخير».

و«الله»: هو اسمُ الله الأعظم الذي ترجع إليه كل معاني أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: ««الله» عَلَمٌ علىٰ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يُقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يُوصف بجميع الصفات، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٢٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٨٣، ١٨٤).

[الحشر: ٢٢-٢٤]، فأجرىٰ الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أَحْصَاها دَخَل الجَنّة**»».

وقال ابن القيم رحمه الله[1]: «اسمُ «الله» جل جلاله؛ فإن هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تُضاف الأسماء الحسنىٰ كلها إليه، فيُقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يُقال: «الله» من أسماء الرحمن، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]».

وشهادة أن لا إله إلا الله حقيقتها التألُّه لله وحده، قال ابن القيم رحمه الله[2]: «إن الإله هو المحبوب المعبود الذي تَأْلَهه القلوب بحُبِّها، وتَخْضع له، وتَذَل له، وتخافه، وترجوه، وتُنِيب إليه في شدائدها، وتَدْعوه في مُهِمَّاتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتَلْجأ إليه، وتطمئن بذِكْره، وتَسْكن إلىٰ حبّه، وليس ذلك إلا الله وحده».

وتضمَّنتْ سورةُ الفاتحة بيان ربوبية الله المستلزمة لعبوديته، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وقال سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نعبد مَن له الربوبية والمُلْك، فالله ﷻ ربُّ الخَلق أجمعين، وكلٌّ تحت قَهْره وربوبيته وأَمْره وقضائه الكوني.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٩٣).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٦٩٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الرب: هو المالك المُتصرِّف، ويُطلق في اللغة علىٰ السَّيِّد، وعلىٰ المُتصرِّف للإصلاح، وكلُّ ذلك صحيح في حق الله تعالىٰ.

ولا يُستعمل «الرب» لغير الله، بل بالإضافة، تقول: ربُّ الدَّار، وربُّ كذا.

وأمَّا «الرب» فلا يُقال إلا لله عَزَّ وَجَلَّ».

وبيَّن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون معنىٰ الرب فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فخَلَق الله خَلْقَه علىٰ الفطرة، ومعرفة ما ينفعهم ممَّا يضرهم، ورَبَّاهُم بشَرْعِه الذي هداهم به إلىٰ معرفة صراطه المستقيم.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الرب: هو المُرَبِّي جميع العالمين بكل أنواع التربية، فهو الذي خَلَقهم ورَزَقهم، وأَنْعَم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة، وهذه التربية العامَّة لجميع الخَلق؛ بَرِّهم وفاجِرِهم، بل المُكلَّفون منهم وغيرهم.

وأمَّا التربية الخاصَّة لأنبيائه وأوليائه؛ فإنه مع ذلك يُرَبِّي إيمانهم فيكمله لهم، ويدفع عنهم الصَّوَارِف والعَوَائِق التي تَحُول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية، وتَيْسِيرهم لليُسْرَىٰ، وحِفْظِهم من جميع المَكارِه.

وكما دلَّ ذلك علىٰ انفراد الرب بالخَلق والتدبير والهداية وكمال الغِنَىٰ؛ فإنه يدلُّ علىٰ تمام فَقْرِ العالَمِين إليه بكلِّ وجهٍ واعتبار، فيسأله مَن في السماوات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم، ويَفْزَعُون إليه في مُهِمَّاتهم».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٨، ١٩٩).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٢).

فسورة الفاتحة انتظمت أنواع التوحيد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الدِّينُ والشرعُ والأمرُ والنهيُ، مَظْهَرُهُ وَقِيَامُهُ من صفة الألوهية، والخَلْق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية.

والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة المُلْك، وهو مَلِكُ يومِ الدِّين».

وأفاد قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، أنّ الله وحده هو المُنعِم علىٰ عباده بالهداية، دُونَ أنْ يُشْركه أَحَدٌ، فهو وحده المُحسِن المُتفضِّل بهذه النعمة[(٢)].

ومن إنعامه علىٰ خَلْقه: تعليمهم شرائع دِينه بإرسال الرُّسل لتبيين صراطه المستقيم، ولذلك قال الله ﷻ عن خصوص تعليم شريعة الصوم: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه في عموم تعليم شرعه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وتضمَّنت سورة الفاتحة إثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ من أسماء الله الحسنىٰ، وهو لا يُسمَّىٰ به غيرُه كاللهِ والخالق.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «اسمه تعالىٰ «الرحمن» خاصٌّ به، لم يُسَمَّ به

---

(١) بدائع التفسير (١/ ١٤١).

(٢) بدائع التفسير (١/ ٢٣٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٢).

غيرُه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

ولمَّا تَجَهْرَمَ مُسَيْلِمَة الكذاب، وتَسمَّىٰ برحمان اليمامة، كَسَاه الله جلباب الكذب، وشَهَّرَ به، فلا يُقال إلا: مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المَدَر، وأهل الوَبَر من أهل البادية والأعراب».

ومعنىٰ «الرحمة» معلومٌ معناه، لَفْظُه لا يحتاج إلىٰ تأويلٍ، قال قِوَامُ السُّنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)(١): «إنّ الله امتدح نفسه بصفاته، ودعا عِباده إلىٰ مَدْحه بذلك، وصَدَّق به المصطفىٰ ﷺ، وبيَّن مراد الله فيما أَظْهر لِعباده من ذِكْر نفسه وأسمائه وصفاته، وكان ذلك مفهومًا عند العرب، غير محتاج إلىٰ تأويله، فقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال النبي ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: إني حرَّمتُ الظُّلم علىٰ نفسي**»، وقال النبي ﷺ بيانًا لقوله: «**إنّ الله كَتَب كتابًا علىٰ نفسه، فهو عنده: إنّ رحمتي تَغْلب غضبي**»، فبيَّن مراد الله تعالىٰ فيما أخبر عن نفسه تعالىٰ».

سورة الفاتحة دالَّةٌ علىٰ أن ربوبية الله ومُلْكَه مبناها علىٰ الرحمة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤]، واقتران اسم الرحيم بالرحمن في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فهو دالٌّ علىٰ صفة الرحمة لذاته والرحمة لأفعاله.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٦٩-١٧١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أمَّا الجمع بين «الرحمن الرحيم»، وهو: أنَّ الرحمن دالٌّ علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ علىٰ تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول: للوصف، والثاني: للفعل، فالأولُ دالٌّ علىٰ أنَّ الرحمة صفته، والثاني دالٌّ علىٰ أنَّه يرحم خَلْقَه برحمته، وإذا أردتَ فَهْم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولمْ يجيء قط: «رحمن بهم»، فعُلم أنّ «رحمن» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته».

وممَّا يدلُّ علىٰ أنّ ألوهية ربنا مبناها علىٰ الرحمة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «جَعَل الخَلْق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة، مُتعلِّقًا باسم الرحمن، وجَعَل جميع معاني السورة مُرتبطةً بهذا الاسم، وخَتَمها بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسمُ الذي تبارَكَ هو الاسم الذي افتتح به السورة».

ورحمةُ الله تقتضي قَيُّومِيَّته علىٰ عِباده وحِفْظَه لهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

ورحمةُ الله تستلزم عفوه ومغفرته، وتوبته وإحسانه، وإنعامه وتفضُّله، كما أنّ غضبه يستلزم عقوبته، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٢).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٨٢).

ومن أعظم ما تستلزمه الرحمة: الهداية، والتزكية، وحُسْن الثواب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال النبي ﷺ: «**ما منكم من أَحَدٍ ينجيه عَمَلُه**»، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا، إلا أنْ يَتَغمَّدني الله برحمته**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «الرحمن الرحيم: وصفٌ بالرحمة المتضمِّنة لإحسانه إلىٰ العِباد بمشيئته وقدرته أيضًا، والخير يحصل بالقدرة والإرادة التي تتضمن الرحمة.

فإذا كان قديرًا مريدًا للإحسان، حصل كلُّ خيرٍ؛ وإنّما يقع النقص لعدم القدرة أو لعدم إرادة الخير، فالرحمن الرحيم الملك قد اتصف بغاية إرادة الإحسان وغاية القدرة، وذلك يحصل به كلُّ خيرٍ؛ خير الدنيا والآخرة».

فالرحمة صفة لله، نُثْبتها له سبحانه علىٰ حقيقتها، ونبيِّن ما تتضمنه من الإحسان إلىٰ العِباد، وهو بيانٌ لِمَا تتضمَّنه هذه الصفة من المعاني، فهذا توحيد، ليس كتعطيل المبتدعة الذين فَسَّروا الرحمة بالإرادة، مُعْتَذِرين بأنَّ الرحمة رِقَّةٌ تَعْتَرِي طبيعة الحيوان، يتنزَّه اللهُ عنها[٢]!

وتضمَّنت سورةُ الفاتحة إثبات مُلْك الله، قال تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وهو سبحانه مَلِكُ الدنيا والآخرة، وظهور مُلْكه في الآخرة أعظمُ؛ من أَجْلِ هذا خَصَّه اللهُ بالذِّكر فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (١/ ٩١).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تخصيص المُلْك بيوم الدِّين لا ينفيه عمَّا عَدَاه؛ لأنّه قد تقدم الإخبار بأنّه رب العالمين، وذلك عامٌّ في الدنيا والآخرة؛ وإنما أُضيف إلىٰ يوم الدِّين؛ لأنّه لا يَدَّعِي أَحَدٌ هنالك شيئًا، ولا يتكلم أَحَدٌ إلا بإذنه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول: لا يَمْلك أَحَدٌ في ذلك اليوم معه حُكْمًا، كمُلْكِهم في الدنيا.

قال: و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾: يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يَدِينَهُم بأعمالهم إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهرٌ».

ومُلْك الله العظيم دالٌّ علىٰ استحقاقه وحده الخضوع والعبودية والتألُّه، فتبًّا لعقولٍ جَعَلَتْ للمملوكِين لله الذين لا يملكون مثقال ذرةٍ في السماوات والأرض أندادًا لرب العالمين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يَقْبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِك، أين ملوك الأرض؟ أين الجَبَّارون؟ أين المُتكبِّرون؟**»، متفقٌ عليه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المالك: هو مَن اتَّصَف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها المُلْك، التي من آثارها أنّه يأمر وينهىٰ، ويُثِيب ويُعاقِب، ويَتصرَّف في العالَم العلوي والسفلي التصرف التام».

ذَكَر شيخ الإسلام آية الكرسي في أمثلةِ ما وَرَد مُفصَّلًا في القرآن من الأخبار عن أسماء الله وصفاته، وهي أعظم آية في كتاب الله.

عن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المُنْذِر، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله تعالىٰ معكَ أعظم؟**»، قلتُ: اللهُ ورسوله أعلم، قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معكَ أعظم؟**» قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، قال: فضَرَب في صدري، وقال: «**لِيَهْنِكَ العِلمُ يا أبا المنذر**»، رواه مسلم.

وفي آية الكرسي ذِكْرُ اسمِ الله الأعظم، فعن أسماء بنت يزيد بن السكن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] اسم الله الأعظم»، رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: حَسَنٌ صحيح.

والاسم الأعظم هو الذي تَرْجِع إليه كلُّ معاني أسماء الله الحسنىٰ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذه الآية -آية الكرسي- مشتملة علىٰ عَشْرِ جُمَلٍ مُستقلَّة: فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، إخبارٌ بأنّه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا، المُقِيم لغيره.

---

(١) تيسير اللطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٤٦-٢٥٠) باختصار.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يَعْتريه نقصٌ، ولا غفلةٌ، ولا ذُهُولٌ عن خَلْقه، بل هو قائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥] إخبار بأنّ الجميع عبيدُه وفي مِلْكه، وتحت قَهْره وسلطانه.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ أنّه لا يتجاسر أَحَدٌ علىٰ أن يشفع لأَحَدٍ عنده إلا بإذنه له في الشفاعة.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] دليلٌ علىٰ إحاطة عِلْمِه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يَطَّلِع أَحَدٌ من عِلْم الله علىٰ شيء إلا بما أَعْلمه الله ﷻ، وأَطْلعه عليه. ويُحتمل أن يكون المراد: لا يَطِّلعون علىٰ شيء من عِلْم ذاته وصفاته، إلا بما أَطْلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، الكرسي غير العرش، العرش أكبر منه.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يُثْقِلُه ولا يَكْرِثُه حِفْظُ السماوات والأرض ومَن فيهما ومَن بينهما، بل ذلك سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]».

وآية الكرسي أعظم آية في القرآن؛ لأنها كلها في ذِكْر أسماء الله الحسنىٰ وصفاته

العُلَى، حيث تضمَّنت ذِكْرَ صفةِ الحياة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «التي هي أصلُ جميع الصفات».

وتضمَّنت آية الكرسي ذِكْر كمال مُلْك الله، وكمال قَيُّومِيَّتِه، وكمال عِلْمه وإحاطته بكل شيء، وامتناع أن يُحاطَ به، وسعة كرسيه وعظمته وعُلُوِّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفيُ ذلك يتضمَّن كمالَ الحياةِ والقيومية.

وكذلك قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، يتضمن كمال المُلك والربوبية، وانفراده بذلك».

وتضمَّنت آية الكرسي إثبات كمال قدرة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يَكْرِثُه ولا يُثْقِله، وهذا بيانٌ لكمال قدرته؛ فإنّ الحافظ للشيء قد يحفظه بكُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، فإذا كان لا يَكْرِثه حِفْظهما، كان ذلك بيانًا لكمال قدرته؛ وأنها في الغاية التي لا يلحقها نقصٌ أصلًا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «في آية الكرسي ذِكْرُ الحياة التي هي أصل جميع الصفات، وذَكَر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه، من

(١) بدائع التفسير (١/ ٤١٣).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٧٩).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٤٣٧).
(٤) بدائع التفسير (١/ ٤١٣).

النوم والسِّنة والعجز وغيرها، ثُمَّ ذَكَر كمال مُلْكِه، ثُمَّ عَقَّبه بذِكْر وحدانيته في مُلْكه؛ وأنّه لا يشفع عنده أَحَدٌ إلا بإذنه، ثُمَّ ذكَرَ سعةَ عِلْمه وإحاطته، ثُمَّ عَقَّبه بأنّه لا سبيل للخَلق إلىٰ عِلْمِ شيءٍ من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أنْ يَعْلَمُوه، ثُمَّ ذَكَر سعة كرسيه مُنبِّهًا به علىٰ سعته سبحانه وعظمته وعُلُوِّه، وذلك توطئةٌ بين يدي ذِكْر علوه وعظمته، ثُمَّ أخبر عن كمال اقتداره ولا تعب، ثُمَّ خَتَم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدَّالَّيْن علىٰ عُلوِّ ذاته وعظمته في نفسه».

وآية الكرسي سُمِّيت بذلك لذِكر الكرسي فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والكرسي بحسب دلالة الأحاديث عن النبي ﷺ والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم، مخلوقٌ عظيمٌ، وليس هو عِلْمُ الله! كما يقول الجهمية.

ولا تصح الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما بتفسير «الكرسي» بعِلم الله، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله: «هذا حديثٌ فيه وَهَنٌ»(١).

وذكر العلَّامة الكرجي أنّ الصحيح المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال(٢): «الكرسي مَوْضع قَدميه، والعرش لا يَقْدِر قَدْرَهُ أَحَدٌ».

وقول ابن عباس رضي الله عنهما الصحيح المشهور عنه متوافق مع قول ابن مسعود رضي الله عنه: «بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام»(٣)، وموافق للمنقول عن أبي موسىٰ

---

(١) نُكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١).

(٢) نُكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) رواه الدارمي في الرد علىٰ الجهمية (ص٤٦، رقم: ٨١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢، رقم: ١٤٩)، قال الحافظ الذهبي: «إسناده صحيح»، العلو (ص٦٣، ٦٤).

الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: «الكرسي موضع القدمين»، رواه ابن المُنذر في تفسيره[(١)].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الكرسي موضع قُدَّام العرش»[(٢)].

هذه عقيدة السابقين الأوَّلِين، قال أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتَّفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا، وشرعًا ظاهرًا»، إلىٰ أن قال: «والكرسي موضع القدمين»[(٣)].

وقال العلَّامة محمد بن عبد الله بن أبي زمنين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «من قول أهل السُّنة: أنّ الكرسي بين يدي العرش، وأنّه موضع القدمين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٥)]: ««الكرسي» ثابتٌ بالكتاب والسُّنة وإجماع جمهور السلف، وقد نُقل عن بعضهم: أنّ ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: عِلْمه، وهو قولٌ ضعيف؛ فإنَّ عِلْم الله وَسِعَ كلَّ شيء، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

والله يَعْلم نفسه، ويَعْلم ما كان، وما لَمْ يَكُن، فلو قيل: وَسِع عِلْمُه السماوات والأرض لم يكن هذا العِلمُ مناسبًا، لاسيما وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يُثْقِله ولا يَكْرِثُهُ».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناد صحيح»، فتح الباري (٨/ ٤٧).

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٢٥٨).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧٥).

(٤) أصول السُّنة (ص٩٦)، والفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٤٧).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٨٤).

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «رُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّ ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: عِلْمه، ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنّه لا يُعرف هذا المعنىٰ لهذه الكلمة في اللغة العربية ولا في الحقيقة الشرعية».

وذَكَر شيخ الإسلام ابن تيمية سورة الإخلاص فيما أَثْبَته من نصوص أسماء الله وصفاته، وأولُ سورة الإخلاص فيها بيانُ أَحَدِيَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وتضمَّنت السورة إثبات كلِّ صفات الكمال لله في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذه السورة ذُكر فيها ما لم يُذكر في غيرها من اسمه «الأحد»، و«الصمد»».

وقال شيخ الإسلام[(٣)]: «وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، نفيٌ للشركاء والأَنْدَاد، يَدْخُل فيه كلُّ مَن جَعَل شيئًا كُفُوًا لله في شيءٍ من خَوَاصِّ الربوبية، مثل: خَلْق الخَلْق، والإلهية كالعبادة له ودعائه ونحو ذلك».

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] أمرٌ بقَصْد الله وحده بعد التذكير بأحديته، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي يَصْمُد إليه الناس».

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي يَصْمُد العِباد إليه في حوائجهم».

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٦٣).

(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٧٩).

وقال الحَسَن: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الحي القيوم، الذي لا زوال له[(١)].

فالذي يقصده الموحدون في حوائجهم هو الحي القيوم الذي لا يموت.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ مع قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ينفي المماثلة والمُشارَكة، وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال».

وفَسَّر السلف ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بأنه الذي لا جوف له، وهذا يدل علىٰ أنّ صفات الله قائمة بذاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «معناه أنه لا يَتفرَّق»، وقال[(٤)]: «لفظُ «صَمَد» يقتضي الجَمْع والضَّمَّ».

وسورة الإخلاص في القرآن كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] في أُمِّ القرآن، وهي حقيقة الدِّين كله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «من معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، وهو الذي يَفْتقر إليه كل شيء، ويَسْتغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يَدُوم،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا من لوازم الصمدية». التفسير (٧/ ٣٣١).
(٢) التفسير (٧/ ٣٤٩).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٩٨).
(٤) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٩٨)
(٥) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٦٩).

وهذا تحقيقُ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

وقال شيخ الإسلام[١]: «الأَحَدِيَّة والصَّمَدِيَّة ينتظمان أصول التوحيد والإيمان والدِّين، فأسماءُ الله وصفاته من دِينه».

وسورة الإخلاص «**تَعْدل ثُلُث القرآن**» كما قال النبي ﷺ، رواه البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ومسلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وهي خالصة في ذِكْر أسماء الله وصفاته، تضمَّنت ذِكْر اسم الله الأعظم «الله»، وتضمَّنت ذِكر أَحَدِيَّته، فلا شريك له، ولا مثل له، ولا كُفْء له، وتضمَّنت ذِكر صَمَدِيَّته الدَّالة علىٰ الكمال العظيم لكل صفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «ذَكَرنا تفسير «الصَّمَد» واشتماله علىٰ جميع صفات الكمال،كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ذَكَره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقول: السيد الذي قد كَمُل في سُؤْدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في عِلمه، والحليم الذي قد كمل في حِلْمه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤود، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلَّا له، ليس له كُفْء، وليس كمثله شيء سبحانه الواحد القهار، وكذلك قد ثَبَت من حديث الأعمش عن أبي وائل، وقد ذَكَره البخاري في صحيحه».

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٧٣).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٨٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «والقرآن ثلاثة أصناف: توحيد، وقصصٌ، وأَمْرٌ ونهيٌ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، متضمنة ثُلُث التوحيد».

وقد تضمنت سورة الإخلاص نَوْعَا التوحيد: المعرفة والإثبات لأحدية الله، والقصد والطلب له وحده فهو الصمد. و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ تضمن معنىٰ الغِنَىٰ، وفَقْر الخلائق إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كلُّ ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخَلْق فقيرٌ إليه، عبدٌ له، وهو الصمد الذي يحتاج إليه كلُّ شيء، ويسأله كلُّ أَحَدٍ، وهو غنيٌّ بنفسه لا يحتاج إلىٰ أَحَدٍ في شيء من الأشياء».

وممَّا ذَكَره شيخُ الإسلام من نصوص القرآن في أسماء الله وصفاته: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وهذا انتخابٌ من عالِمٍ فَذٍّ، فالعلم والحكمة متضمنان لجميع الكمال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمِّنٌ لإثبات صفة الحكمة والعِلم اللذين هما مَصْدرُ الخَلْق والأمر، فجميع ما خَلَقه سبحانه صادِرٌ عن عِلْمه وحكمته، وكذلك أَمْره وشَرْعه مَصْدَره عن عِلْمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها، من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التَّام.

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٦٥).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٦٨).
(٣) الرسالة التَّبُوكية (ص٧٩، ٨٠).

والحكمة تتضمن كمال الإرادة، من العدل، والرحمة، والإحسان، والجُود، والبِر، ووَضْع الأشياء مواضعها علىٰ أَحْسَنِ وُجوهِها، ويتضمن إرسال المُرسَل، وإثبات الثواب والعِقاب.

كلُّ هذا يُعلَم من اسمه «الحكيم»، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال علىٰ هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار علىٰ مَن يزعم أنّه خَلَق الخَلْقَ عبثًا أو سُدًىٰ أو باطلًا. فنفس حكمته تتضمن الشرع والقَدَر، والثواب والعقاب».

وحكمة الله في خَلْقه وأَمْره، قد ذكَر الله لنا كثيرًا من معانيها، وباستقراء معاني الشرع أدرك العلماء معاني الحكمة غير المنصوصة، وكان استقراؤهم هذا سببًا لفُتياهم بما استجدّ من المسائل في العصر الحديث.

والعلماء مُتحقِّقون أنّ خَلْقَ الله وأَمْرَه كله حكمةٌ، فما لَمْ يَظْهر لهم من معاني الحكمة في بعض المسائل يقطعون بأنّ الله عليمٌ حكيم، ولا يكون ذلك سببًا لتعالُمِهم بنفي الحكمة، ولا لجرأتهم بالتَّخرُّصِ بالقول بغير علمٍ في معاني الحكمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٢١).

وكذلك في أَمْرِه قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فعَدمُ عِلْم الناس بما له سبحانه من الحِكْمة في خَلْقه وأَمْره، لا يستلزم عدم ثبوتها في نفس الأمر؛ فإنَّ عدم العِلم ليس عِلْمًا بالعدم».

ويجب عليك -أيها المُسْلم-: أن تفهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وَفْقَ ما شَرَحه شيخُ الإسلام، وما دَلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هو سبحانه لا يُسأل عما يفعل؛ لكمالِ عِلْمِه وحكمته ورحمته وعَدْلِه، لا لمُجرَّد قَهْرِه ومشيئته وقدرته».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هو أصدق القائلين: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]؛ لكمالِ حكمته، وعِلمه، ووَضْعِه الأشياء مواضعها؛ وأنّه ليس في أفعاله خللٌ ولا عبثٌ ولا فسادٌ يُسأل عنه كما يُسأل المخلوق.

وهو الفعَّال لِمَا يُرِيد؛ ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خيرٌ ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشرَّ، ولا الفساد، ولا الجَوْر، ولا خِلَاف مُقْتَضَىٰ حكمته؛ لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم».

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٢٩).
(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٩٠٢).

فالله ﷻ اسمُه «الحكيم»، وأفعاله كلها حكمة، وخَلْقُه وأَمْرُه كلُّه صادِرٌ عن عِلمه وحكمته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): ««الحكيم» من أسمائه الحسنىٰ، والحكمة من صفاته العُلَىٰ. والشريعة الصادرة عن أَمْرِه مبناها علىٰ الحكمة، والرسول ﷺ المبعوث بها بالكتاب والحكمة.

والحكمة هي سُنَّة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به، فكلُّ هذا يُسمَّىٰ «حكمة»».

والله ﷻ مَنَّ علىٰ مَن شاء من الرُّسل والعلماء والصالحين بالحكمة، فمَن سأل الله الحكمة بصدقٍ وَوَافق أَمْرَ الله أُوتيها، والله ذو الفضل العظيم، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وصفةُ العلم من الصفات العظيمة الدَّالَّة علىٰ كمال الله؛ لذلك يَنُصُّ الله علىٰ خصوصها إذا ذَكَر صفاته الحسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٧، ٨].

والله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، ولا تخفىٰ عليه خافية، عليم بذات الصدور، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ١٩٨).

قال ابن القيم في «نُونِيَّتِه»:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي	في الكون من سِرٍّ ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يَعْلَم ما يكون غدًا وما	قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أَمْر لم يكن لو كان كيـ	ـف يكون ذا إمكان

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هو تعالىٰ العليم الذي له العِلمُ العامُّ للواجبات والمُمْتَنِعَات والمُمْكِنَات، فيَعْلم نَفْسَه الكريمة وصفاته المُقدَّسَة ونُعُوته العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويَعْلم الممتنعات حال امتناعها، ويَعْلم ما يترتَّب علىٰ وجودها لو وُجدت، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فهذا ونحوه من ذِكْره للممتنعات التي يَعْلَمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وُجدت علىٰ وجهِ الفرض والتقدير. ويعلم تعالىٰ المُمْكِنَات».

وَوَعظنا اللهُ في القرآن بذِكْر عِلمه حثًّا علىٰ طاعته ونهيًا عن معصيته، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنىٰ (ص١٩٤، ١٩٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «مَن شَهِد مشهد العلم المحيط الذي لا يَعْزب عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماوات، ولا في قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال، بل أحاط بذلك كلّه علمًا تفصيليًّا، ثُمَّ تَعبَّد بمقتضىٰ هذا الشهود من حراسة خواطره، وإرادته، وعَزَماته، وجوارحه علمًا بأنَّ حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرةٌ مكشوفة لديه، علانية له، بادية له، لا يخفىٰ عليه منها شيءٌ».

ونصوص الوحي الواردة بذِكْر عِلْم الله وسَمْعِه وبَصَرِه، فيها وعدٌ علىٰ الحسنات ووعيد علىٰ السيئات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «في القرآن ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ فإنّه يُراد برؤيته إثبات عِلْمه بذلك؛ وأنّه يَعْلم: هل ذلك خيرٌ أو شرٌّ؟ فيُثِيب علىٰ الحسنات، ويُعاقِب علىٰ السيئات. وكذلك إثبات القدرة علىٰ الخَلْق كقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، والمرادُ: التخويف بتوابع السيئات ولوازمها من العقوبة والانتقام.

وهذا كثيرٌ ممَّا يَصِف الرب نفسه بالعلم بأعمال العباد تحذيرًا وتخويفًا، ورغبةً للنفوس في الخير.

ويصف نفسه بالقدرة، والسمع، والرؤية، والكتاب، فمدلولُ اللفظ مُرادٌ منه، وقد أُريد أيضًا لازِمُ ذلك المعنىٰ».

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٨٩، ٩٠).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٢٧).

ومشهد الحُنفاء اليقين بكمال عِلْم الله وقدرته؛ وأنّه لا عِلْمَ لمخلوق ولا حول ولا قوة ولا قدرة إلا بالله، وهذا دالٌّ علىٰ كمال الخالق ونَقْصِ المخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلمُ صفةُ كمالٍ، فما ضادَّه كان نقصًا، والقدرة صفةُ كمالٍ فما ضادَّه كان نقصًا، والحياة صفةُ كمالٍ، فما ضاده كان نقصًا».

فالحياة والعلم والقدرة من لوازم ذات الله، وهي صفاته، والمخلوق أَوْجَده اللهُ وعَلَّمه ما لَمْ يَكُنْ يَعْلم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ كان يُعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يُعلِّمهم السورة من القرآن، يقول: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثُمَّ لِيَقُل: اللَّهُمَّ إني أستخيركَ بعلمِكَ، وأستقدركَ بقدرتك، وأسألكَ من فضلكَ العظيم؛ فإنّكَ تَقْدِر ولا أَقْدِر، وتَعْلم ولا أَعْلم، وأنتَ عَلَّام الغُيوب.**

اللهم إنْ كنتَ تَعْلم أنّ هذا الأمر -يسميه باسمه- خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقْدُرْه لي، ويَسِّرْه لي، ثُمَّ بارِكْ لي فيه، وإنْ كنتَ تَعْلم أنّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصْرِفْه عني، واصرفني عنه، واقْدُر لي الخير حيثما كنتُ، ورَضِّني به»، رواه البخاري.

وفي اقتران اسم «الْقَدِير» بـــ «الْعَلِيم» إفادةُ كمالِ عِلْمِه، وأنّه قديرٌ مع عِلْمِه، فيقضي ويَخْلق بعِلمٍ وقدرة، وبكمال عِلْمه يكون خَلْقُه وأَمْرُه، وقضاؤه حقٌّ وعدلٌ وحكمة.

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٤١٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ «الإله»، هو الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، وهو الذي يفعل بقدرته ومشيئته وحكمته، وهو الموصوف بالصفات والأفعال، المسمىٰ بالأسماء التي قامت بها حقائقها ومعانيها».

وإذا نظر المسلم فيما خَلَقَ اللهُ، خصوصًا خَلْق السماوات والأرض؛ استيقن بكمال علمِ الله وقدرته وحكمته، واستيقن بكمال إبداع الله بخَلْق أعظم المخلوقات علىٰ غيرِ مثالٍ سابق، قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ جميع أجزاء العالَم يدلُّ أعظم دلالة علىٰ: عِلْم الله، وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة الدالَّة علىٰ تفرُّده بالخَلق والتدبير، الموجبة لأَنْ يكونَ هو المعبود المحمود المُسَبَّح المُوَحَّد المحبوب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «هو سبحانه في سورة الرحمن يقول في عَقِب كل آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، وهو يَذْكُر فيها ما يدلُّ علىٰ خَلْقه وعِلْمه وقدرته ومشيئته، وما يدل علىٰ إنعامه ورحمته وحكمته».

وممَّا يفيده الاعتقاد بأنّ الله «عليمٌ قدير»: العلم بأنّ كل ما سوىٰ الله مخلوقٌ

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٤١).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٦٩٩).

حادِثٌ بَعْدَ أنْ لمْ يَكُنْ، وأنّ الله ﷻ موصوف بصفات الكمال، فهو الرب، والمخلوق مَرْبُوب، وهذا مشهد سيد الحنفاء حيث أَنْكَر علىٰ قومه عبادة الأصنام وقال لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وممَّا ذَكَره شيخ الإسلام من نصوص القرآن في الأخبار عن أسماء الله وصفاته:

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والسميع: هو الذي أحاط سَمْعُه جميع المسموعات، القريب منها والبعيد، السر والعلانية، كلها عنده سواء[1]، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارَكَ الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات، لقد جاءت المُجادِلة تشتكي إلىٰ رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة؛ وإنّه ليخفىٰ عليَّ بعضُ كلامها، فأنزلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، رواه البخاري.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله[2]: «سَمْعُه تعالىٰ نوعان: **أحدهما**: سَمْعُه لجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وإحاطته بها إحاطةً تامَّة.

والثاني: سَمْع الإجابة منه للسائلين والعابدين والمُتضرِّعين، فيجيبهم ويُثيبهم، ومنه: قولُ العبد في صلاته: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه، أي: استجاب الله لمَن حمده وأثنىٰ عليه وعبده، ومنه: قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]».

---

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٤٤).

(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٤٥).

والبصير: هو الذي أحاط بَصَرُه بجميع المُبْصِرات في أقطار الأرض والسماوات، وأَبْصَر الخفي والجَلِي، والظاهر والباطن، والقريب والبعيد[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مشهد التوحيد الذي يوجبه الإيمان باسمَيِّ «السميع» و«البصير»[(٢)]: «إذا أَشْعر قَلْبه صفة سَمْعِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها، وسواءٌ عنده مَن أسرَّ القول ومَن جَهَر به، لا يشغله جَهْرُ مَن جَهَرَ عن سَمْعِه لصوتِ مَن أسرَّ، ولا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تُغلّطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوتٍ واحد، كما أنَّ خَلْقَ الخَلْق جميعهم وبَعْثَهُم عنده بمنزلةِ نَفْسٍ واحدة.

وكذلك إذا شَهِد معنىٰ اسمه «البصير» جلَّ جلاله الذي يَرىٰ دَبِيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصَّماءِ في حِنْدِس الظلماء، ويرىٰ تفاصيل خَلْق الذَّرَّة الصغيرة ومُخَّها وعروقها ولَحْمها وحركتها، ويرىٰ مَدَّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطىٰ هذا المشهد حقَّه من العبودية، فحرَس حركاته وسكناته، وتيقَّن أنَّها بمرأىٰ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ومُشاهَدة، لا يغيب عنه منها شيء».

وممَّا ذَكَره شيخ الإسلام من نصوص القرآن في أسماء الله وصفاته: قوله تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

و«العزيز» هو الذي لا يُرام، القاهر لكلِّ مخلوق، فهو القوي المُمْتَنِع القاهر.

---

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٤٥).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٩٠).

قال ابن القيم في «نونيته»:

وهو العزيز فلن يُرامَ جَنابُه ... أنَّىٰ يُرام جَنابُ ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغَلَّاب لم ... يَغْلِبْهُ شيءٌ هذه صفتان

وهو العزيز بقوةٍ هي وَصْفُه ... فالعِزُّ حينئذٍ ثلاث معاني

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذه الأبيات الثلاثة مشتملة على معنىٰ اسمه «العزيز»، **فذَكَر له ثلاثة معاني:**

الأول: العزيز بمعنىٰ المُمْتنع الذي لا يُرام جنابُه؛ لعظمة سلطانه، وجليل كبريائه، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يا عِبادي، إنكم لن تَبْلُغوا ضَرِّي فتَضَرُّوني، ولن تَبْلُغوا نَفْعِي فتنفعوني**».

والمعنىٰ الثاني: أنّه العزيز بمعنىٰ القاهر لكل شيء، الذي قَهَر جميع الأشياء، فما من دابَّةٍ إلا هو آخِذٌ بناصيتها، ولا حول ولا قوة بأَحَدٍ إلا بالله العلي العظيم، فلا يتحرَّك مُتحرِّكٌ إلا بإذنه، ولا يَسْكُن ساكِنٌ إلا بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يَكُنْ، فهو الذي قَهَر كلَّ شيءٍ، وذَلَّ له كلُّ حيٍّ، ونفذت إرادته في كل شيء.

والمعنىٰ الثالث: أنّه العزيز بمعنىٰ القوي المتين، فله القوة الكاملة التي لا عَجْز ولا نَقْص فيها بوجهٍ من الوجوه.

فصار معنىٰ العزيز، بمعنىٰ: القوي، الممتنع، القاهر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] في عِدَّة آياتٍ، فـ «أل»

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية (ص٦٤، ٦٥).

تفيد الاستغراق والعموم لجميع معاني العز، ولهذا قال المؤلف:

وهـي التـي كملـت لـه سـبحانه مـن كـل وجـهٍ عـادم النقصـان

أي: هذه المعاني الثلاثة قد كَمُلت لله من جميع الوجوه، فلا نَقْص في شيء منها».

ومِمَّا ذَكَره شيخ الإسلام من نصوص القرآن في أسماء الله وصفاته: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٦].

فـ «الغفور» من أسماء الله الحسنىٰ، وهو الذي يستر الذنب ويتجاوز عنه.

وغَفُور علىٰ وَزْن فَعُول، فهو كثير المغفرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مغفرته تعالىٰ وَسِعت كل شيء، فالعِباد لا يزالون يذنبون، واللهُ يتجاوز عنهم، ويحب العفو عنهم.

وهو وإن كان واسع المغفرة؛ فإنّه قد جعل لمغفرته أسبابًا تُنال بها؛ لأنّها أعظم المَطالب، وذلك كالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلىٰ العِباد».

وكثيرًا ما يَقْرِن الله ﷻ بين اسميه: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

---

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١١٥).

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «تفيد أنّه ﷻ أهلٌ لأنْ يُستغفر؛ وأنّه إذا استغفر غَفَر؛ لأنّه غفور رحيم، ودائمًا يَقْرِن الله تعالىٰ بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأنّ الأول يزول به المَرْهُوب وتُغفر به الذنوب، وبالثاني يَحْصُل المطلوب؛ لأنّ الرحمة جَلْبُ الخير والإحسان».

ووَرَد اقتران اسم الله «الْوَدُود» مع «الغَفُور»؛ لئلَّا يَسْتَوْحِش الناس من ربهم إذا أذنبوا، فيَفِرُّون إليه بالتوبة، فيكونون قريبين من رحمة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): ««الودود»: فَعُول من الْوُدِّ. وقال شعيب: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، فقَرَنه بالرحيم في موضع، وبالغفور في موضع.

قال أبو بكر بن الأنباري: الودود معناه: المُحِبّ لعِباده».

وقال شيخ الإسلام(٣): «الأكثرون علىٰ ما ذَكَره ابن الأنباري؛ وأنّه فعول بمعنىٰ فاعل، أي: هو الوَادُّ، كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر، وبالرحيم وهو الذي يرحم».

وقال شيخ الإسلام(٤): «سياق القرآن يدلّ علىٰ أنّه أراد أنّه هو الذي يَودّ عِباده، كما أنّه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم».

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٢١١).
(٢) النبوات (١/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٣) النبوات (١/ ٣٥٩).
(٤) النبوات (١/ ٣٦٣).

وقال شيخ الإسلام[١]: «إنّه إذا كان يَودّ عِباده، فهو مستحقٌّ لأنْ يَودّه العِباد بالضرورة».

وقال[٢]: «إنّ الودود هو الذي يُوَدُّ؛ وإن كان ذلك مُتَضَمَّنًا؛ لأنّه يستحق أنْ يُوَدَّ، ليس هو بمعنىٰ الودود فقط».

والله ﷻ حيثما تمدَّح نَفْسَه بالمغفرة والرحمة، حذَّرَ من عذابه وسَخَطِه لتعتدل أحوال الناس، فلا يتجرؤوا علىٰ معاصيه، ولا يَقْنَطُوا من رحمته؛ فيكون المُسْلِم دائمًا مُقْبِلًا علىٰ ربه، راجيًا رحمته، مُجْتَنِبًا معاصيه، خائفًا من عقابه، قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنّهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سَعَوا في الأسباب المُوصِلة لهم إلىٰ رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا، فلا ينبغي أن يتمادىٰ بهم الرجاء إلىٰ حال الأمن والإدلال، فنَبِّئهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُبلغ كُنْهَه، نعوذ به من عذابه».

والاستغفار قَرِين التوحيد، وهذا يبيِّن ضرورة كل مسلم إلىٰ الاستغفار، وأنَّ الفرارَ إلىٰ الله، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والخضوع له، واستغفاره، توحيدٌ يُكفِّر

---

(١) النبوات (١/ ٣٦٥).

(٢) النبوات (١/ ٣٦٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٥٣).

السيئات، ويُبدِّلها حسنات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قَرَن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار في غير آية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: ١-٣]. وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيرُه: «**يقول الشيطان: أهلكتُ الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلمَّا رأيتُ بثثتُ فيهم الأهواء، فَهُمْ يُذْنِبُون ولا يتوبون؛ لأنهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنُون صُنْعًا**».

وقد ذَكَر سبحانه عن ذي النُّون أنّه نادىٰ في الظلمات: أن لا إله إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، قال النبي ﷺ: «**دعوةُ أخي ذي النون، ما دعا بها مَكْروبٌ إلَّا فَرَّج اللهُ كَرْبَه**»».

والذنوب إنّما تأتي من الغفلة، فحياةُ المسلمين بذِكْر الله هو سببُ وِقَايتهم من الذنوب، واستغفار الله بعد الذنب ذِكْرٌ يَمْحُو الله به السيئة، ويعفو عنها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٢١).

قال العلَّامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ جائز أن يكون باللسان، فهو الاستغفار، وهو قولُ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وجائزٌ أن يكون بالجَنان، علىٰ معنىٰ: ذَكَروا عظمته وجلاله، وعَرْضَهم عليه، ووقوفهم للسؤال بين يديه».

والمسارعة إلىٰ التوبة من أسباب مَحْوِ آثار الذنوب، وهو أخذٌ بموجبات مغفرة الله وعفوه ورحمته، قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قال العلَّامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «معنىٰ الآية: بادروا إلىٰ موجبات المغفرة، وهي طاعة الله تعالىٰ.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لا تُصِرُّوا علىٰ الذنب، إذا أذنبَ أَحَدٌ فليُسْرِعِ الرجوع.

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سارعوا إلىٰ الإخلاص.

وقال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إلىٰ أداء الفرائض.

وقال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: التكبيرة الأولىٰ من العبادة.

وقال الضحاك: إلىٰ الجهاد».

وفي اقتران اسم «الْوَدُود» مع «الْغَفُور» طمأنينةٌ للتائبين برجوع وُدِّ الله إليهم بعد التوبة كما كانت قبل المعصية أو أكثر.

---

(١) رموز الكنوز (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٩٩، ٣٠٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ الله يحب التوابين، ومن محبته لهم: فَرَحُه بتوبة أحدهم أعظم فرحٍ وأكمله، فإذا أثمرتْ له التوبة هذه المحبة، ورجع بها إلىٰ طاعاته التي كان عليها أوَّلًا، انضم أَثَرُها إلىٰ أثرِ تلك الطاعات، فقَوِيَ الأثران، فحصل له المزيد من القُرْب والوسيلة.

وهذا بخلاف ما يظنه مَن نَقُصَتْ معرفته بربه من أنّه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه؛ فإنه لا يَعُودُ الوُدُّ الذي كان له منه قبل الجِنَايَة. واحتجوا في ذلك بأثرٍ إسرائيليٍّ مكذوب أنّ الله سبحانه قال لداود: «يا داود، أمَّا الذنب فقد غفرناه، وأمَّا الوُدُّ فلا يَعُود».

وهذا كذبٌ قطعًا؛ فإنّ الوُدَّ يَعُود بعد التوبة النصوح أعظم ممَّا كان؛ فإنَّه سبحانه يحب التوابين، ولو لَمْ يَعُد الوُدُّ لَمَا حصلت له محبته. وأيضًا فإنَّه يفرح بتوبة التائب، ومُحالٌ أنْ يفرح بها أعظم فرحٍ وأكمله وهو لا يحبه!

وتأمَّلْ سِرَّ اقترانِ هذين الاسمين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٣، ١٤] تجد فيه من الرَّدِّ والإنكار علىٰ مَن قال: لا يَعُود الوُدُّ والمحبة منه لعبده أبدًا، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فَهْمِه».

والمسلم كما أنّه يستغفر ربه من الذنوب فهو كذلك يستغفر ربه بعد أداء الطاعات لعدم تكميلها والنصيحة التامة بأدائها، وعدم تَوْفِيَة حق الله الواجب في عبوديته وشُكْره.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٥٠٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «عدم توفيته ما ينبغي له من بَذْل النصيحة فيه، وكمال العبودية، من الحياء، والمراقبة، والمحبة، والخشوع، وحضور القلب بين يدي الله في العمل كله.

ومَن عَلِمَ هذا عَلِمَ السرَّ في كون أعمال الطاعات تُختم بالاستغفار، ففي صحيح مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: «**اللهم أنتَ السلام، ومنكَ السلام، تباركتَ يا ذا الجَلَال والإكرام**».

قال تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، فأَخْبَرَ عن استغفارهم عقيبَ صلاة الليل، قال الحسن: «مَدُّوا الصلاة إلىٰ السَّحَر، فلمَّا كان السَّحَر جلسوا يستغفرون الله».

وأَمَر تعالىٰ عِبادَه بالاستغفار عقيب الإفاضة في الحج، فقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وشَرَع ﷺ للمُتوضِّئ أنْ يَخْتِمَ وضوءه بالتوحيد والاستغفار فيقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التَّوَّابِين، واجعلني من المُتطهِّرِين».

فهذا ونحوه ممَّا يُبيِّن حقيقة الأمر، وأنَّ كلَّ أَحَدٍ مُحتاجٌ إلىٰ مغفرة الله ورحمته؛ وأنَّه لا سبيل إلىٰ النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلًا».



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥).

قال المصنف رحمه الله:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

الشَّرح

هاتان الآيتان من سورة الحديد فيهما: إثباتُ أَوَّلِيَّة الله، وأَبَدِيَّتِه، وكمالُ عِلْمه وخَلْقه، واستواؤه علىٰ عرشه، وقد سبق شرحُ صفةِ العلم والخَلْق.

والله ﷻ هو «الأول» فليس قبله شيء، وبذلك نتبيَّن شِرْكَ وكُفْرَ وضَلَال مَن قال بقِدَم العالَم.

وتسمية الله بــ «الأول» هو الواجب؛ لأنَّ اتباعَ ألفاظ الوحي عصمةٌ من الضَّلال، ولفظُ «القديم» استعمله المعتزلة في معانٍ باطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «جعلت المعتزلة «القديم» هو الذات المُجرَّدة عن الصفات، وقالوا: إذا أَثْبَتّم الصفات قُلْتُم بتعدُّد القُدَماء، ولفظُ «تعدُّد القدماء» مُجْمَلٌ؛ فإنْ أُريد به تعدُّد الآلهة والخالِقين والأرباب فهذا باطِلٌ؛ فإنّ صفات الله ليست آلهةً ولا خالقةً ولا أربابًا؛ وإنْ أُريد بالقدماء تعدُّد صفاتٍ قديمة لذاتٍ قديمة، فنَفْيُ هذا مصادرة علىٰ المطلوب، فلبَّسوا علىٰ المسلمين بقولهم: إنّ إثبات الصفات يقتضي تعدُّدَ القدماء».

(١) التدمرية (ص١٠).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٧٦).

وأَوَّلِيَّةُ الله وأبديته دالَّةٌ علىٰ كمالِ حياته، وغِنَاه عن خَلْقِه، وفَقْر المخلوقات إليه، ودالَّةٌ علىٰ قيومية الله وقَهْره لكل مخلوق، فهو الأول والآخِرُ، الحي القيوم، رب العالمين.

وهو الظاهر ففَوْقِيَّته وعُلُوُّه من خصائص ربوبيته، وهو الباطن القريب من خَلْقِه، مُحِيطٌ بهم بعِلْمِه وقدرته وتدبيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[1]: «في صحيح مسلم عن النبي ﷺ في تفسير ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] بقوله: «**أنتَ الأول فليس قبلك شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيءٌ، وأنتَ الظاهر فليس فوقكَ شيء، وأنتَ الباطن فليس دُونَكَ شيء**»، فجَعَل كمالَ ظهورِه مُوجِبًا لكمال فوقيته.

ولا ريب أنّه ظاهرٌ بذاته، فوق كل شيء بذاته، والظهور هنا العلو، ومنه قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يعلوه، وقَرَّر هذا المعنىٰ بقوله: «**فليس فوقك شيء**»، أي: أنتَ فوق الأشياء كلها. ليس لهذا اللفظ معنىٰ غير ذلك، ولا يَصِحُّ أنْ يُحمل الظهور علىٰ الغَلَبة؛ لأنّه قابله بقوله: «**وأنتَ الباطن**».

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة؛ اسمان لأَزَلِ الربِّ وأَبَدِه، واسمان لعُلُوِّه وقُرْبِه».

فمَن له هذا الكمال وله هذه الصفات، هو الذي لا يصح التألُّه إلا له.

واللهُ هو «الأول» و«الآخِر» أفادنا ذلك غنىٰ الله عن العالَمين، وافتقار المخلوقات كلها إليه، فهو الذي يُبْدِيها خَلْقًا ويفنيها متىٰ شاء، وعندما سُئل

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٧).

النبي ﷺ عن أول الأمر؟ قال: «كان الله ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قبله»، رواه البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

ودلَّت أُمُّ القرآن -سورة الفاتحة- علىٰ أَوَّلِيَّة الله، وبُطْلَان القول بقِدَم العالَم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «إثبات ربوبيته للعالَمِين، وتقرير ما ذكرناه، والعالَمُ: كلُّ ما سِوَاهُ، فثَبَت أنّ كل ما سواه مربوبٌ، والمربوب مخلوق بالضرورة، وكلُّ مخلوقٍ حادثٌ بَعْدَ أنْ لمْ يَكُن؛ فإذًا ربوبيته تعالىٰ لكل ما سواه تستلزم تقدُّمَه عليه، وحدوثَ المربوب.

ولا يُتصوَّر أنْ يكونَ العالَمُ قديمًا وهو مربوب أبدًا؛ فإن القديم مستغنٍ بأزليته عن فاعلٍ له، وكلُّ مربوبٍ فهو فقيرٌ بالذات، فلا شيءَ من المربوب يُغْنِي ولا قديمَ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: «ما جاء به السمع، وهو مطابق للعقل، من أنّ الله خالقُ كلِّ شيءٍ، وكل ما سواه مُحْدَثٌ مسبوقٌ بالعَدَم».

وهو الآخِرُ، وإليه تُرجع الأمور، فيجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيدٍ واحد فيحاسبهم جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فالتوحيد حقيقته: عبوديةُ مَن إليه المنتهىٰ.

(١) مدارج السالكين (١/ ٦٤).
(٢) الصفدية (٢/ ٣٢٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «عبودية هذين الاسمين -الأول والآخِر- وما يوجبانه من: صحة الاضطرار إلىٰ الله وحده، ودوام الفقر إليه دُونَ كلِّ شيء سواه، وأنّ الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المُبتدِئُ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أولُ كلِّ شيءٍ، وآخِرُه، وكما أنّه ربُّ كلِّ شيءٍ وفاعِلُه وخالِقُه وبارِئُه، فهو إلهُهُ وغايتُه التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وَحْدَه غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأول الذي ابتدأتْ منه المخلوقات، والآخِر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيءٌ يُقصد ويُعبد ويُتألَّه، كما أنه ليس قبله شيءٌ يَخْلق ويَبْرأ. فكما كان واحدًا في إيجادِكَ فاجعله واحدًا في تألُّهِكَ لتصحَّ لله عبوديته باسمه الأول والآخِر.

وأكثر الخَلْق تعبَّدوا له باسمه «الأول»؛ وإنّما الشأن في التعبد له باسمه الآخِر، فهذه عبودية الرُّسل وأتباعهم، فهو ربُّ العالمين وإلهُ المُرسَلِين سبحانه وبحمده».

وتضمَّن كلامُ شيخِ الإسلام هنا ذِكر صفة استواء الله علىٰ عرشه، واستواءُ الله ﷻ علىٰ العرش دلَّ عليه: القرآن والسُّنة والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٢١).

﴿بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

قال أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٢٩هـ)(١): «أَجْمَع أهلُ السُّنة علىٰ أنّ الله تعالىٰ علىٰ عرشه، علىٰ الحقيقة لا علىٰ المَجاز».

والاستواء معناه العلو، بهذا فَسَّره التابعون الذين تلقوا معاني القرآن عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: عَلَا علىٰ العرش، ذَكَره البخاري تعليقًا مَجْزُومًا به، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقد رواه الفريابي في تفسيره؛ ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهدٍ به(٢).

وفي الباب نفسه: قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استوىٰ إلىٰ السماء: ارتفع». قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أخرجه الطبري من طريق أبي جعفر الرازي عنه».

وقال قِوَام السُّنة الحافظ أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)(٤): «قال أهلُ السُّنة: الاستواء: هو العلو، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وليس للاستواء في كلام العرب معنىً إلا ما ذَكَرنا».

---

(١) الوصول إلىٰ معرفة الأصول، بواسطة مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٠٠).

(٢) تغليق التعليق (٥/ ٣٤٥).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤٩٨).

(٤) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٦٤).

وقد أخبرنا الله أنّه استوىٰ علىٰ عرشه، ولمْ يخبرنا كيف استوىٰ، فالخوض في الكيفية قولٌ علىٰ الله بغير علمٍ، ومن أسباب الضلال، وربما كان سببًا للإلحاد، وما استأثر الله ﷻ بعِلْمه ولم يُطْلِعْ عليه أَحَدًا من خَلْقِه فلا سبيل لأَحَدٍ في إدراكه.

قال يحيىٰ بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا نحتاج في هذا الباب إلىٰ قولٍ أكثر من هذا أنْ نُؤْمِنَ به، وننفي الكيفية عنه، ونتقي الشك فيه، ونوقن بما قاله الله سبحانه ورسولُه ﷺ، ولا نتفكَّر في ذلك، ولا نُسلِّط عليه الوَهْم، والخاطر، والوسواس.

وتَعْلم حقًّا يقينًا أنَّ كل ما تُصُوِّر في همِّكَ ووَهْمِكَ من كيفيةٍ أو تشبيه، فالله سبحانه بخلافه وغيره، نقول: هو بذاته علىٰ العرش، وعِلْمُه محيطٌ بكل شيء».

وقال جعفر بن عبد الله: جاء رَجُلٌ إلىٰ مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استوىٰ؟

قال: فما رأيتُ مالكًا وَجدَ من شيء كمَوْجِدته من مقالته، وعَلاه الرحضاء -يعني: العَرَق- قال: وأَطْرَق القومُ جعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه. قال: فسُرِّي عن مالكٍ، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ فإني أخاف أن تكون ضالًّا، وأَمَر به فأُخْرِج[٢].

والمسلمون مُجْمِعُون علىٰ أنّ الله في السماء، مُسْتَوٍ علىٰ عرشه، قال يحيىٰ بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كلُّ مُسْلِمٍ من أول العصر إلىٰ عصرنا هذا، إذا دعا الله سبحانه رفع

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٨٩).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١- رقم ٦٦٤).
(٣) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٨٩).

يديه إلىٰ السماء، والمسلمون من عهد النبي ﷺ إلىٰ يومنا هذا يقولون في الصلاة ما أمرهم الله به تعالىٰ به في قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]».

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شـــهدتُ بـــأنَّ وَعْـــدَ اللهِ حـــقٌّ	وأنَّ النـــار مثـــوىٰ الكافرينـــا
وأنَّ العـــرش فـــوق المـــاء طـــافٍ	وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا

وقال الأوزاعي رحمه الله: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله تعالىٰ ذِكْرُه فوق عَرْشِه، ونُؤْمِن بما جاءت به السُّنة من الصفات»، رواه البيهقي[١].

فالأوزاعي -وهو من أتباع التابعين- ينقل إجماع التابعين علىٰ عُلُوِّ الله علىٰ عرشه.

قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «الآثار المحفوظة عن الصحابة والتابعين كلها متفقة علىٰ أنّ الله نفسه فوق العرش».

وأئمة الإسلام المُتَّبِعُون للصحابة والتابعين كلهم أخذوا باتفاق السلف علىٰ عُلُوِّه جل وعلا علىٰ عرشه.

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «سُئِل مالك وسفيان بن عيينة وقبلهما ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن الاستواء فقالوا: «الاستواء معلوم»، تَلَقَّىٰ ذلك عنهم جميع أئمة الإسلام».

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إسناده صحيح»، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٧).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٤٥).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٤٥).

وقال أبو حاتم وأبو زرعة الرَّازِيَّان رحمهما الله[(١)]: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، ومصرًا، وشامًا، ويمنًا، فكان من مذاهبهم: أنّ الله علىٰ عرشه، بائِنٌ من خَلْقِه، كما وَصَف نفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، بلا كيفٍ، أحاط بكل شيء علمًا».

والعرش سقف الجنة، وأعلىٰ المخلوقات، واللهُ فوقه، والعرش مخلوق بعد أن لم يكن، فاستواء الله علىٰ عرشه هو من معاني علوه، فهو العليُّ فوق كل شيء، وهذا من خصائص رب العالمين؛ استواؤه علىٰ عرشه العظيم، لا عن حاجَةٍ، وبهذا نَعْرِفُ أنّ عُلُوَّ ربنا علىٰ العرش لا يلزم منه أن يكون العرشُ مُقِلًّا له.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ الله تعالىٰ مستوٍ علىٰ العرش؛ وإن كان ﷻ أكبر من العرش ومن غير العرش، ولا يلزم أن يكون العرش محيطًا به، بل لا يمكن أن يكون محيطًا به؛ لأنّ الله ﷻ أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

وأمَّا قولهم -المبتدعة-: يلزم أن يكون محتاجًا إلىٰ العرش.

فنقول: لا يَلْزم؛ لأنّ معنىٰ كونه مستويًا علىٰ العرش: أنّه فوق العرش؛ لكنه عُلُوٌّ خاصٌّ، وليس معناه أنّ العرش يُقِلّه أبدًا، فالعرش لا يُقِلّه، والسماء لا تُقِلّه، وهذا اللازم الذي ادَّعَيْتُمُوه مُمْتَنِعٌ؛ لأنّه نقصٌ بالنسبة إلىٰ الله ﷻ، وليس بلازمٍ من الاستواء

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٨٧).
(٢) شرح العقيدة الواسطية (١/ ٣٨٠).

الحقيقي؛ لأننا لسنا نقول: إنّ معنىٰ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، يعني: أنّ العرش يُقِلّه ويحمله، فالعرش محمولٌ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وتحمله الملائكة الآن؛ لكنه ليس حاملًا لله ﷻ؛ لأن الله ﷻ ليس محتاجًا إليه، ولا مفتقرًا إليه».

وحَرَّف المبتدعة معنىٰ «الاستواء» إلىٰ الاستيلاء، قال الحافظ قِوَام السُّنة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)(١): «الاستيلاء لا يُوصف إلا مَن قَدرَ علىٰ الشيء بعد العجز عنه، واللهُ تعالىٰ لَمْ يَزَلْ قادرًا علىٰ الأشياء ومُسْتوليًا عليها، ألا ترىٰ أنّه لا يُوصف بِشْرٌ بالاستيلاء علىٰ العراق إلا وهو عاجزٌ عنه قبل ذلك».

وفَسَّر ابنُ فورك وغيرُه من الأشاعرة الاستواء بالمُلْك، قال أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «زَعَم هؤلاء: أنَّ معنىٰ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: مُلْكه؛ وأنَّه لا اختصاص له بالعرش أكثر ممَّا له بالأماكن؛ وإنّما هذا إلقاءٌ لتخصيص العرش وتشريفه.

وقال أهلُ السُّنة: خَلَقَ الله السماوات والأرض، وكان عَرْشُه علىٰ الماء مخلوقًا قبل خَلْقِ السماوات والأرض، ثم استوىٰ علىٰ العرش بعد خَلْق السماوات والأرض علىٰ ما وَرَد به النص، وليس معناه المُمَاسَّة، بل هو مُسْتوٍ علىٰ عرشه بلا كيفٍ، كما أَخْبَرَ عن نفسه».

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٩٢).
(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٩٥).

وقال أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نقضِ قولِ مَن حَرَّف معنىٰ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ إلىٰ استولىٰ ومَلَك[(١)]: «وهل من شيءٍ لَمْ يستولِ اللهُ عليه -في دعواكَ-، ولَمْ يَعْلُهُ، حتىٰ خَصَّ العرشَ به من بين ما في السماوات وما في الأرض؟!

وهل نَعْرِف من مثقالِ ذَرَّةٍ في السماوات وفي الأرض، ليس اللهُ مالكه، ولا هو في سلطانه، حتىٰ خَصَّ العرش بالاستيلاء عليه من بين الأشياء؟!

وهل نازَعَ اللهَ من خَلْقِه أَحَدٌ أو غالبه علىٰ عرشه، فغلبه اللهُ ثُمَّ يستوي علىٰ ما غالبه عليه، مُغالبةً ومُنازعة؟!».

وتأويل المبتدعة «الاستواء» بالاستيلاء دالٌّ علىٰ ما في تحريفات المبتدعة لنصوص الوحي من الضَّلَال، فقد حَرَّفوا كلام الله بما يخالف لَفْظَ القرآن ومعناه، وكان البيان القرآني أدلَّ علىٰ مراد الله من التحريف البدعي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «تأويلات الاستواء بالقدرة أو بالرتبة، فكلُّ أَحَدٍ من الناس يَتصوَّر أنّ الله قادر علىٰ المخلوقات، قاهرٌ لها، أعظم مما يَتصوَّر استواءه عليها. فلأيِّ ضرورةٍ يُعبِّر عن المعنىٰ الظاهر الواضح بلفظٍ يكون تَصوُّرُ ظاهِرِه أخفىٰ من تَصوُّرِ ذلك المعنىٰ؟!».

فتفسير «الاستواء» بالاستيلاء لا يدلُّ عليه الخِطاب الشرعي ولا المعنىٰ اللُّغَوِي، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنّ الاستيلاء والاستواء لفظان متغايران،

---

(١) نقض الدارمي علىٰ المريسي (ص٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٩٠).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٩٨).

ومعنيان مختلفان، فحَمْلُ أحدهما علىٰ الآخَرِ إنِ ادَّعَىٰ أنه بطريق الوضع فكذبٌ ظاهرٌ؛ فإن العرب لم تضع لَفْظَ الاستواء للاستيلاء البتة؛ وإن كان بطريق الاستعمال في لغتهم فكذبٌ أيضًا».

وقال أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قال بعض علماء السُّنة: إذا تأمَّلتَ تعمُّقَهُم في التأويلات المخالفة لظاهر الكتاب والسُّنة وعُدُولهم عنهما إلىٰ زخرف القول والغرور، لتقوية باطلهم وتقريبه إلىٰ القلوب الضعيفة، لَاحَ لكَ الحق، وبَانَ الصدق، فلا تلتفت إلىٰ ما أَسَّسُوه، ولا تُبالِ بما زخرفوه، والزمْ نصَّ الكتاب وظاهِرَ الحديث الصحيح اللذين هما أصول الشرعيات؛ تَقِف علىٰ الهدىٰ المستقيم».



(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣١٦).

قال المصنف رحمه الله:

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

الشَّرْح

هذه النصوص في إثبات صفات الله: المحبة، والرِّضى، والغضب، والمَقْت، والسُّخْط، والإتيان، والاستواء.

وصفة «المحبة» لله دلَّ على ثبوتها: القرآن والسُّنة والإجماع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالموحِّدون أخلصوا محبتهم لله وحده تألُّهًا، ولمْ يَكُنْ في حُبِّهم شركًا لغيره، والمشركون أحبوا غيره، وسَوّوا بين الله والأنداد في المحبة، وذلك الذي يُرْدِيهم في النار، ويَنْعِي المشركون على أنفسهم بسببه، ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨].

ولا أَحَد يستحق أنْ يُحبَّ لذاته إلا الله ﷻ؛ وذلك لكمال أسمائه وصفاته.

---

(١) التدمرية (ص١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المحبة مع الخضوع هي العبودية التي خُلق الخَلْق لأَجْلِها؛ فإنّها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يَقْبَل لصاحبه عملًا.

وحَمْدُه يتضمَّن أصلين: الإخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها، فمَن أَخْبَرَ بمحاسن غيره من غير محبةٍ له، لَمْ يَكُن حامدًا، ومَن أَحَبَّه من غير إخبارٍ بمحاسنه، لَمْ يَكُن حامدًا، حتىٰ يجمع الأمرين».

والله ﷻ يحب عِباده المؤمنين لتوحيدهم وعبوديتهم له، ويحبه عِباده المؤمنون إجلالًا وتعظيمًا وتألُّهًا له، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الذي جاء به الكتاب والسُّنة واتَّفق عليه سلفُ الأُمَّة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين: أنّ الله يُحِبُّ ويُحَبُّ، كما نَطَق بذلك الكتاب والسُّنة في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، بل لا شيء يستحق أن يُحب لذاته محبةً مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنىٰ كونه معبودًا».

وحقيقة العبودية ترجع إلىٰ حُبِّ الله، فمَن أَخْلَص الحب لله لم يعبد غيره، ومَن أَحَبَّ غير الله وخضع له كان عبدًا له، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدِّينار**»، رواه مسلم.

(١) الفوائد (ص٢٦٧).
(٢) النبوات (١/ ٣٣٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الإنابة: هي عُكوفُ القلب على الله عَزَّوَجَلَّ، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه.

وحقيقة ذلك: عكوف القلب على محبته، وذِكْره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ. ومَن لمْ يعكف قَلْبُه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة، كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظُّه العكوف على الرب الجليل. والتماثيل: جَمْعُ تمثالٍ، وهي الصور المُمَثَّلة.

فتَعلُّقُ القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه، عكوفٌ منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظيرُ العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شِرْكُ عُبَّاد الأصنام؛ بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظيرُ عكوفِ عُبَّاد الأصنام عليها».

وحقيقة العبودية: هي محبة الله عَزَّوَجَلَّ وحده، وذلك لا يكون إلا باتباع رسوله ﷺ، فذلك حقيقة الدِّين كله، الشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) الفوائد (ص٢٨٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا يكون مُحِبًّا لله إلَّا مَن يَتبع رسولَهُ ﷺ. وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّما الدين الحَقُّ هو: تحقيق العبودية لله بكل وجهٍ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تَكْمُل محبة العبد لربه، وتَكْمُل محبة الرب لعبده، وبقدر نقصِ هذا يكون نقصُ هذا، وكُلَّما كان في القلب حُبٌّ لغير الله، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبوديةٌ لغير الله، كان فيه حُبٌّ لغير الله بحسب ذلك. وكلُّ محبةٍ لا تكون لله فهي باطلةٌ، وكلُّ عملٍ لا يُراد به وجهُ الله فهو باطلٌ».

وقال شيخ الإسلام[(٣)]: «كمالُ العبد: أنْ لا يريد، ولا يحب، ولا يرضى إلا ما أراده الله ورَضِيَه وأَحَبّه».

والمحبة تستلزم الرجاء لله والخوف منه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إذا كانت المحبة أَصْلَ كلِّ عملٍ دينيٍّ، فالخوف والرجاء وغيره تستلزم المحبة وترجع إليها؛ فإنّ الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يَفِرُّ من المَخُوف لينالَ المحبوب، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧]».

ويتفاضَلُ الناس في مراتب محبة الله بحسب ما يأتون من أسباب ذلك، قال

(١) العبودية (ص٩٦).
(٢) العبودية (ص١٠٠).
(٣) العبودية (ص١٠٨).
(٤) العبودية (ص٩١).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «مَن كان مُحِبًّا لله لَزِم أنْ يتبع الرسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أَخْبَر، ويطيعه فيما أَمَر، ويتأسَّىٰ به فيما فَعَل، ومَن فَعَل هذا فقد فَعَل ما يحبه الله، فيحبه الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الناس في حبِّ الله يتفاضلون ما بين أفضل الخَلْق محمدٍ وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلىٰ أدنىٰ الناس درجة، مثل: مَن كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من إيمان، وما بين هذين الحَدَّين من الدرجات لا يحصيه إلا ربُّ الأرض والسماوات».

والخُلَّة: هي كمال المحبة من العبد لله، المُستلزِمة لكمال عبوديته له، تَحقَّق بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «**إنّ الله اتخذني خليلًا، كما اتَّخذَ إبراهيم خليلًا**»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إن محمدًا ﷺ سَيِّدُ الجميع، وهو خليل الله، كما أنّ إبراهيم خليله، والخليلان هما أفضل الجميع».

والتوحيد لرب العالمين هو أساسُ كلِّ فضيلة، فهو الشجرة الطيبة التي تُثْمِر كلَّ قولٍ وعملٍ صالح، قال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال النبي ﷺ في وَصْف خيرِ المُوحِّدِين بعد النبيين الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**هُمُ الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يَتطيَّرُون، وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلُون**»، متفق عليه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) العبودية (ص٩٤، ٩٥).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٦٦).

(٣) النبوات (١/ ٢١١).

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[١]: «كُلمَّا ازداد المسلم بالله علمًا، وله طاعةً، ومنه خوفًا، كان ذلك زائدًا في إيمانه.

وبالمعرفة، والعقول، والفضائل في الأعمال والأخلاق، والاستباق إلىٰ الله تعالىٰ بالأعمال الزاكية، تفاضَلَ الناسُ عند خالقهم، وعَلَا بعضهم فوق بعض درجات».

والمحبة بيانُها لَفْظُها، فمعناها في لَفْظِها أشدُّ وضوحًا من تفسيرها بغيره من الألفاظ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «لا تُحَدُّ المحبة بحَدٍّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجَفاءً، فحَدُّها وُجُودها، ولا تُوصف المحبة بوصفٍ أظهر من المحبة».

وإنكار صفة المحبة لله ﷻ هو أول ما ابتدعه المُعطِّلة في هذه الأُمَّة، ابتدعه الجَعْدُ بنُ دِرْهَم، وفي ذلك: إبطالٌ للدِّين، وتعطيلٌ لعبودية الله ﷻ؛ لأنَّ محبة الله هي الباعثة لعبوديته وطاعته، وهي الموجبة لإيثار مراضيه علىٰ معاصيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «الإله: هو الذي يَأْلَهُه القلب بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تَصْدُر إلَّا عن محبة الله تعالىٰ».

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٠).

(٣) العبودية (ص٥٣).

(٤) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٣).

وإنكار صفة المحبة لله في حقيقته إفسادٌ للشرع وتعطيلٌ له؛ فإن الله شَرَع ما يحبه من الاعتقادات والأقوال والأعمال، فمَن أَنْكَر ما أَحَبَّه اللهُ فقد أَنْكَر شَرْعَه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[١]: «إنّ ما شَرَعه سبحانه وأَمَر به، يُحِبُّه ويرضاه، وما نهىٰ عنه فإنه يَكْرهه ويُبْغِضه؛ لمنافاته لِمَا يحبه ويرضاه، فهو يُحِبُّ ضِدَّه، فعاد دِينه الأمري كله إلىٰ محبته ورضاه.

ودِينُ العبد لله به إنما يُقبل إذا كان عن محبةٍ ورِضىٰ، كما قال النبي ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإيمان: مَن رَضِيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»، فهذا الدِّينُ قائِمٌ بالمحبة، وبسببها شُرِع، ولأَجْلِها شُرِع، وعليها أُسِّسَ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «إنّ الشرائع مبناها علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، والإلهُ هو المستحق لكمال الحب، بكمال التعظيم والإجلال والذل له والخضوع له، فإنكارُ المحبة إنكارٌ لنفس الإلهية».

والمحبة تنقسم إلىٰ: محبةٍ شرعية: وهي حُبُّ الله جَلَّ وَعَلَا وحده تألُّهًا، وحُبُّ ما يحبه، وحُبُّ أوليائه.

ومحبةِ شِرْكٍ وبدعةٍ ومعصيةٍ: وهي محبة غير الله، ومحبة ما يكرهه الله.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ[٣]: «**محبة الله**: وهي روحُ التوحيد، وأصلُ العبادات والتَّقَرُّبات كلها.

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٧٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٣٥، ١٤٣٦).

(٣) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٢٠٢).

ومحبةٌ في الله: وهي محبة ما يحبه الله من أنبيائه وأوليائه والأعمال المُقرَّبة إلىٰ الله، وهذه من تمام محبة الله، وبحسب قوة محبة الله تَقْوَىٰ هذه المحبة.

ولهذا وَرَد في الدعاء المشهور: «**اللهم إني أسألُكَ حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ، وحُبَّ العمل الذي يُقرِّب إلىٰ حُبِّكَ**».

والثالث: **المحبة مع الله**: وهي محبةُ المشركين لآلهتهم مع الله محبة عبودية، وهذه منافية للتوحيد من كلِّ وجهٍ.

وثَمَّ محبة طبيعية لا تُحمد ولا تُذم إلا لآثارها، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الأليف والوطن ونحو ذلك».

واستدلَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بثبوت صفة الرضىٰ لله بقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ويدلُّ لهذه الصفة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

ويدلُّ لثبوت هذه الصفة لله من السُّنة: حديثُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله يَرْضَىٰ لكم ثلاثًا، ويَكْرَه ثلاثًا، فيرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا؛ وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكْره لكم قِيلَ وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»، رواه مسلم.

ودلَّ علىٰ ثبوت صفة الرضا لله من السُّنة أيضًا: ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله يقول لأهل الجَنَّة: يا أهل الجنة. فيقولون: لَبَّيكَ ربنا وسَعْدَيكَ، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟**

فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا رب وقد أعطيتنا ما لمْ تُعْطِ أَحَدًا من خَلْقِكَ؟ فيقول: أَلَا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسْخَط عليكم بعده أبدًا».

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله يرضىٰ حقيقةً كما أنه يَسْخَط حقيقةً».

والمسلم لا يتحقَّق له توحيدٌ إلا بالتألُّه لله بما يرضيه، وذلك بعبوديته وشُكْرِه، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

ولا يتحقَّق للمسلم توحيدٌ إلا بالرِّضا بخَلْق اللهِ وأَمْرِه، فعن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إنَّ أَمْرَه كله له خير؛ إنْ أصابته سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم**»، رواه مسلم.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الرضىٰ: صفةٌ في الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي صفةٌ حقيقية متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية».

وقال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «معنىٰ الرضا والغضب والمحبة ونحو ذلك معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٥٥).
(٢) شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٦٠).
(٣) شرح العقيدة الواسطية (ص٧٨).

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «كلامُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ميزانٌ لجميع الصفات».

والواجب في إثبات صفات الله: لُزومُ ألفاظِ الوحي، ووَصْفُ الله بغير ذلك يوقع في الخطأ، وقد أَنْكَر شيخ الإسلام علىٰ مَن وَصَف الله بأنه يَلْتذ ويبتهج، وقال[٢]: «السلف والأئمة وأهل السُّنة مُقِرُّون بما جاء به الكتابُ والسُّنة من محبة الله وفرحه ورضاه وضحكه ونحو ذلك، وما يثبتون من الحق فهو داخلٌ في هذه المعاني؛ لكن أهل السُّنة يُعبِّرُون بالعبارات الشرعية، فيجمعون بين كمالِ المعنىٰ واللفظ، وموجب العقل والشرع».

وثبوت صفة «الغضب» لله ﷻ دلَّ عليها القرآنُ والسُّنة، واستدل له شيخ الإسلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ويدل لثبوت صفة «الغضب» لله قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إنما غَضِبَ عليهم لكُفْرِهم، وهذا شاملٌ لجميع أصناف الكفار».

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (١/ ١٠٠).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٣٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص١٠١٩).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قوم شَجّوا نبيَّهم**».

وتأوَّلتِ الأشاعرة صفة «الغضب» لله بالانتقام، والقرآنُ يدلُّ علىٰ بطلان هذا التحريف، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿ءَاسَفُونَا﴾، يعني: أغضبونا وأَسْخَطونا، و﴿لَمَّا﴾: هنا شرطية، فِعْلُ الشَّرْط فيها ﴿ءَاسَفُونَا﴾، وجوابه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ففيها ردٌّ علىٰ مَن فَسَّروا السُّخْط والغضب بالانتقام؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إنّ المراد بالسُّخْط والغضب الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يُفسِّرُون السَّخَط والغضب بصفةٍ من صفات الله يَتَّصِف بها هو نفسه، فيقولون: غضبه، أي: انتقامه، أو إرادة انتقامه، فهُمْ إمَّا أنْ يُفسِّروا الغضب بالمفعول المنفصل عن الله وهو الانتقام، أو بالإرادة لأنهم يُقِرُّون بها، ولا يُفسِّرُونه بأنه صفة ثابتة لله علىٰ وجه الحقيقة تليق به.

ونحن نقول لهم: بل السَّخَط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسَّخَط، كما نقول: إنّ الثواب نتيجة الرضىٰ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسْخَط علىٰ هؤلاء القوم ويَغْضَب عليهم ثم ينتقم منهم».

واستدلَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لثبوت صفة «السَّخَط» لله بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

(١) شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٧٠).

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «السُّخْط: هو عدم الرضى، والسُّخْط إلى الكراهة أقرب منه إلى الغضب؛ فإنَّ الغضبَ يُعَدَّى بـ«عَلَى»، والسُّخْط يُعدَّى بها تارة، وبنفسه أخرى.

وبين السُّخْط والغضب فَرْقٌ واضح، كثيرًا ما يُقابَل السُّخْط بالرضا، والغضب لا يُقابَل به».

واستدلَّ شيخ الإسلام لثبوت صفة «المَقْت» لله بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «المَقْتُ: أَشَدُّ البُغْض».

وصفةُ «الإتيان» استدلَّ لها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا إتيانُ لله حقيقةً؛ للقضاء بين خَلْقِه يوم القيامة.

وحرَّف المبتدعة مَجِيء الله وإتيانه إلى مَجِيء أَمْرِه أو ملائكته، وهذا تحريفٌ يُبْطِله لَفْظ الآية وسياقها؛ فإن الله أضاف الإتيان إليه حقيقةً، وجَعَل إتيان الملائكة غيره، فالتسوية بينهما إبطالٌ لِمَا دلَّت عليه الآية.

وممَّا يدلُّ على ثبوت «الإتيان» لله حقيقةً: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٥٥).
(٢) شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٧٣).

ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فرَّق بين إتيان الملائكة، وإتيان الرب، وإتيان بعض آياته، فقَسَّم ونَوَّع، ومع هذا التقسيم يَمْتنع أن يكون القسمان واحدًا، فتأَمَّلْه».

ومَجِيء الله وإتيانه من صفاته الفعلية؛ لأنه مُتعلِّق بمشيئته، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «في هذه الآية دليلٌ لمذهب أهل السُّنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالىٰ، كالاستواء والنزول والإتيان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من غير تشبيهٍ له بصفات المخلوقين».

وقال قِوَامُ السُّنة الحافظ أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الإيمان بما وَرَد في القرآن من صفات الله تعالىٰ، كاليد، والإتيان، والمجيء، وإمرارها علىٰ ما جاءتْ، لا تُكيَّف، ولا تُتأَوَّل».

وصفات: الغضب، والضحك، والعجب، والمجيء، والإتيان، والنزول تفسيرُها: ألفاظُها الواردة في القرآن والسُّنة، فإنها بيانٌ لمعانيها، لا يُتكلَّف في تفسيرها بما يكون تحريفًا أو إغرابًا بدل البيان الإلهي.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إن مَن مَضَىٰ من الأُمَّة لم يزالوا يقولون في ذلك كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يَعْرِفُون له تأويلًا غير ما يُتلىٰ من ظاهره».

وهذا معنىٰ قول السلف: «أَمِرُّوها كما جاءتْ».

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٠٥).

(٣) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣١٢).

(٤) الرد علىٰ الجهمية (ص١٥٤).

قال أبو داود: «سمعتُ إسحاق يقول: إنّ الله ﷻ وَصَف نفسه في كتابه بصفاتٍ استغنىٰ الخَلْق كلهم أن يَصِفُوه بغير ما وَصَف به نفسه»(١).

وقال مخلد بن الحسين: «قال لي الأوزاعي: يا أبا محمد، إذا بَلَغكَ عن رسول الله ﷺ حديثٌ، فلا تظنن غيرَهُ؛ فإن محمدًا ﷺ كان مُبلِّغًا عن ربه»(٢).

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيءٍ وَصَف الله به نفسه في القرآن، فقراءته تفسيرُه، لا كَيْفَ ولا مِثْلَ»(٣).

وقال أبو سليمان داود بن علي: «كُنَّا عند ابن الأعرابي فأتاه رَجُلٌ، فقال له: ما معنىٰ قول الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ فقال: هو علىٰ عرشه، كما أَخْبَرَ ﷻ.

فقال: يا أبا عبد الله، ليس هذا معناه؛ إنما معناه: استولىٰ. قال: اسْكُتْ، ما أنتَ وهذا، لا يُقال: استولىٰ علىٰ الشيء إلا أن يكون له مُضَادٌّ، فإذا غَلَبَ أحدهما، قيل: استولىٰ»(٤).

واعتقادُ السلف بإمرار نصوص الصفات كما جاءت اتَّبعهم عليه بإحسان مَن تَوارَث عنهم دِينهم، وكان ذلك إجماعٌ تَوارَثه المسلمون عن الصحابة والتابعين في كل نصوص الصفات.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٢١).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٤).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٦).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤٢- رقم ٦٦٦).

قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إن السلف الصالح ومَن سَلَك سبيلهم من الخَلَف مُتَّفِقون علىٰ إثبات نزول الرب ﷻ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا. وكذلك هُمْ مُجْمِعون علىٰ إثبات الإتيان، والمجيء، وسائر ما وَرَد من الصفات في الكتاب والسُّنة من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. ولمْ يَثْبُت عن أَحَد من السلف أنه تأوَّل شيئًا من ذلك».

وإمرار نصوص الصفات كما جاءت هو اعتقاد العلماء كافَّة، قال أبو بكر المروذي: «سألتُ أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تَرُدّها الجهمية في الصفات والرؤية، والإسراء، وقصة العرش، فصحَّحه أبو عبد الله، وقال: تَلَقَّتها العلماء بالقبول، تُمَر الأخبار كما جاءت»[٢].

وقال العلَّامة أبو نصر عبيد الله السجزي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٤٤٤هـ)[٣]: «أئمتنا -رحمهم الله- كسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي مُتَّفِقون علىٰ أنّ الله ﷻ بذاته فوق عرشه، وأنَّ عِلْمه بكل مكان، وأنّه يُرىٰ يوم القيامة بالأبصار فوق العرش، وأنّه ينزل إلىٰ سماء الدنيا، وأنّه يَغْضب ويَرْضىٰ، ويتكلم بما شاء، فمَن خالَفَ شيئًا من ذلك فهو منهم بَرِيءٌ، وهُمْ منه بَراء».

فالمسلم يَلْزَم الإجماع، ولا يخالف اعتقاد السابقين الأوَّلِين.

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٦٣٦).
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢١٨).
(٣) الإبانة، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٤٥١، ٤٥٢).

قال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامه المقدسي رَحِمَهُ اللهُ(١): «الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعوا علىٰ تركِ التأويل بما ذَكَرنا عنهم، وكذلك أهلُّ كلِّ عَصْرٍ بَعْدَهم، ولمْ يُنقل التأويل إلا عن مُبتدِعٍ أو منسوبٍ إلىٰ بدعة. والإجماع حُجَّة قاطعة؛ فإن الله لا يَجْمع أُمَّة محمد ﷺ علىٰ ضلالة».

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ في رسالة الاصطخري: «إنَّ الله يحب ويَكْره، ويَبْغض ويرضىٰ، ويَغْضب ويَسْخط، ويرحم ويعفو ويغفر، ويعطي ويمنع»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ(٣): «العصمة النافعة في هذا الباب: أنْ يُوصَفَ اللهُ بما وَصَف به نفسه، وبما وَصَفه به رسولُه ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تُثْبِت له الأسماء والصفات، وتَنْفِي عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتُكَ مُنزَّهًا عن التشبيه، ونَفْيُكَ مُنزَّهًا عن التعطيل، فمَن نَفَىٰ حقيقة «الاستواء» فهو مُعطِّلٌ، ومَن شَبَّهه باستواء المخلوق علىٰ المخلوق فهو مُمثِّلٌ، ومَن قال: استواءٌ ليس كمثله شيء فهو المُوحِّدُ المُنزِّه.

وهكذا الكلام: في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضىٰ، والغضب، والنزول، والضحك، وسائر ما وَصَف الله به نفسه».

فالمسلمون يُصدِّقون خبر الله ﷻ فيما وَصَف به نفسه، لا يُكذِّبونه، ولا يُحرِّفونه، فهذا الاعتقاد الواجب علىٰ كل مسلم.

---

(١) ذم التأويل (ص٤٠).

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٥١).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٧٢).

قال العلَّامة أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن أهل الحق يَصِفُون الله ﷻ بما وَصَف به نفسه ﷻ، وبما وَصَفه به رسولُه ﷺ، وبما وَصَفه به الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا مذهب العلماء ممَّن اتَّبع ولمْ يَبتدع، ولا يُقال فيه: كيف؟ بل التسليم له والإيمان به: أنّ الله ﷻ يضحك، كذا رُوي عن النبي ﷺ وعن صحابته، فلا يُنْكِر هذا إلا مَن لا يُحمد حالُه عند أهل الحق».

وقال فقيهُ الإسلام العلَّامة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ممَّا جاء من آيات الصفات: قول الله ﷻ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالىٰ إخبارًا عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالىٰ في الكُفَّار: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن السُّنة: قول النبي ﷺ: «**ينزل ربنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا**»، وقوله: «**ويَعْجَب ربُّكَ من الشَّاب ليس له صَبْوَةٌ**»، وقوله: «**ويضحك الله إلىٰ رَجُلين قَتَل أحدهما الآخَر، ثُمَّ يدخلان الجَنَّة**».

فهذا وما أَشْبَهه ممَّا صَحَّ سندُه، وعُدِّلت رُواتُه، نُؤْمِن به، ولا نَرُدّه، ولا نَجْحَده، ولا نتأوَّله بتأويلٍ يخالف ظاهره، ولا نُشبِّهه بصفات المخلوقين، ولا سِمَات المُحْدَثِين،

(١) الشريعة (ص٢٥٣، ٢٥٤).
(٢) لمعة الاعتقاد (ص١٧١-١٧٣).

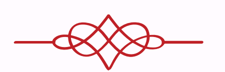
ونَعْلم أن الله ﷻ لا شبيه له، ولا نظير ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وإثباتُ ما أَثْبَته الله ﷻ لنفسه عامٌّ لكلِّ نصوص الصفات، هذا الواجب اعتقاده، لا يصح التصديق بأخبار الله إلا كذلك، خلافًا لمَن كذَّبها كلها، أو مَن كذَّب بعضها.

قال قِوَام السُّنة الحافظ أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «من مذهب أهل السُّنة: الإيمان بجميع ما ثَبَت عن النبي ﷺ في صفة الله تعالىٰ».

وقال أبو القاسم الأصبهاني[(٢)]: «والإيمان بما وَرَد في القرآن من صفات الله تعالىٰ كاليد، والإتيان، والمجيء، وإمرارها علىٰ ما جاءت، لا تُكَيِّف، ولا تَتأَوَّل».

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٦٠٠هـ)[(٣)]: «صحَّ عن رسول الله ﷺ بنقلِ العدل عن العدل مثل: المحبة، والمشيئة، والإرادة، والضحك، والفرح، والعجب، والبُغض، والسَّخط، والكُره، والرضا، وسائر ما صح عن الله ورسوله، وإنْ نَبَتْ عنها أسماعُ بعضِ الجاهلين واسْتَوْحَشَتْ منها نفوسُ المُعطِّلين».



(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣٠٥).
(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣١٢).
(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (ص١١٨-١٢٣).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

الشَّرح

هذه النصوص في إثبات صفة «الكلام» لله ﷻ، وتضمَّنت هذه النصوص التي استدلَّ بها شيخ الإسلام إثبات نَوْعي كلمات الله: الشرعية والكونية.

كلمات الله الشرعية: هي وَحْيُ الله لرُسُلِه عليهم الصلاة والسلام.

وكلمات الله الكونية: هي التي كَوَّن بها الكائنات، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالمخلوق الذي خَلَقَه اللهُ بائِنٌ من الله، ليس هو كلامه، وإنما خُلِق بقوله تعالىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فالمسلم يُؤْمِن بكلمات الله، قال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «مَن زَعَم أن الله لَمْ يُكلِّم موسىٰ فهو كافِرٌ».

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «مَن زَعَم أن الله ﷻ لَمْ يُكلِّم موسىٰ فقد رَدَّ نصَّ القرآن، وكَفَر بالله العظيم».

(١) التدمرية (ص١١، ١٢).

(٢) التسعينية (٢/ ٥٨٩).

(٣) الشريعة (ص٢٧٢).

والله ﷻ يتكلم بصوتٍ وحَرْفٍ إذا شاء، دلَّ على ذلك: القرآنُ، والسُّنة، والإجماع، قال الله ﷻ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، فأفادتنا هذه الآيات أربع مسائل:

الأولىٰ: أن المُتكلِّم حقيقةً هو الله ﷻ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رادًّا على المعتزلة[(١)]: «قال الله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وتُنْكِرون هذا؟! فتكون هذه الياء المذكورة تَرِدُ على غير الله، ويكون مخلوق يَدَّعي الرُّبوبيَّة إلا هو ﷻ، وقال الله لموسىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]».

وقال الحافظ العلَّامة محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١١هـ)[(٢)]: «بيَّن اللهُ في الآي الثلاث: بعضَ ما كَلَّم اللهُ به موسىٰ، ممَّا لا يَجُوز أن يكون من ألفاظِ مَلَكٍ مُقرَّب، ولا مَلَكٍ غيرِ مُقرَّبٍ، غيرُ جائزٍ أنْ يُخاطِبَ مَلَكٌ مُقرَّبٌ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] أو يقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فَأَعْلَمَ اللهُ في هذه الآية أنَّ له ﷻ كلمةً يَتكلَّم بها».

---

(١) محنة الإمام أحمد، لحنبل بن إسحاق بن حنبل (ص٥٢).

(٢) التوحيد (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

المسألة الثانية: أن الله يتكلم إذا شاء، فالله ﷻ كَلَّم موسىٰ بمشيئته، فالله ﷻ يتكلم إذا شاء، كيف شاء، بما شاء، ولمْ يَزَلْ مُتكلِّمًا.

والله ﷻ لمْ يَزَلْ مُتكلِّمًا إذا شاء بما شاء، بكلامٍ مسموع، وأمَّا الجهمية وفروعهم كالأشاعرة والكُلَّابِيَّة فأَنْكَرُوا أن يكون الله متكلمًا؛ لإنكارهم قيام الأفعال الاختيارية بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قالوا -الجهمية-: إنَّ الرب لا تَقُوم به الصفات ولا الأفعال؛ فإنها أَعْرَاضٌ وحَوادِث، وهذه لا تَقُوم إلا بجسم، والأجسام مُحْدَثة، فيَلْزَم أن لا يَقُومَ بالربِّ عِلْمٌ، ولا قدرة، ولا كلام، ولا مشيئة، ولا رحمة، ولا رضا، ولا غضبٌ، ولا غير ذلك من الصفات، بل جميع ما يُوصف به من ذلك فإنما هو مخلوقٌ مُنْفَصِل عنه».

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ابن كُلَّاب أَخَذ أَصْل الجهم بإنكار قيام الأفعال الاختيارية بالله، وكان ذلك من أسباب إنكاره لكلام الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «سَلَّم -ابنُ كُلَّاب- لهم -الجهمية- ذلك الأصل، الذي هو يَنْبُوع البدع، فاحتاج لذلك أن يقول: إن الرب لا تَقُوم به الأمور الاختيارية، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا نادىٰ موسىٰ حين جاء الطور، بل ولا يقوم به نداءٌ حقيقي».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ابنُ كُلَّاب قال: الحروف حكاية عن

(١) منهاج السنة (١/ ٣١١).
(٢) منهاج السنة (١/ ٣١٢).
(٣) التسعينية (٢/ ٤٣٨).

كلام الله، وليست من كلام الله؛ لأن الكلام لا بُدَّ أن يَقُوم بالمتكلم، واللهُ يَمْتنع أن يَقُوم به حروفٌ وأصوات -في قوله-، فوَافَق الجهمية والمعتزلة في هذا النفي.

فجاء الأشعري بَعْدَه -وهو مُوافِقٌ لابنِ كُلَّاب- علىٰ عامَّة أصوله، فقال: الحكاية تقتضي أن تكون مثلَ المَحْكِي، وليست الحروف مثل المعنىٰ، بل هي عبارةٌ عن المعنىٰ ودلالةٌ عليه، وَهُم وأتباعهم يقولون: إنّ تسمية ذلك كلامًا لله مَجازٌ لا حقيقةٌ، ويُطْلِقُون القول الحقيقي بأنّ أَحَدًا من المسلمين لمْ يَسْمع كلام الله».

المسألة الثالثة: أن الله يتكلم بصوتٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، والنداء لا يكون إلا بصوتٍ إجماعًا.

قال العلَّامة أبو نصر السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٤هـ)[١]: «النداء عند العرب صوتٌ لا غَيْر».

وقال الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، قال العلَّامة أبو نصر السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الاستماع بين الخَلْق لا يقع إلَّا إلىٰ صوت، وهو غيرُ الإفهام؛ لأن الفهم يتأخر عن السمع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «عُلم بإجماع الأُمَّة ما استفاضت به السُّنن من تخصيص موسىٰ بتكليم الله إياه، دلَّ ذلك علىٰ أنّ الذي حصل له ليس من جنسِ الإلهامات وما يُدرك بالقلوب؛ وإنما هو كلامٌ مسموع بالآذان، ولا يُسمع بها إلا ما هو صوتٌ».

---

(١) الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت (ص١٦٧).

(٢) الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت (ص١١٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٣٢).

المسألة الرابعة: أن الله يتكلم بحَرْفٍ، وذلك واضح من كلام الله الذي كَلَّم به موسىٰ، وعَقلَهُ موسىٰ عَلَيْهِالسَّلَامُ، وسَمِعَه.

والسُّنة تَعْضُد القرآن في أنّ الله يتكلم بصوتٍ، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يقول الله تعالىٰ: يا آدم، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيْكَ، فينادِي بصوتٍ: إنّ الله يأمركَ أن تُخْرِجَ من ذُرِّيتك بَعْثًا إلىٰ النار**»، متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا تكلَّم الله تعالىٰ بالوحي، سَمِع أهلُ السماء للسماء صَلْصَلَةً كجَرِّ السِّلْسِلَة علىٰ الصَّفَا، فَيُصْعَقُون، فلا يزالون حتىٰ يأتيهم جبريل عَلَيْهِالسَّلَامُ، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربكَ؟ فيقول: الحقَّ، وهو العلي الكبير**»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «قد سَمَّت الملائكةُ كلام الله كلامًا، ولم تُسَمِّه خَلْقًا».

وعن عبد الله بن أنيس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «يَحْشُر اللهُ العِباد، فيناديهم بصوتٍ يَسْمَعه مَن بَعُد، كما يسمعه مَن قَرُب: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّان»، علَّقه البخاري، ورواه أحمد مُسْنَدًا[٢].

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٤٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "إسناد صالح"، فتح الباري (١/ ١٧٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذا دليلٌ على أن صَوْتَ الله لا يُشْبِهِ أصوات الخَلق؛ لأن صوت الله يُسمع من بُعْدٍ كما يُسمع من قُرْب».

والأحاديث المَرْوِيَّة في إثبات صفة الكلام لله كثيرة، قال أمير المؤمنين في الحديث؛ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٥٦هـ)(٢): «تَواتَرت الأخبار عن النبي ﷺ: أن القرآن كلام الله».

وكلامُ الله ﷻ بصوتٍ وحَرْفٍ، لا يستلزم الحَلْق، فالله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وإذا كان كلام المخلوق لا يستلزم الحَلْق، فما أَضَلَّ مَن نَفَىٰ عن الله ما أَثْبَته لنفسه من كلامه بصوتٍ وحَرْفٍ زاعمًا أنَّ ذلك يستلزم الحَلْقَ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أمَّا قولهم: إن الكلام لا يكون إلا من جَوْفٍ، وفَمٍّ، وشفتين، ولسان، أليس قال الله للسموات والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، أتراها أنها قالت بجوفٍ، وفمٍّ، وشفتين، ولسانٍ، وأدوات؟!

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أتراها أنها سَبَّحت بجوفٍ، وفم، ولسان، وشفتين؟!

والجوارح إذا شهدت علىٰ الكافر، فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١]، أتراها أنها نطقت بجوفٍ، وفم، وشفتين، ولسان؟!

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩).
(٢) خلق أفعال العباد (ص٦٧).
(٣) الرد علىٰ الجهمية والزنادقة (ص٢٦٨، ٢٦٩).

ولكنَّ اللهَ أَنْطقها كيف شاء.

وكذلك اللهُ تكلَّم كيف شاء من غير أن يقول بجوفٍ، ولا فم، ولا شفتين، ولا لسان».

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قول القائل: بأن الحرف والصوت لا يكون إلا من مَخَارِج، باطِلٌ ومُحالٌ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠]، وكذلك قال عَزَّوَجَلَّ عن السماء والأرض أنهما: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فحصَلَ القولُ من غير مَخَارِج ولا أدوات.

ورُوي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كلَّمه الذِّراع المسمومة، وصَحَّ أنه سلَّمَ عليه الحَجَر، وسلَّمتْ عليه الشجرة».

والإجماع مُنعَقِد من طبقة الصحابة علىٰ إثبات صفة الكلام لله، واعتقاد أن القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يزال هذا الإجماع متوارثًا في الأُمَّة، لا يخالفه إلا جهميٌّ.

قال الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ المنبر في حضرة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «إن هذا القرآن كلام الله»[2].

قال قِوَام السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)[3]: «هو إجماع الصحابة، وإجماع التابعين بَعْدَهم».

(١) الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٤٩، ١٥٠).

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص٦٥- رقم ٩٨).

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٣١).

وعلَّق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٥٦هـ) علىٰ قول النبي ﷺ: «مَنَعُوني أنْ أُبلِّغَ كلامَ ربي»[(١)] بقوله: «بيَّن النبيُّ ﷺ أن الإبلاغ منه، وأن كلام الله من ربه، ولَمْ يُذكر عن أَحَدٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خِلَاف ما وَصَفْنا».

وحَكَىٰ البخاريُّ إجماعَ العلماء بعد طبقة التابعين علىٰ نحو اعتقاد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وإجماعهم، فقال[(٢)]: «لَمْ يَكُن بين أَحَدٍ من أهل العلم في ذلك اختلاف إلىٰ زمن مالك، والثوري، وحماد بن زيد، وعلماء الأمصار، ثم بعدهم ابن عيينة في أهل الحجاز، ويحيىٰ بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي في مُحدِّثي أهل البصرة، وعبد الله بن إدريس، وحفص بن غياث، وأبو بكر بن عياش، ووكيع، وذووهم، ابن المبارك في متبعيه، ويزيد بن هارون في الواسطيين، إلىٰ عصر مَن أدركنا من أهل الحرمين مكة والمدينة، والعراقيين، وأهل الشام، ومصر، ومُحدِّثي أهل خراسان، منهم: محمد بن يوسف في متنابية، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك في مجتبيه، وإسماعيل بن أبي أويس مع أهل المدينة، وأبو مسهر في الشاميين، ونعيم بن حماد مع المصريين، وأحمد بن حنبل مع أهل البصرة، والحميدي من قريش، ومَن اتَّبع الرسول من المكيين، وإسحاق بن إبراهيم، وأبو عبيد في أهل اللغة، وهؤلاء المعروفون بالعلم في عصرهم بلا اختلاف منهم أن القرآن كلام الله».

القرآن كلام الله جَلَّ وَعَلَا، وكلام الله صفةٌ قائمةٌ به سبحانه، فمَن زَعَم أن القرآن مخلوق فقد زَعَم أن الله مخلوق؛ فهو كافر.

---

(١) خلق أفعال العباد (ص٦٧).

(٢) خلق أفعال العباد (ص٦٩).

قال وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن زَعَم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن شيئًا من الله مخلوق؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، ولا يكون من الله شيء مخلوق».

وقال أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُعلِّقًا[(٢)]: «وكذلك فَسَّره أحمد بن حنبل، ونعيم بن حماد، والحسن بن الصباح البزار، وعبد العزيز بن يحيىٰ المكي الكناني».

وقال حرب بن إسماعيل الكرماني: سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول: ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله، وليس بمخلوق.

وكيف يكون شيء من الرب عَزَّ ذِكْرُه مخلوقًا؟! ولو كان كما قالوا لَزِمَهم أن يقولوا: عِلْمُ الله، وقدرته، ومشيئته مخلوقة.

فإن قالوا ذلك، لزمهم أن يقولوا: كان اللهُ -تَبارَكَ اسمُه- ولا عِلْم، ولا قدرة، ولا مشيئة.

وهو الكُفر المَحْض الواضح.

لَمْ يَزَلِ اللهُ عالمًا متكلمًا، له المشيئة والقدرة في خَلْقه، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق، فمَن زعم أنه مخلوق فهو كافر[(٣)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٤٥).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٤٥).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٥١٦، ٥١٧).

وعقيدتنا مُتَوارَثة عن خير القرون، وتَلقِّي العقيدة عنهم هو من اتِّباعهم بإحسان، ومن أسباب رِضى الله.

قال التابعي الجليل عمرو بن دينار المكيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أدركتُ الناس منذ سبعين سَنة، يقولون: الله الخالق، وما سواه مخلوق، إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يَعُود».

قال محمد بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومَن مشيخته -عمرو بن دينار- إلَّا أصحاب رسول الله ﷺ: ابن عباس، وجابر.. وذَكَر جماعةً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ».

وقال أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُضِيفًا[3]: «قلتُ: فقد لَقِيَ عمرو بن دينار مَن تقدَّم ذِكْره من الصحابة، ومَن جالسَ من التابعين ولَقِيَهم وأَخَذ عنهم:

مِنْ علماء مكة: مِن عِلْيَة التابعين: عبيد بن عمير، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، فهؤلاء أصحاب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن أهل المدينة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وابنه محمد بن علي، ونافع بن جبير بن مطعم، في خَلْقٍ كثير يَكْثُر تعدادُهم.

وأمَّا أهل البصرة: فروىٰ عن الحسن، وسليمان بن طرخان التيمي، وأيوب بن أبي تميمة السختياني.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٦٠)، ط. دار طيبة – الرياض.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (ص١١٤)، ط. دار ابن حزم-بيروت.

ومن أهل الكوفة: سليمان -الأعمش-، وحماد بن أبي سليمان».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

قال صالح بن أحمد بن حنبل: سمعتُ أَبِي قال: جبريل سَمِعَه من الله ﷻ، وسمعه النبي ﷺ من جبريل، وسمعه أصحاب النبي من النبي ﷺ، فالقرآن كلام الله غير مخلوق(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن المُستَقِرَّ في فِطَرِ الناس الذي تَلقَّته الأُمَّةُ خلفًا عن سلفٍ عن نبيها ﷺ: أن القرآن جميعه كلام الله، وكلهم فَهِمَ هذا المعنىٰ المنصوص بلسانٍ عربيٍّ مُبين، كما ذَكَر أحمد أنه تكلم به».

والأُمَّة من عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ اليوم يعتقدون اعتقادًا جازمًا: أن القرآن كلام الله ﷻ، تكلم الله به حقيقةً، وسمعه منه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتكلم به جبريل، وسمعه منه النبي ﷺ وأَدَّاه إلىٰ الأُمَّة.

قال الحافظ أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «رُوي عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال يوم صفين: ما حَكَّمْتُ مخلوقًا؛ وإنما حَكَّمْتُ القرآن، ومعه أصحاب رسول الله ﷺ،

---

(١) السنة للخلال (٥/ ١٢٦- رقم ١٧٧٩).

(٢) التسعينية (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص١١١).

ومع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر منه، فهو إجماعٌ بإظهار وانتشار، وانقراضُ عصرٍ من غيرِ اختلافٍ ولا إنكار».

وقال المروذي: قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لقيتُ الرجال والعلماء والفقهاء بمكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام والثغور وخراسان، فرأيتهم علىٰ السُّنة والجماعة، وسألتُ عنها الفقهاء، فكلٌّ يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود».

وقال فقيهُ الإسلام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لَمْ يَزَلِ السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والأئمة بعدهم، يُعظِّمون هذا القرآن، ويعتقدون أنه كلام الله، ويَتقرَّبون إلىٰ الله بقراءته، ويقولون: إنه غيرُ مخلوق، ومَن قال: إنه مخلوق فهو كافر».

وبعد انحسار بدعة «خَلْق القرآن»، صاغ الجهمية قولهم بخَلْق القرآن بعبارةٍ أخرىٰ، فقالوا: «لَفْظِي بالقرآنِ مَخلوقٌ»، وكان هذا من حِيَلِهم؛ لأنها لفظةٌ تحتمل حقًّا وباطلًا؛ بحسب نِيَّة المُتكلِّم بها، حيث يحتمل أنْ يتكلَّم باللفظ مَن يريد المَلْفُوظ، وهو كلامُ الله، ويحتمل أن يتكلم باللفظ مَن يريد فِعْله.

قال أبو بكر المروذي رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعتُ أبا عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ -الإمام أحمد- يقول: افترقتِ الجهميةُ علىٰ ثلاث فِرَق: الذين قالوا: مخلوق، والذين شَكُّوا، والذين

(١) اختصاص القرآن بعوده إلىٰ الرحيم الرحمن (ص٢١).
(٢) المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدع (ص٤٦).

قالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة[١].

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألتُ أَبِي وأبَا زُرْعَة عن مذاهب أهل السُّنة في أصول الدِّين، وما أدركا عليه العلماء في ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، ومصرًا، وشامًا، ويَمَنًا، فكان من مذهبهم: القرآن كلام الله تعالىٰ غير مخلوق.

ومَن زَعَم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم كُفرًا ينقل عن المِلَّة، ومَن شَكَّ في كُفره ممن يفهم ولا يجهل فهو كافر.

ومَن وَقَف في القرآن فهو جهميٌّ.

ومَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، أو قال: القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمي[٢].

وصفةُ «الكلام» من أول ما وَقَع إنكاره من الجَعْد بن دِرْهَم، ومنه سَرَتْ هذه البدعة إلىٰ الجهمية والمعتزلة والكلابية والأشعرية؛ فإن الجعد بن درهم زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولَمْ يُكلِّم موسىٰ تكليمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[٣]: «القول بأن كلام الله مخلوق مُنفَصِلٌ عنه قولٌ باطِلٌ، وهو شعار الجهمية، وهو في الحقيقة تكذيبٌ للرُّسُل».

---

(١) السنة للخلال (٥/ ١٢٥- رقم ١٧٧٧).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٨٧، ٨٨)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٣٥٠، ٣٥١)، باختصار.

(٣) الاستقامة (١/ ١٣٧).

وحقيقةُ قولِ الجهمية وفروعهم من الكلابية والأشاعرة من إنكار أن الله تكلَّم بالقرآن، إبطالٌ لشرع الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قُدح في أن الله يتكلم، كان ذلك قدحًا في رسالة المرسلين، فعلموا أن في باطن ما جاؤوا به قدحًا عظيمًا في كثير من أَصْلَيِّ الإسلام: شهادة أن لا إله الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله».

القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، تكلَّم الله به حقيقةً لَفْظُه ومَعْناه، مكتوب في المصاحف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «ليس وجود الكلام في الكتاب، كوجود الصفة في الموصوف».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)]: «الذي اتفقوا عليه: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تُلِيَ، وحيث كُتب، وهو قرآنٌ واحد، وكلامٌ واحد وإن تنوَّعتِ الصُّوَر التي يُتلىٰ فيها ويُكتب من أصوات العِباد ومِدَادهم؛ فإن الكلام كلامُ مَن قاله مبتدئًا، لا كلام مَن بَلَّغَه مُؤدِّيًا».

وقال شيخ الإسلام[(٤)]: «ونحن إذا قلنا: هذا كلامُ الله لِمَا نسمعه من القارئ، ونرىٰ في المصحف، فالإشارة إلىٰ الكلام من حيث هو هو، مع قَطْع النظر عمَّا اقترن به البلاغ من صوت المُبلِّغ ومِدَاد الكِتاب».

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٨١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤٠).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤١).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٤١).

وكلام الله ﷻ صفةٌ قائمةٌ به، مُتعلِّق بمشيئته حين تكلم الله به حقيقة، وما تَلاه المُبلِّغُون لكلام الله كان بعد ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الحروف التي تَكلَّم الله بها غير مخلوقة، وإذا كُتبت في المصحف قيل: كلام الله المكتوب في المصحف غير مخلوق، وأمَّا نَفْس أصوات العِباد فمخلوقة، والمِداد مخلوق، وشَكْل المِداد مخلوق».

وأصواتنا التي نَتْلُو بها القرآن لا تُماثِل صوت الرب، فالمسلمون إنما يَتْلُون القرآن بأصواتهم، ففَرْقٌ بين أدائنا وما تَكلَّم اللهُ به حقيقةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السُّنة كلامُه، تكلَّم به، وتكلَّم بالقرآن العربي بصوتِ نَفْسِه، وكلَّم موسىٰ بصوتِ نَفْسِه الذي لا يُماثِل شيئًا من أصوات العِباد.

ثُمَّ إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تُماثِل صوت الرب، **فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مُبلَّغًا عنه، لا مسموعًا منه**؛ وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا، الكلام كلامُ البارِي، والصوت صوتُ القارئ، كما دلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسُّنة مع العقل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «**زَيِّنوا القرآنَ بأصواتكم**».

فنصَّ أحمد علىٰ ما جاء به الكتاب والسُّنة، أنَّا نقرأُ القرآن بأصواتنا، والقرآن كلام الله كلُّه، لَفْظُه ومعناه، سمعه جبريل من الله، وبَلَّغه إلىٰ محمد ﷺ وسمعه منه، وبَلَّغه

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٦٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٩٧-٩٩).

محمد ﷺ إلىٰ الخَلق، والخَلق يُبلِّغه بعضهم إلىٰ بعض، ويسمعه بعضهم من بعض.

ومعلومٌ أنهم إذا سمعوا كلام النبي ﷺ وغَيْرَه فبَلَّغُوه عنه كما قال: «**نَضَّر اللهُ امرأً سمع منَّا حديثًا فبَلَّغه كما سمعه**»، فَهُم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تَكلَّم بها، وبَلَّغوا لَفْظَه بأصوات أنفسهم.

وقد عُلم الفَرْقُ بين مَن يروي الحديث بالمعنىٰ لا باللفظ، واللفظُ المُبلَّغ هو لفظُ الرسول، وهو كلام الرسول ﷺ؛ فإنْ كان صوتُ المُبلِّغ ليس صوت الرسول، وليس ما قام بالرسول من الصفات والأعراض فَارَقَتْهُ وما قامت بغيره، بل ولا تقوم الصفة والعَرَض بغير مَحلِّه.

وإذا كان هذا معقولًا في صفات المخلوقين، فصفات الخالق أَوْلَىٰ بكلِّ صفةِ كمالٍ، وأَبْعَد عن كلِّ صفةِ نقصٍ.

والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بين صفة مخلوقٍ ومخلوقٍ، وامتناعُ الاتحاد والحُلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق أعظم من الاتحاد والحُلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق».



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(١)].

الشَّرْح

خواتيم سورة الحشر تضمَّنت ذِكْرَ أنواعٍ كثيرة من أسماء الله الحسنىٰ وصفاته، وهي: العليم، الرحمن، الرحيم، الله، المَلِك، القُدّوس، السلام، المؤمن، المُهيمِن، العزيز، الجَبَّار، المُتكبِّر، الخالق، البارِئ، المُصوِّر، العزيز، الحكيم.

آياتٌ عظيمة في الثناءِ علىٰ الله ﷻ، وذِكْرِ نُعُوتِ جلاله وعظمته الدالَّة علىٰ كماله، الموجبة لعبوديته وحده.

وقد سبق قبل قليل شَرْحُ أسماء الله الحسنىٰ: الله، الرحمن، الرحيم، والعليم، والعزيز، والحكيم، وأُتِمُّ شَرْح بقية الأسماء المذكورة في خواتيم سورة الحشر.

قال قِوَام السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)[(٢)]: «من أسماء الله تعالىٰ: «الخالق البارئ المصور»، قال أهل العلم: «الخالق» الذي خَلَق النفوس في الأرحام وصَوَّرها كما شاء في ظلماتٍ ثلاث، وهو البارئ المصور، فهذه قدرته.

---

(١) التدمرية (ص١٢).

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٨).

والخَلْقُ منه علىٰ ضُروبٍ:

- منها ما خَلَق بيديه، فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

- ومنها ما خَلَق بمشيئته وكلامه، ولمْ يَزَلْ موصوفًا بالخالق البارئ المصور».

وقال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «البارئ: الذي بَرَأ الخَلْق، فأَوْجَدَهم بقدرته، المُصوِّر خَلْقَه كيف شاء، وكيف يشاء».

والمَلِك: هو المُتصرِّف فيما هو مَلِكٌ عليه ومالِكٌ له[(٢)].

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «المَلِكُ: الذي لا مَلِكَ فوقه، ولا شيء إلا دُونَه».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «المَلِك: أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا مُمانَعة ولا مُدافَعَة».

وقال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «المَلِك: أي: المُقْتَدِر علىٰ الأشياء».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٦)]: «إنّ الْمِلْكَ يقتضي التصرف بالقول، كما أن الْمِلْكَ يقتضي التصرف بالفعل، فالمَلِكُ هو المُتصرِّف بأمره وقوله، فَتَنْفُذُ أوامره

(١) جامع البيان (٢٢/ ٥٥٥).
(٢) بدائع التفسير (١/ ١١٤).
(٣) جامع البيان (٢٢/ ٥٥١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).
(٥) تفسير القرآن (٥/ ٤٠٨).
(٦) بدائع التفسير (١/ ١٧١).

ومَراسِيمه حيث شاء، والمالك هو المتصرف في مُلْكِهِ بفعله، والله له الْمُلْكُ وله المِلك، فهو المتصرف في خَلْقِه بالقول والفعل. وتَصرُّفه بقوله نوعان: تصرُّفٌ بكلماته الكونية، وتصرُّفٌ بكلماته الدينية، وكمالُ الْمُلْكِ بهما».

والله مُلْكُه عظيم، فإنه يملك السماوات والأرض وما بينهما، وذلك دالٌّ على عظمة الله وبركته، قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تبارك: تدلُّ على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه».

والله ﷻ هو الذي وَهَب ملوك الدنيا مُلْكَهم، وَهُمْ في مُلْكِه وسُلْطَانه، ويجري فيهم حُكْمُ الله وقضاؤه الكوني القدري، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «صَدَّر الآية سبحانه بتفرُّده بالمُلْك كلِّه؛ وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه مَن يشاء وينزعه ممَّن يشاء، لا غيره».

والله ﷻ مَلِكُ الملوك، ولا يَتَعاظَم أَحَد مُضاهاة لله في ذلك إلا أَذَلَّه الله، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عند الله: رَجُلٌ تَسمَّىٰ مَلِك الأملاك، لا مالِكَ إلا الله**»، رواه البخاري ومسلم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٤٤٨).
(٢) بدائع التفسير (١/ ٤٩٤).

والله ﷻ مُلْكُه مُلْكُ رحمةٍ، وهذا صفةُ مُلْكِه في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤]، وفي الآخرة تظهر عظمة مُلْكِه ورحمته أكثر، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ لا يَبْقَىٰ لأَحَدٍ من المخلوقين مُلْكٌ ولا صورة مُلْكٍ، كما كانوا في الدنيا، بل قد تَسَاوَت الملوك ورعاياهم، والأحرار، والعبيد، والأشراف، وغيرهم.

وممَّا يرتاح له القلب، وتطمئن به النَّفْس، وينشرح له الصدر؛ أنه أضاف المُلْك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن»، الذي وَسِعَت رحمته كلَّ شيء، وعَمَّت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة».

«القدوس»: هو الكامل الذي كَمُل في ذاته وأوصافه، وتَنزَّه عن كل نقصٍ وعيبٍ.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي[(٢)]: «فُعُّول من تَقدَّس: إذا تَطهَّر».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] قال وَهْب بن مُنبِّه: أي: الطاهِر.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٤٣٧).
(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٧/ ٢٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).

وقال مجاهد وقتادة: أي: المبارَك.

وقال ابن جريج: تُقدِّسه الملائكة الكِرام».

وقال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «القدوس: المُقدَّس، يعني: يُقدِّسه الملائكة ويُسبِّحونه، وفي تسبيح الملائكة: سُبُّوحٌ قُدُّوس ربُّ الملائكة والرُّوح».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «القدوس: هو المُنزَّه عن كلِّ شرٍّ ونقصٍ وعيبٍ».

«السلام»: تنزيهٌ لله من النقائص، وتعظيمٌ وثناءٌ عليه بصفات الكمال، وهو الذي يُسلِّمُ عِبادَه من السُّوء إذا أَتَوا بأسباب تسليم الله لهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذا ومن أوصافه القدوس ذو ... التنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام علىٰ الحقيقة سالم ... من كلِّ تمثيلٍ ومن نقصان

قال العَلَّامة عبدالرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «القُدوس: هو المُعظَّم عن كلِّ سُوءٍ، وكذلك السلام علىٰ الحقيقة، وضابِطُ ما يُنزَّه عنه أمران:

أحدهما: أنّه الكامل المُنزَّه عن مُماثَلَة أَحَدٍ من المخلوقات، فليس كمثله شيء في جميع نُعُوته؛ لكمال أوصافه.

(١) تفسير القرآن (٥/ ٤٠٩).
(٢) شفاء العليل (ص٣٠١-٣٠٣).
(٣) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢٥).

والثاني: أنّه المُنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصان، والنقصان يرجع إلىٰ ما يُناقِض أوصاف كماله، فالقُدُّوس السلام يرجع معناها إلىٰ التنزيه، ويلزم من التنزيه التعظيم والثناء عليه بصفات الكمال؛ لأن التنزيه والسَّلْب المَحْض ليس مدحًا، حتىٰ يتضمن إثبات ضِدِّه وهو الكمال».

واسمُ الله «السلام» دالٌّ علىٰ كمال ذاته وأفعاله، فأسماؤه حُسْنىٰ وصفاته عُلا، وهذا من أعظم ما يكون في النهي عن تكذيبها أو تحريف معانيها.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ: «السلام: الذي يَسْلَم من كل عيبٍ ونقصٍ»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «هو سَلامٌ سبحانه في ذاته عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ يتخيَّله وَهْمٌ، وسلامٌ في صفاته من كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وسلامٌ في أفعاله من كل عيبٍ ونقصٍ وشرٍّ وظُلْمٍ وفِعْلٍ واقع علىٰ غير الحكمة».

والمُؤْمِن: الذي شَهِد لنفسه بالوحدانية، وآمَنَ المؤمنون بكلماته، فأَمَّنهم من عذابه، وصَدَّق ظُنُونهم الصادقة به.

قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣١٠هـ)[(٣)]: «المؤمن: المُصدِّق المُوقِن، آمَنَ الناس بربهم فسَمَّاهم مؤمنين، وآمَنَ الرب الكريم لهم بإيمانهم».

---

(١) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٠).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

(٣) جامع البيان (٢٢/ ٥٥٢).

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٦١هـ)[(١)]: «المؤمن: الذي أَمَّنَ المؤمنين من عذابه».

وقال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه أقوال: أحدها: أنه يُؤَمِّن المؤمنين من النار والعذاب.

والآخر: أن المؤمنين أَمِنُوا من ظُلْمِه، فهو مؤمنٌ.

والقول الثالث: أنه شَهِد لنفسه بالوحدانية، فهو مُؤمنٌ بهذا المعنىٰ، وشهادته لنفسه بالوحدانية هو قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]».

وذَكَر العلَّامة الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من معاني اسم الله «المؤمن»: الذي يُصدِّق ظُنونَ عِباده، وهذا التفسير يدلُّ عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**أنا عند ظَنِّ عبدي بي**» متفق عليه.

فالإيمان باسم الله «المؤمن» يجعل المسلم في طمأنينةٍ وحُسْنِ ظَنٍّ بربه إذا دعاه، أن يجيب الله دعاءه بإحدىٰ ثلاث: أن يُؤْتيه ما سأل، أو يدفع عنه من السوء من جنسِ ما سأل، أو يَدَّخرها له إلىٰ يوم القيامة.

ومن إيمان المسلم باسم الله «المؤمن»: ثقته بربه أنْ يحفظَ عليه دِينَه وثواب أعماله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٢٠).
(٢) تفسير القرآن (٥/ ٤٠٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُحذِّرًا عن ظَنِّ السَّوْء بالله[١]: «مَن ظَنَّ أنه يضيع عليه عَمَلَهُ الذي عَمِلَهُ خالصًا لوجهه الكريم علىٰ امتثال أَمْره، ويُبْطِله عليه بلا سببٍ من العبد».

وهل زاغ الضَّالون من المُعطِّلة والمُمَثِّلة في توحيد أسماء الله وصفاته إلا بسوء ظنهم بمعاني ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مَن ظَنَّ به خلاف ما وَصَف به نفسه ووَصَفه به رُسُلُه، أو عَطَّل حقائق ما وَصَف به نفسه، ووَصَفته به رُسُلُه، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوء».

ومن حُسْنِ الظنِّ بالله: الثقة بوعده بظهور دِينه، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ومَن نَظَر في أيام الله ازداد إيمانًا بالله، وقَوِي رجاؤه به سبحانه أن يُهيِّئ أسبابَ تجديدِ الدِّين وعِزِّ الإسلام.

ودعوة التوحيد ترجع في حقيقتها إلىٰ تحقيق الإيمان باسم الله «المؤمن»: فبحسن الظن بالله يُحقِّق المسلم توحيده، ودعوة الإسلام ترجع إلىٰ تحقيق هذا الأمر، فهذا التوحيد بيَّنه النبي ﷺ أحسن البيان، فمن ذلك قوله ﷺ: «**إن الله إذا استودع شيئًا حَفِظَه**».

ومن ذلك تحذير النبي ﷺ من الطيرة، فقد ذُكرت عنده ﷺ فقال: «**أَحْسَنُها الْفَأْلُ، ولا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فإذا رأيتَ من الطِّيَرَة ما تَكْره، فقل: اللهم لا يأتي بالحسنات**

(١) زاد المعاد (ص٤٠٦).

(٢) زاد المعاد (ص٤٠٧).

إلا أنتَ، ولا يدفع السيئات إلا أنتَ، ولا حول ولا قوة إلا بكَ»، رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «هذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار، وعبودية وتوكلٌ، وسُؤَالٌ لمَن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يَصْرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أَحَدٌ حَبْسَها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أَحَدٌ إرسالها إليه، من التَّطيُّر والتنجيم واختيار الطَّالِع ونحوه. فهذا الدعاء هو الطالع المَيْمُون السعيد، طالِعُ أهلِ السعادة والتوفيق».

وعَلَّمنا اللهُ ﷻ أن التوكل عليه كفاية، فمَن تَوكَّل عليه حَقَّ تَوكُّلِه كفاه، ولمْ يَخْشَ الذين من دونه، فالثقة بالله وكفايته هو من تحقيق المُوحِّدين لإيمانهم باسم الله «المؤمن»، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والإيمان باسم الله «المؤمن» يتحقَّق بتصديق كلمات الله ووَعْدِه، وذلك السبب الباعث لعبودية الله ﷻ، فيُصدِّق المؤمن ويُؤْمِن بحق الله الخالص في عبوديته، فيعبده ويرجو وَعْدَه بثوابه في دخول الجنة إذا أَدَّىٰ حقَّ الله عليه.

وزَكاءُ المُوحِّدين يرجع إلىٰ مقدار تَحقُّقهم بالتصديق لخبر الله والانقياد لأمره ونهيه، والثقة بوعده، والتكذيب لأماني الشيطان وغروره، والمُخالَفَة لوساوسه

---

(١) قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «بسندٍ صحيحٍ»، كتاب التوحيد (ص١١٢).

(٢) زاد المعاد (ص٣٢٣).

ووعده، قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

«**المُهيمِن**»: هو الأمين الذي استُحفظ كل شيء، وظَهَر بعُلوِّه وعِزَّتِه وقدرته ومشيئته علىٰ كلِّ مَن سواه، وافتقر كلُّ مخلوقٍ إلىٰ هُداه دلالةً وتوفيقًا.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المهيمن: الشهيد».

وقال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، قال قتادة: أي: الشهيد، وقال بعضهم: هو الأمين، ومعنىٰ كونه أمينًا: أنه لا يضيع أعمال العِباد، فكأنَّ أعمال العِباد في أمانته لا يُضيِّعها.

وقيل: هو الرقيب.

وقيل: إن المهيمن أَصْلُه المُؤَيمِن».

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٩٢٧هـ)[(٣)]: «﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الرقيب علىٰ كل شيء».

«**الجَبَّار**»: هو الذي عَلَا علىٰ كل شيء، وبايَنَ خَلْقَه، وهو الذي لا يمتنع عليه شيء، وهو الذي يَجْبر عِباده.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٢٠).
(٢) تفسير القرآن (٥/ ٤٠٩).
(٣) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٧/ ٢١).

قال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الجبار: العظيم الذي جَبَرَ خَلْقَه علىٰ ما أراد».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الجبار: إنه القَهَّار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كُنْ فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء».

وقال العلَّامة السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنه الجبار: أي: العالي علىٰ خَلْقه، الذي من عظمته وكبريائه قد بايَنَ مخلوقاته، وعَلا عليها، فليس يُدانِيه أَحَدٌ منها؛ لكمال رفعته وجلاله، وهذا المعنىٰ مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبَّارة، فالجَبَّار: العالي علىٰ كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمُنكسِرِين، خصوصًا المنكسرين من أَجْلِه».

وقال العلَّامة السِّعدي أيضًا[(٤)]: «هو الجبار؛ يجبر القلوب المنكسرة من أَجْله، فيَجْبُر الكَسِير، ويُغْنِي الفقير، ويُيَسِّر علىٰ المُعْسِر كلَّ عَسِيرٍ، ويَجْبُر المُصاب بتثبيته وتوفيقه للصبر، وإِعَاضَته علىٰ ذلك أكمل الأجر.

ويَجْبُر قلوب الخاضعين لعظمته الخاضعين لكبريائه، ويَجْبُر قلوب المُحبِّين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وصُنُوف مَسَرَّاته».

---

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٧/ ٢١).
(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢١).
(٣) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢١).
(٤) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢٠، ١٢١).

وقال ابن سِعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «سؤال العبد لربه أن يَجْبُرَهُ يتضمَّن الدعاء بإصلاح حاله، وتقويم أموره، وسائر شئونه، وإزالة ما فيه من الوَهْن والضعف والنقص».

«**المُتكبِّر**»: الذي تَعالَىٰ لكماله، والذي انتهىٰ في سُؤْدُدِه إلىٰ غاية الكمال، فعظمتُه وكِبْرُه كَمالٌ، وهو كبيرٌ حكيم عزيز، فذاته أَحَدِيَّة، وصفاته صَمَدِيَّة، كِبْرُه عِزٌّ في حكمة.

هو الكبير الذي أحاط بالخَلق جميعًا، ولا يحيط به شيءٌ.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]: المتعالي عن صفات المُحْدَثات، وعن كلِّ سوءٍ».

الكِبْر: هو وصفُ الله الذي لا يليق بغيره، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنما أبغض مَنِ اتَّصفَ بالكِبْر والعظمة والجَبَرُوت؛ لأن اتصافه بها ظلمٌ؛ إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تَحْسُن منه؛ لمنافاتها لصفات العبيد، وخروجِ مَنِ اتَّصَف بها من رِبْقَة العبودية».

وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله: العظمة إزارِي، والكبرياء رِدائي، فمَن نازَعَني واحدًا منهما عَذَّبته**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «العظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلىٰ من العظمة».

---

(١) التوضيح المبين (ص١٢١).

(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٧/ ٢١).

(٣) طريق الهجرتين (١/ ٢٧٥).

(٤) العبودية (ص٧٩).

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الكبير: قيل: هو مشتق من الكبرياء، والكبرياء ممَّا تَفرَّد اللهُ به، فمَن نازَعَه الكبرياء قَصَمه، فلا ينبغي لأَحَدٍ أن يَتكبَّر علىٰ أَحَدٍ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الكبير: وهو الذي تَكبَّر وتَعظَّم عن كلِّ سوءٍ».

واللهُ الكبير الذي تضاءلت دُونَه الملوك والخلائق جميعًا، وهو الكبير الذي خضع لعظمته كلُّ مخلوق، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

واللهُ هو الكبير فإلهيته حقٌّ، وإلهية ما سواه باطلٌ، وهو الكبير الذي تنتهي إليه الرغبات، وهو الكبير الذي يجري أَمْرُه وخَلْقُه في كل مربوب، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].



(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٥٠).

(٢) شفاء العليل (ص٣٠١-٣٠٣).

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

إلىٰ أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب تعالىٰ وصفاته، فإنَّ في ذلك من إثبات ذاته وصفاته علىٰ وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل، ما هَدَىٰ اللهُ به عِباده إلىٰ سواء السبيل، فهذه طريقة الرُّسل صلىٰ الله عليهم أجمعين[1].

الشَّرْح

هذا الواجب علىٰ المؤمن: تصديقُ خبرِ الله، والإيمان به، والتألُّه لله بحقائقه، فالمسلم يُصدِّق خبر الله فيما أخبرنا عن ذاته وصفاته؛ لأن الله ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، واللهُ يقول العدل والحق والصدق، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

التوحيد: هو الإيمان بأسماء الله وصفاته، والتأله لله بحقائقها، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ[2]: «إن التوحيد مَبْناه: علىٰ إثبات تفرُّد الرب بصفات الكمال».

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ[3]: «قال بعض العلماء: أوَّلُ فرضٍ فَرَضه الله تعالىٰ علىٰ خَلْقه معرفتُه، فإذا عَرفَهُ الناسُ عَبَدوه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]».

(١) التدمرية (ص١٢).
(٢) توضيح الكافية الشافية (ص٩٧).
(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٤).

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قال أهل السُّنة: نَصِفُ اللهَ بما وَصَف به نفسه، ونُؤْمِن بذلك؛ إذ كان طريق الشرع الاتِّباع لا الابتداع، مع تحقيقنا أن صفاته لا يُشْبِهها صفاتٌ، وذاتَه لا يشبهها ذاتٌ، وقد نَفَىٰ الله تعالىٰ عن نفسه التشبيه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فمَن شَبَّه اللهَ بخَلقه فقد كَفَر.

وأَثْبَت لنفسه صفاتٍ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. وليس في إثبات الصفات ما يُفضِي إلىٰ التشبيه، كما أنه ليس في إثبات الذات ما يفضي إلىٰ التشبيه، وفي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] دليلٌ علىٰ أنه ليس كذاته ذاتٌ، ولا كصفاته صفات».

توحيد الأسماء والصفات هو الأساس لتوحيد الربوبية وتوحيد العبودية؛ فإن توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله، فالمسلم يَنْسِب نِعَم الله إليه، والمشرك ينسبها إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

والمسلم يُؤدِّي حق الله في نِعمه، فيستعملها في طاعة الله، والكافر إمَّا يجحدها أولا يُؤدِّي حقَّها، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨١، ٨٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، حيث أَسْبغ عليكم من نِعمه ما لا يدخل تحت الحصر، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٨٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٧٥).

ذَكَرتم نعمة الله، ورأيتموها غامِرَة لكم من كلِّ وجهٍ ﴿تُسْلِمُونَ﴾ لعظمته، وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة مُولِيها ومُسْدِيها.

فكثرة النِّعم من الأسباب الجالبة من العِباد مزيد الشكر والثناء بها على الله تعالى، ولكن أَبَى الظالمون إلا تمرُّدًا وعِنادًا، ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته بعدما ذُكِّروا بنعمه وآياته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾».

والمسلم يثني على الله بنعمه، ويصفُ اللهَ بمَا لَهُ من الخَلْق والرزق والإنعام، ومَن لَمْ يَصِف اللهَ بذلك ما كان من المؤمنين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[1]: «الثناء على المُنعِم المتعلق بالنعمة نوعان: عامٌّ وخاصٌّ، **فالعام**: وَصْفُه بالجُود والكَرَم، والبِر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]».

والله جَلَّ وَعَلَا بيَّن لنا صفاته، وواجب عبادته، وكيفية عبادته، وحالنا إذا صِرْنا إليه، فمَن نَفى صفات الله فقد قَطَع الطريق على الخَلق في الوصول إليه بما يرضيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في المؤمن[2]: «إنه يَعْرف ربًّا قد اجتمعت له صفات الكمال ونُعوت الجلال، مُنزَّهٌ عن المثال، بَرِيءٌ من النقائص والعُيوب، له كلُّ اسمٍ حَسَن، وكلُّ وصفِ كمالٍ، فعَّال لِمَا يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٤).
(٢) الفوائد (ص٢٦٢).

شيء، ومُقِيم لكل شيء، آمِرٍ، ناهٍ، مُتكلِّم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأَحْكَم الحاكمين.

فالقرآن أُنزل لتعريف عباده به، وبصِراطِه المُوصِل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه».

وأصلُ الشرك وقاعدته التي يرجع إليها: هو التعطيل، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو ثلاثة أقسام:

١. تعطيل المصنوع عن صانِعِه وخالِقِه.

٢. وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المُقدَّس؛ بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.

٣. وتعطيل معاملته عمَّا يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ كلَّ عبدٍ مُضطرٌ إلىٰ الله في كل أموره الدينية والدنيوية، ليس له غِنًىٰ عنه طَرْفَة عينٍ، وإليه يلجأ في مهماته، ويقصده في كل حاجاته.

(١) الجواب الكافي (ص٢٩٩).

(٢) توضيح الكافية الشافية (ص١٦٦).

فإذا انتفت صفات الله على قول المُعطِّلين -كحياة الله، وعِلْمه، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وحكمته- لم يكن عند هذا المَنْفِي عنه هذه الصفات مَطالب الخَلْق، وفَزِعَتِ الخَلِيقةُ إلى غيره، وتَوجَّهت القلوب لمَن يَعْلَم بأحوالها، ويَقْدِر على مصالحها ومنافعها، ودَفْعِ مَضارِّها، واضطرهم هذا الأمر إلى الشرك».

واعتبر هذا -أيُّها المسلمُ- بمُؤسِّس الجهمية، فإنَّ الجهمَ أنكرَ صفات ربِّ العالمين، ثم صار كافرًا بمَن لا يعرفه.

قال العَلَّامة محمد بن أحمد الملطي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٧٧هـ)[1]: «إنما سُمّوا جهميةً؛ لأنَّ الجهم بن صفوان كان أول مَن اشتق هذا الكلام من كلام السمنية -صِنفٌ من العجم بناحية خراسان- وكانوا شككوه في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يومًا، وقال: لا أصلي لمَن لا أعرفه، ثم اشتق هذا الكلام وبنى عليه مَن بعده».

ونحن إنما نصف ربنا بما انتهى إلينا من تعليمه لنا، وأسماء الله الحسنى نُعوت جلاله، وصفات كماله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فلذلك كان النبي ﷺ يسأل الله بأسمائه التي استأثر بها في عِلْم الغيب عنده.

وجلال الله وعظمته لا تُدْرِكه العبارة، لو كَشَفَ الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بَصرُه من خَلْقِه.

ومَن نَظَر في خلقِ الله، وأَمْرِه، وحكمة خَلْقِه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص١١٣).

﴿وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقضائه الكوني بحسب موافقة أَمْره الشرعي، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ أَدْرَك بعضًا من كمالِ معاني أسماء الله وصفاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن أراد مطالعة أصول النعم فلْيُدِم ملازمة رِياض القرآن، وليتأمل ما عدَّد اللهُ فيه من نعمه وتَعَرَّف بها إلىٰ عِباده من أول القرآن إلىٰ آخره، حين خَلَق أهل النار، وابتلاهم بإبليس وحِزْبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهَوىٰ، لتَعْظُمَ النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها.

فلله علىٰ أوليائه وعِباده أَتمُّ نعمةٍ وأكملها في كلِّ ما خَلَقَه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أَحْدَثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قَضَاه وقَدَّره. وتفصيلُ ذلك لا تَفِي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قُوَىٰ العباد؛ وإنما التنبيه والإشارة.

ومَن استقرأ الأسماء الحسنىٰ وَجَدها مدائح وثناءً تَقْصُر بلاغات الواصفين عن بلوغ كُنْهِها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها».

وبالعلم بأسماء الله وصفاته صار في قلوبنا إيمانٌ بالله، وعلمٌ به، ومعرفة له، ومحبة له، وإرادة لعبادته ودعائه وسُؤَاله وتعظيمه[(٢)].

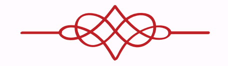
---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١١٣، ١١٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٥٠، ٣٥١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الرب سبحانه قد تجلَّىٰ لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته، وجلاله وكبريائه، ومُضِيِّ مشيئته وعظيم سلطانه، وعُلُوِّ شأنه، وكرمه، وبِرِّه وإحسانه، وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلىٰ حيث احتملته القوىٰ البشرية، ووراءه مما لا تحتمله قواهم ولا يَخْطُر بِبَالٍ، ولا يَدْخُل في خَلَدٍ ممَّا لا نسبة لِمَا عرفوه إليه».

وعندما تجلَّىٰ الله ﷻ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].



(١) طريق الهجرتين (ص١١٦).

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وأمَّا مَن زَاغَ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أُوتوا الكتاب، ومَن دَخَل في هؤلاء من الصَّابِئَة، والمُتَفَلْسِفَة، والجهمية، والقَرامِطَة الباطنية ونحوهم، فإنهم علىٰ ضِدِّ ذلك، يصفونه بالصفات السلبية علىٰ وجه التفصيل، ولا يُثْبِتُون إلا وجودًا مُطْلَقًا، لا حقيقةَ له عند التحصيل، وإنما يرجع إلىٰ وجودٍ في الأذهان يمتنع تحقُّقُه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يُمَثِّلُونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات، ويُعطِّلُون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نَفْيَ الذات[١].



الشَّرْح

تعطيلُ أسماء الله وصفاته إبطالٌ لألوهيته، فمَن عطَّل الله عن صفاته أَنْكَر ذات الله؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، وإنكارُ صفات الله -كما يفعل المعطلة- إنما يرجع إلىٰ أوهامِ أذهانهم، وإلا في الحقيقة لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «إنَّ مَن تأوَّل سائر الصفات، وحملَ ما وردَ منها علىٰ مجاز الكلام، أدَّاه ذلك السَّلب إلىٰ تعطيل الرب، وأن يشابه المعدوم، كما نُقل عن حماد بن زيد أنه قال: مَثل الجهمية كقومٍ قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سَعَف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كَرَب؟ قالوا: لا، قيل: لها رُطَب وقِنو؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة!»

(١) التدمرية (ص١٢-١٦).

(٢) العلو، استفدته من قطف الجنىٰ الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، كتب ورسائل العلامة عبدالمحسن العباد البدر (٤/ ٢٤، ٢٥).

ومَن وَصَف الله بالصفات السلبية من غيرِ أنْ يُثْبِتَ لله الكمال الذي يستلزمه تنزيهه عن النقائص، فقد خالف طريقة القرآن؛ وإنْ جَمَع مع ذلك تعطيل الصفات الثبوتية التي تَمدَّح اللهُ بها نفسه، فقد أَنْكَر وجود الله حقيقةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الله ﷻ قد نفى عن نفسه مُماثَلَة المخلوقين، فقال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فبيَّن أنه لَمْ يَكُن أَحَدٌ كُفُوًا له، وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، فأَنْكَر أنْ يكونَ له سَمِيٌّ، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١].

ففيما أَخْبَر به عن نفسه: من تنزيهه عن الكفؤ، والسَّمِي، والمثل، والنِّد، وضَرْبِ الأمثال له، بيانُ أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله؛ فإنَّ التَّماثُلَ في الصفات والأفعال يتضمَّن التماثُلَ في الذات؛ فإنَّ الذاتين المختلفتين يمتنع تماثُلُ صفاتهما وأفعالهما؛ إذ تماثُلُ الصفات والأفعال يستلزم تماثُلَ الذَّوَات؛ فإنَّ الصفة تابعة للموصوف بها، والفعل أيضًا تابعٌ للفاعل، بل هو مِمَّا يُوصَف به الفاعل، فإذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين».

وتعطيل الفلاسفة والجهمية والمعتزلة وفروعهم بإنكار صفات الله فرارًا من تمثيله بالمخلوقات، ضَلالٌ زَاغَ فيه مَن تَوَهَّم في صفات الله مُماثَلتها للمخلوقات، واللهُ ليس كمثله شيء، وصفاته غاية في الحُسْن فهو الإله الأحد الصمد.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٢٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعتزلة الجهمية نزَّهُوه عن صفات كماله، لئلا يقعوا في تشبيهٍ، ثُمَّ شَبَّهُوه بخَلْقِه في أفعاله، وحكموا عليه بحُسْنِ ما يَحْسُن منهم وقُبْحِ ما يَقْبُح منهم، مع تشبيهه بها في سَلْبِ صفات كماله بالجمادات والناقصات.

فإنّ مَن فرَّ من إثبات السمع والبصر والكلام والحياة له لئلا يشبهه، فقد شبَّهه بالأحجار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم.

ومَن عطَّله عن صفة الكلام لِمَا يَلْزَم من تشبيهٍ يزعمه، فقد شَبَّهه بأصحاب الخَرَسِ والآفات الممتنع منهم الكلام.

ومَن نزَّهه عن نزولِه كلِّ ليلةٍ إلىٰ سماء الدنيا، ودُنُوِّه عشية عرفة من أهل الموقف، ومجيئه يوم القيامة للقضاء بين عباده، فرارًا من تشبيهه بالأجسام، فقد شَبَّهه بالجماد الذي لا يتصرَّف ولا يفعل ولا يجيء ولا يأتي ولا ينزل.

ومَن نزَّهه عن أن يفعل لغرضٍ أو حكمةٍ أو لِدَاعٍ إلىٰ الفعل، حَذَرًا من تشبيهه بالفاعِلِين لذلك، فقد شَبَّهه بأهل السَّفَهِ والعَبَث الذين لا يقصدون بأفعالهم غايةً محمودةً ولا غرضًا مطلوبًا محبوبًا».

وتعطيل أسماء الله وصفاته صارا سببًا في رِدَّة الناس عن الإيمان بالله وعبوديته، فكيف تتألَّه القلوب للعدم الذي لا صفة له، فالتعطيلُ نَفْيٌ لألوهية ربِّنا؛ وإنما يَعْبُد المُوحِّدون مَن يَعْلَمُون كماله الموجب لعبوديته وحده، فكماله أَوْجَب إفراده بالعبودية، وتألَّهت له القلوب بالمحبة والخوف والرجاء لذلك.

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «من هنا دخلت «الملاحدة الباطنية» على المسلمين حتى رَدُّوا عن الإسلام خَلْقًا عظيمًا صاروا يقولون لمَن نَفَى شيئًا عن الرب -مثل مَن ينفي بعض الصفات أو جميعها أو الأسماء الحسنى-: أَلَمْ تنفِ هذا؟ لئلا يَلْزَم التشبيه والتجسيم؟! فيقول: بلى! فيقول: وهذا اللازم يلزمك فيما أثبته، فيحتاج أن يوافقهم على النفي شيئًا بَعْدَ شيءٍ حتى ينتهي أَمْرُه إلى أن لا يَعْرِفَ الله بقلبه، ولا يَذْكُره بلسانه، ولا يعبده ولا يدعوه، وإن كان لا يجزم بعدمه، بل يُعطِّل نفسه عن الإيمان به».

ولا يتحقَّق توحيد المسلم حتى يُبْطِلَ ضَلالَ مَن أَنْكَر ما وَصَف اللهُ به نفسه؛ لأن إنكار ما وَصَف اللهُ به نفسه كفرٌ بالله، وإبطالٌ لألوهيته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن الله أَنْكَر على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بـ «الرحمن»، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]».

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٠).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٥١٦).

وكذلك رَدَّ اللهُ علىٰ اليهود وأنْكَر ما نَسَبُوا اللهَ إليه من النقص في صفاته فيما أَثْبَتُوه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لَعَنَهم علىٰ وصفِ يده بالعيب، دون إثبات يده».

والمُفوِّضَة والمُعطِّلَة لمعاني أسماء الله وصفاته، أجهلُ الناس بالله ربِّ العالمين، فالعِلمُ بالله من العلوم الضرورية التي فُطر الناسُ عليها، وتَأكَّدتْ بالشرع، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومَن أَخَذ عقائد الضُّلَّال بالتلقين من المعطلة والمُمَثِّلَة والمفوضة، إنْ صَدَق في شهود خَلْقِ الله وأَمْرِه؛ هُدِيَ من الضلالة؛ وإنْ أَعْرَض عن هُدَىٰ الله كان سلوكه طريقًا غيرَ هادٍ سببُ ضَلَالِه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «**معرفة الله سبحانه نوعان:**

الأول: معرفةُ إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس؛ البَرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتَعلُّق القلب به، والشوق إلىٰ لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأُنْس به، والفرار من الخَلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية علىٰ لسان القوم، وتفاوُتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرَّفهم بنفسه،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٥٧).

(٢) الفوائد (ص٢٤٨، ٢٤٩).

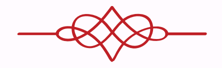
وكَشَف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكلٌّ أشار إلىٰ هذه المعرفة بحسب مقامه وما كُشف له منها، وقد قال أَعْرَفُ الخَلق به: «**لا أحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أَثْنَيْتَ علىٰ نفسكَ**»، وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ﷻ ورسوله ﷺ.

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتَأَمُّلُ حكمته فيها، وقدرته، ولُطْفه، وإحسانه، وعَدْله، وقيامه بالقِسط علىٰ خَلَقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنىٰ وجلالها وكمالها، وتفرُّده بذلك، وتعلُّقها بالخَلق والأمر، فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقَدَرِه، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحُكْم الدِّيني الشرعي والحكم الكوني القدري، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]».





فغالِيَتُهم يَسْلِبُون عنه النَّقِيضَيْن، فيقولون: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم -بزعمهم- إذا وَصَفوه بالإثبات شبّهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبّهوه بالمعدومات، فسَلَبُوا النقيضين، وهذا ممتنع في بَدائِه العقول، وحرّفوا ما أنزل الله تعالى من الكتاب، وما جاء به الرسول ﷺ، ووقعوا في شرّ ممَّا فَرُّوا منه، فإنهم شبّهوه بالممتنعات؛ إذ سَلْبُ النقيضين كجَمْع النقيضين، كلاهما من الممتنعات.

وقد عُلم بالاضطرار أن الوجود لا بُدّ له من مُوجِدٍ، واجِبٍ بذاته، غنيٍّ عمَّا سواه، قديم، أزلي، لا يجوز عليه الحُدوث ولا العدم. فوَصَفوه بما يمتنع وجودُه، فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو القِدَم(١).



حذَّر شيخ الإسلام من المُعطِّلة، وذَكَر أن المعطلة أقسام، غالِيَتُهم الذين لا يصفون الله بالإثبات ولا بالنفي، وهؤلاء وَصَفوا الله بالمُمْتَنِع فإنه لا تُوجد ذات بلا صفات، وجمعوا في ضلالهم هذا بين تشبيهه بالمعدومات حيث نَفَوْا صفاته، والتكذيب لِمَا أخبر الله ﷻ عن صفاته، ومخالفة الفطرة وبَدائِه العقول.

والتعطيل شرٌّ من الشرك، فالمُشرِك مُقِرٌّ بالله وبصفاته، والمُعطِّل مُنكِرٌ لذات الله وصفاته.

(١) التدمرية (ص١٦، ١٧).

قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمهما الله[١]: «مَن أَنْكَر ما وَصَف الله به نفسه فقد كَفَر، ومَن شبَّه الله بخَلْقِه فقد كَفَر».

وقال يحيىٰ بن إبراهيم أبو سهل راهوية، كنتُ أدعو علىٰ الجهمية فأُكْثِرُ، فذكرتُ ذلك لعبد الله بن المبارك -ودَخَل قلبي من ذلك شيءٌ- فقال: لا يَدْخُلُ قَلْبَكَ؛ فإنهم يجعلون ربَّكَ الذي تَعْبُدُ لا شيءَ[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «عِلْمُ التوحيد الذي أساسه: إثبات الأسماء والصفات، وضده: التعطيل، والنفي، والتجهم، فهذا التوحيد يُقابِله التعطيل.

وأمَّا التوحيد القصدي الإرادي الذي هو إخلاص العمل لله وعبادته وحده، فيقابله الشرك، والتعطيل شرٌّ من الشرك؛ فإن المُعطِّل جاحِدٌ للذات أو لكمالها، وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية؛ فإنَّ ذاتًا لا تَسْمع ولا تُبْصِر ولا تتكلَّم، ولا ترضىٰ، ولا تغضب، ولا تفعل شيئًا، وليست داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة، ولا مُجانِبة له، ولا مُبايِنَة له، ولا مُجاوِرة، ولا مُجاوِزة، ولا فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا خلفه، ولا أمامه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره= سواءٌ هي والعدم.

والمشرك مُقِرٌّ بالله وصفاته، ولكن عَبَد معه غيره، فهو خيرٌ من المُعطِّل للذات والصفات».

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٨٧ –رقم ٩٣٦).

(٢) السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (ص٣٠ –رقم ١٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٥).

ومَن مَثَّل اللهَ بخَلْقِه فقد كَفَر، وَضَاهَىٰ المَجُوسَ الذين يقولون بخالِقَيْن للخير والشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مَن مَثَّل مفعولاته التي خَلَقها بمفعولات غيره، فقد وقع تمثّل المَجُوس القَدَرِيَّة، فكيف بمَن مَثَّل أفعاله بنفسه أو صفاته بفعل غيرِه وصفتِه؟!».

وشَرُّ الجهمية والمعطلة معلوم؛ فإنهم بنفي صفات الله ﷻ يَصُدُّون الناس عن عبادة الله، فلا يمكن أن تتألَّهَ القلوب لمعدومٍ ليس له صفة؛ وإنما يَعْبُد الموحدون الله لكمال أسمائه وصفاته؛ لذلك يعبدونه خوفًا ومحبةً ورجاءً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنّ الله بَعَث الرُّسل تدعو الخَلق إلىٰ عبادته الجامعة لمعرفته بأسمائه وصفاته وآياته، ولمحبته، والإنابة إليه، وإخلاص الدِّين له حتىٰ يكون الدِّين كله لله.

والجهمية تَصُدُّ القلوب عن معرفته ومحبته وعبادته بحسب تَجَهُّمِهِم؛ إذ هُمْ بين المُستَقِل والمُستكْثِر، ولا تَجِد أَحَدًا فيه شُعبة من التَّجَهُّم إلا وفيه من نَقْص التوحيد والإيمان بحسب ذلك؛ ولهذا كانت المعتزلة من أَبْعَدِ الناس عن طريقة أولياء الله المُتَّقِين، العارفين بطريق الله عِلمًا، السالكين فيه عملًا وحَالًا وقَصْدًا».

والذي ابتدع ضَلَال نَفْي صفات الله ﷻ هو الجَعْد بن دِرْهَم، وقام الجَهْم بن صفْوَان بَعْدَهُ بنشرها والدعوة إليها حتىٰ أَضَلَّ خَلقًا كثيرًا، وأدخل في الإسلام

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٧).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٦٠٥).

شرًّا عظيمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الذي ابتدع هذا النفي ابتداءً، وهو عالِمٌ بلوازمه، كان من أعظم المنافقين الزَّنادِقَة المُعطِّلِين للصانع ولعبادته ودعائه.

ولهذا تجد هذا السَّلْب إنما يقع كثيرًا من مُتكلِّمي الجهمية الذين ليس فيهم عبادة لله ولا إنابة إليه وتَوَجُّه إليه؛ وإنْ صَلُّوا صَلُّوا بقلوبٍ غافلة؛ وإنْ دَعَوْهُ دَعَوْهُ بقلوبٍ لاهِيَة، لا تُحقِّق قَصْدَ المعبود المَدْعُو».

وغالِيَةُ المعطلة هُمُ الفلاسفة الكُفَّار الذين ينفون عن الله أسماءه وصفاته وأفعاله، ويعتقدون ألَّا يُعبَّر عن الله إلا بـ«هو» فقط، ويقولون: «هو» الهُوِيَّة المَحْضَة غير المُتكثِّرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن جحودَ صفاتِه مُستَلْزِمٌ لجحود ذاته».

والجهمية ضاهوا الفلاسفة في كُفْرِهم فنَفَوْا كل أسماء الله وصفاته؛ لذلك لَمْ يَعُدَّهُم ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ من فِرق القِبلة.

وقال أبو موسىٰ الأنصاري: قيل لمالك: إنهم يزعمون أن الله لا يُرىٰ! فقال مالك: السيف السيف[(٣)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن زَعَم أن الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يتكلم، فهو كافر»[(٤)].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٥٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٥٦ – رقم ٨٧٢).

(٤) السُّنة للخلال–الذيل (٢/ ٣٠٤–رقم ٢٢٦٧).

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «نظرتُ في كلام اليهود والنصارىٰ والمجوس، فما رأيتُ قومًا أَضَلَّ في كُفْرِهم من الجهمية؛ وإني لأستجهلُ مَن لا يُكفِّرهم إلا مَن لا يَعْرِف كُفْرَهُم».

وقال أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٨٤٥هـ)[٢]: «كَفَّره -الجَهْم- أهلُ السُّنة؛ بنَفْيِ الصفات، وخَلْق القرآن، ونَفْي الرؤية».

وقال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[٣]: «لَمْ يَظْهَر جَهْمٌ وأصحابُ جَهْمٍ في زمن أصحاب رسول الله ﷺ وكِبار التابعين، فَيُرْوَىٰ عنهم فيها أَثَرٌ منصوصٌ مُسَمًّىٰ، ولو كانوا بين أَظْهُرِهِم مُظْهِرِين آراءهم لقُتلوا كما قَتَلَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الزنادقة التي ظهرت في عصره، ولقُتلوا كما قُتل أهلُ الرِّدَّة.

ألا ترىٰ أنَّ الجعد بن درهم أظهَرَ بَعْضَ رأيه في زمن خالدٍ الْقَسْرِيِّ، فزَعَم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَتَّخِذ إبراهيم خليلًا، ولَمْ يُكلِّم موسىٰ تكليمًا، فذَبَحه خالدٌ بِوَاسِطَ يوم الأضحىٰ علىٰ رءوس مَن حَضَره من المسلمين، لَمْ يَعِبْهُ به عائِبٌ، ولَمْ يطعن عليه طاعِنٌ، بل استحسنوا ذلك من فِعْله وصَوَّبُوه».

وشُعَبُ التَّجَهُّم في الفِرَق والطوائف والناس مُتفاوِتة، شرُّهُم المعطلة التعطيل الكلي، ومَن كان فيه تعطيلٌ لبعض الصفات وإثباتٌ لبعضها إنْ أعانته فِطْرته علىٰ دفعِ ضَلالِ التعطيل الذي تَلَقَّاه عن المبتدعين وهُدِيَ لأسباب تلقِّي العلم النافع عن

---

(١) خلق أفعال العباد (ص٥٢٦).

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٧٦، ١٧٧).

(٣) الرد علىٰ الجهمية (ص١٧٦، ١٧٧).

الصحابة والتابعين الذي يُؤدِّيه إلىٰ الناس أئمة الهُدَىٰ= كان الشرع مُتعاضِدًا مع فِطْرته علىٰ التألُّه لله حقًّا؛ وإنْ أفسدتِ البدعُ فِطْرَته كان فيه من الضَّلال بحسب ما فيه من التجهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هؤلاء المعطلة حقيقةُ قولِهم: مَنْعُ أن يكونَ اللهُ صَمَدًا مَدْعُوًّا معبودًا مقصودًا، كما أن حقيقة قولهم: مَنْع أن يكون في نفسه حقًّا صَمَدًا موجودًا.

فقولهم مُستلْزِمٌ لعدم نفسه وتعطيله، ولعدم معرفته وعبادته وقَصْدِه، وإن كانوا من وجهٍ آخَرَ يُقِرُّون بوجوده وعبادته ودعائه وقَصْدِه؛ إذ ليسوا مُعطِّلين مطلقًا، بل جامعون بين الإقرار والإنكار، والإثبات والنفي.

ولهذا كان أهل المعرفة بالله مُتَّفِقين علىٰ أنه لا يَتِمُّ معرفة عبدٌ بربِّه، ويتم قَصْدُه له، وتَوجُّهه إليه، ودعاه له، إلا بإقراره بأنه فوق العالَم؛ وأنه بإقراره بذلك تَثْبُت الإلهية في قلبه، ويصير له ربٌّ يَعْبُده ويقصده، وبِدُونِ ذلك لا يبقىٰ قلبه مُستقرًّا مطمئنًا إلىٰ إلهٍ يعبده ويقصده».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «واللهُ سبحانه فَطَر عِباده علىٰ شيئين: إقرار قلوبهم به علمًا، وعلىٰ محبته والخضوع له عملًا وعبادة واستعانة، فهم مَفْطُورون علىٰ العلم به والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبي ﷺ: «كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علىٰ الفِطرة»، وفي رواية: «علىٰ هذه الفطرة»، وفي الصحيحين: عن

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٥٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٨٥).

الزُّهْرِي، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ علىٰ الفطرة، فأَبَوَاهُ يُهوِّدانِه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمجِّسانِه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ؟»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]».

وكلٌّ من المُعطِّلَة والمُمَثِّلَة والمُؤَوِّلَة المُحرِّفَة قالوا علىٰ الله بغير علمٍ، وتَنقَّصُوا اللهَ، وما قَدَرُوه حقَّ قَدْرِه.

فالمعطلة أَنْكَرُوا إلهية الله بنفي صفاته، والممثلة تنقَّصوا الله الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله بتشبيهه بالمخلوق الناقص، والمحرفة أبطلوا معاني ما دَلَّت عليه نصوصُ الوحي بتحريف كلام الله.

قال علي بن عاصم الواسطي رحمه الله[(١)]: «تكلَّم داود الجواربي في التشبيه، فاجتمع فيها أهلُ وَاسِطَ، منهم: محمد بن يزيد، وخالد الطحان، وهشيم وغيرهم، فأَتوا الأمير وأَخْبَرُوه بمقالته، فأَجْمَعُوا علىٰ سَفْكِ دمه، فمات فلمْ يُصلِّ عليه علماءُ أهلِ واسط».

قال الحافظ قِوَام السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله (ت: ٥٣٥هـ)[(٢)]: «إن القول في صفات الله وأسمائه بغير ما وَصَفَ اللهُ به نفسه، قد يُؤَدِّي إلىٰ الكفر، وتكذيب الله هو جحودُ ما قالَهُ وهو كُفْرٌ».

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٨٦، ٥٨٧ – رقم ٩٣٣).
(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٨٢).

وقال أبو معمر الهذلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مَن زَعَم أن الله لا يتكلم، ولا يسمع، ولا يُبْصِر، ولا يغضب، ولا يرضىٰ فهو كافر بالله عَزَّوَجَلَّ».

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٦٠٠هـ)[(٢)]: «**إن الإسلام وأهله أُتُوا من طوائفَ ثلاث:**

فطائفةٌ رَدَّت أحاديث الصفات وكذَّبوا رُوَاتَها: فهؤلاء أشدُّ ضررًا علىٰ الإسلام وأهله من الكفار.

وأخرىٰ قالوا بصحتها وقبولها، ثم تَأَوَّلُوها: فهؤلاء أعظم ضررًا من الطائفة الأولىٰ.

والثالثة: جَانَبُوا القَوْلَين الأولَين، وأخذوا بزعمهم يُنزِّهُون وَهُمْ يَكْذِبُون، فأدَّاهُم ذلك إلىٰ القولين الأولين، وكانوا أعظم ضررًا من الطائفتين الأولتين».

وأخبثُ الناس، وأغلظهم كفرًا، وأعظمهم إفسادًا لدِين الإسلام: مَن أَدْخَل كُفْرَ وإلحاد الفلاسفة في عقائد دين الإسلام، كما فَعَل نصير الدين الطُّوسِىٰ وزير هولاكو التَّتَرِي، حيث نصر اعتقاده بقِدَمِ العالَم، وإنكار المعاد، وإنكار الصفات، لَعَنه اللهُ من رافضيٍّ مُلْحِدٍ ساحِر، هَلَك سَنة (٦٧٢هـ).

ومن أعظم ما تَوَعَّد اللهُ بوعيده الإلحاد في آياته: قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص٢٤٥ – رقم ٥١٩).
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٢٢، ٢٢٣).

وغُلَاةُ مُشْرِكِي عصرنا أشدُّ وأعظم شركًا من كُفَّار مكة، فكفار مكة كانوا يخلصون الدعاء لله في الضَّرَّاء، وغلاة مشركي عصرنا يدعون غير الله في السَّرَّاء والضراء، وهُمْ أشد قصدًا لغير الله في الضراء؛ فإن المعطلة من الجهمية والمعتزلة أشد تكذيبًا وإنكارًا وتعطيلًا لأسماء الله وصفاته من كفار مكة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن أولئك المشركين إنما أنكروا اسم الرحمن فقط، وهم لا ينكرون أسماء الله وصفاته، ولهذا كانوا عند المسلمين أكفر من اليهود والنصارىٰ».

وصَنَّف أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب «تكفير الجهمية»، حَشَد فيه مقالات علماء المسلمين فيهم، وبيَّن أنهم أضلُّ من اليهود والنصارىٰ في اعتقادهم.

قال أبو اسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يَرُدُّون علىٰ اليهود قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، فيُنكِرُون الغُلَّ، وينكرون اليد، فيكونون أسوأ حالًا من اليهود؛ لأن الله تعالىٰ أَثْبَت الصفةَ ونَفَىٰ العيب، واليهودُ أثبتتِ الصفةَ وأثبتت العيب، وهؤلاء نَفَوا الصفة كما نفوا العيب.

ويَرُدُّون علىٰ النصارىٰ في مقالِهِم في عيسىٰ وأُمِّه، فيقولون: لا يكون في المخلوق إلا المخلوق، فيُبْطِلُون القرآن».

وقال يزيد بن هارون رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الجهمية[(٣)]: «هُمْ كُفَّار لا يعبدون شيئًا».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٩٧).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ١٧٥ - رقم ٢٤٠٤).

وقال أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[١]: «إنما يدور الجهمي في كلامه واحتجاجه على إبطال صفات الله، ليُبْطِلَ مَوْضِعَ الضُّر والنفع، والمنع والعطاء، ويَأْبَىٰ الله إلا أن يُكذِّبَه ويَدْحَضَ حُجَّته.

فتفكَّروا -رحمكم الله- فيما اعتقدته الجهمية وقالته، وجادلت فيه، ودَعَتِ الناسَ إليه؛ فإنَّ مَن رَزَقه الله فهمًا وعقلًا، ووَهَب له بصرًا نافذًا، وذهنًا ثاقبًا، عَلِم بحُسْنِ قَرِيحَتِه ودقة فِطْنَتِه أن الجهمية تريد:

١. إبطال الربوبية.

٢. ودَفْعَ الإلهية».

وقال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[٢]: «أيُّ تأويلٍ أَوْحَش من أن يَدَّعِي رَجُلٌ: أن الله كان ولا اسمَ له؟

ما مُدَّعِي هذا بمُؤمِنٍ، ولن يدخل الإيمان قَلْبَ رَجُلٍ حتىٰ يَعْلم أن الله لَمْ يَزَلْ إلهًا واحدًا بجميع أسمائه وجميع صفاته».

والمعتزلة كالجهمية نَفَوْا صفات الله كلها، وهو نفيٌ لحقيقة إلهية ربنا، وقالوا بخَلق القرآن، ومعلوم أن القرآن كلام الله.

قال وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «مَن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر».

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) نقض الدارمي على المريسي (ص١١٩).

(٣) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص٣٧ – رقم ٣٦).

وقال يحيىٰ بن أبي قطيفة السراج: كُنَّا عند ابن عُيَيْنَة، فتَشوَّش الناس عليه، فقال ابن عيينة: ما هذا؟ قالوا: قَدِمَ بِشْرٌ -المريسي-. قال: ما يقول؟ قالوا: يقول: القرآن مخلوق. قال: جيئوني به، وجيئوا بشاهِدَين حتىٰ آمُرَ الوالي بضرب عُنُقِه[(١)].

وقال قِوَام السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)[(٢)]: «ظهرتِ المعتزلة فقَدَحتْ في كتاب الله، وقالت: بخَلق القرآن، وقدحت في أحاديث رسول الله ﷺ، وقالت: لا تصح، وسَمّوا أصحاب الحديث حَشْوِيَّةً، وقالوا: الخبر يَدْخُله الصدق والكذب، وكلُّ ما تَردَّد بين الصدق والكذب فهو شَكٌّ، وتأوَّلَتْ أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وقالت: إن الله لا يشاء المعاصي ولا يُقدِّرها علىٰ العبد، ونَفَتْ حديث النزول، وحديث القَدَم، والإصبع، أرادوا نَقْضَ أصول الدِّين، فلمَّا لَمْ يَتمَّ لهم ما قَصَدوه تَبِعَهم الكُلَّابِي فوَضَع كلامًا ظاهِرُه مُونِقٌ، وباطِنُه مُوبِقٌ، وقال: لا أقول: القرآن مخلوق، ولكن أقول: إن الذي في مصاحفنا ليس كلام الله؛ ولكنه عبارة عن كلامه، وكلامه قديم قائم بذاته، ولا أنفي الاستواء، ولكن لا أقول: استوىٰ بذاته، ولا أنفي اليد والوجه، ولكن أَتأوَّلها، فتأوَّلَهما تأويلًا ذَهَب عمَّا كان عليه الصحابة والتابعون».

وإنه لمن عجائب الأمور: تكفير الجهمية والمعتزلة والرافضة لمَن أَثْبَتَ لله عز جل ما أَثْبَته اللهُ لنفسه وما أَثْبَته له رسولُه الله ﷺ من صفاتٍ، وَهُمُ الذين تُنادِي عليهم عقائدهم بالكفر.

---

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص١٠٠ – رقم ٢٠٠).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٩٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المتكلمون في أصول الدِّين بغير كتاب الله وسُنَّة رسوله، يُوقِعُون بين الأُمَّة العَداوة والبَغْضاء بما لا أَصْل له، حتىٰ قد يُكفِّرون مَن خالفهم، ويبيحون قَتْلَهم وقتالهم، كما يفعل أهل الأهواء من الخوارج والرافضة والجهمية والمعتزلة، كما فَعَله هذا المُؤسِّس -أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي- في كتابه هذا -التأسيس- وأمثاله؛ حيث كَفَّر الذين خالفوه، وهُمْ أحقُّ بالإيمان بالله ورسوله منه بدرجاتٍ لا تُحصىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولهذا كان التكفير لمَن يخالفهم من أهل السُّنة والجماعة من شعار المارِقِين، كما قال النبي ﷺ فيما استفاض عنه من الأحاديث الصحيحة في صفة الخوارج: «**يَحْقِر أَحَدُكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوِزُ حناجرهم، يَمْرُقون من الإسلام كما يَمْرُق السَّهم من الرَّمِيَّة**»».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٢٠٨، ٢٠٩).



قال المصنف رحمه الله:

وقارَبَهم طائفةٌ من الفلاسفة وأتباعهم: فوَصَفوه بالسلوب والإضافات، دون صفات الإثبات، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

وقد عُلم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات، وجعلوا الصفة هي الموصوف، فجعلوا العلم عَيْنَ العالم مُكابرةً للقضايا البديهيات، وجعلوا هذه الصفة هي الأخرىٰ فلمْ يُميِّزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جَحْدًا للعلوم الضروريات.

وقاربهم طائفةٌ ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومَنِ اتَّبعهم: فأَثْبَتُوا له الأسماء دون ما تضمَّنته من الصفات، فمنهم مَن جَعَل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المَحْضَة المترادفات، ومنهم مَن قال: عليمٌ بلا عِلْم، قديرٌ بلا قدرة، سميعٌ بصير بلا سمعٍ ولا بصرٍ، فأَثْبَتُوا الاسم دون ما تضمّنه من الصفات.

والكلام علىٰ فساد مقالة هؤلاء وبيانِ تناقُضِها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول، مذكورٌ في غير هذه الكلمات[1].

الشَّرح

الفلاسفة كُفَّار مشركون، فهم يعتقدون أن الله لا يُعبَّر عنه إلا بـ «هو» فقط، ولا يُثْبِتُون له اسمًا ولا صفةً ولا فعلًا ولا قدرةً، يقولون: «هو» الهُوِيَّة المحضة غير المتكثرة، وهو الحكمة المحضة، والحقُّ المَحْض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إن جحودَ صفاتِه مُستلزِمٌ لجحود ذاته».

(١) التدمرية (ص١٧، ١٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفلاسفة[1]: «عطَّلوا الرب الذي فَطَر السماوات والأرض عن صفات كماله ونُعُوتِ جلاله وأفعاله، فلمْ يُثْبِتُوا له ذاتًا، ولا صفةً، ولا فعلًا، ولا تصرُّفًا باختياره في مُلْكِه، ولا عالِمًا بشيء ممَّا في العالَم العُلوي والسُّفْلِي، وعاجزًا مَن أَنْشَأ النشأة الأُولَىٰ أنْ يُعِيدَها مرَّةً ثانية.

وفي الحقيقة: لمْ يُثْبِتُوا ربًّا أنشأَ شيئًا، ولا يُنْشِئه، ولا أَثْبَتُوا لله ملائكة، ولا رُسُلًا، ولا كلامًا، ولا إلهية، ولا ربوبية».

وقال ابن القيم[2]: «أمَّا توحيد الفلاسفة فهو إنكارُ ماهِيَّة الرب الزائدة علىٰ وجوده».

فالفلاسفة كُفَّار ليسوا بمسلمين، ولا يَتلقَّىٰ أَحَدٌ عنهم دِينه إلا ضالٌّ عن أسباب الهداية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الفلاسفة الذين بَلَغَتهم دعوة محمد ﷺ، بعضهم من المتظاهرين بالإسلام، وبعضهم من اليهود، وبعضهم من النصارىٰ.

وكلُّ مَن خالَفَ ما جاءت به الرُّسل فهو ضالٌّ -من أيِّ الطوائف كان-، فإن الله بَعَثَهم بالحق، والمعقولُ الصريح دائمًا يُوافِق ما جاءت به الرُّسل، لمْ يُخالِف العقلُ الصريح شيئًا مما جاءت به الرُّسل».

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٦٣).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٩، ٩٣٠).
(٣) الصفدية (٢/ ٣٢٦).

والجهمية والمعتزلة أنكروا كل صفات الله، ثم جاءت الكُلَّابِيَّة بَعْدَهم وأنكروا من الصفات ما يتعلق بمشيئة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أمَّا دُنُوُّه نَفْسُه وتقرُّبه من بعض عِباده، فهذا يُثْبِته مَن يُثْبِت قيامَ الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستوائه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك مُتواتِر.

وأوَّلُ مَن أَنْكَر هذا في الإسلام «الجهمية» ومَن وافَقَهم من المعتزلة، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش، ثم جاء ابنُ كُلَّاب فخالفهم في ذلك وأثبتَ الصفات والعلو على العرش، لكن وافقهم على أنه -سبحانه- لا تقوم به الأمور الاختيارية؛ ولهذا أَحْدَث قوله في القرآن: أنه قديم لم يتكلم به بقدرته. ولا يُعرف هذا القول عن أَحَدٍ من السلف، بل المتواتر عنهم: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته».

وسببُ تعطيل ونَفْي المبتدعة ما أَثْبَته اللهُ ﷻ ورسولُه ﷺ من أسماء الله وصفاته: إنكارهم لقيام الصفات بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ذلك الأصل الذي هو يَنْبُوع البدع».

وكان هذا التأصيل الباطل سببًا لنفيهم أن يكون الله تكلَّم حقيقةً، كالجهمية وفروعهم الذين قالوا: إن الله لا يَقُومُ به كلامه، بل كلامه مُنْفَصِلٌ عنه مخلوق.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٢) منهاج السنة (١/ ٣١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الأصل الذي قادهم إلىٰ التعطيل واعتقاد المعارضة بين الوحي والعقل أصلٌ واحدٌ، وهو مَنْشَأُ ضَلالِ بني آدم، وهو الفرار من تعدُّد صفات الواحد وتَكثُّر أسمائه الدَّالَّة علىٰ صفاته، وقيام الأمور المتجددة به، وهذا لا محذور فيه، بل هو الحق الذي لا يُثْبِتُ كونه سبحانه ربًّا وإلهًا وخالقًا إلا به، ونَفْيُه جَحْدٌ للصانع بالكلية، وهذا القدر اللازم لجميع طوائف أهل الأرض علىٰ اختلاف مِلَلِهم وعلومهم».

فالمسلمون المُوحِّدون عَرَفوا ربهم بكثرة أسمائه وصفاته الدالة علىٰ كماله، فتوجَّهتْ قلوبهم إليه تألُّهًا لانفراده بهذا الكمال، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن «الصَّمَد» مَن تَصَمُد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة؛ وذلك لكثرة خِصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له».

وأهلُ السُّنة والجماعة يُثْبِتُون صفات الله الذاتية، وهي التي لَمْ يَزَلْ ولا يَزال مُتَّصِفًا بها، ويُثْبِتُون كذلك صفات الله الفعلية المُتعلِّقة بمشيئته، وإثباتُ ما اتَّصَف الله به لا يَلْزَم منه التمثيل كما يَتوَهَّمه المُجسِّمَة، ولا يَلْزَم منه التعدُّد والتبعِيض كما يتوهَّمه المُعطِّلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنه سبحانه أَحَدٌ صَمَدٌ، «الأَحَد» ينفي التمثيل، و«الصَّمَد» ينفي أن يكون قابلًا للتفريق والتقسيم والبَعْضِيَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٥).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٢٦).

وأهلُ السُّنة والجماعة يُثْبِتُون صفات الله الذاتية الفعلية التي لمْ يَزَل ولا يزال مُتَّصِفًا بها وآحادها تتعلَّق بمشيئته، من ذلك: صفة «السمع» و«الكلام» لله رب العالمين، فقد روىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: قسَّمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين: فنِصْفُها لي ونِصْفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حَمِدَنِي عبدي، فإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله: أَثْنَىٰ عليَّ عبدي، فإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال الله: مَجَّدني عبدي، فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذه بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «هذا يقوله ﷻ لكلِّ مُصَلٍّ قرأ الفاتحة، فلو صَلَّىٰ الرَّجُل ما صَلَّىٰ من الركعات قيل له ذلك، وفي تلك الساعة يُصلِّي مَن يقرأ الفاتحة مَن لا يُحْصِي عَدَدَه إلا اللهُ، وكلُّ واحدٍ منهم يقول الله له كما يقول لهذا، كما يحاسبهم كذلك، فيقول لكل واحد ما يقول له من القول في ساعةٍ واحدة.

وكذلك سَمْعُه لكلامهم، يَسْمَع كلامهم كلَّه مع اختلاف لُغاتِهم، وَتَفَنُّنِ حاجاتهم، يسمع دعاءهم سَمْعَ إجابةٍ، ويسمع كلَّ ما يقولونه سَمْعَ عِلْمٍ وإحاطةٍ، لا يَشْغَلُهُ سمعٌ عن سمعٍ».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٧٩، ٤٨٠).

فمذهب الفلاسفة والمعتزلة: نَفْيُ صفات الله ﷻ، وهذا تكذيب لأخبار الله ﷻ ورسولِه ﷺ، فآياتُ القرآن والأحاديث الصحيحة المَرْوِيَّة عن رسول الله ﷺ اشتملت في كثيرٍ من نصوصها علىٰ إثبات أسماء الله ﷻ وصفاته، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لله تسعةٌ وتسعون اسمًا، مَن أَحْصَاها دَخَل الجَنَّة».

فنَفْيُ صفات الله ﷻ مُخالِفٌ للمعقول والمنقول وما أَجْمَعَ عليه المسلمون بفِطَرِهم، من الثناء علىٰ الله، وذِكْرِه بأسمائه ونُعُوته، وهو الذي من أَجْلِه أَفْرَدُوه بالعبادة؛ لأنه وَحْده الذي اجتمعت فيه صفات الكمال.

ونَفْيُ الفلاسفة والمعتزلة لأسماء الله ﷻ وصفاته واقِعٌ علىٰ العدم المَحْض، أمَّا اللهُ ﷻ فقد كَثُرت أوصاف كماله ونُعُوت جلاله وأسماؤه الحُسْنىٰ، حتىٰ تفرَّد بهذا الكمال[1].

فاللهُ ﷻ «رَبُّ العالَمِين»، اعتقادُ المُوحِّدِين يَقِيني بربوبيته للعالَم، وتدبيره له، ونفاذ أَمْرِه كل وقتٍ فيه، وفي كلِّ وقتٍ وحِينٍ يَخْلُق ويرزق، ويُمِيت ويُحْيِي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويُعِزّ ويُذِلّ، ويُصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته، وتكذيبُ الفلاسفة والمعتزلة ومَن وافَقَهم بصفات الله، هو إنكارٌ لربوبيته وإلهيته ومُلْكِه[2].



(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٠).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٧).

قـال المصنف رحمه الله:

وهؤلاء جميعهم يَفِرُّون من شيء فيقعون في نظيره وفي شَرٍّ منه، مع ما يَلْزَمهم من التحريفات والتعطيلات، ولو أَمْعَنُوا النظر لَسَوَّوا بين المتماثلات، وفَرَّقوا بين المختلفات كما تقتضيه المعقولات، ولكانوا من الذين أُوتوا العِلم الذين يرون أن ما أُنزل إلىٰ الرسول هو الحق من ربه ويَهْدِي إلىٰ صراط العزيز الحميد، ولكنهم من أهل المجهولات المُشَبَّهة بالمعقولات، يُسَفْسِطُون في العقليات، وَيُقَرْمِطُون في السَّمعيات[(١)].

الشَّرْح

المبتدعة جادلوا بالمعقول في إبطالِ وَحْيِ الله، ومعقولهم غيرُ صريحٍ فقد خالف المنقول الصحيح، والعقل الصريح يُوافِق النقل الصحيح ولا يخالفه.

والمبتدعة معقولهم ميزانه جائِرٌ؛ حيث وَقَعُوا في نظير ما ينكرونه وفي شَرٍّ منه، والميزان العادل يُسَوِّي بين المتماثلات ويُفرِّق بين المختلفات، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمبتدعة ضلوا بسبب جهلهم وفساد نياتهم وعدم اهتدائهم بالوحي، وتجاسروا علىٰ ردِّ كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما الذين أوتوا العلم فزادهم الوحي تزكيةً لِفِطَرهم وتنميةً لعقولهم وتصحيحًا لعلومهم وفهومهم، فكان تلقيهم لأخبار الله بالتصديق سببًا لهدايتهم للحق والدعوة إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) التدمرية (ص١٩).

ولا ريب أن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح، ولا يخالفه، وما يُتوهم من مخالفة العقل للنقل فهو عقلٌ غير صريح، فالواجب تصحيح أوهام المعقولات غير الصريحة بتوجيهها إلىٰ الاهتداء بالوحي.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧].

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾، أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهانٌ آخر، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهدَ حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعَلِم بعقلِه حُسْنَه؛ فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «مَن أعرض عن نصوص الأنبياء، وادَّعىٰ عقليات تخالفها، وليس معه معقول صريح ولا قياس صحيح، كان كلامه خارجًا عن العقل والسمع، كما قال أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]».

فالوحي فُرقان يُعرف به المعقولات من المجهولات، فما خالفه جهلٌ وضلالة، وما وافقه علمٌ وعقلٌ وهداية، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٢٥).
(٢) الصفدية (٢/ ١٤٩).

فالواجب علىٰ الخَلق جميعًا: الأخذ بفرقان القرآن في تلقي العلوم وتصحيح العقول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «ولهذا جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية؛ فإنّ الرسل بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والنفس إنما تَنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة».

وكمالُ الله في أسمائه وصفاته داعٍ إلىٰ توحيده في عبادته وأُلُوهيته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وبهذا المنهج والخطاب كان يدعو النبي ﷺ إلىٰ توحيد الله، قال الله مخبراً عنه أنه قال: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، قال العلّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يُعبد، ويُصلىٰ له، ويُخضع، ويُسجد».

(١) الصفدية (٢/ ١٥٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٢٠).

وكمال الله في أسمائه وصفاته داعٍ إلىٰ تعظيم الله بإثبات صفاته والتألُّه لله بحقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهي غاية في الحُسن والكمال، والجهلة المعطلة أبطلوا إلهية الله بما نَفَوهُ من أسماء الله وصفاته، فكذَّبوا بخبر الله وجعلوا جهلهم معقولًا باطلًا ينفون به ما أثبته الله لنفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النُّفاة المعطلة من الجهمية والمتفلسفة والباطنية يظنون أنّ ما نفوه عن الرب، هو كمالٌ له وهو تعظيم له، وذلك من جهلهم، بل إثبات ما نفوه هو الكمال الذي يكون مُثْبِتُه مُعظِّمًا للرب».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنّ النبي ﷺ قال: «يأخذ الجبار أرضه بيديه، ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحديث في الصحيحين، والآية دَلَّت علىٰ عِظَمِ قَدْر الرب الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات».

أسماء الله وصفاته نثبتها بما أخبرنا الله عن نفسه سبحانه؛ فإنّه أَعْلم بنفسه من كل ما سواه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٢٤).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٦٦، ٣٦٧).

قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنّه لا يَصِفُ الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فمَن نَفَىٰ عن الله وصفًا أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله ﷺ زاعمًا أنّ ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله ﷻ، فقد جَعَل نفسه أعلم من الله ﷻ ورسوله ﷺ بما يليق بالله ﷻ ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]».

فاتَّبعْ -أيها المسلم- ما أُنزل من الله ﷻ، واحذر أن تُكذِّب خبر الله ﷻ لأغلوطات المبتدعين، الذين عارضوا وحي الله بعقولهم الناقصة.

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنّ فَصْلَ ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل؛ فإنّهم أسسوا دينهم علىٰ المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول.

وأما أهل السُّنة فقالوا: الأصل الاتباع، والعقول تَبَعٌ، ولو كان أساس الدين علىٰ المعقول لاستغنىٰ الخَلق عن الوحي وعن الأنبياء صلوات الله عليهم، ولبطل معنىٰ الأمر والنهي، ولقال مَن شاء ما شاء».

وكيف تَطِيبُ نفسُ مسلمٍ بتكذيب خبر الله ﷻ ورسوله ﷺ بتعالُم عقله فيما زاغ فيه، فمجهول العقول بالغيب عن ذات الله وصفاته يوجب عليها الإيمان بالوحي وتصديقه.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٤١٦)، ط- دار إحياء التراث العربي.
(٢) الانتصار لأصحاب الحديث (ص٨١، ٨٢).

صَدقَ اللهُ ﷻ ورسوله ﷺ، وكذبت عقول المتعالمين، فالمخلوق لا يحيط علمًا بالله سبحانه ليجعل عقله مُثبِتًا نافيًا لصفات الله ﷻ مُكذِّبًا للوحي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وكل ما نَفَاهُ الفلاسفة والمتكلمون والمعطلة مما جاء به الوحي بدعوىٰ مخالفته للمعقول، قد دلَّ العقل الصريح علىٰ ثبوته متعاضدًا مع الوحي، وكان جهلُ أولئك بالمعقول وبما ابتدعوه من القواعد الباطلة سببًا في فساد معقولاتهم، كقولهم: الصفات لا تقوم إلا بجسم والأجسام متماثلة.

والذي دلَّ عليه الوحي المعصوم أنّ ذات الله موصوفة بصفات الكمال، ليست كأجسام مخلوقاته؛ فإنّ الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. وأجسام المخلوقات عامتها غير متماثلة، فمقدمات المبتدعة باطلة ونتائجها ضالة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هم استسلفوا مقدمات باطلة ظَنُّوها عقلية، واحتاجوا إلىٰ القول بلوازمها، فألجأهم ذلك إلىٰ الأقوال الباطلة المخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول، مع أنها من أعظم الفرية علىٰ رب العالمين، وأعظم الجهل بما هو عليه سبحانه من نُعوت الكمال. دع ما في ذلك من تكذيب رسله، والإلحاد في أسمائه وآياته».

واللهُ ﷻ أنزل كتابه تبيانًا لكل شيء، فهو هداية للحق، وشفاء عن ضلالات الفلاسفة والمتكلمين والجهمية وفروعهم المبتدعين، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٨٣).

فالواجب على المسلم: اتباع الصراط المستقيم والطريق الأقوم في تلقي العقيدة والدين، وليحذر سُبُلَ المبتدعين التي أضلَّتهم عن الحق وأوقعتهم في أنواعٍ من الكفر والإلحاد والبدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الطريقة المشروعة في العلم والعمل؛ فإنها أقوم الطرق، ليس فيها عِوَجٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]».

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسَفْسِطُون في العقليات، ويُقَرْمِطُون في السمعيات»، بيانٌ لحالِ الفلاسفة والمتكلمين والمعطلة والممثلة الذين جادلوا بالباطل وبالتأويل والمعقول الضال، ما أوقعهم في القَرْمَطَة والسَّفْسَطَة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «سُمِّي قَرْمَطَةً؛ لأنَّ القَرامِطَةَ هم أشهر الناس بادِّعاء علمِ الباطن المخالف للظاهر، ودعوى التأويلات الباطنة المخالفة للظاهر المعلوم المعقول من الكتاب والسُّنة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «السفسطة: هي جحود الحقائق وجحود الخالق».

ولا ريب أن مَن أنكر صفات الله عَزَّ وَجَلَّ فقد أنكر إلهيته.

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٦٣٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٥٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٥٧).

وتحدَّث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أسباب السفسطة في البَدِيهِيَّات، والقرمطة في المعقولات، وإنكار الضروريات، ودعوىٰ العلم الضروري فيما ليس كذلك، فقال[١]: «إنّ هذا النوع من السفسطة ودعوىٰ العلم الضروري فيما ليس كذلك، بمنزلة إنكار الضروري، فيما هو ضروري، فصاحب هذا إما متعمد للكذب، وإما مخطئ.

والخطأ في أسباب العلم: إمَّا لِفَوات شرط العلم من فساد قوىٰ الإدراك وضعفها، أو عدم التصور التام لطرفي القضية التي يحصل العلم بالتصديق عند تصوُّر طرفيها، أو لوجود مانع من الأهواء الصادة عن سبيل الله».

وبالمقابلة بين أقوال طوائف الضالين في توحيد الله في أسمائه وصفاته، نتبيَّن تناقضهم، ويظهر لنا ما وقعوا فيه من نظير الذي أنكروه علىٰ غيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنّه ما من أَحَدٍ يُثبِتُ شيئًا وينفي شيئًا لكونه مستلزمًا للتجسيم، إلا أمكن النافي أن يقول له فيما أثبته، نظير ما قاله له فيما نفاه.

وهذه عادة الطوائف بعضها مع بعض، فالمعتزلة لمَّا قالت للصِّفاتِيَّة من الأشعرية وغيرهم: إذا قلتم: إنّ لله حياةً وعلمًا وقدرةً وكلامًا، فلا تُعقل هذه المعاني إلا أَعْرَاضًا، والعَرَضُ لا يَقُومُ إلا بجسم.

فقالت لهم الصفاتية: نحن وأنتم متفقون علىٰ أن الله حي عليم قدير، ونحن

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧، ٥٨).
(٢) الصفدية (٢/ ٣٤، ٣٥).

لا نعقل حيًّا عليمًا قديرًا إلا جسمًا، فإذا جاز إثبات حيٍّ عليمٍ قديرٍ، ليس بجسم، فكذلك قد يجوز إثبات حياةٍ وقدرةٍ تَقُوم به، وليست عَرَضًا، وليس هو جسمًا.

وطائفة من الباطنية والفلاسفة قالت للمعتزلة: إذا قلتم: إنّ الله حيٌّ عليمٌ قديرٌ، فلا نعقل مُسمًّىٰ بهذه الأسماء إلا جسمًا.

فقالت لهم المعتزلة: وأنتم قلتم: إنّ الله موجود قائم بنفسه، ولا يُعقل موجود قائم بنفسه إلا جسمًا؛ فإن جاز إثبات موجودٍ قائمٍ بنفسه ليس بجسم، جاز إثبات كونه حيًّا عليمًا قديرًا، ولا يكون جسمًا.

وقالت معتزلة الصفاتية الذين ينفون الصفات الخبرية، كصاحب «الإرشاد» وأتباعهم لأئمتهم -كأبي الحسن الأشعري، وأبي عبد الله بن مجاهد، والقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي بكر بن فورك، وأبي القاسم القشيري، وغيرهم-: واليد لا تعقل إلا أبعاض الجسم، فإذا أثبتموها وقلتم: ليست أَبْعَاضَ جسمٍ، كان هذا غير معقول.

فقال المثبتون: كما أنَّا لا نعقل حياةً وعلمًا وقدرةً وكلامًا وسمعًا وبصرًا إلا عَرَضًا قائمًا بجسم، ثم أثبتنا هذه الصفات، وقلنا جميعًا نحن وأنتم: إنها ليست أعراضًا، فكذلك نُثبِتُ هذه الصفات، ونقول: ليست أبعاضًا، فليس نفيُ الأعراض عن هذه بأَوْلَىٰ من نفيِ الأبعاض عن هذه».

وإثبات صفات الله ونفيها لا يرجع إلىٰ عقول البشر، فعقول البشر محدودة لا تعلم الغيب، فتنتهي حيث لا تدري، وترجع إلىٰ خبرٍ معصوم يهدي العقول إلىٰ أصدق العلوم وأحسن الفُهوم.

والعقول تتفاوت في إدراكها، ليست شيئًا واحدًا، فإثبات العلوم الإلهية بالعقول البشرية يوجب اضطراب العلوم واختلافها وضلالها إذا لم تهتدِ بالوحي.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[١]: «إنّ المعقول ليس لشيءٍ واحد موصوف بحدود عند جميع الناس فيقتصر عليه. ولو كان كذلك كان راحةً للناس، ولقلنا به، ولَمْ نعد، ولم يكن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فوجدنا المعقول عند كلِّ حزبٍ ما هم عليه، والمجهول عندهم ما خالفهم، فوجدنا فِرَقكم معشر الجهمية في المعقول مختلفين، كل فرقة منكم تدَّعِي أنّ المعقول عندها ما تدعو إليه، والمجهول ما خالفها.

فحين رأينا المعقول اختلف منا ومنكم ومن جميع أهل الأهواء، ولم نقف له علىٰ حدٍّ بيِّنٍ في كل شيء، رأينا أرشد الوجوه وأهداها أن نرد المعقولات كلها إلىٰ أمرِ رسول الله ﷺ، وإلىٰ المعقول عند أصحابه المستفيض بين أظهرهم؛ لأنّ الوحي كان ينزل بين أظهرهم، فكانوا أعلم بتأويله منا ومنكم، وكانوا مُؤْتَلِفِين في أصول الدين، لم يفترقوا فيه، ولم تظهر فيهم البدع والأهواء الحائدة عن الطريق، فالمعقول عندنا ما وافق هديهم، والمجهول ما خالفهم».

وحُذَّاق المتكلمين بالمعقولات انتهوا إلىٰ حيرة عقولهم عن الاهتداء إلىٰ الحق ومعرفته بقواعدهم العقلية الباطلة، وانتهوا إلىٰ أن أقوم الطرق في العلم بالعقائد الصحيحة والمعقولات الصريحة الاهتداء بالوحي.

---

(١) الرَّدُّ علىٰ الجَهْمِيَّة (ص٦٦، ٦٧).

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي:

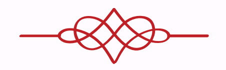
نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ الْعُقُــولِ عِقَــالُ وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ الْعَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وَأَرْوَاحُنَـا فِـي وَحْشَـةٍ مَـنْ جُسُـومِنَا وَحَاصِـلُ دُنْيَانَـا أَذًىٰ وَوَبَـالُ

وَلَـمْ نَسْـتَفِدْ مَـنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَـا سِـوَىٰ أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

لقد تأملتُ الطُّرُق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تَشْفِي عَلِيلًا ولا تَرْوِي غَلِيلًا، ورأيتُ أقرب الطُّرق طريقة القرآن، أقرأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] فأُثْبِتُ، وأقرأُ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] فأَنْفِي. ومَن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[(١)].

وقال أبو الفتح محمد بن علي الطبري الفقيه: دخلتُ علىٰ أبي المعالي الجويني، نَعُودُه في مرضه الذي مات فيه بنيسابور، فأقعد، فقال لنا: اشهدوا عليَّ أني قد رجعتُ عن كل مقالة قلتها أخالف فيها ما قال السلف الصالح، وإنّي أموت علىٰ ما يموت عليه عجائز نيسابور[(٢)].



(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٠).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٢، ٥٣).

قال المصنف رحمه الله:

وذلك أنه قد عُلم بضرورة العقل أنه لا بُدَّ من موجودٍ قديمٍ غنيٍّ عما سواه، إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع، وقد عُلم بالاضطرار أن المحدَث لا بُدَّ له من محدِث، والممكن لا بُدَّ له من واجب، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾، فإذا لم يكونوا خُلِقُوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم، تعيَّنَ أن لهم خالقًا خَلَقَهُم(١).

الشَّرْح

العلم بخَلق الله للمخلوقات الدال علىٰ كمال ربوبية الله وتفرُّده بذلك الموجب لعبوديته وحده، هو من أول ما أوحىٰ الله لنبينا محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

ومعرفة المخلوق لخالقه يوجب له عبوديته وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين، واعتقاد مباينته لخَلْقِه، والتحقق بكمال ذاته وصفاته وأفعاله، وغناه عن خلقه، وافتقار خَلقه إليه إيجادًا وحفظًا ورزقًا وتدبيرًا وهدايةً، وهذا يوجب خضوع المخلوق لربه، والتذلل له بالعبودية، وألا يستنكف أَحَدٌ عن عبادته، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

---

(١) التدمرية (ص٢٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن عبدَ غير الله كان باطلًا، وعبادته باطلة؛ لأنّه لا منفعة فيه ولا في عبادته، بل ذلك ضررٌ مَحْضٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ [الحج: ١٣]، وهذا عامٌّ في كل معبود، وهذا حقيقة الدين.

فإن الله إنما خَلَقَ الخَلق لعبادته وحده لا شريك له، وسخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض ليستعينوا به علىٰ عبادته، فمَن لمْ يستعنِ بهذه الأشياء علىٰ عبادته فعملُه كلُّه وقصدُه باطِلٌ، ولا منفعة فيه، بل فيه الضرر».

فاحذر -أيها المسلم- كُفْرَ الفلاسفة الذين يعتقدون أن حركة الفلك والكواكب تخلق بعض المخلوقات، فاللهُ خالِقُ كلِّ شيء وخالق السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما، ومن جملة ذلك: الفلك، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

واحذر -أيها المسلم- شِرْكَ المَجُوسِيَّة الذين قالوا: إنّ العالَمَ صدَرَ عن النور والظلمة[(٢)].

واعتقاد الفلاسفة والمجوس فساده من أَبْيَنِ الأمور في الفِطَر، وفي المنقول، والمعقول، والمحسوس، فقد دلَّ قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] علىٰ امتناع أن يكون المخلوق خالقًا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٢٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٧).

والعقل يدل علىٰ أن وجود المخلوقات دالٌّ علىٰ وجود الخالق للمخلوقات.

قال جبير بن مطعم رضي الله عنه: لمَّا سمعتُ النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] كاد يتصدع قلبي، رواه البخاري.

وفي المحسوس: يجد الإنسان في خَلْقِه وفي خَلْقِ المخلوقات العظيمة، أعظم الدلالة علىٰ ربوبية الله، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «من أوضح الدلالة علىٰ معرفة الله سبحانه وتعالى، علىٰ أن للخلق صانعًا ومدبرًا: أنَّ الإنسان إذا فكَّر في نفسه رآها مُدبَّرة، وعلىٰ أحوالٍ شَتَّىٰ مُصرَّفَة، كان نُطْفَةً ثم عَلَقةً، ثم مُضْغَةً، ثم عظامًا، ولحمًا، فيعلم أنه لا ينقل نفسه من حال النقص إلىٰ حال الكمال؛ لأنه لا يقدر أن يحدث في الحال الأفضل التي هي حالُ كمال عقله، وبلوغ أشده عضوًا من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك علىٰ أنه في وقت نقصه، وأوان ضعفه عن فعلِ ذلك أعجز.

وقد يرىٰ نفسه شابًّا، ثم كَهْلًا، ثم شيخًا، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلىٰ حال الشيخوخة والهِرَم، ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المَشِيب ويُرَاجِع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه؛ وأنَّ له صانعًا صَنَعَه، وناقلًا نَقَلَهُ من حالٍ إلىٰ حالٍ، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقلٍ ولا مُدبِّرٍ».

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٠٢، ٥٠٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الخَلْقُ أعظمُ الأفعال؛ فإنه لا يقدر عليه إلا الله، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة، وليس لها نظير من قدر المخلوقين».

وكان المشركون في الجاهلية لا يعتقدون مع الله خالقًا، ولكنهم كانوا يشركون في عبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أخبر أنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ليستدل بهما العِبادُ علىٰ عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنًا لعِباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها علىٰ ألسنة رُسُله، ولهذا نَزَّه نفسه عن شرك المشركين به، فقال: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، أي: تنزَّه وتعاظَمَ عن شركهم؛ فإنه الإله حقًّا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالىٰ».

والله ﷻ خاطبنا بالاعتبار بدليل الحس علىٰ ربوبيته وعظمته الموجبة لعبادته وحده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

والمخلوقات فَطَرها الله علىٰ معرفة باريها والتوجه إليه، قال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٣٥٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٩٨).

«خرج سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستسقي، فرأىٰ نملةً مستلقيةً علىٰ ظهرها، رافعةً قوائمها إلىٰ السماء، تقول: اللهم إنَّا خَلْقٌ من خَلْقِكَ، ليس بنا غنًىٰ عن سقياك، فقال: ارجعوا فقد سُقِيتم بدعوةِ غيركم»، رواه أحمد في الزهد، وصحَّحه الحاكم.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنىٰ «لا إله إلا الله»؛ فإنَّ الإله هو الذي يُعرف ويُعبد».

وعن عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «خلقتُ عِبادي حُنَفاء، فاجْتَالَتهم الشياطينُ»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أخبر أنه خَلَقَهُم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية، وهي معنىٰ قول «لا إله إلا الله»».

فمَن بقي علىٰ الحنيفية لمْ يَعْبُدْ ويسأل إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنه يسأله المؤمن والكافر، ولا يعبده إلا المؤمن».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٦).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٣٤٥).
(٣) الرد علىٰ الشاذلي (ص٥٥).

ومن التوحيد الواجب اعتقاده: أن الله خالق كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]؛ وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ولا يكون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «ليس في الوجود شيءٌ واحد يستقل بفعل شيء إذا شاء، إلا الله وحده».

وقد ضلَّ الأشاعرة في إنكار ما خَلَقَ اللهُ من الأسباب التي يخلق بها المُسبِّبات، والمسلم لا ينكر ما خَلَقه اللهُ من القوىٰ التي في المخلوق التي يفعل بها أعماله، ويؤمن بأن الله خالِقٌ للمخلوق وعملِه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أهل الهدىٰ والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علمًا، وكل شيءٍ أحصاه في إمامٍ مبين.

ويتضمن هذا الأصل من إثبات علمِ الله، وقدرته، ومشيئته، ووحدانيته، وربوبيته؛ وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه: ما هو من أصول الإيمان.

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١١٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١١٢).

﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فأخبر أنه يفعل بالأسباب.

ومَن قال: إنه يفعل عندها لا بها، فقد خالف ما جاء به القرآن، وأنكر ما خلقه الله من القوىٰ والطبائع، وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوىٰ التي في الحيوان، التي يفعل الحيوان بها، مثل قدرة العبد، كما أن مَن جعلها هي المُبدِعَة لذلك فقد أشرك بالله، وأضاف فِعْلَهُ إلىٰ غيره».

وتقسيم الوجود إلىٰ واجب وممكن، هذا اصطلاح ابن سينا[1]، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستعمل اصطلاح الفلاسفة والمتكلمين للرد عليهم، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حثَّ علىٰ استعمال ألفاظ الوحي في إثبات العقائد والأحكام؛ فإنها عصمة من الخطأ والضَّلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الوجود ينقسم إلىٰ: غَنِيٍّ عن غيره، وفقير إلىٰ غيره، والفقير لا يُوجد بدون الغني، فيلزم وجود الغني علىٰ التقديرين.

والوجود ينقسم إلىٰ: قَيُّومٍ يَقُوم بنفسه، ويُقِيم غَيْرَهُ، وإلىٰ ما ليس بقيوم، وما ليس بقيوم لا يُوجد إلا بالقيوم، فيلزم وجود القيوم علىٰ التقديرين.

وكذلك يُقال: الوجود ينقسم إلىٰ: مخلوق وإلىٰ غير مخلوق، والمخلوق لا بُدَّ له من وجود خالقٍ غير مخلوق، فثبتَ وجودُ الموجود الذي ليس بمخلوق علىٰ التقديرين».

---

(١) الصفدية (٢/ ١٩).

(٢) الصفدية (٢/ ١٩، ٢٠).

وسيد الحنفاء خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أنه توجَّه بالقصد والعبادة لله وحده؛ لكمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وخَصَّ بالذِّكر من كمال أفعاله: خَلْقَ السماوات والأرض، فهو الذي يُعبد وحده، قال تعالىٰ مخبرًا عنه أنه قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ أنه أفرد الله بالعبادة؛ لأن له مُلْكَ كلِّ شيء، قال تعالىٰ مخبرًا عنه أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].





قال المصنف رحمه الله:

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه، وما هو مُحْدَث ممكن، يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمىٰ «الوجود» أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصّه ووجود هذا يخصه، واتفاقهما في اسمٍ عامٍّ لا يقتضي تماثلهما في مسمىٰ ذلك الاسم عند الاضافة والتقييد والتخصيص ولا في غيره.

فلا يقول عاقل -إذا قيل: إن العرش شيء موجود، وإن البعوض شيء موجود- إن هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمىٰ «الشيء» و«الوجود»؛ لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه، بل الذهن يأخذ معنىٰ مشتركًا كليًّا هو مسمىٰ الاسم المطلق.

وإذا قيل: هذا موجود وهذا موجود، فوجودُ كلٍّ منهما يخصه لا يشركه فيه غيره، مع أن الاسم حقيقة في كل منهما.

ولهذا سمَّىٰ الله نفسه بأسماء وسمّىٰ صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أُضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمّىٰ بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، لا اتفاقهما، ولا تماثل المسمىٰ عند الإضافة والتخصيص، فضلًا عن أن يتحدَ مسماهما عند الإضافة والتخصيص[١].

---

(١) التدمرية (ص٢٠، ٢١).



الشَّرح

اتفاق الأسماء لا يدل على اتفاق المسميات، ولا يَلْزَم ذلك.

والله ﷻ العظيم، أَحَدٌ صَمَدٌ، أسماؤه وصفاته حسنى، غاية في الكمال، لا يماثله ولا يساميه مخلوق في أسمائه ونعوته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «سواءٌ كان السَّمِيُّ من التسمية أو المُسامَاة، فإنَّ مرجعهما إلى شيء واحد؛ فإن المسمى باسم الشيء هو مُسامٍ له وإن لم يقصد ذلك، والمسامي للشيء لا بُدَّ أن يُسمى بأسمائه؛ إذ المراد بالاسم في هذه المواضع ليس هو مجرد اللفظ الذي يكون عَلَمًا كأسماء الأعلام؛ وإنما المراد بالأسماء ما يدل على نعوت المسمى وصفاته؛ فإنَّ الاسم يرفع المسمى ويعليه، وإذا ارتفع وعلا ظهر وتجلَّى، وذلك هو وَصْفُه وإظهار ما فيه. وهذا هو الذي عابه الله تعالى على مَن سمَّى الأوثان بأسماء ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]».

فالمُوحِّد يتحقق بتوحيد الله بما يُثْبِتُه لله ﷻ من أسمائه وصفاته الحسنى، فلا ينفيها ولا يُمثِّلها بمخلوق؛ لاعتقاده بعلو صفاته عن مماثلة المخلوقين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

(١) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١٢٩).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العلي في ذاته، فهو عالٍ علىٰ جميع المخلوقات، وفي قَدْرِه، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أنَّ الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مَطْوِيَّات بيمينه.

ومن كبريائه: أنَّ كرسيه وَسِعَ السماوات والأرض.

ومن عظمته وكبريائه: أنَّ نَوَاصِيَ العِباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا مَلَكٌ مُقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسَل؛ أنها كلُّ صفةِ كمالٍ وجلالٍ، وكبرياء، وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها.

ومن كبريائه: أن العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها: تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها».

وقول شيخ الإسلام: «الذهن يأخذ معنًىٰ مشتركًا كليًّا هو مسمىٰ الاسم المطلق»، فيه تبيينٌ بَيْنَ ما يُقدِّره الذهن من القدر المشترك بين الاسمين في اتفاق اللفظ، وبين ما ينفيه الواقع من حقيقة المسميات.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٣٣٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن أسماء الله مثل العليم والقدير والرحمن والرحيم، دالةٌ علىٰ نفسه المقدسة بما لها من نفس علمه وقدرته ورحمته، وهذا الاسم الذي دل علىٰ هذا المعنىٰ لا يجوز أن يُسمىٰ به سواه أصلًا، وإذا أطلقناه علىٰ المخلوق وقلنا في الإنسان: سميع بصير، فهذا الاسم الذي دل علىٰ حقيقة سَمْعِ المخلوق وبصره لا يُسمَّىٰ اللهُ به قط، وأما الاسم المطلق الذي لا يُضاف فهو دالٌّ علىٰ القدر المشترك».

فأسماء الله حقائق لصفاته الدالة علىٰ كماله، فذاته عظيمة وصفاته كذلك، وكما أن ذاته مختصة به، فصفاته كذلك، فهو أَحَدٌ صَمَدٌ، تنزَّه عن أن يكون له نظير في ذاته وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

فهذه الآية تدل علىٰ انفراد الله بالقيومية علىٰ كل نفس إيجادًا وإمدادًا وإفناءًا، وليس لغير الله هذه الصفة، وليس لأحد هذه الصفة.

فما انفرد الله به من الصفات لا يماثله ولا يشاركه فيها أحد، فهو إله حقيقةً، أسماؤه دالة علىٰ صفاته حقًّا، والأنداد سمَّاها مَن اتخذها شركاء بأسماء لا حقيقة لها، لذلك قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: اذكروهم بأسمائهم ونعوتهم، وهذا غير موجود في الواقع، فيستحيل أن يسموا أندادًا حقيقية، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٢٩، ١٣٠).

قال العلَّامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: بل أَتُسَمُّونهم شركاء بقولٍ ظاهِرٍ لا باطن له ولا حقيقة؛ وإنما هو كلامٌ فارغٌ لا معنىٰ تحته، وهذا شبيه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهذا من الاحتجاج البديع الذي يقرطس في إصابته».

فالتوحيد إثبات صفات الكمال لله وحده، وقَصْده وعبوديته وحده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إثبات وحدانيته وأنه ليس له كفو في ذلك، يقتضي أنه لا مِثْلَ له في شيء من صفات الكمال، فهو مُنزَّه عن النقائص ومنزهٌ أن يماثله شيء في صفات الكمال، كما دلَّ علىٰ هذين الأصلين قولُه تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: ««لا إله إلا الله» تضمنت هذه الكلمة إثبات جميع المحامد؛ وأنه ليس له فيها نظير، إذ هو إلهٌ لا إله إلا هو.

والشرك كله إثبات نظير لله عَزَّ وَجَلَّ».

إن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ هي من لوازم ذاته، موصوف بها، وصفات المخلوقين خلقها الله العظيم فيهم، فيستحيل أن تماثل صفات مخلوقاته صفاته العظيمة.

فالله عَزَّ وَجَلَّ ليس له مماثل في ذاته وكمال صفاته، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فإذا قرأت خبر الله في القرآن عن صفاته فاملأ قلبك

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٩١).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٧).
(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٨).

من تعظيم الله، بإثبات صفات الله؛ فإنها غاية في الحُسن، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وتوحيد الله بعبوديته ﷻ لا يكون إلا بالتأله له بحقائق أسمائه وصفاته، وبالرغبة إليه، والرهبة منه، والمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وسؤاله جَلْب المنفعة ودَفْع المضرة، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في أحدهما إثبات المحامد له، وذلك يتضمن جميع صفات الكمال ومَنْع النقائص، وفي الآخر إثبات وحدانيته في ذلك؛ وأنه ليس له كفوٌ في ذلك».

وعبودية الله هو حقُّ الله الواجب له، وهو ضرورة لكل مسلم، فلا ملجأ ولا مَنْجَا من الله إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تطمئن القلوب إلا بعبوديته والتوجه إليه وذِكْره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا يستغني القلب إلا بعبادة الله تعالىٰ؛ فإن الإنسان خُلق محتاجًا إلىٰ جَلْبِ ما ينفعه ودَفْعِ ما يضره، فنفسه مريدةٌ دائمًا، ولا بُدَّ لها من مرادٍ يكون غايةَ مطلوبِها، فتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا الله وحده لا شريك له».

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٧).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٥٤).

فالله ليس له نظير ولا كفو، وهو أحدٌ في كماله، فصفات الله كلها كمالٌ لا يماثلها صفات غيره، فهي مختصة به بما يليق بعظمته وكماله، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فبهذا نعرف أن إثبات ما أثبته الله لنفسه توحيد وتعظيم، لا يقتضي تشبيه الله بخَلقه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يُقال: وجوده، وذاته، وعِلمه، وقدرته، أو يُقال: إن الله عليم حكيم، ونحو ذلك، فهذا مختصٌّ بالرب تعالىٰ لا يُشْرِكُه فيه المخلوق بوجه من الوجوه.

وبهذا يتبين امتناع التشبيه فيما وَصَفَ الله به نفسه؛ فإنه لم يذكر من ذلك شيئًا إلا مضافًا إلىٰ نفسه بما يوجب اختصاصه، ويمنع مشاركة غيره له فيه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] ونحو ذلك، فأضافَ العِلمَ والقوة واليد إلىٰ الله إضافةً توجب اختصاصه بذلك، وتمنع مشاركة غيره له فيه بوجه من الوجوه».

وإن أردتَ أن تعرف أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق المسميات، وأن الله ليس كمثله شيء في ذاته وأوصافه وأفعاله، فتدبر كيف اختالت عادٌ بقوتهم حتىٰ توهموا أنهم الأشد قوة، ونسوا الله الذي أَمَدَّهُم بأسباب القوة، فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فالله القوي العزيز أهلكهم وأفناهم بقوته، فأرسل الله عليهم ريحًا أهلكتهم، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) الرد علىٰ الشاذلي (ص٢١٩، ٢٢٠).

وانظر إلىٰ كمال الله في علمه وإرادته وقدرته وقوته التي يَخْلُق بها الخلق والكائنات، فليس أحدٌ سواه يخلق، وليس أحد يخلق كخلقه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فصفات الله ﷻ عظيمة، كمالها الغاية، انظر ما خلق الله من الخلق جميعًا كيف يعيدهم بعد موتهم، ويبعثهم، ويحاسبهم، هذا مما انفرد الله واختص به، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وحَسْبُكَ من تفرُّد الله بالكمال العظيم الذي ليس له نِدٌّ ولا مُسَامٍ: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخَلق والأمر، ولا مُعقِّب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

وكمال الله ﷻ وصفاته هي الموجبة لعبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].



(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٧٤).

قال المصنف رحمه الله:

فقد سمّىٰ الله نفسه حيًّا، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وسمّىٰ بعض عباده حيًّا، فقال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ وليس هذا الحيّ مثل هذا الحي؛ لأن قوله ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ اسم لله مختص به، وقوله ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ اسم للحي المخلوق مختص به، وإنما يتفقان إذا أُطلقا وجُرِّدا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمّىٰ موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين، وعند الاختصاص يقيّد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق.

ولا بدّ من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يُفهم منها ما دلّ عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق، وما دلّ عليه بالإضافة والاختصاص، المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى[1].

الشَّرح

أسماء الله عز وجل -وإن اتفق لفظُ بعضها لأسماء بعض مخلوقاته- فإنها لا تُماثِلُ صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وما بين الاسمين من التواطىء دلَّ علىٰ معنىٰ مشترك في الاسم، ولم يكن مسمىٰ ومدلول اسم الله كاسم المخلوق.

فاللهُ عز وجل «الحي» والمخلوق «حي»، والمخلوق خُلق بعد أن لم يكن، والله هو الذي خلقه ويحييه ثم يميته ويُفنيه.

(١) التدمرية (ص٢١، ٢٢).

والله ﷻ الحياة صفةُ ذاتٍ له، وحياته بقيوميته وغناه عن سواه، وحياة المخلوق بإمداد الله له بأسباب حياته، فالمخلوق فقير إلىٰ الغني الحي القيوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله ليس له مثلٌ ولا سميٌّ، لا في نفسه، ولا في شيء من صفاته، ولا من أفعاله، ولا يُسمىٰ أحدٌ بشيء من أسمائه أصلًا، وعُلم أن المخلوق إذا سُمي بالأسماء التي تصير اسمًا لله إذا أُضيفت إليه، فلمْ يُسمَّ بأسماء الله ولا بمثل أسماء الله، ولا صار شيء من الأسماء سَمِيًّا لله، ولكن الاسم الذي يكون اسمًا لله إذا سُمِّي الخَلق به يصير اسمًا لهذا إذا سُمِّي به، وكونه يصير اسمًا له إذا سُمِّي به لا يوجب كونه سميًّا له؛ وإنما لأجل ما في اللفظين من التواطئ دَالًّا علىٰ معنىٰ مشترك، وهو ما بين الحقيقة من تشابه في معنىٰ الاسم، وأنه بثبوت ذلك المعنىٰ الذي يأخذه الذهن مشتركًا يكون الموجود موجودًا، وإلا كان معدومًا».

فالله ﷻ «سميع»، والمخلوق «سميع»، وبين المُسَمَّيَين قَدْرٌ مشترَك من المعنىٰ وهو «إدراك المسموع»، وإضافة اسم «السميع» إلىٰ الله ﷻ يدل علىٰ عدم الشركة بين صفات الخالق والمخلوق، فعظمة ذاته وصفاته أَجَلُّ من أن يماثلها شيء، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالله تعالىٰ هو السميع البصير، فإذا سُمي بعض مخلوقاته بالسميع البصير لم يكن مدلول اسمه تعالىٰ مثلًا لمدلول اسم ذلك المخلوق بوجه من الوجوه، فإذا لم يكن مسمىٰ السميع البصير الذي هو الذات

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٣٤).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٣٣).

والصفة مثلًا لذلك، لا الذات مثل الذات ولا الصفة مثل الصفة، امتنع أن يكون اسمُ هذا يُقال علىٰ هذا، وأن يكون سَمِيًّا له، وإن كان من مدلول الاسمين تشابُهٌ من بعض الوجوه».

فاللهُ ﷻ هو الأول، فليس قبله شيء، والحياة من لوازم ذاته، وهو غني عمن سواه، لا يحتاج إلىٰ إعداد ولا إمداد، ولا حِفْظَ أَحَدٍ، والمخلوق حياته وُجدت بالله، فهو الذي خلقه وأحياه، وأَمَدَّه بأسباب البقاء حفظًا ورزقًا وتدبيرًا، ويفنيه الله ويميته إذا جاء أَجَلُهُ الذي قضاه عليه، فحياة المخلوق تليق به، وحياة الخالق كمالٌ ليس لغيره، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وكمالُ حياةِ الله ﷻ وقيوميته وحاجة كل مخلوق إلىٰ الله إيجادًا وإمدادًا، دالٌّ علىٰ تفرُّدِه بالربوبية والألوهية الحقة.

وكمالُ ذات الله ﷻ وصفاته تقطع أوهام مماثلته لخَلقه في ذواتهم وصفاتهم، فليست ذات الله كذات المخلوق، وليست صفات الله كصفات المخلوقات، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

واللهُ ﷻ لكمال حياته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام؛ لأنه قائم بنفسه، المُقِيم لخَلقه تدبيرًا وحفظًا، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمخلوق تأخذه السِّنَةُ والغفلة والنوم، والمخلوق حياته مسبوقة بعدم ويلحقها فناء، واللهُ حيٌّ لا يموت.

وحياة المخلوق لا بُدَّ لها من جلبِ ما ينفعها ودفعِ ما يضرها، وذلك الإمداد من الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ﴾

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، فالله هو المستعان المستحق للعبادة وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وحياة الله وقيوميته صفاتٌ ذاتية لله، لم يزل ولا يزال متصفًا بهما، وصفة الحياة لله من أعظم الصفات الدالة علىٰ ربوبية كل مخلوق له، لذلك حاجَّ سيدُ الحنفاء إبراهيم عليه السلام الصابئة عُبَّاد الكواكب بأُفُولِها وبقاء الله الحي الذي لا يزول، قال الله مخبرًا عن إبراهيم أنه قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

حياة الله قوةٌ وعِزَّة وحكمة وغنىٰ عن سواه، والمخلوق خُلق ضعيفًا، وما به من أسباب القوة والحياة فكلها من الله، قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله(١): «إنه ضعيف البِنْيَة، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر»، والله هو الذي يعينه ويقويه ويحييه.

فالحياة صفة اشترك في مسماها الله الحي الذي لا يموت، والمخلوق الذي أحياه الله إيجادًا وهو يموت، والقَدْر المشترك بين الاسمين البقاء، وفَرْقٌ ما بين الحياتين عظيم، كلٌّ له حياته بما يختص به، فلا يفهم أحدٌ من اتفاق الاسمين «الحي» للخالق و«الحي» للمخلوق اتفاق مسمياتهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «المخلوق لا يمكن أن يكون قديمًا واجبًا بنفسه ربًّا غنيًّا عما سواه، إلىٰ غير ذلك من خصائص الرب. فهذا الكمال

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٩٢).
(٢) الصفدية (٢/ ٣٩).

اختص به الرب كما اختص الرب ﷻ من الكمال الذي يوصف العبد بما يتفق فيه الاسم، كالحياة والعلم والقدرة، بما لا يماثله فيه المخلوق، فالرب مختص إما بنوعٍ لا يُوصف به غيره، مثل كونه رب العالمين ونحو ذلك، وإما بما لا يماثله فيه غيره كالحياة والعلم».

فصفة الحياة لله كمالٌ، ليس فيها نقص بوجوه من الوجوه، وحياة المخلوق تليق بضعفه، ويلحقها من النقص ما يدلك علىٰ فرقِ ما بين صفات الخالق والمخلوق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «له المَثَلُ الأعلىٰ في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفات الكمال، مذكور بنعوت الجلال، مُنزَّه عن التشبيه والمثال، ومُنزَّه عما يضاد صفات كماله، فمُنزَّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنَةِ والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف مُنزَّه عن أضداده كلها من النسيان والذُّهُول وعُزُوب شيء عن علمه».

حياة الله ليست كحياة المخلوق، حياة الله بقاء، وهو بقاء بقيوميته لنفسه وعلىٰ خَلْقِه، والمخلوق حياته يلحقها الفناء، وبقاؤه بإمداد الله له.

فصفة الحياة لله من أعظم الصفات الداعية إلىٰ توحيده بعبوديته، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

حياة الله ﷻ ربوبية لخَلْقِه، فهو الرب الخالق الرازق المنعم النافع الضار، المتصرف في مُلكِه.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٩٧).

وحياة الله من لوازم ذاته، ومن كمال ربوبيته ومُلكِه، وتفرده بمحاسبة خلقه، كما خلقهم يحييهم ويبعثهم ليحاسبهم، فحياته سبحانه يرث فيها الأرض ومَن عليها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يخبر تعالىٰ أنه الخالق المالك المتصرف؛ وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقىٰ هو -تعالَىٰ وتَقدَّس-، ولا أَحَدَ يدَّعِي مُلْكًا ولا تَصرُّفًا، بل هو الوارث لجميع خَلْقِه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تُظلم نفسٌ شيئًا، ولا جناح بعوضة، ولا مِثقال ذَرَّة».

فالله ﷻ له الحُكمُ في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأُولَىٰ والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أخبر تعالىٰ أن له مُلْكَ السماوات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا مُعقِّب لحُكْمِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، ألا له الحُكْمُ في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأُولَىٰ والآخرة».



(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٥٦).

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك سمّىٰ الله نفسه عليمًا حليمًا، وسمّىٰ بعض عباده عليمًا، فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: إسحق، وسمّىٰ آخر حليمًا، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ يعني: إسماعيل، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم[(١)].

الشَّرح

تحدَّث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صفتي الله: العلم والحلم، وبَيَّن أن المخلوق يُسمىٰ بالعليم والحليم، وصفاته ليست كصفات الله في ذلك، كما أن ذاته ليست كذات الله، فاتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق المُسَمَّيَات.

فالله ﷻ هو العليم، والمخلوق آتاه الله من العلم ما صار به عليمًا، قال تعالىٰ عن الخِضْر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، والخَضِر نفسه الذي أُوتِيَ علمًا عظيمًا رحل موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه لتلقي العلم عنه، وذَكَرَ الخضر فَرْقَ ما بين عِلْمِه وموسىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وعِلْم الله ﷻ، حين رأىٰ عصفورًا نَقَر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسىٰ: ما علمي وعلمكَ في عِلِم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، رواه البخاري.

فعِلْمُ المخلوق بالنسبة للخالق لا شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالمخلوق يعلم ما يشاهد، وعِلْمُه كذلك محدود، واللهُ عالِمُ الغيب والشهادة، أحاط بكل شيءٍ علمًا.

(١) التدمرية (ص٢٢).

والله ﷻ بكل شيء عليم، يَعْلم ما كان، وما يكون، وما لو كان كيف يكون، قال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وعِلْمُ الله بخَلْقِه شهادة، فلا يَعْزُب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات والأرض، ولا يغفل شيئًا، أحصىٰ كل شيء، ما نُسِرُّ وما نُعْلِنُ، وما يَلِجُ في الأرض وما يخرج منها، وما يبقىٰ أو يعفو أثره، وما ينزل من السماء وما يَعْرُج فيها.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لو كان الله مُغْفِلًا شيئًا، لأغفلَ ما تُعْفِي الرياح من أثرِ قدميِّ ابنِ آدمَ».

وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

عِلْمُ المخلوق منه ما هو ظنٌّ، ومنه ما هو شكٌّ، ومنه ما هو أوهام، وعلمُ الله ﷻ ليس كذلك، فكله حقٌّ وصِدْقٌ.

وعند شرح تفاصيل عِلْمِ الله، لا تغفل أن الله عليم بما يعبد المشركون من دونه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنه تعالىٰ يعلم -وهو عالِمُ الغيب والشهادة- أنهم ما يَدْعُون من دون الله شيئًا موجودًا، ولا إلهًا له حقيقة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]».

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٦٩٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/ ٦٢).

شَهِدَ الحنفاء الموحدون فَرْقَ ما بين علمِ الله ﷻ وعِلْمِهِم، فقال عيسىٰ ابن مريم عليه السلام مخاطبًا ربَّه: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فالغيب لا يعلمه إلا الله، لا نبيٌّ مُرسَل، ولا مَلَكٌ مُقرَّب، واللهُ يَعْلم خواطر النفوس وما تُوَسْوِسُ به، ويعلم ربنا السر وأخفىٰ.

والموحدون شهدوا فَرْقَ ما بين علمهم وعلمِ الله، فجهلُ المخلوق بعواقب الأمور والأصلح له جعله يستخير الله بعلمه؛ فإنه العالم بكل شيء، ففي حديث الاستخارة يقول الداعي: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «أيُّ بيانٍ لعِلْمِ الله وقدرته أَبْيَنَ من هذا!».

واللهُ ﷻ حليم، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رحمه الله[(٢)]: «الحليم: هو الذي يُؤخِّر العقوبة عن مستحقها، كما قال ابن القيم:

وهو الحليم فلا يُعاجِل عَبْدَه ... بعقوبة ليتوبَ من العصيان».

ومن حِلْمِ الله: أنه لا يعاجل خَلْقَهُ بعذابه، بل يُملِي لهم ويستعتبهم؛ لعلهم يهتدون.

وبحلم الله، وتكرار موعظته اهتدىٰ الناس في جزيرة العرب، وأسلموا بعد أن كانوا مشركين، وأخرج الله من ذريتهم عباده الموحدين، قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٣).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ١٦٢).

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «واللهِ، لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين ردَّته أوائل هذه الأُمَّة لهلكوا، ولكن الله تعالىٰ عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سَنة أو ما شاء الله من ذلك».

وما أعظم حِلْمَ الله علينا من حواز نفوسنا وخطرات قلوبنا! فإنَّ النفس أمَّارة بالسوء وتَرِدُ عليها وَارِدَاتُ سُوءٍ، نحمد الله أنه لم يؤاخذنا بما كسبت قلوبنا.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥١]، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «من حلمِه: أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرَّتْ عليه قلوبُكم من الشر».

وحِلْمُ اللهِ كمالٌ؛ لأنه عن علمٍ وعِزَّةٍ وحكمة وقدرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٩]، وحلمُ المخلوق يليق بذاته ونقصه ومبلغ قدرته وعلمه ومصلحته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «الحليم الذي قد كَمُلَ في حلمِه».

هذا مبلغي من العلم في تبيين معنىٰ «الحليم»، وإمرار لفظه كما جاء أبلغ في إفادة معناه، فعباراتنا تقصر عن بيان حقيقته كلها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «كل معنىٰ فله صيغة تُعبِّر به عنه، ولاسيما إذا كانت من المعاني المعروفة للخاص والعام. ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنىٰ مطابقة له،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٦٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/ ١٦٤).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٨)، ط- دار الفكر- بيروت.
(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٢٥٦).

كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها، وهي أكبر الألفاظ.

وقد يكون المعنىٰ فوق ما يشير إليه اللفظ ويُعبّر عنه، وهو أَجَلُّ من أن يدلَّ لفظُه علىٰ كمال ماهيته، وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه».

وما يعقله ويفهمه المسلمون من معنىٰ اسم الله «الحليم»، أوجبَ لهم التحقق بكمال الله، وشهود حلمِه في خَلْقِه، ورغبتهم ورهبتهم إليه، والتأله له وحده بما يرضيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[1]: «كمالُ ذلك: أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحَمْدَهُ في مُلْكِه، وعِزَّهُ في عفوِه، وحكمته في قضائه وقَدَرِه، ونعمته في بلائه، وعطاءه في مَنْعِه، وبِرَّه ولُطْفَه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعَدْلَهُ في انتقامه، وجُودَهُ وكرمه في مغفرته وسَتْرِه وتَجاوُزِه، ويشهد حكمته ونعمته في أمرِه ونهيه، وعِزَّه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه».

وكثيرًا ما يقترن اسم «الحليم» باسم الله «الغفور»، ليكون المسلم في عبوديته لله جامعًا بين الرجاء والخوف، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

قال العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ[2]: «لا نيأس من رحمة الله؛ لأنه غفور؛ وألَّا نأمن مَكْرَ الله؛ لأنه حليم، فيكون العبد سائرًا إلىٰ الله بين الرجاء والخوف».



(١) الفوائد (ص١٠٠).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٩٤).

قال المصنف رحمه الله:

وسمّىٰ نفسه سميعًا بصيرًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ وسمّىٰ بعض خلقه سميعًا بصيرًا فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ وليس السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير[1].

الشَّرح

اللهُ عز وجل سميع بصير، وقد دلَّ علىٰ ثبوت صفتي السمع والبصر لله عز وجل: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، وآثار الصحابة رضي الله عنهم.

قال العلَّامة أبو الحسن هبة الله الطبري اللالكائي رحمه الله (ت: ٤١٨هـ)[2]: «قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال في قصة موسىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه كلمته هذه المرأة، فقيل لها: أكثرتِ علىٰ أمير المؤمنين!

فقال: دعها، أمَا تَعرِفها، هي التي سَمِعَ الله منها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات.

---

(١) التدمرية (ص٢٢، ٢٣).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٥١).

وقال النبي ﷺ حين سمع أصحابه يرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال: «ارْبَعُوا علىٰ أَنْفُسِكُمْ، إنكم لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائبًا»».

وقد دلَّتِ الفطرةُ علىٰ إثبات صفات الكمال لله ﷻ عمومًا، وإثبات صفتي السمع والبصر له خصوصًا، وبهذا خاطب سيد الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام المشركين بصفات الكمال لله ليعبدوه وحده، فقال لأبيه:﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال إبراهيم لقومه مُبيِّنًا لهم نَقْصَ آلهتهم: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «احتج علىٰ نفي إلهيتها بكونها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنه من المستقر في الفِطَر أن ما لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم لا يكون ربًّا معبودًا، كما أن ما لا يغني شيئًا ولا يهدي ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لا يكون ربًّا معبودًا.

ومن المعلوم أن خالِقَ العالَمِ هو الذي ينفع عباده بالرزق وغيره ويهديهم، وهو الذي يملك أن يضرهم بأنواع الضرر».

وفي قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «سبحان مَن وسع سمعه الأصوات؛ إنْ كنتُ لفي الحجرة الأخرىٰ ويخفىٰ علَيَّ بعضُ حديثها، واللهُ فوق سماواته لم يخفَ عليه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٢٢).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٥٣٥، ٥٣٦).

شيء من حديثها»، تعليمٌ للمؤمنين التوحيد في أسماء الله وصفاته، وبيان لكمال صفات الله وأنها بلغت في الكمال غايته، لا تكون صفات المخلوقين كصفاته.

فقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قاعدةٌ سلفيةٌ في الاعتقاد في توحيد الله في أسمائه وصفاته، إثبات صفات الكمال لله لا تعطيلها، ونفي مماثلتها للمخلوقين، فهو إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

المخلوق لا يسمع إلا ما يدركه سَمْعُه من قريب، فيسمع ما هو في محيطه، واللهُ لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، يسمع كلَّ المخلوقات على اختلافِ اللغات، ويسمع كلَّ مَن في الأرض والسماوات.

واعتقاد إثبات صفتي السمع والبصر لله عَزَّ وَجَلَّ دلَّ عليه: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا».

وتعطيل المعتزلة لصفتي السمع والبصر لله عَزَّ وَجَلَّ شرُّ أنواع التعطيل؛ إذ حقيقته تعطيلٌ لعبودية الله بمناجاته وذِكره ودعائه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وتحقُّقُ المسلم بالإيمان بأسماء الله وصفاته الحسنىٰ -خصوصًا صفات الله من العلم والسمع والبصر- من أسباب استقامته، وعبوديته لربه بتحقيق مشهد الإحسان، فيعبد الله الذي يراه، ويَتألَّه خشيةً ورغبة ورهبة لمَن لا تخفىٰ عليه خافية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «مَن شَهِدَ مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٤٠).

مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماوات، ولا في قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال، بل أحاط بذلك علمُه علمًا تفصيليًّا، ثم تَعبَّدَ بمقتضىٰ هذا الشهود؛ من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه، عَلِمَ أنَّ حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له، بادية لا يخفىٰ عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعر قلبه صفة «سَمْعه» سبحانه لأصوات عِبادِه علىٰ اختلافها وجهرها وخفائها، سواءٌ عنده مَن أَسَرَّ القول ومَن جَهَر به، لا يشغله جهرُ مَن جهرَ عن سمعِه لصوتِ مَن أَسَرَّ، ولا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تغلطه الأصوات علىٰ كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوتٍ واحد، كما أن خَلْقَ الخَلْق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شَهِدَ معنىٰ اسمه «البصير» جل جلاله الذي يرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصَّمَّاء في حِنْدِس الظلماء، ويرىٰ تفاصيل خَلْقِ الذَّرَّة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرىٰ مَدَّ البعوضة جناحَها في ظلمة الليل، وأعطىٰ هذا المشهد حَقَّهُ من العبودية؛ بحرسِ حركاته وسكناته وتيقن أنها بمرأىٰ منه سبحانه ومُشاهَدَة لا يغيب عنه منها شيء».

وتأوَّلتِ الجهمية المعتزلة صفة السمع والبصر لله ﷻ بمعنىٰ العِلم، قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ت: ٣٨٧هـ)[(١)]: «قالت الجهمية: إن معنىٰ سمعه: بصره.

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (٢/ ٥٠٢، ٥٠٣).

وقد أَكْذَبَهُمُ اللهُ في كتابه فقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ففصلَ بينهما.

وقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١]؛ إنما معنىٰ نعلم ههنا: حتىٰ نرىٰ المجاهدين.

ألا ترىٰ أنه قد علم المجاهدين بالعلم السابق منهم قبل أن يجاهدوا؛ لأن الله ﷻ لا يستحدث علمًا؛ لأن كلَّ مَن استحدث علمًا بشيء فقد كان قبل عِلْمِه به جاهلًا، وتعالَىٰ اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ ولكنه لا يراهم مجاهدين حتىٰ يجاهدوا.

وأمَّا قولهم: «إن البصر، بمعنىٰ: العِلم»، فقد أكذبهم الله ﷻ حين فرَّق بين العلم والبصر.

ألا ترىٰ أن الله ﷻ قد عَلِمَ أعمال العباد قبل أن يعملوها، وقد عَلِمَ أنك تصلي قبل أن تُصلِّي، وأنك تجاهد قبل أن تُجاهِد؛ ولكنه لا يراك مُصليًّا حتىٰ تُصلي، ولا عاملًا حتىٰ تعمل، وكذلك سائر الأعمال.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

وأشباهٌ لهذا ونظائر في القرآن كثيرة، كلها تجحدها الجهمية».

فالنصوص من القرآن والسُّنة دالة علىٰ إثبات صفة السمع لله، فهو سميعٌ بسمعٍ، والنصوص دالة علىٰ إثبات صفة البصر لله، فهو بصير ببصر، فالله ﷻ موصوف بأنه سميع بصير، وليس هو مجرد العلم بالمسموعات والمرئيات[(١)].

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[(٢)]: «عِلْمُ الله هو الله بزعمهم -الجهمية-، واللهُ -بزعمهم- في كل مكان، ليس له علمٌ به يعلم، ولا هو يسمعُ بسمعٍ، ولا يبصرُ ببصرٍ؛ إنما سَمْعُه وبصرُه وعِلمُه -بزعمهم- شيءٌ واحد، فلا السمع عندهم غير البصر، ولا البصر غير السمع، ولا العلم غير البصر».

فالحاصل: أن إنكار المعتزلة لسمع الله وبصره وتحريف معناه إلىٰ العلم، تكذيبٌ لدلالة النصوص علىٰ معانيها، ومشاقةٌ لله ﷻ ورسوله ﷺ الذين أخبرونا بصفات الله، ومشاقةٌ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في فهمهم لمعنىٰ نصوص الوحي في إثبات صفتي السمع والبصر لله.



---

(١) شرح الأصبهانية (ص٥٠٨).

(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٦٨).

قال المصنف رحمه الله:

وسمّىٰ نفسه بالرءوف الرحيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وسمّىٰ بعض عباده بالرءوف الرحيم فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وليس الرءوف كالرءوف، ولا الرحيم كالرحيم[(١)].

الشَّرح

الرؤوف: هو شديد الرحمة، قاله العلَّامة عبدالرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]، وقال شيخ المفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الرأفةُ: رِقَّة الرحمة. فمعنىٰ ذلك: واللهُ ذو رحمةٍ واسعة بعبده». وقال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «الرأفة: أشد الرحمة».

الرحمة صفة الله، والرحيم صفة لأفعاله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «أمَّا الجمع بين (الرحمن الرحيم)، وهو: أنَّ الرحمن دالٌّ علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالٌّ علىٰ أنَّ الرحمة صفته، والثاني دالٌّ علىٰ أنَّه يرحم خَلْقَه برحمته.

---

(١) التدمرية (ص٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (١/ ١٠٨).

(٣) جامع البيان (٣/ ٥٩٥).

(٤) تفسير القرآن (١/ ١٥٠).

(٥) بدائع الفوائد (١/ ٤٢).

وإذا أردتَ فَهْمَ هذا، فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء قط: (رحمن بهم)، فعُلم أنَّ (رحمن) هو الموصوف بالرحمة، و(رحيم) هو الراحم برحمته».

ورحمة الله في الدنيا أدركت كل مخلوق؛ الدَّوَاب والبشر، والمؤمن والكافر، وحظُّ المؤمن من رحمة الله أعظم وأكثر.

قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فرحمة الله وسعت في الدنيا المؤمن والكافر، فإذا كان يوم القيامة فهي للمؤمنين خالصة من دون الكافرين.

والله ﷻ هو: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اسمه تعالىٰ الرحمن خاصٌّ به، لمْ يُسمَّ به غيره،كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ولما تجهرم مُسَيْلِمَة الكذاب، وتسمىٰ برحمن اليمامة، كساه الله جلباب الكذب، وشَهَّره به، فلا يُقال إلا مسيلمة الكَذَّاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر وأهل المَدَر وأهل الوَبَر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أنَّ الرحيم أَشدُّ مبالغةً من الرحمن؛ لأنه أُكِّدَ به، والمؤكد لا يكون إلا أقوىٰ من المؤكد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٠).

والجواب: أنَّ هذا ليس من باب التأكيد؛ وإنّما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكروه.

وعلىٰ هذا، فيكون تقديم اسم الله الذي لَمْ يُسمَّ به أَحَدٌ غيره، ووصفه أولًا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ وإنّما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به، ولم يتابعه علىٰ ذلك إلا مَن كان معه في الضلالة.

وأما (الرحيم) فإنّه تعالىٰ وَصَف به غيره حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما وَصَف غيره بغير ذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أنّ من أسمائه تعالىٰ ما يُسمىٰ به غيره، ومنها ما لا يُسمىٰ به غيره، كاسمه: الله، والرحمن، والخالق، والرزاق، ونحو ذلك».

ومن أخص صفات ربنا: عُلُوه علىٰ خَلْقِه ورحمته بهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذكر الاستواء باسمه الرحمن، ليعم جميع خلقه برحمته».

والله ﷻ هو الحليم العفو، الغفور الودود، الرحمن الرحيم، ورحمته سبحانه سبقت غضبه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٨٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من رحمته: أنه يعيذ مِن سَخَطِهِ برضاه، ومن عقوبته بعفوه».

وألوهية الله ﷻ ألوهيةُ رحمةٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ألوهيته مبنية علىٰ الرحمة».

وشَرْعُ الله ووحيه إلىٰ خلقه رحمة، ففيه اليُسر والهداية، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بكَ وبالعباد، فأرسلكَ بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزَكَّاهم، وعلَّمهم الكتاب والحكمة؛ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فإذا علمتَ أنّه أنزله إليك رحمةً منه، علمت أنّ جميع ما أَمَر به ونهىٰ عنه؛ فإنّه رحمة وفضلٌ من الله، فلا يكن في صدرك حرجٌ من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع».

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٤٩).

(٢) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٣٤).

ومعرفة سعة رحمة الله من أسباب رجاء الله وعبوديته، فالتوحيد العلمي والعملي متلازمان، فيأخذ المسلم بأسباب رحمة الله له من الإيمان والعمل الصالح، ولا يتيسر له ذلك إلا بإعانة الله له ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة عاملة له، وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير.

والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات، ويرحمه فيؤتيه الحسنات، وإلا هلك».

وقد تحقَّقَ سلفُ الأُمَّة بالتوحيد ومعرفة معاني أسماء الله الحسنىٰ؛ بما يدل علىٰ خيريتهم وفضلهم، وما يكون فيه حثٌّ لتلقي العلم عنهم.

قال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ رحمة واحدة قَسمها اللهُ تعالىٰ في دار الدنيا، وأصابني منها الإسلام؛ إنّي لأرجو من تسعٍ وتسعين رحمة ما هو أكثر من ذلك».

وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سُئل أعطىٰ، والرحيم إذا لم يُسأل يغضب[(٣)].

ومَن عرف صفات الرحمن الرحيم؛ فإنّه يتوب إليه، لا يرائي مخلوقًا، ولا يرجو أحدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

(١) طريق الهجرتين (ص٩٢).
(٢) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] (ص١٤٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١٨٨).

والله ﷻ عرَّفنا عظيم رحمته ترغيبًا لنا في الأخذ بأسباب إدراكها بطاعته، وعرَّفنا وعيده وغضبه لنخشاه، ونفر منه إليه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، ترغيبًا لهم في رحمته، واللجأ إليه والاستقامة علىٰ أمره وطاعته سبحانه، رجاءَ أن تحصل لهم الرحمة، ثم جاء ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] للجمع بين الرجاء والخوف».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يَعْلم المُؤْمِنُ ما عِنْدَ الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أَحَدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرَّحْمَةِ ما قَنِطَ من جَنَّته أَحَدٌ»، رواه مسلم.

فالمسلمون قد أخذوا بأسباب رحمة الله فاستوجبوا الجنة، والكافرون قد أخذوا بأسباب سخطِ الله فاستوجبوا النار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المؤمنون اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها، والكفار اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها صَرْفَ الرحمة إلىٰ غيرهم».



(١) التعليق علىٰ تفسير سورة الفاتحة (ص١٦٣).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٤٨).

قـال المصنف رحمه الله:

وسمَّىٰ نفسه بالمَلِك، فقال: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ وسمّىٰ بعض عباده بالمَلِك، فقال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ وليس المَلِكُ كالمَلِكِ(١).

الشَّـرح

المَلِكُ هو الله؛ لذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة».

ففسَّرَ الحافظ ابن كثير رحمه الله المَلِكَ ببعض معانيه، وهو كمالُ التصرف.

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله(٣): «المَلِكُ: المالك الذي له المُلك، فهو الموصوف بصفة المُلك. وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخَلق والأمر والجزاء. وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيدٌ ومماليك، ومضطرون إليه».

وأحكام الله القدرية والشرعية والجزائية يرجع إليها خَلْقُه وأَمْرُه وحُكْمُه، وهي صادرة عنه وعن لوازم صفاته من العلم والحكم والعدل.

(١) التدمرية (ص٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).
(٣) من أصول التفسير وكلياته، فصل في شرح أسماء الله الحسنىٰ، مطبوع في آخر التفسير، تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨٥).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الملك يرجع إلىٰ ثلاثة أمور: صفات الملك التي هي صفاته العظيمة، وملكه للتصاريف والشؤون في جميع العوالم؛ وأنّ جميع الخلق مماليكه وعبيده، فهو الملِكُ الذي له مُلْكُ العالَم العلوي والسفلي، وله التدبيرات النافذة فيها، ليس لله في شيء من ذلك مُشارِكٌ».

فالمَلِكُ هو المتصف بصفات الكمال، الذي قدَّر المقادير الكونية، وجعلها جزاءً للأخذ بأحكامه الشرعية، وله الملك في الدنيا، والجزاء لخلقه في الآخرة بحسب أعمالهم.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «المَلِك: المالك للمُلْكِ، أيِ: الذي له جميع النعوت العظيمة الشأن، التي تفرَّد بها مَلِكُ الملوك، من كمال القوة والعزة والقدرة، والعلم المحيط، والحكمة الواسعة، ونُفُوذ المشيئة، وكمال التصرف، وكمال الرأفة والرحمة، والحُكْم العام للعالَم العلوي والعالَم السفلي، والحُكْم العام في الدنيا والآخرة، والحُكْم العام للأحكام الثلاثة التي لا تخرج عنها جميع الموجودات:

١. **الأحكام القدرية**: حيث جَرَتِ الأقدار كلُّها والإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، والإيجاد والإعداد والإمداد كلُّها علىٰ مقتضىٰ قضائه وقَدَرِه.

٢. **والأحكام الشرعية**: حيث أَرْسَل رُسُلَهُ، وأَنْزَل كُتُبَه، وشرع شرائعه، وخَلَق الخَلْق لهذا الحُكم، وأمرهم أن يمشوا علىٰ حُكْمِه في عقائدهم وأخلاقهم، وأقوالهم

(١) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد (ص٢٧).
(٢) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد (ص٢٦، ٢٧).

وأفعالهم، وظاهرهم وباطنهم، ونهاهم عن مجاوزة هذا الحُكم الشرعي، كما أخبرهم أنّ كلَّ حُكمٍ يناقض حُكْمَهُ فهو شرٌّ جاهلي من أحكام الطاغوت.

٣. **والأحكام الجزائية:** وهو الجزاء علىٰ الأعمال خيرها وشرها في الدنيا والآخرة، وإثابة الطائعين، وعقوبة العاصين، وتلك الأحكام كلُّها تابعةٌ لعدله وحكمته وحمده العام، فهذه النعوت كلُّها من معاني مُلكِه.

ومن معاني ملكه: أنَّ جميع الموجودات كلِّها مُلْكُه وعبيده المفتقرون إليه، المضطرون إليه في جميع شؤونهم، ليس لأَحَدٍ خروجٌ عن مُلكِه، ولا لمخلوقٍ غنًىٰ عن إيجاده وإمداده، ونفعه ودفعه».

ملوك الدنيا لهم مُلكٌ محدود، فهم ملوك علىٰ ما اقتصر عليه مُلْكُهم، ومُلْكُهم مدة ولايتهم، فهو مُلْكٌ محدود مكانًا وزمانًا، ومُلْكُهم كان بتمكين الله لهم، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، أمَّا الله ﷻ فهو ملك الملوك، كل شيء مملوك له دنيا وآخرة.

ومُلْكُ اللهِ بحقٍّ وعن حقٍّ، قال تعالىٰ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ الحق صفةٌ للمُلْك، يعني: المُلك الثابت المؤكَّد المحقَّق في ذلك اليوم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) تفسير سورة الفرقان (ص٨٧).

قوله: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ والملك للرحمن ﷻ في ذلك اليوم وفي غيره، لكن ملكيته ﷻ في ذلك اليوم أظهرُ وأَبْيَنُ؛ لأنَّ الدُّنْيا فيها مُلُوك، وفيها مَن يَمْلِكُ التصرُّف، وفيها مَن يُقال له: مَلِكٌ، لكن في الآخرة لا يُوجد مَلِكٌ، النَّاسُ علىٰ حدٍّ سواء، يقول الله ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فالمُلك في ذلك اليوم لا يكون لأحدٍ سوىٰ الله ﷻ».

ملوك الدنيا يَسُوسُونَ ممالكهم بوزراء وأعوان، واللهُ ﷻ الغني عما سواه.

الله ﷻ المَلِكُ، ومُلْكُه لكل شيء هو من أخص صفات ربوبيته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ومُلْكُه وربوبيته هي الموجبة لعبوديته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

ومُلْكُ الله عظيم، لا يملكه غيره، لا تَبْلُغُ وَصْفَ مُنتهاه عبارةٌ؛ لأن ما عندنا ينفد وما عند الله باقٍ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١] أيْ: تَعاظَمَ وتعالىٰ، وكَثُرَ خيرُه، وعَمَّ إحسانُه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٥/ ٢٧٥).

من عظمته: أنّ بيده مُلْكَ العالَم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية والأحكام الدينية التابعة لحكمته».

ومن أعظم ما تَمدَّح اللهُ به نفسه: أنّه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، فسبحان مَن لا نحصي ثناءً عليه، وإنما نَذْكُرُ بعضَ ما يَبْلُغُه عِلْمُنا في شرح معاني أسمائه الحسنىٰ.

عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ -فيما يروي عن الله تبارك أنّه قال-: «يا عبادي، إنكم لن تَبْلُغُوا ضَرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعِي فتنفعوني.

يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخركم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا علىٰ أتقىٰ قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكِي شيئًا.

يا عبادي، لو أنّ أوَّلَكُم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا علىٰ أَفْجَرِ قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئًا.

يا عبادي، لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صَعِيدٍ واحِدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ»، رواه مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إذا أعطيتَ اسمَ «المَلِك» حَقَّهُ- ولن تستطيع- علمتَ أنّ الخَلْق والأمر، والثواب والعقاب، والعطاء والحرمان، أمْرٌ لازمٌ لصفة الملك، وأنّ صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمرٌ ممتنع.

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٨٠).

فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأَمْر العِباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وإكرام مَنْ يستحق الإكرام، وإهانة مَن يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة الملك، وعِلْمَهُ، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه علىٰ سرير مُلْكِه، يُدبِّر أَمْرَ عِبادَهُ. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع».





قال المصنف رحمه الله:

وسَمَّىٰ نفسه بالمؤمن، فقال: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ وسَمَّىٰ بعض عباده بالمؤمن، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وليس المُؤْمِنُ كالمُؤْمِنِ[١].

الشَّرْح

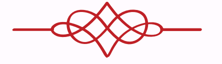
المُؤْمِنُ: هو الذي يُصدِّق ظنون عباده، لذلك يقصدونه بالتوكل عليه، والرغبة إليه، والرهبة منه، ويفرون إليه، قال الله ﷻ: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي».

والمؤمن: هو الذي يُؤَمِّن عباده من المخاوف والشرور، لذلك تطمئن نفوسهم بذِكره، ويأمنون بالإيمان به فيُجيرهم من النار.

قال قتادة: أَمِنَ بقوله: إنّه حقٌّ[٢].

وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به[٣].

والمُهَيْمِن: هو الشهيد[٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد علىٰ خَلْقِهِ بأعمالهم، بمعنىٰ: هو رقيب عليهم كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]».



(١) التدمرية (ص٢٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٢٣٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٢٣٧).
(٤) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧، ٢٣٨).

قال المصنف رحمه الله:

وسمّىٰ نفسه بالعزيز، فقال: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾، وسمّىٰ بعض عباده بالعزيز، فقال: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وليس العزيز كالعزيز(١).

الشَّرح

العزيز من أسماء الله الحسنىٰ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ [البقرة: ١٢٩] أي: الذي قد عزَّ كلَّ شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا يُنال جَنابُه؛ لعِزَّته وعظمته وجبروته وكبريائه».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله(٣): «العزيز: الذي له العِزَّة كلها؛ عِزَّة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أَحَدٌ من المخلوقات، وقَهَر جميع الموجودات، ودانت له الخَلِيقَة، وخضعت لعظمته».

ومن معاني العزة: أنه لا يكون شيء إلا بمشيئته سبحانه، قال ابن القيم رحمه الله(٤): «إنّ عزته تمنع أن يكون في مُلكِه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون».

(١) التدمرية (ص٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٨).
(٣) أصول التفسير وكلياته، تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨٧).
(٤) بدائع الفوائد (١/ ١٩٤).

والعزة من معانيها: القدرة والقوة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّ العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا».

وقال ابن القيم[٢]: «العِزُّ ضِدُّ الذُّلِّ، والذل أصلُه الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة».

وعزة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مقترنة بالحكمة، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «اسمه سبحانه «الحكيم» يتضمن حكمته في خَلْقِه وأَمْرِه، في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيمٌ في كلِّ ما خَلَقَهُ وأَمَرَ به».

وعزة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقرونة بالرحمة، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

ووصفُ العزة من أعظم الصفات التي ظهر بها فَرْقُ ما بين الخالق والمخلوق، فالعزيز لا يُنال جانبه، والمخلوق نَفْعُه وضَرُّه من الله وحده القوي العزيز، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٩٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص٩٣).

(٣) طريق الهجرتين (ص٩٤).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «اسمه «العزيز» **له ثلاثُ معانٍ:**

الأول: العزيز، بمعنىٰ: المُمْتَنِع الذي لا يُرامُ جَنابُه؛ لعظمة سلطانه، وجليل كبريائه، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنّكم لن تَبْلُغُوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

والمعنىٰ الثاني: أنّه العزيز، بمعنىٰ: القاهر لكل شيء، الذي قهر جميع الأشياء، فما من دابَّةٍ إلا هو آخِذٌ بناصيتها، ولا حول ولا قوة بأحد إلا بالله العلي العظيم، فلا يتحرك مُتحَرِّكٌ إلا بإذنه، ولا يَسْكُنُ ساكِنٌ إلا بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو الذي قهر كل شيء، وذَلَّ له كل حي، ونفذت إرادته في كل شيء.

والمعنىٰ الثالث: أنّه العزيز، بمعنىٰ: القوي المتين، فله القوة الكاملة التي لا عَجْزَ ولا نَقْصَ فيها بوجه من الوجوه، فصار معنىٰ العزيز بمعنىٰ القوي الممتنع القاهر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]».

والمخلوق ينال من العزة؛ بأخذه بأسبابها من العبودية لله، فالله يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، وهو سبحانه يُعِزُّ أولياءه.

والمخلوق يُعِزُّه اللهُ ويُذِلُّه بتقديره الكوني وحُكْمِه الشرعي، أما الله ﷻ فالعزة صفةٌ ذاتية له.

قال قِوَام السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الله ﷻ لم يزل عزيزًا، ولا يزال

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٦٤، ٦٥).
(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٥١).

عزيزًا، لا تنقص عزّته ولا تفنىٰ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «المقصود من هذا التهييج: طَلَبُ العزة من جناب الله، والالتجاء إلىٰ عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويَوْمَ يَقُومُ الأشهاد».

فالعزة في التوحيد واتباع سُنَّة النبي ﷺ، والذِّلَّةُ في الشرك والابتداع في الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس في الأرض صاحِبُ بدعةٍ إلا وهو يجد ذِلَّةً تغشاه، وهو في كتاب الله، قالوا: وأين هي في كتاب الله؟ قال: أمَا سمعتم قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٥٢] قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة! فقال: اتلوا ما بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وهي لكلِّ مُفْتَرٍ ومُبتَدِعٍ إلىٰ يوم القيامة(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].



(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٦).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٦٩).

قال المصنف رحمه الله:

وسمّى نفسه الجبَّار المُتكبِّر، وسمّى بعض خَلْقِه بالجبار المتكبر، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وليس الجبار كالجبار، ولا المتكبر كالمتكبر. ونظائر هذا متعددة[1].

الشَّرْح

الجَبَّار: هو العالي علىٰ خَلْقِه، القاهر لكل شيء، المصلح لأحوال خَلْقِه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2]: «قال تعالىٰ: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تَقدَّم في الصحيح: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمَن نازعني واحدًا منها عَذَّبته».

وقال قتادة: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه علىٰ ما يشاء.

وقال ابن جرير: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ المُصْلِح أمور خَلْقه، المُتَصرِّف فيهم بما فيه صلاحهم».

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله[3]: «العزة بمعنىٰ القهر، هي أحد معاني الجبار، ومن معاني الجبار: أنّه العلي الأعلىٰ، الذي علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ المُلْكِ احتوىٰ، وعلىٰ السلطان وأنواع التصاريف استولىٰ.

---

(١) التدمرية (ص٢٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٨).
(٣) فتح الرحيم الملك العلّام في علم العقائد والتوحيد (ص٢٦).

ومن معاني الجبار: معنىٰ يرجع إلىٰ لطف الرحمة والرأفة، وهو الذي يَجْبُر الكَسِيرَ، ويُغنِي الفقير، ويجبر المريض والمبتلىٰ، ويجبر جبرًا خاصًّا قلوب المنكسرين لجلاله، الخاضعين لكماله، الراجين لفضله ونَواله؛ بما يفيضه علىٰ قلوبهم من المحبة وأنواع المعارف الربانية، والفتوحات الإلهية، والهداية والإرشاد، والتوفيق والسَّدَاد».

فالجبار هو الذي يُصلح أحوال عباده، فالله جبارٌ قَيُّوم، وهذه كلها صفات العظيم الذي قَهَر كل شيء، وأقام كل شيء، وربنا لطيفٌ بعباده يُيَسِّرُ لليُسْرَىٰ مَن أَخَذ منهم بأسباب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له الموجودات، واعتلىٰ علىٰ الكائنات، وجبر بلطفه وإحسانه القلوب المنكسرات».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الجبار يجبر القلوب المنكسرة من أجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، ويُيَسِّر علىٰ المُعسِر كلَّ عَسِيرٍ، ويجبر المُصابَ بتثبيته وتوفيقه للصبر، وإعاضته علىٰ ذلك أكمل الأجر، ويجبر قلوب الخاضعين لعظمته، الخاضعين لكبريائه».

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٦).

(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢٠).

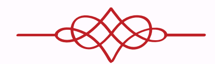
وقال العلَّامة السِّعدي[(١)]: «المعنىٰ الثاني للجبار: أنّه القهار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والمعنىٰ الثالث: أنّه الجبار، أي: العالي علىٰ خَلْقِه، الذي من عظمته وكبريائه قد بايَنَ مخلوقاته وعَلَا عليها، فليس يُدانِيه أَحَدٌ منها؛ لكمال رفعته وجلاله، وهذا المعنىٰ مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبارة، فالجبار: العالي علىٰ كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمنكسرين».

والمخلوق إذا كان مُتجبِّرًا، فإنّما هو كبرٌ في نفسه، وهو لا يملك قَهْرَ الخَلْقِ، وليس هو بعالٍ عليهم، حَظُّه من التسلُّطِ علىٰ الخَلْق بمقدار ما أمكنه الله، والله أَقْدَرُ عليه من قدرته علىٰ مَن استضعفه، فليس لمخلوقٍ من جَبَرُوتِ ذي الملكوت شيءٌ.

فالعِلْمُ بالفَرْق بين صفات الله ﷻ وصفات المخلوق، من أسباب إفراد الله وحده بالخضوع والعبودية، ومن أسباب الثناء علىٰ الله بصفات كماله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ مَن عَرَف نَفْسَه بالضعف عَرَف ربَّه بالقوة، ومَن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومَن عرفها بالذل عرف ربه بالعز، ومَن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم؛ فإنّ الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنىٰ، والعبدُ فقيرٌ ناقِصٌ مُحتاجٌ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعَيْبِه وفَقْرِه وذُلِّه وضَعْفِه، ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله».



(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢١).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٤).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك سمّىٰ صفاته بأسماء، وسمّىٰ صفات عباده بنظير ذلك، فقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وسمّىٰ صفة المخلوق علمًا وقوة، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾، وقال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوة، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة، وليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة[1].

الشَّرح

الله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، وهو ذو القوة المتين، فليس كمثله شيء في صفاته.

فالعلم من أعظم صفات الكمال لله ﷻ، وعِلْمُه المحيط بكل شيء وكذلك كمالُ كلِّ صفاته، هو الموجب لعبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لا معبود إلا وجهه الكريم،

(١) التدمرية (ص٢٤، ٢٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٢٥٠).

فلا يُؤَلَّهُ، ولا يُحَبُّ، ولا يُرْجىٰ ولا يُخاف، ولا يُدْعىٰ إلا هو؛ لأنّه الكامل الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العُلَىٰ، المحيط عِلْمه بجميع الأشياء».

قال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فهدىٰ اللهُ خَلْقَهُ بعِلم الوحي الذي مَن اهتدىٰ به ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

العلم من لوازم ذات الله ﷻ؛ فإنّه لم يزل ولا يزال عليمًا، فهو العليم الذي لا يجهل، والمخلوق الأصل فيه الجهل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وكذلك ما أوتيه المخلوق من العلم قليل بالنسبة للعليم الخبير اللطيف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

اللهُ ﷻ عليمٌ، فلا يشرع ولا يأمر ولا ينهي إلا ما فيه مصلحةُ العباد، والمخلوق يشرع ما فيه ضَرَرُه والحرج والمشقة عليه -إذا كان فيما خالف الشرع-، وذلك لجهله وظُلمِه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

المخلوق يَعْلَمُ بعض ما يشهده، ولا يحيط علمًا بما غاب عنه، والله ﷻ وحده عالِمُ الغَيْب والشَّهادة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

[النمل: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فالغَيْبُ لا يَعْلَمُه إلا الله ﷻ، لا مَلَكٌ مُقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسَل، ولا وَلِيٌّ عابِدٌ، ولا كاهِنٌ كافِر، ولا إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ.

والله ﷻ عليم بعواقب الأمور وما فيها من المصالح والمفاسد، وقد جَهلتِ الملائكةُ -حين أخبرهم العليم الحكيم عن إرادته استخلاف آدم وبنيه في الأرض- فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكم من الأحكام الشرعية والمقادير الكونية جَهلَ بعضُ الخَلْق ما فيها من المصالح والمنافع والحكمة، وظَهَر من عِلْمِ الله فيما شرعه وقدرّه كمال الله ﷻ الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ويَعْلم ما تُبْدِيه وما تخفيه الصدور، وما تُوَسْوِس به النفوس، وما سَتُوَسْوِس وما لا ستوسوس به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العالِمُ بكل شيء، الذي لكمال عِلْمِه يَعْلَم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقةٌ إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرَّةٌ إلا بإذنه، يَعْلم دَبِيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يَطَّلِعُ عليها المَلَكُ، ويَعْلم ما سيكون منها

(١) طريق الهجرتين (ص١٢٧).

حيث لا يَطَّلِعُ عليها القلب»، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ومن أسماء الله الحسنىٰ: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ [هود: ٦٦]، ذو القوة العظيمة الذي لا يحيط العِلْمَ بقدر قوته أَحَدٌ، ومن قوته العظيمة: أنّه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالقوة الإلهية عظيمة، وربنا العظيم ذو القوة المتين موصوفٌ بالعدل والحكمة، فقُوَّتُه وبَطْشُه في عدلٍ مع القوم المجرمين، فأوصافه وأفعاله كمالٌ ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

الخَلق جميعًا في ملك الله وقبضته، والقوي العزيز أقرب إليهم من حبل الوريد، وهو في السماء قريبٌ في عُلُوِّه، والعلم بذلك من أسباب الخضوع لله بعبوديته ومن أسباب طاعته وتقواه، قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ومَن عَلَمَ قوةَ الله ونفاذ أَمْرِه في خَلْقِه، اتَّخذه وليًّا ونصيرًا ووكيلًا.

المخلوق كان عدمًا، وفي أطوار خَلْقِه يكون ضعيفًا، ثم قويًّا، ثم يصير ضعيفًا، ثم يصير عدمًا بموته، والله ﷻ القوي الذي لم يزل ولا يزال قويًّا.

المخلوق قوته محدودة، لا يَقْوَىٰ أنْ يفعلَ كل شيء، وقد يعارضه ويمنع فِعْلَهُ مَن هو أشد منه قوة، وما أكثر ما لا يُقوىٰ فِعْلُه إلا بأعوانٍ، واللهُ القوي عزيزٌ لا مُمانِعَ له ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والمخلوقات العظيمة التي خلقها الله ﷻ بقوته وقدرته العظيمة دالَّةٌ علىٰ عظيم قوة الجبار، وهذه المخلوقات العظيمة كَتَبَ اللهُ عليها الفناء؛ فإنّه يفنيها بقوته وقدرته، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

فقوة الله وعظمته يخضع لها كل شيء، فالله ﷻ قهر كل شيء، فكل مخلوق مربوب لله، فالله هو القوي العزيز الجبار العظيم.

فكمال قوة الله توحيد، لا يماثله في قوته غيره، وذلك من لوازم ذاته وتفرُّدِه بالألوهية، فيمتنع أن يساويه غيره في قوته وكماله في شيء؛ إذ لو كان ذلك -وهو مستحيل- لفسدت السماوات والأرض حيث يتغالب الأقوياء، قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «استفهامٌ بمعنىٰ النفي، أي: لا يقدرون علىٰ نَشْرِهم وحَشْرِهم».

وقال العلَّامة السِّعدي[(٢)]: «إنّه لا يَصْلُحُ الوجود إلا علىٰ إلهٍ واحِدٍ، كما أنّه لـمْ يُوجَد إلا بربٍّ واحِدٍ».

وما في المخلوق من قوة فالله ﷻ هو الذي أَمَدَّهُ بها، وقوة المخلوق تنتهي في لمحِ البصر، ويُفْنِي اللهُ ﷻ مَن كتب عليه الهلاك فتذهب قوته.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٧٢).

والله ﷻ قوته من لوازم ذاته فإنّه لم يزل ولا يزال قويًّا، وقَدْرُ قوته لا تحيط بها عبارةٌ في وَصْفِها، فالله لا نحصي ثناءً عليه، فالله أكبر!

وما في المخلوقات من قوة عظيمة فهي دالَّةٌ علىٰ قوة الخالق القوي العزيز، فجبريل عليه السلام له ستمائة جناح قد سَدَّ الأُفقَ، قال تعالىٰ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، ومن قوته: إهلاكه للقرىٰ الظالمة بجناحٍ من أجنحته؛ بأمر الله وقوته وخَلْقِه.

وجنودُ الله ﷻ ما خَلَقَ اللهُ فيهم من القوة والقدرة، دالٌّ علىٰ عظيم قوة خالقهم، فانظر إلىٰ الريح فإنّها من جنود الله، أَهْلَكَ اللهُ بها قومَ عادٍ الذين اختالوا بقوتهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وثمود قوم صالح أُوتوا قوةً عظيمة، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين، فأهلكهم اللهُ بكُفْرِهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]، فتقطَّعتْ قلوبهم في أجوافهم.

وذَكَر اللهُ ﷻ الأسباب التي يزداد بها المخلوق قوةً إلىٰ قوته، وهي عبودية الله وتقواه، قال نبي الله هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والمقصود من القوة والقدرة والمشيئة التي أُوتيها المخلوق: أن يستعمل ذلك فيما خُلق له من عبودية الله، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].



قال المصنف رحمه الله:

وكذلك وَصَفَ نفسه بالمشيئة، ووَصَفَ عَبْدَهُ بالمشيئة، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[1].



مشيئة الله ﷻ مشيئة عظيمة؛ فإن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والمخلوق خَلَقَ اللهُ فيه مشيئة محدودة تليق بضعفه، ولا يشاء المخلوق إلا أن يشاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لا ريب أنّ الله على كل شيء قدير، كما نطق به القرآن في غير موضع؛ فإن قدرته من لوازم ذاته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: «إنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهذا لو شاء لفَعَلَهُ، كما أخبر القرآن في غير موضع أنه لو شاء الله لآتىٰ كلَّ نفسٍ هُداها، ولو شاء لجعل الناس أُمَّةً واحدة، وأمثال ذلك.

والقادر إذا لم يفعل الشيء لعدم إرادته له، لم يمنع ذلك أن يكون قادرًا عليه، بخلاف ما إذا لم يفعله لكونه ليس قادرًا عليه.

والقادر يجوز أن يفعل كُلًّا من الضِّدين، ويريده علىٰ طريق البَدَلِ، بخلاف

(١) التدمرية (ص٢٥).
(٢) الصفدية (٢/ ١٠٩، ١١٠).
(٣) الصفدية (٢/ ١٠٩، ١١٠).

فِعْلِهما علىٰ وجه الجَمْع فإنه مُمْتَنِعٌ لذاته».

ومشيئة المخلوق لا تكون إلا أن يشاء الله، ومشيئة الله تابعة لحكمته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

والله ﷻ هدىٰ المؤمنين إحسانًا منه وفضلًا، وهو أعلم بمواقع فضله، وأَضَلَّ الكافرين عَدْلًا منه؛ لِتَوَلِّيهِم عن أسباب الهداية، وإعراضهم عنها، واختيارهم أسباب الغواية، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا رَيْبَ أنه يَهْدِي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَن يشاء؛ لكن ذلك كله حكمةٌ منه وعدلٌ، فمَنْعُه للأسباب -التي هي الأعمال الصالحة- من حكمته وعَدْلِه، وأمَّا المُسَبَّبَاتُ -بعد وجود أسبابها- فلا يمنعها بحالٍ، إلا إذا لم تكن أسبابًا صالحة، إمَّا لفسادٍ في العمل، وإمَّا لسببٍ يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون لعدم المقتضىٰ أو لوجود المانع، وإذا كان مَنْعُه وعقوبته من عدمِ الإيمان والعمل الصالح ابتداءً حكمةً منه وعدلًا، فله الحمدُ في الحالَيْنِ، وهو المَحْمُود علىٰ كلِّ حالٍ، كلُّ عطاءٍ منه فضلٌ، وكلُّ عقوبةٍ منه عدلٌ».

وإذا علمَ المسلم أن مشيئته تابعة لمشيئة الله، أَقْبَلَ علىٰ الله، واستعان به في عبادته، وسأله هدايته؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا حول ولا قوة إلا بالله، بها: تُحمَل الأثقال، وتُكابد الأهوال، ويُنال رفيع الأحوال».

---

(١) الاستقامة (٢/ ٥١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٣٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «أَمَرَهُ النبيُّ ﷺ بشيئين: أن يحرص على ما ينفعه، وهو امتثال الأمر، وهو العبادة، وهو طاعة الله ورسوله، وأن يستعين بالله، وهو يتضمن الإيمان بالقدر: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: «يجب أن تعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله خالق كل شيء، فهو خالق العباد وقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم، فهو ربُّ كلِّ شيء ومَلِيكُه، لا يكون شيء إلا بمشيئته، وإذنه، وقضائه، وقدرته، وفِعْلِه».

فالاستعانة بالله في عبادته هي حقيقة الدِّين كله، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالمُوَفَّق هو الذي يستعين بالله ولا يعجز، ويقصد الله وحده بالعبادة.

قال ابن القيم رحمه الله[(٣)]: «ليس في الوجود موجب ومقتضي على الحقيقة إلا الله وحده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عمود التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أَوَّلِهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٤٠).
(٣) شفاء العليل (١/ ٣٩٩).

فالاعتصام بالله ﷻ ضرورة لكل مسلم، فمَنِ اعتصم بالله هداه وكفاه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مدار السعادة الدنيوية والأخروية علىٰ الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمَن تَمسَّكَ بهاتين العصمتين.

فأمَّا الاعتصام بحَبْلِه: فإنه يَعْصِم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهلكة؛ فإن السائر إلىٰ الله كالسائر علىٰ طريقٍ نَحْوَ مَقْصِدِه، فهو مُحْتاجٌ إلىٰ هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلىٰ مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليلُ كَفِيلٌ بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلىٰ الطريق، والعُدَّةُ والقوة والسلاح التي بها تَحْصُل له السلامة من قُطَّاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله يُوجِبُ له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعُدَّة والسلاح، والمادة التي يَسْتَلْئِمُ بها في طريقه».



(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٠، ٣٧١).

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك وَصَفَ نفسه بالإرادة، ووَصَفَ عَبْدَه بالإرادة، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

الشَّرح

الإرادة الإلهية نوعان: إرادة شرعية، وإرادة كونية قدرية، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فشَرْعُ اللهِ وأَمْرُه ونَهْيُه هو من أنواع الإرادة الشرعية، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد؛ فلذلك: الخَلْقُ منهم الكافر والمؤمن، والمطيع والعاصي.

وخَلَقَ اللهُ ﷻ المخلوقات، وما قَدَّره وشاءه من الحوادث والكفر والمعاصي والمباحات بإرادته الكونية، وهي إرادة مستلزمة لوقوع المراد.

والشرك والكفر والمعاصي أراد الله وجودها، وليست هي ممَّا رَضِيَه وشَرَعَه، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

(١) التدمرية (ص٢٥).

والله ﷻ أَمَرَ العباد بالإيمان، وفَطَرَهم علىٰ التوحيد، وهَدَاهم بشرعٍ يُبيِّن لهم صراطه المستقيم، وخَلَق فيهم الفجور والتقوىٰ، فمَن استعان بالله وأقبل عليه بأسباب التقوىٰ؛ يَسَّر له سَبِيلَها وفِعْلَها(١).

وإعراضُ المخلوق عن الإيمان والطاعة؛ بتوَلِّيه وكُفْرِه، كَسْبٌ منه لعَمَلِه، لذلك يُحاسَبُ علىٰ كُفْرِه؛ لأنه صادِرٌ عن إرادته وفِعْلِه، وعن اختياره للغواية علىٰ الهداية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إرادته قسمان: إرادةُ أمرٍ وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير.

فالقسم الأول: إنما يتعلق بالطاعات دون المعاصي، سواءٌ وقعت أو لم تقع، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما القسم الثاني: وهو إرادة التقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات، وقد أراد من العالَم ما هُمْ فاعلوه بهذا المعنىٰ لا بالمعنىٰ الأول، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وفي قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ونظائره كثيرة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٨٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٩٧، ١٩٨).

وهذه الإرادة تتناول ما حَدَثَ من الطاعات والمعاصي دُونَ ما لم يَحْدُثْ، كما أن الأولىٰ تتناول الطاعات حَدَثَتْ أو لم تَحْدُثْ».

والكفر والفسوق والعصيان واقِعٌ بإرادة الله ومشيئته وقدرته؛ فإنه لا يقع شيء في مُلْكِ الله إلا بما أرادَ؛ لحكمته البالغة، وهو سبحانه أراده إرادة كونية، فقَضَاهُ وقَدَّره، وهو يُبْغِضُه ويَكْرَهُه، ولَمْ يُرِدْهُ الإرادة الدينية الشرعية المتضمنة لمحبته ورضاه.

ولا تَعارُضَ بين شرعِ الله وقَدَرِه؛ فإن عقوبة الله للكافر والعاصي؛ لاختيارِهِ اتِّباعَ الشيطان علىٰ طاعة الرحمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[١]: «إنَّ ما يُبْتَلَىٰ به من الذنوب -وإن كان خَلْقًا لله- فهو عقوبةٌ له علىٰ عدمِ فِعْلِ ما خَلَقَهُ اللهُ له وفَطَرَه عليه؛ فإنّه خَلَقَه لعبادته وحده، ودَلَّ عليه الفطرة، فلمَّا لَمْ يفعل ما خُلق له وما فُطر عليه؛ عُوقب علىٰ ذلك، بأن زَيَّن له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، قال تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسراء: ٦٣]».

فمَن تدبَّر معنىٰ الإرادة الشرعية والكونية؛ تبيَّن له أنه لا تَعارُضَ بين شرع الله وقدره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «القَدَرُ يُؤْمَنُ به، ولا يُحْتَجُّ به، فمَن لم يُؤْمِن بالقدر ضارَعَ المَجُوس، ومَنِ احتجَّ به ضارَعَ المشركين، ومَن أَقَرَّ بالأمر والقدر وطَعَن في عَدْلِ الله وحكمته كان شبيهًا بإبليس؛ فإن الله ذَكَر عنه أنه طَعَن في حكمته وعارضه برأيه وهواه».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٢٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١١٤).

ومِن أَهَمِّ ما يُبيِّن لكَ عدمُ التعارض بين شَرْعِ الله وقَدَرِه: أن تَعْرِفَ حكمة الله في تكليف عباده وابتلائهم بإبليس وجنوده وأوليائه؛ إذ لَوْلَا ذلك لكانَ إيمانُ الناس طبعًا لا تكليفًا، وبذلك تَظْهَرُ حكمة الله في الثواب والعقاب، وخَلْقِ الجنة والنار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ابْتَلاهُمْ بإبليس وحِزْبِه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهَوىٰ؛ لِتَعْظُمَ النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربة أعدائه.

فلله علىٰ أوليائه وعباده أتمُّ نعمةٍ وأكملها في كلِّ ما خَلَقَهُ من محبوب ومكروه، ونعمة ومِحنة، وفي كل ما أَحْدَثَهُ في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقَدَّرَهُ».

والمسلمُ مع معرفته للفَرْق بين الإرادة الكونية والشرعية؛ فإنه يشهد أن كل الأشياء كائنة بإرادة الله ومشيئته وقدرته وحكمته، وأن الإرادة الكونية قضاها الله بحكمته لأسباب شرعية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ما يصيب الإنسان إن كان يَسُرُّه فهو نعمة بَيِّنَةٌ؛ وإن كان يسوؤه فهو نعمة؛ لأنه يُكفر خَطايَاه ويُثاب عليه بالصبر، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يَعْلَمُها العبد ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦] الآيَة، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلىٰ الصبر».

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٢٨٦).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٠٩).

وليس كلُّ ما يصيب المسلم من البلاء بسبب ذنوبه؛ فإنّ الله ﷻ يبتلي عباده بالسَّرَّاء والضَّرَّاء؛ ليستخرج عبوديتهم في الأحوال كلها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد ضَلَّ المشركون عن فَهْمِ التلازم بين السُّنة الكونية والشرعية، فقالوا للنبي ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]، وسُنَّةُ اللهِ أنّ العاقبة للتقوىٰ، وأن الله يتولىٰ أولياءه، ويُمَكِّن لهم، قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

وإرادة المخلوق تابعة لإرادة الله، والمخلوق قد خَلَقَ اللهُ فيه قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فِعْلَهُ ويَفْعَلُه، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩].

وإذا كان للإنسان إرادة يختار بها فِعْلَهُ، فلا بد أن تكون إرادته تابعةً لشرع الله وأَمْرِه، ليحقق عبوديته لله، ولتكون أعماله علىٰ الصواب والسَّدَاد، وتكون مصلحةً له؛ فإن الله لا يأمر إلا بما كانت مصلحته مُتَمَحِّضَةً أو راجحة، ولا ينهىٰ إلا عما كانت مفسدته خالصة أو راجحة، فطاعة المخلوق لخالقه فيها سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧].

وإرادة الله ﷻ إرادة عظيمة ليس كمثلها شيء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۢ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

والإرادة الإلهية من لوازم ذاته؛ فإنما أَمْرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، واللهُ ﷻ لم يزل ولا يزال مُرِيدًا وقادرًا علىٰ ما أراده وشاءه، والمخلوق لا إرادة له إلا أن يشاء الله، ولا دوام لإرادته؛ فإنه بلا إرادة قبل الخَلْق، ولا إرادة له بعد العدم.

وإرادة المخلوق ضعيفة؛ لذلك لمْ يُكَلِّفْهُ اللهُ إلا ما استطاع، قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وله قدرة بما يليق بضعف إرادته وخَلْقِه، قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨].

ولا يغفل المسلم عن استعمال إرادته وقدرته وقوته في توحيد الله وطاعته وأداء حقوق المخلوقين والعدل معهم، وقد رأىٰ النبي ﷺ أبا مسعود رضي الله عنه يضرب عبده، فقال: «اعْلَمْ أبا مسعود، أنّ الله أَقْدَرُ عليكَ منه»، متفق عليه.

واللهُ ﷻ لا رادَّ لإرادته، والمخلوق ما يريده قد تَحْصُلُ له عَوارِضُ تمنع إرادته، قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فالله ﷻ لا شريك له، فما أراده كان، وما لمْ يُرِدْهُ لا يكون، فلا شريك له في تدبيره خَلْقِه، والمخلوق مربوب لله يجري فيه أَمْرُه وخَلْقُه.



قال المصنف رحمه الله:

ووَصَفَ نفسه بالمحبة، ووَصَفَ عبده بالمحبة، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ووصف نفسه بالرضا، ووصف عبده بالرضا، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

ومعلومٌ أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد، ولا إرادته مثل إرادته، ولا محبته مثل محبته، ولا رضاه مثل رضاه[1].



الشَّرْح

محبة الله ﷻ هي الباعث لعبوديته وطاعته، وهي الموجبة لإيثار مراضيه على معاصيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإله: هو الذي يَأْلَهُه القلب بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: «جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تَصْدُر إلا عن محبة الله تعالىٰ».

والله ﷻ يحب عباده المؤمنين لتوحيدهم وعبوديتهم له بما شرع، ويحبه عباده المؤمنون إجلالًا وتعظيمًا وتألُّهًا له، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) التدمرية (ص٢٦).
(٢) العبودية (ص٥٣).
(٣) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الذي جاء به الكتابُ والسُّنة واتفق عليه سلف الأُمَّة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين: أنّ الله يُحِبّ ويُحَبّ، كما نطق بذلك الكتاب والسُّنة في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، بل لا شيء يستحق أن يُحب لذاته محبةً مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنىٰ كونه معبودًا».

ويتفاضل الناس في مراتب محبة الله، بحسب ما يأتون من أسباب ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الناس في حبِّ الله يتفاضلون ما بين أفضل الخَلْق محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلىٰ أدنىٰ الناس درجة، مثلُ: مَن كان في قلبه مثقال ذَرَّة من إيمان، وما بين هذين الحَدَّين من الدرجات لا يحصيه إلا ربُّ الأرض والسماوات».

والخُلَّة: هي كمال المحبة من العبد لله ﷻ المستلزمة لكمال عبوديته له، تَحقَّق بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله اتَّخَذَنِي خليلًا، كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنَّ محمدًا سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أنّ إبراهيم خليله، والخليلان هما أفضل الجميع».

---

(١) النبوات (١/ ٣٣٨).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٦٦).

(٣) النبوات (١/ ٢١١).

ومحبة الله ﷻ يَنالها المسلمون باتباع النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أَخْبَرَ، ويطيعه فيما أَمَرَ، ويَتأسَّىٰ به فيما فَعَلَ، ومَن فَعَلَ هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله».

ومن أسباب محبة الله ﷻ: معرفته بكمال صفاته، فمَن عَرفَ أسماءه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ أَحَبَّهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ولهذا كانت المُعَطِّلَةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ والجَهْمِيَّةُ قُطَّاعَ الطريق علىٰ القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب».

وصلاحُ الخَلْق: بأن يتألهوا لله، ويكون الإيمان بالله والحب والبغض في الله، ففي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يَكْرَه أنْ يَعُودَ في الكفر كما يَكْرَه أن يُقْذَفَ في النار».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ولهذا كانت محبة المؤمنين لِمَا يحبه الله من الأعمال والأشخاص، والحب لله، والبغض لله، والحب في الله، والبغض في الله، كل ذلك تَبَعٌ وفَرْعٌ علىٰ محبتهم لله، فإذا أحبوه أحبوا ما أَحَبَّهُ هو من الأعمال والأشخاص؛ إذ محبوبُ المحبوبِ محبوبٌ، وبَغِيضُ المحبوب بغيضٌ.

---

(١) العبودية (ص٩٤، ٩٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٧).

(٣) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٠٤).

وكذلك مُحِبُّ المحبوب محبوب، ومُبْغِضُ المحبوب مُبْغَضٌ، فالمؤمنون يحبون ربهم، وكانت محبتهم لِمَا يحبه الله ولِمَا يُحِبُّ اللهُ فَرْعًا وتَبَعًا لمحبتهم له، واللهُ تعالىٰ يحبهم ويحب ما يحبونه وما يحبهم».

والحُبُّ للأنداد صار بسبب عبادة غير الله، ومع اعتياد الشرك أَحَبَّ المشركون غير الله، كما فَعَلَ اليهود الذين اتخذوا إلهًا من عِجْلٍ صنعوه من حُليٍّ سرقوه من القِبْط، قال تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل ما أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة، وما عُظِّمَ بغير أمر الله، فتعظيمه باطلٌ».

وغالب الشرك وقع في محبة الأنداد تألُّهًا، قال الله تعالىٰ مخبرًا عما يقوله المشركون إذا صاروا في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنّما سَووهم به في المحبة والتعظيم».

فحُبُّ غيرِ الله تألهًا شِرْكٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أخبر أنّ مَن أَحَبَّ مِن دون الله شيئًا كما يحب الله تعالىٰ، فهو مِمَّنِ اتَّخَذَ من دون الله أندادًا، فهذا نِدٌّ في المحبة، لا في الخَلق والربوبية؛

---

(١) العبودية (ص٤٩).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٩).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٩).

فإنّ أحدًا من أهل الأرض لم يُثْبِتْ هذا النِّدَّ في الربوبية، بخلاف نِدِّ المحبة؛ فإنّ أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أَشَدُّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويُعظِّمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة المشركين بالأنداد لله؛ فإنّ محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بِقِسْطٍ منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة».

وقال ابن القيم[(١)]: «وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرجِّح القول الأول، ويقول: إنّما ذُمُّوا بأنْ أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يُخْلِصُوها لله كمحبة المؤمنين له».

وقد وَصَف الله نفسه بالرِّضَا، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فيه إثبات الرضا؛ فإنّ الله يرضىٰ حقيقة».

فنُثْبِتُ صفة الرضا لله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، لا نُكَيِّفُ ولا نُشَبِّهُ.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٩).

(٢) شرح العقيدة الواسطيَّة (ص٥٥).

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ[١]: «رِضًا يليق به، اللهُ أَعْلَمُ بِكُنْهِهِ وكيفيته».

وقال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العُكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[٢]: «الجهمي يدفع هذه الصفات كلها، وينكرها، ويرد نصَّ التنزيل وصحيح السُّنة، ويزعم أنّ الله تعالىٰ لا يغضب، ولا يرضىٰ، ولا يُحِبُّ، ولا يَكْرَه، وإنّما يريد بدفع الصِّفات وإنكارها جَحْدَ الموصوف بها.

واللهُ تعالىٰ قد أَكْذَبَ الجهمي وأخزاه، وباعده من طريق الهداية وأقصاه».

ورِضَا الله ﷻ إنّما يُنال بتوحيده وعبادته وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ورضا الله ﷻ يناله المخلوق بالرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، فعن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَن قال حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، كان حقًّا علىٰ الله أنْ يُرْضِيَهُ»، رواه أحمد، والترمذي وقال: حَسَنٌ غريب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومَنِ اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصِّدِّيق حقًّا».

---

(١) شرح العقيدة الواسطيَّة (ص٥٥).
(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤١٠).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).

وشَرَح ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ الرضا بإلهيته، فقال[١]: «يتضمَّن الرِّضَا بمحبته وَحْدَهُ، وخوفَهُ، ورجاءَهُ، والإنابةَ إليه، والتَّبَتُّلَ إليه، وانجذابَ قُوَىٰ الإرادة والحُبِّ كلِّها إليه».

وقال ابن القيم في معنىٰ الرضا بربوبية الله[٢]: «يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يُفعل به.

فالأول يتضمن رضاه بما يُؤمَر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يُقدَّرُ عليه».

والرضا بمحمد ﷺ رسولًا قال ابن القيم فيه[٣]: «يتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المُطْلَق إليه، بحيث يكون أَوْلَىٰ به من نفسه، فلا يَتلقَّىٰ الهُدَىٰ إلا من مواقع كلماته، ولا يُحاكِمُ إلا إليه، ولا يُحَكِّمُ عليه غيرَهُ، ولا يرضىٰ بحُكْمِ غيرِه أَلْبَتَّةَ».

وقال ابن القيم في الرضا بالدِّين[٤]: «إذا قال أو حَكَم، أو أَمَر أو نهىٰ: رَضِيَ كلَّ الرِّضا، ولَمْ يَبْقَ في قلبه حرجٌ من حُكمِه، وسَلَّم له تسليمًا».

وذَكَر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرضا بالقدر ضمن الرضا بالله ربًّا؛ لأنّه من توحيد الله بأفعاله، عن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»، رواه مسلم.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).

والتحقُّقُ بالتوحيد من أسباب الطمأنينة بالتوكل علىٰ الله، ولزوم ما يرضيه؛ فإنّ اليقين بما عند الله واليقين بأنّ الله وحده الذي ينفع ويضر، من أسباب إيثار مرضاته، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنِ الْتَمَسَ رضا اللهِ بسَخَطِ الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَرْضَىٰ عنه الناس، ومَنِ التمسَ رضا النَّاس بسَخَطِ الله، سَخَطَ اللهُ عليه وأَسْخَطَ عليه الناس»، رواه ابن حبان في صحيحه.

والمحبة صفة حقيقية لله عَزَّ وَجَلَّ، والجهمية فَسَّرت المحبة بالإرادة، وهذا ضلال وتحريف لمعاني الوحي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جَهْمٌ لا يُثْبِتُ شيئًا من الصفات، لا الإرادة ولا غيرها، فإذا قال: إنّ الله يُحِبُّ الطاعات ويبغض المعاصي، فمعناه الثواب والعقاب.

والأشعري يُثْبِتُ الصفات كالإرادة فاحتاج إلىٰ الكلام فيها؛ هل هي المحبة أم لا؟ فقال: المعاصي يحبها الله ويرضاها كما يريدها، وذَكَر أبو المعالي أنّه أول مَن قال ذلك. وأهل السُّنة قَبْلَهُ علىٰ أنّ الله لا يحب المعاصي».

والمحبة والرضا صفتان لله عَزَّ وَجَلَّ، وليستا واحدة، وأبو الحسن الأشعري قال: إنّ الإرادة والرضا والمحبة صفة واحدة[2].

وكان هذا مما تَلقَّاه أبو الحسن الأشعري عن الجهمية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «اتِّباع أبي الحَسَن في قوله الذي خالَفَ به المتقدمين، واتَّبَعَ فيه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٣٠).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢١٧).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢١٦).

الجهمية والقدرية، حيث قال معهم: إنّ المحبة والرضا هي الإرادة، وفرَّعوا على ذلك أنّ الله لا يَجُوزُ أن يُحَبَّ ذاته».

وتفسير الجهمية وفروعهم كالأشاعرة صفة المحبة والرضا لله بالإرادة، خطأٌ وضَلَال؛ فإن المحبة صفةُ الله، والإرادة لله كونية وشرعية، وإرادة الله الكونية لا بد أن تقع وتكون فيما يحبه الله وما لا يحبه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وصفة المحبة ثابتة لله، فهو يُحَبُّ لذاته؛ يُحِبُّه المُوحِدُّون، واللهُ سبحانه يحب عباده المؤمنين، والإرادة ليست المحبة، فلمْ تُوصَف بذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ الله جلّ جلاله يُحِبُّ حقيقةً محبةً تليق بجلاله وعظمته، لا كمحبة المخلوقين، يُحِبُّ رُسُلَهُ وعباده الموصوفين بهذه الصفات.

وفيها: زيادة أنهم يحبونه محبةَ تَديُّنٍ وتَذلُّلٍ وتَعبُّدٍ، ومحبته لهم إحسانٌ وتفضُّلٌ.

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٥١).

وفيها: الرد علىٰ الجهمية، فإنهم ينفون أن يُحِبَّ أو يُحَبَّ، فأهل التجهم ينفون المحبة من الجانبين، كما أنكروا الخُلَّة، وهذا من ضَلَالِهم وجهلهم، قالوا: إنّ المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما نوعٌ من المُناسَبَة، كمناسبة محبة المخلوقين بعضهم لبعضٍ، ففروا منها إلىٰ النفي.

نعم، محبةُ الله لا مُناسَبَة بينها وبين محبة المخلوقين، محبةٌ تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيلٍ، لا يَعْلَم كُنْهَها ولا كيفيتها إلا هو ﷻ؛ فإنّه أَعْلَمُ بنفسه، وقد أَعْلَمَنا أنه يُحِب ويُحَب، فنحن نؤمن بالله، وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله».

وأَبْطَلَ شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ اعتراض النُّفاة لصفة المحبة، وقال[١]: «دَعْوَاكُم: أنها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوعٌ، بل هي تكون بين غير المتجانسين».

وقال العلَّامة العثيمين[٢]: «وأيضًا نَجِدُ أنَّ البهائم تُحِبُّ وتُحَبُّ. فنحن -ولله الحمد- نُثْبِتُ لله المحبة بينه وبين عباده».



(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٢٠٥)، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ المجلد الثامن.
(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص٢٠٥)، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ المجلد الثامن.

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك وَصَفَ نفسه بأنه يَمْقُتُ الكُفَّار، ووَصَفهم بالمَقْتِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وليس المَقْتُ مثل المَقْت[1].

الشَّرح

المَقْتُ: هو أشد الغضب، واللهُ ﷻ مَقْتُه وغَضَبُه بحقٍّ، وإذا انتقم ممن أتىٰ بأسبابِ غَضَبِه أَخَذَهُ بالعقوبة التي تليق بجُرْمِه، والمخلوق قد يَغْضَبُ لباطِلٍ، وضَعْفُه ربما أعجزه عن إنفاذ غضبه، وربما بسبب ذلك عاد غضبُه حسرةً عليه.

واللهُ ﷻ أَخَذَ الأمم الكافرة بعقابه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

واللهُ ﷻ جعل الآخرة عقابًا لكل مَن أغلق علىٰ نفسه أسباب رحمة الله، وأَخَذ بأسباب سخطِهِ، فيومُ القيامة يغضب غضبةً لَمْ يغضبها من قبل، كما أخبر عنه النبي ﷺ.

وغضبُ اللهِ جَعَله للكافرين وللظانين به ظَنَّ السَّوْء، قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

(١) التدمرية (ص٢٦).

والشِّركُ هو السبب الأعظم لغضب الله، قال النبي ﷺ: «اشتدَّ غضبُ اللهِ علىٰ قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، رواه مالك في الموطأ.

فالمشرك قد سدَّ علىٰ نفسه أبواب رحمة الله، وتَعَرَّض لغضب الجَبَّار، ففي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّ النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

فالواجب علىٰ الخَلْق: التعرُّض لأسباب رحمة الله، واجتناب أسباب غَضَبِه ومَقْتِه؛ وذلك بتوحيد الله، وعبادته بما شرع، واجتناب ما حرَّم الله؛ فإنَّ مَن لَمْ يَمْقُت ما حرّمه الله واستحله كَفَر بالله، ويَمْقُت نَفْسَه حين يصيبه العذاب الأخروي ويَحِقّ عليه غضبُ الله وعذابه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يقول تعالىٰ مخبراً عن الكفار إنّهم يُنادَوْنَ يومَ القيامة وهم في غَمَرات النيران يَتَلَظّون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالىٰ ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، فمَقَتُوا عند ذلك أنفسهم وأَبْغَضُوها غاية البغض؛ بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سَبَبَ دخولِهم إلىٰ النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا نادوهم نداءً بأنَّ مَقْتَ اللهِ تعالىٰ لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيَكْفُرون، أَشَدُّ من مَقْتِكُم أيها المُعذِّبُون أنفسكم اليوم في هذه الحالة.

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٨٤).

قال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠] يقول: لمقتُ اللهِ أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه، وأَبَوْا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عايَنُوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال الحسن البصري، ومُجاهِد، والسُّدِّي، وذِرٌّ بن عبيد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري -رحمة الله عليهم أجمعين-».



قال المصنف رحمه الله:

وهكذا وَصَفَ نفسه بالمكر والكيد، كما وَصَفَ عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وليس المكر كالمكر، ولا الكيد كالكيد(١).

الشَّرح

مَكْرُ اللهِ وكَيْدُه لا يكون إلا لإقامة العدل، فيمكر الله لأوليائه ويكيد لهم، ويمكر الله بأعدائه ويكيدهم، ومكرُ اللهِ شديد وكيده متين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، ومكرُ الله سريع، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١].

والمخلوق مهما بلغَ مَكْرُه فإنْ كان في باطِلٍ ونصرةٍ للظلم وإقامة للكفر والشرك، فإنه إلىٰ اضمحلال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، ويمكر الله ﷻ ويكيد الباطل فيجعل كَيْدَهُ ومَكْرَهُ إلىٰ ضعفٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، ومن مَكْرِ الله بأعدائه أنه يجعل كيدهم في تدبيرهم، ويجعل مكرهم مكرًا عليهم.

إذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ من الله فأَوَّلُ ... ما يقضي علىٰ المرء تدبيرُهُ

والمسلم يأوي إلىٰ الله في حِفْظِه وكفايته ونَصْرِه ودَفْعِ شرور الماكرين والكائدين؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وهو ولي عباده الموحدين.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

---

(١) التدمرية (ص٢٦).

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «المَكْرُ: قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلىٰ الإيقاع بالخصم، يعني: أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يُحِسُّ ولا يدري، ولكنها بالنسبة لك مَعلومة مُدبَّرة.

والمكر يكون في موضعٍ مدحًا، ويكون في موضعٍ ذمًا؛ فإن كان في مُقابَلَةِ مَن يَمْكُر، فهو مدحٌ؛ لأنه يقتضي أنك أقوىٰ منه، وإن كان في غير ذلك فهو ذمٌّ، ويُسمَّىٰ خيانة.

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا علىٰ سبيل المقابلة والتقييد، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ولا يُوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به علىٰ الإطلاق، فلا يُقال: إن الله ماكِرٌ إلا علىٰ سبيل الخبر، ولا علىٰ سبيل التسمية، ولا يُقال: إنه كائِدٌ إلا علىٰ سبيل الخبر، ولا علىٰ سبيل التسمية؛ ذلك لأن هذا المعنىٰ يكون مدحًا في حالٍ ويكون ذمًّا في حالٍ، فلا يمكن أن نصف الله به علىٰ سبيل الإطلاق.

فأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فهذا كمالٌ، ولهذا لَمْ يَقُلْ: أَمْكَرُ الماكرين، بل قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فلا يكون مَكْرُه إلا خيرًا، ولهذا يصح أن نصفه بذلك، فنقول: هو خير الماكرين، أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة، أي: مقابلة مَن يَمْكُر به، فنقول: إن الله تعالىٰ ماكِرٌ بالماكرين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]».

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٢٧٩، ٢٨٠)، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ، المجلد الثامن.

ومعرفةُ صفات الله ﷻ من أسباب ولايته، والله يتولىٰ عباده المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن العبد إذا خلصت نيته لله تعالىٰ، وكان قَصْدُه وهَمُّه وعَمَلُه لوجهه سبحانه كان الله معه؛ فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوىٰ والإحسان خُلُوص النية لله في إقامة الحق.

والله سبحانه لا غالب له، فمَن كان معه فمَن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمَن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمَن يرجو؟ وبمَن يثق؟ ومَن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق علىٰ غيره وعلىٰ نفسه أولًا، وكان قيامه بالله ولله؛ لم يَقُمْ له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مُؤْنَتَها، وجَعَل له فرجًا ومخرجًا، وإنما يُؤتىٰ العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد.

فمَن كان قيامه في باطلٍ لمْ يُنصر، وإن نُصر نصرًا عارضًا فلا عاقبة له، وهو مذموم مخذول، وإن قام في حقٍّ لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخَلق أو التوصل إلىٰ غرضٍ دنيوي، كان هو المقصود أولًا، والقيامُ في الحق وسيلةٌ إليه، فهذا لمْ تُضْمَنْ له النُّصرة؛ فإنَّ الله إنما ضمن النصرة لمَن جاهَدَ في سبيله، وقَاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمَن كان قيامه لنفسه

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٥٩، ١٦٠).

ولهواه؛ فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق.

وإذا كانت الدَّوْلَةُ لأهل الباطل فبِحَسَبِ ما معهم من الصبر، والصبرُ منصور أبدًا؛ فإن كان صاحبه مُحِقًّا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مُبطِلًا لم يكن له عاقبة.

وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته، ولم يقم بالله مستعينًا به، مُتوكِّلًا عليه، مُفوِّضًا إليه بَرِيًّا من الحول والقوة إلا به؛ فله من الخذلان وضَعْفِ النُّصرة بحسب ما قام به من ذلك.

ونُكْتَةُ المسألة: أن تجريد التوحيدين في أمرِ الله لا يَقُومُ له شيء أَلْبَتَّةَ، وصاحِبُه مُؤيَّد منصور ولو تَوَالت عليه زُمَرُ الأعداء».



قال المصنف رحمه الله:

وَوَصَف نفسه بالعمل، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، وَوَصَف عبده بالعمل فقال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وليس العمل كالعمل[(١)].

الشَّرح

اللهُ ﷻ يعمل ما يشاء، وفِعْلُه وخَلْقُه كلُّه عن حكمة، يفعل ما يريد، لا مُضادَّ ولا مُعارِضَ له في ذلك، وما يعمله مُعجِزٌ في صفته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وما يَفْعَلُه ويَخْلُقُه فإنّه إبداع، قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: خالقهن علىٰ غير مثالٍ سابق.

والمخلوق ما يعمله فإنه بما أَقْدَرَهُ اللهُ عليه وشاءه له أن يفعله، فاللهُ خالِقُ المخلوق وعملُه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وما يعمله المخلوق فإنه وُفْقَ قدرته وقوته وطاقته، والفضل في ذلك كله لله الذي أعطاه أسباب العمل وأَلْهَمَهُ وَهَداه للعلم بالعمل والصنائع والحِرَف وأنواع الأعمال كلها.

وقولُ شيخ الإسلام: «وليس العمل كالعمل» تذكيرٌ وتنبيه بصفات الله الذاتية والفعلية التي استحق بها الألوهية الحَقَّة، فليس له نظيرٌ ولا مثلٌ ولا شريكٌ، فالتذكير بذلك من أسباب توحيد الله وتنزيهه عن الشركاء.

---

(١) التدمرية (ص٢٦، ٢٧).

قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

فالآيات دالَّةٌ علىٰ كمال الله المتفرد بالخلق، والذي أبدع ما خَلَق، وكان من أعظم ما خَلَقَ السماوات والأرض.

وخزائن الله عظيمة، وهو وحده المعطي والرازق، ليس لأحد نفعٌ ولا عطاء ولا مَنْع من خزائن الله سواه، وهو الله الواحد القهار، فليس لأحد مع الله شرك في ربوبيته ومُلْكِه، فتَعيَّن أن يكون هو المعبود وحده.

وخَلْقُ السماوات والأرض إبداعٌ، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فينظروا ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مُزَيَّنة بالنجوم الخُنَّس، والجَوَارِي الكُنَّس، التي ضربت من الأفق إلىٰ الأفق في غاية الحُسْنِ والملاحَة، لا ترىٰ فيها عيبًا، ولا فُروجًا، ولا خلالًا، ولا إخلالًا، قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأَوْدَعَ فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع».

ومن الضروري التنبيه عليه عند الحديث عن عِظَمِ خَلْقِ الأرض والسماوات: الحديث عن تسخير الله جميع ما فيهما لنا؛ لنستعين بها في إقامة الدِّين والدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٨١).

[الأعراف: ١٠]، قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ عباده بذِكْر المسكن والمعيشة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: هَيَّأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحَرْثِها، ووجوه الانتفاع بها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات؛ فإنّه هو الذي هَيَّأها، وسَخَّر أسبابها».

وقال الله ﷻ مُذكِّرًا عباده بكمال صفاته وأفعاله التي انفرد بها، ليس له في ذلك شريك ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٣-٤٨].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، أي: هو الذي أَوْجَد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور، والْهَمُّ والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أَوْجَد الخَلق، وأَمَرَهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فسَّرها بقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا اسمُ جنسٍ شامل لجميع الحيوانات؛ ناطِقِها وبَهِيمِها، فهو المنفرد بخَلْقِها.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٩٧، ٩٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٥/ ١٣٠، ١٣١).

﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ وهذا من أعظم الأدلة علىٰ كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أَوْجَد تلك الحيوانات؛ صغيرَها وكبيرَها من نُطْفَةٍ ضعيفة، من ماءٍ مَهِينٍ، ثم نَمَّاها وكَمَّلَها، حتىٰ بَلَغَتْ ما بَلَغَتْ، ثم صار الآدمي منها، إما إلىٰ أرفع المقامات في أعلىٰ عِلِّيِّين، وإما إلىٰ أدنىٰ الحالات في أسفلِ سافِلِين.

ولهذا استدلَّ بالبَدَاءة علىٰ الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ فيُعِيدُ العِبادَ من الأَجْدَاثِ، ويَجْمَعُهم ليوم المِيقات، ويجازيهم علىٰ الحسنات والسيئات.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: أغنىٰ العِبادَ؛ بتيسير أَمْرِ مَعاشِهم، من التجارات وأنواع المكاسب، من الحِرَف وغيرها.

وأقنىٰ: أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مُقْتَنِينَ لها، ومالِكِينَ لكثير من الأعيان، وهذا من نِعَمِهِ تعالىٰ؛ أنْ أَخْبَرَهُم أنَّ جميع النعم منه. وهذا يوجب علىٰ العباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له».



قال المصنف رحمه الله:

ووَصَف نفسه بالمناداة والمناجاة، في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ ووَصَف عبده بالمناداة والمناجاة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وقال: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾، وقال: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ وليس المناداة كالمناداة، ولا المناجاة كالمناجاة[1].

الشَّرح

نداء المخلوق يليق بخَلْقِه، وصوتُ ندائه محدود، ومناجاته كذلك، وكلام الله ﷻ ونداؤه بصوتٍ عظيم يليق بجلاله، ليس كمثله شيء.

بَلَغَنا كلامُ الله بواسطة الرسول البشري محمد ﷺ الذي بَلَّغَهُ الرسولُ المَلَكِي جبريل عليه الصلاة والسلام.

ومَن سمعَ كلام الله ونداءه أصابه الفزع من عظمة كلام الله، وصَعِقَ خضعانًا لله العظيم، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلَّمَ اللهُ بالوحي، سَمِعَ أهلُ السماء للسماء صَلْصَلَةً كَجَرِّ السلسلة علىٰ الصَّفَا، فيُصْعَقُون، فلا يزالون كذلك حتىٰ يأتيهم جبريل، حتىٰ إذا جاءهم جبريل فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحَقَّ، وهو العَلِيُّ الكبيرُ»، رواه البخاري.

---

(١) التدمرية (ص٢٧).

وعن عبد الله بن أُنيْس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يحشر اللهُ العِبادَ، فيناديهم بصوتٍ يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه مَن قَرُبَ: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّان»، رواه أحمد[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «في هذا دليلٌ على أن صوت الله لا يُشْبِهُ أصوات الخلق؛ لأن صوت الله يُسْمَع من بُعْدٍ كما يُسْمَع مَن قُرْبٍ، وأنَّ الملائكة يُصعقون من صوته».



(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (إسناده صالح)، فتح الباري (١/ ١٧٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩).

قال المصنف رحمه الله:

وَوَصَف نفسه بالتكليم في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، ووَصَف عبده بالتكليم في مثل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، وليس التكليم كالتكليم[1].

الشَّرح

كلامُ الله ﷻ كمالٌ، فالله ﷻ لا يقول إلا الحق، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فكلام الله أصدق الحديث، وأحكامه عدلٌ، والمخلوق: فِيهِمُ الأَبْكَم، وكلام المخلوق فيه الصدق والكذب والعدل والجَوْر.

إذا تكلم الله ﷻ صعقت الملائكة خضعانًا لقوله، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وكلمات الله نوعان:

شرعية: وهي وَحْيُه لرُسُلِه عليهم الصلاة والسلام.

وكونية: التي خَلَق بها الكائنات، وكلماتُه ليست خَلْقَهُ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) التدمرية (ص٢٧، ٢٨).

والله يتكلم بما شاء إذا شاء، وكلامه لا نفاد له؛ لأنه صفة العظيم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «كلام الله تعالىٰ فلا يُتصور نفادُه».

فالله ﷻ موصوف بصفات الكمال التي يستحيل أن يكون له فيها مثلٌ أو نظيرٌ.



(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١١٥).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ووَصَف نفسه بالتَّنْبِئَة، ووَصَف بعض الخَلْق بالتنبئة، فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وليس الإنباء كالإنباء[1].

الشَّـرْح

إِنْبَاءُ المخلوق للمخلوق يليق بصفته، وما يُنْبِئُ به يليق بعِلْمِه بما يُخْبِرُ به، والله ﷻ لا يقول إلا الحق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، فصفة إنباء الله وما يُنبئ به كمالٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فمعرفة الله ﷻ بكماله توجب التعظيمَ، والإجلال له، والثناء عليه، وليس في صفات الله ﷻ نقصٌ حتىٰ ننفيها أو نُحرِّفها عن حقائقها إلىٰ مَجازاتٍ ضالَّةٍ باطلة.

وإنباءُ الله يكون عن علمه ﷻ، وهو الذي قد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، ولا تخفىٰ عليه خافية، يَعْلم السرَّ وأخفىٰ، ويَعْلم ما تُكِنّه وما تعلنه الصدور.

قال النبي ﷺ: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، العليم بالظواهر والبواطن.

قال العلّامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]: الذي لا تخفىٰ عليه خافية، يَعْلم السرَّ وأخفىٰ».

---

(١) التدمرية (ص٢٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٧٣).

قال المصنف رحمه الله:

ووَصَف نفسه بالتعليم، ووَصَف عبده بالتعليم، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، وقال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وليس التعليم كالتعليم[1].

الشَّرح

أَنْعَمَ الله ﷻ علىٰ عباده بالهداية والعلم النافع، خَلَقَهُم علىٰ الفطرة، وأَرْسَل إليهم رسولًا يُعلِّمُهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلىٰ الله صراطًا مستقيمًا.

والعلم بأسماء الله وصفاته هو أساس التوحيد؛ فإنّه يُثمِر محبة الله وخوفه ورجاءَهُ وعبوديته، ويثمر تنزيهه عن الأنداد والشركاء، ويوجب عبودية الله بما شرع.

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «الإيمان بالصفات وتَعرُّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمَن جَحَد الصفات فقد هَدَم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان».

والتوحيد الذي جاءت به الرسل هو التوحيد العلمي، وهو إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أَحَدٌ في شيء من صفاته،

(١) التدمرية (ص٢٨).
(٢) مدارج السالكين (ص٨٨٠).

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، والتوحيد العملي الإرادي وهو أن لا يُعبد إلا الله[1].

وعَلْمُ المخلوق لا شيء بالنسبة إلىٰ عِلْمِ الله، وحاجة المخلوق إلىٰ الزيادة من العلم ضرورية، ولا يُدرِك شيء منه إلا أن يزيده اللهُ علمًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

عِلْمُ المخلوق محفوف بالخطأ والجهل المُرَكَّب، ويَعْتَرِيه النسيان، واللهُ ﷻ لا يضل ولا ينسىٰ.

والخَلْقُ يتفاوتون فيما يَعْلَمُون، فالناس طبقات في ذلك: منهم الجاهل، ومنهم المتعالِم، ومنهم طالب العلم، ومنهم العالِم.

قال العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ليس أَحَدٌ من الناس حاويًا لجميع العلوم، فما من عالِمٍ إلا وفوقه أعلم منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، حتىٰ تنتهي إلىٰ عَلَّام الغيوب».

وقال العلَّامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنّ من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نَقْصَ عليه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده: عقلًا وشرعًا وفطرةً، فمَن جَعَل ذلك لغيره فقد

(١) الصَّفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).
(٢) شرح بلوغ المرام (١٠/ ٤٧٩).
(٣) تجريد التوحيد المفيد (ص٨١).

شبّه الغير بمَن لا شبيه له. ولشدة قُبْحِه وتَضمُّنِه غاية الظُّلم، أَخْبَر مَن كَتَب علىٰ نفسه الرحمة أنّه لا يغفره أبدًا».

واللهُ ﷻ قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، والإنسان ليس له من العلم إلا ما عَلَّمَه الله، ولا يحيط بشيء من علم الله إلا بما عَلَّمَه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

واللهُ ﷻ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، والمخلوق لا يعلم إلا شيئًا قليلًا، ويَعْزُبُ عن عِلْمِه ما لا يحيط به إلا العليم الخبير.

واللهُ ﷻ امتدح نفسه بأنّه الحكيم، واللهُ ﷻ في القرآن وَصَف نفسه بأنه: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحكمة كمالُ العلم، وهو سبحانه الموصوف من كل صفةِ كمالٍ بأكملها وأعظمها وغايتها».

ومَن تأمَّل كمالَ أحكامِ الله ﷻ وما تضمنته من الهُدىٰ والعدل، أَدْرَكَ بعضًا من كمالِ حكمة العليم الخبير، فالسعادة والهدىٰ والخير كله في اتباع شرعِ الله والاهتداء بوحيه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٨).

وأكملُ الخَلق مَنِ اهتدىٰ بالشرع، وأَخَذ من الدنيا ما يُقِيمُ به الدِّين، وشرُّ الخَلق مَن كان عالمًا بالدنيا جاهلًا بالدِّين مُعرِضًا عن تَعلُّمِ ما يجب عليه لإقامة دينه ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والهُدىٰ الذي بَعَث اللهُ به رسوله ﷺ المقصود بتعلُّمه هو توحيد الله وعبوديته، قال العلَّامة المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قد عُلم بالنص والإجماع أنّ الله سبحانه خَلَقَ الخَلق ليعبدوه، وأَرْسَل الرُّسل، وأَنْزَل الكتب لبيان تلك العبادة والدعوة إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١، ٢]».

والعلم الذي عَلَّمَهُ اللهُ ﷻ خَلْقَهُ المقصود به: تبليغه إلىٰ الخلق، والدعوة إليه؛ ليظهرَ دِينُ الله، ويهتدي به الخَلقُ، ويُعبد الله وحده، وتكون كلمة الله هي العليا، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

فتعليم الله ﷻ لخَلْقِه من أعظم صفات الكمال لله، وهو من أخص الصفات دلالةً علىٰ ربوبية الله واستحقاقه وحده العبادة، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

(١) حراسة التوحيد (ص٢٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الربُّ: هو الذي يُرَبِّي عَبْدَهُ فيعطيه خَلْقَه، ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله من العبادة وغيرها».

فالخَلْقُ إنّما اهتدوا إلىٰ العلوم النافعة الدينية والدنيوية بفضل الله وهدايته، فما أعظم فضل الله ونِعَمِه علىٰ خَلْقِه، رَزَقَنا اللهُ شُكْرَهُ وعبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بيّنها اللهُ أكملَ بيانٍ وأَوْضَحَهُ وأَدَلَّهُ علىٰ المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلمْ يَبْقَ لأَحَدٍ حُجَّةٌ، ولا عُذْرٌ من بعد البيان والبرهان».

وذَكَر اللهُ مِنَّتَهُ علىٰ خَلْقِه بتعليمهم القرآن، فقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أنه ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: عَلَّم عباده ألفاظه ومعانيه، ويَسَّرَها علىٰ عباده. وهذا أعظم مِنَّة ورحمة رحم بها العباد؛ حيثُ أَنْزَلَ عليهم قرآنًا عربيًّا بأحسن الألفاظ، وأوضح المعاني، مشتملًا علىٰ كلِّ خيرٍ، زاجِرًا عن كلِّ شرٍّ».

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٥/ ١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٢٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٧).

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: التَّبْيِين عمَّا في ضميره، وهذا شامِلٌ للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي مَيَّز اللهُ به الآدمي علىٰ غيره، من أَجَلِّ نِعمه، وأكبرها عليه».

والإنسان شرُّ ما فيه جَهْلُه بأوضح المعارف التي فُطر عليها، فَاجْتَالته الشياطين عن فطرته ومعرفته بالحق وإرادته إلىٰ ضلالاتِ الجهلِ والشرك بالله، فالجهل والضلال عن الحق مبدأُ الشركِ وأساسُه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّـهُۥ لَا يُفْـلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للكافرين والمشركين من قومه: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْـثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْـلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْـثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائِقَ الأشياء، وإلا فإنّ الفَرْقَ بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به من أظهرِ الأشياء وأَبْيَنِها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٢/ ٤١٦).

فالخير كله في طلب العلم النافع والعمل به والدعوة إليه، ففي الصحيحين من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهُ في الدِّين»، والتواصي مع الخلق لهدايتهم هو من الإحسان الواجب إليهم، وهو فرضُ كفاية.

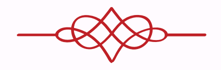
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل العلم[1]: «هو تَرِكَةُ الأنبياء وتُرَاثُهم، وأهلُه عَصَبَتُهم ووُرَّاثُهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورِيَاض العقول، ولذَّة الأرواح، وأُنْس المستوحشين، ودليل المُتحيِّرِين، وهو الميزان الذي به تُوزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين، والغَي والرَّشاد، والهدىٰ والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد.

به اهتدىٰ إليه السالكون، ومِن طريقه وَصَل إليه الواصلون، ومِن بابه دَخَل عليه القاصدون.

به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام، وبه تُعرف مَراضِي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يُوصل إليه من قريب».



(١) مدارج السالكين (ص٦٢٥).

قال المصنف رحمه الله:

وهكذا وَصَف نفسه بالغضب، في قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾، ووَصَف عبده بالغضب في قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ وليس الغضب كالغضب[1].

الشَّرح

الغضب صفة فعلية لله ﷻ تتعلق بمشيئته؛ فإنّ الله العظيم يغضب لكُفْرِ الخَلق وانتهاك مَحارِمِه، ويغضب القوي العزيز الجبار للظلم في حقه وحقوق عباده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ومعرفة الله ﷻ بصفاته من أسباب الإيمان به وتوحيده وطاعته وخشيته، فالأخذ بأسباب إدراك رحمته ومحاذرة أسباب سَخَطِه، هو سبيل الناجين -جعلني الله وإياكم من المُنعَم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين-.

والمُنعَمُ عليهم: هم الذين عبدوا الله بما شرعه، واجتنبوا ما يُسخِطُه، فهؤلاء هم المرحومون، قال تعالىٰ مخبراً عن المؤمنين المرحومين: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا دعاء العبادة المتضمن للسلوك رغبةً ورهبةً، والمعنىٰ: إنا كنا نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أنْ وَقَاهم اللهُ عذاب السّموم».

فالغضب صفة قائمة بالله ﷻ تليق بعظمته، وعذابُه من آثارِ سَخَطِه.

---

(١) التدمرية (ص٢٩).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ١٢٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «القرآن مملوء بذِكر سَخَطِه وغَضَبه على أعدائه، وذلك صفة قائمة به، يترتب عليها العذاب واللعنة، لا أنَّ السُّخْطَ هو نفس العذاب واللعنة، بل هما أثرُ السُّخْطِ والغضب وموجبهما، ولهذا يُفرّق بينهما، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، ففرَّق بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كلَّ واحِدٍ غير الآخر».

ومَن تعرَّض لأسباب سَخَطِ الله وغضبِهِ حتىٰ صار ملازمًا لهذا الحال، فهو مغضوب عليه كاليهود، وقد حَذَّرنا اللهُ ﷻ أن نكون من المغضوب عليهم المَمْقُوتِين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المَقْتُ: البُغْضُ الشديد، وهو من جنس الغضب المناسب لحال هؤلاء».

وتَوَهَّمَ الأشاعرةُ أنّ غَضَبَ اللهِ كغضب المخلوقين، فلذلك حرّفوه إلىٰ معنىٰ الإرادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «يُقال لمَن وَصَفه بالإرادة، وقال: لا أصفه بالمحبة والرحمة والرضا والغضب، إلا إذا تأوَّلتُ ذلك بالإرادة. قال:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠٩، ٢١٠).
(٢) تفسير شيخ الإسلام (٦/ ٢٩٦).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٤٣٨، ٤٣٩).

لأنَّ هذه الصفات تستلزم التجسيم؛ لأنّ الغضبَ غليانُ دمِ القلبِ لطلب الانتقام، والرحمة رِقَّة تلحق الراحم، والرِّقة من صفات الأجسام، ونحو ذلك.

قيل له: وكذلك الإرادة هي مَيْلُ النفس إلىٰ جَلْبِ ما ينفعها، ودَفْعِ ما يضرها، والله مُنزَّهٌ عن ذلك.

فإن قال: هذه إرادة الإنسان، وإرادة الخالق سبحانه بخلاف ذلك.

قيل له: وكذلك ما ذَكَرْتَهُ في الغضب والرحمة ونحو ذلك، إنما هو في غضب العبد ورحمته ونحو ذلك، وغضبُ اللهِ ورحمتُهُ بخلاف ذلك».

ولا يُوصفُ اللهُ ﷻ بالغَيْظِ، فالله ﷻ موصوف بصفات الكمال ولَمْ يَرِدْ في الكتابِ والسُّنة وَصْفُ اللهِ بالغيظ.

قال قِوَامُ السُّنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ (ت: ٥٣٥هـ)[(١)]: «قال علماؤنا: يُوصف الله بالغضب، ولا يُوصف بالغيظ، وقيل: الغيظ بمنزلة الحَسْرَة».

فالله ﷻ حليم لا يعاجل عباده بالعقوبة، ومَن لَمْ يَزِدْهُ حِلْمُ اللهِ إلا إصرارًا علىٰ ظُلْمِهِ في حقِّ الله وحقوق عباده، فإن الله ﷻ يأخذه بظلمه، قال النبي ﷺ: «إنّ الله ليُمْلِي للظالم حتىٰ إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ».

والرحمة من صفات الله الذاتية التي لم يزل ولا يزال الله متصفًا بها، والغضب من صفاته الفعلية، ومن كمال الله ﷻ: أن رحمته تسبق غضبه، وأنّه لا يُعاجِل عباده بعقابه، وأنه يَسْتَعْتِبَهُم لعَلَّهُم يرجعون عن أسباب غضبِه وسخطه إلىٰ أسباب عفوه ورحمته.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٢٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «رحمته سابقة علىٰ غضبه غالبة له، وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لِمَا كان من صفة الغضب؛ فإنّه سبحانه لا يكون إلا رحيمًا، ورحمته من لوازم ذاته، كعِلْمِه وقدرته وحياته وسَمْعِهِ وبَصَرِه وإحسانه، فيستحيل أن يكون علىٰ خلاف ذلك.

وليس كذلك غضبه؛ فإنّه ليس من لوازم ذاته، ولا يكون غضبانَ دائمًا غضبًا لا يُتَصَوَّرُ انفكاكه، بل يقول رسوله ﷺ وأَعْلَمُ الخَلقِ به يوم القيامة: «إنّ ربي قد غضبَ اليوم غضبًا لَمْ يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله».

ورحمته وسعت كلَّ شيء، وغضبه لم يسع كلَّ شيء، وهو سبحانه كتب علىٰ نفسه الرحمة، ولم يكتب علىٰ نفسه الغضب، ووسع كلَّ شيء رحمةً وعلمًا، ولم يسع كلَّ شيء غضبًا وانتقامًا.

فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة علىٰ الغضب وما كان منه وآثاره، فوجود ما كان بالرحمة أحبُّ إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب، ولهذا كانت الرحمةُ أحبَّ إليه من العذاب، والعفو أحبَّ إليه من الانتقام».

ومن رحمة الله ﷻ: أنّه يُؤاخِذ عباده ببعض ما كسبوا، ولو آخذهم بكل ما كسبوا لأهلكهم، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

---

(١) الفوائد (ص١٨١، ١٨٢).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما تَرَكَ علىٰ ظهرها من دابَّةٍ».

والإلحاد في آيات الله خصوصًا بتحريف ألفاظ ومعاني الوحي، وبالقول علىٰ الله بغير علمٍ، وبمُشاقَّة الرسول ﷺ واعتقادِ السابقين الأَوَّلين، هو من التعرض لغضب الله القوي العزيز، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ [الشورىٰ: ١٦].

قال العلَّامة المُجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أخبر هنا أنّ الذين ﴿يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ بالحُجَج الباطلة، والشُّبَه المتناقضة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب للهِ أُولُو الألباب والعقول، لما بيّن لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾، أي: باطلة مدفوعة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنّها مشتملة علىٰ رَدِّ الحق، وكلُّ ما خالف الحق فهو باطل.

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ لعصيانهم وإعراضهم عن حُجَجِ الله وبَيِّناتِه، وتكذيبها.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ هو أثرُ غضبِ الله عليهم، فهذه عقوبةُ كلِّ مجادلٍ للحق بالباطل».

فما أخبرنا الله ﷻ به عن نفسه، نُؤْمِنُ به، فنثبت صفة الغضب لله بما يليق بعظمته، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤/ ٤١٧)، ط- دار المدني- جدة.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إنّ المراد بالسَّخَطِ والغضب: الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يُفَسِّرُون السخط والغضب بصفة من صفات الله يتصف بها هو نفسه، فيقولون: غضبُه، أي: انتقامُه، أو إرادة انتقامه، فَهُمْ إمَّا أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن الله وهو الانتقام، أو بالإرادة؛ لأنَّهم يُقِرُّون بها، ولا يفسرونه بأنّه صفة ثابتة لله علىٰ وجه الحقيقة تليق به.

ونحن نقول لهم: بل السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط، كما نقول: إنّ الثواب نتيجة الرضا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسْخَطُ علىٰ هؤلاء القوم ويغضب عليهم، ثُمَّ ينتقم منهم».

فأهلُ السُّنة والجماعة يُثْبِتُون لله عَزَّ وَجَلَّ غضبًا يليق بجلاله وعظمته، لا نُشَبِّهُ غَضَبَهُ بغضب المخلوقين ولا نُكَيِّفُ.

وبسببِ يقين السلف بصدقِ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسه وصِدْقِ ما أَخْبَرَ رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، عَظُمَتْ خشيتهم لله، فتَعَرَّضُوا لرحمته، وتَباعدوا من أسباب غضبه، بينما أفسدتْ علومُ الفلاسفة وقواعد المتكلمين العقلية الباطلة عظمةَ اللهِ وكمالَه في نفوس المُتَّبِعِينَ لهم حتىٰ أَرْدُوهم في إلحاد التحريف لأسماء الله وصفاته.



(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٢٢٥)، مطبوع ضمن فتاوىٰ الشيخ المجلد الثامن.

قال المصنف رحمه الله:

ووَصَفَ نفسه بأنه استوىٰ علىٰ عَرْشِه، فذَكَر في سَبْعِ آيات من كتابه أنه استوىٰ علىٰ العرش، ووصف بعض خَلْقِهِ بالاستواء علىٰ غيره، في مثل قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وليس الاستواء كالاستواء[1].

الشَّرح

استواء الله علىٰ عَرْشِه هو علوه عليه، كما فَسَّره بذلك أبو العالية ومجاهد من التابعين.

واستواء الله علىٰ عرشه من أخص صفات الله، فهو علوٌّ لا يَبْلُغه مخلوق، قيل لعبد الله بن المبارك: بِمَ نَعْرِف ربنا؟ قال: «بأنّه مُسْتوٍ علىٰ عرشه، بائِنٌ من خَلْقِه».

والعرش كرسي المَلِك، وعرشُ اللهِ عظيم، فما السماوات والأرض وما فيهن بالنسبة للعرش إلا كحلقة في أرضِ فَلاةٍ.

ومادة العرش غَيْبٌ لا نَعْلَمُه، ولا ينبغي لنا الخوض في أمور الغيب إلا بنصٍّ من القرآن والسُّنة.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من التَّعَمُّق والتَّنطُّع: أن نبحث ونسأل عن ماهيَّة هذا العرش، يعني: من أي شيء هو، من ذهبٍ، من فضة، من

(١) التدمرية (ص٢٩).
(٢) تفسير سورة الفرقان (ص٢٣٩).

زَبَرْجَد، من كذا، وهذا وردتْ فيه آثار لكنّها ليست بصحيحة، وليست واردةً عن معصوم، ولا ينبغي أيضًا الخوض في ذلك».

فالعلو واستواء الله علىٰ عرشه كمالٌ عظيم، قال قِوَامُ السُّنَّة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الله فوق السماوات، لا يعلوه خَلْقٌ من خلقه».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «قوله ﷻ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٤] يعني: علا علىٰ العرش، وهذا العلوُّ عُلُوٌّ خاصٌّ، ليس كالعلوِّ علىٰ سائر المخلوقات؛ لأنّ الله ﷻ عالٍ علىٰ جميع المخلوقات علوًّا مُطلقًا، لكن هذا العلو علىٰ العرش علوٌّ خاصٌّ؛ وأنّه من الصفات الفعليَّة، وأنّ أهل السُّنة والجماعة يؤمنون بذلك علىٰ الوجه الذي يليق بالله ﷻ، لا يُكَيِّفُونَ ولا يحاولون أن يُكيِّفوا أيضًا؛ لأنّ ذلك أمرٌ مستحيل، وهو يدلُّ علىٰ كمال العالي؛ لأنّ هذه المادة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٤] تدل علىٰ الكمال من حيث هي».

فاستواء الله علىٰ عرشه ليس كاستواء المخلوق علىٰ الدَّوَاب وغيره، فنؤمن يقينًا بصدق ما أخبرنا الله عن استوائه علىٰ العرش، ولا نتوهم في ذلك مماثلة استواء المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «مَنْشَأُ الضَّلال أن يظنّ أنّ صفاتِ الربّ كصفات خلقه، فيظنّ أن الله سبحانه علىٰ عرشه كالمَلِكِ المخلوق علىٰ سريره،

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٦١).

(٢) تفسير سورة الفرقان (ص٢٣٨).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٠١).

فهذا تمثيلٌ وضَلالٌ؛ وذلك أنّ المَلِكَ مُفْتَقِرٌ إلىٰ سريره، ولو زال سريره لسقط، والله غنيٌّ عن العرش، وعن كل شيء، والعرشُ وكلُّ ما سواه فقير إلىٰ الله، وهو حامِلُ العرش وحملة العرش، وعلوُّه عليه لا يوجب افتقارَه إليه؛ فإنّ الله قد جَعَلَ المخلوقات عاليًا وسافلًا، وجعل العاليَ غنيًّا عن السافل، كما جعل الهواء فوق الأرض، وليس هو مفتقرًا إليها، وجعل السماء فوق الهواء وليست محتاجةً إليه. فالعليُّ الأعلىٰ ربُّ السماوات والأرض وما بينهما أولىٰ أن يكون غنيًّا عن العرش وسائر المخلوقات وإن كان عاليًا عليها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا».

علوُّ اللهِ عز وجل علىٰ خَلْقِه صفةُ ذاتٍ، وكان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق العرش ثم استوىٰ علىٰ العرش بعد خَلْقِ السماوات والأرض، وهذا يَدُلُّكَ علىٰ غِنَىٰ الله عن العرش، فهو مستوٍ عليه من غير حاجة، بخلاف المخلوقين فإنَّ استواءهم علىٰ الدواب والفُلك يكون عن حاجة.

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله[(١)]: «استواؤه وعُلوُّه علىٰ عرشِه، سلامٌ من أن يكون محتاجًا إلىٰ ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وحَمَلَتِه، وعن كل ما سواه، فهو استواءٌ وعلوٌّ لا يَشُوبُه حَصْرٌ، ولا حاجة إلىٰ عرشٍ ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عَرْش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه علىٰ عرشه واستيلاؤه علىٰ خَلْقِه من موجبات مُلكِه وقَهرِه، من غير حاجة إلىٰ عرشٍ ولا غيره بوجهٍ ما».

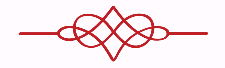
---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي، التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (٦/ ٤٣٣، ٤٣٤).

والله ﷻ مع علوِّه واستوائه علىٰ عرشِهِ، فهو محيط بخَلْقِه، قريبٌ منهم، فهو الظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم.

وألوهية ربنا في علوه ألوهيةُ رحمةٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ولذلك أخبرنا الله عن استوائه علىٰ العرش، وأنّه رحمنٌ في علوه، قال تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ هذا الاستواء والعلوَّ الخاصَّ ليس كعُلُوِّ المتجبِّرين المتكبِّرين، بل هو علوُّ رَحْمَن واسع الرَّحمة؛ لأنّ عادة البشر أو الملوك إذا استووا علىٰ عروشهم أن يكون لديهم في الغالب من الجبروت والعظمة ما يَتَخَيَّلُونه إذا استووا علىٰ عروشهم، ولكن الله ﷻ مع عُلُوِّه العظيم علىٰ عرشه العظيم هو رحمن واسع الرَّحمة ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]».



(١) تفسير سورة الفرقان (ص٢٤٠).

قال المصنف رحمه الله:

ووَصَف نفسه بِبَسْطِ اليدين، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، ووَصَف بعض خلقه ببسط اليد، في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾، وليس اليد كاليد، ولا البَسْطُ كالبَسْطِ، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجُود فليس إعطاء الله كإعطاء خَلْقِه، ولا جُودُه كجُودِهِم.

ونظائر هذا كثيرة[1].

الشَّرْح

يدُ المخلوق تليق بضعفه، فقدرتها وكَسْبُها وبَسْطُها وقَبْضُها محدودة بما خَلَقَها اللهُ له، وهي في بَذْلِها تَبْذُل ما يُحصى، وينفد ما عندها، وما تسعى إليه يعارضها ما قضاه الله من الموانع.

ولله ﷻ يدان حقيقيتان عظيمتان، وكلتا يديه يمين، يقبض الأرض بإحداهن ويطوي السماوات بالأخرى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وما السماوات والأرضون في كفِّ الله ﷻ إلا كالخردلة في يد المخلوق.

ويدُ المخلوق عاجزة عن فعلِ كل شيء، وكثيرًا ما تفعل بمعاونة غيرها، وتتكلف بمشقة شديدة فِعْلَ كثيرٍ من الأمور، وتنفق مما تملك، وليس لكمال الله مثيل في صفاته وأفعاله.

---

(١) التدمرية (ص٢٩، ٣٠).

ويدُ الله مبسوطة بالنفقة، لا يُحْصِي أَحَدٌ ما أنفقَ؛ لكثرته، ولا تزال تُنفق النفقات العظيمة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يمينُ اللهِ مَلْأَىٰ لا تَغِيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أَنْفَقَ منذُ خَلَق الخَلْقَ؛ فإنه لَمْ يَغِضْ ما في يمينه، وبيده الأخرىٰ القِسْط يَخْفِضُ ويَرْفَع».

ويدُ الله مبسوطة بالرحمة، فقد روىٰ مسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ الله يَبْسُطُ يده بالليل ليتوبَ مُسِيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل».

فإثبات صفة اليدين لله ﷻ ثناءٌ عليه بالكمال الذي تَفرَّدَ به، فما أَضَلَّ مَن نَفَىٰ صفات الله متوهمًا أنها تُماثِلُ صفات المخلوقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنّه سبحانه وَصَف نفسه بأنّه ليس كمثله شيء، وأنّه لا سَمِيَّ له، ولا كُفُؤَ له، وهذا يستلزم وَصْفَهُ بصفات الكمال التي فات بها شَبَه المخلوقين، واستحق بقيامها أن يكون ليس كمثله شيء».

فلله يدان حقيقيتان عظيمتان، وليست اليدان مَجازًا عن القدرة، فقد وُصفت اليدان بصفات تمنع أن تكون مَجازًا عن القدرة؛ وُصفت اليدان بالقَبْضِ والبَسْط؛ لأن له يدين حقيقةً تُباشِرُ البَسْطَ والقَبْضَ والعطاء، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٨٥).

يدُ الله ﷻ مبسوطة بالعطاء، قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهذا من كمالِ غِنَىٰ الله؛ فإنّ الله هو ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من كمال غناه: أنّ خزائن السماوات والأرض بيده، وأنّ جُودَهُ علىٰ خَلْقِه مُتواصِلٌ في جميع اللحظات والأنفاس، وأنّ يديه سَحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أَنْفَقَ منذ خَلَقَ السماوات والأرض؛ فإنه لَمْ يَغِضْ ما في يمينه.

ومن كمالِ غِناهُ: أن يدعو عباده إلىٰ سؤاله، ويَعِدهم بالإجابة، ويؤتيهم من كل ما سألوه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن كمالِ غناه: أنّه لو اجتمعَ أهلُ السماوات والأرض وأولُ الخَلْقِ وآخِرُهم وإنسهم وجِنُّهُمْ في صعيدٍ واحد، فسأله كلُّ واحِدٍ منهم ما بَلَغتْ أُمنيته، ما نَقَصَ ذلك من مُلكِه شيئًا.

ومن كمالِ غِناهُ وسَعةِ عطاياه: ما يبسطه علىٰ أهلِ دارِ كرامته من اللذات المتتابعات والشهوات المتواصلات، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ، فهو الغني بذاته، المغني لجميع مخلوقاته».

فإنعام الله ﷻ علىٰ خَلقِه، حقُّه الشكر لله، وتوحيده بعبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

---

(١) التَّوضيح المُبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٦٦).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «كثرة النِّعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها علىٰ الله تعالىٰ».

ونِعَمُ اللهِ الدينية علىٰ خَلْقِه هي أَتَمُّ النِّعم وأكملها، ومَن لَمْ يَعْرِف من النِّعم إلا الأكل والشرب فهو مَغْبُونٌ، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الرزق النافع المستمر نَفْعه في الدنيا والآخرة، وهو الرزق الذي علىٰ يد الرسول ﷺ، رَزَق القلوبَ بالعلم والإيمان حقائقه، ورَزَق البدنَ بالحلال الذي لا تَبِعَةَ فيه؛ فإنّ الرزق الذي خَصَّ اللهُ به المؤمنين والذي يسألون منه، شامِلٌ لذلك كله. فينبغي للداعي بالرزق أن يستحضر بقلبه هذه الأنواع».

فالمسلمون وَصَفُوا اللهَ بصفات الكمال؛ تصديقًا لِمَا أخبر الله عن نفسه، وتعظيمًا لله، وثناءً عليه، وإيمانًا بتفرده سبحانه بالكمال، واليهود وأشباههم وَصَفُوه بالنقائص، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «نسبوه إلىٰ البخل -تعالَىٰ وتَقدَّسَ الكريم الوهاب-».

ما عند المخلوق ينفد، وما عند الله باقٍ، فالمخلوق إذا شهد هذه الحقيقة أوجب له ذلك؛ التوكلَ علىٰ الله وحده، ورجاءه وحده، والشكر له وحده علىٰ نعمه، وطلب السعادة الدنيوية المتصلة بسعادة الآخرة منه وحده.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧٥).
(٢) التَّوضيح المُبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٣١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «القرآن مملوء من ذِكْرِ حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذِكْر نَعْمَائِه عليهم، ومن ذِكر ما وعدهم به في الآخرة من صُنُوف النعيم واللذّات، وليس عند المخلوق شيء من هذا. فهذا الوجه يُحقِّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

وإحسان الله إلىٰ خَلْقِه مستمر كل لحظة، ولولا ذلك لهلكوا، فالله ﷻ هو الوهاب.

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنّه تعالىٰ «الوَهَّاب» مستمر الإحسان، متواتر الفضل، لم يزل ولا يزال مُحسِنًا مُتفضِّلًا، دائم الهِبات، كثير الخيرات، جزيل العطايا، لا يخلو مخلوق عن رحمته وإحسانه طَرْفَة عينٍ.

فأهلُ السماوات والأرض وأهل الدنيا والآخرة لا ينفكون عن جُودِه وإحسانه، ولا يستغنون عنه في حالٍ من الأحوال، بل هم المفتقرون إليه علىٰ الدَّوَام، فيَهَبُ لهم من إحسانه ما به تقوم أمورهم الدنيوية، ويَهَبُ لعباده المؤمنين من لَدُنه رحمةً يَلُمُّ بها شَعَثَهم، ويُصْلِح فيها نَقْصَهُم، ويُرقِّيهم بها إلىٰ أعلىٰ الدرجات والوصول إلىٰ أَجَلِّ الكرامات، ولا يمكن لأحدٍ من المخلوقين تعدادُ بعضِ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]».

واللهُ ﷻ بيده الخير، ومن كمالِ الله ﷻ: أنّه لا يحجبه عن خَلْقِه أَحَدٌ، وهو عليمٌ بخَلْقِه كلهم جميعًا، فيتولاهم تدبيرًا ورزقًا وحفظًا، والمخلوق لا تبلغه إلا حوائج مَن أحاط بهم عِلْمه، وهم قليل، ولا يستطيع المخلوق أن يعطي أحدًا شيئًا

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢٦، ١٢٧).
(٢) التوضيح المُبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٢٩).

إلا مما آتاه الله، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

ومن كمالِ الله ﷻ: ابتداؤه خَلْقَهُ بالنِّعم من غير مسألةٍ منهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «..ابتدائه بالنِّعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه».

وعطاءُ اللهِ لخَلْقِه هو من ربوبيته لهم، وهو من حقيقة مُلكِه.

ومن عظيم رحمة الله ولُطْفِه بالمخلوقات: تيسيره لهم أسباب رزقهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ حقيقة المُلْك إنَّما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز مَن يليق به العِزّ وإذلال مَن يليق به الذل، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفُكّ عَانِيًا، ويُغني فقيرًا، ويَجْبُر كَسِيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقيل عَثرةً، ويستر عورةً، ويُعزّ ذليلًا، ويُذلَّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرىٰ، ويُداوِلُ الأيام بين الناس،

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٢٧٩).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٢٦١).

ويرفع أقوامًا ويضع آخرين».

والله هو الغني الذي يُغْنِي عبادَهُ من فضله، وإذا انقطع عن عبده سببٌ من أسباب الرزق يهيئ له أسبابًا أخرىٰ من فضله، فالله ﷻ يتولىٰ عباده ويغنيهم من فضله.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينبغي للعبد أن يُعلِّقَ رجاءه بالله وحده، وأنّ الله إذا قَدَّر له سببًا من أسباب الرزق والراحة أن يحمده علىٰ ذلك، ويسأله أن يبارك فيه له؛ فإن انقطع أو تَعذَّر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه؛ فإنّ هذا السبب من جملة أسبابٍ لا تُحصىٰ لا يتوقف رزقُ العبد علىٰ ذلك السبب المعيّن، بل يفتح له سببًا غيره أحسن منه وأنفع، وربما فتحَ له عِدَّة أسباب، فعليه في أحواله كلها: أن يجعل فَضْلَ ربه والطمع في بِرِّه نُصْبَ عينيه وقِبْلة قلبه، ويُكثِر من الدعاء المقرون بالرجاء؛ فإنّ الله يقول علىٰ لسان نبيه ﷺ: «أنا عند ظنِّ عبدي بي؛ فإنَّ ظَنَّ بي خيرًا فله، وإنْ ظَنَّ بي شرًّا فله»، وقال: «إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لكَ علىٰ ما كان منكَ ولا أُبالِي»».

والله ﷻ هو ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ [الحج: ٦٤]، ومِن غِناهُ: أنه لا يرضىٰ لعباده الكُفر، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ لا يَضُرُّه كُفْرُكم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكنَّ أَمْرَهُ ونَهْيَهُ لكم مَحْضُ فَضْلِهِ وإحسانه عليكم.

(١) تيسير اللطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٦٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤/ ٣١٠).

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ لكمالِ إحسانه بهم، وعِلْمِه أنّ الكفر يشقيهم شقاوةً لا يسعدون بعدها؛ ولأنّه خَلَقَهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخَلْق، فلا يرضىٰ أن يَدَعُوا ما خَلَقَهُم لأَجْلِه.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ لله تعالىٰ؛ بتوحيده وإخلاص الدِّين له ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفِعْلِكُم ما خَلَقَكُم لأجله».

وإحسانُ اللهِ إلىٰ خَلْقِه إيجادًا وإمدادًا، فالربُّ هو الذي يُغنِي عباده، ويُحسِن إليهم، ويُزكِّيهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ الله سبحانه غنيٌّ حميد، كريم رحيم، فهو محسِن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلبِ منفعةٍ إليه سبحانه، ولا لدفع مضرَّة، بل رحمةً وإحسانًا وَجُودًا محضًا.

فإنّه رحيمٌ لِذَاتِه، محسنٌ لذاته، جَوَادٌ لذاته، كريم لذاته، كما أنّه غني لذاته، حيٌّ لذاته. فإحسانه، وَجُودُه، وبِرُّه، ورحمتُه من لوازم ذاته، لا يكون إلا كذلك، كما أنَّ حياته وقدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك».

ولا بُدَّ أنْ نُذَكِّرَ بأنَّ عطاء الله لا يمنعه من المؤمن والكافر، قال تعالىٰ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالله ﷻ يُمِدُّ الكافر بالنعم فيُعَجِّل له طيباته في الدنيا وما له في الآخرة من خَلاقٍ، والمؤمن يعطيه الله ما كَتَب له، ويجعل ما أعطاه بلاغًا للآخرة وسبيلًا لعبودية الله وشُكْرِه، ومتاع الآخرة خيرٌ وأبقىٰ، فكمال الحياة في الجنة.

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢٨).

وتقوىٰ الله تجلب كل خير وتدفع الشرور، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والله ﷻ لطيف بعباده يُوصِل إليهم الخير من حيث لا يحتسبون.

ومن كَرَمِ الله وَسَعَةِ رِزْقِه: أنّه لا ينقطع خيره عن عبده المؤمن، فتتوالىٰ نِعَمُ الله عليه في الدنيا، وتتصل النِّعَمُ في البَرْزَخ، وتمتد إلىٰ الآخرة، وحينئذٍ يَجِدُ المسلم من الخيرات فوق ما يتمنىٰ وما لَمْ يخطر له علىٰ بالٍ، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّهم في الجنة يرون من تَوالِي نِعَمِ الله، وإدرار خيره، وكثرة بركاته، وَسَعة عطاياه، التي لا يبقىٰ في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أَعْطَىٰ منها كلَّ واحد منهم، فوق ما تمنىٰ وأراد. بل يعطون من الخير ما لَمْ تتعلق به أمانيهم، ولم يخطر بقلوبهم».



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤/ ١٧٥).



قال المصنف رحمه الله:

فلا بد من إثبات ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسه، ونَفْيِ مماثلته لخَلْقِه، فمَن قال: ليس لله علمٌ، ولا قوة، ولا رحمة، ولا كلام، ولا يُحِبُّ، ولا يَرْضَىٰ، ولا نادَىٰ، ولا ناجَىٰ، ولا استوىٰ؛ كان مُعطِّلًا، جاحدًا، مُمَثِّلًا لله بالمعدومات والجمادات.

ومَن قال: له علمٌ كعِلْمِي، أو قوة كقوتي، أو حُبٌّ كحبي، أو رِضًا كرضاي، أو يدان كيدَيّ، أو استواء كاستوائي؛ كان مُشبِّهًا، مُمثِّلًا لله بالحيوانات، بل لا بد من إثباتٍ بلا تمثيل، وتنزيهٍ بلا تعطيل.

ويَتبيَّن هذا بأصلين شريفين، ومَثَلَيْنِ مَضْرُوبَين -ولله المَثَلُ الأعلىٰ-، وبخاتمة جامعة[١].

الشَّرح

بعد أن ذكَر شيخ الإسلام ابن تيمية أنواعًا من صفات الله الحسنىٰ، ونفَىٰ مماثلتها لصفات المخلوقين، ذكَر قاعدة العقيدة في أسماء الله وصفاته: وهي إثبات صفات الله ﷻ بما يليق بكماله وعظمته، ونَفْيُ مماثلتها لصفات المخلوقين، فهذا هو التوحيد بإثبات كمال الله الموجب لتألُّهِه وحده، وهذا هو التنزيه بنفي مماثلة صفات الله للمخلوقين، وهذا مما أَجْمَع علىٰ اعتقاده السلف والتابعون لهم.

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (ت: ٣٧١هـ)[٢]: «إنّه مدعو بأسمائه، موصوف بصفاته التي سَمَّىٰ ووَصَف بها نفسه، وسمّاه ووصفه بها نبيه عليه الصلاة والسلام، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يُوصف بما فيه نقصٌ أو عيبٌ أو آفة؛ فإنّه ﷻ تعالىٰ عن ذلك».

(١) التدمرية (ص٣٠، ٣١).

(٢) اعتقاد أئمّة الحديث (ص٥١)، ط- دار العاصمة- الرياض، ط- الأولىٰ- ١٤١٢هـ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو سبحانه وَصَف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم؛ لأنّه من صفات الكمال، كما مَدَح نفسه بأنّه العظيم، والعليم، والقدير، والعزيز، والحليم، ونحو ذلك.

وأنّه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنىٰ، فلا يجوز أن يَتَّصِفَ بأضداد هذه.

فلا يجوز أن يُوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة، مثل: الموت والنوم والجهل والعجز واللُّغُوب، ولا بضد العزة وهو الذلُّ، ولا بضد الحكمة وهو السَّفَهُ.

فكذلك لا يُوصف بضد العلو وهو السُّفُول، ولا بضد العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه مُنَزَّهٌ عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها وهي النقائص.

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يُوصف به من صفات الكمال، فهو مُنَزَّه عن النقص المضاد لكماله، ومُنَزَّه عن أن يكون له مثلٌ في شيء من صفاته، ومعاني التنزيه ترجع إلىٰ هذين الأصلين».

وقول السلف وشيخ الإسلام: «المُعطِّل يعبد عدمًا» دَلَّ عليه: قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]، فالمُعطلة

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٩٧، ٩٨).

جعلوا رب الأرباب كالأنداد لا حقائق لأسمائها، ولا أوصاف لربوبيتها، وتاللهِ إنَّ مَن جَعَل إله الحق المتفرد بالكمال والعظمة والجلال كمَن ليس له ألوهية ولا ربوبية، فهو من أَضَلِّ خلق الله.

والموحدون شهدوا من خَلْقِ اللهِ وتدبيره ونفاذ قَدَرِه، ما دلّهم على أوصاف كمال الأحد، الذي ليس لغيره فيه شِرْكٌ ولا مِلْكٌ، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢].

ونُعُوت الله كثيرة، وصفاته عظيمة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

قال العلَّامة المجدّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «كرَّر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات؛ لأنّ معناها -كما تقدم- أنّها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه.

وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته، وَسَعَةِ سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم عِلْمه وقدرته، وإحاطة مُلْكِه في الأحكام الأمرية الجزائية وكمال حكمته.

وفيها ما يدل على سعة رحمته، وواسع جُودِه، وكثرة خيراته الدينية والدنيوية، ما هو مُقْتَضٍ لتكرار هذا الوصف الحَسَن».



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلان المنّان (٣/ ٤٤٨).


قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصلٌ:

فأمَّا الأصلان: فأحدهما: أنْ يُقال: القول في بعض الصفات كالقول في بعضٍ.

فإنْ كان المُخاطَب ممن يُقِرُّ بأنَّ اللهَ حَيٌّ بحياةٍ، عليمٌ بعِلْمٍ، قديرٌ بقدرةٍ، سميعٌ بسمعٍ، بصيرٌ ببصرٍ، مُتكلِّمٌ بكلامٍ، مُرِيدٌ بإرادة. ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهيته، فيجعل ذلك مَجازًا، ويُفسِّره إمَّا بالإرادة، وإمَّا ببعض المخلوقات من النِّعَم والعقوبات.

قيل له: لا فَرْقَ بين ما نفيتَه وبين ما أثبتَّه، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإنْ قلتَ: إنَّ إرادته مثل إرادة المخلوقين. فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل.

وإنْ قلتَ: له إرادةٌ تليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به. قيل لكَ: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

وإن قال: الغضب غليانُ دمِ القلب لطلب الانتقام. قيل له: والإرادة مَيْلُ النَّفْسِ إلىٰ جلبِ منفعةٍ أو دفعِ مَضرَّةٍ.

فإن قلتَ: هذه إرادة المخلوق. قيل لك: وهذا غضبُ المخلوق.

وكذلك يُلْزَم بالقول في كلامِه وسَمْعِه وبَصَرِه وعِلْمِه وقدرته، إنْ نفىٰ عن الغضب والمحبة والرضا ونحو ذلك ما هو من خصائص المخلوقين، فهذا مُنْتَفٍ عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات.

وإن قال: إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين فيجب نفيه عنه. قيل له: وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقدرة[١].

الشَّرح

التصديق لأخبار الله ﷻ في كلِّ ما أَخْبَر به إيمانٌ؛ فإنّ الله لا يقول إلا الحق، فالتصديق لأخبار الله وعبودية الله بما توجبها عامٌّ لكلِّ الأخبار التي جاءت في الوحي.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٦٠هـ)[٢]: «إنّ الأخبار قد صَحَّتْ عن رسول الله ﷺ: أنّ الله ﷻ ينزل إلىٰ السماء الدنيا كل ليلة، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، وعِلْم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، فكما قَبِلَ العلماء عنهم ذلك، كذلك قبلوا منهم هذه السُّنن».

فالإيمان بالله هو التصديق لخبره، والانقياد لأمره ونهيه، فالمؤمن اعتقاده يقيني أنّ خَبَرَ اللهِ صِدْقٌ، وأنّ الله أعلم بما يصف به نفسه، وأنه موصوف بصفات الكمال، وليس فيما وصف الله به نفسه في كل صفاته محذورٌ.

فنُصدِّق خبر الله في كل ما أخبرنا من صفاته، فالضَّالُّ يعتقد كمال الله في بعض ما وَصَف به نفسه دون بعضٍ، والمؤمن يُصدِّق اللهَ في كل ما وَصَف به نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]،

---

(١) التدمرية (ص٣١، ٣٢).

(٢) الشريعة (ص٢٧٧).

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

فالتوحيد العلمي هو إثبات كمال الله، وتنزيهه عما لا يليق به من الشريك ومن صفات النقص، وذلك مُستلزِمٌ للتوحيد العملي، وهو قَصْدُه وحده بالعبادة.

فإنّ الإله الحق هو الموصوف بكل صفاته، ليس كمثله شيء في كثرة صفاته وكمال نُعوته.

فإثباتُ كلِّ صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الدَّالُّ علىٰ حقيقة الذات الإلهية، فمَن لمْ يَعْرِفِ الله بأنّه أَحَدٌ صَمَدٌ فقد ضَلَّ، فاللهُ أَحَدٌ ليس له نظير وليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، وهو الصَّمَد الموصوف بكل صفات الكمال التي أخبرنا عنها، وهو المعبود بحقٍّ لتفرُّدِه بالكمال.

ومَن آمَنَ ببعض صفات الله وكَفَر ببعض، فهو كالكُفَّار في الجاهلية حيث آمَنُوا باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ وكَفَرُوا باسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يقول تعالىٰ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: لا فَرْقَ بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن؛ فإنّه ذو الأسماء الحسنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٨).

عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢] إلىٰ أن قال: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] والضمير في ﴿فَلَهُ﴾ لا يَعُودُ إلىٰ أَحَدِ الاسمين، وإنّما يعود إلىٰ المُسَمَّىٰ، وهو ذات الله ﷻ».

فنفيُ صفات الله ﷻ نفيٌ لألوهيته، فهو سبحانه الإله الذي تَأْلهه القلوب محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، وإنّما يألهه الخَلْقُ لصفات كماله سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «"لا إله إلا الله" تضمنت هذه الكلمة إثبات جميع المحامد، وأنّه ليس له فيها نظير؛ إذ هو لا إله إلا هو، والشِّركُ كلُّه إثباتُ نظيرٍ لله ﷻ، ولهذا يُسَبِّح نفسه ويُعاليها عن الشرك في مثل قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢]؛ فإنّ الشرك قولٌ هو وَصْفٌ، وعملٌ هو قَصْدٌ، فنزَّه نفسه عما يصفون بالقول والاعتقاد، وعن أن يُعبد معه غيره.

وأعظم آية في القرآن -آية الكرسي-، أولها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو اسمه المتضمن لجميع المحامد وصفات الكمال،

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٣٥).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٨).

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفيٌ للنُّظراء والأمثال».

وإثبات كل صفات الله ﷻ هو تخصيصه بالكمال الذي لا يشاركه فيه غيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في نُفاةِ بعض الصفات الإلهية[(١)]: «إن هذا لا يُثْبِتُ خصائص الربِّ التي بها يمتاز عن غيره».

فالكمال الذي اختص الله به هو الموجب لإفراده بالعبادة، فلا يُعبد إلا هو، ولا يُخاف ويُرجىٰ ويُدعىٰ سواه، فتوحيد الله هو إفراده بالكمال وإفراده بالعبودية.

قال تعالىٰ: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]: «في أحدهما إثبات المحامد له، وذلك يتضمن جميع صفات الكمال ومَنْع النقائص، وفي الآخر إثبات وحدانيته في ذلك، وأنّه ليس له كُفُوٌ في ذلك.

وقد بيَّنّا في غير هذا الموضع أنّ هذين الأصلين يجمعان جميع أنواع التنزيه، فإثبات المحامد المتضمنة لصفات الكمال تستلزم نَفْيَ النقص، وإثبات وحدانيته وأنّه ليس له كُفُوٌ في ذلك يقتضي أنه لا مثلَ له في شيء من صفات الكمال، فهو منزَّهٌ عن النقائص ومنزَّهٌ أن يماثله شيء في صفات الكمال، كما دلَّ علىٰ هذين الأصلين قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]».

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٥).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٧).

فالموحِّد هو الذي يحمد الله ويُكبِّره تكبيرًا، والحمد هو وَصْفُ المحمود بكل صفات الكمال محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، وتكبير الله هو توحيده عن أن يشاركه غيره في كمالِهِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «وعلىٰ هذا فعِلمُه أكبر من كلِّ علمٍ، وقدرته أكبر من كل قدرة، وهكذا سائر صفاته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]، فشهادته أكبر الشهادات.

فهذه الكلمة تقتضي تفضيله علىٰ كل شيء مما تُوصف به الأشياء من أمور الكمالات التي جعلها هو سبحانه لها.

وأمَّا التهليل فيتضمن تخصيصه بالإلهية، ليس هناك أَحَد يتصف بها حتىٰ يُقال: إنّه أكبر منه فيها، بل لا إله إلا الله. وهذه تضمنت نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له، وتلك تضمنت أنّه أكبر مطلقًا، فهذه تخصيص وهذه تفضيل لِمَا تضمَّنه التسبيح والتحميد من النفي والإثبات؛ فإنّ كل ذلك إما أن يكون مختصًّا به، أو ليس كمثله أَحَدٌ فيه».



(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٧٥).

قال المصنف رحمه الله:

فهذا المُفرِّق بين بعض الصفات وبعض، يُقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمُنازِعه فيما أَثْبَته، فإذا قال المعتزلي: ليس له إرادة ولا كلام قائم به؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات، فإنه يُبيِّن للمعتزلي أن هذه الصفات يتصف بها القديم، ولا تكون كصفات المُحْدَثات. فهكذا يقول له المُثْبِتُون لسائر الصفات من المحبة والرضا ونحو ذلك[1].

الشَّرح

القاعدة في توحيد الله في أسمائه وصفاته واحدة في كل صفات الله، فنُثْبِتها جميعًا بما يليق بكمال الله ﷻ من غير تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين ولا تعطيلٍ لها بنفيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «إنّ القول في بعض صفات الله كالقول في سائرها، وأنّ القول في صفاته كالقول في ذاته، وأنّ مَن أَثْبَت صفةً دون صفةٍ مما جاء به الرسول ﷺ مع مشاركة أحدهما الأخرىٰ فيما به نفاها، كان متناقضًا.

فمَن نفىٰ النزول والاستواء، أو الرضا والغضب، أو العلم والقدرة، أو اسم العليم أو القدير، أو اسم الموجود، فرارًا -بزعمه- من تشبيهٍ وتركيبٍ وتجسيمٍ؛ فإنّه يلزمه فيما أَثْبَته نظير ما أَلْزَمه لغيره فيما نَفَاهُ هو وأَثْبَتَ المُثْبِتُ.

فكلُّ ما يَسْتَدِلُّ به علىٰ نفي النزول والاستواء والرضا والغضب، يُمْكِنُ مُنازِعُهُ أن يستدل بنظيره علىٰ نفي الإرادة، والسمع، والبصر، والقدرة، والعلم.

وكلُّ ما يستدل به علىٰ نفي القدرة والعلم والسمع والبصر، يُمْكِن مُنازِعُه أن

---

(١) التدمرية (ص٣٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٥١).

يستدل بنظيره علىٰ نفي العليم، والقدير، والسميع، والبصير.

وكلُّ ما يستدل به علىٰ نفي هذه الأسماء يُمْكِن مُنازِعُه أن يستدل به علىٰ نفي الموجود والواجب».

والمُعطِّلة نُفاةُ صفات الله ﷻ تَوَهَّمُوا مماثلة صفات الله للمخلوقين فنَفَوْها، فالمعتزلة توهموا ذلك في كل صفات الله، والأشاعرة توهموا ذلك في بعض صفات الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن ظنَّ أنّ أسماء الله تعالىٰ وصفاته إذا كانت حقيقةً لَزِمَ أن يكون مماثلًا للمخلوقين وأنّ صفاته مماثلة لصفاتهم، كان من أجهل الناس، وكان أول كلامه سَفْسَطة، وآخره زَنْدَقَة؛ لأنه يقتضي نَفْيَ جميع أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد».

والله ﷻ مُنزَّه عن مماثلة المخلوقين؛ فإنّه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وصفاته كلها كمالٌ، فليس في إثباتها محذور؛ فإنّ الله هو ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] الذي تَنزَّه عن كل نقصٍ وعيبٍ.

فالله في نفوس الموحدين عظيم ذو الجلال والإكرام، فهو أعلىٰ في نفوسهم أن يماثله مخلوق في نوعٍ من صفاته، كما هو الأعلىٰ في ذاته، فالله هو ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥][(٢)].

والله ﷻ فيما أخبرنا عن نفسه إنّما يصف ذاته الذي تَنزَّه عن المثلِ، والكُفؤِ، والسَّمِيِّ، والنِّدِّ له، فليس فيما وَصَفَ اللهُ به نفسه تمثيلٌ له بمخلوقاته[(٣)].

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢١٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٩).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٢٥).

ومذهب السلف هُدًى بين ضلالتين، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فيثبتون صفات الله من غير تعطيلٍ لها ولا تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين، فهم وسطٌ بين المُعطِّلة والمُمثِّلة.

قال نُعَيْم بن حَمَّاد الخُزاعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن شَبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومَن جَحَد ما وَصَف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وَصَف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يُوصف الله إلا بما وَصَف به نفسه، أو وَصَفَه به رسولُه ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومذهبُ السلف: أنهم يصفون اللهَ بما وصفَ به نفسه، وبما وصفه به رسولهُ: من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل».

وقولُ السلفِ في توحيد أسماء الله وصفاته واحِدٌ، فيثبتون كلَّ ما أَثْبَتَه اللهُ ﷻ لنفسه، فصفات الله ﷻ كلها كمالٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا تأمَّلَ اللَّبِيبُ الفاضل هذه الأمور تَبيَّن له أنّ مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسَّداد، والصحة والاطِّراد، وأنّه مقتضىٰ المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأنّ مَن خالفه كان -مع تناقُضِ قولِه المختلف الذي يُؤفَكُ عنه مَن أُفِكَ- خارجًا عن موجب العقل والسمع، مخالفًا للفطرة والسمع».

(١) الفتوىٰ الحموية (ص١٢٩).
(٢) الفتوىٰ الحموية (ص١٢٩).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

فاعتقادُ سَلَفِ الأُمَّة هو التصديق والإيمان بما أخبر الله به عن نفسه وبما أخبر عنه رسوله ﷺ من غير تحريفٍ لنصوص القرآن والسُّنة، يؤمنون بذلك كله.

وما أَثْبَتَهُ الأشاعرةُ من صفاتٍ إنّما أثبتوه لاعتقادهم عدم مماثلتها لصفات المخلوقين، وما نَفَوْهُ فلخشيتهم من مماثلتها صفات المخلوقين، وكلُّ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسه فإنّه كمالٌ يمتنع عليه مماثلة صفات المخلوقين، فنُثْبِتُ كلَّ ما أثبته الله لنفسه، ولا ننفي صفةً أثبتها الله لنفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنّه إذا قال: النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام؛ فإنه لا يُعقل النزول والاستواء إلا لجسمٍ مُركَّب، واللهُ سبحانه مُنزَّه عن هذه اللوازم، فيلزم تنزيهه عن الملزوم. أو قال: هذه حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب، وكذلك إذا قال: الرضا والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام.

فإنّه يُقال له: وكذلك الإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة: من صفات الأجسام، فإنَّا كما لا نعقل ما ينزل، ويستوي، ويغضب ويرضىٰ إلا جسمًا، لمْ نعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويعلم ويَقْدِر إلا جسمًا.

فإذا قيل: سَمْعُه ليس كسمعنا، وبَصَرُه ليس كبصرنا، وإرادته ليست كإرادتنا، وكذلك عِلْمُه وقدرته.

قيل له: وكذلك رضاه ليس كرضانا، وغضبه ليس كغضبنا، وفرحه ليس كفرحنا، ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٥٢).

قال المصنف رحمه الله:

فإنْ قالَ: تلك الصفات أَثْبَتُّها بالعقل؛ لأن الفعل الحادث دلَّ علىٰ القدرة، والتخصيص دلَّ علىٰ الإرادة، والإحكام دلَّ علىٰ العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك.

قال له سائر أهل الإثبات: لكَ جوابان:

أحدهما: أنْ يُقال: عدم الدليل المُعيَّن لا يستلزم عدم المدلول المعيَّن، فَهَبْ أنَّ ما سلكته من الدليل العقلي لا يُثْبِتُ ذلك فإنه لا ينفيه، وليس لك أن تنفيه بغير دليلٍ؛ لأن النافي عليه الدليل، كما علىٰ المُثْبِتِ. والسمع قد دلَّ عليه، ولَمْ يُعارِضْ ذلك مُعارِضٌ عقليٌّ ولَا سمعيٌّ، فيجب إثبات ما أَثْبَتَهُ الدليلُ السالمُ عن المُعارِضِ المُقاوِمِ[(١)].

الشَّرح

معرفة صفات الله ﷻ مُجْمَلًا دلَّ عليه العقل، أمَّا تفصيل ذلك فمرجعه إلىٰ الدليل السمعي؛ لأنّ أمور الغيب لا يخوض فيها المسلم إلا بتوقيف من الوحي المعصوم؛ القرآن والسُّنة.

والله ﷻ ذاته لا تُماثِلُ ذوات المخلوقين، وصفاته لا تماثل صفات المخلوقين، فلا نَصِفُهُ إلا بما أخبرنا به عن نفسه، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والعقل الصريح يكون شاهدًا علىٰ النقل الصحيح؛ لأنّ العقل شهد بصحة الشرع، وأن عِلْمَهُ بالنسبة إلىٰ علوم الشرع لا شيء، وحينئذٍ نَعْرِفُ أنَّ مَن عارَضَ

(١) التدمرية (ص٣٣، ٣٤).

الشرع بعقله كان عقلُه ضالًّا، وأنّه لو استعان بأفهام العقول الصريحة لتيقَّنَ أنّ الله ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وطريقة أهل السُّنة والجماعة: تكميل عقولهم بنور الوحي، والاهتداء به؛ لذلك هُدوا إلىٰ الحق في كل مسائل العقيدة، وفي توحيد الأسماء والصفات علىٰ وجه الخصوص، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وطريقة الجهمية والمعتزلة وفروعهم: الكلام في صفات الله إثباتًا ونفيًا بمعقولاتٍ ضالَّةٍ.

طريقة الجهمية والمعتزلة أَوْرَثَتهم الحيرة، والضلال، والارتياب في العلوم الضرورية، والتكذيب لأخبار الله ﷻ ورسوله ﷺ، وتيقنوا أنّ السلامة والصواب في اتباع الوحي بتصديق ما أَثْبَتَهُ اللهُ ونَفَاه عن نفسه.

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي المعروف بابن الخطيب: «لقد تأملتُ الطُّرُقَ الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تَرْوِي عَلِيلًا ولا تَشْفِي غَلِيلًا، ورأيتُ أفضل الطرق طريقة القرآن، أَقْرَأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فأثبتُ الاستواءَ، وأقرأُ في النفي: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فأَنْفِي».

وعقول الجهمية وفروعهم ضَلَّت عن الاهتداء إلىٰ علو الله ومباينته لخَلْقِه، وقالوا: «إنّ الله في كل مكان»، ولا يمكن أن نجعل هذه العقول الزائغة معيارًا علىٰ الوحي يُكذَّبُ به ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسه، وما أَثْبَتَهُ لنفسه من صفات.

فإذا قال الجهمي بنفي الصفات؛ لأنّ عَقْلَهُ لم يَدُلَّ عليها.

قلنا: نحن نُصدِّق بما أخبرنا الله به، ونُصحِّح ما ضَلَّ فيه عقلُكَ ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول.

والقرآن فُرقَانٌ يُعرف به ضلالُ مَن ضَلَّ، وهُدَىٰ مَن اهتدىٰ، فمَن خالف القرآن كان من الضالين، ومَن قال به فهو من المهتدين.

وشيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الرسالة (التدمرية) وفي (بيان تلبيس الجهمية) أَظْهَرَ ضلالَ ما في مُعارَضات الجهمية العقلية للوحي المعصوم، ما فيه مُزْدَجَر لكلِّ مخلوق عن الاغترار بزُخْرِفِ الباطل الذي صَدَّ به الجهميةُ الناسَ عن تصديق الوحي.



قال المصنف رحمه الله:

الثاني: أن يُقال: يُمكِنُ إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبتَّ به تلك من العقليات، فيُقال: نَفْعُ العباد بالإحسان إليهم يدلُّ على الرحمة، كدلالة التخصيص على المشيئة، وإكرام الطائعين يدل على محبتهم، وعقاب الكفار يدل على بغضهم، كما قد ثبت بالشاهِد والخبر من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه، والغاياتُ المحمودة في مفعولاته ومأموراته -وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة- تدلُّ على حكمته البالغة كما يدلُّ التخصيص على المشيئة وأَوْلَى؛ لقوة العِلَّة الغائية، ولهذا كان ما في القرآن من بيانِ ما في مخلوقاته من النِّعم والحِكَم، أعظمَ ممَّا في القرآن من بيانِ ما فيها من الدلالة على محض المشيئة[(١)].

الشَّرح

المعطلة عقولهم مبخوسة لمْ تَهْدِهم إلى معرفة كمال الله وصفاته، وهو الذي له في كل شيءٍ آيةٌ تدلُّ على أنّه واحِدٌ.

الجهمية والمعتزلة أَضَلُّ الناسِ عقولًا وأفهامًا؛ حيث نفوا صفات الله كلها، والأشاعرة تَلَوْهُم؛ لَمْ يَعْرِفُوا من صفات الله إلا سبعة أو ثمانية، فمَن كان بهذا الضلال كيف جَعَل عقله حاكمًا على كتاب الله؟!

فالنفاة الجاهلون بكمال الله بما له من الصفات العظيمة أضلُّ الخَلقِ عن أن يَهْدُوا ويدعوا إلى معرفة الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

(١) التدمرية (ص٣٤، ٣٥).

ومَن نفىٰ كل صفات الله ﷻ أو أكثرها، فما أَجْهَلَهُ بالله!

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «للهِ تسعةٌ وتسعون اسمًا، مَن أحصاها دَخَل الجَنَّة»، متفق عليه.

والعلم بالله هو الذي يُحقِّق به المسلم مقامات الإيمان، من الحب والخوف والرجاء، والعبودية لله وحده.

فالعلم بأسماء الله وصفاته سببٌ لتألُّه القلوب لله، وحُبِّه، والخضوع والذل له، والخوف منه، والإنابة إليه، والرجاء له، ودعائه في المُهِمَّات، والتوكل عليه، والاستعانة به، والطمأنينة بذِكْره[1].

تَعرَّفْ إلىٰ الله -أيها المسلم- في خَلْقِه وأَمْرِه؛ فإنّ ذلك يهديك إلىٰ إثبات صفاتٍ عظيمة لله، منها: صفة العلم، والحكمة، والعدل، والرحمة، والإحسان، والفضل، والغِنىٰ، والمِنّة، والمُلك، والربوبية، والحياة، وغيرها.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «إنّ أسماءه كلها حسنىٰ، وهي مشتقة من صفاته، وأفعاله دالَّة عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته ولصفاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود علىٰ كلِّ ما فعَل، وعلىٰ كلِّ ما أَمَر؛ إذ ليس في أفعاله عبثٌ، ولا في أوامره سَفَهٌ. بل أفعاله كلّها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٦٩٥).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٦٩٠).

وأوامره كلها مصلحة تستوجب الحمد والثناء والمحبة عليها.

وكلامه كله صدقٌ وعدلٌ، وجزاؤه كله فضلٌ وعدلٌ؛ فإنه إن أعطىٰ فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقبَ فبعدله وحكمته».

كان النبي ﷺ إذا قام من الليل، تأمَّل في خلقِ الكون، وتَحقَّقَ من كمال ربوبية الله؛ ما جعله يخلص العبادة لله وحده، فكان يتلو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ومَن تأمَّل مقادير الله الكونية وكان له فقهٌ في أمرِ الله ونهيه الشرعي؛ أَوْرَثَهُ ذلك معرفة عموم ربوبية الله سبحانه، وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وتَعلُّقها بمتعلقاتها، واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة علىٰ ربوبيته ومُلكِه وإلهيته، وحبه وبغضه، وثوابه وعقابه[1].

معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته من أسباب توحيده، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فإثبات صفات الكمال لله تنزيهٌ له عن الأنداد، فإنّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] في ذاته وصفاته.

فمَن عَرفَ ربَّه موصوفًا بصفات الكمال تَحقَّقَ بانتفاء كماله عن سواه، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

---

(١) الفوائد (ص١٦١، ١٦٢).

ومَن عَرفَ الله قَيُّومًا، عَلِمَ كمالَ غِناهُ بنفسه عمن سواه، وعَلِمَ أن قيام الخلق جميعًا بإيجاد الله وإمداده لهم، وأوجب له ذلك الافتقار إلىٰ الله وعبوديته وحده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قولهم: مَن عَرفَ نَفْسَه عَرفَ ربَّه؛ فإنّه مَن عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمَسْكَنة والعدم؛ عَرفَ ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قَدْرِها، ولمْ يَتَعدَّ بها طورها، وأثنىٰ علىٰ ربه ببعض ما هو أَهْلُه، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحب شيءٍ إليه وأخوف شيء عنده وأرجاه له، وهذا حقيقة العبودية. واللهُ المستعان».



(١) الفوائد (ص٢٠٢).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإنْ كان المُخاطَبُ ممَّن يُنكِر الصفات، ويُقِرّ بالأسماء؛ كالمعتزلي الذي يقول: إنه حيٌّ عليم قدير، وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة.

قيل له: لا فَرْقَ بين إثبات الأسماء وبين إثبات الصفات، فإنك إن قلتَ: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهًا وتجسيمًا، لأنّا لا نجد في الشاهد متصفًا بالصفات إلا ما هو جسم. قيل لكَ: ولا تجد في الشاهد ما هو مسمىٰ بأنه حي عليم قدير إلا ما هو جسمٌ، فإنْ نفيتَ ما نفيتَ لكونك لم تجده في الشاهد إلا لجسمٍ، فانْفِ الأسماءَ، بل وكلَّ شيء؛ لأنك لا تجده في الشاهد إلا لجسم.

فكلُّ ما يَحْتَجُّ به مَن نَفَىٰ الصفات، يَحْتَجُّ به نافي الأسماء الحسنىٰ، فما كان جوابًا لذلك كان جوابًا لمُثْبِتِي الصفات[1].

الشَّرح

أسماء الله ﷻ أعلامٌ، وأوصافُ أعلامٍ، فأسماؤه مشتقة من أوصافه؛ لأنّه إنما سُمِّي بها لأنه موصوف بحقائقها، هذه حقيقةُ إلِهِ الحق، أمَّا الآلهة الباطلة فما هي إلا أسماء لمُسَمَّياتٍ لا حقيقة لها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لا رَيْبَ أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها، فلم يزل بأسمائه وصفاته، وهو إلهٌ واحد له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ».

---

(١) التدمرية (ص٣٥).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٧).

فمَن نفىٰ صفات الله ﷻ كالمعتزلة فقد شَبَّهَهُ بالمعدوم، وشَبَّهَهُ بالآلهة الباطلة التي لا حقائق لأسمائها، قال تعالىٰ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنما عبدوا المسميات، ولكن من أَجْلِ أنهم نَحَلُوها أسماءَ باطلةً كاللَّات والعُزَّىٰ، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمىٰ لها في الحقيقة؛ فإنّهم سَمّوها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الإلهية إلا مُجرَّد الأسماء لا حقيقةَ المُسمَّىٰ، فما عبدوا إلا أشياءَ لا حقائقَ لمسمياتها».

والله ﷻ موصوف بصفات الكمال، وأسماؤه دالَّة علىٰ أوصافه، فهو الصَّمَدُ الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

فقولُ المعتزلة علىٰ الله غير الحق وزَعْمُهم أن أسماء الله لا تدلُّ علىٰ صفاته، نَفْيٌ لأسماء الله -في الحقيقة-، وهو -في الحقيقة- نفيٌ للذات الإلهية، فلا تُوجد ذات بلا صفاتٍ!

فمَن نَفَىٰ صفات الله تبارك وتعالى فقد أَلْحَدَ في أسمائه؛ لأنّه أبطلَ دلالتها علىٰ معانيها.

فمَن نَفَىٰ صفات الله تبارك وتعالى فقد جعله معدومًا -عافانا الله من الكفر-.

فالاسم يعود إلىٰ المسمىٰ به وهو الله ﷻ، فهو إخبارٌ عن صفته التي دلَّ عليها اسمه.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩).

وهكذا كان اعتقاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخبرون عن معنىٰ اسم الله بصفته التي دلّ عليها اسمه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سبحان مَن وَسعَ سَمْعُه الأصوات!»، فأثبتتْ أنّ الله سميعٌ بسمعٍ.

وإثبات صفات الله ﷻ بيانٌ لحقيقة الذات الإلهية، فصفاته سبحانه قائمة به، وهي صفاتُ كمالٍ، ولا يقتضي ذلك تشبيهًا ولا تجسيمًا فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وصفات الله ﷻ دالَّة علىٰ ربوبيته وألوهيته، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ أنه قال مُحَاجًّا لفرعون الذي نَفَىٰ ألوهية الله وصفاته: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].



قال المصنف رحمه الله:

وإنْ كان المُخاطَبُ من الغُلَاة (نفاة الأسماء والصفات)، وقال: لا أقول: هو موجودٌ، ولا حيٌّ، ولا عليم، ولا قدير، بل هذه الأسماء لمخلوقاته، أو هي مَجازٌ؛ لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم القدير.

قيل له: وكذلك إذا قلتَ: ليس بموجودٍ، ولا حيٍّ، ولا عليمٍ، ولا قدير، كان ذلك تشبيهًا بالمعدومات، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات(١).



الشَّرْح

نَفَىٰ الجهميُّ وجودَ اللهِ؛ فرارًا من تشبيهه بالمخلوقات، بزعمه أنَّ هذا تشبيه له بالمعدومات، وهذا أقبح من التشبيه له بالموجودات.

واللهُ ﷻ هو الأول قبل كل شيء، وهو الحي الذي لا يموت، فضلالُ الجهمي عن خصائص كمالِ الله دالٌّ علىٰ نفيه لألوهية الله وانتقاصه لله، فليس في نفي صفات الله تنزيه له عن النقائص؛ لأنّ صفات الله كلها كمالٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

ونفيُ الجهميِّ كلَّ صفات الله هو الانتقاصُ لله؛ بتشبيهه بالعدم -تَعالَىٰ اللهُ عن نفيهم علوًّا كبيرًا-، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه قال: «أنتَ الأوَّلُ فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بعدك شيء، وأنتَ الظاهِرُ فليس فوقك شيء، وأنتَ الباطِنُ فليس دُونَكَ شيء»، رواه مسلم.

---

(١) التدمرية (ص٣٦).

وليس فيما وَصَف الله به نفسه تشبيهٌ له بخَلْقِه حتىٰ ننفي ذلك؛ فإنَّ الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الرب تعالىٰ مُنزَّهٌ عن أن يُوصف بشيء من خصائص المخلوق، أو أن يكون له مُماثِلٌ في شيء من صفات كماله، وكذلك يمتنع أن يشاركه غيره في شيء من أموره بوجهٍ من الوجوه».

وتسميةُ ما أثبتَ اللهُ لنفسه تشبيهًا، هذا من تلبيس الجهمية الذي أضلوا به خَلْقَ اللهِ عن تصديق أخبار الله فيما وَصَف به نفسه؛ فإنَّ الله ﷻ أخبر عن نفسه بما اختص به من الصفات، وكذلك ما أخبر عنه رسوله ﷺ، وهذا كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فالموحدون آمنوا بالله فيما أخبر عن نفسه، والجهمية والمعتزلة وفروعهم كَفَروا بذلك ولَمْ يُصدِّقُوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الحق هو نفيُ التمثيل ونفي التعطيل، فلا بد من إثبات صفات الكمال المستلزمة نَفْيَ التعطيل، ولا بد من إثبات اختصاصه بما له علىٰ وجهٍ ينفي التمثيل».



(١) الصَّفدية (١/ ١٠٠).
(٢) الصَّفدية (١/ ١٠١).


قال المصنف رحمه الله:

فإنْ قال: أنا أنفي النفي والإثبات.

قيل له: فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من الممتنعات، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودًا معدومًا، أو لا موجودًا ولا معدومًا، ويمتنع أن يُوصف باجتماع الوجود والعدم، والحياة والموت، والعلم والجهل، أو يُوصف بنفي الوجود والعدم، ونفي الحياة والموت، ونفي العلم والجهل[1].

الشَّرْح

التزام التعطيل المحض مُحالٌ، فلا تُوجد ذاتٌ معدومة غير موجودة، ولا يمكن أن يُوصف شيء بالموجود والمعدوم؛ فإن هذا يستلزم ارتفاع النَّقِيضَيْنِ، وهذا مُحالٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «التعطيل المحض فيقول: ما ثَمَّ وجود واجب؛ فإنْ قال: لا أثبتُ واحدًا من النقيضين: لا الوجود ولا العدم.

قيل: هَبْ أنكَ تتكلم بذلك بلسانك، ولا تعتقد بقلبك واحدًا من الأمرين، بل تلتزم الإعراض عن معرفة الله وعبادته وذِكْرِه، فلا تَذْكُرُهُ قطّ، ولا تعبده، ولا تدعوه، ولا ترجوه، ولا تخافه، فيكون جَحْدُكَ له أعظم من جَحْدِ إبليسَ الذي اعترف به.

(١) التدمرية (ص٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٦).

فامتناعُكَ من إثبات أحد النقيضين لا يستلزم رَفْعَ النقيضين في نفس الأمر؛ فإنّ النقيضين لا يمكن رفعهما، بل في نفس الأمر لا بد أن يكون الشيء -أيُّ شيءٍ كان- إما موجودًا وإما معدومًا، إما أن يكون، وإما ألَّا يكون، وليس بين النفي والإثبات واسطة أصلًا».

عَرَّفنا اللهُ بأنّه أَحْسَن إلىٰ خَلْقِه بأنْ خَلَقَهُم علىٰ الفطرة، وأَحْسَن في خَلْقِهم في أحسنِ تقويم، وأرسلَ إلينا رُسُلَه، وأنزلَ كُتُبَه.

عَرَّفنا الله بوحيه وكلامه المُعجِز، الذي دلَّ علىٰ كمال المُتكلِّم به، وهو المعجز في ألفاظه ومعانيه، ليس في استطاعة الإنس والجن كلهم أن يأتوا بمثله، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

عَرَّفنا الله بصفاته التي أخبرنا الله عنها في القرآن؛ فإنّ الله ﷻ وَصَف نفسه وأبلغ في ذلك، فالموحدون مُصدِّقون لربهم، مُكذِّبون للجهمية والمعتزلة وفروعهم.

ومَن نَفَىٰ عن الله صفاته فقد أنكر الحقيقة الإلهية، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، ومَن نَفَىٰ الوجود والعدم عن الله كان جاحدًا لله، وكان فرعونيًّا أغلظَ كُفْرًا من مشركي الجاهلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مع أنه جحد الخالق جلّ جلاله، فلزمه مع الكفر الذي هو أعظم من كُفْرِ عامَّة المشركين؛ فإنهم كانوا يُقرُّون بالصانع مع

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٦٢).

عبادتهم لِمَا سواه، ولزمه مع هذا أنه من أجهلِ بني آدم، وأفسدهم عقلًا ونظرًا، وأشدهم تناقضًا».

مَن نفىٰ صفات الله ﷻ ووَصَفَه بالعدم فهو ضالٌّ عن فِطرته، مَخْبُولٌ في عقله، قال النبي ﷺ: «إنكم لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائبًا».

ولو أَبْصَرَ المُعطِّل في نفسه لعلم أنّ الله خَلَقَهُ، ولاستدلَّ بذلك علىٰ أنّ صفات الله كمالٌ، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فالمُعطِّل مُسَفْسِطٌ، والمُوحِّد عقيدته يقينٌ بوجود الذات الإلهية الموصوفة بصفات الكمال، وهو يرىٰ ربوبية الله لكل شيء، وعَرفَ من صفاته ما استدل بها علىٰ عظمته، فعِلْمُ اللهِ وقدرته وسلطانه محيط بخلقه، وهو في السماء مستوٍ علىٰ عرشه، يجري في خَلْقِه أَمْرُه وقَدَرُه، قيل: لعبد الله بن المبارك: بِمَ نَعْرِف ربَّنا؟ قال: بأنه مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه.



قال المصنف رحمه الله:

فإنْ قلتَ: إنما يمتنع نفي النقيضين عما يكون قابلًا لهما، وهذان يتقابلان تَقابُلَ العدم والمَلَكَة، لا تَقابُلَ السَّلْب والإيجاب، فإنَّ الجدار لا يُقال له: أعمىٰ ولا بصير، ولا حي ولا ميت؛ إذ ليس بقابِلٍ لهما.

قيل لكَ: أولًا: هذا لا يصح في الوجود والعدم، فإنهما متقابلان تَقابُلَ السَّلب والإيجاب، باتفاق العقلاء، فيلزم من رفعِ أحدهما ثبوت الآخر[(١)].

الشَّرح

الفلاسفة ومَن قال بمنطقهم من المعطلة كَثُرَتْ سَفْسَطَتُهم في ردِّ الحق بمعقولاتٍ ضالَّةٍ، حيث دفعوا الشناعة عن أنفسهم حين أُنْكِرَ عليهم سَلْبُ النقيضين، حيث نفوا أن يكون الله حيًّا عليمًا قديرًا، وأَنْكَرُوا أن يكون الله موصوفًا بما يُقابِلُ ذلك من الموت والجهل والعجز، وقالوا: إنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فيما يكون قابلًا لذلك، كسَلْبِ العلم والسمع والبصر عن الحيوان، أمَّا سَلْبُ ذلك عن الجماد فإنه جائزٌ؛ لأن الجماد لا يقبل أنْ يُوصف بذلك، وهذه سَفْسَطَةٌ ومُغالَطةٌ باطلة؛ فإنَّ الجماد قابِلٌ للاتصاف بضد الحياة والقدرة والعلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن لم يكن قابلًا لذلك كان ذلك أعظم في النقص من كونه قابلًا لذلك غير مُتَّصفٍ به؛ فإن الجماد أنقصُ من الحيوان

(١) التدمرية (ص٣٧).
(٢) الصَّفدية (١/ ٩٠).

الأعمىٰ، وإذا كان اتصافه بكونه أعمىٰ أصمَّ أَبْكَمَ مُمْتَنِعًا، مع كون المتصف بذلك أكملَ ممَّن لا يَقْبَلُ الاتصاف بهذا وبضده، عُلِمَ أن كونه غير قابل للاتصاف بذلك أعظم في نقصه.

وإذا كان ذلك ممتنعًا فهذا أعظم امتناعًا، فامتنعَ أنْ يُقال: إنه غيرُ قابلٍ للاتصاف بصفات الكمال، وإذا كان قابلًا للاتصاف بذلك تقابَلَا تقابُلَ العدم والملكة باصطلاحهم؛ فإنْ لمْ يتصف بالحياة والعلم والقدرة لزم اتصافه بالموت والعجز والجهل، وهذا مُمْتَنِعٌ بالضرورة، فنقيضُه حقٌّ».

والمسلم لا يُكذِّبُ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسه من صفاته لاصطلاحات الفلاسفة والجهمية والمعتزلة الحادثة.



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأمَّا ما ذَكَرْتَهُ من الحياة والموت، والعلم والجهل، فهذا اصطلاحٌ اصطلحتْ عليه المُتَفَلْسِفَةُ المَشَّاءُون، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلًا علىٰ نفي الحقائق العقلية، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فسَمَّىٰ الجمادَ مَيِّتًا، وهذا مشهور في لغة العرب وغيرهم[1].

الشَّرح

الإعراض عن اتباع القرآن والسُّنة إلىٰ تلقي العقيدة بفلسفة المتكلمين من أسباب الإلحاد، فاحذر -أيها المسلم- من تلقي عقيدتك من ملاحدةٍ لَمْ يَعْرِفُوا ربَّهم، ولَمْ يُؤمِنُوا به، وحقيقةُ إلحادهم خيالات كاذبة وأوهام ضالة صاغوها في قواعدَ عقليةٍ خاطئة؛ لِيَرُدُّوا بها ما أخبر الله به عن نفسه.

ولا يُوجد مسمىٰ ليس بموصوف بالحياة أو الموت، فالمغالطة في العلوم الضرورية والبديهيات سفسطةٌ لَمْ تُثْمِرْ إلا تكذيب الوحي، والكفر بالله بنفي صفاته.

فالله ﷻ أخبرنا أنّه حيٌّ عليم قيوم قدير سميع بصير، فلا نُكذِّب ما أخبرنا الله عن نفسه لاصطلاحاتِ الفلاسفة وأتباعهم من المعتزلة، فالله ﷻ ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فالاصطلاح اللفظي إذا كانت نتيجته باطلة دلَّ ذلك علىٰ أنه اصطلاحٌ باطلٌ، فالحق فيما قاله الله ﷻ، وفيما أخبر الله به عن نفسه، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

(١) التدمرية (ص٣٧، ٣٨).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقيل لك: ثانيًا: فما لا يَقْبَلُ الاتصاف بالحياة والموت والعَمَىٰ والبصر، ونحو ذلك من المتقابلات أنقصُ ممَّا يَقْبَلُ ذلك، فالأعمىٰ الذي يقبل الاتصاف بالبصر أكمل من الجماد الذي لا يقبل واحدًا منهما.

فأنتَ فررتَ من تشبيهه بالحيوانات القابلة لصفات الكمال، ووصفته بصفات الجمادات التي لا تَقْبَلُ ذلك(١).


الشَّرْح

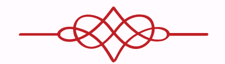
الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن وَصَف نفسه بصفات الكمال، ونزّه نفسه عن صفات النقص.

وسفسطة الفلاسفة والمعتزلة وقَرْمَطَتُهم في نفي صفات الله، سَفَهٌ في العقول؛ حيث أنكروا أن يكون الله موصوفًا بصفات الكمال مُنزَّهًا عن صفات النقص، وجعلوه عدمًا، بل مُحالًا مُمْتَنِعًا أن يُوصف بالكمال أو بضده من النقص، فمَن أخذ بهذا الهَذَيان المُحال فقد تَبدَّل الكُفْرَ بالإيمان حيث كذّب الوحي وآمَن بالمُحالِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنّ خلوَّ الموصوف عن الضدين اللذين لا ثالث لهما مع قبوله لهما، مُمْتَنِعٌ في العقول؛ وبهذا يتبين أنّ الحي القابل للسمع والبصر والكلام إما أن يتصف بذلك، وإما أن يتصف بضده وهو الصَّمَمُ والبَكَمُ والخَرَسُ، ومَن قدَّر خُلُوَّهُ عنهما فهو مُشابِهٌ للقَرامِطَة اللذين قالوا: لا يُوصف بأنه حي ولا ميت، ولا عالِم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز».

(١) التدمرية (ص٣٨).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٥١٣، ٥١٤).

فالاعتقاد الصحيح لا يتأسس بمعقولاتٍ خاطئة ضالة، فاحذر -أيها المسلم- أن تُكذِّب الله فيما أخبر به عن نفسه، وأن تجعل قواعد الضلالة سببًا في كفرك وإلحادك.



قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأيضًا فما لا يَقبَلُ الوجود والعدم أعظم امتناعًا من القابل للوجود والعدم، بل ومن اجتماع الوجود والعدم، ونفيهما جميعًا، فما نفيتَ عنه قبول الوجود والعدم كان أعظم امتناعًا مما نفيتَ عنه الوجود والعدم.

وإذا كان هذا ممتنعًا في صرائح العقول فذلك أعظم امتناعًا، فجعلتَ الوجود الواجب الذي لا يَقبَلُ العدمَ هو أعظم الممتنعات. وهذا غايةُ التناقض والفساد[1].

الشَّرح

اللهُ ﷻ يمتنع عليه العدمُ، فهو الأول قبل كل شيء، وهو الذي أوجد كل شيء، وهو الذي يُفنِي كلَّ شيءٍ مما لَمْ يُكتب له البقاء، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وضلالُ المعطلة جعلهم ينكرون أعظم صفات الحي العظيم، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وسفسطة المعطلة جعلتهم يقولون بما تمتنع حقيقتُه، وهو نفيُ الوجود والعدم عن الذوات، فلا تُوجد ذاتٌ ليست موجودةً ولا معدومة.

فحقيقة قول المعطلة نفي الذات الإلهية، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، والعدم المحض ليس فيه كمالٌ، واللهُ ﷻ موصوف بصفات الكمال مُنزَّه عن النقص والمثال.

---

(١) التدمرية (ص٣٨).

وطريقة الحُنَفاء في نفي الأمثال والأنداد عن الله، بيانُ كمالِ صفاتِ الله ﷻ وانتفائها عمَّن ليس إلهًا، قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].




قال المصنف رحمه الله:

وهؤلاء الباطنية:

منهم مَن يُصرِّح برفع النقيضين: الوجود والعدم. ورفعهما كجمعهما.

ومنهم مَن يقول: لا أُثْبِتُ واحدًا منهما، وامتناعه عن إثبات أحدهما في نفس الأمر لا يمنع تَحقُّقَ واحِدٍ منهما في نفس الأمر، وإنما هو كجهل الجاهل، وسكوت الساكت، الذي لا يعبر عن الحقائق(١).

الشَّرح

رَفْعُ النقيضين كالوجود والعدم هذا مُمْتَنِعٌ، وتَعالُمُ المعطلة بالجدال بما يمتنع لا ينفي وجود الله واتصافه بصفات الكمال، فالله ﷻ وجوده واتصافه بصفات الكمال الثبوتية وتنزيهه عن صفات النقص، لا ينفيه في الحقيقة جِدالُ المُلحِد في ذلك بغير علمٍ ولا هُدًى مُنِير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «إنّ صفات الكمال أمورٌ وُجودية، أو أمور سلبية مستلزمة لأمور وجودية، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفيُ السِّنَة والنوم استلزم كمالَ صفةِ الحياة والقيومية.

(١) التدمرية (ص٣٨، ٣٩).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٥٣٤).

وكذلك قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] استلزم ثبوت العدل، وقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣] استلزم كمال العلم. ونظائر ذلك كثيرة، وأما العدم المحض فلا كمال فيه».

فالله ﷻ أخبرنا عن نفسه بما هو وَصْفٌ له، لا بما هو يُماثِلُ صفات المخلوقين، ولا هو بما لا يُوصَف ويمتنع أنْ يُوصَف به.

وصفاتُ الله كلها كمالٌ، فإثباتها ثناءٌ علىٰ الله، لا مَحْذُورَ فيه.



قال المصنف رحمه الله:

وإذا كان ما لا يَقْبَلُ الوجود ولا العدم أعظم امتناعًا ممّا يُقدَّر قبوله لهما -مع نفيهما عنه- فما يُقدَّر لا يقبل الحياة ولا الموت، ولا العلم ولا الجهل، ولا القدرة ولا العجز، ولا الكلام ولا الخَرَس، ولا العمىٰ ولا البصر، ولا السمع ولا الصَّمَم، أقرب إلىٰ المعدوم والممتنع مما يُقدَّر قابلًا لهما مع نفيهما عنه؛ وحينئذٍ فنفيهما مع كونه قابلًا لهما أقرب إلىٰ الوجود والمُمْكِن، وما جاز لواجب الوجود قابلًا، وجب له، لعدم توقُّفِ صفاته علىٰ غيره، فإذا جاز القبول وجب، وإذا جاز وجود المقبول وجب.

وقد بُسط هذا في موضعٍ آخَرَ، وبُيِّن وجوب اتصافه بصفات الكمال التي لا نَقْصَ فيها بوجه من الوجوه[١].

الشَّرح

مَن تأمَّل معنىٰ ما يجادل به المعطلة في نفي صفات الله ﷻ، وَجَدَه هدمًا بلا بِناءٍ، وخيالًا بلا حقيقة، وضلالة بلا هُدًىٰ، فغاية ما تنتهي إليه قواعدهم العقلية الخاطئة نفيُ وجود الله، وتشبيهه بالمعدوم، ونفيُ أن يكون الله موصوفًا بصفات الكمال مُنزَّهًا عن صفات النقص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مِنَ المُستقِرِّ في العقول: أنّ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبصِر ولا يتكلم، ناقِصٌ عن صفات الكمال؛ لأنّه لا يَسْمَعُ كلامَ أَحَدٍ، ولا يبصر أحدًا، ولا يأمر بأمر، ولا ينهىٰ عن شيء، ولا يُخْبِر بشيء؛ فإن لم يكن كالحي

---

(١) التدمرية (ص٣٩).

(٢) شرح الأصبهانية (ص٥٣٦).

الأعمىٰ الأصم كان بمنزلةِ مَا هو شَرٌّ منه، وهو الجماد الذي ليس فيه قبول أن يسمع ويبصر ويتكلم.

ونفيُ قبول هذه الصفات أَبْلَغُ في النقص والعجز، وأَقْرَبُ إلىٰ اتصاف المعدوم ممن يَقْبلها واتصف بأضدادها؛ إذ الإنسان الأعمىٰ أكملُ منَ الحَجَر، والإنسان الأبكم أكمل من التراب، ونحو ذلك مما لا يُوصف بشيء من هذه الصفات.

وإذا كان نفيُ هذه الصفات معلومًا بالفطرة أنه من أعظم النقائص والعُيوب، وأقرب شبهًا بالمعدوم، كان من المعلوم بالفطرة أن الخالق أبعد عن هذه النقائص والعيوب من كل ما ينفىٰ عنه، وأن اتصافه بهذه العيوب من أعظم الممتنعات».



قال المصنف رحمه الله:

وقيل له أيضًا: اتفاق المُسَمَّيَيْنِ في بعض الأسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل، الذي نَفَتْهُ الأدلة السمعيات والعقليات، وإنما نَفَتْ ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق، مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه، فلا يجوز أن يَشركه فيه مخلوقٌ، ولا يُشركه مخلوقٌ في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى[(١)].

الشَّرح

هناك فَرْقٌ بين صفات الله وصفات المخلوقين، ومعرفة هذا من أسباب تصديق ما أخبر الله عن نفسه من أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ؛ فإنَّ الذي أَوْقَعَ المعطلة في تكذيب وتحريف ما أخبر الله عن نفسه من صفاتٍ، تَوَهُّمهم أنها تقتضي مماثلة صفات المخلوقين.

وبالإضافة: تَعْرِف الفَرْق ما بين صفات المخلوقين أنفسهم، وبالإضافة أيضًا تَعْرِف فَرْقَ ما بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، فتقول: يد الباب، ويد الشاة، ويد البعير، ويد الإنسان، ويد الله عز وجل، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فالإضافة: هي التي تُبيِّن الفَرْق ما بين صفات المخلوقين أنفسهم في ذواتهم، وتُبيِّن أيضًا الفَرْق ما بين صفات الله عز وجل وصفات المخلوقين.

ومَن عَرفَ اللهَ أَحَدًا صَمَدًا لم يتوهم مماثلة صفات الله عز وجل لخَلْقِه، وتَيقَّن أن صفات الله عز وجل كمالٌ لا يماثله فيه غيره.

---

(١) التدمرية (ص٣٩، ٤٠).

أما المعطلة النفاة فتوهموا مماثلة صفات الله لصفات المخلوقين فنَفَوْهَا، وكَذَّبُوا الوحي، ومَن لَمْ يَعْرِفِ الفَرْقَ ما بين العظيم والناقص، وكَذَّبَ بالوحي، واجِبٌ عليه أن يرجع عن ضلالِهِ، وأنْ يَكُفَّ عن إضلال الخلق بضلال اعتقاده.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو ﴿ٱلْمَثَلُ﴾ في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ فإنه سبحانه لا يماثله شيء أصلًا، فنَفْسُه المُقدَّسَة لا يماثلها شيء من الموجودات، وصفاتها لا يماثلها شيء من الصفات».

فالله ﷻ موصوف بصفات الكمال، فهو العظيم، فبِبَدَهِيَّةُ العقل وصحيح الفطرة نَعْرِفُ فَرْقَ ما بين الخالق والمخلوق، ونَعْلَمُ أنَّ صفات الله بَلَغَتْ في الكمال غايته.



(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٥٠).


قال المصنف رَحِمَهُ الله:

وأمَّا ما نفيتَه فهو ثابت بالشرع والعقل، وتسميتك ذلك تشبيهًا وتجسيمًا تَمْوِيهٌ على الجُهَّال، الذين يظنون أن كل معنىً سَمَّاه مُسَمٍّ بهذا الاسم يجب نفيه.

ولو ساغ هذا لكان كلُّ مُبطِلٍ يُسمِّي الحقَّ بأسماءَ يَنْفُر عنها بعض الناس، ليُكذِّب الناس بالحق المعلوم بالسمع والعقل.

وبهذه الطريقة أَفْسَدتِ المَلاحِدَةُ علىٰ طوائف من الناس عقولَهُم ودِينَهُم، حتىٰ أخرجوهم إلىٰ أعظم الكفر والجهالة، وأبلغ الغَيِّ والضلالة[1].


الشَّرْح

من طرائق الكافرين والمبتدعين: الشَّناعَة علىٰ الحق؛ لتنفير الناس عنه، فقد قال الكافرون عن محمد رسول الله ﷺ: «ساحِر»، و«مجنون»، ووَرِثَ المبتدعة هذا المنهج عن الكافرين وقالوا لمَن آمَنَ وصَدَّق بخبر الله ﷻ ورسوله ﷺ عن أسمائه وصفاته: «مُشَبِّه»، و«مُجَسِّم».

قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللهُ[2]: «المعطلة النافية: الذين ينكرون صفات الله ﷻ التي وَصَف بها نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، ويُكذِّبون بالأخبار الصِّحاح التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الصفات، ويتأولونها بآرائهم المنكوسة علىٰ موافقة ما اعتقدوا من الضلالة، وينسبون رُواتها إلىٰ التشبيه.

(١) التدمرية (ص٤٠).
(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٧).

فمَن نَسَبَ الواصفين ربهم ﷻ بما وَصَف به نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ من غير تمثيلٍ ولا تشبيه، إلىٰ التشبيه فهو مُعطِّلٌ نَافٍ، ويُستدل عليهم بنسبتهم إياهم إلىٰ التشبيه أنهم مُعطِّلة نافية، كذلك أهل العلم يقولون، منهم: عبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1]: «إن الجهمية والمعتزلة إلىٰ اليوم يُسَمُّون مَن أَثْبَتَ شيئًا من الصفات مُشبِّهًا -كذبًا منهم وافتراءً- حتىٰ إن منهم مَن غَلا ورَمَىٰ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتىٰ قال ثمامة بن الأشرس -من رؤساء الجهمية-: ثلاثةٌ من الأنبياء مُشبِّهة!:

- موسىٰ، حيث قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

- وعيسىٰ، حيث قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

- ومحمد ﷺ، حيث قال: «ينزل ربنا».

وحتىٰ إنَّ جُلَّ المعتزلة تُدْخِلُ عامَّةَ الأئمة، مثل: مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهوية، وأبي عبيد وغيرهم، في قِسْمِ المُشبِّهة».

وهذا من سُنَّة الله في خَلْقِه، أنه جعل للحق أعداء يضادونه ويَصُدُّون عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١].

قال أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١٠).

وقال أحمد بن الحسن الترمذي للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، ذَكَرُوا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: قوم سوء، فقام أحمد بن حنبل وهو ينفض ثوبه ويقول: «زنديق! زنديق! زنديق».

قال العلَّامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)[(١)]: «علامات البدع علىٰ أهلها ظاهرة بادِيَة، وأَظْهَرُ آياتهم وعلاماتهم: شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ، واحتقارهم لهم، وتسميتهم إيَّاهم حشويةً، وجهلةً، وظاهريةً، ومُشبِّهةً، اعتقادًا منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ممَّا يُلْقِيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهَواجِس قلوبهم الخالية عن الخير، وحُجَجهم العاطلة، بل شُبَهِهم الدَّاحِضَة الباطلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]».



(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص٢٩٩).

قال المصنف رحمه الله:

وهذا يَتبيَّن بالأصل الثاني: وهو أنْ يُقال: القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذاتٌ حقيقة لا تماثل الذَّوات، فالذات متصفة بصفاتٍ حقيقةً لا تماثل صفات سائر الذوات[1].



الشَّرْح

ذاتُ اللهِ ﷻ لا يماثلها شيء، وهذا مما يعتقده كافة المسلمين، ويجب أن يكون اعتقادهم كذلك في صفاته؛ فإنها لا تماثل صفات المخلوقين.

واستحضار ذلك من أسباب تصديق المسلم وإيمانه بصفات الله التي أخبرنا بها، فلا يُكذِّب بها ولا يُحرِّفها ولا يعتقد فيها مماثلة المخلوقين.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦].

قال العلَّامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)[2]: «إن صفات الله سبحانه لا تُشْبِه صفات الخَلْق، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق، تعالىٰ الله عما يقول المشبهة والمعطلة علوًّا كبيرًا».

فالقول في الصفات كالقول في الذات، مِنْ جُمَلِ الاعتقاد التي شَرَحَها علماء السلف، ليكون إثبات المسلمين لصفات ربهم إثباتًا من غير تمثيلٍ بصفات المخلوقين ولا تعطيل لها.

(١) التدمرية (ص٤٣).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص٢٣٢).

قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «فإنْ قال لنا قائل: فما الصواب من القول في معاني هذه الصفات التي ذكرت، وجاء ببعضها كتاب الله ﷻ ووَحْيُه، وجاء ببعضها رسول الله ﷺ؟

قيل: الصواب من هذا القول عندنا: أنْ نُثْبِتَ حقائقها علىٰ ما نَعْرِف من جهة الإثبات ونفي التشبيه، كما نَفَىٰ ذلك عن نفسه جلَّ ثناؤه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فيُقال: الله سميع بصير، له سمعٌ وبصرٌ؛ إذ لا يُعقل مُسَمًّىٰ سميعًا بصيرًا في لغةٍ ولا عقلٍ في النشوء والعادة والمتعارف إلا مَن له سمعٌ وبصرٌ.

كما قلنا آنفًا: إنه لا يُعرف مقولٌ فيه: «إنه» إلا مثبتٌ موجود، فقلنا ومخالفونا فيه: «إنه» معناه الإثبات علىٰ ما يعقل من معنىٰ الإثبات لا علىٰ النفي، وكذلك سائر الأسماء والمعاني».

فاعتقاد الموحدين في الدنيا بأن الله لا مِثْلَ ولا شَبَهَ ولا نِدَّ ولا كُفُؤَ له، وإفراده لذلك بالعبودية وحده هو سببُ دخولهم الجنة، وبه يَعْرِفُون ربهم إذا كَشَفَ الحِجاب وأَذِنَ لهم في رؤيته.

قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مُثِّل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا ويبقىٰ أهل التوحيد، فيُقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس؟

فيقولون: إنَّ لنا ربًّا كنا نعبده في الدنيا لَمْ نَرَهُ.

(١) التبصير في معالم الدين (ص١٤٠، ١٤١).

قال: وتَعْرِفُونه إذا رأيتموه؟

فيقولون: نعم.

فيُقَال لهم: كيف تَعْرِفُونه، ولَمْ تَرَوْهُ؟

فيقولون: إنه لا شِبْهَ له.

فيكشف لهم عن الحجاب، فينظرون إلى الله ﷻ، فيَخِرُّون له سُجَّدًا، ويبقى أقوامٌ في ظهورهم مثل صَيَاصِي البقر، فيريدون السجود فلا يستطيعون»، رواه أحمد والدارمي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن الله إنما أَثْبَتَ له صفات مضافة إليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، و﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، كما قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومعلوم أن نفس الله التي هي ذاته المقدسة الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نَفْسِ أَحَدٍ من المخلوقين».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «نَفْسُ الله هي ذاته سبحانه الموصوفة بصفاته سبحانه، وذلك لأنه بإضافته إليه قَطَعَ المُشارَكة، فكذلك لمَّا أضاف إليه عِلْمَهُ وقوته ووجهه

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٣٠٨).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٣٠٨).

ويديه، وغير ذلك، قَطَعَ بإضافته إليه المُشارَكةَ، فامتنع أن شيئًا من ذلك من جنسِ صفات المخلوقين، كما امتنع أن تكون ذاتُهُ من جنسِ ذَوَات المخلوقين».

وربنا ﷻ صفاته كمالٌ، فما من اسم من أسمائه إلا وهو دالٌّ علىٰ غاية الحُسْن، وما من صفة من صفاته إلا وهي دالَّةٌ علىٰ كمالِ نُعوته، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وذاتُه وصفاته لا تُماثِل صفات وذوات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كمالُ كلِّ شيء بحسب ما يمكن وجوده له، والمخلوق لا يمكن أن يكون قديمًا واجبًا بنفسه ربًّا غنيًّا عمَّا سواه، إلىٰ غير ذلك من خصائص الرب.

فهذا الكمال اختص به الرب كما اختص الرب ﷻ من الكمال الذي يُوصف العبد بما يتفق فيه الاسم، كالحياة والعلم والقدرة، بما لا يماثله فيه المخلوق، فالربُّ مُختَصٌّ إمَّا بنوعٍ لا يُوصف به غيره، مثل: كونه رب العالمين ونحو ذلك، وإمَّا بما لا يماثله فيه غيره، كالحياة والعلم».

فالمسلم لا يرتاب أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، لا في ذاته، ولا في صفاته؛ فإنه سبحانه أَحَدٌ صَمَدٌ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فوَصْفُ اللهِ بما وَصَفَ به نفسه كمالٌ؛ فإنه ليس له سَمِيٌّ، فإثباتُ ما وَصَفَ الله به نفسه لا يستلزم تمثيلًا له بخلقه.

---

(١) الصفدية (٢/ ٣٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فيما أَخْبَرَ به عن نفسه -سبحانه- من تنزيهه عن الكفؤ، والسَّمِيِّ، والمِثْلِ، والنِّدِّ، وضَرْب الأمثال له، بيانٌ أن لا مِثْلَ له في صفاته، ولا أفعاله؛ فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات؛ فإن الذاتين المختلفتين يمتنع تماثُلُ صفاتهما وأفعالهما؛ إذ تماثُلُ الصفات والأفعال يستلزم تماثُلَ الذوات؛ فإن الصفة تابعة للموصوف بها، والفعل أيضًا تابع للفاعل، بل هو مما يُوصف به الفاعل، فإذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين، حتىٰ إنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين، كالإنسانين كانا من نوعٍ واحد، فتختلف مقاديرهما وصفاتهما بحسب اختلاف ذاتيهما، ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك».

فالله عَزَّوَجَلَّ لكمال أسمائه وصفاته وكمال ربوبيته وألوهيته، مُبايِنٌ لخلقه، لا يماثله شيء في ذاته ولا في صفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «من معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، وهو الذي يفتقر إليه كلُّ شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».



(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٢٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥١٥).


قال المصنف رحمه الله:

فإذا قال السائل: كيف استوىٰ علىٰ العرش؟

قيل له -كما قال ربيعة ومالك وغيرهما-: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤالٌ عمّا لا يَعْلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه[1].

الشَّرْح

أخبرنا الله تعالىٰ أنه استوىٰ علىٰ العرش، أي: عَلا وارتفع عليه، فقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والعرش: هو سريرُ المَلِك، وعرشُ الله عظيم لا يَقْدِرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ، فإنه فوق السماوات وهو سقفُ الجنة.

وربنا ﷻ تَمدَّح نفسه بأنه رب العرش، فقال سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

قال علي بن الحسن بن شقيق: سألتُ ابن المبارك كيف نَعْرِفُ ربنا؟ قال: علىٰ السماء السابعة علىٰ عرشه، لا نقول -كما تقول الجهمية-: إنه ههنا في الأرض[2].

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي الشهير بابن أبي زمنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٩٩هـ)[3]: «من قول أهل السُّنة: أن الله ﷻ خَلَق العرش واختصه بالعلو

---

(١) التدمرية (ص٤٣، ٤٤).
(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤٢٩).
(٣) أصول السنة (ص٨٨).

والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوىٰ عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٥، ٦]، وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]».

وقال الحافظ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)[١]: «يعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله سبحانه فوق سبع سمواته، علىٰ عرشه مُسْتوٍ، كما نطق به كتابه في قوله جَلَّ وَعَلَا في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقوله في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، وقوله في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]».

ووردتِ السُّنَّة بمعنىٰ ما في القرآن، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لمَّا قضىٰ الله جَلَّ وَعَلَا الخلق كتب كتابًا -فهو عنده فوق العرش-: إنَّ رحمتي غلبت غضبي».

وروىٰ البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه وَسَطُ الجنة، وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٧٥، ١٧٦).

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٦٠هـ)[(١)]: «إن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه فوق سماواته، وقد أحاط عِلْمُه بكل شيء».

وقال أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان رحمهما الله[(٢)]: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار -حجازًا، وعراقًا، وشامًا، ويَمَنًا- فكان من مذهبهم: أن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه بائِنٌ من خلقه، كما وصف نفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلا كيفٍ، أحاط بكل شيء علمًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

وقال شيخُ الحافظِ ابنِ عبد البَر؛ الإمامُ أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أَجْمَعَ أهلُ السُّنة علىٰ أن الله تعالىٰ علىٰ عرشه، علىٰ الحقيقة لا المَجاز».

وقال العلَّامة أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عقيدة السلف[(٤)]: «يثبتون من ذلك ما أثبته الله تعالىٰ، ويؤمنون به، ويُصدِّقون الرب جل جلاله في خبره، ويطلقون ما أطلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من استوائه علىٰ عرشه، ويُمِرُّونه علىٰ ظاهره، ويَكِلُون عِلْمَهُ إلىٰ الله، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]،كما أخبر الله تعالىٰ عن الراسخين في العلم أنهم يقولون ذلك، ورَضِيَهُ منهم، فأثنىٰ عليهم به».

فإثبات استواء الله علىٰ عرشه وعلوه عليه، إجماعٌ تَوَارَثَهُ المسلمون عن الصحابة والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

---

(١) الشريعة (ص٢٦٨).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٨).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٠٠).
(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٧٦).

قال العلَّامة أبو عبد الله ابن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين، وجميع أهل القِبلة من المؤمنين: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ عرشه، فوق سماواته، بائنٌ من خلقه، وعِلْمه محيطٌ بجميع خلقه».

وكما أن عقيدة السلف باتفاقٍ: إثباتُ علوِّ الله، واستواؤه علىٰ عرشه؛ فإن هذا مما اتفق عليه أهل المِلَل جميعًا.

قال سعيد بن عامر الضبعي أبو محمد البصري رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الجهمية شرٌّ قولًا من اليهود والنصارىٰ، قد اجتمعت اليهود والنصارىٰ وأهل الأديان: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ العرش، وقالوا هم: ليس علىٰ العرش شيءٌ».

فإنكار العرش، وإنكار استواء الله علىٰ العرش تكذيبٌ للقرآن، ولَا حَظَّ في الإسلام لمَن كَذَّب بالقرآن.

قال أبو عبد الله ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «جاءت الأخبار وصحيح الآثار من جهة النقل عن أهل العدالة وأئمة المسلمين عن المصطفىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذِكْرِ العرش، ما لا يُنْكِرُه إلا المَلاحدة الضالة».

وقال شيخ البخاري محمد بن يوسف بن واقد الفريابي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «مَن قال: إن الله ليس علىٰ عرشه فهو كافر، ومَن زَعَم أن الله لَمْ يُكلِّم موسىٰ فهو كافر».

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤١٥).
(٢) خلق أفعال العباد (٢/ ١٧- رقم ١٨).
(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤٣٦).
(٤) خلق أفعال العباد (٢/ ٣٩- رقم ٦٧).

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن لمْ يُؤْمِنْ بأن الله فوق سماواته، علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه، وجبَ أنْ يُستتاب؛ فإنْ تاب وإلا ضُربتْ عنقُه»، رواه الحاكم عنه في علوم الحديث.

وعقيدة الإمام مالك في صفة استواء الله علىٰ عرشه هي قاعدة أهل السنة كافة في توحيد الله في أسمائه وصفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «سَلَفُ الأُمَّة وأئمتها متفقون علىٰ الإثبات، رادُّونَ علىٰ الواقفة والنُّفاة، مثل ما رواه البيهقي وغيره عن الأوزاعي قال: كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته».

وقال العلَّامة عثمان الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «صَدَق مالِكٌ، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء».

والتابعون الذين تلقوا معاني القرآن من الصحابة كمجاهد وأبي العالية فَسَّروا الاستواء بالعلو، نَقَلَهُ عنهم البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، فمَن فَسَّر الاستواء بما يخالف قول السلف فقد ضَلَّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن معنىٰ الاستواء معلوم علمًا ظاهرًا بين الصحابة والتابعين وتابعيهم، فيكون التفسير المُحْدَثُ بَعْدَهُ باطِلًا قطعًا».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٨٣).
(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٣٣).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٤٨).

وقال العلَّامة أبو نصر السجزي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أئمتنا -كسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية- متفقون علىٰ أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وأنَّ عِلْمَهُ بكل مكان، وأنه يُرىٰ يوم القيامة بالأبصار فوق العرش، وأنه ينزل إلىٰ سماء الدنيا، وأنه يغضب ويرضىٰ، ويتكلم بما شاء، فمَن خالف شيئًا من ذلك فهو منهم بَرِيءٌ، وهم منه بَرَاء».

ومَن تلقىٰ دِينَهُ عن سلفِ الأُمَّة وَافَقَ الحقَّ، ومَن لزمَ إجماعهم كان من المهتدين، ومخالفهم مُفارِقٌ للجماعة من الضالين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «روىٰ أبو بكر البيهقي في (الأسماء والصفات) بإسنادٍ صحيحٍ عن الأوزاعي قال: كُنَّا -والتابعون متوافرون-: نقول: إنَّ الله -تعالىٰ ذِكْرُه- فوق عرشه ونؤمن بما وردت فيه السُّنة من صفاته.

وقد حكىٰ الأوزاعي -وهو أَحَدُ «الأئمة الأربعة» في عصر تابع التابعين: الذين هم «مالك» إمام أهل الحجاز، و«الأوزاعي» إمام أهل الشام، و«الليث» إمام أهل مصر، و«الثوري» إمام أهل العراق- حكىٰ شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله فوق العرش، وبصفاته السمعية.

وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهورِ مذهبِ جَهْمٍ المُنكِر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليَعْرِفَ الناسُ أن مذهب السلف خلاف ذلك.

---

(١) الإبانة، بواسطة مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٦٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٩، ٤٠).

وروىٰ أبو بكر الخلال في كتاب «السُّنة» عن الأوزاعي قال: سُئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالا: أَمِرُّوها كما جاءت.

وروىٰ أيضًا عن الوليد بن مسلم قال: سألتُ مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات؟ فقالوا: أَمِرُّوها كما جاءت. وفي رواية: فقالوا أمروها كما جاءت بلا كيفٍ.

فقولهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «أَمِرُّوها كما جاءتْ» ردٌّ علىٰ المعطلة، وقولهم: «بلا كيفٍ» ردٌّ علىٰ الممثلة.

والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين».

وقول الإمام مالك في الاستواء: «الكيف غير معقول»، وفي لفظٍ: «الكيف مجهول»، هو نفي لعِلْمِنا بكيفية الاستواء؛ لأنه غيبٌ لَمْ يخبرنا الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، مُوَافِقٌ لقول الباقين: أمروها كما جاءت بلا كيف؛ فإنما نَفَوْا عِلْمَ الكيفية، ولَمْ يَنْفُوا حقيقة الصفة».

سُئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء، وقيل له: كيف استوىٰ علىٰ عرشه؟ فقال: إنا لا نَعْرِفُ من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشف لنا، وقد أَعْلَمَنا جلَّ ذِكْرُه أنه استوىٰ علىٰ عرشه، ولَمْ يخبرنا كيف استوىٰ[2].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤١).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٨٥).

فإثباتُ استواء الله علىٰ عرشه بما يليق بجلاله وعظمته، هذا ممَّا اتفق عليه سلفُ الأُمَّة، وهكذا قولهم في كل الصفات الإلهية إثباتها علىٰ ظاهرها بما يليق بالله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ، ولا تعطيلٍ.

والظاهرُ المتبادر إلىٰ أذهان المُشبِّهين منفيٌّ عن الله، لا يشبهه شيءٌ من خَلْقِه، و﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة منهم، نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري، قال: مَن شبَّه اللهَ بخَلقِه كفرَ، ومَن جحدَ ما وصفَ اللهُ به نفسه فقد كفرَ، وليس فيما وصفَ اللهُ به نفسه ولا رسوله تشبيهٌ، فمَن أثبتَ لله تعالىٰ ما وردتْ به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة علىٰ الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفىٰ عن الله تعالىٰ النقائص، فقد سلكَ سبيلَ الهُدىٰ».



(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٣)، كتب ورسائل العلَّامة عبد المحسن العبَّاد البدر (٤/ ٧٩).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا لا يُوجد لنفاة بعض الصفات دون بعض -الذين يوجبون فيما نَفَوْهُ إمَّا التفويض، وإمَّا التأويل المخالف لمقتضىٰ اللفظ- قانونٌ مستقيم، فإذا قيل لهم: لِمَ تأولتم هذا وأقررتم هذا، والسؤال فيهما واحد؟ لم يكن لهم جواب صحيح. فهذا تناقضهم في النفي[(١)].

الشَّرح

التصديق لخبر الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ توحيد، فيُثْبِتُ المسلم بهذا التصديق ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته.

ونصوص الوحي في الخبر عن أسماء الله وصفاته، تصديقٌ بالغيب الذي أخبرنا الله به، ومَن جَعَل عقله أو ذوقه حاكمًا علىٰ الوحي وخبرِ الله ورسولِه، اضطرب قولُه فيما يثبته وينفيه عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا حالُ الفِرَقِ المبتدعة جميعًا.

وسببُ اضطراب واختلاف أقوال المبتدعة: اتباعهم لأهوائهم، وعُدُولهم عن الائتمام بالوحي، فأورثهم ذلك الاختلاف والضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «لمَّا لَمْ يكن لهم قانون قويم، وصراط مستقيم في النصوص، لَمْ يُوجد أَحَدٌ منهم يمكنه التفريق بين النصوص التي تحتاج إلىٰ تأويل والتي لا تحتاج إليه، إلا بما يرجع إلىٰ نَفْسِ المُتأوِّل المستمع للخِطاب، لا بما يرجع إلىٰ نفس المتكلم بالخطاب، فنجد مَن ظَهَر له تناقض أقوال أهل

---

(١) التدمرية (ص٤٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٤٠، ٢٤١).

الكلام والفلاسفة، كأبي حامد وأمثاله، ممن يظنون أن في طريقة التصفية نَيْلَ مطلوبهم، يُعَوِّلُون في هذا الباب علىٰ ذَوْقِهم وكَشْفِهم، فيقولون: إنَّ ما عَرَفْتَهُ بنور بصيرتك فقَرِّرْهُ، وما لَمْ تَعْرِفْهُ فأَوِّلْهُ.

ومَن ظنَّ أن في كلام المتكلمين ما يهدي إلىٰ الحق، يقول: ما ناقض دلالة العقل وجب تأويله، وإلا فلا.

ثم المعتزلي -والمُتَفَلْسِف الذي يوافقه- يقول: إنّ العقل يمنع إثبات الصفات وإمكان الرؤية.

ويقول المتفلسف الدَّهْرِي: إنّه يمنع إثبات مَعاد الأبدان، وإثبات أكل وشرب في الآخرة، ونحو ذلك.

فهؤلاء مع تناقضهم، لا يجعلون الرسول ﷺ نفسه نَصَبَ في خطابه دليلًا يُفرَّق به بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، بل يجعلون الفارق هو ما يختلف باختلاف الناس من أذواقهم وعقولهم.

ومعلوم أنّ هذا نسبة للرسول ﷺ إلىٰ التلبيس وعدم البيان، بل إلىٰ كتمان الحق وإضلال الخلق، بل إلىٰ التكلم بكلامٍ لا يُعرف حَقُّه من باطِلِه، ولهذا كان حقيقة أمرهم الإعراض عن الكتاب والرسول.

فلا يستفيدون من كتاب الله وسُنَّة رسوله شيئًا من معرفة صفات الله تعالىٰ.

بل الرسول ﷺ معزول عندهم عن الإخبار بصفات الله تعالىٰ نفيًا وإثباتًا؛ وإنّما ولايته عندهم في العمليات -أو بعضها- مع أنّهم متفقون علىٰ أنّ مقصوده العدل بين الناس وإصلاح دنياهم».

والمعطلة بأنواعهم من الفلاسفة والمتكلمين والجهمية والمعتزلة والأشاعرة مختلفون فيما يُحرِّفونه من نصوص الوحي، وما يُعطِّلونه من نصوص أسماء الله وصفاته، فهم في ﴿قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ [الذاريات: ٨]، وهذا من علامات ضلالهم وبطلان أقوالهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ أقوال هؤلاء النفاة المعطلة متناقضة مختلفة؛ وذلك يدل علىٰ بطلانها، وأنها ليست من عند الله، وما جاء به الرسول ﷺ مُتَّسِقٌ مُتَّفِقٌ، يُصدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، وهذا يدل علىٰ أنه حقٌّ في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]».

وفِرَقُ المعطلة بأنواعهم يردُّ بعضهم علىٰ بعض، فكلُّ فِرْقَةٍ ترىٰ الأخرىٰ ضالة في تعطيلها؛ وأنّها لم تستند إلىٰ معقولٍ صريح في ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي هم في الأصل فرقتان: الفلاسفة، وجهمية المتكلمين.

وهؤلاء لهم طريق قد سَلَكُوها، وأولئك لهم طريقة أخرىٰ، وكلٌّ من الفريقين يَنْقُض حُجَجَ الفريق الآخر، ويُبيِّن فساد طريقته، ثم كل فِرْقةٍ منهما تنقض بعضُهم حُجَجَ بعضٍ، واعْتَبِرْ هذا بالرازي والآمدي؛ فإنهما جَمَعَا خلاصة ما ذَكَره النُّفاة من أهل الفلسفة والكلام، ثم إنهما أفسدا عامة تلك الطرق التي سلكوها.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٥٨).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٤).

فكل طائفة تُبْطِلُ الطريقة العقلية التي اعتمدت عليها الأخرىٰ، بما يظهر به بطلانها بالعقل الصريح، وليسوا متفقين علىٰ طريقة واحدة، وهذا يُبيِّن خطأهم كلهم من وجهين:

- من جهة العقل الصريح، الذي يُبيِّن به كلُّ قومٍ فسادَ ما قاله الآخرون.

- ومن جهة أنه ليس معهم معقول اشتركوا فيه، فضلًا عن أن يكون من صريح المعقول».

والمبتدع الواحد تجده مضطربًا متناقضًا في عقائده وأقواله، وما يُثْبِتُه وينفيه عقلُه، فينفي ما كان يُثْبِتُه، ويُثْبِتُ ما كان ينفيه، وذلك يفيدكَ ضَلالَه بسبب تقديمه لمعقوله علىٰ كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أنتَ إذا تأمَّلتَ مقالات القوم ومعقولاتهم وجدتها أعظمَ شيءٍ تناقضًا، ولا تجد أَحَدًا من فضلائهم ورؤسائهم أصلًا إلا وهو يقول الشيء ويقول ما يخالفه، ويناقضه تارةً في المسألة الواحدة، وتارةً يقول القول ثم ينقضه في مسألة أخرىٰ من ذلك الكتاب بعينه.

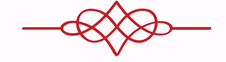
وأمَّا قول الشيء وقول نقيضه في الكتاب الآخَر، فمَن له فهمٌ واطِّلاعٌ علىٰ كُتُبِ القوم يَعْلَم ذلك».

وأهل السُّنة والجماعة متفقون في عقيدتهم، وفيما يثبتونه لله عَزَّ وَجَلَّ من أسماءٍ وصفاتٍ؛ لأنهم تَلَقَّوا عقيدتهم من القرآن والسُّنة بفهم السلف الصالح؛ خيرِ القُرون، ومَن تَلقَّىٰ عنهم من التابعين.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٥٨).

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وكان السبب في اتفاق أهل الحديث؛ أنهم أخذوا الدِّين من الكتاب والسُّنة وطريقِ النقل، فأَوْرَثَهُم الاتفاقَ والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدِّين من المعقولات والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف؛ فإنَّ النقل والرواية من الثقات والمُتَّقِين قَلَّمَا يختلف؛ وإنِ اختلف في لفظٍ أو كلمة، فذلك اختلافٌ لا يَضُرُّ الدِّينَ، ولا يَقْدَحُ فيه».



(١) بواسطة الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٢٦)، ط- دار الفاروق- مصر، المنصورة.



وكذلك تناقضهم في الإثبات، فإن من تأوّل النصوص على معنى من المعاني التي يثبتها، فإنهم إذا صرفوا النص عن المعنى الذي هو مقتضاه إلى معنى آخر، لزمهم في المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم في المعنى المصروف عنه، فإذا قال قائل: تأويل محبته ورضاه وغضبه وسخطه هو إرادته للثواب والعقاب، كان ما يلزمه في الإرادة نظير ما يلزمه في الحب والمقت والرضا والسخط. ولو فسَّر ذلك بمفعولاته - وهو ما يخلقه من الثواب والعقاب - فإنّه يلزمه في ذلك نظير ما فرّ منه، فإن الفعل المعقول لا بدّ أن يقوم أولا بالفاعل، والثواب والعقاب المفعول إنما يكون على فعل ما يحبه ويرضاه، ويسخطه ويبغضه المثيب المعاقب، فهم إن أثبتوا الفعل على مثل الوجه المعقول في الشاهد للعبد مثّلوا، وإن أثبتوه على خلاف ذلك، فكذلك سائر الصفات[1].



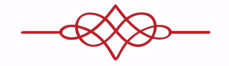
المبتدعةُ الذين حرَّفوا معاني ما أثبتَ اللهُ لنفسه من صفاتٍ، يلزمهم فيما تأوَّلوه نظير ما نفوه وحرَّفوه، فإنَّ فرارهم من أوهام تمثيل الله بخلقه فيما تأولوه يلزمهم فيما صاروا إليه من المعنى المصروف إليه.

فمَن تأوَّل صفة اليدين على معنى القدرة خشيةَ تمثيل يدي الله بأيدي المخلوقين، يلزمه في معنى القدرة ما فرَّ منه من معنى اليدين، فإنْ قال: قدرة الله تليق بعظمته لا تُماثِل قدرة المخلوقين، قلنا له: وكذلك يدي الله تليق بعظمته لا تُماثِل أيدي المخلوقين.

(١) التدمرية (ص٤٥، ٤٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ المتأولين لم يستفيدوا بتأويلهم إلا تعطيل حقائق النصوص، وأنهم لم يتخلصوا مما ظنوه محذورًا، بل هو لازمٌ لهم فيما فروا إليه كلزومه فيما فروا منه».

وقال ابن القيم[(٢)]: «إذا تأوَّل اليد بالقدرة، فالقدرةُ يُوصف بها الخالق والمخلوق. وإذا تأوَّل السمعَ والبصر بالعلم لزمه ما فرَّ منه في العلم».



(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٥٠).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٥٢).



قال المصنف رحمه الله:

فصلٌ.

وأمَّا المَثَلان المَضْرُوبان: فإنَّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلًا وخمرًا وماءً ولحمًا وفاكهةً وحريرًا وذهبًا وفضةً وحُورًا وقصورًا.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا شيء ممّا في الجنة إلا الأسماء، فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها، بل بينهما من التبايُنِ ما لا يَعْلَمُه إلا الله تعالىٰ، فالخالق سبحانه وتعالى أعظمُ مُبايَنةً للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومُبايَنَتُه لمخلوقاته أعظم من مُباينةِ موجودِ الآخرة لموجود الدنيا؛ إذ المخلوق أقرب إلىٰ المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلىٰ المخلوق. وهذا بيِّنٌ واضِحٌ[1].



الشَّرْح

اتفقت أسماء بعض المخلوقات في الدنيا كاللبن والماء والخمر والعسل وغيرها، مع ما يخلقه الله في الجنة مما يوافقها في الأسماء، ويُبايِنُها في الذات والصفات والحقائق أعظمَ مُبايَنة، فلا يَلْزَم من اتفاق الأسماء اتفاق المُسَمَّيَات.

قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

(١) التدمرية (ص٤٦، ٤٧).

فأنهار الجنة لا يتغير لونُها وطَعْمُها ولا ريحها، وألبانها لا تتغير ولا تَفْسُد، وخَمْرُها لا يَحْصُل بشربه صداعٌ ولا إفسادٌ للعقل، وعَسَلُها سلامٌ من الشمع والأقذار.

قال العلَّامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «يشير بذلك إلىٰ سلامِ لبنِ الجنة وخمرها وعسلها من الأقذار والأكْدَار الملازمة لما في الدنيا من ذلك، بل هو لبنٌ لَمْ تشتمل عليه بطونُ اللقاح، وخمرٌ لَمْ تَعْصِرْهُ الأقدام، وعسلٌ لَمْ تَجْرِسْهُ النَّحْلُ».

وأخبرنا الله ﷻ أنَّ أهل الجنة يضطجعون ويَتَّكِئُون علىٰ أَسِرَّةٍ بطائنها من ديباجٍ وحريرٍ، فهي ليست كأَرائِكِ الدنيا ولا ديباجها ولا حريرها؛ وإن اتفقت معها في الأسماء.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «العدن: الإقامة، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١] أي: من تحت غرفهم ومنازلهم».

وقال الحافظ ابن كثير[3]: «السُّنْدُس: ثيابٌ رِفاعٌ رِقاقٌ كالقمصان، وما جرىٰ مجراها، وأمَّا الإسْتَبْرَق: فغليظُ الديباج وفيه بريقٌ».

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٧/ ٢٥٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٦).

فلا يرتاب المسلم أن اتفاق الأسماء لا يَلْزَم منه اتفاق المُسمَّيَات، وأن صفات المخلوق مختصة به تليق بنقصه، وأنّ صفات الله حسنىٰ ليس كمثله شيء لكماله، فليس لله كفوًا أَحد.

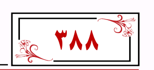
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد أخبر الله أنّ في الآخرة من أنواع النعيم ما له شبهٌ في الدنيا، كأنواع المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك، وقد قال ابن عباس رَضِوَٱللَّهُعَنْهُمَا: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

فحقائق تلك أعظم من حقائق هذه بما لا يُعْرَفُ قَدْرُه، وكلاهما مخلوق، والنعيم الذي لا يُعْرَفُ جنسُه قد أجمله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الصحيح عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: يقول الله: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر علىٰ قلبِ بشرٍ».

فإذا كان هذان المخلوقان متفقين في الاسم مع أن بينهما في الحقيقة تباينًا لا يُعرف في الدنيا قَدْرُه، فمن المعلوم أنّ ما يتصف به الرب من صفات الكمال مُبايِنٌ لصفات خلقه أعظم من مباينة مخلوق لمخلوق».



(١) منهاج السنة (٢/ ١٥٧-١٥٩).





قال المصنف رحمه الله:

ولهذا افترق الناس في هذا المقام ثلاثَ فِرَقٍ:

فالسلف والأئمة وأتباعهم: آمَنُوا بما أخبر الله به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، مع عِلْمِهم بالمباينة التي بين ما في الدنيا وبين ما في الآخرة، وإن مباينة الله لخَلْقِه أعظم.

والفريق الثاني: الذين أثبتوا ما أخبر الله به في الآخرة من الثواب والعقاب، ونفوا كثيرًا مما أخبر به من الصفات، مثل: طوائف من أهل الكلام: المعتزلة ومَن وافقهم.

والفريق الثالث: نفوا هذا وهذا، كالقرامطة الباطنية والفلاسفة أتباع المَشَّائِين، ونحوهم من الملاحدة الذين ينكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر[١].

الشَّرح

كلُّ أخبارِ اللهِ صِدْقٌ، سواءٌ ما كان من الخبر عن الدار الآخرة، والجنة والنار، والثواب والعقاب، أو ما كان من أخبار عن أسماء الله وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

ومَن آمَنَ بأخبار الله عن الجنة والنار، وكَذَّب بما أخبر الله به عن نفسه من أسمائه وصفاته فهو ممن آمَنَ ببعض القرآن وكَفَر ببعض، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

(١) التدمرية (ص٤٧، ٤٨).

وحقيقة الدِّين ترجع إلىٰ تصديقِ خبرِ اللهِ والانقياد لأمره ونهيه، والرسل عليهم الصلاة والسلام بَلَّغُوا وحي الله إلىٰ خلقه، فكان تصديق المؤمنين بوحي الله والانقياد لأمره ونهيه هو الذي صاروا به مسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الرسل يُبلِّغُون عنه -سبحانه- تارةً الأمر والنهي، وتارةً الخبر: إما عن نفسه، وإما عن مخلوقاته، فيُبَلِّغُون خبره عن نفسه بأسمائه وصفاته، وخبره عن مخلوقاته بالقصص، كما يُبلِّغون الخبر عن ملائكته وأنبيائه، ومَن تَقدَّم من الأمم المؤمنين والمُكذِّبين، ويُبلِّغون خبره عما يكون في القيامة من الثواب والعقاب، والوعد والوعيد».

وبَيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ صحة اعتقاد السلف ومَنِ اتَّبعهم الذين آمنوا بأخبار الله كلها فيما أخبر الله عن نفسه، وكذلك فيما أخبر الله عن اليوم الآخر.

وقول شيخ الإسلام: «إنّ مُبايَنة اللهِ لخَلْقِه أعظمُ»، هذا اعتقادٌ جازِمٌ يُؤْمِنُ به الموحدون؛ فإنّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنّ الرب تعالىٰ مُنزَّه عن أن يُوصف بشيء من خصائص المخلوق، أو أن يكون له مُماثِلٌ في شيء من صفات كماله، وكذلك يمتنع أن يشاركه غيره في شيء من أموره بوجه من الوجوه.

بل يمتنع أن يشترك مخلوقان في شيء موجود في الخارج؛ فإنّه مختص بذاته وصفاته القائمة به، لا يشاركه غيره فيها ألبتة».

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٧١).
(٢) الصفدية (١/ ١٠٠).

وحَذَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من منهج القرامطة الباطنية والفلاسفة الذين لَمْ يُؤْمِنُوا بألفاظ الوحي وما دَلَّتْ عليه من المعاني، وجعلوا لها باطنًا يُبْطِلُ حقيقة الدين ومعانيه، ويخالف فَهْمَ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقوا معاني الوحي من رسول الله ﷺ.

وتعطيلُ دلالةِ ألفاظ الوحي عن معانيها، إفسادٌ لدين الإسلام، وكُفْرٌ ببيان الرسول ﷺ الذي بَعَثَهُ اللهُ ﷻ ببيان معاني القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وهذا المذهب من أغلظ المذاهب كفرًا وزندقة وإلحادًا.

والقرامطة الباطنية والفلاسفة عَدَلُوا عن بيان الرسول ﷺ والصحابة الذين أَدَّوْا إلينا بَلاغَهُ، والتابعين الذين نقلوا إلينا معاني الدين الذي تَلَقَّوْه عن الصحابة إلىٰ ما تَخَرَّصُوه من تحريفاتٍ باطنية لكلام الوحي، تخالف دلالة ألفاظه.

فالحُجَّة التي أقامها اللهُ علىٰ خَلْقِه في تبيين الرسول ﷺ، لا في مخالفته، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فالقرامطة الباطنية والفلاسفة كُفَّار بشهادة أنّ محمدًا رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لو كان كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ لا يفيد اليقين والعلم، والعقل مُعارِضٌ للنقل، فأيُّ حُجَّةٍ تكون قد قامت علىٰ المُكلَّفِين بالكتاب والرسول ﷺ؟!

وهل هذا القول إلا مُناقِضٌ لإقامة حُجَّة الله علىٰ خَلقِه بكتابه من كلِّ وجهٍ».

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٣٧).

فاحذَرْ -أيها المسلم- أن تضاهي ببيان رسول الله ﷺ كلامَ غيرِه؛ وأن تعدل عن تبيين وتبليغ رسول الله ﷺ إلىٰ مَن لمْ يجعل اللهَ في قوله حُجَّةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مَن قَرَن بالرسالة وآثارها طريقةً عقلية أو ذَوْقِيَّة يُناظِر بها، فهو شبيه بالذين قرنوا ما جاء به مُسَيْلِمَة بما جاء به محمد ﷺ؛ فإنَّ كلاهما في الحقيقة كذبٌ؛ وإنِ اشتبه بالحق علىٰ خَلْقٍ كثير، فقد اتَّبعَ مسيلمةَ أُلُوفٌ مُؤَلَّفَة، وما حارب المسلمين أَحَدٌ أعظم من أصحابه، وكان قتاله من أعظم فضائل الصِّدِّيق الذي صَدَّق الرسالة، للكَذَّاب الذي قرنها بما يقوله».

ومن إلحاد الباطنية في الإيمان باليوم الآخر: تحريفهم معاني ما أخبر الله به من نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أمَّا الإيمان باليوم الآخر، فادَّعَىٰ ابنُ عربيٍّ أنّ أصحاب النار يتنعمون في النار، كما يتنعم أهل الجنة في الجنة، وأنَّه يُسمَّىٰ عذابًا من عذوبة طَعْمِه، وأَنْشَدَ في كتاب «الفُصُوص»:

فَلَمْ يَبْقَ إلَّا صَادِقُ الْوَعْدِ وَحْدَهُ ... وَبِالْوَعِيدِ الْحَقِّ عَيْنٌ تُعَايِنُ

وَإِنْ دَخَلُوا دَارَ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُمْ ... عَلَىٰ لَذَّةٍ فِيهَا نَعِيمٌ يُبَايِنُ

نَعِيمَ جِنَانِ الخُلْدِ فَالأَمْرُ وَاحِدٌ ... وَبَيْنَهُمَا عِنْدَ التَّجَلِّي تَبَايُنُ

يُسَمَّىٰ عَذَابًا مِنْ عُذُوبَةِ طَعْمِهِ ... وَذَاكَ كَالْقِشْرِ وَالْقِشْرُ صَاين

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١٠٦).

(٢) الصفدية (١/ ٢٤٥-٢٤٧).

ولهذا قال بعض أصحابنا لبعض أتباع هؤلاء لما أثاروا محنة أهل السُّنة التي انتصروا فيها لهؤلاء الملاحدة، قال له: اللهُ يذيقكم هذه العذوبة.

وهذا المذهب قد حكاه أصحاب المقالات كالأشعري في «مقالاته» عن طائفة من سَوَادِ أهل الإلحاد سَمَّوْهُم البطيخية، وهو مما يُعلم بالاضطرار فسادُه من دين الإسلام».



قال المصنف رحمه الله:

ثم إن كثيرًا منهم يجعلون الأمر والنهي من هذا الباب، فيجعلون الشرائع المأمور بها والمحظورات المنهي عنها، لها تأويلات باطنة تخالف ما يَعْرِفُه المسلمون منها، كما يتأولون الصلوات الخمس، وصيامَ شهر رمضان، وحَجَّ البيت، فيقولون: إنَّ الصلوات الخمس معرفةُ أسرارهم، وإنَّ صيام شهر رمضان كتمانُ أسرارهم، وإنَّ حَجَّ البيتِ السَّفرُ إلىٰ شيوخهم، ونحو ذلك من التأويلات التي يُعلم بالاضطرار أنها كذبٌ وافتراء علىٰ الرُّسُل صلوات الله عليهم، وتحريفٌ لكلام الله ورسوله عن مواضعه، وإلحادٌ في آيات الله[1].

الشَّرح

القرامطة شَرُّ الفِرَق في تحريف كلام الله ﷻ وكلام رسول الله ﷺ، وغُلوُّ تحريفِهم جَعَلهم يُفسِّرُون إقامة أركان الإسلام بعبودية مشايخهم ومعرفة أسرارهم وكتمانها.

غلو التحريف لمعاني ألفاظ الوحي جَعَل مَن شاء يقول ما شاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «انتهىٰ الأمر بالقرامطة إلىٰ إبطال الشرائع المعلومة كلها».

وتَجاوَزَ القرامطةُ في غُلُوِّهم بتحريف معاني نصوص الوحي، إلىٰ الطعن في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ بنسبتهم إلىٰ مخاطبة الخلق بخلاف الحق، وهذا من أغلظِ كُفْرِ الباطنية الذين جمعوا فيه بين تحريف الوحي والطعن في الأنبياء.

(١) التدمرية (ص٤٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٥٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أمَّا المتفلسفة والقرامطة، فيقولون: إن الرسل كَلَّمُوا الخَلْقَ بخلاف ما هو الحق، وأظهروا لهم خلاف ما يبطنون».

وبدعةُ الباطنيةِ تحريفٌ لدِين الإسلام، وإفسادٌ لمعانيه، ابتدعها القرامطة؛ ليفسدوا بها دين الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تأويلات القرامطة؛ فإنهم أئمة هذا الباب الذي كانوا به أَضَلّ الناس عن سواء السبيل، وهو في الأصل إنما صَدَر عن زنادقة منافقين، أرادوا التلبيس به علىٰ جُهَّال المسلمين في الظاهر، وخالفوهم في الباطن ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]».

وإبطالُ دلالةِ ألفاظ القرآن والسُّنة علىٰ معانيها، وادعاء معنىٰ باطن لَمْ يُبَيِّنْهُ النبي ﷺ ولا يَدُلُّ عليه ألفاظ نصوص الوحي، زندقةٌ تُبطِلُ العِلمَ الذي بَعَثَ اللهُ به رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كلُّ زنديق ومنافق يُبطِلُ العِلمَ بما بَعَثَ اللهُ به رسوله ﷺ، تارةً يقول: لا نعلم أنهم قالوا ذلك، وتارة يقول: لا نعلم ما أرادوا بهذا القول.

---

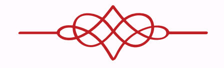
(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٦٨).
(٢) السبعينية (ص٣٢٥، ٣٢٦).
(٣) نقض المنطق (ص٧٥).

ومتىٰ انتفىٰ العلم بقولهم أو بمعناه، لم يستفد من جهتهم عِلْم، فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات».

وسُنَّةُ النبي ﷺ القولية والفعلية بَيَّنت معنىٰ الصلوات الخمس، فأقامها النبي ﷺ خمس صلوات؛ الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وعنه تلقىٰ الصحابة رضي الله عنهم معنىٰ وصفة ذلك، ولا يزال هذا المعنىٰ محفوظًا متوارَثًا بين المسلمين.

وصومُ رمضان بَيَّن النبيُّ ﷺ أنه التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلىٰ غروب شمس شهر رمضان كله.

والحَجُّ بَيَّن النبي ﷺ ذلك للصحابة رضي الله عنهم، وأَمَرَهُم أنْ يُبلِّغوا صفة نُسُكِهِ للأُمَّة، فأَحْرَم من المِيقَات المكاني في أشهر الحج، وذهبَ إلىٰ منىٰ يوم التروية في الثامن من ذي الحجة، ثم وقف بعَرَفَةَ يوم التاسع من ذي الحجة، وبات ليلة العاشر بمزدلفة، وصلىٰ الفجر بمزدلفة، ورمىٰ جَمْرة العَقَبة، ونَحَر هَدْيَهُ، وحَلَق، وطَافَ بالكعبة يوم العاشر من ذي الحجة، ومَكَث بمنىٰ أيام التشريق يرمي الجمار بعد الزوال، وبعد أن أتمَّ نُسُكَهُ طاف بالبيت طواف الوداع، فكان آخر عهده بالبيت.




قال المصنف رحمه الله:

وقد يقولون: إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم رفعوا عنه الواجبات، وأباحوا له المحظورات.

وقد يوجد في المنتسبين إلىٰ التصوف والسلوك من يدخل في بعض هذه المذاهب.

وهؤلاء الباطنية الملاحدة أجمع المسلمون علىٰ أنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ.

وما يحتج به أهل الإيمان والإثبات علىٰ هؤلاء الملاحدة يحتج به كل من كان من أهل الإيمان والإثبات علىٰ من يَشرك هؤلاء في بعض إلحادهم، فإذا أثبت لله تعالىٰ الصفات، ونفىٰ عنه مماثلة المخلوقات، كما دل علىٰ ذلك الآيات البينات - كان ذلك هو الحق الذي يوافق المنقول والمعقول، ويهدم أساس الإلحاد والضلالات[1].

الشَّرح

خاصَّةُ الخَلق هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرهم اللهُ بعبوديته، وإقامة شعائره وشرائعه، والانقياد لأمره ونهيه ما داموا أحياءً، قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وسيدُ ولدِ آدمَ محمد ﷺ خير البرية وأعظم الخَلق معرفةً بالله، كان مقيمًا لشعائر الإسلام حياته كلها، وفارقَ الدنيا وهو يُوصِي أُمَّته بالتوحيد وإقامة الصلاة وأداء حقوق الخَلق.

علوم الصوفية جهالاتٌ إلحادية، فإنَّ المسلمَ حقًّا هو مَن أقامَ الدِّين وتحقَّق بشعب الإيمان، فكلما ازداد المسلمُ يقينًا ازداد عملًا صالحًا، أمَّا الصوفية الغُلاة فإنهم إذا بلغوا درجةَ اليقين في ضلالهم صاروا ملحدين، لا يصلون، ولا يعبدون اللهَ.

---

(١) التدمرية (ص٤٨-٥٠).

فحقائقُ الإيمان مَن لمْ يأتِ بها لمْ يكن من المؤمنين، ومَن لمْ يعبدِ اللهَ لمْ يكن من المسلمين، واللهُ ﷻ ما خلقنا إلا لعبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فتركُ الصوفيةِ لعبادةِ اللهِ بدعوىٰ أنهم بلَغوا درجةَ اليقين، هو من شُعَب نفاقهم وكفرهم وزندقتهم التي يكتمونها ولا يظهرونها إلا لمَن يغتر بهم لجهله بعلوم الشريعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «خواص ملاحدة المتفلسفة والقرامطة من الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم، فإنَّ البارع منهم في العلم والمعرفة يزول عنه عندهم الأمر والنهي، وتُباح له المحظورات، وتسقط عنه الواجبات، فتظهر أضغانهم، وتنكشف أسرارهم، ويعرف عمومُ الناس حقيقةَ دينهم الباطن، سمّوهم باطنيةً؛ لإبطانهم خلاف ما يظهرون.

فلو كان -والعياذُ بالله- دِين الرسل كذلك لكان خواصّه قد عرفوه، وأظهروا بطانه، وكان عند أهلِ المعرفة والتحقيق من جنسِ دِين الباطنية.

ومن المعلوم بالاضطرار: أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين كانوا أعلم الناس بباطن الرسول وظاهره، وأخبر الناس بمقاصده ومراداته، كانوا أعظم الأُمَّة لزومًا لطاعة أمره -سرًّا وعلانيةً- ومحافظةً علىٰ ذلك إلىٰ الموت، وكلُّ مَن كان منهم إليه وبه أخص وبباطنه أعلم -كأبي بكرٍ وعمر- كانوا أعظمهم لزومًا للطاعة سرًّا وعلانيةً، ومحافظةً علىٰ أداء الواجب، واجتناب المُحرَّم باطنًا وظاهرًا.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٠٢-٥٠٤).

وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة؛ الذين يجعلون فِعل المأمور وتَرْك المحظور واجبًا على السالك حتى يصيرَ عارفًا مُحقِّقًا -في زعمهم-، وحينئذٍ يسقط عنه التكليف، ويتأوَّلون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، زاعمين أنَّ اليقين هو ما يَدَّعُونه من المعرفة، واليقّين هنا: الموت وما بعده، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٥-٤٨]».

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ اللهَ لَمْ يجعل لعباده المؤمنين أجلًا دون الموت، وتلا هذه الآيةَ.

ومنه قوله ﷺ لمَّا تُوفي عثمان بن مظعون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أمَّا عثمان بن مظعون، فقد أتاهُ اليقينُ من ربِّه»».

وهكذا مَن اتبعَ ملاحدة الباطنية في إلحادهم في أسماء الله وصفاته، ردَّ عليهم المسلمون بالإيمانِ بصدقِ ما أخبرَ اللهُ عن نفسه، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه، ونفوا عنه مُماثَلة المخلوقين.



قـال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تُضرب له الأمثال التي فيها مماثلةٌ لخَلْقِه، فإنَّ الله لا مِثْلَ له، بل له المَثَلُ الأعلىٰ، فلا يجوز أن يشترك هو والمخلوق في قياسِ تمثيلٍ، ولا في قياسِ شمولٍ تستوي أفرادُه، ولكن يُستعمل في حقِّه المَثَلُ الأعلىٰ، وهو أنَّ كلَّ ما اتَّصفَ به المخلوقُ من كمالٍ فالخالقُ أَوْلَىٰ به، وكلَّ ما تَنزَّه عنه المخلوقُ من نقصٍ فالخالقُ أَوْلَىٰ بالتنزيه عنه، فإذا كان المخلوقُ مُنزَّهًا عن مماثلة المخلوق مع الموافقة في الاسم، فالخالقُ أَوْلَىٰ أن يُنزَّه عن مماثلة المخلوق، وإنْ حَصَلتْ موافقةٌ في الاسم[1].

الشَّرْح

اللهُ عَزَّوَجَلَّ موصوفٌ بصفاتِ الكمال، وذلك هو المَثَلُ الأعلىٰ الذي أَثْبَتَه اللهُ لنفسه وآمَن به الموحدون، وكفرَ به المُعطِّلة النافون لصفات الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

واللهُ عَزَّوَجَلَّ فيما ثبتَ له من صفاتٍ، تنزَّه عن مماثلة المخلوقات؛ وذلك لعظمتهِ وكمالِه، فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الربَّ تعالىٰ مُنزَّه عن أنْ يُوصف بشيءٍ من خصائص المخلوق، أو أنْ يكونَ له مماثِلٌ في شيءٍ من صفاتِ كمالِه».

من أَجْل هذا نهانا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ نضربَ له الأمثال، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فيمتنع في حقِّه قياسُ التمثيل وقياسُ الشمولِ.

(١) التدمرية (ص٥٠).
(٢) الصَّفدية (١/ ١٠٠).

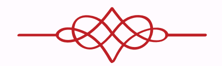
ويجوزُ في حقِّ الله قياسُ الأَوْلَىٰ؛ لأنَّ عدمَ الكمالِ نقصٌ، واللهُ أحقُّ بالكمال من كل مَن سواه، فإنه خالقُ الكمال في غيره، وهو أحقُّ بالكمال.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كلُّ كمالٍ ثبتَ للمخلوق، فالخالقُ أحقُّ به، وكلُّ نقصٍ تنزَّه عنه مخلوقٌ فالخالقُ أحقُّ بتنزيهه عنه».

وقال العَلَّامة صالح الفوزان حفظه الله[٢]: «هذا دليلٌ عقلي علىٰ كماله ﷻ؛ لأنه إذا كان يعطي الكمالَ لغيره، فإنه أَوْلَىٰ به ﷻ».

وقال فضيلته شارحًا القاعدة[٣]: «قد تكون هناك أشياء هي كمالٌ في المخلوق، لكنها نقصٌ في حق الخالق، ولهذا قلنا: كلُّ كمالٍ للمخلوق لا يستلزم نقصًا، خروجًا من الكمال الذي يستلزم النقص، كالنوم مثلًا، فإنه في المخلوق كمالٌ، وعدمُ النومِ نقصٌ، لكن الله بالعكس: عدمُ النوم في حقه كمالٌ، والنومُ في حقه سبحانه نقصٌ. فهذا لا يُوصف اللهُ به وإنْ كان كمالًا للمخلوق.

وكذلك الأكل بالنسبة للمخلوق كمالٌ؛ لأنَّ الذي لا يأكلُ يُعتبر مريضًا، لكن الله منزَّهٌ عن الأكل، فلا يُقال: هذا كمالٌ للمخلوق ويكون كمالًا للخالق، بل نقول: هذا يستلزم نقصًا فيُنزَّه اللهُ عنه».



(١) الصَّفدية (١/ ٩٠، ٩١).

(٢) التعليق المختصر علىٰ القصيدة النُّونية (١/ ١٥٣).

(٣) التعليق المختصر علىٰ القصيدة النُّونية (١/ ١٥٤، ١٥٥).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهكذا القول في المَثَل الثاني: وهو الروح التي فينا، فإنها قد وُصفت بصفاتٍ ثُبُوتيَّة وسَلْبِيَّة، وقد أَخْبَرَتِ النصوصُ أنها تَعرج وتَصعد من سماءٍ إلىٰ سماءٍ، وأنها تُقبض من البدن، وتُسَلُّ منه كما تُسل الشعرة من العجين[1].

الشَّرح

الإنسان مُركَّب من الروح والجسد، ومَاهِيَّةُ الروح، معرفةُ الإنسان بها محدودة قليلة؛ وإنما يصفها المسلم بما يدركه من إحساسه بها، وبما أَخْبَره اللهُ ﷻ ورسوله ﷺ عنها.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: وما أَطْلَعَكُم من عِلْمِه إلا علىٰ القليل؛ فإنه لا يحيط أَحَدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالىٰ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الناس قد تنازعوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]: هل المراد به روح ابن آدم، أو مَلَك من الملائكة، أو غير ذلك؟ علىٰ قولين مشهورين، وبتقدير أن يكون المراد روح

(١) التدمرية (ص٥٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٦).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٢٩٣).

الإنسان، فالنص لم يخبر بكيفيتها؛ لأن الإخبار بالكيفية إنما يكون فيما له نظير يماثله، وليست الروح من جنس ما نشهده من الأعيان، فلا يمكن تعريفنا بكيفيتها؛ وإن كانت لها كيفية في نفسها».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ليس فيه نهيٌ عن وصفِ الروح، فمَن وَصَفها بما دَلَّ عليه القرآن والسُّنة فقد قال بعلمٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «القرآن ليس فيه النهي عن وصفِ روحِ ابن آدم، ولا النهي عن التعبير عن شيء من صفاتها، بل الأحاديث والآثار مملوءة من وصفِ الروح؛ وأنها تصعد وتنزل، وتكون طيبةً وخبيثةً، ومُنعَّمةً ومُعذَّبة؛ وأنها تسمع وتبصر وتتكلم، وغير ذلك من صفاتها المذكورة في الأحاديث النبوية والآثار السلفية».

ولفظُ الروح في خطاب الناس يُستعمل بمعنىٰ النفس؛ وإن كان له معانٍ أخرىٰ بحسب استعمالاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنَّ لَفْظَ النَّفْس والروح والقلب والفؤاد ونحو ذلك، ممَّا يتنازع الناس في معناها، إمَّا لاختلاف اصطلاحاتهم، وإما لاختلافهم في المعنىٰ.

(١) الرد علىٰ الشاذلي (ص١٤٧، ١٤٨).
(٢) الرد علىٰ الشاذلي (ص١٢١-١٢٣).

فلفظُ النفس: يُراد به تارةً ذات الشيء وعينه.

ويُراد به الدم السائل، كقول الفقهاء: ليستْ له نَفْسٌ سائلة، وقول الشاعر:

تَسِيلُ عَلىٰ حَدِّ الظُّباتِ نُفوسُنا وَلَيسَتْ عَلىٰ غَيرِ الظُّباتِ تَسيلُ

ويُراد به: الروح التي في الإنسان، كقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، ومنه قول النبي ﷺ لمَّا نام عام خيبر: «إنَّ اللهَ قَبَض أنفسنا حيث شاء»، وفي الحديث -قاله بلال-: «أَخَذ نَفْسِي الذي أَخَذ بنفسِكَ». ومنه قوله في الحديث: «اخرجي أيتها النفسُ المطمئنة -كانت في الجسد الطيب-».

ويُراد بها أيضًا: بعض صفاتها المذمومة كالهَوىٰ المُردِي، فيُقال: فلانٌ له نَفْسٌ، كما يقال: فلان له لسان، وفلان له قلبٌ، أي: لسانٌ خاصٌّ، وهو القادر علىٰ الكلام، وقلبٌ خاصٌّ، وهو الذي له حالٌ من معرفةٍ ووَجْدٍ وصِدْقٍ ونحو ذلك.

فكثير من أهل السلوك يريدون بلفظ النفس: النفس الخاصة المذمومة، وقد يُقسِّمون لفظ النفس إلىٰ ثلاثة: أمَّارة، ولَوَّامَة، ومُطْمَئِنَّة.

وأمَّا لفظُ الروح: فقد يُراد به الروح التي في الإنسان، وهي النفس التي تُقبض وقت الموت.

ولفظُ الروح والنفس بهذا الاعتبار اسمان لِذَاتٍ واحدة؛ لكن باعتبار صفات متنوعة، فتُسمىٰ روحًا باعتبار، ونفسًا باعتبار؛ وإن كانت الذات واحدة.

ومن هذا الباب: أسماء الرسول ﷺ وأسماء القرآن، بل وأسماء الله الحسنىٰ؛ فإن هذه الأسماء تدل علىٰ ذاتٍ واحدة باعتبار صفاتٍ متعددة، وهذه الأسماء مترادفة في الذات، متباينة في الصفات، ويسميها بعض الناس: المتكافئة».

وقال شيخ الإسلام[(١)]: «وأمَّا إنْ أُريدَ بالنفس والروح ذاتان كلٌّ منهما قائمة بنفسها غير الأخرىٰ، وراء هذا البدن، فهذا غلطٌ».



(١) الرد علىٰ الشاذلي (ص١٢٨).



والناس مضطربون فيها:

فمنهم طوائف من أهل الكلام يجعلونها جزءًا من البدن، أو صفةً من صفاته، كقول بعضهم: إنها النفس أو الريح التي تتردد في البدن، وقولِ بعضهم: إنها الحياة، أو المزاج، أو نفس البدن.

ومنهم طوائف من أهل الفلسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم، وهي أمورٌ لا يتَّصف بها إلا مُمْتَنِع الوجود، فيقولون: لا هي داخِل البدن ولا خارجه، ولا مباينة له ولا مداخلة له، ولا متحرِّكة ولا ساكنة، ولا تصعد ولا تهبط، ولا هي جسمٌ ولا عَرَضٌ.

وقد يقولون: إنها لا تُدرِك الأمور المعينة، والحقائق الموجودة في الخارج، وإنما تُدرِك الأمور الكلية المطلقة.

وقد يقولون: إنها لا داخِل العالَم ولا خارجه، ولا مباينة له ولا مداخلة.

وربما قالوا: ليست داخلةً في أجسام العالَم ولا خارجة عنها، مع تفسيرهم للجسم بما يقبل الإشارة الحسية، فيصفونها بأنها لا يمكن الإشارة إليها ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تلحقها بالمعدوم والممتنع.

وإذا قيل لهم: إثباتُ مثل هذا ممتنعٌ في ضرورة العقل.

قالوا: بل هذا ممكن، بدليل أن الكليات ممكنة موجودة، وهي غير مشار إليها.

وقد غفلوا عن كون الكليات لا تُوجد كليةً إلا في الأذهان لا في العيان، فيعتمدون فيما يقولونه في المبدأ والمعاد على مثل هذا الخيال الذي لا يَخْفَىٰ فسادُه علىٰ غالب الجُهَّال[1].

---

(١) التدمرية (ص٥٠-٥٢).

الشَّرح

لَمْ يختلفْ قولُ أهل السُّنة والجماعة في أنَّ الروح مخلوقةٌ لله، خَلَقها اللهُ وأنشأها، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وهذا عامٌّ لكل مخلوقٍ ومنه الإنسان، وهو شاملٌ لروحه وبدنه، وقال النبيُّ ﷺ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»، متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال أبو عبدالله ابن منده رحمه الله[1]: «الجنود المُجنَّدة لا تكونُ إلا مخلوقة».

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «روحُ الآدمي مخلوقةٌ باتفاقِ سلفِ الأُمَّة».

والذي دلَّت عليه نصوصُ القرآن والسُّنة أنها جسمٌ، يقبضها اللهُ إذا نمنا، ويردها إلىٰ أبداننا إذا شاء، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

يقبضُ الروحَ مَلَكُ الموت، وتصعد بها الملائكة إلىٰ السماء، وتُوقف روحُ المؤمن بين يدي الله فيقضي فيها أمره، ثم تُعاد إلىٰ بدنِ الميت، فتُسأل وتُمتحن، وتُعاقب وتُنعم.

وهي التي تُجعل في أجواف الطير الخُضر تأكل وتشرب من الجنة، وهذه أرواحُ الشهداء، والكافرون تُعرض أرواحهم علىٰ النار غُدوًّا وعشيًّا.

---

(١) الروح (ص٤١١).

(٢) الروح (ص٤١٢).

وقد أضافَ اللهُ روحَ آدمَ إليه، فقال سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فهي إضافةُ مخلوقٍ إلىٰ خالقه تقتضي التكريمَ والاختيار والتشريف[(١)].

وبنو آدمَ إذا كانوا نُطفةً أربعين يومًا، ثم عَلَقةً مثل ذلك، ثم مُضغةً مثل ذلك، أرسلَ اللهُ إليهم المَلك الموكل بالأرحام فينفخ فيهم الروح، كما جاء في حديث النبي ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

والروحُ تَسْرِي في البدن ما دام الإنسانُ حيًّا، فإذا توفّاه اللهُ فارقت روحُه جسدَه، ثم تُعاد إلىٰ جسده للسؤال في القبر، وكذلك تُعاد إليه يوم البعث والنشور.

وعن أمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»، رواه مسلمٌ.

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «فيه دليلان: أحدهما: وَصْفه بأنه يُقبض. الثاني: أنَّ البصر يراه».

وحديثُ أمِّ سلمة رضي الله عنها يدلُّ علىٰ أنَّ الروحَ جسمٌ.

واضطرابُ الطوائف في ماهية الروح سببه نقصُ علومهم، وعدمُ اهتدائهم بالوحي؛ لأنَّ الروحَ محسوسةٌ لكنها غير مرئية لنا.

قال النبي ﷺ: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

---

(١) الروح (ص٤٣٠).

(٢) الروح (ص٤٧٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وَصَفها بأنها جنودٌ مُجنَّدة، والجنودُ ذواتٌ قائمة بنفسها، ووصفها بالتعارف والتناكر، ومحالٌ أنْ تكون هذه الجنود أعراضًا، أو تكون لا داخل العالَم ولا خارجه، ولا بعض لها ولا كل».

ووفاةُ الإنسانِ هي مفارقةُ روحه لجسده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القلبُ إذا كان حيًّا، فماتَ الإنسانُ بفراق روحه بدنه، كان موت النفس فراقها للبدن، ليس هي في نفسها ميتة بمعنىٰ زوال حياتها عنها».

وروحُ الإنسانِ تُعاد إلىٰ بدنه بعد صعودها إلىٰ السماء، فيصير الإنسانُ حيًّا بهذه الإعادة، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ، غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ وَإِمَّا الجَنَّةُ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ»، متفق عليه.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هذا الخبرُ يبيِّن ويوضِّح أنَّ المقبور يحيا في قبره، ويبيِّن ويوضِّح أيضًا: أنَّ الجنة والنار مخلوقتان».

والنبيُّ ﷺ أخبرَ «أنَّ الشهداءَ تسرحُ أرواحهم في الجنة، فيسألهم ربُّهم: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أنْ تُرد أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نُقتلَ فيكَ مرة أخرىٰ»، رواه مسلم من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «هذا سؤالٌ وجوابٌ عن ذاتٍ حيَّةٍ عالِمة ناطقة، تقبل الردّ إلىٰ الدنيا والدخول في أجسادٍ خرجتْ منها».

والحِسُّ شاهِدٌ بأنَّ الروح جسمٌ، وليست عرضًا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]:

---

(١) الروح (ص٤٨٤).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١١٠).
(٣) التوحيد (٢/ ٨٨١).
(٤) الروح (ص٤٨٦، ٤٨٧).
(٥) الروح (ص٤٩٨).

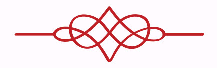
«لو كانت الروح عبارةً عن عَرَضٍ من أعراض البدن، أو جوهر مجرد ليس بجسمٍ ولا حالّ فيه، لكانَ قولُ القائل: خرجتُ وذهبتُ، وقمتُ وجئتُ، وقعدتُ وتحركتُ، ودخلتُ ورجعتُ، ونحو ذلك، كله أقوالًا باطلةً؛ لأنَّ هذه الصفات مُمْتنعة الثبوت في حقِّ الأعراض والمُجرَّدات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معنىٰ أنَّ الروحَ جسمٌ[1]: «مقصودنا بكونها جسمًا: إثباتُ الصفات والأفعال والأحكام التي دلَّ عليها الشرعُ والعقل والحِسّ من الحركة والانتقال، والصعود والنزول، ومباشرة النعيم والعذاب، واللذة والألم، وكونها تُحبس وتُرسل، وتُقبض، وتدخل وتخرج، فلذلك أطلقنا عليها اسم: الجسم؛ تحقيقًا لهذه المعاني».

وقول طوائف من الفلاسفة ومَن وافقهم: إنَّ الروحَ ليست بداخل البدن ولا خارجه، وجدالهم بأنَّ هذا غيرُ ممتنعٍ، كالكليات فإنها ممكنة وموجودة، سفسطةٌ عند جميع العقلاء.

فإننا قلنا: الروحُ جسمٌ؛ لأنها موصوفة بالصفات التي تدل علىٰ ذلك، وهي داخل بدن الإنسان ما دام حيًّا، أمَّا تقدير أمور ممتنعة في الواقع، مجرد خيالات ذهنية وتسميتها كلية، فهذا اصطلاحٌ باطلٌ تأسّس علىٰ الكذب والمغالطة في الواقع بنفي صفات الذوات.

علىٰ كل حال، سفسطة الفلاسفة وأتباعهم في الروح تدلَّ علىٰ أنهم من أجهل الناس بذواتهم، وأنهم من أضعف الناس عقولًا!



(١) الروح (ص٥١٠).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واضطرابُ النُّفاةِ والمُثْبِتة في الروح كثير، وسببُ ذلك أن الروح -التي تُسمىٰ بالنفس الناطقة عند الفلاسفة- ليست هي من جنس هذا البدن، ولا من جنس العناصر والمولدات منها، بل هي من جنسٍ آخَرَ مخالف لهذه الأجناس، فصار هؤلاء لا يعرِّفونها إلا بالسلوب التي توجب مخالفتها للأجسام المشهودة، وأولئك يجعلونها من جنس الأجسام المشهودة، وكلا القولين خطأ.

وإطلاق القول عليها بأنها جسمٌ، أو ليست بجسمٍ، يحتاج إلىٰ تفصيل، فإن لفظ «الجسم» للناس فيه أقوال متعددة اصطلاحية غير معناه اللغوي.

فأهل اللغة يقولون: الجسم هو الجسد والبدن. وبهذا الاعتبار فالروح ليست جسمًا، ولهذا يقولون: الروح والجسم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

وأما أهل الكلام، فمنهم مَن يقول: الجسم هو الموجود، ومنهم مَن يقول: هو القائم بنفسه، ومنهم مَن يقول: هو المركب من الجواهر المنفردة، ومنهم مَن يقول: هو المركب من المادة والصورة. وكل هؤلاء يقولون: إنه مشار إليه إشارة حسية.

ومنهم من يقول: ليس بمركب لا من هذا ولا من هذا، بل هو ما يشار إليه، ويُقال: إنه هنا أو هناك.

فعلىٰ هذا، إذا كانت الروح مما يُشار إليه ويَتبعه بصرُ الميّت -كما قال النبي ﷺ: «إنَّ الروح إذا خرجَ تَبِعَهُ البصرُ»، وإنها تُقبض ويُعرج بها إلىٰ السماء- كانت الروح جسمًا بهذا الاصطلاح»[1].

(١) التدمرية (ص٥٢-٥٦).

الشَّرح

الروحُ نُحِسُّ بها ولا نُبْصرها، ونصوصُ الوحي لَمْ تخبرنا بكيفيتها.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النصُّ لَمْ يخبر بكيفيتها؛ لأنَّ الإخبار بالكيفية إنما يكون فيما له نظير يماثله، وليست الروح من جنسٍ ما نشهده من الأعيان، فلا يمكن تعريفنا بكيفيتها، وإن كانت لها كيفية في نفسها».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: وما أَطْلعكم من علمه إلا علىٰ القليل، فإنه لا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والمعنىٰ: أنَّ عِلْمكم في عِلْم الله قليلٌ، وهذا الذي تسألون عنه: أمر الروح مما استأثر به تعالىٰ، ولَمْ يطلعكم عليه، كما أنه لَمْ يطلعكم إلا علىٰ القليل من علمه تعالىٰ».

فالرّوحُ التي بين جنبيكَ لا تُبصرها، ولكنكَ تُحِسّ بها، وعِلمكَ بماهيتها قليلٌ؛ فلذلكَ لا يمكنكَ وصفُ كيفيتها.

وللهِ المَثَلُ الأعلىٰ، له في كلِّ شيءٍ آيةٌ تدلُّ علىٰ أَحديته وأُلوهيته وكمالِه في خلقِهِ وأَمْرِه، وقد أخبرنا اللهُ بصفاته فعقلنا معانيها ولَمْ نَعْرِف كيفيتها، فلا نقولُ علىٰ اللهِ بغيرِ علمٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].



(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٤/ ٢٤٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٦).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمقصود: أن الروح إذا كانت موجودةً، حيةً، عالِمةً، قادرة، سميعةً، بصيرةً، تصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها؛ لأنهم لم يشاهدوا لها نظيرًا، والشيء إنما تُدرك حقيقته إمَّا بمشاهدته أو بمشاهدة نظيره، فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لِمَا يُشاهَد من المخلوقات، فالخالِقُ أَوْلَىٰ بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول هُمْ أَعْجَزُ عن أنْ يُحِدُّوه أو يُكَيِّفُوه منهم عن أنْ يُحِدُّوا الروح أو يكيفوها.

فإذا كان مَن نَفَىٰ صفات الروح جاحدًا مُعطِّلًا لها، ومَن مثَّلها بما يشاهده من المخلوقات جاهلًا مُمثِّلًا لها بغير شكلها، وهي مع ذلك ثابتة بحقيقة الإثبات، مستحقة لِمَا لها من الصفات، فالخالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَوْلَىٰ أن يكون مَن نَفَىٰ صفاتِه جاحدًا مُعطِّلًا، ومَن قاسَهُ بخَلْقِه جاهلًا به مُمثِّلًا، وهو سبحانه ثابت بحقيقة الإثبات، مستحق لِمَا له من الأسماء والصفات[1].

الشَّرح

الإنسانُ روحُه التي بين جَنْبَيْهِ عَجَزَ أنْ يحيط بحقيقتها؛ وذلك لأنها ممَّا لا يُرىٰ؛ لكن الإنسان يعقل ويحس ببعض صفاتها.

وعامَّةُ المعطلة الذين كَذَّبوا الله عَزَّ وَجَلَّ فيما أخبر به عن نفسه، وأنكروا أسماء الله وصفاته كان سببُ تكذيبهم أن عقولهم نَفَتْ ذلك ولَمْ تُثْبِتْهُ، وهذا تعالُمٌ وخوضٌ في الغيب بما لم يحيطوا بعلمه.

---

(١) التدمرية (ص٥٦، ٥٧).

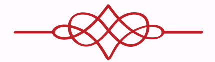
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن النفي إنما اعتمدوا فيه علىٰ أمور عقلية ظنوها بَيِّناتٍ وهي شُبهاتٌ، والسمع حَرَّفوا فيه الكلام عن مواضعه».

فمَنْشَأُ ضَلالِ المعطلة: من الكلام بالغيب في أسماء الله وصفاته بخلافِ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسه، ومنشأ هداية الموحدين: من الإيمان بالله، وتصديق خبره عن نفسه.

فالأمور الغيبية إذا جاء الخبر بها في القرآن، وَجَبَ الإيمان بها وتصديقها، أمَّا تكذيبها وتحريف معانيها فهذا كلُّه من تكذيب كلام الله وتحريفه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الله جَلَّ وَعَلَا لو تَبَدَّىٰ لخَلْقِه، وتَجلَّىٰ لهم في الدنيا، لم يكن لإيمان الغيب هناك معنىٰ، كما أنه لَمْ يَكْفُرْ به عندها كافِرٌ، ولا عَصَاهُ عاصٍ؛ ولكنه احتجب عنهم في الدنيا، ودعاهم إلىٰ الإيمان به بالغيب، وإلىٰ معرفته والإقرار بربوبيته، لِيُؤْمِنَ به مَن سبقت له منه السعادة، ويَحِقّ القول علىٰ الكافرين.

ولو قد تَجَلَّىٰ لهم لآمَنَ به مَن في الأرض كلهم جميعًا بغير رُسُلٍ، ولا كُتُبٍ، ولا دُعاةٍ، ولَمْ يَعْصُوه طَرْفَةَ عينٍ، فإذا كان يوم القيامة تَجلَّىٰ لمَن آمَنَ به، وصَدَّق رُسُلَهُ وكُتُبَه، وآمَن برؤيته، وأَقَرَّ بصفاته التي وصف بها نفسه، حتىٰ يروه عيانًا؛ مَثُوبَةً منه لهم وإكرامًا، ليزدادوا بالنظر إلىٰ مَن عبدوه بالغيب نعيمًا، وبرؤيته فرحًا واغتباطًا».



(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص١٩٠).

(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٦١، ٦٢).



قال المصنف رحمه الله:

فصلٌ.

وأمَّا الخاتمة الجامعة، ففيها قواعد نافعة:

القاعدة الأولىٰ: أن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي. فالإثبات كإخباره أنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، والنفي كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ، إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ؛ لأن النفي المَحْضَ عدمٌ مَحْضٌ، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو كما قيل: ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا؛ ولأن النفي المحض يُوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يُوصف بمدحٍ ولا كمالٍ[1].



الشَّرْح

امتَدحَ اللهُ ﷻ نفسه بما أخبرنا عن صفاته الثبوتية، وبما نَفَاه عن نفسه من صفات النقص التي تعالىٰ أن يتصف بها لكماله، فهو سبحانه لكمال ذاته تَنزَّه عن النقص، وكل صفاته وأفعاله غاية في الكمال.

والنفي المحض عَدَمٌ، والعدم ليس صفة كمالٍ؛ ولذلك أعلمنا اللهُ ﷻ أنَّ ما نفاه عن نفسه تنزَّه عنه؛ لأنها صفاتُ نقصٍ، واللهُ متَّصفٌ بضدِّها من صفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فاللهُ ﷻ لكمالِ قدرته لا يعجزه شيء.

---

(١) التدمرية (ص٥٧، ٥٨).

والله ﷻ نفىٰ عن نفسه ما يَتنزَّه أنْ يُوصف به من النقص، وتَضمَّنَ ذلك تمدُّحَ نَفْسه بكماله المتضمن إثبات ضِدِّ ما نفاه، قال تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا مَدْحَ لشيء من المعدومات، بل المدح إنما يكون بالأمور الثبوتية، لا بالأمور العَدَمِيَّة.

وإنما يحصل المدح بالعدم إذا تضمَّن ثبوتًا، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنَزَّه نفسه عن السِّنة والنوم؛ لأن ذلك يتضمن كمالَ حياتِه وقيوميته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فهو سبحانه حيٌّ لا يموت، قيوم لا ينام.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨]، فنزَّه نفسه المُقدَّسة عن مَسِّ اللُّغُوب -وهو الإعياء والتعب- ليتبين كمال قدرته.

فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال، مُنزَّهٌ عن كل نقصٍ وعَيْبٍ، موصوف بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، مُنزَّهٌ عن الموت والجهل والعجز والصَّمَم والعَمىٰ والبَكَم، وهو سبحانه لا مثل له في شيء من صفات الكمال».

ودلَّ اسمُ الله «السلام» و«القدوس» علىٰ نفي كلِّ صفةِ نَقْصٍ وعَيْبٍ عن الله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة، (ص٢٠٧، ٢٠٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنه -سبحانه- قدوسٌ سلامٌ يُمتنع عليه النقائص والعيوب بوجه من الوجوه».

وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] انتظمت حقيقة كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، فأَخْلَصَتِ العبوديةَ لله وحده، ونَفَتِ العبوديةَ لغيره؛ لأنه لا يستحق العبودية إلا مَن له الكمال كله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «اشتمال هذه السورة علىٰ النفي المحض، فهذا هو خاصَّة هذه السورة العظيمة؛ فإنها سورة بَراءَة من الشرك، كما جاء في وَصْفِها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم: هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتىٰ بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة.

هذا، مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا، فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] براءة محضة، ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] إثبات أن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمَّنت النفي والإثبات، وطابَقَتْ قول إمام الحُنَفاء: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابَقَتْ قول الفِئَة الموحدين: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله».

وليس في نصوص الوحي نفيُ المعطلة الذي لا يتضمن مدحًا ولا إثباتَ كمالٍ ضد الصفات المنفية عن الله، فمضمون الصفات المنفية عن الله في القرآن والسُّنة مُتضمِّنٌ ومُستَلْزِمٌ لمدح الله، والثناء عليه، وحَمْدِه.

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة، (ص٢٠٨).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣٨).

ونفيُ المعطلة؛ حقيقتُه نفيُ ما أَثْبَتَهُ اللهُ ﷻ لنفسه من صفات الكمال، فهم يَنعتون معدومًا، لا يصفون عظيمًا أحدًا صَمدًا.

ونفيُ المعطلة صفات الله؛ حقيقتُه إبطالُ الإيمان بالله ﷻ، وإنكارٌ لتوحيد أسماء الله وصفاته، وهو إنكار لذات الله ﷻ.

ومَن عَرفَ حقيقة مذهب الجهمية المعطلة حَكَمَ بكفرهم، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إني لأستجهل مَن لا يُكفِّرهم، إلا مَن لا يَعْرِف كُفْرَهُم».

فحقيقة مذهب المعطلة النافية الجهمية: التعطيل المحض الذي لا يُوجد إلا في المعدوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا يصفونه إلا بالسُّلُوبِ المحضة التي لا تنطبق إلا على المعدوم».

فالجهمية المعطلة أول الفِرَق تعطيلًا لتوحيد الأسماء والصفات، وأعظمهم إبطالًا للتوحيد، وأنواع فرق التعطيل من بعدهم إنما هي من فروعهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ذَكَر علماء الإسلام والسُّنة أن هذا السَّلْبَ أول مَن ابتدعه في الإسلام هم الجهمية، وليس له أصلٌ في دِين المسلمين ولا غيرهم».

ونفيُ ما أَثْبَتَهُ اللهُ ﷻ لنفسه، إبطالٌ لألوهيته المستلزمة عبوديته، وإنكارٌ لعظمته، فما من صفة من صفاته إلا وهي غاية في الكمال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٢٤).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٥٠٩).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٨٤).

ومَن لَمْ يَعْرِف الله بأسمائه وصفاته، كيف يَصْمُد إليه ويَقصده ويَعبده؟! وكيف يأتي بأسباب رضاه ومحبته؟! وكيف يسلك الطريق الموصلة إليه؟!

فحقيقة الدين والإسلام: معرفةُ الله، والانقياد لأمره ونهيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «اتفق علماء السلف وأئمة الدين أن قول الجهمية: إنه ليس فوق العرش، ولا داخل العالم ولا خارجه؛ يتضمن أنه معدوم لا حقيقة له ولا وجود».

والمعطلة حقيقةُ أَمْرِهم: أنهم ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، فإذا لم يكن لله صفة -كما يقولون- فكيف خَلَق السماوات والأرض؟ وكيف أوحىٰ القرآن إلىٰ رسوله ﷺ؟ وكيف يجيب المضطر إذا دَعاه؟ وكيف يُدبِّر أَمْرَ الخَلق؟ أَلَمْ تَرَ أن الله في كل يوم يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وقد كان النبي ﷺ يُعلِّم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معاني معرفة أسماء الله وصفاته؛ لِيَتأَلَّهُوا له وحده، قال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تَعرَّفْ إلىٰ الله في الرَّخاء، يَعرِفْكَ في الشِّدَّة».

ومَن عَرفَ فَقْرَه إلىٰ الله، وغِنَىٰ الله عنه، وتَحقَّق بمعنىٰ صفات المعطي المانع، كان ملازمًا للإيمان بربه في السرَّاء والضرَّاء، وكان شاكرًا صابرًا عابدًا لمولاه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «المعطي المانع، فهو سبحانه يُصرِّف عباده بين مقتضىٰ هذين الاسمين، فحظُّ العبد الصادق من عبوديته بهما: الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع، فهو سبحانه يعطيه؛ لِيَشْكُرَه، ويمنعه؛ لِيَفْتَقِرَ إليه، فلا يزال شكورًا فقيرًا».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٥٧٨).

(٢) الفوائد (ص١١٤).

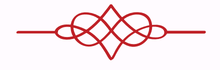
فحقيقة مذهب المعطلة: مُكابَرةٌ للمعقول، وإنكارٌ للمحسوس، وتكذيبٌ للقرآن والسُّنة، ومُشاقَّة لإجماع السابقين الأوَّلِين.

ومِنْ أعظم ما عَرفَ به العبادُ ربهم: وَحْيُه الذي شَرَعَه، فَصَّله اللهُ علىٰ علمٍ، وأَمَر الله فيه بكل خير، ونهىٰ فيه عن كل شر، وأخبر فيه ما كان من نَبأ مَن قَبْلنا ومَن بَعْدنا، وبيَّن فيه حُكْمَ ما بيننا، ليس في قدرة أحد ولو اجتمعت الجن والإنس علىٰ أن يأتوا بمثله.

قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «صراط الله من أكبر الأدلة علىٰ ما لله من صفات الكمال، ونُعوت الجلال؛ وأن الذي نصبه لعباده عزيزُ السلطان، حميدٌ في أقواله، وأفعاله، وأحكامه؛ وأنه مَأْلُوهٌ معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم. وأنه كما أن له مُلْكَ السماوات والأرض، خلقًا، ورزقًا، وتدبيرًا، فله الحُكْمُ علىٰ عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم مِلْكُه».

فالموحدون الحنفاء أَثْبَتُوا ما أخبر الله به عن نفسه من أسماءٍ وصفات، علىٰ نحو ما دلَّ عليه القرآن والسُّنة التي ذَكَر الله فيها أسماءه وصفاته، فيثبتون كل ما سَمَّىٰ الله ووَصَف به نفسه.



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٥).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلهذا كان عامَّةُ ما وَصَف الله به نفسه من النفي مُتضمِّنًا لإثبات مدحٍ، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾.

فنفيُ السِّنة والنوم يتضمَّن كمالَ الحياةِ والقيام، فهو مبيِّن لكمال أنه الحي القيوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ أي: لا يَكْرِثُهُ، ولا يُثْقِلُه، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها. بخلاف المخلوق القادر إذا كان يَقْدِرُ علىٰ الشيء بنوعِ كُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، فإن هذا نقصٌ في قدرته، وعيبٌ في قوته.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنّ نَفْيَ العُزُوبِ مستلزِمٌ لعِلْمِه بكلِّ ذَرَّةٍ في السماوات والأرض.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾، فإنّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوب الذي هو التعب والإعياء دلَّ علىٰ كمال القدرة، ونهاية القوة، بخلاف المخلوق الذي يَلْحقه من النَّصَب والكَلال ما يلحقه.

وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، إنما نَفَىٰ الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء، ولمْ يَنْفِ مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يُرىٰ، وليس في كونه لا يُرىٰ مدحٌ؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدحُ في كونه لا يُحاط به وإنْ رُئِيَ، كما أنه لا يُحاط به وإن عُلِمَ، فكما أنه إذا عُلم لا يحاط به علمًا، فكذلك إذا رُئي لا يُحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثباتِ عظمتِه ما يكون مدحًا وصفةَ كمالٍ، وكان ذلك دليلًا علىٰ إثبات الرؤية لا علىٰ نفيها، لكنه دليلٌ علىٰ إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلفُ الأُمَّة وأئمتها.

وإذا تأمَّلتَ ذلك وجدتَ كلَّ نفيٍ لا يستلزم ثبوتًا، هو مما لمْ يَصِفِ اللهُ به نفسه[1].



الشَّرح

صفاتُ الكمال التي تَمدَّح الله بها نفسه متضمنة لتنزيهه عن أضدادها من النقص، وصفاتُ النقص التي نفاها الله عن نفسه متضمنة لإثبات كمالِ ضدها من صفات الكمال، فكان فيما وَصَف الله به نفسه من صفات الكمال، وما نَفاه عن نفسه من صفات النقص؛ غاية المدح له ﷻ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الرب تعالىٰ أسماؤه كلها حُسْنَىٰ، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمالٌ ليس فيها صفةُ نقصٍ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعلٌ خَالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المَثَلُ الأعلىٰ في السماوات والأرض وهو العزيز

(١) التدمرية (ص٥٨، ٥٩).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

الحكيم. موصوف بصفات الكمال، مذكور بِنُعُوت الجَلال، مُنزَّه عن التشبيه والمِثال، ومُنزَّه عما يضاد صفات كماله: فمُنزَّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية.

وموصوف بالعلم، مُنزَّه عن أضداده كلِّها، من النسيان والذُّهول وعُزوب شيءٍ عن علمه.

موصوف بالقدرة التامة، مُنزَّه عن ضدها، من العجز واللُّغوب والإعياء.

موصوف بالعدل، مُنزَّه عن الظلم.

موصوف بالحكمة، مُنزَّه عن العَبَث والسَّفَه.

موصوف بالسمع والبصر، مُنزَّه عن أضدادهما، من الصَّمَم والبَكَم.

موصوف بالعلو والفوقية، مُنزَّه عن ضِدِّ ذلك.

موصوف بالغِنىٰ التام، مُنزَّه عما يضاده بوجهٍ من الوجوه.

ومُستحِقٌّ للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي. بل الحمد كله واجب له لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًّا وقادرًا».

وانتخبَ شيخُ الإسلام ابن تيمية هنا بعض الآيات لشرح قاعدة: النفي المتضمن المدح في أسماء الله وصفاته، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال شيخ الإسلام: «نفيُ السِّنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مُبيِّنٌ لكمال أنه الحي القيوم. وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي: لا يَكْرِثُه ولا يُثْقِلُه، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها».

وشَرَح شيخ الإسلام هذه القاعدة كذلك بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، قال شيخ الإسلام: «إنَّ نَفْيَ العُزوب مستلزم لعِلْمِه بكلِّ ذَرَّةٍ في السماوات والأرض».

وشَرَح القاعدة بذِكْر قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، قال شيخ الإسلام: «إن نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوب الذي هو التعب والإعياء دلَّ علىٰ كمال القدرة ونهاية القوة».

فأسماءُ اللهِ وصفاته غايةٌ في الحُسْن والكمال، ليس فيها نقصٌ أبدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنه سبحانه أَحدٌ صَمدٌ، قَيُّوم، لا تأخذه سِنة ولا نوم، ويمتنع عليه أضدادُ أسمائه الحسنىٰ التي وجبت له بنفسه».

فالله جَلَّ وَعَلَا كَمُلَ في صفاته، فكان لذلك إله الحق الذي لا تصح العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ لأنه ليس له مَثَلٌ ولا نَظِيرٌ ولا كُفْوٌ، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، قال شيخ الإسلام ابن

(١) جامع المسائل المجموعة السادسة، (ص١٧).

تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قَصد نَفْي إلهٍ سواه، ولهذا قيل: ﴿لَفَسَدَتَا﴾، وهذا يتضمن نَفْيَ ربٍّ غيره».

فإثبات صفات الله ﷻ ينفي الشريك عنه، وذلك من أعظم ما يكون من توحيد الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

والخَلْقُ مَفطورون علىٰ معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكماله الذي اختص به، وكان باعِثُ الفطرة ذلك سببًا لإفراد الموحدين ربهم بالعبودية، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وبيَّن شيخُ الإسلام أنَّ قول الله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، دالٌّ علىٰ إثبات الرؤية لله في الدار الآخرة من غير إحاطة بالله، قال شيخ الإسلام: «فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحًا وصفة كمال، وكان ذلك دليلًا علىٰ إثباتِ الرؤيا، لا نَفْيها».

فرؤية الله في الدار الآخرة ثابتة للمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤].

فالإدراكُ ليس مرادفًا للرؤية، وإنما هو قَدْرٌ زائد علىٰ الرؤية، وهو الإحاطة بالمَرْئيِّ.

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة، (ص١٧٤).

قال العَلَّامة أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «معناه -الإدارك- عند أهل العلم: أي: لا تحيط به الأبصار، ولا تحويه عَزَّ وَجَلَّ، وهم يرونه من غير إدراك، ولا يَشُكُّونَ في رؤيته، كما يقول الرَّجُل: رأيتُ السماء. وهو صادقٌ، لكنه لمْ يُحِط بصره بكل السماء، ولمْ يدركها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الآية: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] حُجَّةٌ عليهم، لا لهم؛ لأنَّ الإدراكَ إمَّا أنْ يُراد به مُطْلَقُ الرؤية، أو الرؤية المُقيَّدة بالإحاطة، والأولُ باطلٌ؛ لأنه ليس كلُّ مَن رأىٰ شيئًا يُقال: إنه أدركه، كما لا يُقال: أحاطَ به، كما سُئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن ذلك، فقال: ألستَ ترىٰ السماءَ؟ قال: بلىٰ. قال: أَكُلّها ترىٰ؟ قال: لا».

فرؤيةُ اللهِ ممكنة بلا إحاطة به، والذي يدلُّ علىٰ حصولِ الرؤية من غير إحاطة قوله تعالىٰ في موسىٰ وأتباعه وهروبهم من فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «نفىٰ موسىٰ الإدراك مع إثبات الترائي، فعُلم أنه قد يكون رؤيةٌ بلا إدراكٍ».

فرؤيةُ المؤمنين لربهم يوم القيامة ثابتةٌ بالقرآن ومتواتر السُّنة والإجماع.

وقد ذكرتُ بعض أدلة القرآن في ذلك، والأحاديثُ في ذلك متواترةٌ، قال يحيىٰ بن معين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «عندي سبعة عشر حديثًا في الرؤية، كلُّها صِحَاحٌ».

(١) الشريعة (٢/ ٥٠).
(٢) منهاج السُّنة (٢/ ٣١٨).
(٣) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٤٦).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «رَوَىٰ عن رسول الله ﷺ من الصحابة حديثَ الرؤية ثلاثة وعشرون نفسًا».

وقال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «تواترتِ الأخبارُ الصِّحاح عن النبي ﷺ بالنظر إلىٰ وجهِ الله ﷻ، وقبلها أهل العلم أحسن قَبُولٍ».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصِّحاح من طُرقٍ متواترة، لا يمكن دَفْعُها ولا مَنْعُها».

عن جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»، رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ الناسَ قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضَارُّونَ في القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فهل تُضَارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟». قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه كذلك»، رواه البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «شَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بالرُّؤيةِ، ولمْ يُشَبِّهِ المَرْئِيَّ بالمَرْئِيِّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «إنَّ قوله: «لا تُضَامُّونَ» يُروىٰ بالتخفيف؛ أي: لا يلحقكم ضيمٌ في رؤيته، كما يلحق الناس عند رؤية الشيء

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٤٥).
(٢) الشريعة (٢/ ٥٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧٩).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٨٤).
(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٨٣-٨٦).

الحسن كالهلال، وهو سبحانه يتجلَّىٰ تجليًّا ظاهرًا، فيرونه كما تُرىٰ الشمس والقمر بلا ضيمٍ يلحقكم في رؤيته، وهذه الرواية المشهورة.

وعلىٰ رواية التشديد فهي من التَّضامِّ: «انضمام بعضهم إلىٰ بعضٍ»، وليس معناه: «أنه لا تَضُمُّهم جهة»، والرَّاؤون كلهم في جهةٍ واحدة علىٰ الأرض؛ أرض القيامة، أو في الجنة، وكلُّ ذلك جهة، ووجود نَفْسِهم لا في جهة مكانٍ ممتنعٌ حِسًّا وعقلًا».

والإجماعُ علىٰ اعتقاد رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة معلومٌ، قال قتيبة بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قول الأئمة المأخوذ به في الإسلام والسُّنة: الإيمانُ بالرؤية، والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ».

وقال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذه الأحاديث كلها، وأكثر منها، قد رُويتْ في الرؤية، علىٰ تصديقها والإيمان بها، أدركنا أهلَ الفقه والبَصر من مشايخنا، ولمْ يزل المسلمون قديمًا وحديثًا يَرْوُونها، ويؤمنون بها».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هذا -بحمد الله- مَجْمَعٌ عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأُمَّة، كما هو متَّفقٌ عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام».

فمَن أنكرَ رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة فهو كافرٌ؛ لأنه مُكذِّبٌ للقرآن ومتواتر السُّنة، ومشاق لإجماع المؤمنين.

---

(١) أصول أهل السُّنة والجماعة (٢/ ٥٦١- رقم ٨٦٦).

(٢) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص٦٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٠).

قال الإمام أحمد في رواية أبي داود السجستاني[١]: «مَن قال: إنَّ الله لا يُرىٰ فهو كافرٌ».

وقال الإمام أحمد في رواية أبي بكر المَرُّوذِي[٢]: «مَن زعمَ أنَّ الله لا يُرىٰ في الآخرة فهو كافرٌ».

وقال الإمام أحمد في رواية حَنْبَل بن إسحاق[٣]: «مَن زعمَ أنَّ الله لا يُرىٰ في الآخرة فقد كفرَ بالله، وكذَّب بالقرآن، وَرَدَّ علىٰ اللهِ أَمْره».

وقال الإمام أحمد في رواية ابن هانئ النيسابوري[٤]: «مَن لمْ يؤمن بالرؤية فهو جهميٌّ، والجهميُّ كافرٌ».

وقد حكىٰ العلَّامة أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ اتفاق العلماء علىٰ ثبوت الرؤية، وتكفير مَن أنكرها.

قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «إنَّ المؤمنين يرون اللهَ تعالىٰ، لا يشكون في ذلك، ثم قالوا -العلماء-: مَن رَدَّ هذه الأخبار فقد كَفَر».

أنكرتِ الجهميةُ والمعتزلةُ والخوارجُ والرَّافضة رؤية المؤمنين ربهم في الدار الآخِرة، وحرَّفوا قول الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] إلىٰ معنىٰ انتظار الثواب.

---

(١) المسائل (ص٢٦٣).
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٥٩).
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥).
(٤) المسائل (٢/ ١٥٢).
(٥) الشريعة (٢/ ٧).

وهذا التحريفُ يُبْطِله أنَّ اللهَ أضافَ النظر إلىٰ الوجه، الصريح في نظرِ العين، وهذا صريحٌ في إفادة نظرِ العينِ إلىٰ الله.

والفعلُ «نظرَ» في الآيةِ عُدِّيَ بـ «إلىٰ»، فمعناه: المعاينة بالأبصار.

والفعل «نظرَ» يفيدُ الانتظار إذا عُدِّيَ بنفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وإذا عُدِّي الفعل «نظرَ» بـ «في» كان معناه: التفكُّر والاعتبار[١].

واستدلتِ المعتزلةُ بقول الله تعالىٰ لموسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ علىٰ نفيِ الرؤية في الدنيا والآخرة، حيث زعموا أنَّ «لن» تفيدُ النفيَ المُؤبَّد.

و «لن» لا تفيدُ النفيَ المُؤبَّد، قال ابن مالك:

ومَن رأىٰ النفي بـ «لن» مُؤَبَّدًا فقولَه ارْدُدْ وسِوَاهُ فاعْضُدا

ويدلُّ لذلك من القرآنِ: قوله تعالىٰ عن تمنِّي الكُفَّار الموت يوم القيامة: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم كانوا لا يتمنون الموتَ في الدنيا ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥].

المخلوقُ لا يمكنُ أنْ يرىٰ اللهَ في الدنيا؛ لعجزه، ولاحتجابِ الله عن خَلقِه، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ نورٌ، وحِجابُه نورٌ، لو كشفَه لأحرقتْ سُبحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره»، رواه مسلمٌ من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، فإذا كان في الدار

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٠٩).

الآخرة أكملَ اللهُ الآدميين وقوَّاهم حتىٰ أطاقوا رؤيته[(١)].

والحكمةُ في احتجابه عن خَلقِه في الدنيا دون الآخرة: هو أنه لو تجلَّىٰ لآمنَ به مَن في الأرض كلهم جميعًا بغيرِ رُسُلٍ، ولا كُتُبٍ، ولا دُعاةٍ، ولمْ يعصوه طَرْفَةَ عينٍ.

المؤمنون يرون ربَّهم في عَرَصاتِ يوم القيامة، وفي روضات الجِنات[(٢)].

وأمَّا الكُفَّار فلا يرونه بحالٍ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٣)]: «العُمدة قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فإنه يَعُمُّ حجبهم عن ربهم في جميع ذلك اليوم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٤)]: «وَصْفُهم بالعمىٰ ينافي الرؤيةَ».

خالفتِ الأشاعرةُ أهلَ السُّنة في الرؤية، فهم يُثْبِتُون رؤيةً من غير مقابلة، وبعضهم يُؤوِّل الرؤيةَ إلىٰ معنىٰ العلم الضروري، فصاروا إلىٰ قول المعتزلة.

قال العلَّامة أبو نصر السِّجْزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ت: ٤٤٤هـ)[(٥)]: «قال الأشعريُّ: إنَّ اللهَ سبحانه يُرىٰ يوم القيامة علىٰ الحقيقة. وأظهرَ الردَّ علىٰ مَن أنكرها، وأفصحَ في

---

(١) منهاج السُّنة (٢/ ٣٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٨٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٠١، ٥٠٢).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٠١، ٥٠٢).

(٥) الردُّ علىٰ مَن أنكرَ الصوتَ والحَرْف (ص١١٨).

بعضِ كُتُبه أنه «يُرىٰ بالأبصار»، وقال في موضعٍ آخرَ: «لا تختصُّ الرؤية بالبصر، ولا تكون عن مقابلة؛ لأنَّ ما يُرىٰ مقابلةً كان جسمًا».

فهو إذا قال: إنه يُرىٰ بالأبصار، لَمْ يَجُزْ في العقل أنْ تكونَ الرؤية عن غير مقابلة، وإنْ قال: إنَّ الرؤيةَ لا تَخُصُّ البصرَ عاد إلىٰ قول المعتزلة، وصارت الرؤية في معنىٰ العلم الضروري.

وقد حُكي عن بعضِ متأخريهم أنه قال: لولا الحياء من مخالفة شيوخنا لقلتُ: إنَّ الرؤية هي العلمُ لا غير».

وردَّ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الأشاعرة، وبيَّن أنَّ قولهم هو قول المعتزلة، فقال[1]: «رؤية ما لا نُعاين ولا نواجهه فهذه غير مُتَصَوَّرةٍ في العقل، فضلًا عن أنْ تكونَ كرؤية الشمس والقمر، ولهذا صار حُذَّاقُهم إلىٰ إنكار الرؤية، وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن».



(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٨٤).

قال المصنف رحمه الله:

فالذين لا يصفونه إلا بالسُّلُوب لم يثبتوا في الحقيقة إلهًا محمودًا، بل ولا موجودًا.

وكذلك مَن شاركهم في بعض ذلك كالذين قالوا: إنه لا يتكلم، أو لا يُرىٰ، أو ليس فوق العالم، أو لم يستوِ علىٰ العرش، ويقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مُبايِن للعالَم ولا مُحايث له؛ إذ هذه الصفات يمكن أن يُوصف بها المعدوم، وليست هي مستلزمة صفة ثبوت، ولهذا قال محمود بن سُبكتكين لمَن ادّعىٰ ذلك في الخالق: ميِّزْ لنا بين هذا الرب الذي تُثْبِته وبين المعدوم[1].

الشَّرح

وَصْفُ اللهِ بالصفات السلبية من غير صفاتٍ ثبوتية له، طريقةُ المبتدعة؛ فإن النفي عَدَمٌ، والعدم المحض لا كمالَ فيه.

وبَلَغ غُلوُّ الضُّلَّال في هذه الطريقة إلىٰ درجة وصفِ الله بالعدم، فلمْ يثبتوا إلهًا مستويًا علىٰ عرشه، يُدبِّر أَمْر خَلْقِه، وهذه الطريقة مخالفة لإجماع المسلمين وفِطَرِهم؛ فإنهم يعبدون ويدعون إلهًا مستويًا علىٰ عرشه، سميعًا بصيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وتعطيل النافين لصفات الله يُبيِّن لكَ كمال الله، وغِناه عن الكافرين به، فمَن أنكر صفات الله ﷻ فإنه لم يعبد الله؛ وإنما يعبد عَدَمًا!

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

---

(١) التدمرية (ص٥٩، ٦٠).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «من تمام غِناه: أنه لم يتخذ صاحبةً، ولا ولدًا، ولا شريكًا في مُلكِه، ولا ظهيرًا، ولا مُعاوِنًا له على شيء من تَدابِيرِ مُلكِه.

ومن كمال غناه: افتقار العالَم العُلْوِي والسُّفْلِي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة.

فقامَ تعالىٰ بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم، وأَقْنَاهُم، ومَنَّ عليهم بلطفه، وهداهم».

وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «قال عليُّ بنُ أبي طلحة: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الغنيُّ: الذي قد كَمُلَ في غناه، وهو الله.

هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كُفْءٌ، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار الحميد المستحمد إلىٰ خَلْقِه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه».

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إجماعٌ مِنَ الأوَّلِين والآخِرِين، العالِمين منهم والجاهلين: أنَّ كل واحد ممن مَضَىٰ وممن غَبَر، إذا استغاث بالله تعالىٰ، أو دعاه، أو سأله، يَمُدّ يديه وبصره إلىٰ السماء، يدعوه منها،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٤٢٢)، ط- دار المدني، - جدة.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٤٦).

(٣) الرد علىٰ الجهمية (ص٢٠، ٢١).

ولم يكونوا يدعوه من أسفل منهم من تحت الأرض، ولا من أمامهم، ولا من خلفهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم إلا من فوق السماء؛ لمعرفتهم بالله أنه فوقهم، حتىٰ اجتمعت الكلمة من المُصلِّين في سجودهم: سبحان ربي الأعلىٰ، لا ترىٰ أحدًا يقول: ربي الأسفل».

وبهذا تَعْرِفُ فَرْقَ ما بين المُوحِّدِين والمُعطِّلِين، فالموحدون يَصْمُدُون لمَن له صفات الكمال، فليس له نِدٌّ ولا كُفْؤٌ ولا مَثِيلٌ.

قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذاكرًا الفَرق بين الموحدين والمعطلين(١): «إذا تحقَّق العبد عُلُوَّه المُطْلَق علىٰ كل شيء بذاته، وأنه ليس شيءٌ فوقه ألبتة، وأنه قاهرٌ فوق عبادة، يُدبِّر الأمر من السماء إلىٰ الأرض ثم يَعْرُج إليه، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجه إليه، بخلاف مَن لا يدري أين ربه؛ فإنه ضائعٌ مُشتَّت القلب، ليس لقلبه قِبْلَةٌ يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قَصْدُه.

وصاحِبُ هذه الحال إذا سَلَك وتألَّهَ وتَعبَّد، طَلَب قلبُه إلهًا يَسْكُن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إلهٌ يُعبد ويُصلىٰ له ويُسْجَد، وأنه ليس علىٰ العرش مَن يصعد إليه الكَلِمُ الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح؛ جَالَ قلبُه في الوجود جميعِه، فوقَعَ في الاتحاد ولا بُدَّ، وتَعلَّق

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٩، ٤٠).

قلبُه بالوجود المُطْلَق السَّارِي في المُعَيَّنات، فاتخذ إلهه من دون الإله الحق، وظَنَّ أنه قد وصل إلىٰ عينِ الحقيقة! وإنما تألَّه وتَعبَّد لمخلوقٍ مِثْلِه، أو لخيالٍ نَحَته بفِكْرِه واتخذه إلهًا من دون الله، وإله الرسل وراء ذلك كله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣، ٤]».



قال المصنف رحمه الله:

وكذلك كونه لا يتكلم، أو لا ينزل، ليس في ذلك صفةُ مدحٍ ولا كمالٌ، بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمَنْقُوصات أو المعدومات، فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم، ومنها ما لا يتصف به إلا الجماد أو الناقص.

فمَن قال: لا هو مُبايِن للعالَم ولا مُداخِل للعالَم، فهو بمنزلة مَن قال: لا هو قائم بنفسه ولا بغيره، ولا قديم ولا مُحْدَث، ولا مُتقدِّم على العالَم ولا مُقارن له.

ومَن قال: إنه ليس بحيٍّ ولا سميع ولا بصير ولا مُتكلِّم، لَزِمَهُ أن يكون مَيِّتًا أَصَمَّ أعمى أَبْكَمَ.

فإنْ قال: العمى عَدَمُ البصر عمّا من شأنه أن يَقْبَلَ البصر، وما لا يَقْبَلُ البصر كالحائط لا يُقال له: أعمى ولا بصير.

قيل له: هذا اصطلاح اصطلحتموه، وإلا فما يُوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وَصْفُه بالموت والصَّمَم والعَمى والخَرَس والعُجْمَة.

وأيضًا: فكلُّ موجودٍ يَقْبَلُ الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها، فإن الله قادر على جعلِ الجماد حيًّا، كما جَعَل عصى موسى حيّة، ابتلعت الحِبالَ والعُصِيَّ.

وأيضًا: فالذي لا يَقْبَلُ الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصًا ممَّن يَقْبَل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها، فالجماد الذي لا يُوصف بالبصر ولا العمى، ولا الكلام ولا الخرس، أعظم نقصًا من الحي الأعمى الأخرس(١).

---

(١) التدمرية (ص٦١، ٦٢).

الشَّرْح

عقيدةُ المُوحِّدِين: تصديقُ خبرِ الله ﷻ ورسوله ﷺ في أسماء الله وصفاته، وإجلالُ اللهِ وتعظيمه بإثبات نُعُوت الكمال التي تَمدَّح الله بها نفسه بالإخبار عنها، فإثباتها على الكمال الذي لا يماثله شيء هو من التعظيم لله الذي في قلوب الموحدين، وهو من إثبات المَثَل الأعلىٰ لله، ونَفْيُ ما وَصَف الله نفسه من صفات الكمال تكذيبٌ لخبر الله ﷻ عن نفسه، ومَن وَصَفه بمثل السوء الذي تَنزَّه الله عنه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن سَلَب صفات الكمال عن الله تعالىٰ وعُلُوِّه علىٰ خَلْقِه وكلامه وعِلْمِه وقدرته وسائر ما وَصَف به نفسه، فقد جَعَل لله مَثَل السَّوء، ونَزَّهه عن المَثَل الأعلىٰ؛ فإنَّ مَثَلَ السَّوْء هو العدم وما يستلزمه، وضِدُّه المَثَل الأعلىٰ وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل، كان أعلىٰ من غيره».

نَفْيُ المعطلة صفات الكمال لله ﷻ، حقيقتُه ضَرْب مَثَل السَّوْء لله ﷻ، تعالىٰ الله عن تعطيلهم علوًّا كبيرًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد ضَرَب الله سبحانه مَثَل السَّوء للأصنام بأنها لا تَخْلق شيئًا وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لِعَابِدِيها ضرًّا ولا نفعًا،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٥).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٩).

ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا».

ونفيُ صفات الكمال عن الله ﷻ هو مُغالَطةٌ في الاعتقاد، فلا تُوجد ذاتٌ مجردة عن الصفات، فاعتقاد المعطلة في أسماء الله وصفاته مُمْتَنِعٌ غاية الامتناع، وهو من المُحال.

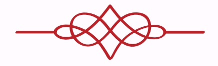
واعتقاد المعطلة بنفي صفات الله هو في حقيقته إثبات الكمال لغيره -تعالىٰ الله عن هذا الإلحاد-.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «اللهُ تعالىٰ اسمٌ للذات المتصفة بكمال العلم والقدرة والحياة والمشيئة وسائر صفات الكمال، ليس اسمًا لذاتٍ مجردة عن الأوصاف والنُّعوت، فكلُّ ذاتٍ أكمل من هذه الذات، تعالىٰ الله عن قول الملحدين في أسمائه وصفاته علوًّا كبيرًا».

فوصفُ الله بصفات العدم، هذا واقِعٌ علىٰ العدم المحض، تَنزَّه اللهُ الموصوف بصفات الكمال عن ضَلَالِ التعطيل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «هذا النفي واقِعٌ علىٰ العدم المحض، لا علىٰ مَن كَثُرَتْ أوصافُ كمالِه حتىٰ تفرَّد بذلك الكمال، فلم يكن له شَبِيهٌ في كماله ولا سَمِيٌّ ولا كُفْؤٌ».

والموحدون إنما تألَّهُوا لله وحده؛ لاتصافه بصفات الكمال التي لا يماثله فيها أَحَدٌ، ولا نظيرَ ولا نِدَّ ولا كُفْؤَ له ألبتة.



(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٦٨).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٨٦).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذا قيل: إن الباري ﷻ لا يمكن اتصافه بذلك، كان في ذلك مِنْ وَصْفِهِ بالنقص أعظمُ ممَّا إذا وُصِفَ بالخَرَس والعَمىٰ والصَّمَم ونحو ذلك، مع أنه إذا جُعل غير قابل لهما كان تشبيهًا له بالجماد الذي لا يَقْبَلُ الاتصاف بواحِدٍ منهما، وهذا تشبيهٌ بالجمادات لا بالحيوانات، فكيف يُنكِر مَن قال ذلك علىٰ غيره ما يزعم أنه تشبيه بالحي؟![(١)]

الشَّرْح

اللهُ ﷻ موصوف بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والنقص: هو ما ضَادَّ صفات الكمال، فمَن نَفَىٰ عن الله ﷻ صفة السمع والبصر والكلام، فقد وَصَفه بضدِّ ذلك من النقص؛ وهو الخَرَس والعَمىٰ والصَّمَم ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «العقلُ يُوجِبُ اتصافَهُ سبحانه بصفات الكمال، والنقص هو ما ضادَّ صفات الكمال، فالعلم صفةُ كمالٍ، فما ضاده كان نقصًا، والقدرة صفة كمال، فما ضاده كان نقصًا، والحياة صفة كمال، فما ضاده كان نقصًا».

وإثبات الكمال لله ﷻ الثابت له من أسمائه وصفاته وأفعاله، ضرورةٌ فِطْرِيَّة فَطَرَ الله عليها عباده، قد ضلَّ عن هذه الفطرة مَنِ اجْتَالَته الشياطين، قال تعالىٰ:

---

(١) التدمرية (ص٦٢).

(٢) شرح الأصبهانية (ص٤١٢).

﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «استفهم سبحانه استفهامَ إنكارٍ، وهو يتضمن الإنكار علىٰ مَن سَوَّىٰ بين مَن يَخْلُقُ ومَن لا يَخْلُقُ، وذلك علىٰ أن تفضيل مَن يَخْلُق علىٰ مَن لا يَخْلُق أَمْرٌ فطريٌّ ضروري، كتفضيل مَن يَعْلم علىٰ مَن لا يَعْلم».

ونفيُ صفات الكمال عن الله ﷻ من السمع والبصر والكلام والعلم ونحو ذلك، نفيٌ لحياة الله؛ إذِ الميتُ لا يُوصف بهذه الصفات، فكان تعطيل الجهمية لصفات الله تشبيهًا له بالميت والمعدوم، وذلك من أعظم ما يكون في الضلالة؛ تسوية الله وتشبيهه بالميت والمعدوم والجماد.

فالمعطلة النافية لصفات الكمال لله ﷻ شَبَّهُوا اللهَ بالأصنام والجمادات التي ليس لها من صفات الكمال ما يدلُّ علىٰ ربوبيتها، ويستلزم عبوديتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال تعالىٰ في ذَمِّ مَن يَعْبُد مَن لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر: ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ [طه: ٨٩]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨]».

والجهمية النافية فرعونية معطلة، نَفَوْا صفات الكمال عن الله ﷻ، وحقيقةُ مذهبهم إنكار ذات الله؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات.

(١) شرح الأصبهانية (ص٤١٣).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٥٠٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَنِ اعتقد أنه ليس فوق السماوات إلهٌ يُعبد، ولا علىٰ العرش ربٌّ يُصلىٰ له ويُسجد، وأن محمدًا لَمْ يُعرج به إلىٰ ربه، ولا إنزال القرآن من عنده، فهو مُعطِّلٌ فرعوني، ضالٌّ مُبتدِعٌ؛ فإن فرعون كَذَّب موسىٰ في أن ربه فوق السماوات، وقال: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]».

ولو أَنْصَفَ الجهمي من نفسه، وتَفَكَّر المعطل في خَلْقِه وتدبيرِ اللهِ لِأَمْرِه، ما نَفَىٰ عن الله صفاته وأفعاله وكماله.

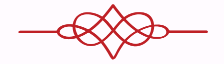
قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ماذا يَمْلِكُ مِن أَمْرِه مَن ناصيته بيد الله، ونَفْسه بيده، وقَلْبه بين أصبعين من أصابعه يُقلِّبه كيف يشاء، وحياته بيده، وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوَته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته، فلا يتحرَّك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته.

إنْ وَكَله إلىٰ نفسه وَكَله إلىٰ عجزٍ وَضَيْعَةٍ وتفريطٍ وذنبٍ وخَطِيئةٍ، وإنْ وَكَله إلىٰ غيره وَكَله إلىٰ مَن لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا ولا حياةً ولا نشورًا».

وقد أرانا اللهُ في ضَلالِ المعطلة عِلْمَهُ وحكمته وعَدْلَه؛ فإن الله أزاغهم بسبب زيغهم في تكذيب خبر الله بما وَصَف به نفسه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص١٩٩).
(٢) الفوائد (ص٧٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لَمَّا حُجِبُوا عن معرفته ومحبته وتوحيده وإثبات أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، ووَصْفِه بما يليق به، وتنزيهه عمَّا لا يليق به، صاروا أسوأ حالًا من الأنعام، وضُربوا بالحِجاب، وأُبْعِدُوا عنه بأقصىٰ البُعْدِ، وأُخْرِجُوا من نوره إلىٰ الظلمات، وغُيِّبت قلوبهم في الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته في غاباتٍ، لِيُتِمَّ عليهم أَمَدَهُ، ويَنْفُذَ فيهم حُكْمُه، واللهُ عليمٌ حكيم».



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١١٧).

قال المصنف رحمه الله:

وأيضًا فنفسُ نفيِ هذه الصفات نقصٌ، كما أن إثباتها كمالٌ، فالحياة من حيث هي، هي -مع قَطْعِ النظر عن تعيين الموصوف بها- صفةُ كمالٍ. وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والفعل ونحو ذلك.

وما كان صفةَ كمالٍ فهو سبحانه وتعالى أحقُّ بأن يتصف به من المخلوقات، فلو لمْ يتصف به مع اتصاف المخلوق به لكان المخلوق أكمل منه[(١)].

الشَّرْح

ما ابتدعته الجهمية من نَفْيِ صفات الله عز وجل ضَلالٌ؛ فإنه تكذيبٌ لِمَا أَخْبَرَ الله به عن نفسه، وتعطيلٌ لكمال صفات الله، فكلُّ صفات الله من العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام كمالٌ، ونَفْيُها وَصْفٌ لله بالنقص، فمَن وَصَفَ الله بأنه لا يَعْلم ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ولا يَقْدِر، فقد وَصَفه بالنقص والعجز.

واللهُ عز وجل حيٌّ عليم قدير، صفاتُه كلها حسنىٰ، فالذين أَثبتُوا ما وَصَفَ الله به نفسه آمَنُوا بكلمات ربهم التي لا تتضمن إلا الحق والصدق.

ومعاني ما أَخْبَرَ الله به عن نفسه وصفٌ لله بالكمال، وتنزيهٌ له عن أن يماثله مخلوق، فنَفْيُها تكذيبٌ لخبر الله ووَصْفٌ له بالنقص، وذلك جهلٌ، واعتقادٌ باطِلٌ، وقولٌ علىٰ الله بغير الحق.

---

(١) التدمرية (ص٦٢، ٦٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الرب تعالىٰ موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها، مُنزَّهٌ عن النقص بكلِّ وجهٍ مُمْتَنِعٍ، وأنْ يكونَ له مَثِيلٌ في شيء من صفات الكمال، فأمَّا صفات النقص فهو مُنزَّه عنها مطلقًا، وأمَّا صفات الكمال فلا يماثله -بل ولا يقاربه- فيها شيء من الأشياء.

والتنزيه يجمعه نوعان: نفيُ النقص، ونفيُ مماثلة غيره له في صفات الكمال كما دَلَّ علىٰ ذلك سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وغيرها من القرآن، مع دلالة العقل علىٰ ذلك، وإرشاد القرآن إلىٰ ما يدل علىٰ ذلك من العقل».

والآثار المنقولة عن خير القرون من الصحابة والتابعين، تصديقٌ لأخبار الله في أسمائه وصفاته، بإثباتها وإمرارها كما جاءت، فاتِّباعُ خيرِ القرون بإحسان يكون بموافقتهم فيما أَثبتُوه لله من كماله الذي تَمدَّح الله به نفسه بالإخبار عنه.

وإثباتُ ما وَصَف الله به نفسه والإخبار بذلك، فيه تبيين لحقيقة انفراده بالربوبية والألوهية، فليس لذاته وصفاته وأفعاله كُفْوٌ ولا نظيرٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «يصف الرب تعالىٰ نفسه، وأنها تتضمن اتصافه بصفات الكمال الثبوتية، مثل: كمال حياته وقَيُّومِيَّتِه ومُلْكِه وقدرته وعِلْمِه وهدايته، وانفراده بالربوبية والإلهية».

فإثبات صفات الله علىٰ نحو ما أَخْبَرَ الله به عن نفسه -بما يليق بكمال الله-

(١) منهاج السنة (٢/ ١٥٧).
(٢) منهاج السنة (٢/ ٣١٩).

توحيدٌ، وثناءٌ على الله بما تَمدَّح به نفسه، وهذا التصديق والاعتقاد لخبر الله إنما هو وصفٌ لله بما يتصف به لا بما تُوصف به مخلوقاته؛ فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وتعظيم الله يكون بتصديق أخباره ووَصْفِه بصفات الكمال التي أَخْبَر بها عن نفسه، وعبوديته بحقائق ومعاني صفاته، فيدعو المسلم ربَّه وحده، ويستعين به وحده، ويخافه وحده، ويرجوه وحده، ويناجيه وحده.



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واعلمْ أنَّ الجهمية المحضة كالقرامطة ومَن ضاهاهم ينفون عنه تعالىٰ اتصافه بالنقيضين حتىٰ يقولوا: ليس بموجودٍ ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي.

ومعلومٌ أنَّ الخُلُوَّ عن النقيضين مُمْتَنِعٌ في بَدائِه العقول، كالجَمْع بين النقيضين.

وآخرون وَصَفُوه بالنفي فقط، فقالوا: ليس بحيٍّ، ولا سميع، ولا بصير.

وهؤلاء أعظم كُفْرًا من أولئك من وجهٍ، وأولئك أعظم كفرًا من هؤلاء من وجهٍ[1].



الشَّرح

الباطنية القرامطة نُفاةُ الصفات والأسماء، اعتقادُهم مُحالٌ وضَلَالٌ؛ فإنهم نَفَوْا كمال الله عَزَّ وَجَلَّ في صفاته الحسنىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «قولُ مَن يقول بالوجود المطلق عن النفي والإثبات هو أَحَدُ قولي القرامطة الباطنية. القرامطة الباطنية الذين يَلُونهم نُفاة الصفات الثبوتية الذين لا يصفونه إلا بالسُّلُوب».

وقَصْدُ هؤلاء إثباتُ مُبايَنة الخالق للمخلوق، فنَفَوْا صفات الله، وصفاتُ الله عَزَّ وَجَلَّ قائمة بذاته، وليست قائمةً بغيره من المخلوقات، فذلك فيه أوضحُ ردٍّ علىٰ الحُلُولِيَّة وعلىٰ النافية لصفات الله؛ فإن صفات الله إذا كانت قائمةً بذاته دلَّ ذلك علىٰ مُبايَنة الله لخَلْقِه، وعلىٰ كمالها؛ فإنها صفات العظيم الذي ليس كمثله شيء، ولم يكن له كُفوًا أَحَد.

(١) التدمرية (ص٦٣).

(٢) الصفدية (٢/ ١٨)، باختصار.

وقولُ مَن قال عن الله سبحانه: ليس بموجود ولا معدوم، سَفْسَطةٌ وقولٌ بما يمتنع؛ فإنَّ ارتفاع النقيضين مُحالٌ، واللهُ حيٌّ، ذاته موصوفة بصفات الكمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «بعضهم قال: ليس بموجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت.

فقيل لهم: فقد شَبَّهْتُمُوه بالممتنع، بل جعلتموه نَفْسًا مُمْتَنِعًا؛ فإنه كما يَمْتنع اجتماع النقيضين يمتنع ارتفاع النقيضين.

فمَن قال: إنه موجود معدوم فقد رَفَع النقيضين، وكلاهما مُمْتَنِعٌ، فكيف يكون الواجب الوجود مُمْتَنِعَ الوجود؟!

والذين قالوا: لا نقول هذا ولا هذا.

قيل لهم: عدمُ عِلْمِكُم وقولكم، لا يبطل الحقائق في أنفسها، بل هذا نوعٌ من السَّفْسَطة».

فالمقصود: أننا نصف ربنا بما وَصَف به نفسه من غير تمثيلٍ له بخَلْقِه، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: هل تصف ربَّكَ عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: نعم، صفةٌ بغير مثالٍ[(٢)].

(١) منهاج السنة (٢/ ٥٢٤).

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص٢٣٠، ٢٣١ - رقم ٤٨٣).

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١١هـ)[١]: «حاشَا لله أن يكون مَن وَصَف اللهَ جَلَّ وَعَلَا بما وَصَف الله به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه المصطفى ﷺ مُشَبِّهًا خالِقَهُ بخَلْقِه».

والمسلمون جميعًا يؤمنون بالله عَزَّ وَجَلَّ، ويَعْرِفُونه بصفاته الدالَّة على ربوبيته، وفِطَرُهم تَعْرِف فَرْقَ ما بين الخالق والمخلوق، فلا ينكرون كمال صفات الله ولا يشبهونها بصفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المسلمون وصفوا الخالق بصفات الكمال، ونزَّهوه عن صفات النقص، ونزَّهوه أن يكون شيءٌ كُفوًا له في شيء من صفات الكمال، فهو مُنزَّه عن صفات النقص مطلقًا، ومُنزَّه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات».

وقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء أعظم كفرًا من أولئك من وجه، وأولئك أعظم كفرًا من هؤلاء من وجه»، فيه تبيينُ اشتراكِ النافية لصفات الله عَزَّ وَجَلَّ على اختلافهم في الكفر، وتَغلُّظ كُفْر النافية الغالية الذين نَفَوْا كلَّ أسماء الله وصفاته، وهؤلاء هم الجهمية الذين بيَّن السلف أنهم ليسوا من فِرق القِبلة.

وتَغلُّظ كُفْر فِرَق التعطيل يرجع إلى تَغلُّظِ كذبهم على الله، وقولهم عليه بلا علمٍ، وتَغلُّظ نفيهم صفات كمال الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إذ حقيقةُ مذهبهم نفيُ أن يكون الله ربًّا معبودًا، فمَن نَفَى علو الله، ونفى أن يكون الله متكلمًا، ونفى صفات الله؛ نَفَى أنْ

---

(١) التوحيد (١/ ٦٤).
(٢) الصفدية (٢/ ٣١٠).

يملك الله لعباده نفعًا أو ضرًّا، أو موتًا أو حياةً أو نشورًا.

فسببُ كُفْرِ الجهمية والمعطلة النافية: إلحادُهم في آيات الله الشرعية تكذيبًا وتحريفًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن أَنْكَر ما وَصَف الله به نفسه، فقد كَفَر».

وكُفْرُ الجهمية معلومٌ بأسبابٍ كثيرة، منها: قولهم: إن القرآن مخلوق، وقولهم: إن الله في كل مكان؛ في الحشوش وغيرها، وكُفْرُهم بعلو الله علىٰ عرشه ومباينته لخَلْقِه، وإنكارُهم عِلْم الله بالأشياء حتىٰ تكون.

وكُفْرُ الجهمية معلومٌ لمخالفتهم الإجماع المعلوم المقطوع به للصحابة والتابعين في الإيمان بالله وصفاته.

وتبيينُ كفرِ الجهمية والمعطلة النافية لصفات الله ﷻ بأنواعهم، المقصود منه: النصيحة للمسلمين، والتحذير لهم من الاعتقادات الضالة، فلا تزال مقالات الجهمية ساريةً في طوائف المبتدعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أئمة الهُدىٰ قد أجمعوا علىٰ ذَمِّ المَرِّيسِيَّة، وأكثرهم كَفَّرُوهم أو ضَلَّلُوهم.

وعَلِمَ أنَّ هذا القول السَّارِي في هؤلاء المتأخرين هو مذهبُ المَرِّيسِيَّة، تبيَّن الهدىٰ لمَن يريد الله هدايته، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٥١، ٢٥٢).

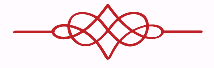
وكلام الجهمية مأخوذ عن اليهود، فاحذر -أيها المسلم- طريق الضالين والمغضوب عليهم، واتَّبِعْ سبيل المؤمنين المُنعَم عليهم، الصحابة ومَن تبعهم بإحسان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إذا كان أصلُ هذه المقالة -مقالة التعطيل والتأويل- مأخوذًا عن تلامذة المشركين والصَّابِئِين واليهود، فكيف تطيب نَفْسُ مُؤْمِنٍ بل نَفْسُ عاقِلٍ أن يأخذ سُبُلَ هؤلاء المغضوب عليهم والضالين، ويَدَعَ سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

والمعطلة النافية لصفات الله أغلظُ كفرًا من عُبَّاد الأوثان؛ فإن حقيقة قولهم بنفي صفات الله، نفيُ ذاتِه؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي (ت: ٢٨٠هـ)[٢]: «صِرْتُم -الجهمية المعطلة- في عبادة ما تعبدون أسوأ منزلة من عبادة الأوثان، وعبادة الشمس والقمر؛ لأن كلَّ صِنْفٍ منهم عَبَد شيئًا هو عند الخلق شيء، وعبدتم أنتم شيئًا هو عند الخلق لا شيء».

وإنكار صفات الله ﷻ في حقيقته إنكارٌ لفضل الله ﷻ علىٰ خلقه، فكمالُ ذاتِه وربوبيته لخلقه دلَّ عليها كمالُ صفاته، فمَن نَفاها فقد نَفَىٰ كمالَ اللهِ وفَضْلَهُ علىٰ خَلْقِه المستلزم لعبوديته وحده.



(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٣، ٢٦٤).
(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٤٨).



فإذا قيل لهؤلاء: هذا يستلزم وَصْفَهُ بنقيض ذلك، كالموت والصَّمَم والبَكَم. قالوا: إنما يلزم ذلك لو كان قابلًا لذلك.

وهذا الاعتذار يزيد قولهم فسادًا.

وكذلك مَن ضاهَىٰ هؤلاء، وهم الذين يقولون: ليس بداخل العالَم ولا خارجه، إذا قيل لهم: هذا ممتنع في ضرورة العقل، كما إذا قيل: ليس بقديم ولا مُحْدَث، ولا واجب ولا ممكن، ولا قائم بنفسه ولا قائم بغيره.

قالوا: هذا إنما يكون إذا كان قابلًا لذلك، والقبول إنما يكون من المُتَحَيِّز، فإذا انتفىٰ التَّحَيُّز انتفىٰ قبول هذين النقيضين.

فيُقال لهم: علمُ الخلق بامتناع الخلو من هذين النقيضين هو علمٌ مطلق، لا يُستثنىٰ منه موجود. والتحيز المذكور إنْ أُريد به كون الأحياز الموجودة تحيط به، فهذا هو الداخل في العالَم، وإنْ أُريد به أنه مُنحازٌ عن المخلوقات، أي: مُبايِن لها، مُتمَيِّز عنها، فهذا هو الخروج.

فالمُتحيِّز يُراد به تارةً ما هو داخل العالَم، وتارةً ما هو خارج العالَم، فإذا قيل: ليس بمُتحيِّز، كان معناه ليس بداخل العالَم ولا خارجه.

فهم غَيَّروا العبارة ليوهموا مَن لا يفهم حقيقة قولهم أن هذا معنىٰ آخر، وهو المعنىٰ الذي عُلم فسادُه بضرورة العقل. كما فَعَل أولئك في قولهم: ليس بحيٍّ ولا ميت، ولا موجود ولا معدوم، ولا عالم ولا جاهل[1].

(١) التدمرية (ص٦٤، ٦٥).

الشَّرح

النُّفاة المعطلة بَنَوْا اعتقادهم الضالَّ على أُغْلُوطات أذهانهم سَمَّوْها معقولات، دفعوا بها أخبار القرآن والسُّنة الواردة بإثبات أسماء الله وصفاته.

ومجادلةُ المعطلةِ النفاةِ لصفات الله عمَّا يَلْزَمُهم من نَفْيِهم مَن وَصَف الله بنقيض صفاته من الكمال كالموت والصَّمَم والبَكَم؛ بأن ذلك يلزمهم لو كان الله قابلًا لذلك، جدالٌ باطِلٌ؛ فإنَّ صفات الله من: الحياة والسمع والبصر والكلام صفاتٌ ثبوتية تستلزم ثبوت هذه الصفات وامتناع عَدَمِها؛ فكان نفيُ المعطلة لهذه الصفات وصفًا له بنقيضها من الموت والصَّمَم والبَكَم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يُفرِّق مَن يُفرِّق بين العدم المحض وعدم الصفة عمَّا من شأنه أن يَقْبَلها؛ فإنَّ الأعمى والأصم ونحو ذلك لا يُوصف به المعدوم المحض، ولا يُقال أيضًا للعدم المحض: إنه جاهل أو عاجز، أو يثبت له أنه لا عالِم ولا قادر، بل كلُّ صفةٍ تستلزم الثبوت يمتنع أن يُوصف بها المعدوم، فإذا قيل: الأعمى والأصم كان ذلك نفيًا للسمع والبصر عما يقبله، لا عن المعدوم الذي يمتنع أن يُوصف بثبوت.

ففَرْقٌ بين نفي الصفة التي يمكن ثبوتها للموصوف في الذهن أو في الخارج[(٢)]، ونفيِ الصفة التي لا يكون لا في الذهن ولا في الخارج ثبوتها للموصوف».

وعَمَدَ المعطلةُ النفاة لنصوص القرآن والسُّنة إلى استعمالِ ألفاظٍ مجملة ابتدعوها فيها إجمالٌ واشتباهٌ؛ ليبطلوا ما دلَّ عليه الوحي من صفات الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٨٠).

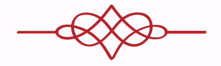
(٢) في الحقيقة.

ونصوصُ الوحي بيانٌ، وهي أحسن الكلام في الدلالة على معاني ما أخبر الله ﷻ به وبيَّنَهُ رسولُ الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وإثباتُ صفات الله ﷻ يرجع إلى تصديق ما أخبر الله به، لا إلى تكذيب ذلك لعباراتٍ مُوهِمَةٍ استخدمها المبتدعة لإنكار ما أَثبتَه الله لنفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «من هذا الباب: قولُ هذا المُؤسِّس -الرازي- ونحوه، ممن فيه تَجَهُّم: «إقامة البراهين على أنه ليس بمُختَصٍّ بحَيِّزٍ وَجِهَةٍ، بمعنى أنه يصح أن يُشار إليه بالحِسِّ[2] أنه ههنا أو هناك»؛ فإن المقصود الذي يورده على مُنازِعه بهذا الكلام: أنه ليس على العرش، ولا فوق العالَم كما يَذْكُره في سائر كلامه، ويُحرِّف النصوص الدالة على ذلك.

ولكن لم يترجم للمسألة بنفي هذا المعنى الخاص الذي أَثْبَتَتْهُ النصوص، بل عَمَدَ إلى معنًى مُجْمَلٍ يتضمَّن نَفْيَ ذلك، وقد يتضمن أيضًا نَفْيَ معنًى باطِلٍ، فنفاهما جميعًا، نَفَى الحقَّ والباطل؛ فإن قول القائل: ليس في جهةٍ ولا حَيِّزٍ يتضمن نفيه أنه ليس داخل العالَم، ولا في أجواف الحيوانات، ولا الحشوش القذرة، هذا كله حقٌّ، ويتضمن أنه ليس على العرش ولا فوق العالَم، وهذا باطِلٌ، وكان في نفيه نفيُ الحق والباطل».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥).
(٢) قلوب الخلق مفطورة على التوجه إلى السماء في دعاء الله.

قال المصنف رحمه الله:

القاعدة الثانية: أنَّ ما أخبر به الرسول عن ربه ﷻ فإنه يجب الإيمان به، سواءٌ عرفنا معناه أو لمْ نَعْرِف؛ لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسُّنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه.

وكذلك ما ثَبَتَ باتفاق سلفِ الأُمَّة وأئمتها. مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصًا في الكتاب والسُّنة، متفقًا عليه بين سلفِ الأُمَّة[١].

الشَّرْح

الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه في القرآن، تصديقٌ للكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفِه، وتصديقُ الرسول ﷺ فيما أخبر به عن ربه ﷻ، هو من الإيمان بأنه لا ينطق عن الهوىٰ، وذلك كله من تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فسبيلُ المؤمنين: الإيمان بالوحي وتصديقه لا تكذيبه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فاحذر -أيها المسلم- أن تُكذِّب بما أخبر الله به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله ﷺ، لشناعة المبتدعة الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة والماتُرِيدِيَّة.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله (ت: ٢٨٠هـ)[٢]: «فمَن يلتفت إلىٰ بِشْر -المِرِّيسِي-، وتفسيرِ بِشْر، ويترك الناطق من كتاب الله، والمأثور من قول

---

(١) التدمرية (ص٦٥).

(٢) نقض عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد (ص١٢٣).

رسول الله ﷺ، إلا كل مَخْبُول مخذول».

وأيُّ تكذيبٍ لله ﷻ أعظم من أن يُخْبِرَ عن نفسه أنه: حي، سميع، بصير، متكلم، مستوٍ علىٰ عرشه، له يدان، ويقوم المبتدع المُعطِّل بنفي ذلك تكذيبًا أو تحريفًا.

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[(١)]: «تَعالَىٰ اللهُ عمَّا تقوله الجهمية المُلْحِدة علوًّا كبيرًا، وكُلَّما تقوله وتَنْتَحِلُه فقد أَكْذَبَهُم الله ﷻ في كتابه، وفي سُنَّة رسوله ﷺ، وفي أقوال أصحابه، وإجماع المسلمين من السابقين والغَابِرِين؛ لأن الله ﷻ لم يزل عالِمًا سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، تامًّا بصفاته العليا، وأسمائه الحسنىٰ».

فاحذر -أيها المسلم- مذاهب المبتدعة الجهمية وفروعهم، فالمسلم يَحْذَرُ من مخالفة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين تلقوا معاني الشرع مباشرةً من رسول الله ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال عباد بن العوام لشريك بن عبد الله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن عندنا قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث -في الصفات-، قال: فحدَّثَنِي بنحوٍ من عشرة أحاديث في هذا، وقال: أمَّا نحن فقد أَخَذْنا دِينَنا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ، فَهُمْ عمَّن أخذوا[(٢)]؟!».

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (٢/ ٦٥).

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٢٧٣)، الصفات للدارقطني (ص١٢٠).

وقال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن القوم -الجهمية- مخالفون لِمَا قال اللهُ ورسولُه، وما مضىٰ عليه الصحابة والتابعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين؛ وأنهم في ذلك علىٰ غير سبيل المؤمنين ومَحَجَّة الصادقين».

وما ثَبَت باتفاق سلفِ الأُمَّة فإنَّ المسلم يَأْتَمُّ فيه بخير القرون، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «لَمْ يُذكر عن أَحَدٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، خلاف ما وَصَفْنَا، وهم الذين أَدَّوْا الكِتابَ والسُّنة بعد النبي ﷺ قرنًا بعد قرنٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]».

والإجماع في الإيمان بما وَرَد في القرآن والسُّنة من نصوص صفات الله، مُتَوارَثٌ عن الصحابة والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «اتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا، وشرعًا ظاهرًا، وهم الذين نقلوا ذلك من رسول الله ﷺ حتىٰ قال: «عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين من بعدي»، وحديث: «لَعَنَ اللهُ مَن أَحْدَث حَدثًا».

---

(١) نقض عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد (ص٢٠٠).

(٢) خلق أفعال العباد (٢/ ١١٣).

(٣) بواسطة مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧١).

فكانت كلمة الصحابة علىٰ الاتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمِرْنا بالأخذ عنهم، إذ لم يختلفوا -بحمد الله تعالىٰ- في أحكام التوحيد وأصول الدِّين من الأسماء والصفات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «اتفقت كلمتهم -الصحابة- وكلمة التابعين بَعْدهم علىٰ إقرارها -نصوص الصفات- وإمرارها، مع فَهْمِ معانيها وإثبات حقائقها».

فالتابعون الذين تلقوا دينهم عن الصحابة أَثْبَتُوا صفات الله كما وردتْ في نصوص الوحي، وإجماعهم في هذا الاعتقاد ذَكَره عنهم تابعهم الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال[٢]: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله -تَعالىٰ ذِكْرُه- فوق سماواته، ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته».

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «الكلام في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ: ما جاء منها في كتاب الله، أو رُوي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، فهذا إجماعٌ معلومٌ متيقنٌ عند جميع أهل السُّنة والحديث».

وقال العلَّامة أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٦٠هـ) عن نصوص الوحي في الصفات[٤]: «الذين نَقَلُوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نَقَلُوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، وعِلْم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد،

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إسناده صحيح»، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٧).

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).

(٤) الشريعة (ص٢٧٧).

فكما قَبِلَ العلماء عنهم ذلك، كذلك قَبِلُوا منهم هذه السُّنن، وقالوا: مَن رَدَّها فهو ضالٌّ خبيث، يَحْذَرُونه ويُحذِّرون منه».

ولم يزل سلفُ الأُمَّة ومَن تبعهم بإحسان يُؤْمِنُون بنصوص الوحي الواردة بالأخبار عن أسماء الله وصفاته.

قال أبو بكر المروذي رَحِمَهُ اللَّهُ: سألتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تَرُدُّها الجهمية في الصفات، والإسراء، والرؤية، وقصة العرش؟ فصَحَّحها، وقال: قد تَلقَّتها العلماءُ بالقبول، تُسَلَّمُ الأخبارُ كما جاءت[(١)].

وقال أبو بكر المروذي: وأَرْسَلَ أبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة إلىٰ أبي عبد الله يستأذنانه في أن يُحدِّثا بهذه الأحاديث التي تَرُدُّها الجهمية، فقال أبو عبد الله: حَدِّثُوا بها، فقد تلقتها العلماء بالقبول[(٢)].

وقال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إن السلف الصالح ومَن سَلَك سبيلهم من الخَلَفِ مُتَّفِقُون علىٰ إثبات نزول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا.

وكذلك هم مجمعون علىٰ إثبات الإتيان، والمَجِيء، وسائر ما وَرَد من الصفات في الكتاب والسُّنة من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

ولم يَثْبُتْ عن أَحَدٍ من السلف أنه تأوَّلَ شيئًا من ذلك».



(١) الشريعة للآجري (ص٢٨٥).
(٢) الشريعة للآجري (ص٢٨٥).
(٣) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٦٣٦).

قال المصنف رحمه الله:

وما تَنازَعَ فيه المتأخرون نفيًا وإثباتًا، فليس علىٰ أَحَدٍ بل ولا له أنْ يُوافِقَ أحدًا علىٰ إثباتِ لفظٍ أو نَفْيه، حتىٰ يَعْرِفَ مُرادَهُ، فإنْ أراد حقًّا قُبِلَ، وإنْ أراد باطلًا رُدَّ، وإنِ اشتملَ كلامه علىٰ حقٍّ وباطلٍ لَمْ يُقبل مطلقًا ولَمْ يُرَدَّ جميعُ معناه، بل يُوقِف اللفظ ويُفسِّر المعنىٰ، كما تنازعَ الناسُ في الجهة والتحيز وغير ذلك[1].

الشَّرْح

الألفاظُ القرآنية أَفْصَحُ الكلام وأَبْلَغُه، واستعمالها عصمةٌ من الزَّلل والمعاني الباطلة، وهو أيسرُ الكلام في الفهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «لا تجد كلامًا أحسنَ تفسيرًا، ولا أَتَمَّ من كلام الله سبحانه، ولهذا سَمَّاه الله بيانًا، وأخبر أنه يَسَّره للذِّكر، ويَسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال».

وسَلَكَ المبتدعة في ترويج باطلهم بنفي صفات الله عز وجل الواردة في القرآن والسُّنة؛ بالشناعة علىٰ ألفاظ الوحي، وما دَلَّت عليه من إثبات صفات الله، وباستعمال ألفاظٍ مُجْمَلةٍ مُشْتَبِهة المعنىٰ؛ ليتوصلوا بها إلىٰ إثباتِ المعاني الباطلة، ونفيِ المعاني الصحيحة.

(١) التدمرية (ص٦٥، ٦٦).
(٢) مختصر الصواعق (١/ ٥٧).

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذَكَر سبحانه أنهم يستعينون علىٰ مخالفة أَمْرِ الأنبياء بما يُزَخْرِفه بعضهم لبعض من القول، ويفتريه الأغْمَار وضُعَفاء العقول.

فذَكَر السبب الفاعل، وهو ما يَغُرُّ السامع من زُخْرِف القول، فلمَّا أَصْغَتْ إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولًا وعملًا».

وصار الجهمية وفروعهم يُشنِّعون علىٰ مَن أَثْبَتَ صفات الله عز جل بتسميته مُجسِّمًا ومُشبِّهًا، فحَذَّر أئمةُ السُّنة من تكذيب أخبار الله؛ لشناعَةِ المُكذِّبين والمُحرِّفِين لها.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا نُزِيلُ عن الله صفةً من صفاته لأَجْلِ شناعة المُشنِّعِين».

ومَن تأمَّل مَنْشَأ العبارات المُجْمَلة، والشناعة علىٰ مَن أَثْبَتَ صفات الله ﷻ، وَجَدَ مبدأ ذلك من أئمة الضَّلال من الجهمية والرافضة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجهم بن صفوان[٣]: «تأوَّلَ القرآن علىٰ غير تأويله، وكَذَّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعم أنّ مَن وَصَف من الله شيئًا ممَّا وَصَف به

(١) مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ٨٧).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ٨٩).
(٣) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٠٦).

نفسه في كتابه أو حدَّث به عنه رسولُه ﷺ كان كافرًا، وكان من المُشبِّهة».

وأوَّلُ مَن تكلَّم في الجسم نفيًا وإثباتًا هو هشام بن الحكم الرافضي[(١)].

وسُئل أبو العباس ابن سريجٍ عن التوحيد، فذَكَر توحيد المسلمين، وقال: وأمَّا توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجَواهِر والأعراض[(٢)].

وقال الحافظ أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «المعطلة النافية: الذين ينكرون صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي وَصَف بها نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، ويُكذِّبون بالأخبار الصِّحاح التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الصفات، ويتأوَّلونها بآرائهم المَنْكُوسة علىٰ موافقة ما اعتقدوا من الضَّلال، وينسبون رُواتها إلىٰ التشبيه.

فمَن نَسَب الواصفين ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما وَصَف به نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ من غير تمثيل ولا تشبيه، إلىٰ التشبيه، فهو مُعطِّلٌ نافٍ، ويستدل عليهم بنسبتهم إياهم إلىٰ التشبيه، أنهم معطلة نافية».

فالحاصل: أن الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة والماتريدية سَمُّوا الأشياء التي لا حقيقة لها والمعدومة بأسماءِ مَدْحٍ، وشَنَّعوا علىٰ الأسماء الشرعية بتسميتها بأسماءٍ مذمومة؛ لإبطال ما دَلَّت عليه من المعاني الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «المعاني التي يُعلم بضرورة العقل ثبوتها في نفس الأمر، بل لا يَسْتَرِيبُ في ثبوتها أَحَدٌ من العقلاء ما دام عاقلًا، عَبَّرُوا عنها

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٠٥).
(٢) تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٣٣٥).
(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٧).
(٤) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٣٨-٦٤٠).

بالعبارات المُشْتَرَكة المُجْمَلة التي قد تُستعمل في معانٍ فاسدة، يجب تنزيهُ البارِي ﷻ عنها، كان هذا الاشتراك مما أشركوا فيه بين الله وبين خَلْقِه، وهو من نوعِ شِرْكِهم وعَدْلِهم بالله، حيث أشركوا بين المعاني الواجبة لله والمُمْتَنِعَة عليه في لفظٍ واحِدٍ، ثُمَّ نَفَوْا به ما يجب لله، وكانوا مشركين مُعطِّلِين في اللفظ كما كانوا مشركين مُعطِّلِين في المعاني، كما تقدَّم التنبيه علىٰ ذلك غير مَرَّة، بمنزلة مَن سَمَّىٰ رحمان اليمامة -مسيلمة الكَذَّاب- «الرحمن»، وجَعَل يقول للناس: أنا كافر بالرحمن، يُوهِمهم أنّ رحمان اليمامة هو كافر بالرحمن الذي علىٰ العرش.

أو بمنزلة مَن سَمَّىٰ الأوثانَ الآلهةَ والإلهَ، وجَعَل يقول للمؤمنين: قد عبدتُ الإلهَ ودعوتُ الإلهَ؛ وإنما يعني به الوَثَنَ.

أو بمنزلة الله: اللَّات، والعُزَّىٰ، ومَناة الثالثة الأخرىٰ، وهو يعني الكُفْرَ بالله».





قال المصنف رحمه الله:

فلفظُ «الجهة» قد يُراد به شيءٌ موجود غير الله فيكون مخلوقًا، كما إذا أُريد بالجهة نفس العرش أو نفس السماوات. وقد يُراد به ما ليس بموجود غير الله تعالىٰ، كما إذا أُريد بالجهة ما فوق العالَم.

ومعلومٌ أنه ليس في النص إثباتُ لفظِ «الجهة» ولا نفيه، كما فيه إثبات «العلو» و«الاستواء» و«الفوقية» و«العروج إليه» ونحو ذلك.

وقد عُلم أن ما ثَمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مُبايِن للمخلوق ﷻ، ليس في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته.

فيُقال لمَن نَفَىٰ الجهة: أتُريد بالجهة أنها شيءٌ موجود مخلوق، فالله ليس داخلًا في المخلوقات؛ أَمْ تريد بالجهة ما وراء العالَم، فلا رَيْبَ أنَّ الله فوق العالَم، بائِنٌ من المخلوقات.

وكذلك يُقال لمَن قال: إنَّ الله في جهة: أَتُريدُ بذلك أن الله فوق العالَم، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات؟ فإنْ أردتَ الأول فهو حقٌّ، وإنْ أردتَ الثاني فهو باطل[1].

الشَّرْح

لفظُ «الجهة» لَمْ يَرِدْ في نصوص القرآن والسُّنة، ويُسْتَفْصَل عن معنىٰ مَن استعملها في كلامه، فإنْ قَصَد به نَفْيَ علوِّ الله ومباينته لخَلْقِه، أَنْكَرْنَاهُ؛ لمخالفته لألفاظ ومعاني نصوص الوحي، وإنْ قَصَد به إثباتَ علوِّ الله، وافقناه علىٰ ذلك، ونَصَحْنَاهُ بأنْ يستعمل ألفاظ الوحي المُثبِتة لعلو الله تعالىٰ.

(١) التدمرية (ص٦٦، ٦٧).

فالواجب على المسلم: استعمالُ الألفاظ الواردة في القرآن والسُّنة التي لا تتضمن إلا الحق والصدق، والتي لا لَبْسَ فيها، ولا تتضمن المعاني الباطلة، خصوصًا في الخبر عن الله تعالىٰ؛ فإنّ أسماءه وصفاته توقيفية، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

واحذر -أيها المسلم- ممَّن يستعمل الألفاظ المُجمَلة، كالقول بنفي الجهة ليتوصل بها إلىٰ المعاني الباطلة من نفيِ علوِّ الله، فالمسلم يصف الله بما وَصَف به نفسه في كتابه ووَصَفه به رسولُه ﷺ.

ونُفاةُ علوِّ الله يقولون: إنّ الله ليس بجسمٍ؛ لينفوا عُلُوَّ الله بذاته واستواءه علىٰ عرشه، فاحذر -أيها المسلم- ما ابتدعه المُعطِّلة النُّفاة لصفات الله من استعمال الألفاظ المجملة لتكذيب ما أَخْبَرَ الله به عن نفسه.

وقولُ شيخ الإسلام: «أَمْ تريد بالجهة ما وراء العالَم، فلا رَيْبَ أنّ الله فوق العالَم، بائنٌ من المخلوقات»، لا رَيْبَ أنه شرحٌ للعقيدة بما دَلَّت عليه نصوص الوحي وآثار الصحابة رضي الله عنهم؛ فإن الله جل جلاله الخالق، بائِنٌ من خلقه، وما سواه مخلوق.

والله خَلَق سَبْعَ سماوات، وبَيْنَ كلِّ سماءٍ مَسِيرة خمسمائة عام، والعرش أعلىٰ السماء، والله في السماء مُستوٍ علىٰ عرشه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأثنىٰ الله علىٰ نفسه بأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وهو ربُّ كلِّ شيء، وخَصَّ العرش بالذِّكر؛ لأنه أعظم مخلوقاته.

والمسلم يؤمن بكل نصوص القرآن والسُّنة المُثبِتة لعلو الله وفَوْقِيَّتِه، قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

[الملك: ١٦]، وقال الله ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورىٰ: ٤].

واعتقادُ علوِّ الله علىٰ خلقه هو أساس التوحيد، فالله هو العلي علىٰ خلقه، فمَن جَهِلَ ذلك أو أَنْكره فهو كافر.

قال النبي ﷺ لجارية معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنهما: «أين الله؟» قالت: في السماء، ثم قال لها: «مَن أنا؟» قالت: رسول الله، فقال النبي ﷺ لمعاوية: «أَعْتِقْها؛ فإنها مُؤْمِنة»، رواه مسلم.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله[١]: «هذا دليلٌ علىٰ أنّ الرَّجُل إذا لم يَعْلم أن الله ﷻ في السماء دون الأرض، فليس بمؤمن».

وحَكَىٰ قتيبة بن سعيد البلخي (ت: ٢٤٠هـ) إجماعَ أئمة الإسلام علىٰ إثبات علو الله، فقال[٢]: «هذا قولُ الأئمة في الإسلام والسُّنة والجماعة: نَعْرِفُ ربَّنا في السماء السابعة علىٰ عرشه، كما قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]».

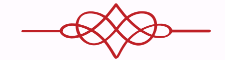
وقال أبو حاتم وأبو زرعة الرَّازِيَّان رحمهما الله[٣]: «أَدْرَكْنا العلماء في جميع الأمصار -حجازًا وعراقًا وشامًا ويَمَنًا- فكان من مذهبهم: أن الله ﷻ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه، كما وَصَف نفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ بلا كيفٍ، أحاط بكل شيء علمًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

---

(١) الرد علىٰ الجهمية (ص٢٢).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٣٩٤، ٣٩٥).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٨).

وعلىٰ كل حالٍ فإنَّ إثبات العلو لله ﷻ هو اعتقاد السابقين الأولين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وهو إجماع المؤمنين، لا يُخالِفُ في ذلك إلا ضالٌّ اجْتَالَته الشياطين.

قال فقيهُ الإسلام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رحمه الله[1]: «إنّ الله وَصَف نفسه بالعلو في السماء، ووَصَفه بذلك رسولُه محمد خاتم الأنبياء ﷺ، وأجمع علىٰ ذلك العلماء من: الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك علىٰ وجهٍ حَصَل به اليقينُ، وجَمَع اللهُ عليه قلوب المسلمين، وجَعَله مَغْرُوزًا في طباع الخلق أجمعين».



(١) العلو بواسطة بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢١٥، ٢١٦).

قـال المصنف رحمه الله:

وكذلك لفظُ «المُتحَيِّز»، إنْ أرادَ به أن الله تَحُوزُه المخلوقات فاللهُ أعظمُ وأكبر، بل قد وَسِعَ كرسيه السماوات والأرض، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾. وقد ثبت في الصِّحَاح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِك، أين ملوك الأرض؟».

وفي حديثٍ آخَرَ: «وإنه لَيَدْحُوها كما يَدْحُو الصِّبيانُ بالكُرَةِ».

وفي حديث ابن عباس: «ما السماوات السَّبْع والأرضون السَّبْع وما فيهن في يَدِ الرحمن إلا كخردلةٍ في يَدِ أحدكم».

وإنْ أراد به أنه مُنحازٌ عن المخلوقات، أي: مُباين لها، مُنفصِل عنها ليس حَالًّا فيها. فهو سبحانه كما قال أئمة السُّنة: فوق سماواته علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه[1].

الشَّرح

اللهُ ﷻ هو: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورىٰ: ٤]، فالعلوُّ وَصْفُه، وهو مُباينٌ لخَلْقِه، يُدبِّر أَمْرَهُم، والخَلق كلهم خَلَقَهُمُ اللهُ، وهو غنيٌّ عنهم، وكلهم مفتقرون إليه.

وعلوُّ الله علىٰ خَلْقِه، واستواؤه علىٰ عرشه، من أعظم الكمال الذي تَمدَّح اللهُ به نفسه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

فالاعتراض والتكذيب لِمَا أخبر الله به عن نفسه لتقديرات الجهمية الذهنية، وألفاظهم التي جعلوها بديلًا عن كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ، هو سَبِيلُ الضَّالين.

(١) التدمرية (ص٦٧، ٦٨).

ولفظُ «الحَيِّز» لَمْ يَرِدْ في القرآن والسُّنة، ولَمْ يُؤْثَرْ عن الصحابة ﵃، ولا عن تابعيهم؛ فكان أول مَن أَحْدَثَهُ الجهمية؛ ليتوصلوا به إلىٰ نفي علو الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀(١): «ليس في مكانٍ دون مكانٍ، وليس بمُتحَيِّزٍ، ولا جَوْهَر، ولا جِسْم، ولا له نهاية، ولا حَدّ ونحو هذه العبارات؛ فإن هذه العبارات جميعها وما يُشْبِهُها لا تُؤْثَرُ عن أَحَدٍ من الصحابة والتابعين، ولا من أئمة الدين المعروفين، ولا يُرویٰ بها حديثٌ عن رسول الله ﷺ، ولا تُوجد في شيء من كُتُبِ الله المنزلة من عنده، بل هذه هي من أقوال الجهمية، ومن الكلام الذي اتفق السلف علىٰ ذَمِّه لَمَّا أَحْدَثَهُ مَن أَحْدَثَهُ، فحيث وَرَد في كلام السلف ذَمُّ الجهمية، كان أهل هذه العبارات داخلين في ذلك، وحيث وَرَد عنهم ذَمُّ الكلام والمتكلمين، كان أهل هذه العبارات داخلين في ذلك؛ فإن ذلك لَمَّا أَحْدَثَهُ المبتدعون كَثُرَ ذَمُّ أئمة الدين لهم، وكلامهم في ذلك كثير قد صُنِّف فيه مصنفات، حتىٰ إنَّ أعيان هذه العبارات وأمثالها ذَكَرها السلف والأئمة فيما أنكروه علىٰ الجهمية وأهل الكلام المُحدَث».

والواجبُ: استعمالُ اللفظِ القرآني في الإخبار عن الله وصفاته، فيُقال: إنَّ الله «صَمَدٌ»، صفاته قائمة بذاته، غيرُ مُفْتَقِر إلىٰ شيءٍ مُنْفَصِلٍ عنه يَحُوزُه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀(٢): «إن الله سبحانه صَمَدٌ، لا يَجُوزُ عليه التفرُّق والانقسام».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٨٣، ٦٨٤).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٣٣).

ودلَّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ علىٰ أن صفاته قائمةٌ بذاته، وعلىٰ أنه بائنٌ من خلقه، وغنيٌّ عنهم.

واستواء الله علىٰ العرش هو علوه عليه، واللهُ الغني الصمد هو خالق العرش، واستوىٰ عليه بعد خَلْقِه من غير حاجَةٍ للعرش، بل هو علوٌّ كمالٍ، وعلوه علىٰ عرشه حقيقته دالَّةٌ أيضًا علىٰ مباينة الله لمخلوقاته.

فالقول بنفي الحَيِّز والحَدِّ لله، هو أصلُ جَهْمٍ الذي نفىٰ به علوَّ الله علىٰ خلقه ومباينته لمخلوقاته، وكان أساسَ مذهبِه في نفي صفات الله كلها.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[١]: «ادَّعَىٰ المُعارِضُ أيضًا، أنه «ليس لله حدٌّ، ولا غاية، ولا نهاية»، وهذا هو الأصل الذي بنىٰ عليه جَهْم جميعَ ضلالاته، واشْتَقَّ منها أُغْلُوطاته».

واستعمل الجهمية وفروعهم القول بنفي الحَيِّز؛ للتوصل به إلىٰ نفي علوِّ الله تعالىٰ.

وليس في القول بنفي الحَيِّز ما يُبيِّن مباينة الله لخَلقِه؛ فإن علو الله علىٰ خَلقِه من أعظم ما يكون دلالةً علىٰ مباينة الله لخلقه، والجهمية يقولون: إن الله في كل مكان، فنفوا علوَّهُ ومباينته لخلقه، وأَثْبَتُوا حُلولَهُ واختلاطَهُ بمخلوقاته -تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-.

وقولُ الجهمية وفروعهم كالرازي بنفي الحَيِّز، هو من جِنْسِ حُجَجِ المِرِّيسِي في نفي علو الله علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه.

(١) نقض عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد (ص١٤٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هذه الحُجَّة هي من جنس قولهم: لو كان فوق العرش لكان، إمَّا أن يكون أصغر منه، أو بقَدْرِه، أو أكبر منه ببُعْدٍ مُتَنَاهٍ، أو غَيْرَ مُتَنَاهٍ، وهذه الحُجَجُ من حُجَجِ الجهمية قديمًا».

والواجب علىٰ المسلم: استعمال ألفاظ الوحي لإثبات المعاني الشرعية، والثابت في القرآن: قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وصحيح المَرْوِيِّ عن النبي ﷺ في ذلك: «أنتَ الأول فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيء، وأنتَ الظاهر فليس فوقكَ شيء، وأنتَ الباطن فليس دُونَكَ شيء»، رواه مسلم.

فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخِرُ الذي إليه المُنتَهَىٰ، وهو الدائم الباقي، والظاهر في علوه وعظمته، والباطن في قُرْبِه ودُنُوِّه[(٢)].

فمَن عَلِمَ أن الله بكل شيء محيط؛ وأنه الظاهر، والمحيط بالعالَم كله، كيف يتوَهَّم أن الله يحيط به مخلوق من مخلوقاته، أو أنه سبحانه يَحِلُّ في شيء من مخلوقاته، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورىٰ: ٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «يَقْرِنُ سبحانه بين هذين الاسمين الدَّالَّين علىٰ هذين المَعْنَيَيْن: اسم العلو الدَّالّ علىٰ أنه الظاهر؛ وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدَّالّ علىٰ الإحاطة؛ وأن كل شيء دونه».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٨٣).

(٢) طريق الهجرتين ص٢٤.

(٣) طريق الهجرتين ص٢٣.

والخوضُ في «الحَدِّ» بالتقديرات الذهنية، تَكَلُّفٌ قد يُوقِعُ في الإلحاد والضلال؛ فإن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]، واللهُ ﷻ هو ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، وجاء في الحديث: «تَفكَّرُوا في آلاء الله، ولا تَفكَّرُوا في ذاته»[(١)]، وأصحُّ منه مِمَّا وَرَد في معناه: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خَلَق الله؟! فإذا بَلَغ أحدكم ذلك فَلْيَنْتَهِ، وليَتَعَوَّذْ من الشيطان»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقال الإمام أحمد رحمه الله[(٢)]: «نحن نؤمن بالله ﷻ علىٰ عرشه، كيف شاء، وكما شاء، بلا حَدٍّ ولا صفةٍ يَبْلُغها واصِفٌ أو يُحِدّه أَحَدٌ، فصفاتُ الله منه وله، وهو كما وَصَف نفسه، لا تدركه الأبصار بحدٍّ ولا غاية، وهو لا يُدرَكُ، وهو يُدْرِكُ الأبصار».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مُعلِّقًا[(٣)]: «أخبر أبو عبد الله أنه علىٰ العرش بلا حَدٍّ يَحُدُّه أَحَدٌ، أو صفة يبلغها واصِفٌ، وأَتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] بحدٍّ ولا غاية، وهذا التفسير الصحيح للإدراك به، أي: لا تحيط الأبصار بحَدِّه ولا غايته».

فالواجبُ: الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه، والانتهاء عن التقديرات الذهنية

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، قال الحافظ السخاوي رحمه الله: «أسانيدها ضعيفة» [«المقاصد الحسنة» (ص٢٦١)].

(٢) رواه الخلال في السنة قال أخبرني عبيد الله بن حنبل حدثني أبي حنبل بن إسحاق قال: قال عمي –الإمام أحمد–، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٠٦، ٧٠٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٠٨).

بحَدِّ الصفات الإلهية؛ فإنَّ ذلك من الخوض في الكيفية، وهو غيبٌ لمْ يخبرنا الله به، وتعجز العقول عن إدراكه.

وَرَدُّ ما دَلَّت عليه نصوص الوحي بالتقديرات الذهنية التي أوردها الجهمي بأن يكون الله أصغر من العرش أو مساوٍ له أو أكبر منه، تدلُّ علىٰ خُلُوِّ قلوب الجهمية من تعظيم الله ﷻ الذي كان سببًا في تكذيبهم للوحي من القرآن والسُّنة بالخبر عن استواء الله علىٰ عرشه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما تقديرات الجهمية الذهنية إلا بعض تمثيلهم للخالق بالمخلوق الذي تَوَهَّمُوه، وكان سببًا لنفيهم صفات الله تعالىٰ.

قال العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «واللهِ، مَا دَلَّهُم علىٰ عِظَمِ ما وَصَف به نفسه، وما تحيط به قبضته إلا صِغَر نظيرِها منهم».

وحقيقةُ ما في نفوس المسلمين جميعًا، عامتهم وعلمائهم: أنّ «الله أكبر»، وبهذا تتبين فسادَ فِطَرِ الجهمية ومخالفتهم لإجماع المسلمين فيما قَدَّرُوه من الاعتراض علىٰ استواء الله وعلوه علىٰ عرشه.

ولفظُ «الحَدِّ» إذا قُصد به قَدْرُ الصفة، فهذا لا نَعْلَمُه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وهذا الذي نَفاه أحمد في رواية حنبل، وأَثْبَتَه في رواية المروذي إذا قُصد به العلم باستواء الله علىٰ عرشه.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٢٢).

فالواجبُ على طالب العلم: مُدارَسَة روايات الإمام العالِم الواحد بما تَأْتَلِفُ عليه كلُّ رواياته في المسألة الواحدة، كما يجب عليه: مدارسة المنقول عن مجموع سلفِ الأُمَّة في المسألة الواحدة بما يدلُّ على اتفاقهم على ما دلَّت عليه نصوصُ الوحي.

فكلامُ السلف في الحدِّ إثباتًا ونفيًا يدلُّ على أنَّ مقصودهم بإثباته: أنَّ صفات الله قائمة به، وأنه مباين لخَلقه، غير حَالٍّ فيهم، ونَفْيُهم مقصوده: أنَّ الله لا يُحاط به.

قال أبو الحسن العنبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعتُ سَهْلَ بن عبدالله التُّسْتَري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول -وقد سُئل عن ذات الله، فقال[1]-: «ذاتُ الله موصوفةٌ بالعِلم، غيرُ مُدْرَكَةٍ بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان، من غير حدٍّ ولا إحاطة ولا حُلول، وتراه العيون في العُقبىٰ، ظاهرًا في مُلكه وقدرته، قد حَجَب الخلق عن معرفة كُنْهِ ذاته، ودلَّهم عليه بآياته، فالقلوبُ تَعْرِفُه، والعيونُ لا تُدْرِكُه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطةٍ ولا إدراك نهاية».

وقال أبو داود الطيالسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كان سفيان وشعبة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وشريك، وأبو عوانة، لا يَحُدُّونَ، ولا يُشبِّهون، ولا يُمثِّلون، يَرْوُونَ الحديثَ، ولا يقولون: كيف؟ وإذا سُئلوا قالوا بالأثر».

قال العلَّامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «عُلم أنَّ مراده: أنَّ الله يَتَعالَىٰ عن أنْ يُحِيطَ أحدٌ بحدِّه، لا أنَّ المعنىٰ أنه غير مُتميِّز عن خلقه، مُنفصِل عنهم، مُبايِن لهم،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٣).

سُئل عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمَ نَعْرِفُ ربنا؟ قال بأنه علىٰ العرش، بائن من خلقه، قيل: بحدٍّ؟ قال: بحدٍّ. انتهىٰ.

ومن المعلوم: أنَّ الحدَّ يُقال علىٰ ما ينفصل به الشيء ويتميز عن غيره، واللهُ تعالىٰ غيرُ حالٍّ في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المُقِيم لِمَا سواه.

فالحدُّ بهذا المعنىٰ لا يجوزُ أنْ يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلًا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفيُ وجود الربِّ، ونفيُ حقيقته.

وأمَّا الحدُّ بمعنىٰ العلم والقول، وهو أنْ يَحُدَّه العِبادُ، فهذا منتفٍ بلا منازعةٍ بين أهل السُّنة».

فَكُنْ -أيها المسلمُ- مُتكلِّمًا في صفات الله إثباتًا ونفيًا حيث وَرَد بذلك النص القرآني والحديث النبوي، قال النبي ﷺ مُعظِّمًا صفات رب العالمين: «لا نُحْصِي ثناءً عليكَ»، رواه مسلم، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].





القاعدة الثالثة: إذا قال القائل: ظاهر النصوص مُرادٌ، أو ظاهرها ليس بمراد.

فإنه يُقال: لفظُ «الظاهر» فيه إجمالٌ واشتراك، فإنْ كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم، فلا رَيْبَ أن هذا غيرُ مُرادٍ.

ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمّون هذا ظاهرًا، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرًا وباطلًا، واللهُ ﷻ أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وَصَف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفرٌ وضلالٌ.

والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين: تارةً يجعلون المعنىٰ الفاسد ظاهر اللفظ، حتىٰ يجعلوه محتاجًا إلىٰ تأويلٍ يخالف الظاهر، ولا يكون كذلك. وتارةً يَرُدُّون المعنىٰ الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطلٌ[(١)].

الشَّرح

إنَّ الأخذ بظاهر النصوص -حيث أدَّىٰ النبي ﷺ معناه إلىٰ الصحابة رضي الله عنهم الذين أدَّوه إلىٰ الأمَّة- هو الدِّين الذي تعبَّدنا اللهُ به، أمَّا ما ظهر للبعض ممَّا يخالف معنىٰ ما أدَّاه إلينا الصحابة رضي الله عنهم من المعاني التي تلقَّوها عن المبلِّغ عن الله، فهو فهمٌ مبتدعٌ مغلوطٌ يجب محاذرته.

وكما أنه لا يجوز صَرْفُ النصِّ عن ظاهره، فكذلك ينبغي التحذير من وضعِ كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ في غير ما وُضع له لفظُ النصِّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: «يجب الفَرقُ بين ما وُضع له اللفظ، وبين ما عناه المُتكلِّم باللفظ، وبين ما

(١) التدمرية (ص٦٩).

(٢) منهاج السُّنة (٥/ ٤٥٢).

يحمل المستمع عليه اللفظ».

فهناك فرقٌ بين ما يظهر للإنسان من معنىٰ النص، وما يقتضيه النص مما أراد الله من عباده فهمه واعتقاده والعمل به، فالأول قد يكون فهمًا مغلوطًا.

والواجبُ علىٰ طالب العلم: تلقي معاني نصوص القرآن والسُّنة من معدنه ومنبعه، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإنهم حضروا التنزيلَ، وأخذوا معاني النصوص من الرسول ﷺ مباشرةً، وهم أفصح الخَلق وأنصحهم في أداء العلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]: «أمَّا فقهاء أهل الحديث العاملون به فإنَّ معظم همِّهم البحث عن معاني كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وما يُفسِّره من السنن الصحيحة، وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعن سُنَّة رسول الله ﷺ، ومعرفة صحيحها وسَقِيمها، ثم التَّفقُّه فيها، وتفهُّمها، والوقوف علىٰ معانيها، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام، وأصول السُّنة والزُّهد والرَّقائق وغير ذلك، وهذا هو طريقة الإمام أحمد ومَن وافقه من علماء الحديث الربَّانيِّين».

والتأويلاتُ الباطلة والتحريفات لمعاني القرآن والسُّنة، جاءت ممن عدلَ عن تلقِّي الدِّين عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو خالفهم فيما تلقَّوه من الدِّين عن النبي ﷺ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ [(٢)]: «إنَّ تأويل مَن تأوَّل القرآن بلا سُنَّةٍ تدلُّ علىٰ معناها أو معنىٰ ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أُثر عن أصحاب الرسول ﷺ، فهذا تأويلُ أهلِ البدع».

---

(١) جامع العلوم والحِكم (١/ ٢٤٩).

(٢) السُّنة للخلال (٢/ ٢٣).

ويجب على المُتدبِّر لمعاني نصوص القرآن والسُّنة أنْ يفهمَ معانيها كما تقتضيها ألفاظها بفهمِ سلفِ الأُمَّة خير القرون.

ويجب على المُتأوِّل لألفاظ الوحي عن حقائقها وظواهرها أربعة أمور:

الأول: بيانُ احتمال اللفظ للمعنى الذي تأوَّله.

الثاني: إقامة الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره.

الثالث: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادَّعاه لغةً.

الرابع: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادَّعاه في ذلك السِّياق المعيَّن[١].

فالحاصلُ: أنَّ تفسير معاني نصوص القرآن والسُّنة لا بد أنْ يكون بما يقتضيه اللفظُ، وما يُعيِّنه السِّياقُ، ويدلُّ عليه استعمالُ الشرع، ويُؤكِّده فهمُ الصحابة رضي الله عنهم.

وأنتَ -أيها المُسلمُ- إذا تأملتَ تحريفات الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة والماتريدية لنصوص الصفات الواردة في القرآن والسُّنة، وجدتها تخالف الصريح مما جاء بيانه في كلام الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ووجدتَ في ألفاظ النصوص وسياقها ما يدلُّ على بطلان تحريفاتهم، ووجدتَ في تحريفاتهم مفارقةً لإجماع السابقين الأولين والتابعين وفهومهم لمعاني نصوص الوحي.

من أمثلة ذلك: إنكار المعتزلة رؤية المؤمنين ربهم في الجنة؛ قال العَلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله[٢]: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سترون ربكم عز وجل كما

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٤٧-٤٩)، ط. دار الحديث، القاهرة، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص٥٢، ٥٣).

(٢) الردُّ على الجهمية (ص٥٤).

ترون الشمس والقمر»، فلمْ يدعْ لمتأوِّلٍ فيه مقالًا».

وكذلك إنكار الجهمية لصفة الكلام لله ﷻ، قال الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال اللهُ في كتابه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، فهذا لا يحتمل تأولًا غير نفس الكلام».

وحرَّفتِ المبتدعةُ نزولَ اللهِ إلىٰ السماء الدنيا في ثلثِ الليل الأخير إلىٰ نزولِ رحمته وأمره، قال العَلَّامة الدارمي(٢): «إنَّ أَمْرَ الله ورحمته ينزل في كلِّ ساعةٍ ووقتٍ وأوانٍ، فما بالُ النبي ﷺ يَحُدُّ لنزوله الليل دون النهار؟!».

وقال(٣): «أفأمرُه ورحمته يدعوان العباد إلىٰ الاستغفار، أو يقدر الأمر والرحمة أنْ يتكلما دونه، فيقولا: هل من داعٍ فأجيب؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ هل من سائلٍ فأعطيه؟!».

فالحاصل: أنَّ تأويلات المعطلة النافية لصفات الله ﷻ في حقيقتها إلحادٌ في آيات الله وإبطالٌ لحقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «الإلحادُ في أسماء الله تارةً يكون بجَحْدِ معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بإنكار المُسمَّىٰ بها، وتارةً يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها، فالتأويلُ الباطل هو إلحادٌ وتحريفٌ».

---

(١) الردُّ علىٰ الجهمية (ص٨٣).
(٢) نقض عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد (ص١٣٨).
(٣) نقض عثمان بن سعيد المريسي الجهمي العنيد (ص١٣٩).
(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧).

وتحريفُ المعطلة الذين يردون ما اقتضاه ظاهر اللفظ من معاني القرآن والسُّنة، مما صحَّ بيانه عن الصحابة ومَن تلقَّاه عنهم من التابعين وتابعيهم بإحسانٍ، شرٌّ وضلالٌ، ومن المعطلة مَن قال: إنَّ الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنة من أصول الفكر، كأحمد الصاوي في حاشيته على «الجلالين» في سورة الكهف وآل عمران.

قال العَلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا قوله: (إنَّ الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنة من أصول الكفر) فهذا أيضًا من أشنع الباطل وأعظمه، وقائله من أعظم الناس انتهاكًا لحرمة كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم!

والتحقيقُ الذي لا شكَّ فيه -وهو الذي كان عليه أصحابُ رسول الله ﷺ وعامَّة علماء المسلمين- أنَّه لا يجوزُ العدولُ عن ظاهر كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ في حالٍ من الأحوال بوجهٍ من الوجوه، حتى يقومَ دليلٌ صحيحٌ شرعيٌّ صارفٌ عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح».

وقد ضلَّ في الأخذ بظاهر النص فرقتان:

الظاهرية الذين عطَّلوا ظاهر النص عن معناه، وقصروا دلالته على لفظه.

والرافضة الذين عدلوا عن ظاهر نصوص الوحي، وكانوا باطنيةً في تحريف معاني نصوص الوحي بما لمْ يدلَّ عليه ألفاظُ الوحي، وبما يخالف تبيين النبي ﷺ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والأُمَّة.

وهدَى اللهُ أهلَ السُّنة والجماعة إلى الأخذ بظاهر النصوص، وما دلَّت عليه من المعاني التي اقتضتها ألفاظها، ولمْ يُعطِّلوا نصوص الوحي عن معانيها، ولا ابتدعوا

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٦٦-٤٦٨).

لها تحريفات باطنية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مَن لَمْ يلحظ المعاني من خطاب الله ورسوله، ولا يفهم تنبيه الخطاب وفحواه من أهل الظاهر، كالذين يقولون: إنَّ قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] لا يفيدُ النهي عن الضرب، وهو إحدىٰ الروايتين عن داود، واختاره ابنُ حزمٍ، وهذا غايةٌ في الضعف، بل وكذلك قياسُ الأَوْلَىٰ، وإنْ لَمْ يدلَّ عليه الخطابُ، لكن عُرف أنه أولىٰ بالحكم من المنطوق بهذا، فإنكاره من بدعِ الظاهرية التي لَمْ يسبقهم لها أحدٌ من السلف، فما زالَ السفُ يحتجّون بمثل هذا وهذا».

وأمَّا تحريفات الرافضة لمعاني ألفاظ الوحي، فهي تَلاعُبٌ بتحريف القرآن بما لا يدلُّ عليه لفظُ النص ولا بيان سيِّد آل البيت محمد ﷺ الذي بُعث ببيانِ معاني القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أمثلة تحريفات الباطنية الرافضة لمعاني القرآن: تفسيرهم قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] بأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهذا من ترهاتهم التي تُبيِّن ضلالهم، وفيها زجرٌ عن اعتقادهم، فليس أبو لهب عَلَمًا علىٰ الصديق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وسببُ تحريفات عامَّة المبتدعين لمعاني نصوص الوحي: تسليط أهوائهم علىٰ ألفاظ الوحي تحريفًا؛ لأن البدع لا يمكن أنْ يقوم عليها دليلٌ صحيح، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢١/ ٢٠٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المقصود هنا: التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير، وأنَّ من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أنْ حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وفسَّروا كلام الله ورسوله بغير ما أُريد به، وتأوَّلوه على غير تأويله».

وقد وقعَ الخوارجُ في الفهم المغلوط لِمَا توهَّموه من ظاهر النصوص، وهذا شأنُ مَن لا فهم له لنصوص الشريعة، وشأن مَن أخذَ العلمَ بخاصة نفسه ولمْ يأخذه مشافهةً عن العلماء، قال النبي ﷺ عن الخوارج: «يقرؤون القرآنَ لا يجاوز حناجرهم»، متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «بدعة الخوارج، فإنَّ أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا في فهمه».

وقال شيخ الإسلام في الخوارج[٣]: «صاروا يتبعون المتشابه من القرآن فيتأوّلونه على غير تأويله، من غير معرفةٍ منهم بمعناه، ولا رسوخ في العلم، ولا اتّباع للسنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن».

وقد حذَّر الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أفهام المبتدعة المغلوطة لظواهر النصوص المخالفة لهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال أبو عبدالرحيم محمد بن أحمد بن الجرَّاح الجوزجاني: كتبَ إليَّ أحمد بن حنبل: أحسنَ اللهُ إلينا وإليكَ في الأمور كلها، وسلَّمكَ إويانا من كل سوءٍ برحمته:

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص٣٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٤٤٦).
(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (١/ ١٧٩).

أتاني كتابكَ تذكر فيه ما يذكر من احتجاج مَن احتجَّ من المرجئة، واعلم رحمك الله: أنَّ الخصومة في الدِّين ليست من طريق أهل السُّنة وأنَّ تأويلَ مَن تأوَّل القرآن بلا سُنَّةٍ تدلُّ علىٰ معناها أو معنىٰ ما أراد الله ﷻ منها أو أثر.

قال المروذي: أو أثر عن أصحاب الرسول ﷺ، ويعرف ذلك بما جاء عن النبي ﷺ أو عن أصحابه، فهُمْ شاهدوا النبيَّ ﷺ، وشهدوا تنزيله، وما قصَّه له القرآن، وما عنىٰ به، وما أراد به، وخاصٌّ هو أو عامٌّ، فأمَّا مَن تأوَّله علىٰ ظاهره بلا دلالةٍ من رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه، فهذا تأويلُ أهل البدع[1].



(١) السُّنة للخلال (١/ ٥٥٦).

قـال المصنف رحمه الله:

فالأول: كما قالوا في قوله: «عبدي، جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي...» الحديثَ، وفي الأثر الآخَرِ: «الحَجَرُ الأسود يَمِينُ الله في الأرض، فمَن صافَحَهُ وقَبَّله فكأنما صافَحَ اللهَ وقَبَّل يَمينَهُ»، وقوله: «قلوبُ العِباد بين إصبعين من أصابع الرحمن».

فقالوا: قد عُلم أن ليس في قلوبنا أصابع الحق.

فيُقال لهم: لو أَعْطيتم النصوصَ حَقَّها من الدلالة لعَلِمْتُم أنها لا تدلُّ إلَّا علىٰ حقٍّ.

أمَّا الحديثُ الواحد فقوله: «الحَجَرُ الأسود يمينُ الله في الأرض، فمَن صافَحَه وقبَّله فكأنما صافحَ اللهَ وقبَّل يمينه» صريحٌ في أن الحَجَر الأسود ليس هو صفةً لله، ولا هو نفس يمينه؛ لأنه قال: «يمين الله في الأرض»، وقال: «فمَن قبَّله وصافحه فكأنما صافحَ اللهَ، وقبَّل يمينه»، ومعلومٌ أن المُشَبَّه غيرُ المُشَبَّه به، ففي نصِّ الحديث بيانُ أنَّ مُسْتَلِمَهُ ليس مصافحًا لله، وأنه ليس هو نفسُ يمينه، فكيف يُجعل ظاهره كفرًا، وأنه محتاج إلىٰ التأويل! مع أن هذا الحديث إنما يُعرف عن ابن عباس.

وأمَّا الحديث الآخَرُ: فهو في الصحيح مُفسَّرًا: «يقول الله: عبدي، جُعْتُ فلَمْ تُطْعمني. فيقول: ربِّ، كيف أُطْعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! فيقول: أمَا عَلِمْتَ أنَّ عبدي فلانًا جاعَ، فلو أَطْعَمْتَهُ لوجدتَ ذلك عندي. عبدي، مرضتُ فلمْ تَعُدْنِي. فيقول: ربِّ، كيف أَعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! فيقول: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانًا مَرِضَ، فلو عُدْتَهُ لوَجَدْتَنِي عنده».

وهذا صريحٌ في أن الله سبحانه وتعالى لَمْ يَمْرَضْ ولمْ يَجُعْ، ولكنْ مَرِضَ عبدُه وجاعَ عبدُه، فجَعَل جوعَهُ جوعه، ومَرَضَهُ مرضه، مُفسِّرًا ذلك بأنك «لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي، ولو عُدْتَهُ لوجدتني عنده». فلمْ يَبْقَ في الحديث لفظٌ يحتاج إلىٰ تأويل.

وأمَّا قوله: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن»، فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع، ولا مُمَاسٌّ لها، ولا أنها في جَوْفِه.

ولا في قول القائل: هذا بين يدَيّ. ما يقتضي مباشرته ليديه. وإذا قيل: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يَقْتَضِ أنْ يكونَ مُمَاسًّا للسماء والأرض. ونظائر هذا كثيرة[1].

الشَّرح

هذه أمثلةٌ لبعض النصوص التي ضلَّت الفُهوم في معرفة معناها، وتوهَّمت بسبب ذلك معانٍ باطلة في حق الله، فلا بد من تدبُّر ألفاظ هذه الأحاديث فإنَّ ألفاظ النصوص بيان.

المثال الأول: الحديث القدسي: «يقول الله: عبدي جعتُ فلمْ تطعمني، فيقول العبدُ: ربِّ، كيف أطعمكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! فيقول: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانًا جاعَ، فلو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي. عبدي، مرضتُ فلمْ تَعُدني، فيقول: ربِّ، كيف أعودكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! فيقول: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلانًا مرضَ، فلو عدته لوجدتني عنده».

وهذا الحديثُ القدسي شَرْحُه وبيانُه فيه، فليس لأحدٍ أنْ يخالفَ بيانَ اللهِ ﷻ، ولمْ يدعِ اللهُ ﷻ لأحدٍ مجالًا للمغالطة في معناه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إنَّ هذا الحديث الصحيح له تمامٌ آخر، ذكر فيه تفسيره، وأظهر في معناه».

(١) التدمرية (ص٦٩-٧٣).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٩٦).

وقال شيخ الإسلام[(١)]: «فإذا كان الربُّ لمَّا قال لعبده: مرضتُ وجعتُ، قال: كيف أعودكَ وكيف أطعمكَ؟ قال: إنَّ عبدي فلانًا مرضَ فلو عدته لوجدتني عنده، وعبدي فلان جاعَ فلو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي، فهل يكون في إظهار المعنىٰ وبيانه وكشفه وإيضاحه أبلغ من هذا الخطاب؟».

المثال الثاني: أثرُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الحجرُ الأسود يمينُ الله في الأرض، فمَن صافحه وقبَّله فكأنما صافحَ اللهَ وقبَّل يمينه»، ولمْ يصحَّ هذا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنَّ تقبيلَ الحجر الأسود ومصافحته مُنَزَّلٌ منزلةَ تقبيلِ يمين الله ومصافحته، فهذا حقيقة هذا اللفظ فإنه المتبادر السابق إلىٰ الفهم منه، لا يفهم الناس منه غير ذلك، ولا يفهم أحدٌ منه أنَّ الحجر الأسود هو صفة الله القديمة القائمة به، فهذا لا يخطرُ ببالِ أحدٍ عند سماع هذا اللفظ أصلًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «الأثر الذي يُروىٰ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمَن صافحه واستلمه فكأنما صافحَ اللهَ وقبَّل يمينه»[(٤)]، فمَن قال: إنَّ هذا يحتاج إلىٰ تأويلٍ فقد أخطأ، فإنه ليس ظاهر هذا أنَّ الحجر هو صفة الله، فإنه قال: «يمين الله في الأرض»، قيَّده بكونه «في الأرض»، وهذا بيِّنٌ أنه ليس هو صفة الله. ثم قال: «فمَن صافحه وقبَّله فكأنما

(١) بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٩٧، ٩٨).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٧٩٠).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص١٦٣).

(٤) رواه محمد بن أبي عمر، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا موقوفٌ صحيح» المطالب العالية (٢/ ٣٧).

صافحَ اللهَ وقبَّل يمينه»، والمشبَّه غير المشبَّه به، فقد صرَّح بأنَّ المستلم له لمْ يصافح الله، وإنما هو مُشبَّه بذلك».

المثال الثالث: حديث: «قلوب العِباد بين إصبعين من أصابع الرحمن»، رواه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا لا يقتضي حلولًا، وقلوبُ العباد بين أصابع الرحمن لا تستلزم المماسة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ الشيء بين شيئين ليس ظاهره أنه مماسٌّ لهما، كما في قوله عن الجنة والنار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]».

وهكذا أجابَ شيخ الإسلام في متن التدمرية «لا في قول القائل: هذا بين يدَيّ، ما يقتضي مباشرته ليديه، وإذا قيل: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، لمْ يقتضِ أنْ يكونَ مماسًّا للسماء والأرض»[2].



(١) بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٢٤٤).
(٢) التدمرية (ص٧٣).

قال المصنف رحمه الله:

ومِمَّا يشبه هذا القول أن يُجعل اللفظ نظيرًا لِمَا ليس مثله، كما قيل في قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فقيل: هو مثلُ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾.

فهذا ليس مثل هذا؛ لأنه هنا أضاف الفعل إلىٰ الأيدي فصار شبيهًا بقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وهناك أضاف الفعل إليه، فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ ثم قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾. وأيضًا فإنه هناك ذَكَر نفسه المُقدَّسة بصيغة المفرد، وفي اليدين ذَكَر لَفْظَ التثنية، كما في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وهنا أضاف الأيدي إلىٰ صيغة الجمع، فصار كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

وهذا في الجمع نظير قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ و ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ في المفرد.

فالله سبحانه وتعالى يَذْكُر نَفْسَهُ تارةً بصيغة المفرد، مُظْهَرًا أو مُضْمَرًا، وتارةً بصيغة الجمع، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وأمثال ذلك.

ولا يَذْكُر نَفْسَهُ بصيغة التثنية قط؛ لأن صيغة الجمع تقتضي التعظيم الذي يستحقه، وربما تدلُّ علىٰ معاني أسمائه، وأمَّا صيغة التثنية فتدلُّ علىٰ العدد المحصور، وهو مُقدَّسٌ عن ذلك.

فلو قال: ما منعكَ أنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقَتْ يدِي. كان كقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وهو نظير قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ و ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، ولو قال:خلقتُ بيدِي. بصيغة الإفراد، لكان مفارقًا له، فكيف إذا قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بصيغة التثنية.

هذا مع دلالة الأحاديث المستفيضة بل المتواترة، وإجماع سلفِ الأُمَّة علىٰ مثل ما دلَّ عليه القرآن، كما هو مَبْسُوطٌ في موضعه، مثل قوله: «المُقْسِطُون عند الله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حُكْمِهم وأهليهم وما وَلُوا».

وأمثال ذلك[(١)].

الشَّـرْح

حذَّر شيخ الإسلام من المبتدعة الذين يستدلون علىٰ تأويلاتهم الباطلة بجعل اللفظ نظيرًا لما ليس مثله، كمَن يجعل لفظ «القوة» نظيرًا للفظ «اليد»، وهذا كإلحاق قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، بغير نظائرها كقوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

فاستعمالُ اللفظ في غير نظائره تحريفٌ للكلم عن مواضعه، وهو من أُغلوطات الجهمية وفروعهم التي أضلوا بها جُهَّال الناس.

فيجب تفسير اللفظ بمادته وفي السياق الوارد فيه، أمَّا استعمالُ المعنىٰ للفظة مختلفة المادة والاشتقاق والسياق، فذلك التضليل للخلق.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا يجوزُ الكلام في آيات الصفات وأحاديث الإثبات لها، ونفي المثلية عنها، والإيمان بها، إلا بما يُعرف من اللغة العربية، علىٰ سياق الكلام وملازمته».

(١) التدمرية (ص٧٣-٧٦).

(٢) نقض عثمان بن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد (ص٢٠٥).

وألفاظُ القرآن والسُّنة يُفسِّر بعضها بعضًا حيث يتحد المعنىٰ، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنَّ حُكْمَ المجمل، حُكْم المُفسِّر إذا كان في معنىٰ واحد».

ومَن له خبرة بمقالات الجهمية وفروعهم كالرازي وغيره وجدهم يستدلون بتفسير النصوص بغير ما يُفسِّرها مما لا يتحد به المعنىٰ علىٰ تأويلاتهم التي يُحرِّفون بها الكلم عن مواضعه، ووجدهم يستدلون علىٰ إبطال معاني الصفات بما لا يخالفها في المعنىٰ، كتفسيرهم قوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾، وكنفيهم لرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

فمادةُ «أيد» تختلف عن مادة «يد»، فمَن جعلَ إحداهما نظيرًا للأخرىٰ وفي معناها فقد جهلَ وأخطأ.

قال العلَّامة المجدِّد محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنَّ قوله: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ ليس جمعَ يد، وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بـ «أيد» فعل، ووزن الأيدي أفعل، فالهمزةُ في قوله: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ في مكان الفاء والياء في مكان العين والدال في مكان اللام.

ولو كان قوله تعالىٰ: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ جمع يد لكان وزنه أفعلا، فتكون الهمزةُ زائدةً والياء في مكان الفاء والدال في مكان العين، والياء المحذوفة لكونه منقوصًا هي اللام.

والأيد، والآد في لغة العرب بمعنىٰ القوة، ورَجُل أيد: قوي، ومنه قوله تعالىٰ:

(١) الأم (٣/ ٢٩٨).

(٢) أضواء البيان (٥/ ١٨٦)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي: قوّيناه به، فمَن ظنَّ أنها جمع «يد» في هذه الآية فقد غلطَ غلطًا فاحشًا، والمعنىٰ: والسماء بنيناها بقوةٍ».

وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ دالٌّ علىٰ إثبات صفة اليد لله ﷻ، وإثبات الملك إليها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هما شيئان: أحدهما: إثبات اليد، والثاني: إضافة الملك والعمل إليها».

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ هذا خطاب المفرد المعظم نفسه بصيغة الجمع، وخلقَ اللهُ الأنعامَ بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولا يُقال: ﴿أَيْدِينَآ﴾ إلا تعظيمًا لمَن له يدٌ حقيقةً.

ومن تحريفات الجهمية لمعاني صفات الله في نفي صفة اليدين: تفسيرهم القبضة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، بالملك.

قال العلامة أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:٣٨٧هـ)[(٢)]: «قالت الجهمية: إنما معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، كقولك: الدار في قبض فلان، يعني: في ملكه، وقد قبضتُ المالَ، وليس في كفِّكَ شيء، وكذلك تقول: الأرضُ والدار والغلام والدابة في قبضتي، فموَّهوا بذلك علىٰ الجاهل ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٧٠).
(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨).

فالقرآنُ مردودٌ إلىٰ ما جعله الله عليه، فإنه قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فالجهمي الملعون إنما أُتي من جهله باللسان العربي، ومن تعاشيه عن الجادة الواضحة، وطلبه المتشابه وبنيات الطرق ابتغاءَ الفتنة ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

فقول الجهمي: الدار في قبضة فلان، إنما يريد بذلك المغالطة، وإدخال الشكّ والريب علىٰ قلبِ الضعفاء من المسلمين، فسوَّىٰ بجهله بين القبض والقبضة، ألا ترىٰ أنه لا يجوزُ أنْ تقول: (الدار في قبضة فلان)، فإذا أردتَ قبضة اليد أدخلتَ الهاء، فكذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولو كان كقول الجهمي لقال: (والأرض جميعًا في قبضه)، ثم بيَّن فقال: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، وكذلك جاء عن النبي ﷺ: «يطوي اللهُ السماوات كلها يوم القيامة، ثم يهزها، ثم يقول: أنا الجبَّار المُتكبِّر، أين ملوك الأرض؟»».



قال المصنف رحمه الله:

وإنْ كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق علىٰ معناها، والظاهر هو المراد في الجميع، فإن الله تعالىٰ لمَّا أخبر أنه بكل شيء عليم، وأنه علىٰ كل شيء قدير، واتفق أهل السُّنة وأئمة المسلمين علىٰ أن هذا علىٰ ظاهره، وأن ظاهر ذلك مراد، كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون عِلْمُه كعلمنا، وقدرته كقدرتنا.

وكذلك لمَّا اتفقوا علىٰ أنه حيٌّ حقيقةً، عالِمٌ حقيقةً، قادِرٌ حقيقةً، لـمْ يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حي عليم قدير[1].



الشَّرح

اعتقادُ السلف بالإيمان بنصوص الوحي فيما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله ﷺ بإمرارها كما جاءت، واعتقاد حقائقها علىٰ ظاهرها، كان معنىٰ ذلك بما يليق بالله تبارك وتعالى، لا بما يماثل صفة المخلوقين.

وهذه الجملةُ من العقيدة دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فأثبتَ اللهُ لنفسه سمعًا وبصرًا لا يماثل سمع وبصر غيره من المخلوقين.

فالموحدون اعتقادهم أن لا إله إلا الله، ولا يسوون غيره به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «المُوحِّد صادقٌ في قوله: «لا إله إلا الله»، وكلما كرَّر ذلك تحقَّق قلبه بالتوحيد والإخلاص، وكذلك قوله: «الله أكبر»، فإنه تعالىٰ كلُّ ما يخطر بنفس العِباد من التعظيم فهو أكبر منه».

---

(١) التدمرية (ص٧٦).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٠).

والموحِّدون ينزِّهون اللهَ عن النقص وعن مماثلةِ المخلوقين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إذا قال: «سبحان الله، والحمد لله» فقد نزَّه الربَّ، فنزَّه قلبه أنْ يصفَ الربَّ بما لا ينبغي له، فكلما سبَّح الربَّ تنزَّهت نفسه عن أنْ يصفَ الربَّ بشيءٍ من السوء، كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]».

والموحِّدون هم الحامدون لربهم الذين يصفونه بصفاتِ الكمال محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إثباتُ المحامد المتضمنة لصفات الكمال تستلزم نَفْيَ النقص، وإثباتُ وحدانيته وأنه ليس له كفو في ذلك يقتضي أنه لا مثلَ له في شيءٍ من صفات الكمال، فهو مُنزَّهٌ عن النقائص ومُنزَّه أنْ يماثله شيءٌ في صفات الكمال، كما دلَّ علىٰ هذين الأصلين قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾».

وتمثيلُ الله بخَلقِه هو من الشرك الذي لا يعتقده السلف، وينكرونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إذا قيل: «لا إله إلا الله» تضمنتْ هذه الكلمة إثباتَ جميع المحامد، وأنه ليس له فيها نظير؛ إذ هو لا إله إلا هو.

والشركُ كله إثباتُ نظيرٍ لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يُسبِّح نفسه ويُعاليها عن الشرك في مثل قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨١).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٧).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٨٨).

[المؤمنون: ٩١، ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢]، فإنَّ الشركَ قولٌ هو وصفٌ، وعملٌ هو قصدٌ، فنزَّه نفسه عما يصفون بالقول والاعتقاد، وعن أنْ يُعبدَ معه غيره».

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليس لله عدلٌ، ولا مثل -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-».

ونصوصُ الوحي كثيرةٌ في ذِكر فَرْق ما بين صفات الله وصفات المخلوقين، فما أضلّ مَن مثَّل صفات الله بصفات خَلْقِه، أو نفىٰ صفات الله مُتوهِّمًا أنَّ إثباتها يستلزم مماثلتها لصفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهذا كلُّه من تحقيق الإيمانِ باسمِ اللهِ «العَلِيِّ»، وهو اعتقادُ علوِّ ذاته وعلوِّ صفاته، فليس كمثلها شيءٌ؛ لأنها غايةٌ في الكمال، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]، فلا تتوهَّمْ في شيءٍ من صفاتِ كمالِهِ النقصَ أو مماثلةِ صفاتِ المخلوقين.



(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة (٣/ ٤٧٩).

قـال المصنف رحمه الله:

فكذلك إذا قالوا في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: إنه علىٰ ظاهره. لمْ يقتضِ ذلك أن يكون ظاهره استواءً كاستواء المخلوق، ولا حبًّا كحبه، ولا رضًا كرضاه.

فإنْ كان المستمع يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين، لَزِمَهُ أن لا يكون شيء من ظاهر ذلك مرادًا، وإن كان يعتقد أن ظاهرها هو ما يليق بالخالق ويختص به، لم يكن له نفيُ هذا الظاهر، ونفيُ أن يكون مرادًا إلا بدليلٍ يدلُّ علىٰ النفي.

وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات، فيكون الكلام في الجميع واحدًا[1].

الشَّرح

الاعتقادُ الصحيحُ في أسماء الله وصفاته: الإيمانُ بها جميعًا كما أخبر الله، واعتقاد حقائقها علىٰ ما يليق بالله ﷻ من غيرِ تعطيلٍ لها، ولا تمثيلٍ لها بالمخلوقات، هكذا الاعتقادُ الصحيح في كلِّ أسماءِ الله وصفاته.

والمُعطِّلةُ التعطيل الجزئي اضطربوا وتناقضوا، فأثبتوا بعض الصفات، ونفوا بعضًا، بحسب ما ضلَّت فيه أفهامهم، فما لمْ تعقله عقولهم من الصفات اللائقة بالله نفوها خشيةَ مماثلتها للمخلوقين، وما لمْ يتوهَّموا فيه التمثيل أثبتوه.

وإثباتُ صفات الله توحيد، والمُعطِّلة: كلُّ مَن نفىٰ منهم شيئًا من صفات الله فرارًا من محذورٍ يتوهَّمه، فإنه يلزمه فيما أثبته نظير ما فرَّ منه.

---

(١) التدمرية (ص٧٦، ٧٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ كلَّ مَن نفىٰ شيئًا من الأسماء والصفات التي نطقَ بها الكتاب والسُّنة فرارًا من محذور، فإنه يلزمه فيما أثبته نظير ما فرَّ منه فيما نفاه، فإذا نفىٰ الغضب والمحبة وأثبتَ الإرادة والسمع والبصر، بناءً علىٰ أنَّ الغضب والحب الذي يُعْقَل هو ما يتصف به العبد، وذلك ممتنعٌ في حق الله.

قيل له: الإرادة والسمع والبصر الذي يُعْقَل هو ما يتصف به الإنسان، وذلك ممتنعٌ في حق الله تعالىٰ.

فإذا قال: هذه الصفات ثابتةٌ لله علىٰ ما يليق به من غير أنْ تماثل صفاته صفات المخلوقين.

قيل له: وكذلك سائر الصفات هي ثابتةٌ لله علىٰ ما يليق به من غير أنْ تماثل صفات المخلوقين، فهو سبحانه متَّصفٌ بصفات الكمال، مُنزَّهٌ عن النقص بكل وجهٍ، ومُنزَّه عن أنْ يماثله غيره في شيءٍ من صفاته».

والمقصودُ: أنَّ الله خاطبنا وأخبرنا بصفاته لنفهمَ معناها، لا لننفيها، ولا لنفوِّض معناها، ولا لنمثِّلها بصفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لو قال الرَّجُل: هو حيٌّ لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين، وعليم لا كالعلماء، وسميع لا كالسمعاء، وبصير لا كالبصراء، ونحو ذلك، وأراد بذلك نَفْيَ خصائص المخلوقين، فقد أصابَ.

وإنْ أرادَ نَفْيَ الحقيقة التي للحياة والعلم والقدرة ونحو ذلك، مثل أنْ يُثْبِتَ الألفاظ وينفي المعنىٰ الذي أَثْبَتَه اللهُ لنفسه، وهو من صفاتِ كماله، فقد أخطأَ».

(١) الردُّ علىٰ الشَّاذلي (ص٢١٣).
(٢) درء تعارُض العقل والنقل (٤/ ١٤٧).

فاتفاقُ الأسماءِ لا يدلُّ علىٰ اتفاقِ المسميات، فصفاتُ كلِّ مسمىٰ تليق به، قال أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العُكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:٣٨٧هـ) [(١)]: «قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وَ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وَقَالَ: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فَذَكَرَ لِنَفْسِهِ وَجهًا، وَذَكَرَ لِخَلْقِهِ وُجُوهًا، وَقَالَ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وَقَالَ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَقَالَ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]، وَقَالَ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَقَالَ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٤]، وَقَالَ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وَقَالَ: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وَقَالَ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وَقَالَ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠١]، وَقَالَ: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَقَالَ: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وَقَالَ، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَالَ: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فَهَذِهِ كُلُّهَا وَأَمْثَالُهَا، وَنَظَائِرُهَا وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الَّتِي وَصَفَ خَلْقَهُ بِمِثْلِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١] كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَبْطُلْ قَوْلُنَا: فُلَانٌ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَفُلَانٌ رَحِيمٌ، وَفُلَانٌ حَلِيمٌ، وَفُلَانٌ عَالِمٌ، وَفُلَانٌ مَلِكُ قَوْمِهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، فَذَلِكَ كُلُّهُ لَا يُبْطِلُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ».

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفِرَق المذمومة (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

وغلوُّ التعطيل لمجرد اتفاق الأسماء جعلَ المعطِّلة الباطنية ينفون وجودَ اللهِ وذاته وما يستلزمه، فرارًا من تشبيهه بالموجودات، ووقعوا في تشبيهه بالممتنعات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «نُفَاةَ الصِّفَاتِ يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ مُشَبِّهًا، بَلِ الْمُعَطِّلَةُ الْمَحْضَةُ الْبَاطِنِيَّةُ نُفَاةُ الْأَسْمَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ سَمَّىٰ اللهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مُشَبِّهًا، فَيَقُولُونَ: إِذَا قُلْنَا حَيٌّ عَلِيمٌ فَقَدْ شَبَّهْنَاهُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْعَالِمِينَ، وَكَذَلِكَ إِذَا قُلْنَا: هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ فَقَدْ شَبَّهْنَاهُ بِالْإِنْسَانِ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ، وَإِذَا قُلْنَا: هُوَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَقَدْ شَبَّهْنَاهُ بِالنَّبِيِّ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ، بَلْ قَالُوا: إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مَوْجُودٌ فَقَدْ شَبَّهْنَاهُ بِسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي مُسَمَّىٰ الْوُجُودِ.

فَقِيلَ لِهَؤُلَاءِ: فَقُولُوا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ.

فَقَالُوا -أَوْ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ-: إِذَا قُلْنَا ذَلِكَ فَقَدْ شَبَّهْنَاهُ بِالْمَعْدُومِ.

وَبَعْضُهُمْ قَالَ: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ.

فَقِيلَ لَهُمْ: فَقَدْ شَبَّهْتُمُوهُ بِالْمُمْتَنِعِ، بَلْ جَعَلْتُمُوهُ نَفْسَهُ مُمْتَنِعًا، فَإِنَّهُ كَمَا يَمْتَنِعُ اجْتِمَاعُ النَّقِيضَيْنِ يَمْتَنِعُ ارْتِفَاعُ النَّقِيضَيْنِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَوْجُودٌ مَعْدُومٌ فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَمَنْ قَالَ: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ فَقَدْ رَفَعَ النَّقِيضَيْنِ، وَكِلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ مُمْتَنِعَ الْوُجُودِ؟!».



(١) منهاج السُّنة (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبيانُ هذا: أن صفاتنا منها ما هي أعيان وأجسام، وهي أَبْعاضٌ لنا، كالوجه واليد؛ ومنها ما هي مَعانٍ وأعراض، وهي قائمة بنا، كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة.

ثُمَّ إنَّ من المعلوم: أن الرب لمَّا وَصَف نفسه بأنه حي عليم قدير، لمْ يَقُلِ المسلمون: إنَّ ظاهِرَ هذا غيرُ مرادٍ؛ لأن مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا؛ فكذلك لمَّا وَصَف نفسه بأنه خَلَق آدم بيديه، لمْ يوجب ذلك أن يكون ظاهره غيرَ مُرادٍ؛ لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا، بل صفة الموصوف تناسبه.

فإذا كانت نَفْسُه المُقدَّسَة ليست مثل ذوات المخلوقين، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين، ونسبةُ صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه، وليس المنسوب كالمنسوب، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه، كما قال النبي ﷺ: «ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»، فشبَّه الرؤية بالرؤية، لا المَرْئِي بالمرئي[(١)].

الشَّرْح

الفَرْقُ بين ذات الله وذوات المخلوقين معلومٌ، فاللهُ القائم بنفسه الغني عن العالمين أوجدَ وخلقَ المخلوقات كلها، فلا يكون المخلوقُ كالخالق أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾.

فكما يمتنعُ أنْ تكونَ ذوات المخلوقين كذات الله، فكذلك يمتنع أنْ تكونَ صفاتهم تماثل صفات الله، فإنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فلا يرتاب المسلمون أنَّ فَرْقَ ما بين صفات الله وصفات المخلوقين كالفَرق بين ذاته وذوات مخلوقاته، قال

(١) التدمرية (ص٧٧، ٧٨).

تعالىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

والمسلمون فيما يثبتونه لله ﷻ من صفاته، إنما يُثْبِتُون ذلك لأنَّ الله أخبرنا بذلك عن نفسه، فكان ذلك تصديقًا بكلمات الله فيما أخبرَ ربنا عن نفسه، ولأنها صفاتُ كمالٍ لا يماثلها شيءٌ، تمدَّح الله بها نفسه بالإخبار عنها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو سبحانه في صفات الكمال لا يماثله شيءٌ، فهو حيٌّ قيُّومٌ سميعٌ بصيرٌ عليمٌ قديرٌ رؤوفٌ رحيمٌ، وهو الذي خلقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوىٰ علىٰ العرش، وهو الذي كلَّم موسىٰ تكليمًا، وتجلَّىٰ للجبل فجعله دكًّا.

ولا يماثله شيءٌ من الأشياء في شيءٍ من صفاته، فليس كعلمه علمُ أَحَدٍ، ولا كقدرته قدرة أحدٍ، ولا كرحمته رحمة أحدٍ، ولا كاستوائه استواء أحدٍ، ولا كسمعه وبصره سمعُ أحدٍ ولا بصره، ولا كتكليمه أحد، ولا كتجلِّيه تجلِّي أحدٍ».

واعتقادُ الجهمية النُّفاة المعطِّلة وفروعهم أنَّ إثبات صفات الله تستلزم مماثلة المخلوقين في صفاتهم، هو الذي دَعاهم إلىٰ نفيِ صفات الله وتكذيب أخبارها الواردة بذكرها في القرآن والسُّنة.

والله «أحدٌ» ليس له مثل، و«صمدٌ» قد كَمُل في ذاته وصفاته وأفعاله.

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص١٩٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مذهبُ سلف الأمَّة وأئمتها: أنهم يصفون اللهَ تعالىٰ بما وصفَ به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تكييفٍ ولا تمثيل، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيل، إثبات بلا تمثيلٍ، وتنزيه بلا تعطيلٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وهذا إبطالٌ للتمثيل، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وهذا إبطالٌ للتعطيل».

وقال يوسف بن موسىٰ: إنَّ أبا عبدالله -الإمام أحمد- قيل له: ولا يُشْبِهُ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شيئًا من خَلقِه، ولا يُشْبِهُهُ شيءٌ من خَلقِه؟

قال: نعم، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١] [(٢)].

وقوله ﷺ: «إنكم سترون ربّكم كما ترون الشمس والقمر» تشبيهٌ للرؤية بالرؤية، وليس تشبيهًا للمرئي بالمرئي، فإنَّ الله ليس كمثله شيءٌ.

والمنقول عن سلفِ الأمَّة: الإيمان والتصديق بنصوص الوحي في الإخبار عن أسماء الله وصفاته، واعتقاد حقائقها علىٰ ما دلَّ عليه القرآن والسُّنة، وإبطال تأويلات مَن حرَّفها.

قال إسحاق بن حنبل: سمعتُ أبا عبدالله -يعني: أحمد بن حنبل- يقول: إنَّ الله لا يُرىٰ في الدنيا، ويُرىٰ في الآخرة، ثبتَ في القرآن وفي السُّنة، وعن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين[(٣)].

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٣٣).

(٢) السُّنة للخلال (٢/ ٢٧٠-رقم: ٢٢٠١).

(٣) السُّنة للخلال (٢/ ٢٩١-رقم: ٢٢٤٢).

وقال أبو بكر المروذي رَحِمَهُ اللَّهُ: سألتُ أبا عبدالله عن أحاديث الرؤية، فصحَّحها، وقال: قد تلقّتها العلماءُ بالقبول، نُسلِّم الخبر كما جاء(١).

وقال الميموني: قال أبو عبدالله -الإمام أحمد-: مَن زعمَ أنَّ يده نعماه، كيف يصنع بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، مُشدَّدة؟ «وحين خلقَ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقبض»، يعني: من جميع الأرض. و«القلوب بين إصبعين»(٢).

وقال حنبل: سمعتُ أبا عبدالله يقول: قالت الجهمية: إنَّ الله لا يُرىٰ في الآخرة، ونحن نقول: إنَّ الله يُرىٰ؛ لقولِ الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ لموسىٰ: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبرَ اللهُ تعالىٰ أنه يُرىٰ.

وقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمرَ»، رواه جرير وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال: «كلكم يخلو به ربه».

و«إنَّ الله يضع كنفه علىٰ عبده فيسأله: ماذا عملتَ؟».

هذه أحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُروىٰ صحيحة عن الله تعالىٰ أنه يُرىٰ في الآخرة، أحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مدفوعةٍ، والقرآنُ شاهِدٌ أنَّ الله يُرىٰ يوم القيامة.

(١) السُّنة للخلال (٢/ ٣٠٩-رقم: ٢٢٨١).
(٢) السُّنة للخلال (٢/ ٣٣٧-رقم: ٢٣٢٦).

وقول إبراهيم لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]، فثبتَ أنَّ الله يسمع ويبصر.

وقال الله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] (١).



(١) السُّنة للخلال (٢/ ٣١١).

قال المصنف رحمه الله:

وهذا يَتبيَّن بالقاعدة الرابعة: وهي أن كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو في كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تُماثِل صفات المخلوقين؛ ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فَهِمَهُ فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:

أحدها: كونه مثَّل ما فَهِمَهُ من النصوص بصفات المخلوقين، وظَنَّ أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنه إذا جَعَل ذلك هو مفهومها وعطّله، بَقِيَتِ النصوصُ مُعطَّلةً عمَّا دَلَّتْ عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقىٰ مع جنايته علىٰ النصوص، وَظَنِّه السيئ الذي ظَنَّهُ بالله ورسوله -حيث ظَنَّ أنَّ الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل- قد عَطَّل ما أَوْدَعَ اللهُ ورسولُه في كلامهما من إثبات الصفات لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله سبحانه.

الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علمٍ، فيكون مُعطِّلًا لِمَا يستحقه الرب تعالىٰ[1].



الشَّرح

البدع والضلالات كلها منشأها من القول علىٰ الله بغير علمٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «حذَّر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: بمجرد ما تهوىٰ أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حُجَّة.

(١) التدمرية (ص٧٩-٨١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٥٣٨).

فليَحْذَرِ العبدُ من أمثال هؤلاء، وعلامتهم -كما وَصَفهم اللهُ لعباده-: أنَّ دَعْوَتَهُم غيرُ مبنيةٍ على برهان، ولا لهم حُجَّة شرعية؛ وإنما يُوجد لهم شُبَهٌ بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة.

فهؤلاء معتدون على شرعِ الله، وعلى عباد الله، واللهُ لا يحب المعتدين. بخلاف الهادين المهتدين؛ فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم، والقرب منه».



قال المصنف رحمه الله:

الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات.

فيكون قد عطَّل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالىٰ، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات، وعطَّل النصوص عما دلَّت عليه من الصفات، وجَعَل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل، يكون ملحدًا في أسمائه وآياته.

الشَّرْح

ذَكَر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن الذي أَوْقَعَ الناسَ في تعطيل أسماء الله وصفاته، تَوَهُّمهم مماثلتها للمخلوقين، فالمُعطِّل مُمثِّل.

وذَكَر شيخ الإسلام أن تعطيل المبتدعين سَبَبُه سوء الظن بالله؛ حيث توهموا في صفات الله مماثلتها للمخلوقين، وعَطَّلُوا بسبب ذلك كمال الله الواجب إثباته له.

قال شيخ الإسلام في المعطل: «ظنه السيئ الذي ظَنَّهُ بالله ورسوله -حيث ظَنَّ أن الذي يُفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل»، وهكذا تجد أن فساد التوحيد كله يرجع إلىٰ سوء الظن بالله.

قال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن أعظم الذنوب عند الله تعالىٰ هو إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظن قد ظنَّ به خلافَ كمالِهِ المُقدَّس، فظنَّ به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الظانين به ظن السوء

(١) منهاج التأسيس ص٢٨٨.

بما لمْ يتوعد به غيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقد قال تعالىٰ لمَن أَنْكَر صفةً من صفاته: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقد قال تعالىٰ عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]، أي: فما ظنكم أن يجازيكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟

وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أَهْلُه من أنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه غنيٌّ عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقِسْط علىٰ خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالِمُ بتفاصيل الأمور، فلا تخفىٰ عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، لا يحتاج إلىٰ مُعِين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلىٰ مَن يستعطفه، ما اتخذتم من دونه أولياء تدعونهم وتتوسلون بهم إليه بزعمكم».

فالمُعطِّل جَمَع بين التشبيه والتعطيل؛ لأنه أَنْكَر ما وَصَف الله به نفسه؛ لتَوَهُّمِه أن إثبات ذلك تشبيهٌ للخالق بالمخلوق.

قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعطلة النافية: الذين ينكرون صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي وَصَف بها نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، ويُكذِّبون بالأخبار الصِّحاح التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الصفات، ويتأولونها بآرائهم المنكوسة علىٰ موافقة ما اعتقدوا من الضلالة، وينسبون رُوَاتها إلىٰ التشبيه».

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ، وَتَرَكَ الْحَقَّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، وَإِنَّمَا رَمَزَ إِلَيْهِ رُمُوزًا بَعِيدَةً، وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، وَصَرَّحَ دَائِمًا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ، وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلِهِ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلَّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَىٰ كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَىٰ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ، وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ.

وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ إِلَىٰ مَا يُوهِمُ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَأَنَّ الْهُدَىٰ وَالْحَقَّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ.

وَأَمَّا كَلَامُ اللهِ فَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ: التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ وَالضَّلَالُ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُتَهَوِّكِينَ الْحَيَارَىٰ هُوَ الْهُدَىٰ وَالْحَقُّ، وَهَذَا مِنْ أَسْوَأِ الظَّنِّ بِاللهِ».

---

(١) زاد المعاد (ص٤٠٦، ٤٠٧).

قال المصنف رحمه الله:

مثالُ ذلك: أنَّ النصوص كلها دلّت على وصفِ الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات، واستوائه على العرش؛ فأمَّا علوه ومباينته للمخلوقات فيُعلم بالعقل الموافق للسمع، وأمَّا الاستواء على العرش فطريقُ العِلم به هو السمع، وليس في الكتاب والسُّنة وصفٌ له بأنه لا داخل العالَم ولا خارجه، ولا مُبايِنه ولا مُداخِله(١).

الشَّرح

علوُّ الله على خَلقه دلَّ عليه: القرآن، والسُّنة، والمأثور المتواتر عن الصحابة رضي الله عنهم، وإجماع الصحابة، وإجماع مَن بَعْدَهم من المسلمين.

ودلَّ على ثبوت العلو لله تبارك وتعالى: الفطرة، والعقل الصريح.

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري رحمه الله (ت: ٣٨٧)(٢): «أجمعَ المسلمون من الصَّحابة والتابعين وجميع أهل القِبلة من المؤمنين: أنّ الله تبارك وتعالى على عرشه، فوق سماواته، بائِنٌ من خَلقه، وعِلْمُه محيط بجميع خَلقه، لا يأبىٰ ذلك ولا ينكره إلَّا مَن انْتَحَل مذاهب الحُلُولية».

واستواء الله جل وعلا على عرشه هو من أعظم الصفات التي تمدّح الله بها نفسه، فما أَضَلَّ مَن كذّب بالقرآن، ونَفَىٰ ما وَصَف الله به نفسه، خصوصًا أعظم صفاته.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

---

(١) التدمرية (ص٨١).

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤١٥).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي هو سقفُ المخلوقات، ووَسِعَ الأرضَ والسماوات، فهذا المَلِكُ عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يُذل له، ويُخضع، ويُسجد له ويُركع».

ومقصود الجهمية بإنكار علو الله واستوائه علىٰ عرشه: إبطال ألوهية رب العالمين.

والله ﷻ يسجد له تحت عرشه الشمس التي هي من أعظم مخلوقاته، فما أضلَّ مَن جَهِلَ استواء الله علىٰ عرشه! وما أَضَلَّ مَن عَبَدَ الشمس والنجوم والكواكب! ففي الصحيحين من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: دخلتُ المسجد ورسول الله ﷺ جالِسٌ، فلمَّا غابت الشمس، قال: «يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب هذه الشمس؟» قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب تسجد تحت العرش فتستأذن، فيُؤذن لها؛ وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلع من مغربها».

والمسلمون كلهم مجمعون علىٰ أنّ الله في السماء؛ وأنّه مستوٍ علىٰ عرشه.

قال عدي بن عميرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: خرجتُ مهاجرًا إلىٰ النبي ﷺ، فإذا هو ومَن معه يسجدون علىٰ وجوههم، ويزعمون أنّ إلههم في السماء، فأسلمتُ وتَبِعْتُه[٢].

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «اجتمعتِ الكلمةُ من المُصَلِّينَ في سجودهم: سبحان ربي الأعلىٰ، لا ترىٰ أحدًا يقول: ربي الأسفل».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٥٠٣).

(٢) مغازي يحيىٰ بن سعيد الأموي، بواسطة اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٢٧).

(٣) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص٢١).

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله -تعالىٰ ذِكْرُه- فوق عرشه، ونؤمن بما وَرَدتِ السُّنة من صفاته»، رواه البيهقي بإسنادٍ صحيح.

وقد سُئل الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَعْرِفُ ربنا بأنّه فوق سَبْعِ سماوات، علىٰ العرش استوىٰ، بائنٌ من خَلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية»[(١)].

وفي القلوب معرفة فطرية بعلو الله، وأنّه في السماء، فكلُّ مسلمٍ إذا دعا ربه رفع يديه إلىٰ السماء، قال أبو جعفر الهمذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي المعالي الجويني[(٢)]: «أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؛ فإنّه ما قال عارِفٌ قط: يا الله، إلَّا وَجَد في قلبه ضرورة لطلب العلو، لا يلتفت يُمْنَةً ولا يُسْرَة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مُعلِّقًا[(٣)]: «هذا يقتضي أنّه في فِطْرَتِهم وخِلْقَتِهم العِلْم بأنّ الله فوق، وقَصْده والتَّوجُّه إليه إلىٰ فوق».

وقال العلَّامة محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «بابُ ذِكْرِ البيان أنّ الله عَزَّ وَجَلَّ في السماء، كما أخبرنا في مُحكَمِ تنزيله وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، وكما هو مفهوم في فِطَرِ المسلمين: علمائهم، وجُهَّالِهم، وأحرارهم، ومَمَالِيكِهم، وذُكْرانِهم، وإناثهم،

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (ص٣٢)، اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٣٤).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥١٩).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥١٩).
(٤) التوحيد، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٤٩٠، ٤٩١).

بالِغِيهِم وأطفالهم، كلُّ مَن دَعا الله ﷻ فإنّما يرفع رأسه إلىٰ السماء، ويمد يديه إلىٰ الله تعالىٰ، إلىٰ الأعلىٰ لا إلىٰ الأسفل».

وعندما يقول علماء أهل السُّنة والجماعة بعلو الله وفوقيته بذاته، يريدون توضيح أن علو الله صفةٌ له، وهو علوُّ ذات، وليس هو مجرد القدرة علىٰ ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّما يقصدون بهذه العبارة أنّه بذاته فوق العالَم، ليست فوقيته مجرد القدرة كما تقوله الجهمية».

وحرَّفَ الجهمية وفروعهم معنىٰ استواء الله علىٰ عرشه إلىٰ الاستيلاء عليه؛ لينفوا علو الله علىٰ خَلقه وبَيْنُونَتِه منهم، وليقولوا بحُلولِه في كل مكان.

قال العلّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا ادَّعيتم -الجهمية- أنّه في كل مكان، فقالوا: تفسيره عندنا أنّه استولىٰ عليه وعَلَاهُ، قلنا: فهل من مكانٍ لمْ يَسْتَوْلِ عليه ولمْ يَعْلُهُ، حتىٰ خَصَّ العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه، وكَرَّر ذِكْرَهُ في مواضعَ كثيرة من كتابه؟!

فأيُّ معنًىٰ إذًا لخُصوصِ العرش إذا كان عندكم مستويًا علىٰ جميع الأشياء، كاستوائه علىٰ العرش ﷻ؟! هذا مُحالٌ من الحُجَج، وباطلٌ من الكلام».

قال الإمام أحمد في الجهمية: «في كلامهم الزندقة، يَدُورُون علىٰ التعطيل، ليس يُثْبِتُون شيئًا، وهكذا الزنادقة»[(٣)].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ١٦٤).
(٢) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص١٨).
(٣) السُّنَّة للخلال (٢/ ٤١).

وقال حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهمية تحاول أن ليس في السماء شيءٌ»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنّ العلم بأنّ الله تعالىٰ فوق خَلقه، أَعْرَفُ في الفطرة، وأَشْهَرُ في الشريعة، وأعظم استقرارًا عند سلف الأمَّة وأئمتها من العلم بأنّه يُرىٰ، وأنّ الجهمية كانوا يكتمون إنكار ذلك، ويتظاهرون بإنكار الرؤية ونحوها؛ ليَتَوسَّلوا بما يظهرونه من إنكار الرؤية والقول بخَلق القرآن، علىٰ ما يكتمونه من إنكار وجود الله فوق العرش.

وكان أئمة السلف يَعْلَمُون ذلك منهم، فيَعْرِفُونَهُم في لَحْنِ القول، ويستدلون بما أظهروه علىٰ ما أَسَرُّوه، لعِلْمِهِم بأصل كلامهم؛ وأنّهم إنما أنكروا رؤيته، وأنكروا أنّه يتكلم حقيقةً؛ لأنّ رؤيته وكلامه مستلزم لوجوده فوق العالَم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لهذا تجد غالب هؤلاء النفاة -لِأَنْ يكونَ اللهُ فوق العرش- فيهم من الانحلال عن دعاء الله ومسألته وعبادته بقدر ذلك».

وقال شيخ الإسلام[٤]: «لا تجد أحدًا فيه شُعْبَةٌ من التَّجَهُّم إلا وفيه من نقص التوحيد والإيمان بحسب ذلك».

وقول شيخ الإسلام: «وليس في الكتاب والسُّنة وَصْفٌ له بأنّه لا داخل العالَم ولا خارجه، ولا مُبايِنه ولا مُداخِله» تحذيرٌ من العدول عن تلقي العقيدة من القرآن

(١) السُّنَّة للخلال (٢/ ١٣).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٣١٢، ٣١٣).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٢٧).
(٤) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٦٠٥).

والسُّنة إلىٰ ألفاظ المُتكلِّمين، لاسيما وأن المُبتدِعين يستعملون الألفاظ المُجْمَلَة والمُشْتَبِهَة ليتوصلوا بها إلىٰ إبطال المعاني الصحيحة الثابتة لله ﷻ.

فاحذر -أيها المسلم- من تلبيس وتضليل الجهمية المتكلمين، فإنهم يقولون: «إنّ الله ليس بداخل العالَم ولا خارِجه، ولا مُبايِنه ولا مُداخِله، وليس بفوق العالم»؛ ليُبْطِلُوا ما دلَّ عليه القرآن والسُّنة من إثبات علو الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إن كان هذا الكلام والعقل الذي به يُعرف مثل هذا الكلام، غيرُ مقبولٍ في العلم الإلهي، بَطُلَ جميعُ ما ذَكَره الفلاسفة والمتكلمون جميعًا مما يتعلق بهذا، وإذا بَطُلَ لَمْ يَصِحَّ أنْ ينفوا بمثل هذا الكلام لِمَا عُلم بالفطرة ولا ما دلَّتْ عليه الشريعةُ، وهذا من أعظم المفاسد، وحينئذٍ فلا يصح قولهم: إنّه ليس بجسمٍ، ولا مُتحَيِّزٍ، ولا في جهةٍ، وأنّه ليس فوق العالَم يُشار إليه».

والمسلم يأخذ دِينه عن القرآن؛ فإنّه هُدًىٰ ونورٌ، وشفاءٌ لِمَا في الصدور من ضلالات البدع والشبهات، وفُرْقانٌ يُعرف به الحق من الباطل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

والقرآن يدلُّ علىٰ الحق بأيسر الألفاظ، وأحسنها بيانًا، وأبلغها حُجَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «مُخالِفُو الرُّسُل، ومنهم مخالفو ما جاء به الكتاب والسُّنة لا يأتون بقياسٍ يردون به بعضَ ما جاءت به الرسل، فيكون قياسًا

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ١٠٨).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٠، ٥١).

أقاموا به باطلاً إلا جاء اللهُ فيما بَعَثَ به الرسلَ: بالحقِّ، وبقياسٍ أحسن تفسيرًا وكَشْفًا وإيضاحًا للحق».

وقال إسحاق بن راهوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ الله وَصَفَ نفسه في كتابه بصفاتٍ استغنىٰ الخَلْقُ أنْ يصفوه بغير ما وَصَفَ به نفسه».



(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٤٣٣- رقم ٢٧٠١).

قال المصنف رحمه الله:

فيظن المتوهم أنه إذا وُصف بالاستواء علىٰ العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان علىٰ ظهور الفُلْكِ والأنعام، كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ فيتخيل أنه إذا كان مستويًا علىٰ العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوي علىٰ الفُلْك والأنعام، فلو انخرقتِ السفينةُ لَسَقَط المستوي عليها، ولو عَثرتِ الدّابة لخَرَّ المستوي عليها. فقياسُ هذا أنه لو عُدم العرش لسَقَطَ الربُّ تبارك وتعالىٰ، ثُم يريد -بزعمه- أنْ ينفي هذا فيقول: ليس استواؤه بقُعُودٍ ولا استقرارٍ[1].

الشَّرْح

نفيُ استواء الله علىٰ عرشه، أو تحريفُ معناه بما ينفيه -كتفسيره بالاستيلاء-، سببُهُ تَوهُّم الجهمي أنّ استواء الله علىٰ عرشه كاستواء المخلوق علىٰ الفُلْك والأنعام، وهذا من ضلالهم فإنّ الله ليس كمثله شيء.

واستواءُ الله علىٰ عرشه ليس كاستواء المخلوق علىٰ الفُلك والدَّابَّة، فمَلِكُ الملوك ليس كخلقه، واستواؤه علىٰ عرشه من خصائص ربوبيته، فالله هو الظاهر علىٰ خلقه بعلوه، ولا يستطيع أَحَدٌ أن يبتغي إلىٰ ذِي العرش سبيلًا.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣].

فاستواء الله علىٰ عرشه ليس كاستواء المخلوق علىٰ الفُلك والدابة.

---

(١) التدمرية (ص٨١).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هو «المَثَلُ» في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ فإنّه سبحانه لا يماثله شيء أصلًا، فنَفْسُه المُقدَّسة لا يماثلها شيء من الموجودات، وصفاتها لا يماثلها شيء من الصفات، وما في القلوب من معرفته لا يماثله شيءٌ من المعارف، ومحبته لا يماثلها شيء، فله ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، كما أنّه في نفسه الأعلىٰ».

واستواء المخلوق علىٰ الفُلك والدابة استواءٌ عن حاجَةٍ للذهاب والمَجِيء، وهو استواءُ مخلوقٍ يليق بنقصه وحاجته، واستواءٌ علىٰ مخلوقٍ غير عظيم.

أمَّا استواء الله علىٰ عرشه، فهو استواءٌ عن غيرِ حاجَةٍ إلىٰ العرش، فإنّه «العَلِيُّ»، فالعلو صفةٌ ذاتية لرب العالمين، الذي لمْ يَزَلْ ولا يزال متصفًا به، واستواؤه علىٰ عرشه كان بعد خَلْقِه للعرش، فهو صفةٌ فعلية متعلقة بمشيئته.

والعرش مخلوق عظيم، خَلَقَهُ اللهُ واستوىٰ عليه من غير حاجة، ليُظْهِرَ لخَلْقِه كمالَ ذاتِه بعُلوِّه؛ وأنّ سرير مُلْكِه عظيم، فإذا كان كُرسيه وَسِعَ السماوات والأرض، وهو بالنسبة للعرش كحلقةٍ في أرضِ فَلاةٍ، علمتَ أنّ الله ربُّ العرش العظيم.

والعرشُ غيرُ مُقِلٍّ للهِ، أمَّا المخلوق فإنّ الفُلْكَ والدابة تُقِلُّه، ولو أصابَ الفُلْكَ أو الدابَّةَ سوءٌ، ربما هَلَك المخلوق، أمَّا اللهُ فهو الغني عن العالمين، وهو علىٰ كل شيء حفيظ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٥٠).

فكيف يتوهم الجهمي أن استواء الله علىٰ عرشه كاستواء المخلوق علىٰ الفلك والدابة؟! فما أَجْهَل وأَضَلَّ الجهمية! فإنّهم لـمْ يَقْدِرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه الذي يقبض الأرض بيده، ويطوي السماوات بيمينه.

ومن كمال الله في علوه: أنه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ومن كمال الله في علوه: عروج الملائكة والأرواح الطيبة إليه، قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٣، ٤].

قال قِوَام السُّنَّة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ(١): «ذو المعارج: ومعناه: تَعْرُج أعمال الخَلْق إليه، كما قال ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فملائكة النهار تعرج بأعمالكم بالنَّهار، وملائكة الليل تعرج بأعمالكم بالليل، فزَيِّنُوا صحائفكم بالأعمال الصالحة».

فاستواء الله علىٰ عرشه، استواءٌ يليق بعظمته، ليس كاستواء المخلوق علىٰ الفُلك والدابة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(٢): «إنّ الله موجودٌ حقيقةً، والعبد موجود حقيقةً، وليس هذا مِثْل هذا، والله تعالىٰ له ذاتٌ حقيقةً، والعبد له ذاتٌ حقيقةً، وليس ذاته كذوات المخلوقات.

---

(١) الحُجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٦٧، ٦٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٩٨، ١٩٩).

وكذلك له عِلْمٌ وسمعٌ وبصرٌ حقيقةً، وللعبد علمٌ وسمعٌ وبصرٌ حقيقةً، وليس عِلْمُه وسَمْعُه وبصرُه مثلَ عِلْمِ اللهِ وسَمْعِه وبصرِه.

ولله كلامٌ حقيقةً، وللعبد كلامٌ حقيقةً، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين.

ولله تعالىٰ استواءٌ علىٰ عَرْشِه حقيقةً، وللعبد استواءٌ علىٰ الفُلْكِ حقيقةً، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوقين؛ فإنّ الله لا يفتقر إلىٰ شيء، ولا يحتاج إلىٰ شيء، بل هو الغني عن كل شيء.

واللهُ تعالىٰ يحمل العرش وحَمَلَتَهُ بقُدْرَتِه، ويمسك السماوات والأرض أن تَزُولَا، فمَن ظنَّ أنّ قول الأئمة: إنّ الله مستوٍ علىٰ عرشه حقيقةً يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد علىٰ الفُلك والأنعام، لَزِمَه أن يكون قولهم: إنّ الله له علمٌ حقيقةً، وسمعٌ حقيقةً، وبصرٌ حقيقةً، وكلامٌ حقيقةً، يقتضي أن يكون عِلْمُه، وسَمْعُه، وبَصَرُه، وكلامُه مثل المخلوقين وسَمْعِهم وبَصَرِهم وكلامِهم».

فكما أنّ الله هو المعبود والمخلوق هو العبد، فكذلك علوُّ الله علىٰ خلقه كلهم هو وَصْفُ الأَحَد الصَّمَد، والمخلوق وَصْفُه الخضوع والسجود لله المستوي علىٰ عرشه، فليس استواء الله علىٰ عرشه كاستواء المخلوق علىٰ الفُلك والدَّابَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ السجود غاية الخضوع والذُّلِّ من العبد، وغاية تَسْفِيله وتواضعه بأشرف شيءٍ فيه لله -وهو وَجْهُه- بأن يضعه علىٰ التراب، فناسَبَ في غاية سُفُولِه أن يصف ربه بأنّه الأعلىٰ، والأعلىٰ أبلغ من العَلِيِّ؛

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٧، ٢٣٨).

فإنّ العبد ليس له من نفسه شيء، هو باعتبار نفسه عدمٌ محضٌ، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب.

وكذلك في «العلو في الأرض» ليس للعبد فيه حقٌّ؛ فإنّه سبحانه ذَمَّ مَن يريد العلو في الأرض، كفرعون، وإبليس، وأمَّا المؤمن فيَحْصُل له العلو بالإيمان، لا بإرادته له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فلمَّا كان السجود غايةَ سُفُولِ العبدِ وخضوعه، سَبَّح اسمَ ربِّه الأعلىٰ، فهو سبحانه الأعلىٰ والعبدُ الأسفل، كما أنّه الرب والعبدُ العبد، وهو الغني والعبدُ الفقير».



قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

ولا يُعلم أن مُسمَّىٰ «القعود» و«الاستقرار» يُقال فيه ما يُقال في مسمىٰ «الاستواء»! فإن كانت الحاجَةُ داخلةً في ذلك فلا فَرْقَ بين الاستواء والقعود والاستقرار، وليس هو بهذا المعنىٰ مستويًا ولا مُستقِرًّا ولا قاعدًا، وإنْ لمْ يدخل في مسمىٰ ذلك، إلا ما يدخل في مسمىٰ «الاستواء» فإثباتُ أحدهما ونفيُ الآخر تَحكُّمٌ.

وقد عُلم أن بين مسمىٰ «الاستواء» و«الاستقرار» و«القعود» فُروقًا معروفة، ولكن المقصود هنا أن يُعلم خطأُ مَن ينفي الشيء مع إثبات نظيره[1].



الشَّرح

مسمىٰ «الاستواء» هو العلو، لذلك قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «الاستواء معلوم».

والمنقول عن السلف من التابعين الذين تلقوا علومهم من الصحابة: تفسيرُ الاستواء بالعلو، كأبي العالية ومجاهد والحسن البصري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]: «إنّ معنىٰ الاستواء معلومٌ عِلْمًا ظاهرًا بَيْنَ الصحابة وتابعيهم، فيكون التفسير المُحدَث بعده باطلًا قطعًا، وهذا قولُ يزيد بن هارون الواسطي».

والمنقول عن السلف من تفسير الاستواء بالعلو كثيرٌ متواترٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[3]: «عبد الله بن المبارك لمَّا قيل له: بماذا نَعْرِف ربنا؟ قال: بأنّه فوق سماواته علىٰ عرشه بائِنٌ من خَلقِه، ولا نقول -كما تقول الجهمية-: إنّه ههنا.

(١) التدمرية (ص٨٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٤٨).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٨٠).

وكذلك قال أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية، والبخاري، وابن خزيمة، وعثمان بن سعيد، وخَلْقٌ كثير من أئمة السلف، ولمْ يُنقل عن أحد من السلف خلاف ذلك».

قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن لم يكن استواؤه علىٰ العرش يتضمن أنّه فوق العرش، لم يكن الاستواء معلومًا».

وقال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أجمعَ علماءُ الصحابة والتابعين الذين حُمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، هو علىٰ العرش وعِلْمُه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أَحَدٌ يُحتج بقوله».

وللمتكلمين والمبتدعين أنواعٌ من التحريفات لمعنىٰ «استوىٰ» كلها ترجع إلىٰ نفيِ علوِّ الله علىٰ العرش، من ذلك: تفسيرهم الاستواء بأن الله خيرٌ من العرش.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنىٰ أنّه خيرٌ من العرش وأفضلُ منه، كما يُقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والمعنىٰ عندهم: أنّه أَعْلَمَ الأُمَّةَ بأن الله خيرٌ وأفضلُ من العرش.

فَيَا للعقول! أين في لغة العرب حقيقةً، أو مَجازًا، أو كِنايةً، أو استعارةً بعيدة أن يُقال: استوىٰ علىٰ كذا إذا كان أعظم قَدْرًا منه وأفضل؟!».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٧٩).
(٢) بواسطة مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٩٣).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٣).

ومِنَ الجهمية مَن فَسَّر استواء الله علىٰ العرش بعلو القَدْر، أو بانتهاء الخلق إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قولهم: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنىٰ: استولىٰ، أو بمعنىٰ: علو المكانة والقَدْر، أو بمعنىٰ: ظهور نوره للعرش، أو بمعنىٰ: انتهاء الخلق إليه، إلىٰ غير ذلك من معاني المتكلمين».

وعَدَلَ المبتدعة عن تفسير «الاستواء» بما دَلَّ عليه القرآن والسُّنة والمنقول عن السلف، إلىٰ بيتٍ مصنوعٍ من الشِّعْر، لا يُعرف قائله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّه لَمْ يَثْبُتْ أنّ لفظ «استوىٰ» في اللغة بمعنىٰ: استولىٰ؛ إذ الذين قالوا ذلك عُمْدَتُهم البيت المشهور:

ثُمَّ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِراقِ ... مِن غيرِ سيفٍ ودَمٍ مُهْرَاقِ

ولَمْ يَثْبُتْ نقلٌ صحيح أنّه شعرٌ عربيٌّ، وكان غيرُ واحدٍ من أئمة اللغة أَنْكَرُوه، وقالوا: إنّه بيتٌ مصنوع لا يُعرف في اللغة، وقد عُلم أنه لو احتجَّ بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلىٰ صحته، فكيف ببيتٍ من الشِّعر لا يُعرف إسنادُه؟!

وقد طَعَن فيه أئمة اللغة، وذُكر عن الخليل -كما ذَكَره أبو المُظفّر في كتابه «الإفصاح» قال-: سُئل الخليل: هل وجدتَ في اللغة استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ؟ فقال: هذا ما لا تَعْرفه العرب، ولا هو جائزٌ في لغتها.

وهو إمامٌ في اللغة علىٰ ما عُرف من حالِه، فحينئذٍ حَمْلُه علىٰ ما لا يُعرف حَمْلٌ باطِلٌ».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١٦).

(٢) مجوع الفتاوىٰ (٥/ ١٤٦).

قال المصنف رحمه الله:

وكان هذا الخطأ من خطئه في مفهوم استوائه علىٰ العرش، حيث ظَنَّ أنه مثل استواء الإنسان علىٰ ظهور الأنعام والفُلك.

وليس في اللفظ ما يدلُّ علىٰ ذلك؛ لأنه أضاف الاستواء إلىٰ نفسه الكريمة، كما أضاف إليها سائر أفعاله وصفاته، فذَكَر أنه خَلَق ثُمَّ استوىٰ، كما ذَكَر أنه قَدَّر فهدىٰ، وأنه بَنَىٰ السماءَ بأَيْدٍ، وكما ذَكَر أنه مع موسىٰ وهارون يسمع ويرىٰ، وأمثال ذلك.

فلمْ يَذْكُرِ استواءً مطلقًا يَصْلُح للمخلوق، ولا عامًّا يتناول المخلوق، كما لَمْ يَذْكُر مثل ذلك في سائر صفاته، وإنما ذَكَر استواءً أضافه إلىٰ نفسه الكريمة(١).

الشَّرْح

اللهُ ﷻ أخبرنا بصفاته متمدِّحًا بها نفسه؛ لأنها صفات العظيم، فهي نُعوت كمالٍ لمَن بَلَغتْ صفاته الغاية في ذلك، فالمؤمنون بالله لا يفهمون من خبر الله عن نفسه إلا بما يليق بتفرُّدِه بالكمال.

ومِن ضرورة الفِطرة وبَدِيهَةِ العقل: معرفةُ فَرْقِ ما بين الخالق والمخلوق، وهذا الاعتقاد الفطري والضروري العقلي يَقْطَعُ أَوْهامَ تشبيهِ صفات الله بصفات المخلوقين، فلا يظنّ مسلمٌ أنّ استواء الله علىٰ عرشه كاستواء المخلوق علىٰ الفُلك والأنعام، فيؤمن المسلم باستواء العظيم علىٰ عرشه بما يليق بكمال الله وعظمته.

وقولُ شيخ الإسلام: «أنه أضاف الاستواء إلىٰ نفسه»، فلا تَظُنَّنَّ به إلا صفة كمال فإنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

(١) التدمرية (ص٨٢، ٨٣).

وقولُ شيخ الإسلام: «لـمْ يَـذْكُرِ استواءً مطلقًا يصلح للمخلوق»، بيانُ أنّه لا مُسْتَنَد للمعطلة في تشبيه استواء الله باستواء المخلوق، والذي كان سببًا في نفيهم وإنكارهم لصفة الاستواء أو إنكاره بتحريف معناه.

فاحذر -أيها المسلم- من تَلقِّي شُبُهاتِ المُعطِّلة المبتدعة بالقبول، فما هي إلا قولٌ على الله بغير علمٍ، وتكذيبٌ لأخباره.



قال المصنف رحمه الله:

فلو قُدِّر -علىٰ وَجْهِ الفَرْض المُمْتَنِع- أنه هو مثلُ خَلْقِه -تعالىٰ الله عن ذلك- لكان استواؤه مثل استواء خلقه.

أمَّا إذا كان هو ليس مماثلًا لخَلْقِه، بل قد عُلم أنه الغني عن الخلق، وأنه الخالق للعرش ولغيره، وأن كل ما سواه مُفتقِرٌ إليه، وهو الغني عن كل ما سواه، وهو لمْ يَذْكُر إلا استواءً يَخُصّه، لمْ يَذْكُر استواءً يتناول غيره ولا يصلح له، كما لمْ يَذْكُر في عِلْمِه وقدرته ورؤيته وسَمْعِه وخَلْقِه إلا ما يختص به؛ فكيف يجوز أن يُتَوَهَّمَ أنه إذا كان مستويًا علىٰ العرش كان محتاجًا إليه، وأنه لو سقطَ العرش لخَرَّ مِنْ عليه؟! سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

هل هذا إلا جهلٌ محضٌ وضَلالٌ ممَّن فَهِمَ ذلك، أو تَوهَّمه، أو ظَنَّه ظاهِرَ اللفظ ومدلوله، أو جوَّز ذلك علىٰ رب العالمين الغني عن الخلق.

بل لو قُدِّر أن جاهلًا فَهِمَ مثل هذا، أو تَوهَّمه لبُيِّن له أن هذا لا يجوز، وأنه لمْ يَدُلَّ اللفظ عليه أصلًا، كما لمْ يَدُلَّ علىٰ نظائره في سائر ما وَصَف به الرب نفسه[1].


الشَّرح

استواء الله علىٰ عرشه عن غير حاجة، فهو غنيٌّ عن العالمين، وكل مخلوق فهو مَرْبُوبٌ لله رب العالمين، والعرش خَلَقَهُ الله عن غير حاجة، وهو العلي بذاته قبل خَلْقِ العرش وبعده؛ فإن العلو من صفات الله الذاتية التي لم يزل ولا يزال متصفًا به.

---

(١) التدمرية (ص٨٣، ٨٤).

فما ضلَّ مَن تَوهَّم شبه استواء الله علىٰ عرشه باستواء المخلوق علىٰ الفُلك والأنعام إلا مِن جَهْلِه بالتحقُّق بمعاني أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ التي من أهمها: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فاقتران اسم العظيم بصفة علوه دالٌّ علىٰ عظمة استواء الله علىٰ عرشه؛ وأنه ليس كاستواء المخلوق علىٰ المخلوق.

فالواجبُ عليكَ -أيُّها المسلم-: تعظيمُ الله ﷻ؛ بإثبات ما أَثْبَتَهُ لنفسه من صفات الكمال؛ فإننا لا نحيط به علمًا؛ وإنّما أخبرنا الله ﷻ بصفاته؛ لنزداد به إيمانًا وتعظيمًا، فلا تَظُنَّنَّ بصفةٍ من صفات الله إلا غاية الكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].




قال المصنف رحمه الله:

فلمَّا قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ فهل يَتوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّ بناءه مثل بناء الآدمي المحتاج، الذي يحتاج إلىٰ زُبُلٍ ومَجارِف وأَعْوَانٍ وضَرْبِ لبنٍ وجَبْلِ طينٍ؟[١]

الشَّرح

المسلم يَعْرِفُ فَرْقَ ما بين الخالق والمخلوق في الصفات، وإذا عَلِمَ فَرْقَ ما بين عِلْمِ الله وقدرته وقوته وخَلْقِه، وبين صفات المخلوق من العلم والقدرة والقوة والخَلْقِ، فليكن اعتقاده كذلك في كل صفات الله، ومنها: استواؤه وعلوه علىٰ عرشه، فالاستواء وكل صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين.

فالله ﷻ يخلق الأشياء بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والمخلوق ليس له من خَلْقِه وقدرته وقوته وعِلْمِه إلا ما آتاه اللهُ وهَدَاه وأعانه علىٰ فِعْلِه، فلا يستوي مَن ليس له من الأمر شيء مع مَن إليه الأمر كله.

فاستواء الله وعلوه علىٰ عرشه من أعظم الصفات التي تمدَّح الله بها نفسه، فهي صفةُ كمالٍ دالَّةٌ علىٰ عظمة وكمال الله الموصوف بها.

فالواجب علىٰ المسلم: اعتقاد الكمال في صفات الله التي أخبرنا عنها، وإثباتها علىٰ ما يليق بعظمة الله.



(١) التدمرية (ص٨٤).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قد عُلم أن الله تعالىٰ خَلَقَ العالَم بعضه فوق بعض، ولمْ يجعل عالِيَهُ مفتقرًا إلىٰ سافِلِه، فالهواء فوق الأرض، وليس مفتقرًا إلىٰ أن تحمله الأرض، والسحاب أيضًا فوق الأرض، وليس مفتقرًا إلىٰ أن تحمله، والسماوات فوق الأرض، وليست مفتقرةً إلىٰ حملِ الأرض لها؛ فالعَلِيُّ الأعلىٰ ربُّ كلِّ شيءٍ ومَلِيكه إذا كان فوق جميع خَلْقِه كيف يجب أن يكون محتاجًا إلىٰ خَلقِه، أو عرشه؟! أو كيف يستلزم علوُّه علىٰ خَلقِه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم في المخلوقات؟! وقد عُلم أن ما ثبت لمخلوق من الغِنَىٰ عن غيره، فالخالق سبحانه أحقُّ به وأَوْلَىٰ[1].

الشَّرح

بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ غِنَىٰ العالَم العلوي من المخلوقات عن العالَم السفلي، ليُبيِّن غِنَىٰ العليِّ العظيم من بابِ أَوْلَىٰ عن العرش، وهذا مما لا يرتاب فيه مسلم، فالعلوُّ وَصْفُهُ قبل خَلْقِ العرش، والعرش مخلوق من مخلوقات الله محتاج إلىٰ حفظِ الله له وتدبيره، فاستواء الله علىٰ عرشه ليس عن حاجَةٍ، وإنّما هو صفةُ كمالٍ دالَّةٌ علىٰ علو الله وعظمته، وعظمة سلطانه ومُلْكِهِ.

فلا يجوز لأحد أن يجهل ويقول علىٰ الله غير الحق، فيزعم أن استواء الله علىٰ العرش عن حاجَةٍ، أو يُماثِل استواء المخلوق علىٰ الفُلك والدابة.



(١) التدمرية (ص٨٤، ٨٥).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مِن تَوَهُّم أنَّ مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات، فهو جاهِلٌ ضالٌّ بالاتفاق، وإنْ كُنَّا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء، يقتضي ذلك، فإنَّ حَرْفَ «في» مُتعلّق بما قبله وما بعده، فهو بحسب المضاف والمضاف إليه[١].

الشَّـرْح

معاني الحروف -ومنها «في»- يجب اعتبارها في سياقها، فدلالة الحَرْف مستفادة من مجموع الجملة الواردة استعمالها فيه، من ذلك أنّ حَرْفَ «في» يأتي بمعنى: فوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «قد تأتي لفظة «في» في لغة العرب بمعنى: فوق، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] يريد: عَلَيْهَا وفوقها.

وكذلك قوله فيما وَصَف عن فرعون أنّه قال في قصة السَّحَرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]، يريد عليها.

قال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، الآيات كلها، قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها، وهو قول مالك ممَّا فَهِمَه عن جماعةٍ ممَّن أَدْرَكَ من التابعين، مما فهموه عن الصحابة، مما فهموه عن النبي ﷺ أنّ الله في السماء، يعني: فوقها وعليها».

(١) التدمرية (ص٨٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ١٧٧).

وقول شيخ الإسلام: «قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، من تَوهُّمِ مقتضىٰ هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات، فهو جاهِلٌ ضالٌّ بالاتفاق»، وضلالُه سببُه جهلُه بعلوِّ الله علىٰ خَلقِه ومنها السماء، فالله ﷻ الظاهر علىٰ كل شيء، بائن من خَلقِه، غيرُ حَالٍّ في شيء من خَلْقِه، فهو الصَّمدُ القيوم.

وهكذا القول في إتيان الله للخلائق يوم القيامة للقضاء بينهم؛ فإنه حقيقةٌ وَصَفَ اللهُ بها نفسه، نؤمن بما أخبرنا الله به عن نفسه، ولا نتوهَّم في ذلك حلولًا ولا اختلاطًا لله سبحانه بالسحاب، قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وكذلك ما وَردتْ به السُّنة من نزول الله إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثُلُث الليل الأخير.

وكذلك دُنُوُّ الله من الحُجَّاج في موقف عرفة، كلُّ ذلك لا يقتضي حلولًا ولا اختلاطًا بالمخلوقين، فالعظيم ليس كمثله شيء، قريبٌ في علوه، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، بائنٌ من خَلقِه.



قال المصنف رحمه الله:

ولهذا يُفرَّق بين كون الشيء في المكان، وكون الجسم في الحَيِّز، وكون العَرَض في الجسم، وكون الوجه في المرآة، وكون الكلام في الورق، فإنَّ لكل نوعٍ من هذه الأنواع خاصية يتميز بها عن غيره، وإن كان حرف «في» مستعملًا في ذلك كله.

فلو قال قائل: العرش في السماء أَمْ في الأرض؟ لقيل: في السماء. ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: الجنة في السماء. ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السماوات، بل ولا الجنة.

فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتم اللهَ الجَنَّةَ فسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنها أعلىٰ الجَنَّة، وأَوْسَطُ الجَنَّة، وسَقْفُها عرشُ الرحمن».

فهذه الجنة، سَقْفُها الذي هو العرش فوق الأفلاك، مع أن الجنة في السماء[1].



الشَّرح

حَرْفُ «في» دلالته بحسب ما سِيقَ له، فقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، يدل علىٰ علو الله علىٰ السماء، ولا يدل أنّ اللهَ داخِلٌ حَالٌّ في السماء.

وإذا قلنا: الجنة في السماء، لَمْ يَدُلَّ ذلك علىٰ أن الجنة داخل السماء.

وهكذا نقول في العرش: إنه في السماء، وهو سقفُ الجنة، ولا يدل ذلك علىٰ أن العرش داخل السماء، وللهِ المَثَلُ الأعلىٰ، فهو في السماء بمعنىٰ فوق السماء، وليس بداخل السماء، ولا مُخْتَلِطٌ ولا حَالٌّ بالسماء.

وقد ضَلَّتْ أفهامُ المُعطِّلة النافية بسبب أوهامهم في علو الله بذاته وإحاطته

---

(١) التدمرية (ص٨٦، ٨٧).

بخلقه، فظنوا أنّ علوَّ العلي العظيم يقتضي أن يُحاط به في جسمٍ وحَيِّزِ مخلوقاته كالعرش والغَمام، أو أن يختلط بهم، وهذا من جهلهم بمعاني علو الله علىٰ خلقه وإحاطته بهم، ومن عدم تحققهم بمعاني صفات الله «الظاهر»، و«الباطن».

قال رزين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قال بعضُ المُتَّبِعِين لأهوائهم، المُقَدِّمِينَ بين يدي كتاب الله لآرائهم من المعتزلة والجهمية، ومَن نَحَا نَحْوَهُم من أشياعهم، فيمتنعون من وَصْفِ الله تعالىٰ بما وَصَفَ به نفسه من قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]»، إلىٰ أن قال: «وأهلُ العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف يُثْبِتُون جميع ذلك، ويؤمنون به، بلا كيفٍ، ولا تَوَهُّمٍ، ويُمِرُّونَ الأحاديثَ الصحيحة كما جاءت عن رسول الله ﷺ».

فالله جَلَّ وَعَلَا مع فوقيته وعلوه يَجِيء ويأتي؛ وذلك لإحاطته بكل شيء، فهو العظيم الذي لا يعجزه شيء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «لا يكون الرب تعالىٰ إلا فوق كل شيء، ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقُضَ بين نزولِه ودُنُوِّه، وهبوطه ومجيئه، وإتيانِه وعُلوِّه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأنّ السماوات والأرض في قبضته؛ وأنّه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء فهو الباطن الذي ليس دونه شيء».



(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١١١٨، ١١١٩).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١١٢١).

قال المصنف رحمه الله:

والسماء يُراد به العلو، سواءٌ كان فوق الأفلاك أو تحتها، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

ولمَّا كان قد استقر في نفوس المُخاطَبِينَ أنَّ الله هو العلي الأعلىٰ، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: أنه في السماء، أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء.

وكذلك الجارية لمَّا قال لها: «أين الله؟». قالت: في السماء، إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحُلولِه فيها.

وإذا قيل: «العلو»، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظَرْفٌ وجودي يحيط به؛ إذ ليس فوق العالَمِ شيءٌ موجود إلا الله، كما لو قيل: إنَّ العرش في السماء، فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق.

وإذا قُدِّر أن «السماء» المراد بها الأفلاك، كان المراد أنه عليها، كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، وكما قال: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكما قال: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ويُقال: فلانٌ في الجبل، وفي السطح. وإن كان علىٰ أعلىٰ شيءٍ فيه[(١)].

الشَّرْح

إذا كان في المعهود من خِطَاب الناس قولهم: «فلانٌ في السطح»، يريدون بذلك أنه علىٰ السطح؛ وأنّ السطح ليس بداخِلٍ ولا حَالٍّ فيه، فمن بابِ أَوْلَىٰ أنْ لا يَتوَهَّمُوا من قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] أنّ اللهَ حالٌّ في السماء،

---

(١) التدمرية (ص٨٧-٨٩).

بلِ اللهُ عالٍ علىٰ السماء ﷻ، وله المَثَلُ الأعلىٰ.

فالمؤمنون بالله ﷻ موقنون بأنّ علو الله صفةُ كمالٍ، ولا يتوهمون من معناه حُلُولًا في العرش أو السماء، بل يعتقدون علوه علىٰ كل شيء.

فالله الحي، القيوم، الصمد، العلي، العظيم، تنزّه عن الحُلول والاختلاط بمخلوقاته، وهو سبحانه قد أحاط بهم، وهو الظاهر عليهم، العلي بذاته، الكامل في صفاته.

وباعِثُ الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح كلُّه دالٌّ علىٰ علو الله تعالىٰ علىٰ خَلْقه، فالمسلمون كلهم مؤمنون بعلو الله، يُنزِّهونه عن ضد ذلك، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١].

ويَقِينُ المسلم بكمال صفات الله وصِدْقُ ما أخبر الله عن نفسه، يدفع عنه أوهامَ وظُنُونَ نَقْصِها، فلا ينفي المسلم ما أثبته الله لنفسه فيكون من المُكذِّبين بربه.

فاقْتَبِسْ عِلْمَكَ -أيها الناصح لنفسه- من مِشْكاة الوحي، من نور القرآن والسُّنة بفهم السلف، وأَعْرِضْ عن بِدَعِ وشُبُهات الجهمية، فتكون من المؤمنين بالله.

فعليك -أيها المسلم- بعلوم الوحي، ودَعْ عنكَ ضلالات المتكلمين والمبتدعين.



قال المصنف رحمه الله:

القاعدة الخامسة: أنَّا نَعْلَم ما أُخبرنا به من وجهٍ دُونَ وجهٍ، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، فأَمَرَ بتدبُّرِ الكتاب كله.

وقد قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وجمهورُ سلفِ الأُمَّة وخَلَفِها علىٰ أن الوقف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا هو المأثور عن أُبَيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التفسير علىٰ أربعة أوجه: تفسير تَعْرِفُه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أَحَدٌ بجهالته، وتفسير يَعْلَمُه العلماء، وتفسير لا يَعْلَمُه إلا الله، مَنِ ادَّعىٰ عِلْمَهُ فهو كاذب.

وقد رُوي عن مجاهد وطائفة: أن الراسخين في العلم يَعْلَمُون تأويله، وقد قال مجاهد: عرضتُ المصحفَ علىٰ ابن عباس من فاتحته إلىٰ خاتمته، أقف عند كل آية وأسأله عن تفسيرها.

ولا منافاة بين القولين عند التحقيق[1].

---

(١) التدمرية (ص٨٩-٩١).

الشَّرح

نصوص الصفات معلومة المعنىٰ، مجهولة الكيفية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّه يُعلم، ولا يُحاطُ به علمًا».

والله ﷻ نرىٰ آلاءَهُ في الدنيا، وكلُّ ذلك يدلنا علىٰ توحيده، ونؤمن بالغيب الذي جاء به الوحي من الخبر عن أسمائه وصفاته، ونراه في الآخرة، ولا نحيط به لعظمته.

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنّ الله ﷻ لو تَبَدَّىٰ لخَلْقِهِ وتجلَّىٰ لهم في الدُّنْيَا لم يكن لإيمان الغيب هناك مَعْنًىٰ، كما أنَّه لم يَكْفُره به عندها كافِرٌ، ولا عَصَاهُ عاصٍ، ولكنَّه احتجب عنهم في الدنيا، ودعاهُمْ إلىٰ الإيمان به بالغيب، وإلىٰ معرفته، والإقرار بربوبيَّته لِيُؤْمِنَ به مَن سبقت له منه السَّعَادَةُ، ويحِقَّ القول علىٰ الكافرين.

ولو قد تجلَّىٰ لهم لآمنَ به مَن في الأرض كُلُّهُمْ جميعًا بغير رُسُلٍ ولا كُتُبٍ، ولا دعاة، ولم يَعْصُوه طَرْفَةَ عينٍ، فإذا كان يوم القيامة تَجلَّىٰ لمَن آمَنَ به، وصَدَّقَ رُسُلَهُ وكُتُبَهُ، وآمَن برؤيته، وأقرَّ بصفاته التي وَصَفَ بها نفسه، حتىٰ يروه عيانًا؛ مثوبةً منه لهم وإكرامًا، ليزدادوا بالنَّظر إلىٰ مَن عبدوه بالغيب نعيمًا، وبرؤيته فرحًا واغتباطًا».

وفي دعاء النبي ﷺ ربه وقوله: «أسألكَ بكلِّ اسمٍ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أوِ اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغيب عندكَ»: حثٌّ علىٰ التوقيف فيما نُسمي الله ونصفه به،

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٠٧).
(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٦١، ٦٢).

فنصفه بما وَصَف به نفسه، ونُثْبِتُ له ما أخبر عنه رسولُه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «لا يُوصف الله إلا بما وَصَف به نفسه، أو بما وَصَفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث».

وقال سحنون رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «من العلم بالله: السكوت عن غير ما وَصَف به نفسه».

وقال العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إنّ تَكَلُّفَكَ معرفة ما لَمْ يَصِفْ من نفسه، مثل إنكارِكَ ما وَصَف منها».

صفاتُ الله ﷻ غَيْبٌ، لا نَعْرِفُ من أخبار الصفات وأسماء الله ﷻ إلا ما أخبرنا به عن نفسه.

وتكييف صفات الله: أن تقول: صفة الله كذا وكذا، أو تشبيهها بمخلوق، فهذا كفرٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال أبو حاتم وأبو زرعة الرَّازِيَان رحمهما الله[٤]: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار -حجازًا وعراقًا وشامًا ويَمَنًا- فكان من مذهبهم: أنّ الله ﷻ علىٰ عرشه، بائن من خَلقِه، كما وَصَف نفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، بلا كيفٍ، أَحاطَ

---

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٥).
(٢) نقض المنطق (ص٥).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٧٢٣).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٨).

بكلِّ شيءٍ علمًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

والنبيُّ ﷺ أَكْمَلَ اللهُ به الدِّين بتبليغ ألفاظ القرآن ومعانيه إلى الأُمَّة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وما تُوفِّي رسول الله ﷺ إلا وقد بلَّغ كلَّ الدِّين، وأصلُ ذلك وأوله وأساسه توحيد الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(١): «قد أخبر أنّه أَكْمَلَ له ولأُمَّتِه دِينهم، وأَتَمَّ عليهم نعمته -مُحالٌ مع هذا وغيره- أن يكون قد تَرَك باب الإيمان بالله والعِلم به مُلْتَبِسًا مُشْتَبِهًا، فلمْ يُميِّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإنّ معرفة هذا أصلُ الدِّين، وأساسُ الهداية، وأفضلُ ما اكتسبته القلوب، وحَصَّلته النفوس، وأدركته العقول».

فالنبي ﷺ أَكْمَلَ اللهُ به الدِّين، وبلَّغ البلاغ المبين، وعلَّم أمَّتَه كل شيء ممَّا أَمَرَهُ اللهُ ببيانه حتى آداب قضاء الحاجَةِ، فمِنَ المُحالِ أن يكون مراد نصوص الصفات خلاف ظاهرها، ولا يُبيِّنُهُ النبيُّ ﷺ لأُمَّتِه، فتأخِيرُ البيان عن وقت الحاجَةِ لا يجوز، فضلًا عن عدم البيان كل فترة البعثة والرسالة، فهذا مُحالٌ!

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ(٢): «مُحالٌ أن يُظَنَّ بالنبي ﷺ أنَّه علَّم أمَّته الاستنجاء، ولَمْ يُعلِّمهم التَّوحيد».

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٧٨).
(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص١٥٥).

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «سكوت الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عن تفسيره -نصوص الصفات- بما يخالف الظاهر، دليلٌ على إجماعهم على أنَّ المراد به ظاهره».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مُحالٌ مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين -وإنْ دَقَّتْ- أنْ يَتْرُكَ تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المَطالِب، بل هذا خلاصةُ الدعوة النبوية وزُبْدَةُ الرسالة الإلهية، فكيف يَتَوَهَّمُ مَن في قلبه أدنى مُسْكَةٍ من إيمانٍ وحكمة، أن لا يكون بيانُ هذا الباب قد وقع من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غاية التمام».

وعِلْمُ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بمعاني القرآن لا يجهله أَحَدٌ، فقد فَسَّروا للتابعين كل معانيه، كما أَدُّوا إليهم ألفاظه كلها.

قال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدَّثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن؛ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأُبَيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات، حتى يَتعلَّمُوا ما فيها من العلم والعمل، فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»، رواه أحمد بإسنادٍ صحيح.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عرضتُ المُصحفَ على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث مرات، أُوقِفْهُ عند كل آية.

---

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٩٢).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٨١).

ولذلك فالمنقول عن التابعين الذين تلقوا عقيدتهم عن الصحابة ﷺ: إثباتُ نصوصِ الوحي في أسماء الله وصفاته بمعانيها على ظاهرها.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله -تعالىٰ ذِكْرُه- فوق عرشه، ونؤمن بما وردتْ به السُّنة من صفاته».

ووَرَد عن مجاهد وأبي العالية رحمهم الله -وهم من علماء التفسير من التابعين- تفسيرُ الاستواء بالعلو.

وقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تَعْرِفُه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يَعْلمه العلماء، وتفسير لا يَعْلمه إلا الله ﷻ»، مع قول التابعين وأتباعهم في نصوص الصفات: «أَمِرُّوها كما جاءت»؛ دليلٌ على اعتقادِ وحَالِ وعِلْمِ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنهم أَمَرُّوا نصوصَ الصفات على ظاهرها؛ لأنّها بيانٌ، ولمْ يقولوا الظاهر من معناها خلاف ما تَكلَّم اللهُ ﷻ به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس في آيات الصفات وأحاديثها مُجْمَلٌ يحتاج إلى بيانٍ من خارجٍ، بل بيانُها فيها؛ وإنْ جاءت السُّنة بزيادةٍ في البيان والتفصيل».

والقول بتفويض معاني أسماء الله وصفاته، إنكارٌ لِمَا عَرَفَهُ المسلمون من معانيها؛ فإنهم يتألَّهُون لله ﷻ بحقائقها، ويَدْعُونَ اللهَ بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بإسناد صحيح»، الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٩٦).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٢).

وقد رأينا المسلمين جميعًا يرفعون أيديهم إلىٰ السماء؛ يَدْعُونَ اللهَ، فهذه عقيدتهم التي فُطروا عليها، وتَحققُّوا بها بعقولهم، وأَكَّدَها لهم الوحيُ، يعتقدون ربهم سميعًا بصيرًا مجيبًا في السماء، فلذلك يدعونه ويَذْكُرونه ويُناجُونَهُ، قال سيد الحنفاء: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الدعاء هو ذِكْرٌ للمَدْعُوِّ سبحانه، مُتضمِّن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه».

والمسلمون كلهم يَعْرِفُون ربهم قويًّا عزيزًا خالقًا، متفردًا بالربوبية، والعطاء، والمنع، والنفع والضر ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

والمسلمون آمَنُوا بربهم حيًّا قيومًا، قائمًا بنفسه؛ لكمال غناه، مقيمًا لغيره؛ وذلك لكمال ربوبيته؛ فلذلك عبدوه، وإذا عَطَّلَ المُفوِّضة معاني أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، كيف يَتألَّه المسلمون لربهم ويَصْمُدُوا إليه؟!

ومن معاني أسماء الله وصفاته عَرفَ المسلمون ما اقتضته من: الرسالة، والشريعة، والأمر والنهي والحساب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع، وألا يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًىٰ، وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهي، وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد؛ وأنَّ ذلك من موجبات أسمائه وصفاته».

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٤٨).
(٢) الفوائد (ص٢٤٤).

ولا يرتاب مسلمٌ أن النبي ﷺ شَرَحَ معاني أسماء الله ﷻ وصفاته للصحابة ﭫ؛ فإنّه قال في نَعْتِ الله: «الأول» الذي ليس قبله شيء، وفي نَعْتِه: «الآخِر»: الذي ليس بعده شيء.

وحقيقةُ عقيدةِ التفويض: إبطال الاهتداء بالقرآن، وإبطال الإيمان بالله، فنفيُ معاني أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن، تجعل المسلم يَتْلُوه من غير فهمٍ ولا تَدبُّرٍ، فعلىٰ قول المفوضة يكون كلام الله ﷻ لا يُعرف معناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀[(١)]: «كلما تَصوَّر العبدُ ما في القرآن من الخبر عن الله، وملائكته، وأنبيائه، وأعدائه، وثوابه وعقابه، حَصَلَ له من التعظيم، والمحبة، والخشية ما لا يَعْلمه إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، أفترىٰ الإيمانُ يزدادُ بمجرد لفظٍ لا يُفقه معناه، وإذا فُقه معناه لا يزدادُ الإيمانُ بذلك».

واعتقاد تفويض معاني أسماء الله وصفاته مُحالٌ، فالذات الإلهية موصوفة بصفات حسنىٰ عظيمة، لا يمكن نفيُ معانيها؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، قال ابن القيم ﵀[(٢)]: «مُحالٌ أن يَصِحَّ وجودُ ذاتٍ لا صفات لها».

وقال ابن القيم أيضًا[(٣)]: «تعطيل الأسماء عن معانيها، وجَحْدُ حقائقها، كقول مَن يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظٌ مُجرَّدة لا تتضمن صفاتٍ ولا معاني، فيطلقون عليه اسم: السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمُرِيد،

(١) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٣٣٣).
(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٨٢).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٩٨).

ويقولون: لا حياة له، ولا سَمْعَ، ولا بَصَر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغةً وفطرةً».

واتفقت الكلمة من السلف في شرح العقيدة في أسماء الله وصفاته علىٰ إثبات معانيها والكف عن الخوض في كيفيتها، سُئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاستواء، وقيل له: كيف استوىٰ علىٰ عرشه؟ فقال: «إنَّا لا نَعْرِفُ من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشف لنا، وقد أَعْلَمنا -جلَّ ذِكْرُه- أنه استوىٰ علىٰ عرشه، ولم يخبرنا كيف استوىٰ»[(١)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الخبر: «يضحك الله»، ولا يُعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ، وبتثبيت القرآن».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «ليس لنا أن نتوَهَّم في الله كيف وكيف؛ لأن الله وَصَف نَفْسَهُ فأَبْلَغَ، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]».

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «عند ذِكْرِ نزول الرب ﷻ كل ليلة، بلا كيفيةِ نزولٍ نَذْكُره؛ لأنَّا لا نَصِفُ معبودنا إلا بما وَصَف به نفسه؛ إمَّا في كتاب الله، أو علىٰ لسان نبيه ﷺ، بنقل العدل عن العدل موصولًا إليه».

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٨٥).
(٢) السُّنَّة للخلال (٢/ ٢٧٣).
(٣) السُّنَّة للخلال (٢/ ٢٧٤).
(٤) التوحيد (١/ ١٣٧).

وأجاب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ مَن سأله عن كيفية الاستواء بقوله: «الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة».

قال العلَّامة عثمان الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «صَدَق مالِكٌ، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء».

فاحذر مقالات المبتدعة التي يخوضون فيها بالكيفية؛ ليتوصلوا بذلك لنفي صفات الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

والجاهل بمذهب السلف يظن أنّ اعتقادهم هو الإيمان بمجرد ألفاظ نصوص الصفات من غيرِ إثباتِ معنًىٰ لها، ومذهب السلف هو الإيمان بألفاظ نصوص الصفات وإثبات معانيها بما يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سبحان مَن وَسِعَ سَمْعُه الأصوات»، فأَثْبَتَتْ أنَّ الله سميع بسمعٍ، فأَثْبَتَتْ اسم الله «السميع»، وأَثْبَتَتْ معناه وهو إدراك المسموع، فأَثْبَتَتِ الاسمَ والصفة لله، فالله سميعٌ بسمعٍ.

وأحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تألُّهِهم لله عَزَّ وَجَلَّ، دالَّةٌ علىٰ أنهم عبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ بحقائق معاني أسمائه وصفاته، ففي صحيح مسلم من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ الصحابة كانوا في سفرٍ، فرفعوا أصواتهم بالذِّكر، فقال لهم النبي ﷺ: «ارْبَعُوا علىٰ أَنْفُسِكُم؛ فإنكم لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا».

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعتقدون أنّ اللهَ سميعٌ بسمعٍ، بصيرٌ ببصرٍ، قريبٌ في علوه، يناجونه ويَذْكُرُونه.

(١) الرد علىٰ الجهمية (ص٣٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّ ذِكْرَهُ سبحانه إنما يَتِمُّ: بإثبات حقائق أسمائه، وصفات كماله، ونُعوت جلاله، لا بألفاظٍ مُجرَّدةٍ لا حقيقة لها، فهؤلاء المعطلة أبعد شيء عن حقيقة ذِكْرِ الله».

ووَرَد عن السلف عباراتٌ، أَخْطَأَ في فَهْمِها وما وَرَدَتْ عليه: مَن لمْ يَجْمَعْ كلامَ السلف وآثارهم كلها في هذا الباب، فكما ضَلَّ الخوارج في اجتزاء نصوص الوحي ضَلَّتِ المفوضة في اجتزاء نصوص السلف، فالسلف قالوا بنفي تفسير نصوص الصفات (تفسير الجهمية) الذي يخالف القرآن والسُّنة، فقد نَفُوا تفسيرًا خاصًّا، وهو التفسيرُ المُبتدَع الذي يخالف عقيدة الصحابة والتابعين.

قال محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اتَّفقَ الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب: علىٰ الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثِّقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غيرِ تفسيرٍ، ولا وصفٍ، ولا تشبيهٍ، فمَن فَسَّر اليوم شيئًا من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارَقَ الجماعة؛ فإنهم لمْ يَصِفُوا ولمْ يُفَسِّرُوا؛ ولكنْ أَفْتُوا بما في الكتاب والسُّنة ثم سكتوا، فمَن قال بقول جَهْمٍ فقد فارق الجماعة؛ فإنّه قد وَصَفه بصفةِ لا شيءٍ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: «من غير تفسير»، أرادَ به تفسير الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات، بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات».

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٨٨).

(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٢٨، ٣٢٩).

(٣) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٢٩).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه الأحاديث التي يقول فيها: «ضَحِكَ ربُّنا من قُنُوطِ عِبادِه وقُرْبِ غِيَرِه»، و«أنّ جهنم لا تمتلئ حتى يضعَ ربُّكَ قَدَمَهُ فيها»، و«الكرسي مَوْضِعُ القدمين»»، وهذه الأحاديث في الرؤية هي عندنا حقٌّ، حَمَلَها الثِّقاتُ بعضهم عن بعض، غيرَ أنَّا إذا سُئلنا عن تفسيرها لا نُفسِّرها، وما أَدْرَكنا أحدًا يُفسِّرها».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قد أخبر أنّه ما أدرك أحدًا من العلماء يُفسِّرها، أي: تفسير الجهمية».

وهذا التوجيه من شيخ الإسلام دلَّ عليه عبارات وألفاظ السلف، كما قال محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن قال بقول جهمٍ فقد فارق الجماعة».

وهذا التوجيه من شيخ الإسلام لعبارات السلف دلَّ عليها واقِعُ الحالِ، وهو تفسير السلف من التابعين لمعاني الصفات؛ حيث فَسَّر مجاهد وأبو العالية الاستواء بالعلو، فقول السلف: «من غير تفسير» عامٌّ أُريدَ به الخُصوص، أي: من غير تفسيرِ مُبتدِعٍ جهميٍّ يخالف ظاهِرَ النصوص.

وهذا التوجيه من شيخ الإسلام هو الذي تَأْتَلِفُ عليه الآثار الواردة عن السلف، قال الوليد بن مسلم: سألتُ: مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، عن الأخبار التي جاءت في الصفات؟ فقالوا: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ، وقال مالك: الاستواء معلوم، أي: المعنى.

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص٣٢٩-٣٣٢).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص٣٣٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قولُه موافِقٌ لقول الباقين: «أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ»؛ فإنّما نَفُوا عِلْمَ الكيفية، ولمْ يَنْفُوا حقيقةَ الصفة».

وقال شيخ الإسلام[2]: «فقولهم: «أَمِرُّوها كما جاءت» يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه؛ فإنها جاءت ألفاظًا دالَّةً على معاني».



(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٠٦).
(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٠٧).



قال المصنف رحمه الله:

فإنَّ لَفْظَ «التأويل» قد صار -بتعدُّدِ الاصطلاحات- مُستَعْمَلًا في ثلاثة معان:

أحدها -وهو اصطلاحُ كثيرٍ من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله-: أن التأويل هو صَرْفُ اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح لدليلٍ يقترن به؛ وهذا هو الذي عَنَاهُ أكثرُ مَن تكلَّم من المتأخرين في تأويل نصوص الصفات وتَرْكِ تأويلها، وهل هذا محمود أو مذموم، وحقٌّ أو باطل؟

الثاني: أن التأويل بمعنىٰ التفسير، وهذا هو الغالب علىٰ اصطلاح مُفسِّري القرآن، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنِّفين في التفسير: «واختلفَ علماءُ التأويل». ومجاهد إمام المفسِّرين، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحَسْبُكَ به. وعلىٰ تفسيره يعتمد الشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري وغيرهم، فإذا ذُكِر أنه يَعْلم تأويل المتشابه، فالمراد به معرفة تفسيره.

الثالث -من معاني التأويل-: هو الحقيقة التي يَؤُولُ إليها الكلامُ، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

فتأويلُ ما في القرآن من أخبار المَعاد هو ما أخبر الله تعالىٰ به فيه، مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك، كما قال في قصة يوسف لمَّا سَجَد أبواه وإخوته قال: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ فجَعَل عَيْنَ ما وجد في الخارج هو تأويل الرؤيا.

فالتأويل الثاني هو تفسير الكلام، وهو الكلام الذي يُفسَّر به اللفظ حتىٰ يُفهم معناه أو تُعرف عِلَّته أو دليله، وهذا التأويل الثالث هو عينُ ما هو موجود في الخارج، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،

اللهم اغفر لي»؛ يَتأوَّل القرآنَ. تعني: قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾.
وقول سفيان بن عيينة: السُّنة هي تأويل الأمر والنهي.
فإنَّ نَفْسَ الفعل المأمور به هو تأويل الأمر به، ونَفْسَ الموجود المُخبَر عنه هو تأويل الخبر[1].

الشَّرْح

هنا ذَكَر شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ «التأويل» الوارد في نصوص القرآن والسُّنة، والمعنىٰ المستعمل في اصطلاح العلماء.

فالنصوصُ وَرَدَ فيها لفظ «التأويل» علىٰ معنىٰ التفسير وحقيقةِ ما يَؤُولُ إليه الكلامُ.

وصَرْفُ اللفظ عن ظاهره إلىٰ معنًىٰ يخالفه، ولا يدلُّ عليه لَفْظُه ولا فَهْمُ السلف من الصحابة والتابعين سَمَّاه دعاته تأويلًا؛ تزييفًا لتحريفاتهم لترويجها علىٰ المسلمين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «تأويل التحريف من جنسِ الإلحاد؛ فإنه هو الميل بالنصوص عما هي عليه: إما بالطعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها».

فالواجب علىٰ المسلم: التفريق بين معنىٰ «التأويل» الشرعي الوارد في نصوص القرآن والسُّنة، والمعنىٰ البدعي المُستعمَل في تحريفات المُبتدِعين.

(١) التدمرية (ص٩١-٩٤).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ لَفْظ «التأويل» مُجمَل يُراد به ما يَؤُول إليه الكلام، فتأويلُ الخبرِ نَفْسُ المُخبر عنه، وتأويلُ أسماءِ الله وصفاته نَفْسُه المُقدَّسة بما لها من صفات الكمال.

ويُراد بالتفسير التأويل، وهو بيانُ المعنىٰ المراد، وإنْ لَمْ نَعْلم كيفيته وكُنْهَهُ، كما أنَّا نَعْلم أن في الجنة خمرًا ولبنًا وماءً وعسلًا وذهبًا وحريرًا وغير ذلك، وإنْ كُنَّا لا نَعْرِف كيفية ذلك، ونَعْلم أن كيفيته مخالفة لكيفية الموجود في الدنيا.

ويُراد بلفظ التأويل: صَرْفُ اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح، وهذا لا يُوجد الخِطاب به إلا في اصطلاح المتأخرين، وأمَّا خطاب الصحابة والتابعين فإنما يُوجد فيه الأولان، ولهذا قال أكثرهم: إنَّ الوقفَ علىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، بناءٌ علىٰ أن التأويل هو ما استأثر الله بعلمه، وهو الكيف الذي لا نَعْلمه نحن، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»».

وكلُّ مسلمٍ اعتقاده يقيني أن كلام الله مُحْكَمٌ بيِّنٌ في معناه، هُدًىٰ في دلالة ألفاظه علىٰ إفهام المُخاطَبين به، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وتكذيبُ ما أخبر الله به في القرآن عن نفسه وأسمائه وصفاته، أو إبطالُ معانيه، أو تحريفُ ما دلَّ عليه بتسميته تأويلًا، أساسُ الكفر بالوحي تحريفًا وتكذيبًا.

---

(١) الصفدية (١/ ٢٨٨، ٢٨٩).

والنبي ﷺ بُعِثَ ببيان معاني القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ولـمْ يُحذِّر أُمَّته من اعتقادِ ظاهِرِ ما دَلَّ عليه القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لَمْ يَنْقِلْ أَحَدٌ عنه ﷺ أنه نهىٰ الناس عن اعتقادِ ظاهِرِه، وما دلَّ عليه».

وتأويلات الجهمية والمعتزلة والأشاعرة هي تحريفٌ لكلام الله ﷻ، وإبطالٌ لدلالة ألفاظ القرآن والسُّنة علىٰ معانيها. والجهمية والمعتزلة والأشاعرة لا يقصدون بتأويل الكلام معرفة مراده[٢].

ودِينُ المسلمين مُتوارَثٌ عن خير الناس؛ الصحابة والتابعين الذين آمَنُوا بنصوص الصفات و«أَمَرُّوها كما جاءت».

وأنتَ إذا تأملتَ تأويلات المبتدعين لنصوص القرآن والسُّنة في أسماء الله وصفاته، ظَهَرَ لكَ بطلانها؛ لمخالفتها دلالة ألفاظ نصوص الوحي وسياقها، الواردة بِذِكْرِ أسماء الله وصفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «طريقة التأويل: طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم، يقولون: إن ما قاله ﷺ له تأويلات تخالف ما دلَّ عليه اللفظ، وما يُفهم منه».

فالحاصلُ: أن تأويل المبتدعة لمعاني نصوص الوحي في أسماء الله وصفاته من

(١) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).
(٢) نقض تأسيس الجهمية (٨/ ٢٤٩).
(٣) نقض المنطق (ص٥٦).

حقائقها إلىٰ مَجازاتٍ باطلة، هو عدولٌ عمَّا سَمَّىٰ الله ﷻ ووَصَف به نفسه، وهو تكذيبٌ لها؛ بتحريف معانيها، قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُحرِّفونه بالتحريفات الباطلة، ويقولون فيه ما لا يُرْضِي أحدهم أنْ يُقال مثلُه في كلامه، فيجعلون لكلامه مَثَلَ السَّوءِ، كما جعلوا له سبحانه مثل السوء بإنكارهم صفاتِ كمالِهِ، وحقائق أسمائه الحسنىٰ».

والرسول ﷺ بلَّغَ ما أُنزل إليه من ربه، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولو كان لنصوص الوحي معنىً يخالف ظاهرها لبَيَّنَهُ النبيُّ ﷺ لأُمَّته؛ لأنه لا يجوز عليه تأخيرُ البيان عن وقته.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا بَلَغَكَ عن رسول الله ﷺ حديثٌ فلا تَظُنَّنَّ غيره؛ فإن محمدًا ﷺ كان مُبلِّغًا عن ربه».

وقال العلَّامة الفقيه أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة بالإجماع، فلو كان لها -نصوص الوحي- تأويلٌ لَزِمَهُ بيانُه، ولمْ يَجُزْ له تأخيره؛ ولأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا سكت عن ذلك لَزِمَنَا اتِّباعه في ذلك؛ لأمر الله تعالىٰ إيانا باتباعه، وأخبرنا بأنَّ لنا فيه أسوةٌ حسنة، فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٧٣).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٤).
(٣) ذم التأويل (ص٤٠).

﴿لَّكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ ولأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ على صراط الله المستقيم، فسالِكُ سبيلِه سالِكُ صراطِ الله المستقيم لا مَحالَةَ، فيجب علينا: اتِّباعُه، والوقوف حيثُ وَقَف، والسكوتُ عمَّا عنه سَكَت، لِنَسْلُكَ سبيلَهُ».

وإجماعُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على إمرار نصوص القرآن والسُّنة في أسماء الله وصفاته كما جاءت، وعدمُ تفسير النبي ﷺ لها بما يخالف ظاهِرَ ألفاظها، يدلُّ على أن معناها هو ظاهِرُ ألفاظها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «اتفقت كلمتهم -الصحابة- وكلمة التابعين بَعْدَهم على إقرارها وإمرارها، مع فهمِ معانيها، وإثبات حقائقها، وهذا يدلُّ على أنها أعظم النوعين -التوحيد والأحكام- بيانًا، وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبَيَّنها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ورسولُه ﷺ بيانًا شافيًا».

ونصوص الوحي -خصوصًا النصوص الواردة بذِكر أسماء الله وصفاته- ظاهرة الدلالة على معانيها، بما ينفي عنها تحريفات المُتأوِّلين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

ومن أمثلة نصوص الوحي الظاهرة الدلالة على معناها: ما وَرَد في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وتحريفُ معنى الرؤية، وتأويله بانتظار الثواب مُخالِفٌ لدلالة ألفاظ القرآن على معناه، ومخالِفٌ لتفسيرِه وبيانِه ﷺ لمعنى القرآن.

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).

قال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي (ت: ٢٨٠هـ)[(١)]: «إن رسول الله ﷺ فَسَّرها تفسيرًا لَمْ يَدَعْ لمُتأوِّل فيها مقالًا، إلَّا أنْ يُكابِر رَجُلٌ غير الحق وهو يَعْلمه، إذ سُئل رسول الله ﷺ: فقيل له: هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَامُونَ في رؤية الشمس والقمر صَحْوًا؟ فكذلك لا تُضَامُونَ في رؤيته»».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله ﷺ: «ما منكم إلا مَن سيُكلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجِبَ يَحْجُبه»، وقوله ﷺ: «إنكم تَرونَ ربَّكُم عِيَانًا».

وهذا شأنُ أكثرِ نصوص الصفات، إذا تأمَّلها مَن شَرَح اللهُ صدره لقبولها، وفَرِحَ بما أُنزل علىٰ الرسول ﷺ منها، يَراها قد حُفَّتْ من القَرائِن والمُؤَكِّدات بما ينفي عنها تأويل المُتأوِّل».

وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ تأويلات المعتزلة والأشاعرة تحريفاتٌ باطلةٌ لمعاني نصوص الوحي في أسماء الله وصفاته: مخالفتها لإجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا يجوز خلافهم -واللهُ أعلم-؛ لأنه لا يجوز علىٰ جميعهم جَهْلُ التأويل».

---

(١) الرد علىٰ الجهمية (ص١٣٢).
(٢) الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ١٩٧).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٣١٤).

فلا يمكن أن يكون انقضىٰ عهدُ الصحابة رضي الله عنهم من غير معرفة بصحيح الاعتقاد لمعاني أسماء الله وصفاته، حتىٰ يأتي مَن بعدهم مِن مُبتدِعة المعتزلة وفروعهم كالأشاعرة فيزعمون أن تحريفاتهم لمعاني القرآن هي الاعتقاد الصحيح، هذا باطِلٌ.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «تأويل القرآن بلا سُنَّةٍ تدلُّ علىٰ معناها، أو معنىٰ ما أراد الله عز وجل، أو أثرٍ عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، تأويلُ أهلِ البدع».

فالواجب علىٰ المسلم: تلقِّي معاني القرآن والسُّنة عن الصحابة والتابعين، ومحاذرة تحريفات المبتدعين المخالفة لإجماع السلف.

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله[(١)]: «الكلام في صفات الله عز وجل: ما جاء منها في كتاب الله، أو رُوي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمذهب السلف -رحمةُ اللهِ عليهم أجمعين-: إثباتُها وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفيُ الكيفية عنها، فهذا إجماعٌ معلومٌ مُتيَقَّنٌ عند جميع أهل السُّنة والحديث».



(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).

قال المصنف رحمه الله:

والكلامُ: خبرٌ وأمرٌ، ولهذا يقول أبو عبيد وغيره: الفقهاء أعلمُ بالتأويل من أهل اللغة. كما ذَكَرُوا ذلك في تفسير اشتمال الصَّمَّاء؛ لأن الفقهاء يَعْلمون نَفْسَ ما أُمر به ونَفْسَ ما نُهي عنه، لعِلمهم بمقاصد الرسول ﷺ، كما يَعْلم أَتْبَاعُ أبقراط وسيبويه ونحوهما من مقاصدهم ما لا يُعلم بمجرد اللغة.

ولكنَّ تأويل الأمر والنهي لا بُدَّ من معرفته، بخلاف تأويل الخبر[1].



الشَّرح

الألفاظ لها حقائق ثلاث: شرعية، ولُغوية، وعُرْفِيَّة.

وخِطابُ الوحي حقائقه شرعية؛ لأن هذا خِطابُ الله إلينا، وقد بَعَث اللهُ رسوله محمدًا ﷺ ببيانه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال العلَّامة أبو الفتح أحمد بن علي برهان البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن المقصود من الخِطاب التفاهم، والذي يَسْبِقُ إلىٰ الفهم عند الإطلاق: عُرْفُ الشرع دُونَ عُرْفِ اللغة».

وفَهْمُ معاني الوحي يكون بالأخذ بدلالة ألفاظه وسياقه الوارد فيه، ومعرفة المعهود من استعمال الشرع له، وبالأخذ بتبيين النبي ﷺ وفَهْم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وبذلك تتميز للمُتعلِّم الحقائقُ الشرعية من اللُّغوية والعُرفية.

(١) التدمرية (ص٩٤-٩٦).
(٢) الوصول إلىٰ الأصول (١/ ١١٨).

فالألفاظ الشرعية تُحمل علىٰ معانيها المعهودة في لغة الشرع، وما ليس له حَدٌّ شرعي؛ فإنه يُرجع فيه إلىٰ حَدِّه اللُّغوي، وما ليس له حدٌّ في اللغة ولا في الشرع فإنه يُرجع فيه إلىٰ حَدِّه العُرفي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ هذه الأسماء جاءت في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ مُعَلَّقًا بها أحكام شرعية، وكلُّ اسمٍ فلا بُدَّ له من حَدٍّ، فمنه ما يُعلم حَدُّه باللغة، كالشمس، والقمر، والبَر، والبحر، والسماء، والأرض.

ومنه ما يُعلم بالشرع، كالمؤمن، والكافر، والمنافق، وكالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وما لم يكن له حَدٌّ في اللغة ولا في الشرع، فالمَرْجِعُ فيه إلىٰ عُرْفِ الناس، كالقبض المذكور في قوله ﷺ: «مَنِ ابْتَاعَ طعامًا، فلا يَبِعْهُ حتىٰ يَقْبِضَهُ»».

والألفاظُ يجب تفسيرها في خِطاب الشرع بحسب استعماله لها، فالألفاظ اللغوية قد يستعملها الشرع في معنًىٰ أخصَّ أو أعمَّ، من ذلك: لفظ «القَرْء» فإنّه في المعنىٰ اللُّغوي يَعُمُّ الطُّهْر والحَيْض، واستعمله الشرع فقط في معنىٰ الحيض.

قال الموفق ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المعهودُ في لسان الشرع: استعمالُ «القَرْء» بمعنىٰ: الحَيْض، قال النبي ﷺ: «تَدَعُ الصَّلاةَ أيَّامَ أَقْرَائِهَا»، رواه أبو داود، وقال لفاطمة بنت أبي حبيش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «انظري، فإذا أتىٰ قَرْؤُكِ فلا تُصلِّي، وإذا مَرَّ قَرْؤُكِ فتَطهَّرِي، ثم صَلِّي ما بين القَرْءِ إلىٰ القَرْءِ»، رواه النسائي.

(١) القواعد النورانية الفقهية (ص١٧٠).
(٢) المغني (١١/ ٢١٠).

ولـمْ يُعهد في لسانه استعماله بمعنىٰ الطُّهر في موضعٍ، فوَجبَ أنْ يُحمل كلامه علىٰ المعهود في لسانه».

ولفظُ «الغُدُوِّ» يُستعمل لغةً للذهاب فجرًا في أول النهار، ولفظُ «الرَّوَاحِ» يُستعمل لغةً للذهاب بعد الزوال، ووَرَد استعمالهما في خِطاب الشرع في كلِّ ذهابٍ ورجوع في أيِّ وقت، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَن غَدَا إلىٰ المسجد أو رَاحَ، أَعَدَّ اللهُ له نُزُلَهُ من الجنة، كلما غَدَا أو رَاحَ»، متفق عليه.

قال الحافظ ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «المراد بالغُدُوِّ: الذهاب، وبالرَّوَاح: الرجوع، والأصل في الغُدُوِّ: المضي من بكرة النهار، وللرواح: بعد الزوال، ثم قد يُستعملان في كل ذهابٍ ورجوع».

فالواجب علىٰ المُتعلِّم: استقراء نصوص الشرع؛ ليَعْرِفَ استعمال الشرع لمعاني الألفاظ الواردة في خطابه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «للقرآن عُرْفٌ خاصٌّ ومَعَانٍ معهودة، لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عُرفِه، والمعهود من معانيه».

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدارسون معاني ألفاظ الوحي، ويتذاكرون حقائقها الشرعية ومعانيها اللُّغوية، ليكون فِقْهُهم لها صحيحًا، ففي صحيح مسلم أنّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَقِيَ عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذَكَر له حديث ساعة الإجابة يوم الجمعة، فقال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هي بعد العصر إلىٰ أن تغرب الشمس. فقال

(١) فتح الباري (٢/ ١٤٨).

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٢٤٨).

أبو هريرة رضي الله عنه: فكيف تكون بعد العصر، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ وهو يُصلِّي»، وتلك الساعة لا يُصلىٰ فيها؟!

فقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَس مجلسًا ينتظر الصلاة، فهو في صلاةٍ»؟ قلتُ: بلىٰ. قال: فهو ذاك.

فالفهمُ لمعاني ألفاظ الشرع يُتلقَّىٰ من الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّ الله عز وجل جَعَلهم المرجع في ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ ولأنهم أفصحُ الخَلقِ وأنصحهم بعد النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «انْظُرْ في عمومِ كلامِ اللهِ عز وجل ورسولِه ﷺ لفظًا ومعنىٰ حتىٰ تُعْطِيَهُ حقَّهُ، وأحسنُ ما تستدل به علىٰ معناه: آثار الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا أعلم بمقاصده؛ فإنّ ضَبْطَ ذلك يُوجِب تَوافُقَ أصولِ الشريعة، وجَرْيَها علىٰ الأصول الثابتة».

فالمهتدي بفهم الصحابة لمعاني القرآن، قد أَخَذَ بأسبابِ فهمِ معاني الوحي فهمًا صحيحًا، أمَّا المبتدع فتجده مقطوع الصلة بالسلف، عقيدته وأحكامه غير مُتوارَثة عن الصحابة والتابعين -خير قرون الأمة-، بل مُخالِفةٌ لهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: «كان الإمام أحمد رحمه الله يُنكِر طريقة أهل البدع الذين يُفسِّرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلالٍ بسُنَّة رسول الله ﷺ

---

(١) القواعد النورانية الفقهية (٢/ ٣٩٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٤١٥).

وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلَّغهم الصحابةُ معانيَ القرآن، كما بلَّغوهم ألفاظه، ونقلوا هذا كما نقلوا هذا.

لكنَّ أهل البدع يتأوَّلون النصوص بتأويلاتٍ تخالف مُرادَ اللهِ ورسوله، ويَدَّعُون أنَّ هذا هو التأويل الذي يَعْلمه الراسخون، وهُمْ مُبطِلُون في ذلك، لاسيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة، وكذلك أهل الكلام المُحدَث من الجهمية والقدرية، ونحوهم».

فالمسلم يتلقىٰ دينه عن الصحابة رضي الله عنهم، قال العلَّامة ابن أبي العز الحنفي رحمه الله[1]: «كفىٰ الصحابة قدوةً في فهمِ معنىٰ القرآن، فهُمْ أوَّلُ مُخاطَبٍ به من الأُمَّة، وبلسانهم نزلَ، وهم أخصُّ من غيرهم من أهل اللسان».

وقد أَمَرنا النبيُّ ﷺ باستعمال الألفاظ الشرعية، وحَذَّرنا من استعمال الألفاظ العُرفِيَّة إذا كانت تتضمن محذورًا، كنَهْيِه عن تسمية «الزكاة» مَغْرَمًا، رواه الترمذي.

لأن تسمية الزكاة «مغرمًا» يدلُّ علىٰ كراهَةِ باذِلِها لإخراج المال، وشُحِّه بها؛ وأنه باذِلٌ لها عن غيرِ طيبِ نَفْسٍ، ولا تَعبُّدٍ لله؛ كأنما يَبْذُلُ ضريبةً.

وقد مدَحَ اللهُ مَن بَذَل الزكاة تقرُّبًا لله، وذَمَّ مَن بَذَلها مغرمًا في سورة التوبة، وأفادت الآيةُ والحديث وجوبَ المحافظة علىٰ الألفاظ الشرعية خصوصًا في العبادات، مع تحقيق معانيها ومقاصدها الشرعية التي هي تحقيقٌ لأسمائها الشرعية.

---

(١) التنبيه علىٰ مشكلات الهداية (٣/ ١١٣٥).

وكما يجب علىٰ المتعلمين فهمُ معاني الخِطاب الشرعي، كذلك يجب عليهم فهمُ اصطلاح الصحابة ﷺ فإنهم علماء الأُمَّة، ومَعْدِن العِلم، وقد تلقوا معاني الخطاب الشرعي من النبي ﷺ مباشرةً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن لـمْ يَعْرِف لغةَ الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ، وعادتهم في الكلام، وإلا حَرَّف الكَلِمَ عن مواضعه؛ فإنَّ كثيرًا من الناس ينشأ علىٰ اصطلاحِ قومٍ وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أنّ مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ، ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ اللهِ ورسوله والصحابة خلافَ ذلك.

وهذا واقِعٌ لطوائف من الناس من أهل الكلام واللغة، والنحو، والعامة، وغيرهم».

والتمييز بين المعنىٰ الشرعي والاستعمال العرفي ضروريٌّ، حتىٰ لا يَضِلَّ المُتعلِّم في فَهْمِه، ولا يُحرِّف معاني الشريعة.

من ذلك: قوله ﷺ: «ليس مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقرآن»، رواه البخاري، فالغِناءُ في لغة العرب: رَفْعُ الصوت، وفي عُرْفِ الاستعمال: التَّلحِين والتَّطرِيب، وفي لغةِ وخِطاب الشرع: تَجْوِيد وتحسين الصوت.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يُحسِّنه بصوتِه ما استطاع».

(١) قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة (ص٧٧).

(٢) الكلام علىٰ مسألة السماع (ص٣١٥).

ومن ذلك: لفظ «السياحة»؛ فإنه في عُرْفِنا: التَّنزُّه لقَصْدِ إجْمَامِ النفس، وهو في اصطلاح الشرع: الجهاد، والرحلة في طلب العلم، والصوم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن المراد بالسياحة: السفر في القُرُبات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك».

ويجب صيانة الألفاظ الشرعية عن التحريفات البدعية؛ فإنَّ المبتدعة أَضَلُّوا بالمغالطة في الألفاظ الشرعية حيث فَسَّرُوها بما ابتدعوه من المعاني المخالفة للمعهود من الخطاب الشرعي.

من ذلك: لفظ «الوسيلة»، فإنه في خطابِ الشرع التقرب إلىٰ الله بالإخلاص له بعبادته بما شرعَ، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، وفسَّره مبتدعة الصوفية بالاستغاثة بالموتىٰ.

قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ ما يزعمه كثيرٌ من ملاحدةِ أتباعِ الجُهَّال المُدَّعين للتصوُّف من أنَّ المرادَ بالوسيلة في الآية: الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تَخَبُّطٌ في الجهل والعَمَىٰ، وضَلالٌ مُبِينٌ، وتَلاعُبٌ بكتاب الله تعالىٰ، واتخاذُ الوسائط من دون الله من أصولِ كُفْرِ الكفار، كما صرَّح به تعالىٰ في قوله عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]».

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٣٦٦).
(٢) أضواء البيان (١/ ٣٠٧)، ط-دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط-الأولىٰ-١٤١٧هـ.

ومن ذلك: لفظ «التأويل»؛ فإنه جاء في السُّنة بمعنىٰ التفسير، وهذا ما دعا به النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّين، وعَلِّمْهُ التأويلَ»، رواه البخاري.

ووَرَد في القرآن استعماله بمعنىٰ حقيقة ما يَؤُولُ إليه الأمر، قال تعالىٰ مخبراً عن يوسف أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتحريفُ مبتدعة الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة والماتريدية معاني أسماء الله وصفاته، سَمَّوه «تأويلًا»، وغالَطُوا الناسَ، وجعلوا ما حَرَّفُوه من ألفاظ الوحي -وهو ما انتحلوه من المعاني المخالفة لتفسير النبي ﷺ والصحابة- مرادًا ومتناولًا لمعنىٰ لفظ «التأويل» في اصطلاح الشرع، تضليلًا وتلبيسًا علىٰ الخَلْق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «هؤلاء ظَنُّوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالىٰ هو «التأويل» المذكور في كلام المتأخرين، وغَلَطُوا في ذلك».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «يُراد بالتأويل: تحريفُ الكَلِم عن مواضعه، وتفسيرُ الكلام بغيرِ مرادِ المُتكلِّم، كتحريف أهل الكتاب لِمَا حَرَّفُوه من الكتاب، وتحريف الملاحدة وأهل الأهواء لِمَّا حَرَّفوه من معاني هذا الكتاب، وهذا تأويلٌ باطِلٌ، يَعْلم الله أنه باطِلٌ».

والخِطابُ العُرفي جَعَله الشرع مرجعًا فيما ليس فيه خِطابٌ شرعيٌّ، وتَعَارَفَهُ الناسُ ولَمْ يكن ممَّا أنكرته الشريعة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٥).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص٢٩١).

قال النبي ﷺ لهند بنت عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مقدار ما تأخذه من زوجها نفقةً لها ولأولادها منه: «خُذِي من مالِه، ما يكفيكِ وولدكِ بالمعروف»، متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أحالها على العُرف، فيما ليس فيه تحديدٌ شرعيٌّ».

والعُرف في اصطلاح السلف: هو «سُنَّة الناس»، قال شريح القاضي للغزالين[٢]: «سُنَّتُكُمْ بَيْنَكُم».

واعتبار المعهود من المعاني في خِطاب الناس، هو من العمل بالشرع الذي أحال على عُرْفِ الناس فيما ليس فيه نصٌّ شرعيٌّ، ولمْ تنكره الشريعة، وذلك فيما يتخاطبون به في معاملاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إن العقود يُرجع فيها إلى عُرْفِ الناس، فما عَدَّهُ الناسُ بيعًا أو إجارةً أو هِبةً، كان بَيْعًا وإجارةً وهِبةً؛ فإن هذه الأسماء ليس لها حَدٌّ في اللغة والشرع؛ فإنه يُرجع في حَدِّه إلى العُرف».



(١) فتح الباري (٤/ ٤٠٧).

(٢) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن (٤/ ٤٠٥)، فتح الباري.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٧٧).

قال المصنف رحمه الله:

إذا عُرف ذلك، فتأويلُ ما أخبر الله به عن نفسه المقدَّسة الغنية بما لها من حقائق الأسماء والصفات هو حقيقةُ نَفْسِه المقدَّسة المتصفة بما لها من حقائق الصفات، وتأويلُ ما أخبر الله به من الوعد والوعيد هو نفسُ ما يكون من الوعد والوعيد[١].

الشَّرْح

تأويل ما أخبر الله به عن نفسه هو معنىٰ ما سَمَّىٰ ووَصَف الله به نفسه، فأسماء الله ﷻ هي أسماءٌ ونُعوتٌ دالَّةٌ علىٰ كمال صفات الله.

وتوحيد المعرفة والإثبات لأسماء الله وصفاته هو المُوجِب لتوحيد القصد، فيعبد المسلمُ اللهَ وحده، ويُنزِّهه عن الشرك.

قال العلَّامة المجدد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنه لا يَتِمُّ الإيمان بالله حتىٰ يُؤْمِنَ العبدُ بجميع أسماء الله الحسنىٰ، وجميع ما دَلَّت عليه من الصفات، وما صَدَر عنها من الأفعال والمتعلقات والأحكام.

وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات، فيقولون: إنه عليم، وذو علمٍ عظيم، ويَعْلم كل شيء، قدير ذو قدرة، ويَقْدِر علىٰ كل شيء، وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ علىٰ هذه الطريقة.

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسماء تدل علىٰ الصفات، وهي مشتقة منها، وصفاته تدل علىٰ أسمائه، فما سُمِّي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونحوها،

(١) التدمرية (ص٩٦).
(٢) توضيح الكافية الشافية (ص١٠٠).

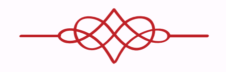
إلا لِمَا اتصف به من كمالِ العلمِ والقدرة والحياة والسمع والبصر، والفِعْل مرتبطة به الأسماء والصفات؛ فإنَّ إثباتَ أفعالٍ بدون أوصافٍ تَصْدُر عنها غيرُ معقول، فآثار الرحمة والنِّعم تدل علىٰ أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخلق والأمر تدل علىٰ كمالِ حكمته، وهكذا».

فالمسلم يتعبد لله ﷻ بحقائق ما أخبر به عن نفسه من أسماء وصفات؛ لأن ذاته العظيمة الموصوفة بالصفات الحسنىٰ، دالَّةٌ علىٰ إلهٍ عظيمٍ.

من ذلك «الرحمن» فإنه اسمٌ من أسماء الله الحسنىٰ، وهو دالٌّ علىٰ وصفِ الرحمة لله، ودالٌّ علىٰ فِعله سبحانه وهو رحمته بخَلْقِه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الرحمن دالٌّ علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، ودالٌّ علىٰ أن الرحمة صفته، وعلىٰ أنّه يرحم خَلْقَه برحمته».

فالمسلمون يؤمنون بحقائق ما أخبر الله به عن نفسه، ويعتقدون أن له الأسماء الحسنىٰ، وأنه موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة بذاته، فهو أَحَدٌ.



(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤)، باختصار.

قال المصنف رحمه الله:

ولهذا ما يَجِيءُ في الحديث نَعْمَلُ بمُحْكَمِه ونُؤْمِنُ بمُتشابِهِه؛ لأن ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فيه ألفاظٌ متشابهة، تُشْبِه معانيها ما نَعْلَمه في الدنيا، كما أخبر أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وماء وخمرًا ونحو ذلك، وهذا يُشْبِه ما في الدنيا لفظًا ومعنى، ولكن ليس هو مثله، ولا حقيقته كحقيقته.

فأسماء الله تعالى وصفاته أَوْلى -وإن كان بينها وبين أسماء العِباد وصفاتهم تشابُهٌ- أن لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق، ولا حقيقته كحقيقته[(١)].

الشَّرح

المُحْكَمُ في عقيدة التوحيد في أسماء الله وصفاته هو صِدْقُ ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه، وصِدْقُ ما أخبر عنه رسوله محمد ﷺ، وأنها صفاتُ كمالٍ، تليق بعظمة الله، لا تماثل صفات المخلوقين، وليس فيها نقصٍ بوجه من الوجوه.

وبعضُ نصوص الوحي تَشْتَبِهُ على مَن لَمْ يَعْلَم معناها، وإذا رُدَّت إلى المُحْكَم من نصوص الوحي تَبَيَّن للراسخين في العلم معناها على ما أراد الله ﷻ ورسوله ﷺ.

قال الحافظ أبو أحمد محمد بن علي الكرجي رحمه الله[(٢)]: «كلُّ صفةٍ وَصَفَ اللهُ بها نفسه، أو وَصَفه بها نبيه ﷺ، فهي صفةٌ حقيقةً، لا مَجازًا».

---

(١) التدمرية (ص٩٦، ٩٧).

(٢) تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٣٩).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الشبهة: الشكوك التي تُوقِعُ في اشتباه الحق والباطل».

وأُمُّ الشُّبهات التي ضَلَّ بسببها المبتدعة في توحيد الله في أسمائه وصفاته: توهُّمُهم أنّ اتفاق الأسماء يَلْزَم منه اتفاق المُسَمَّيات، وهذا ضَلالٌ، فمُسَمَّىٰ كلِّ شيء بحسب مَن تُضاف إليه.

وضَلَّتِ الجهمية والمُشبِّهة في توحيد الله في أسمائه وصفاته، فنَفَتِ الجهمية الصفات، ومَثَّلتِ المشبهة صفات الله بخَلقِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أصلُ غلطِ هؤلاء: شيئان: إمَّا نفيُ الصفات والغلو في نفي التشبيه، وإمَّا ظَنُّ ثبوتِ الكليات المشتركة في الخارج.

فالأول هو مَأْخَذُ الجهمية ومَن وافَقَهُم علىٰ نفي الصفات».

وعامَّةُ ضَلالِ المبتدعة يرجع إلىٰ اتباعهم للمُتشابِه، بسبب تعالُمِهم وعدمِ تلقِّيهم معاني الشرع عن أكابر العلماء، وبسبب عدمِ رَدِّهِم المُتشابِه إلىٰ المُحكَم من النصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «صاروا يتَّبعون المُتشابِه من القرآن فيتأوَّلُون علىٰ غير تأويله، من غير معرفةٍ منهم بمعناه، ولا رسوخٍ في العلم، ولا اتباعٍ للسُّنة، ولا مراجعةٍ لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن».

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٣).
(٢) منهاج السنة (٢/ ٥٨٤).
(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (١/ ١٧٩).

فاحذر -أيها المسلم- ما يُلْقِيه الشيطان في نفسك من أوهامٍ ووساوسَ وظنونِ نَقْصِ صفاتِ الله، وتَوَهُّم مماثلتها لصفات المخلوقين، فتنفيها فتكون من المُكذِّبين لخبر الله الكافرين به.

قال نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن شبَّه الله بخَلقِه فقد كَفر، ومَن أَنْكَر ما وَصَف به نفسه فقد كفَرَ، وليس ما وَصَف به نفسه ولا رسوله تشبيهًا».

وفي نصوص الصفات من الإحكام ما يدفع عنها أوهامَ الاعتقادِ الباطل فيها، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أَرْشَدَهم بهذه الآية إلىٰ بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل».

والمُوحِّدون رَسَختْ عظمةُ الله في قلوبهم، فلا يعتقدون في صفات الله إلا الكمال؛ وأنها لا تُماثِل صفات المخلوقين.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «مَن ظَنَّ به خلاف ما وَصَف به نفسه ووَصَفه به رُسُلُه عليهم الصلاة والسلام، أو عَطَّل حقائق ما وَصَف به نفسه، ووَصَفته به رُسُلُه، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوء».

---

(١) العلو (ص١٢٦).
(٢) زاد المعاد (ص٣٢٧).
(٣) زاد المعاد (ص٤٠٧).

وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «حَمِدَ نَفْسَهُ؛ إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد، ويُنزَّه عن كلِّ نقصٍ ينافي كمالَ حَمْدِه».



(١) جلاء الأفهام (ص٢٧٥، ٢٧٦).

قال المصنف رحمه الله:

والإخبار عن الغائب لا يُفهم أن لمْ يُعبَّر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويُعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميِّز، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يُعلم في الشاهد.

وفي الغائب ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطر على قلبِ بشرٍ.

فنحن إذا أخبرنا الله بالغيب الذي اختصَّ به من الجنة والنار، عَلِمنا معنى ذلك وفهِمنا ما أُريد منّا فَهْمُه بذلك الخطاب، وفَسَّرنا ذلك.

وأمَّا نَفْسُ الحقيقة المُخبَر عنها، مثل التي لم تكن بَعْدُ وإنما تكون يوم القيامة، فذلك من التأويل الذي لا يَعْلمه إلا الله[1].



الشَّرح

أخبرنا اللهُ ﷻ عن صفاته؛ لنؤمن بخبره الصادق بالغيب، ونثني على الله ﷻ بما تمدَّح به نفسه من صفات الكمال ونُعوت الجلال، ونعبده بحقائق ما أخبرنا به عن ذاته، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

واتفاق الأسماء يدلُّ علىٰ قدرٍ مُشتركٍ في المُسَمَّىٰ يُعقل به معنىٰ الاسم، من ذلك: اسم «السميع»؛ فإنَّ مُسَمَّاه في الخالق والمخلوق يدلُّ علىٰ إدراك المسموع، وبين ذات وصفات الخالق والمخلوق من الفَرْقِ ما يدلُّ علىٰ اختصاصِ كلٍّ منهما بما يليق به.

(١) التدمرية (ص٩٧، ٩٨).

وما أخبرنا اللهُ عن كمال صفاته، وعظمة جلاله، لا نحيط به علمًا؛ وإنما هو وصفٌ لله ﷻ يَحْصُلُ به مقصودُ معرفةِ الله ﷻ، وعبوديتِه، وتقواه، وخشيتِه، ورجائِه، وذِكرِه، وشُكرِه، ومُوَالاته، وامتلاء القلوب من محبته وإخلاص الدِّين إليه، وقَصْده بأنواع ما شَرَعه من العبادات.

فعقيدة المسلم في الإيمان بالغيب مبنية على التصديق بالحق، وتعظيم الله في صفاته، فالواجب على المسلم: الاعتصام بالكتاب والسُّنة؛ بتصديق ما أخبر اللهُ به ﷻ عن نفسه، وما أخبر عنه رسولُه ﷺ.

وعقيدة المسلم في توحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وعبوديته، متلازمة، فلا يعبد المسلم إلا مَن له الكمال في نُعوته وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

وعقيدة المسلم في عبودية الله اعتقادٌ جازِمٌ بأنّ الله أَمَر العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمةً بهم ولِمَا فيه مصالحهم، واللهُ غنيٌّ عن عباداتنا وطاعاتنا، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

وعقيدة الموحدين: أنّ الله ﷻ مُتَّصِف بصفات الكمال، مُنزَّه عن النقص، مُنزَّه عن مماثلة الخَلق، فإن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والمخلوقون يشتركون في بعض أسمائهم وصفاتهم، وذلك القَدْرُ المشترك لا يلزم منه تماثُلُهم، ولله المَثَلُ الأعلىٰ؛ ما يشترك فيه الخالق والمخلوق من الأسماء، لا يستلزم تماثلهم لا في الذات ولا في الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أنتَ إذا قلت عن المخلوقين: حيّ وحيّ، وعليم وعليم، وقدير وقدير، لمْ يَلْزَم تماثُلُ الشيئين في الحياة والعلم والقدرة، ولا يلزم أن تكون حياة أحدهما وعِلْمه وقدرته نَفْسَ حياةِ الآخَرِ وعِلْمه وقدرته».

فمَن توهَّمَ فيما سَمَّىٰ ووَصَفَ الله به نفسه مماثلة المخلوقين، فهؤلاء ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه، فنصوص الوحي لا تدلُّ علىٰ ذلك، وتنزيهُ الله لا يكون بتكذيب وحيه فيما أخبر به عن نفسه.

فالعقليات الباطلة للفِرق المبتدعة المعطلة النافية دالَّةٌ علىٰ ضعفِ عقولهم فيما يُنزِّهون عنه رب العالمين، وهي دالَّةٌ علىٰ تكذيبهم بالسمعيات فيما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله ﷺ.

فأسماءُ الله جَلَّ وَعَلَا وصفاته تمتاز عن أسماء وصفات المخلوقين بخصائص حقائقها، ومَن جَهِلَ فَرْقَ ما بين الخالق العظيم والمخلوق الناقص، فأَوْلَىٰ به أن لا يقول علىٰ الله إلا ما أخبر به عن نفسه.

ومن الصفات ما هو من خصوصيات الله جَلَّ وَعَلَا وحده لا شريك له، ليس للمخلوق منها اسمٌ ولا صفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الأسماء والصفات نوعان: نوعٌ يختص به الرب، مثل: الإله، ورب العالمين، ونحو ذلك، فهذا لا يَثْبُتُ للعبد بحَالٍ، ومن هنا ضَلَّ المشركون الذين جعلوا لله أندادًا.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٥٢٦).

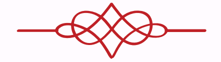
(٢) منهاج السنة (٢/ ٥٩٦).

والثاني: ما يُوصف به العبد في الجملة، كالحي والعالِم والقادر، فهذا لا يجوز أن يثبت للعبد مثل ما يثبت للرب».

وضَرَب شيخ الإسلام مثلًا بالنار في تبيين هذه القاعدة، فنارُ الدنيا ونار الآخرة نعقل من اشتراكهما في أصلِ مُسَمَّىٰ النار، وبينهما من اختلاف الذات والصفات ما لا نحيط به، فنارُ الدنيا جزءٌ من سبعين جزءًا من نار الآخرة.

ونارُ الآخرة تُبْصِرُ أصحابها، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، ونارُ جهنمَ تتكلَّم، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وكلُّ هذه الصفات التي لنارِ الآخرة نُؤْمِنُ بها علىٰ حقائقها التي أخبرنا اللهُ عنها، ونَعْلم فَرْقَ ما بين مُسمَّىٰ نار الدنيا والآخرة، وإنِ اتَّفقتِ النارانِ في الاسم.



قال المصنف رحمه الله:

ولهذا لمَّا سُئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وكذلك قال ربيعة -شيخ مالك- قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومِنَ اللهِ البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان. فبيّن أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة.

ومثلُ هذا يُوجد كثيرًا في كلام السلف والأئمة، ينفون عِلْمَ العِباد بكيفية صفات الله، وأنه لا يَعْلم كيف الله إلا الله، فلا يَعْلم ما هو إلا هو. وقد قال النبي ﷺ: «لا أُحْصِي ثَناءً عليكَ، أنتَ كما أَثْنَيْتَ علىٰ نَفْسِكَ»، وهذا في صحيح مسلم وغيره، وقال في الحديث الآخر: «اللهم، إني أسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هو لَكَ، سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أو أَنْزَلْتَهُ في كتابِكَ، أو عَلَّمْتَهُ أَحَدًا من خَلْقِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الغيب عندكَ». وهذا الحديث في المُسنَد وصحيح أبي حاتم. وقد أخبر فيه أن لله من الأسماء ما استأثر به في عِلْمِ الغيب عنده، فمعاني هذه الأسماء التي استأثر الله بها في عِلْمِ الغيب عنده لا يَعْلَمها غيره[1].



الشَّرح

عقيدةُ الإمام مالك رحمه الله سَلَفِيَّةٌ، وجملةُ ما أجابَ به مَن سأله عن الاستواء عقيدةٌ أَجْمَعَ عليها سلفُ الأُمَّة، ومَن ائْتَمَّ بهم، وهو أن معاني صفات الله معلومة، وكيفيتها مجهولة.

---

(١) التدمرية (ص٩٨-١٠٠).

وهذه العقيدة السلفية وَسَطٌ وهُدًىٰ بين ضلالتين: ضَلالةُ المُمَثِّلة الذين يُكيِّفُون صفات الله ويُشبِّهونها بصفات المخلوقين، وضَلالة المُفوِّضة لمعاني أسماء الله وصفاته.

ومعاني أسماء الله وصفاته هي التي جعلت المسلمين يتألَّهُون لرب العالمين حبًّا وخوفًا ورجاءً، فهم يَصْمُدُون لمَن يعتقدون تفرُّده بكمال أوصافه، فهم يعبدون إلهًا حقًّا، لا عدمًا.

فنُثْبِتُ لله ﷻ ما أخبرنا به عن نفسه من أسمائه وصفاته، بأنه سميع بصير قدير، له يدان، وهكذا في كلِّ ما أخبرنا الله به، ولا نقول في ذلك بكيفٍ؛ لأنه غيبٌ لمْ يخبرنا اللهُ عنه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وعقيدة الصحابة رضي الله عنهم معلومةٌ مُتوارَثةٌ في إثبات معاني الصفات الإلهية، وعدم الخوض بالغيب في كيفيتها، قالت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «سبحان مَن وَسِعَ سَمْعُه الأصوات»، فأَثْبَتَتْ صفة السمع لله ﷻ، وإدراكه للمسموع من غير تكييف.

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله[(١)]: «مذهب السلف: إثباتها وإجراؤها -صفات الله- علىٰ ظاهرها، ونفيُ الكيفية عنها، فهذا إجماعٌ معلوم مُتيَقَّنٌ».

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).

وقال أبو أحمد بن أبي أسامة القرشي الهروي -والد حَمَّاد بن سَلَمة-[(١)]: «نؤمن بصفاته: أنه كما وَصَف نفسه في كتابه المُنزَّل الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ونؤمن بما ثبت عن رسول الله ﷺ من صفاته جلّ جلاله، بنقل العدول والأسانيد المتصلة التي اجتمع عليها أهلُ المعرفة بالنقل، أنها صحيحةٌ ثابتةٌ عن نبي الله ﷺ، ونُطْلِقُهَا بألفاظها كما أطْلَقَهَا، ونعتقد عليها ضمائرنا بصدقٍ وإخلاصٍ أنها كما قال ﷺ، ولا نُكيِّف صفات الله ﷻ».

وسُئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاستواء، وقيل له: كيف استوىٰ علىٰ عرشه؟ فقال: «إنَّا لا نَعْرِف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كُشف لنا، وقد أَعْلَمَنا جلّ ذِكره أنه استوىٰ علىٰ عرشه، ولمْ يخبرنا كيف استوىٰ»[(٢)].



(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٧٧).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص١٨٥).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا أنه عليم، قدير، سميع، بصير، غفور، رحيم، إلىٰ غير ذلك من أسمائه وصفاته؛ فنحن نفهم معنىٰ ذلك، ونُميِّز بين العلم والقدرة، وبين الرحمة والسمع والبصر، ونَعْلم أن الأسماء كلها اتفقت في دلالتها علىٰ ذات الله مع تنوُّعِ معانيها، فهي متفقة مُتواطِئَة من حيث الذات، مُتبايِنَة من جهة الصفات[(١)].

الشَّرح

إنَّ أسماء الله جَلَّ وَعَلَا -مثل: العليم، والقدير، والسميع، والبصير، والغفور، والرحيم-، وغير ذلك دالَّةٌ علىٰ ذات الله المُقدَّسة بما لها من نَفْسِ عِلْمِه، وقدرته، وسمعه، وبصره، ومغفرته، ورحمته[(٢)].

وإثبات أسماء الله جَلَّ وَعَلَا توحيد، والله تَمدَّح نفسه بإثباتها، وأوجب علىٰ خَلْقِه الإيمان بها، وعبوديته بحقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «المُثْبِتَةُ أَحْسَنُوا في إثبات حقيقة الله بما له من الصفات التي لا يكون هو هو إلا بها، وفي إثبات أسمائه الحسنىٰ المُبيِّنة لحقائق صفاته؛ فإنه لولا ثبوت هذه الصفات التي هي العلم والقدرة والكلام ونحوها، لم يكن ربًّا ولا خالقًا، بل لولا ثبوت أصل الصفات لم يكن موجودًا أصلًا. وإثباتُ ما

---

(١) التدمرية (ص١٠٠، ١٠١).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٢٩).

(٣) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٣٧).

لا صفة له إثباتُ ما لا وجودَ له، وهو إثباتُ معدومٍ».

وأسماء الله ﷻ وإن كان كلٌّ له معناه الذي دلَّ عليه اسمه، إلا أنها جميعها قائمة بذات الله ﷻ، والله ﷻ ذاتُهُ لا تَنْفَكُّ عن كل صفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم، والقدرة، والسمع والبصر؛ فإن الواحدة من هذه الصفات ليست هي الأخرىٰ، بل كلُّ صفةٍ ممتازة بنفسها عن الأخرىٰ، وإن كانتا متلازمتين يُوصف بهما موصوفٌ واحِدٌ».

وقال شيخ الإسلام في التلازم بين ذات الله وصفاته، ومعاني صفاته المُسمَّىٰ بها الله[2]: «هي مَعانٍ متلازمة، لا يمكن وجودُ الذات دون هذه المعاني، ولا وجود هذه المعاني دون وجود الذات».

وقال شيخ الإسلام[3]: «لا يمكن وجود الذات إلا بما تصير به ذاتًا من الصفات، ولا يمكن وجود الصفات إلا بما به تصير ذاتًا من الصفات».

فالله ﷻ آمَنَ المُوحِّدون بذاته الموصوفة بصفات الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «لا رَيْبَ أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ موصوفًا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها، فلم يزل بأسمائه وصفاته وهو إلهٌ واحد، له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وأسماؤه وصفاته داخلة في مُسمَّىٰ اسمه، وإن كان

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٠٩).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٠٦).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٠٦).
(٤) بدائع الفوائد (١/ ١٧).

لا يُطلق على الصفة أنها إلهٌ يخلق ويرزق، فليست صفاتُه وأسماؤه غَيْرَهُ، وليست هي نفس الإله».

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لم يقصد أن هذا الاسم له الأسماء الحسنىٰ، بل قَصَد أن المُسمَّىٰ له الأسماء الحسنىٰ».

والمسلمون مُجْمِعُونَ علىٰ معرفةِ فَرْقِ ما بين أنواع أسماء الله وصفاته، فيعاملون الله ويتعبدون له بمقتضىٰ كلِّ اسمٍ وصفته، من ذلك: اسم الله: «الأول».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «يُعامَلُ سَبْقُه تعالىٰ بأَوَّلِيَّتِه لكلِّ شيء، وسَبْقُه بفَضْلِه وإحسانِه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلىٰ غيره، والوثوق بسواه، والتوكل علىٰ غيره».

وكان النبي ﷺ يسأل ربه الهداية باسمه وصفته «الهادي»، فقد روىٰ مسلم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي، يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالِمَ الغيب والشهادة، أنتَ تَحْكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لِمَا اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلي صراطٍ مستقيم».

فكلُّ اسمٍ من أسماء الله ﷻ دالٌّ علىٰ معناه، وليس هو مرادفٌ للآخَرِ، لذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أَسْأَلُكَ بكلِّ اسمٍ سَمَّيتَ به نَفْسَكَ».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٩٨).
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٤٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا سبيل إلىٰ جَعْلِ لَفْظَيْنِ منها، مترادفين علىٰ معنىٰ واحِدٍ، لتبَايُنِ حقائقها».

وصفاتُ الله ﷻ قائمةٌ بذاته، وتنوُّعُها دالٌّ علىٰ إلهيته وأَحَدِيَّتِه.

والجهمية والمعتزلة أطلقوا قول: «الاسم غير المُسَمَّىٰ»، ومقصودهم: أنَّ أسماءَ اللهِ غيرُه، وما كان غيرَهُ فهو مخلوق[(٢)].

وأهل السُّنة استفصلوا، وقالوا: الاسم ليس هو المُسمَّىٰ، ولكن يُراد به المُسمَّىٰ، وإذا قيل: إنه غيره، بمعنىٰ أنه يجب أن يكون مُبايِنًا له، فهذا باطِلٌ[(٣)].

وأسماء الله ﷻ أعلامٌ وأوصافٌ له، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «هو مَدْعُوٌّ به، باعتبار أن المقصود به هو المُسمَّىٰ؛ وإنما يُدْعَىٰ باسمه. وجُعِلَ الاسم مَدْعُوًّا باعتبار أن المقصود به هو المُسمَّىٰ، وإنْ كان في اللفظ هو المَدْعُوُّ المُنادَىٰ، كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ادْعُوا هذا الاسمَ، أو هذا الاسم، والمرادُ إذا دَعَوْتَهُ هو المُسمَّىٰ، أيّ الاسمينِ دعوتَ، ومرادُكَ هو المُسمَّىٰ ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]».

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٠٤).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٠٧).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢١٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مُعلِّقًا(١): «هذا هو القول بأن الاسم للمُسمَّىٰ».

والله ﷻ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، صفاته قائمة به، مُتَّصِف بها، وكل صفة لها معناها الدَّالُّ عليها اسمُها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذه المعاني هي معاني أسمائه الحسنىٰ، وهو سبحانه لَمْ يَزَلْ مُتكلِّمًا إذا شاء.

فهو المُسمِّي نَفْسَه بأسمائه الحسنىٰ، كما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لمَّا سُئل عن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤]، فقال: هو سَمَّىٰ نَفْسَه بذلك، وهو لم يزل كذلك».



(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ١٨٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٠٥).


قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك أسماء النبي ﷺ، مثل: محمد، وأحمد، والمَاحِي، والحَاشِر، والعَاقِب[(١)].

الشَّرح

أسماء النبي ﷺ كثيرة متنوِّعة، وهي صفاتٌ لذاتٍ واحدة، وهي ذاتُ النبي ﷺ، فتعدُّدُ الصفات لا يَلْزَم منه تبعُّضُ الذات ولا تعدُّدُها، وهكذا نقول في صفات ربنا، ولله المَثَلُ الأعلىٰ.

قال جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمَّىٰ لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماءً، فقال: «أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أَحْمَدُ، وأنا الماحِي الذي يمحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأنا الحاشِر الذي يُحْشَرُ الناسُ علىٰ قَدَمِي، والعاقِب الذي ليس بَعْدَه نبيٌّ»، رواه البخاري ومسلم.

أمَّا مُحَمَّد: فهو اسمُ مفعولٍ مِنْ حَمِدَ، فهو مُحمَّد، إذا كان كثير الخِصال التي يُحمد عليها، ولذلك كان أَبْلَغَ من مَحْمُود؛ فإن محمودًا من الثلاثي المُجرَّد، ومحمد من المُضاعف للمُبالَغة، فهو الذي يُحمد أكثر مما يُحمد غيرُه من البشر، ولهذا -واللهُ أعلم- سُمِّي به في التوراة؛ لكثرة الخِصال المحمودة التي وُصف بها هو ودِينُه وأُمَّتُه في التوراة، حتىٰ تَمنَّىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون منهم.

وأمَّا أَحْمَد: فهو اسمٌ علىٰ زِنَةِ أَفْعَل التفضيل، مُشْتَقٌّ أيضًا من الحَمْد، وهو بمعنىٰ مفعول علىٰ الراجح، فهو أحقُّ الناس وأَوْلَاهم بأنْ يُحمد، فيكون كمُحمَّدٍ في المعنىٰ، إلا أن الفَرق بينهما: أن «محمدًا» هو كثير الخِصال التي يُحمد عليها،

(١) التدمرية (ص١٠١).

و«أحمد» هو الذي يُحمد أفضلُ مما يُحْمَدُه غيره، فـ«محمد» في الكثرة والكمية، و«أحمد» في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، وأفضل مما يستحق غيره، فيُحمد أكثرَ حَمْدٍ، وأَفْضَلَ حَمْدٍ حَمِدَه البشر.

وأمَّا الماحي، والحاشر، والمُقَفِّي، والعاقِب: فقد فُسِّرت في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه؛ فالماحي: هو الذي مَحَا اللهُ به الكفر، ولمْ يُمحَ الكفرُ بأَحَدٍ من الخَلق ما مُحِيَ بالنبي ﷺ؛ فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كُفَّار، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عُبَّاد أوثان، ويهود مغضوب عليهم، ونصارىٰ ضالِّين، وصَابِئَة دَهْرِيَّة لا يعرفون ربًّا ولا مَعادًا، وبين عُبَّاد الكواكب وعُبَّاد النار وفلاسفة لا يَعْرِفون شرائع الأنبياء ولا يُقِرُّون بها، فمَحا اللهُ سبحانه برسوله ﷺ ذلك حتىٰ ظَهَر دِينُ الله علىٰ كلِّ دِينٍ، وبَلَغ دِينُه ما بَلغَ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار.

وأمَّا الحاشِر: فالحَشْرُ: هو الضَّمُّ والجَمْعُ، فهو الذي يُحشر الناسُ علىٰ قَدَمِه؛ فكأنه بُعث ليُحْشَرَ الناسُ.

والعاقِب: الذي جاء عَقِبَ الأنبياء، فليس بعده نبيٌّ؛ فإن العاقب هو الآخِر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سُمِّي العاقب علىٰ الإطلاق، أي: عقب الأنبياء، جاء بِعَقِبِهم[1].



(١) زاد المعاد (ص٢٩-٣١)، باختصار.

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك أسماء القرآن، مثل: القرآن، والفُرقان، والهُدَىٰ، والنور، والتنزيل، والشفاء، وغير ذلك[1].

الشَّرح

القرآن كلامُ ربِّ العالمين، وَصَفه اللهُ ﷻ بالشفاء، فقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو شفاءٌ للصدور من الشبهات والعقائد الفاسدة وأمراض الشهوات.

والقرآن وَصَفه الله بأنه وحيٌ مُنزَّل منه، وهو سلطانُ العِلم والحُجَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «السلطان هو الوحي المُنزَّل من عند الله كما ذُكِرَ ذلك في غير موضعٍ، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل سلطان في القرآن فهو الحُجَّة»».

والقرآن نورٌ يَهْتدي به المُتَّبِعون له، وتنشرح به صدورهم، وتحيا به قلوبهم، ومَن أَخذ بمناره هُدِيَ إلىٰ صراطٍ مستقيم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن

(١) التدمرية (ص١٠١).
(٢) نقض المنطق (ص١٨٠).

رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الله جَعَل الحياة حيث النور، والموت حيث الظُّلمة، فحياةُ الوُجودَين الروحي والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياةَ بدُونِه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب، فبه انْفِساحُه وانشراحُه وسَعَتُه، كما في الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دَخَل النور القلب انْفَسَح وانشرحَ». قالوا: وما عَلَامةُ ذلك؟ قال: «الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتَّجافِي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونورُ العبد هو الذي يُصعِدُ عَمَلَهُ وكَلِمَهُ إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإن الله تعالىٰ لا يصعد إليه من الكَلِمِ إلا الطيب -وهو نورٌ، ومَصْدره عن النور-، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أَنْزله علىٰ رسوله ﷺ».

والقرآن فُرقانٌ، فبه يُعرف هدايةُ مَن اهتدىٰ وضلالةُ مَن ضَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا يُؤكِّده قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «القول الفَصْل هو الذي يَفْصِل بين الحق والباطل، فيُميِّز هذا من هذا، ويَفْصِل بين الناس فيما اختلفوا فيه».

---

(١) الوابل الصيب (ص١٤٣-١٤٥).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص١١٤).

والقرآن هُدًىٰ، كما وَصَفه الله بذلك، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فهذا القرآن يَهْدِي للتي هي أَقْوَم وأَمْثَل وأَفْضَل لصلاح الأفراد والمجتمعات، وبما يجلب المَصالح ويَدْرَأ المَفاسد، يتعايش الناس بأحكامه فتجري أمورهم بالعدل، ويَتَّبِعون هَدْيَهُ فتجري أمورهم علىٰ أحسنِ ما يكون، من تحقيق حكمة الله من استخلافهم في الأرض بالتألُّهِ لله، وعمارة الأرض بالمعروف بما يَؤُول إلىٰ تحقيق العبودية لله وشُكْرِه علىٰ نِعمه دون تعطيلها أو البَطَر فيها.

فالحاصل: أن الفُرقان، والهدىٰ، والنور، والتنزيل، والشفاء، أوصافٌ وأسماءٌ للقرآن، وهو شيءٌ واحد، كتابُ الله ووَحْيُه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفِه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.



قال المصنف رحمه الله:

ومثل هذه الأسماء تَنازَعَ الناسُ فيها؛ هل هي من قبيل المُترادِفة لاتحاد الذات، أو من قبيل المُتبايِنة لتعدُّد الصفات، كما إذا قيل: السيف، والصَّارِم، والمُهَنَّد؛ وقُصد بالصّارم معنى الصَّرْم، وفي المُهَنَّد النسبة إلى الهِنْد؟

والتحقيق: أنها مترادفة في الذات، متباينة في الصفات[1].



الشَّرْح

الصفات المتعددة إذا كانت لمَوْصُوفٍ واحد، وكانت الصفات متباينة، كانت الذات موصوفة بكل تلك الصفات، ولا يُقال في الصفات المتباينة: إنها مترادفة، فالسميع معناه يختلف عن البصير، ومَن كان سميعًا بصيرًا كان أكمل في ذاته.

قال الفقيه العلَّامة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٦٢٠هـ)[2]: «المترادفة: أسماء مختلفة لمسمًّى واحد، كاللَّيْث والأسد، والعُقار والخمر؛ فإن كان أحدهما يدلُّ على المُسمَّى مع زيادة، لم يكن من المترادفة كالسيف والمُهَنَّد والصَّارِم؛ فإن المُهَنَّد يدل على السيف مع زيادة نسبته إلى الهِنْد، والصَّارِم يدل عليه مع صفة الحِدَّة».

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «والمتباينة: الأسماء المختلفة للمعاني المختلفة، كالسماء والأرض».

(١) التدمرية (ص١٠١، ١٠٢).
(٢) روضة الناظر (ص١٣، ١٤).
(٣) روضة الناظر (ص١٤).

قال المصنف رحمه الله:

وممَّا يُوضِّح هذا: أن الله وَصَف القرآن كله بأنه مُحْكَمٌ وبأنه مُتشابِه، وفي موضعٍ آخَرَ جَعَل منه ما هو مُحكَم ومنه ما هو مُتشابِه، فينبغي أن يُعرف الإحكام والتشابه الذي يَعُمُّه، والإحكام والتشابه الذي يَخُصُّ بَعضَهُ.

قال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ فأَخْبَر أنه أَحْكَم آياته كلها، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ فأخبر أنه كلَّه مُتشابِه.

والحُكْمُ: هو الفَصْل بين الشيئين، والحاكِم يَفْصِل بين الخصمين، والحكمةُ فَصْلٌ بين المشتبهات علمًا وعملًا، إذا مُيِّز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والنافع والضار، وذلك يتضمن فِعْلَ النافع وتَرْكَ الضَّار، فيُقال: حَكَمْتُ السَّفيهَ وأَحْكَمْته إذا أخذتُ علىٰ يديه، وحَكَمْتُ الدَّابَّة وأَحْكَمْتها إذا جعلتُ لها حَكَمَة وهو ما أحاط بالحَنَكِ من اللِّجام، وإحكامُ الشيء إتقانه، فإحكامُ الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، وتمييز الرُّشد من الغيِّ في أوامره.

والقرآنُ كلُّه مُحكَمٌ بمعنىٰ الإتقان، فقد سَمَّاه اللهُ حكيمًا بقوله: ﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فالحكيمُ بمعنىٰ الحاكم، كما جَعَله يَقُصُّ بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، وجعله مُفتيًا في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: ما يُتلىٰ عليكم يُفتيكم فيهن، وجَعَله هاديًا ومُبشِّرًا في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

---

(١) التدمرية (ص١٠٢، ١٠٣).

الشَّرح

القرآن كلُّه مُحكَمٌ، بمعنىٰ مُتقَنٌ، فألفاظه ومعانيه مُتقَنَة، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهو مُحكَمٌ بمعنىٰ تمييزه الحقيقة المقصودة من غيرها حتىٰ لا تشتبه بغيرها[١]، فالقرآن أفصح الكلام في الدلالة علىٰ المعاني الصحيحة، غاية في البيان، وفي إفادة المعنىٰ من كل كلام سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

فمَن أَخَذ معاني القرآن من غير تحريفٍ لألفاظه، ومن غير تعالُمٍ بتفسيره عن جهلٍ، وأَخَذه عمَّن تَلقَّىٰ معانيه من النبي ﷺ مباشرة الصحابة رضي الله عنهم هُدِيَ إلىٰ الحق الذي يهدي إليه القرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وبسببِ الإحكام الذي للقرآن في ألفاظه ومعانيه صارت ألفاظه ومعانيه مُيَسَّرةً للفهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا تجد كلامًا أحسنَ تفسيرًا، ولا أَتَمَّ بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سَمَّاه سبحانه بيانًا، وأخبر أنه يَسَّرَهُ للذِّكر، وتيسيرُه للذِّكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٧٤، ٢٧٥).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣١).

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال».

فمَن اهتدىٰ بالقرآن بحُسْنِ قَصْدٍ ولم يُحرِّف الكَلِمَ عن مواضعه، هُدِيَ إلىٰ الحق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الكتاب والسُّنة يَحْصُل منهما كمالُ الهدىٰ والنور لمَن تدبَّر كتاب الله ﷻ وسُنَّة نبيه ﷺ وقَصَد اتباع الحق، وأَعْرَضَ عن تحريف الكَلِم عن مواضعه».

والقرآن كلُّه مُحكَمٌ، بمعنىٰ: ائتلاف واتفاق معانيه، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١، ٢]، فالقرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، مُؤْتَلِفٌ غيرَ مُخْتَلِفٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَحْكَمها الله، فليس فيها اختلافٌ ولا تناقُضٌ»[(٢)].

والقرآن كلُّه مُحكَمٌ، بمعنىٰ: مُبين، فالقرآن يُفسِّر بعضه بعضًا، والسُّنة فَسَّرتِ القرآن وبَيَّنتْ أحكامه ومعانيه علىٰ أَتَمِّ ما يكون، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١] أي: هي مُحكَمَة في لفظِها، مُفَصَّلَة في معناها».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٠٢).
(٢) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٢/ ٤١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٣١).

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كتابٌ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، نُظِمتْ نَظْمًا رَصِينًا سليمًا عن الخلل والتناقض والنَّسْخ.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «لَمْ يُنسخ بكتابٍ كما نُسخت الكتب والشرائع»».

وفِرَقُ المبتدعة بأنواعهم صاروا يزعمون أن تحريفاتهم لمعاني كلام ﷻ وكلام رسوله ﷺ هو البيان، وأنَّ كلامَ اللهِ غيرُ بَيِّنِ المعنىٰ كبيانهم، وهذا من أعظم مُغالطات المبتدعين في قطعيةِ بيانِ وهدايةِ كلامِ الوحي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «العلم بمراد الله من كلامه، أَوْضَحُ وأَظْهَرُ من العلم بمراد كلِّ مُتكلِّمٍ من كلامه؛ لكمال عِلْمِ المُتكلِّم، وكمالِ بيانِه، وكمالِ هُداه وإرشاده، وكمال تيسيره للقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا وتلاوةً، فكما بلَّغ الرسول ﷺ ألفاظ القرآن للأُمَّة، بلَّغهم معانيه».

وصارت فِرَقُ المبتدعة تجادل في آيات الله تكذيبًا وتحريفًا لمعانيه بمعقولاتهم غير الصريحة، والعقل الصريح يوافق الوحي؛ وإنما يُعارِضُه مَن غَوىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أمَّا مُعارَضَةُ القرآن بمعقولٍ أو قياس، فهذا لم يكن يستحلّه أَحَدٌ من السلف؛ وإنما ابْتُدع ذلك لمَّا ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممَّن بَنَوْا أصولَ دِينهم علىٰ ما سَمَّوْهُ معقولًا ورَدُّوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تَعارَض العقل والشرع: إمَّا أن يُفوَّض أو يتَأَوَّل. فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغيرِ سلطانٍ أَتَاهُم».

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١١٧).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٣٦، ٦٣٧).
(٣) الاستقامة (ص٤٧).

قال المصنف رحمه الله:

وأمَّا التشابه الذي يَعُمُّه فهو ضدُّ الاختلاف المَنْفِي عنه في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾، وهو الاختلاف المذكور في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

فالتشابه هنا هو تماثُلُ الكلام وتناسُبُه، بحيث يُصدِّق بعضه بعضًا، فإذا أَمَر بأمرٍ لَمْ يأمر بنقيضه في موضعٍ آخَرَ، بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته، وإذا نهىٰ عن شيءٍ لَمْ يأمر به في موضع آخر، بل ينهىٰ عنه أو عن نظيره أو عن لوازمه، إذا لم يكن هناك نَسْخٌ.

وكذلك إذا أَخْبَرَ بثبوتِ شيءٍ لَمْ يُخْبِر بنقيض ذلك، بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته، وإذا أَخْبَرَ بنفيِ شيءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ، بل ينفيه أو ينفي لَوازمه، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضًا، فيُثْبِتُ الشيءَ تارةً وينفيه أخرىٰ، أو يأمر به وينهىٰ عنه في وقتٍ واحد، أو يُفرِّق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويَذُمّ الآخَرَ، فالأقوال المختلفة هنا هي المتضادة، والمتشابهة هي المتوافقة.

وهذا التشابه يكون في المعاني وإن اختلفت الألفاظ، فإذا كانت المعاني يوافق بعضها بعضًا، ويَعْضُد بعضُها بعضًا، ويُناسِب بعضها بعضًا، ويَشْهَد بعضها لبعض، ويقتضي بعضها بعضًا؛ كان الكلام متشابهًا، بخلاف الكلام المتناقض الذي يُضادُّ بعضُه بعضًا.

فهذا التشابه العام لا ينافي الإحكام العام، بل هو مُصدِّقٌ له، فإنَّ الكلام المُحكَم المُتقَن يُصدِّق بعضُه بعضًا، لا يُناقِضُ بعضُه بعضًا[1].

---

(١) التدمرية (ص١٠٤، ١٠٥).

الشَّـرح

القرآن مُحْكَمٌ، مُتَّفِقَةٌ مَعانيه، ليس فيه اختلافُ تَضادٍّ في معانيه؛ لأنه كلامُ ربِّ العالمين ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

والاختلاف والتناقض صفةُ الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فالوحي كلُّه؛ القرآنُ والسُّنة لا يَتَضادُّ، ويُصدِّق بعضُه بعضًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا يختلف الكتاب والرسول ﷺ أَلْبَتَّةَ، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الكتابُ والسُّنة يُصدِّق بعضُه بعضًا».

والاختلافُ في معاني نصوص الوحي من القرآن والسُّنة يقع في أذهان غير المُتحقِّقِين بالعِلم، وليس هو وصفًا لنصوص الوحي في نفسها، فالوحي مُحكَمٌ، وهُدًىٰ، ومَن جَهِلَ معنىٰ ائتلاف النصوص أَبانَ له علماءُ الإسلام ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ما زال علماء السُّنة يَقْبَلُون الخبر الصحيح، ويُبَيِّنُون اتفاق الأخبار المتعارضة عند بعض الناس، ووَضْع كل حديث موضعه، وأن الأحاديث كما جاءت لا تُرَدُّ بتكذيبٍ ولا بتحريف».

(١) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ٣١٥).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٧٧).
(٣) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٨٦).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «السُّنة يُبيِّن بعضُها بعضًا، لا يُردُّ بعضُها ببعضٍ».

والمبتدعةُ قصدوا إلىٰ تحريف معاني القرآن، وحَرَّفُوا كلام الله ﷻ عن مواضعه، وأتوا بتحريفات تخالف ألفاظ القرآن، ووضعوا الكلام الذي ابتدعوه مكان القرآن، وأمروا الناس بالإيمان به، والصد عن تَلَقِّي معاني القرآن عن سلفِ الأُمَّة؛ الصحابة والتابعين، وأَوْقَعُوا الفُرقة في الأمَّة، وأضلوا الناس عن دِينهم الحق، وكان في تحريفاتهم من التناقض والاختلاف ما يدلُّ علىٰ بطلان تحريفاتهم، قال تعالىٰ: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن أقوال هؤلاء النُّفاة المعطلة متناقِضَة مختلفة، وذلك يدلُّ علىٰ بطلانها، وأنها ليست من عند الله، وما جاء به الرسول ﷺ مُتَّسِقٌ مُتَّفِقٌ يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويُوافِقُ بعضُه بعضًا، وهذا يدلُّ علىٰ أنه حقٌّ في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأنتَ إذا تأملتَ مقالات القوم ومعقولاتهم وجدتها أعظمَ شيءٍ تناقضًا، ولا تَجِدُ أَحَدًا من فضلائهم ورؤسائهم أصلًا إلا وهو يقول الشيء وما يخالفه، ويناقضه تارةً في المسألة الواحدة، وتارةً يقول القول ثم ينقضه في مسألة أخرىٰ من ذلك الكتاب بِعَيْنِه.

وأمَّا قولُ الشيء وقولُ نقيضِه في الكتاب الآخَرِ، فمَن له فَهْمٌ واطِّلاع علىٰ كتبِ

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤٢٥).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٥٨).

القوم يَعْلَم ذلك».

وكان من ضَلَالِ المبتدعين: ردُّ المنقول من نصوص القرآن والسُّنة بدعوىٰ مخالفتها لعقولِهِم، ومَعْقُولَاتُهُمُ التي عارَضُوا بها الوحي جهالاتٌ وقولٌ بلا عِلْمٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هل في القرآن أو الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ ما ظاهِرُه مُمْتَنِعٌ في العقل، ولمْ يَتَبَيَّنْ ذلك بالأدلة الشرعية؟! هذا لا يُعلم أنه واقِعٌ أصلًا.

فمَن قال: إن هذا واقِعٌ فليَذْكُرْهُ؛ فإنَّا رأينا الذي يَدَّعِي فيه ذلك: إمَّا أن يكون الحديث فيه موضوعًا، أو الدلالة فيه ليست ظاهرةً، أو أن ظاهرها الذي لمْ يُرَدْ قد بُيِّنَ بأدلةِ الشرع انتفاؤُه.

فإذا كان النصُّ ثابتًا والدلالة ظاهرة وليس في بيان الله ﷻ ورسوله ﷺ ودلالته ما يُبَيِّن انتفاءها ومراده بها؛ فإنَّا وجدنا ما يذكرونه من المعقول له هو في نَفْسِه مُعارَضٌ بمعقولٍ أقوىٰ منه، ووجدناه من المجهول لا من المعقول، بل وجدنا المعقول الصريح يدلُّ علىٰ بُطلان المُعارِض للمنقول الصحيح ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]».

والصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون لهم بإحسان أَمَرُّوا نصوصَ الوحي في أسماء الله ﷻ وصفاته علىٰ ظاهرها كما جاءت، ولمْ يَأْتِ عنهم ما ابتدعه الجهمية والمعتزلة والأشاعرة من التحريفات لمعانيها.

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٥٦).

قال العلَّامة الفقيه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٢٠هـ)(١): «الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعُوا علىٰ تركِ التأويل بما ذَكَرنا عنهم، وكذلك أهلُّ كلِّ عصرٍ بعدهم، ولمْ يُنقل التأويل إلا عن مبتدعٍ أو منسوبٍ إلىٰ بدعة.

والإجماعُ حُجَّةٌ قاطعة؛ فإن الله لا يجمع أُمَّةَ محمدٍ ﷺ علىٰ ضلالة».

والصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خيرُ القرون، وأزكىٰ الخَلق وأتقاهم، وأقوىٰ الخَلق عقولًا، قبلوا ألفاظَ الوحي خصوصًا في توحيد الله في أسمائه وصفاته، ولمْ يتوهّموا فيها تشبيهًا ولا تجسيمًا ولا باطلًا، فأثبتوها ولمْ يعارضوها كما فعلَ المبتدعةُ أضلّ الخَلق عقولًا.



(١) ذم التأويل (ص٤٠).



قال المصنف رحمه الله:

بخلاف الإحكام الخاصِّ، فإنه ضدُّ التشابه الخاص، فالتشابه الخاص هو مشابهة الشيء لغيره من وجهٍ مع مخالفته له من وجهٍ آخَرَ، بحيث يشتبه علىٰ بعض الناس أنه هو، أو هو مثله، وليس كذلك، والإحكامُ هو الفَصْل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر. وهذا التشابه إنما يكون لقَدْرٍ مُشترَك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما.

ثُمَّ مِنَ الناس مَن لا يهتدي للفصل بينهما، فيكون مُشتبِهًا عليه، ومنهم مَن يهتدي إلىٰ ذلك، فالتشابه الذي لا يتميَّز معه قد يكون من الأمور النِّسبيّة الإضافية، بحيث يشتبه علىٰ بعض الناس دون بعضٍ، ومثل هذا يعرف منه أهلُ العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه، كما إذا اشتبه علىٰ بعض الناس ما وُعدوا به في الآخرة بما يشهدونه في الدنيا فظنَّ أنه مثله، فعَلِمَ العلماءُ أنه ليس هو مثله، وإن كان مشبهًا له من بعض الوجوه.

ومن هذا البابِ: الشُّبه التي يضلُّ بها بعضُ الناس، وهي ما يشتبه فيها الحق بالباطل، حتىٰ يشتبه علىٰ بعض الناس، ومَن أُوتي العِلْمَ بالفصل بين هذا وهذا لَمْ يشتبه عليه الحق بالباطل[1].

الشَّرح

المُتشابِه الخاصُّ: هو ما اشتبه معناه من نصوص الوحي علىٰ مَن لَمْ يَعْلَمْهَا؛ وإنْ لم تكن هي مشتبهة في نفسها، لذلك عَرِفَ معناها الراسِخُون في العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «التشابه الإضافي: فمرادهم أنّهم تكلموا فيما اشتبه معناه وأَشْكَل معناه علىٰ بعض الناس؛ وأنّ الجهمية استدلوا بما اشتبه

---

(١) التدمرية (ص١٠٥، ١٠٦).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٢٦).

عليهم وأَشْكَل؛ وإن لم يكن هو من المُتشابِه الذي لا يَعْلَم تأويله إلا الله».

وظَهَر في عهدِ الصحابة ﵃ مَن يجادل بالمتشابه من القرآن، فقَمَعَهُم وُلاةُ وعلماء الصحابة؛ لئلا يُفسِدُوا عقائد المسلمين، فضَرَب الفاروقُ عُمَرُ ﵁ بالدِّرَّة صَبِيغ بن عِسْل لمجادلته في متشابه القرآن.

وروىٰ عبد الرَّزاق عن مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ﵄: أنّه رأىٰ رجلًا انتفض لمَّا سَمِعَ حديثًا عن النبي ﷺ في الصِّفات استنكارًا لذلك، فقال: «ما فَرَقُ هؤلاء؟! يجدون رِقَّةً عند مُحْكَمِهِ، ويهلكون عند متشابهه».

والمتشابه النسبي يزول عنه الاشتباه بردِّه إلىٰ المُحكَمِ من نصوص الوحي، وهذا يكون لمَن له عِلْمٌ وتَحقُّقٌ بإحكام الوحي؛ فإنّ نصوص القرآن والسُّنة يُفسِّر بعضها بعضًا، ومَن لم يكن كذلك فإنّه يسأل الراسخين في العلم فيُبَيِّنُون له الاعتقادَ الصحيح الواجب الإيمان به في أسماء الله وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

والراسخون في العلم من هذه الأُمَّة هُمُ الصحابة ﵃ والتابعون، ولَمْ يشتبه عليهم شيءٌ من معاني نصوص الوحي في أسماء الله وصفاته.

قال ابن القيم ﵀[(١)]: «اتفقت كلمتهم -الصحابة- وكلمة التابعين بَعْدَهم علىٰ إقرارها وإمرارها، مع فَهْمِ معانيها، وإثبات حقائقها».

---

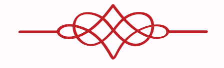
(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).

ومَن تأمَّل عامَّةَ ضَلالِ المبتدعين في توحيد أسماء الله وصفاته، وَجَدَهُ من تقديم أُغْلُوطات القواعد العقلية لأئمة الضَّلال علىٰ نصوص الوحي، وإلا فإنّ نصوص الوحي فيها من الإحكام ما يُبيّن المعاني الصحيحة لألفاظه ويَدْفَع عنها التأويلات الضالة التي هي من تحريف الكَلِم عن مواضعه.

فمن أسبابِ ضَلالِ عامة المبتدعين: تَعالُمُهم وعدمُ تلقِّيهم معاني الوحي من الراسخين في العلم، وتقديمهم لأقوالِ ومعقولاتِ أئمة الضلال علىٰ فهمِ أكابر الأمَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صاروا يتبعون المتشابه من القرآن، فيتأوَّلونه علىٰ غير تأويله، من غير معرفةٍ منهم بمعناه، ولا رسوخ في العلم، ولا اتباع السُّنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن».

فالاهتداءُ بالقرآن بفهم السلف شفاءٌ للقلوب من شُبُهات وضَلالات البِدَع والأفهام المَغْلُوطة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].



(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ١٧٩).


قال المصنف رحمه الله:

والقياسُ الفاسد إنما هو من باب الشبهات؛ لأنه تشبيهٌ للشيء في بعض الأمور بما لا يُشْبِهُه فيه، فمَن عَرفَ الفصل بين الشيئين اهتدىٰ للفَرْقِ الذي يزول به الاشتباه والقياس الفاسد.

وما من شيئين إلا ويجتمعان في شيءٍ، ويفترقان في شيءٍ، فبينهما اشتباهٌ من وجهٍ وافتراقٌ من وجهٍ، ولهذا كان ضَلالُ بني آدم من قِبل التشابه -والقياس الفاسد لا ينضبط- كما قال الإمام أحمد رحمه الله: أكثرُ ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، فالتأويل في الأدلة السمعية، والقياس في الأدلة العقلية، وهو كما قال، والتأويل الخطأ إنما يكون في الألفاظ المتشابهة، والقياس الخطأ إنما يكون في المعاني المتشابهة[١].


الشَّرح

الفُرْقانُ بين الحق والباطل يهتدي إليه مَنِ اعتصم بالكتاب والسُّنة وتَلقَّىٰ معانيهما من الصحابة رضي الله عنهم الذين جَعَلهم النبي ﷺ مرجعًا في معرفة الحق من الباطل حين ذَكَر أنّ أُمَّتَهُ ستفترق علىٰ ثلاثٍ وسبعين، وقال في معيار معرفة الحق: «ما أنا عليه وأصحابي».

وقول شيخ الإسلام: «القياس الفاسد إنّما هو من الشبهات»، وقوله: «والتأويل الخطأ إنّما يكون في الألفاظ المتشابهة، والقياس إنّما يكون في المعاني المتشابهة» بيانٌ لمَنْشَأ ضَلالِ المبتدعين في توحيد الله في أسمائه وصفاته، حيث كانت قواعد شيوخهم وتحريفاتهم لنصوص الوحي وأَقْيِسَتهم الخاطئة سببُ ضَلالِهم، حيث

(١) التدمرية (ص١٠٦، ١٠٧).

خالفوا ظاهِرَ نصوص الوحي إلىٰ تحريفاتهم لمعاني الوحي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يا سبحان الله! كيف لمْ يَقُلِ الرسولُ ﷺ -يومًا من الدهر- ولا أَحَدٌ من سلفِ الأُمَّة: هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دَلَّتْ عليه، لكن اعْتَقِدُوا الذي تقتضيه مَقاييسُكم، أو اعْتَقِدُوا كذا وكذا؛ فإنّه الحق، وما خالف ظاهِرَهُ فلا تعتقدوا ظاهِرَهُ، وانظروا فيها، فمَا وَافَقَ قياسَ عقولِكُم فاعْتَقِدُوه، وما لا فتوَقَّفُوا فيه أو انفوه».

وقولُ شيخ الإسلام: «فمَن عرفَ الفصل بين الشيئين اهتدىٰ للفَرْق الذي يزول به الاشتباه» توجيهٌ للقول الفصل الذي يُبيِّن المعاني الصحيحة من المعاني الباطلة، والقرآنُ بيانُه مُحكَمٌ، لذلك هو قولٌ فَصْلٌ؛ قولُ ربِّ العالمين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ﴾ [الطارق: ١٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القول الفصل: الفصل ببيان المعنىٰ، ضد الإجمال».

وقال ابن القيم[(٣)]: «القول الفصل: هو الذي يَفْصِلُ بين الحقِّ والباطل، فيميِّزُ هذا من هذا، ويَفْصِلُ بين الناس فيما اختلفوا فيه».

والقول الفصل في توحيد الله في أسمائه وصفاته: أنْ تَعْرِفَ أنّ ما وَصَفَ اللهُ به نفسه صِدْقٌ وحَقٌّ، وأنّ صفاته صفاتُ كمالٍ تليق بعظمته، لا تماثل صفات المخلوقين، دلَّ علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٢٩، ٢٣٠).
(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص١٧٢).
(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص١٧٢).

[الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «كما يتيقن أنّ الله سبحانه له ذاتٌ حقيقية، وله أفعالٌ حقيقية، فكذلك له صفاتٌ حقيقية، وهو ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله».

فأهلُ السُّنة والجماعة هُدوا إلىٰ الحق بمعرفة هذا القول الفَصْل، والجهمية وفروعهم اشتبه عليهم؛ لتَوهُّمِهم أنّ اتفاق الأسماء يستلزم اتفاق المُسَمَّيات، وليس كذلك، فكلُّ مُسمَّىٰ مُختَصٌّ بصفاته التي تدلُّ علىٰ حقيقة مُسَمَّاهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أمَّا المعطلون فإنّهم لم يفهموا مِن أسماءِ الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثُمَّ شَرَعُوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مَثَّلُوا أولًا، وعَطَّلُوا آخِرًا، وهذا تشبيهٌ وتمثيلٌ منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خَلقِه وصفاتهم، وتعطيلٌ لِمَا يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

أَهْدَىٰ الخَلْقِ في معرفة الله وتوحيده علميًّا وعمليًّا: هُمْ سلفُ الأمَّة؛ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون لهم بإحسان، وأَضَلُّ الوَرَىٰ في معرفة الله: هُمُ الخَلَفُ المبتدعة الذين اتَّبعوا غير سبيل المؤمنين.

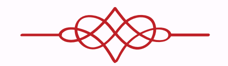
قيل لعبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمَ عَرفتَ ربَّكَ؟ قال: بأنّه مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خَلقِه.

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٦).

(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٧، ٢٦٨).

وأَضَلُّ فِرَقِ المبتدعة في معرفة الله: مَن جَهِلُوا كمال غنىٰ الله عن خَلقِه، وافتقار كل مخلوق إليه؛ الصوفية الغُلَاة الذين قالوا بوحدة الوجود، وجعلوا الخالق والمخلوق حقيقةً واحدة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شهادة المُوَحِّد[١]: «يشهد أنّ المخلوقات قائمةٌ بالله، ومُدبَّرَةٌ بأَمْرِهِ، ويشهد كَثْرتها مَعْدومة بوحدانية الله؛ وأنّه ربُّ المصنوعات، وإلهها، وخالقها، ومالكها، فيكون -مع اجتماع قَلْبِه علىٰ الله إخلاصًا، ومحبَّةً، وخَوْفًا، وَرَجَاءً، واستعانةً، وتوكُّلًا علىٰ الله، وموالاةً فيه، ومُعاداةً فيه، وأمثال ذلك- ناظرًا إلىٰ الفَرْقِ بين الخالق والمخلوق، مُمَيِّزًا بين هذا وهذا».



(١) العبودية (ص١١٤).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد وَقَع بنو آدم في عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات، حتىٰ آلَ الأمرُ بمَن يَدَّعِي التحقيق والتوحيد والعِرفان منهم إلىٰ أن اشتبه عليهم وجودُ الرب بوجود كل موجود فظنوا أنه هو، فجعلوا وجود المخلوقات عَيْنَ وجودِ الخالق، مع أنه لا شيءَ أَبْعَدُ عن مماثلة شيء، أو أن يكون إياه، أو مُتَّحِدًا به، أو حالًّا فيه، من الخالق مع المخلوق.

فمَنِ اشتبه عليهم وجود الخالق بوجود المخلوقات -حتىٰ ظنوا وجودها وجوده- فَهُمْ أعظمُ الناسِ ضَلالًا من جهة الاشتباه، وذلك أن الموجودات تشترك في مسمىٰ «الوجود» فرأوا الوجود واحدًا، ولمْ يُفرِّقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع[(١)].


الشَّرْح

حَذَّر شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من شر أنواع الضلالات؛ عقيدة الاتحادية وحدة الوجود.

وعقيدة الاتحادية: هي أنَّ وجود الخالق هو وجود المخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «يقولون: نَطَقَ الكتابُ والسُّنة بِثَنَوِيَّةِ الوجود. والوجودُ واحِدٌ، لا ثنوية فيه، ونحو ذلك من المقالات التي هي أعظم الكفر والإلحاد».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ [(٣)]: «من أكبر العجب: اغترار كثير ممَّن ينتسب إلىٰ الإسلام بهذا المذهب الخبيث، وتعظيمهم لأهل هذا المذهب

(١) التدمرية (ص١٠٧، ١٠٨).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٢٤).
(٣) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص١٧٤، ١٧٥).

حتىٰ أَدْخَلُوه في كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وحقيقة مذهبهم: أن جميع العالَم العلوي والسفلي شيءٌ واحد، مُتَّحِدٌ بعضُه ببعض -وإن تباينت أجزاؤه، وتَفرَّقت أحواله-، فما ثَمَّ خالِقٌ ولا مخلوق، ولا ربٌّ ولا مَرْبُوب، ولا واجب الوجود ومُمْكِن الوجود، بل الخالق نَفْسُ المخلوق، والربُّ نفسُ المربوب، والعبدُ نفسُ المَعْبُود، وجعلوا لله كلَّ صفةٍ ممدوحةً ومذمومةً، إذ كان هو الممدوح المذموم -تَعالَىٰ اللهُ عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ فإنهم أعظم المُلحِدِين في أسماء الله وصفاته-.

والمشركون أَقَلُّ شِرْكًا منهم؛ لأنهم خَصَّصُوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء المَلاحِدة أعطوا جميع الموجودات أسماء الله وأوصافه، إذ كان مذهبهم أن الله هو عينُ هذه الموجودات».



قال المصنف رحمه الله:

وآخرون توهَّمُوا أنه إذا قيل: الموجودات تشترك في مسمىٰ «الوجود»، لَزِمَ التشبيه والتركيب، فقالوا: لفظُ «الوجود» مقول بالاشتراك اللفظي، فخالفوا ما اتفق عليه العقلاء مع اختلاف أصنافهم، من أن الوجود ينقسم إلىٰ قديمٍ ومُحْدَثٍ، ونحو ذلك من أقسام الموجودات(١).

الشَّرح

الذي أَضَلَّ المُعطِّلةَ النَّافِيَةَ لصفات الله ﷻ توهُّمُهم أنّ اتفاق الأسماء يستلزم اتفاق المُسَمَّيات، وهذا توهُّمٌ باطِلٌ، فصفاتُ كلِّ مُسَمًّىٰ تختصُّ به، واللهُ ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ(٢): «إنّ الله تعالىٰ سمَّىٰ نفسه بأسماء، وكذلك سمَّىٰ صفاته بأسماء، وسمَّىٰ بعضها صفات خَلقِه، وليس المُسمَّىٰ كالمُسمَّىٰ، فسمَّىٰ نفسه حيًّا عليمًا قديرًا، رءوفًا رحيمًا، عزيزًا حكيمًا، سميعًا بصيرًا، مَلِكًا مؤمنًا، جبَّارًا مُتكبِّرًا، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

---

(١) التدمرية (ص١٠٨).
(٢) منهاج السنة (٢/ ١١٢، ١١٣).

وقد سمَّىٰ بعضَ عبادِه حيًّا، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩]، وبعضهم عليمًا بقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وبعضهم حليمًا بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، وبعضهم رءوفًا رحيمًا بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وبعضهم سميعًا بصيرًا بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وبعضهم عزيزًا بقوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، وبعضهم مَلِكًا بقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وبعضهم مؤمنًا بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة: ١٨]، وبعضهم جبَّارًا متكبراً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ومعلومٌ أنّه لا يُماثِلُ الحيُّ الحيَّ، ولا العليمُ العليمَ، ولا العزيزُ العزيزَ، ولا الرءوف الرءوف، ولا الرحيم الرحيم، ولا المَلِكُ المَلِكَ، ولا الجبَّارُ الجبَّارَ، ولا المُتكبِّرُ المتكبر».

فالاشتراك اللفظي للمسميات لا يستلزم تماثُلَ المسميات، فكلُّ اسمٍ مُسَمَّاه مُختَصٌّ به، فما يُثْبِتُه اللهُ ﷻ لنفسه ليس هو مثل صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

واعتقاد أن الاشتراك اللفظي لمسميات الأعيان المختلفة يستلزم التمثيل، لو قال به الناس لنفوا وجود الله وذاته الموصوفة بصفات الكمال؛ لأنّ المخلوق موجودٌ وله ذاتٌ وصفاتٌ، وهذا لا يقول به عاقِلٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد عُلم بالحسّ والضرورة وجودُ موجودٍ حادِثٍ كائِنٍ بعد أنْ لمْ يَكُنْ، والحادث لا يكون واجبًا بنفسه، ولا قديمًا أزليًّا، ولا خالقًا لِمَا سواه، ولا غنيًّا عمّا سواه، فثَبَتَ بالضرورة وجود موجودين: أحدهما غنيّ والآخَر فقير، وأحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كل منهما شيئًا موجودًا».



(١) منهاج السنة (٢/ ١١٦).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وطائفةٌ ظَنَّتْ أنه إذا كانت الموجودات تشترك في مسمىٰ «الوجود» لَزِمَ أن يكون في الخارج عن الأذهان موجود مشترك فيه، وزعموا أن في الخارج عن الأذهان كُلِّيَّات مُطْلَقة: مثل: وجود مُطْلَق، وحيوان مُطْلَق، وجسم مُطْلَق، ونحو ذلك؛ فخالفوا الحِسَّ والعقل والشرع، وجعلوا ما في الأذهان ثابتًا في الأعيان، وهذا كلُّه من أنواع الاشتباه(١).

الشَّرْح

الاشتراك في المسمىٰ يُطلق علىٰ الكلي، والنوع، والأفراد، فمُسَمَّىٰ (الحي) يُطلق علىٰ الكلي، فيشملُ كلَّ حيٍّ، ويُطلق علىٰ النوع من الحي كـ(الإنسان)، ويُطلق علىٰ أفراد النوع، فالأفراد الأحياء من نوع الإنسان يشتركون في مُسَمَّىٰ وَصِفَةِ الإنسانية، وإنسانيةُ كلِّ فَرْدٍ تختلف في الخَلْق والخُلُق.

والله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] فهو الحي الذي لا يموت، وكان اللهُ ولمْ يكن شيءٌ قبله، فهو الأول، وهو الخالق لكل حي، وهو الذي أَوْجَدَهُ من العدم وجعل فيه الحياة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «كل موجود في الخارج فإنّه مختصٌّ بذاته وصفاته القائمة به، لا يشاركه غيره فيها ألبتة».

(١) التدمرية (ص١٠٨).
(٢) الصَّفدية (١/ ١٠٠).

فالاسم العامُّ الكلي لا يتماثل أفراد أنواعه، واللهُ ﷻ له المَثَلُ الأعلىٰ، ليس كمثله شيء، بائِنٌ من خَلْقِه، موصوفٌ بصفات الكمال، صفاتُه مُختصَّة بذاته، قائمة به، تليق بعظمته وجلاله، فهو حيٌّ سميع بصير، له يَدانِ، مَلِكٌ يغضب ويرضىٰ، وكل صفاته لا تُمَاثِلُ صفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الرَّب تعالىٰ منزَّه عن أن يُوصف بشيء من خصائص المخلوق، أو أن يكون له مُماثِلٌ في شيء من صفاتِ كماله، وكذلك يمتنع أن يشاركه غيره في شيء من أموره بوجه من الوجوه».



(١) الصَّفدية (١/ ١٠٠).

قال المصنف رحمه الله:

ومَن هَدَاهُ اللهُ سبحانه فَرَّق بين الأمور وإن اشتركت من بعض الوجوه، وعَلِمَ ما بينها من الجمع والفرق، والتشابه والاختلاف، وهؤلاء لا يضلون بالمتشابه من الكلام؛ لأنهم يجمعون بينه وبين المُحْكَم؛ الفارق الذي يُبَيِّن ما بينهما من الفصل والافتراق(١).

الشَّرح

المُحكَمُ المعلوم المُتيَقَّن: أنّ كلَّ ذاتٍ وموجودٍ، صفاتُهُ تختصُّ به، وأنّ الله ﷻ موصوف بصفات الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأَضَلُّ الخَلْقِ عن معرفة هذا المُحكَمِ: الصوفية الحُلُولِيَّة؛ حيث جعلوا حقيقة الله هي حقيقة المخلوق.

والمعطلة النافية من أَضَلِّ الخَلق؛ حيث نفوا صفات الله ﷻ مُتوَهِّمِين أنّ إثباتها تشبيه للخالق بالمخلوق.

ومن المعلوم المُحكَم: أنّ الله ﷻ موصوفٌ بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهو سبحانه ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] المنزَّه عن كلِّ نقصٍ، فلا تأخذه سِّنةٌ ولا نوم؛ وذلك لكمال حياته.

وكلامُ الله ﷻ كلُّه مُحكَمٌ، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١، ٢]، ونصوصُ القرآن فيما أخبر الله به عن نفسه

---
(١) التدمرية (ص١٠٩).

مُحكَمَة، فهي تصف الله ﷻ الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١].

ومجموعُ نصوصِ الوحي من القرآن والسُّنة في الإخبار عن صفات الله، واضحةُ البيانِ في وصفِ العظيم، ولا يمكن أن تشتبه بغيره؛ لأنّها تصف اللهَ الأحد الصمد، والوحيُ أَفْصَحُ الخِطابات وأحسنها دلالةٍ علىٰ بيانِ مُرادِ اللهِ ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «آمنتُ بالله ﷻ وبما جاء عن الله علىٰ مُرادِ الله، وآمنتُ برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله ﷺ».

وقال العلَّامة الفقيه أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مما جاء من آيات الصفات: قول الله ﷻ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالىٰ إخبارًا عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّه قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالىٰ في الكفار: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن السُّنَّة: قول النبي ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا»، وقوله: «ويعجب ربُّكَ من الشاب ليست له صَبْوَةٌ»، وقوله: «ويضحك الله إلىٰ رَجُلَيْنِ قتَلَ

(١) لُمْعةُ الاعتقاد (ص١٦٨)، مطبوع ضمن متون التوحيد والعقيدة، ط- دار الآثار- القاهرة.
(٢) لمعة الاعتقاد (ص١٧١-١٧٣).

أحدُهما الآخَرَ ثُمَّ يَدْخُلان الجَنَّة».

فهذا وما أَشْبَهَهُ ممَّا صَحَّ سندُه، وعُدلت رُواتُه، نُؤْمِنُ به، ولا نَرُدّه، ولا نَجْحَده، ولا نتأوَّله بتأويلٍ يخالف ظاهِرَهُ، ولا نُشبِّهه بصفات المخلوقين ولا بِسِمَاتِ المُحْدَثِين، ونَعْلَم أنّ الله ﷻ لا شبيه له، ولا نظير ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

والحقُّ أن المتشابه: هو ألفاظُ المبتدعةِ المُجْمَلَة التي تَوصَّلُوا بها إلىٰ تكذيب أخبار الوحي عن أسماء الله وصفاته، كقولهم: (الجَوْهَر، والجِسْم، والجزء، والتركيب)، ولا يُلتفت عن تصديق القرآن والسُّنة إلىٰ الأخذِ بألفاظِ المبتدعة، وإبطال حقائق الوحي إلا مَن في قَلْبِه زَيْغٌ -والعِياذُ بالله-، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفِ المبتدعة: «يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويُلَبِّسون علىٰ جُهَّال الناس بما يُشبِّهون عليهم».

فألفاظُ المبتدعة متشابهةٌ أَضلَّت الخَلقَ، وألفاظُ الوحي بيانٌ هدتْ إلىٰ الحق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كلامُ اللهِ ورسوله مُحْكَمٌ، والألفاظُ المُجملة المُحدَثة متشابهةٌ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الواجبُ إطلاق العبادات الحسنة، وهي المأثورة التي جاءت بها النصوص، والتفصيل في العبارات المُجمَلَة المُشْتَبِهَة،

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٩٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٩٤).

وكذلك الواجب نظيرُ ذلك في سائر أبواب أصول الدِّين، وأنْ يُجعل ما يَثْبُتُ بكلام الله ﷻ ورسولِه ﷺ وإجماعِ سلفِ الأُمَّة هي النصُّ المُحكَمُ، وتُجعل العبارات المُحْدَثَة المتقابلة بالنفي والإثبات المشتملة في كل من الطرفين في حقٍّ وباطلٍ، من بابِ المُجْمَل المُشْتَبِه المحتاج إلىٰ تفصيل الممنوع من إطلاق طرفيه».



قال المصنف رحمه الله:

وهذا كما أن لَفْظَ «إنَّا» و«نحن» وغيرهما من صِيَغِ الجَمْعِ يتكلَّم بها الواحد الذي له شركاءُ في الفعل، ويتكلَّم بها الواحد العظيم الذي له صفاتٌ تَقُوم كلُّ صفةٍ مقامَ واحِدٍ، وله أعوان تابعون له، لا شركاء له.

فإذا تَمسَّكَ النصراني بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ونحوه علىٰ تعدُّدِ الآلهة، كان المُحكَمُ -كقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ونحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنىٰ واحدًا- يزيل ما هناك من الاشتباه، وكان ما ذَكَره من صِيَغِ الجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يستحقه من العظمة والأسماء والصفات، وطاعة المخلوقات من الملائكة وغيرهم.

وأمَّا حقيقةُ ما دَلَّ عليه ذلك من حقائق الأسماء والصفات، وما له من الجنود الذين يستعملهم في أفعاله، فلا يَعْلمه إلا هو ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذا من تأويل المتشابه الذي لا يَعْلمه إلا الله.

بخلاف المَلِك من البشر إذا قال: قد أَمَرنا لكَ بعطاءٍ. فقد عُلم أنه هو وأعوانه - مثل: كاتبه، وحاجِبه، وخادمه، ونحو ذلك- أَمَروا به، وقد يُعلم ما صدر عنه ذلك الفعل من اعتقاداته وإراداته ونحو ذلك.

واللهُ سبحانه وتعالى لا يَعْلم عبادُه الحقائق التي أَخْبَر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر، ولا يَعلمون حقائق ما أراد بخَلْقِه وأَمْرِه من الحكمة، ولا حقائق ما صَدَرتْ عنه من المشيئة والقدرة[1].

---

(١) التدمرية (ص١٠٩-١١١).

الشَّرح

اتِّباعُ المُتشابِه كان من أسبابِ ضَلالِ أقوامٍ من الكافرين والمبتدعين.

فقد ضلَّ النصارىٰ في معنىٰ أن عيسىٰ كلمةُ الله ورُوحٌ منه، فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق بكلمة الله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وليس هو كلمة الله؛ لأنّ كلام الله صفةٌ قائمة بذاته، واللهُ بائِنٌ من خَلقِه، لا يَحُلُّ شيءٌ من صفاته في مخلوقاته.

ومعنىٰ أن عيسىٰ «روح من الله»: أنَّ جبريل رُوح القُدُس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَمْرٍ من الله نَفَخ في جيبِ دِرْعِ مريمَ أُمِّه لِتَلِدَ من غير زوج، اصطفاءً من الله.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنّما خَلَق اللهُ عيسىٰ بالكلمة، لا أنّه الكلمة، ألا تسمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال في آيةٍ أخرىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فخَلَقَ عيسىٰ وآدمَ بقوله: ﴿كُن﴾».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أمَّا قول الله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يقول: مِن أَمْرِه كان الروحُ فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول: من أمْرِه.

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٦٢).
(٢) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٥١، ٢٥٢).

وتفسير «روح الله» إنّما معناها: أنها روحٌ بكلمةِ الله، خَلَقها اللهُ، كما يُقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله».

فجبريل وعيسىٰ عليهما السلام مخلوقان، وإضافة الروح إليهما إضافة المخلوق إلىٰ خالقه تشريفًا واصطفاءً، وليسا من صفات الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]؛ فإنّه وَصَف هذا الروح بأنّه تَمثَّل لها بشرًا سويًّا؛ وأنّها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا؛ وأنّه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وهذا كلُّه يدلُّ علىٰ أنّها عينٌ قائمة بنفسها».

وقولُ شيخ الإسلام: «إنّ لَفْظَ ﴿إِنَّا﴾، و﴿نَحْنُ﴾ وغيرهما من صِيَغِ الجَمْع يَتكلَّم بها الواحد الذي له شركاء في الفعل، ويتكلم فيها الواحد العظيم الذي له صفاتٌ تَقُومُ كلُّ صفةٍ مقامَ واحدٍ»، فيه تبيينُ ما تَشابَهَ فيه النصارىٰ والمعطلة النافية من الزَّيغ فيما لم يُحسِنُوا فَهْمَهُ؛ فإنّ النصارىٰ ضَلّوا في معنىٰ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فتوهَّمُوا منه تعدُّدَ الآلهة، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا﴾، و﴿نَحْنُ﴾ المُفْرَد الواحِد المُعظِّم نَفْسَهُ بصيغة الجَمْع لا يُراد به التعدُّدُ.

وهكذا الجهمية والمعتزلة نفوا صفات الله مُتوهِّمِين أنّ إثباتها يستلزم تعدُّدَ الآلهة، وهذا من جَهْلِهم، فإنَّ صفات الله كثيرة لموصوفٍ واحدٍ وهو الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٢٤٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿إِنَّا﴾، و﴿نَحْنُ﴾ ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجَمْع كمَا اتَّبعه النصارىٰ؛ فإنّ معناه معلومٌ وهو الله سبحانه؛ لكن اسم الجَمْع يدلُّ علىٰ تعدُّد المعاني، بمنزلة الأسماء المتعددة: مثل العليم، والقدير، والسميع، والبصير؛ فإنّ المسمىٰ واحدٌ ومعاني الأسماء متعددةٌ، فهكذا الاسم الذي لفظُه الجَمْع».

والعُدول بالمُتشابِه عن المُحكَم منهجُ الزَّائِغين، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، والراسخون في العلم يَرَدُّون المُتشابه إلىٰ المُحكَم، ويسألون العلماء عن معانيه، ويَتلقَّون دِينهم عن معدن العلم؛ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين تَلقَّوا معاني الوحي مباشرةً من النبي ﷺ.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]. قال: «هُمُ الخَوارِج»، رواه البيهقي[(٢)].

وتعيينُ النبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، في الخوارج؛ إنما هو تنبيهٌ علىٰ كل ضالٍّ زائغِ القلبِ عَدَل عن مُحكَمِ الوحي إلىٰ متشابهه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنّ الخوارج أوَّلُ مَن تَبعَ ما تَشابَه منه، وابتغوا بذلك الفتنة، فقَتلوا من أهل الإسلام ما لا يُحصىٰ كثرةً، وتَجنَّبوا قَتْلَ أهل الشرك،

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٣٣).
(٢) السنن الكبرىٰ (١٧/ ٧٠).
(٣) العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٦٢، ٦٦٣).

وأخبارُهم في ذلك شهيرة، ولذلك وَرَد في عِدَّة أحاديث صحيحة أنَّهم شرُّ الخَلقِ والخَلِيقَة.

وذَكَر الخوارج؛ نَبَّه به الحديثُ المذكور علىٰ مَن ضَاهَاهُم في اتِّباع المتشابه وابتغاء تأويله، فالآية شاملة لكل مُبتدعٍ سَلَك ذلك المَسْلَك».

ونصوصُ الوحي المُحكَمَة دالَّةٌ علىٰ كمالِ صفاتِ الله ﷻ؛ وأنّها لا تُماثِلُ صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وعامَّةُ ضَلالِ المبتدعين في أسماء الله ﷻ وصفاته سببُه تفسير نصوص الوحي بغيرِ مرادِ الله ﷻ ورسوله ﷺ، كتفسيرِ الجهميةِ والمعتزلةِ قَوْلَهُ تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] علىٰ أنَّ ﴿مُحْدَثٍ﴾ مخلوق، ففَسَّروا كلام الله ﷻ باصطلاح المُتكلِّمين.

والمرادُ بمُحْدَثٍ، أي: أنّه آخِرُ ما نَزَل، وليس المرادُ بمُحْدَثٍ مخلوقًا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أَوْقَعَ عليه الحَدَثَ عند إتيانه إيَّانَا، وأنتَ تَعْلم أنّه لا يأتينا بالأنباء إلا مُبَلِّغٌ ومُذَكِّرٌ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كان القرآن ينزل شيئًا فشيئًا، فما تقدَّمَ نزولُه فهو مُتَقَدِّمٌ علىٰ ما تَأَخَّرَ نزولُه، وما تَأَخَّرَ نزولُه مُحْدَثٌ بالنسبة إلىٰ ذلك المُتَقَدِّم، ولهذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]».

(١) الرَّدُّ علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٣١).

(٢) الصَّفدية (٢/ ٨٥).

فتفسيرُ المبتدعةِ كلامَ الله ﷻ ورسوله ﷺ بما يخالف مُرادَ اللهِ ورسوله، هو ما يَذْكُرونه من تحريفاتهم الباطلة التي يُسَمُّونها تأويلات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تارةً يجعلون المعنىٰ الفاسد ظاهِرَ اللفظ، حتىٰ يجعلوه محتاجًا إلىٰ تأويلٍ يخالف الظَّاهر، ولا يكون كذلك.

وتارةً يَرُدُّون المعنىٰ الحقَّ الذي هو ظاهِرُ اللَّفظ؛ لاعتقادهم أنَّه باطِلٌ».

ولا رَيْبَ أنَّ مِن ضَلالِ الكافرين والمبتدعين: تحريفُ الكَلِم عن مواضعه، فاليهود حرّفوا قول الله لهم ﴿حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] إلىٰ «حِنْطَة»، والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة حرّفوا قول الله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] إلىٰ «استولىٰ علىٰ العرش».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أمَّا لَيُّ الألسنة بما يُظنُّ أنّه من عند الله، فكَوَضْعِ الوَضَّاعِين الأحاديثَ علىٰ رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يُظنُّ أنّه حُجَّة في الدِّين، وليس بحُجَّة، وهذا الضَّرب من أنواع أخلاق اليهود».

ومن أسبابِ ضَلالِ الكافرين والمبتدعين: مُعارَضة الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعدم تلقِّيه بالتصديق والاتِّباع، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

فالكُفَّار والمبتدعون فيهم مَن عارَضَ الوحي بذَوْقِه، ومنهم مَن عارَضَه بمعقولاتٍ غيرِ صريحةٍ، ومنهم مَن عارَضَه بقياسٍ باطِلٍ، ومنهم مَن اتَّبع الباطل

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٤٣).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٢/ ٨٦).

تعصبًّا وتقليدًا.

وشيخُ الإسلام في رسالته «التدمرية» رَدَّ علىٰ المبتدعة في توحيد الأسماء والصفات بإبطالِ شبهاتهم العقلية، ومَن قرأ ردود شيخ الإسلام تَبَيَّنَ له أنّ معقولات المبتدعين أُغلوطاتٌ ومَجُهولاتٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أمَّا مُعارَضَةُ القرآن بمعقولٍ أو قياس، فهذا لَمْ يَكُنْ يَستحلُّه أَحَدٌ من السَّلف؛ وإنَّما ابْتُدع ذلك لمَّا ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممَّن بنوا أصول دِينهم علىٰ ما سمَّوْه معقولًا، وردُّوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تعارَضَ العقلُ والشَّرع، إمَّا أن يُفَوَّض أو يتَأَوَّل.

فهؤلاء من أعظمِ المُجادِلين في آيات الله بغير سلطانٍ أَتاهُم».

وعقلياتُ المعتزلة وفروعهم التي ردُّوا بها نصوصَ الوحي من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، ضَلالاتٌ وأوهامٌ جَعَلوها بحسب تسميتهم لها «قطعيات»، يَرُدُّونَ علىٰ اللهِ كلامَهُ ووَحْيَهُ، وهي -بضرورة النقل والعقل- أَباطِيل من القول في كتابِ اللهِ بلا عِلْمٍ ولا هُدًىٰ ولا سُلطانٍ مُبِينٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «ظَنُّهم أنَّ ما عارَضُوا به السمع معلومٌ بالعقل، ويكونون غالِطِين في ذلك؛ فإنَّه إذا وُزن بالميزان الصَّحيح، وُجِدَ ما يُعارِضُ الكتابَ والسُنَّةَ، من المجهولات لا من المعقولات».

---

(١) الاستقامة (ص٤٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣١٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن عقليَّات المتكلِّمين[(١)]: «هم مع ذلك من أَبْعَدِ النَّاس عمَّا أوجبوه؛ فإنَّهم كثيرًا ما يحتجُّون فيها بالأدلَّة التي يزعمونها قطعيَّات، وتكون في الحقيقة من الأغلوطات فضلًا عن أن تكون من الظنيَّات، حتىٰ إنَّ الشَّخص الواحد منهم كثيرًا ما يقطع بصحَّة حُجَّةٍ في موضِعٍ، ويقطع ببطلانها في موضعٍ آخَرَ!».

فالواجب علىٰ المسلم: مُحاذَرة أسباب الضَّلال، والاعتصام بالكتاب والسُّنة بفهم السلف، فليس فيما وَصَفَ اللهُ به نفسه محذورٌ، بل هو ثناءٌ علىٰ الله بما يليق بكماله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أَصْلُ ضَلالِهم تكلُّمهم بكلماتٍ مُجْمَلَةٍ لا أَصْلَ لها في كتاب الله ولا سُنَّةِ رسوله، ولا قالها أَحَدٌ من المسلمين، كلفظِ: التحيُّز، والجسم، والجهة ونحو ذلك.

فمَن كان عارفًا بحلِّ شبهاتهم بيَّنها، ومَن لمْ يكن عارفًا بذلك فليُعْرِضْ عن كلامهم، ولا يَقْبَلْ إلا ما جاء به الكتاب والسُّنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومَن تكلَّم في الله وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسُّنة، فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل».



(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٨٨ ج).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٠٥).

قال المصنف رحمه الله:

وبهذا يُتبيَّن أن التشابه يكون في الألفاظ المتواطئة، كما يكون في الألفاظ المشتركة التي ليست بمتواطئة، وإن زال الاشتباه بما يُميِّز أَحَدَ المَعْنَيَيْنِ من إضافةٍ أو تعريفٍ، كما إذا قيل: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ فهنا قد خصَّ هذا الماء بالجَنَّة، فظَهَر الفَرْقُ بينه وبين ماء الدنيا، لكنْ حقيقةُ ما امتاز به ذلك الماء غيرُ معلومٍ لنا، وهو -مع ما أَعَدَّ اللهُ لعباده الصالحين ممَّا لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ علىٰ قَلْبِ بَشَرٍ- من التأويل الذي لا يَعْلَمه إلا الله.

وكذلك مدلول أسمائه وصفاته التي يختص بها، التي هي حقيقته، لا يَعْلَمها إلا هو[1].



الشَّرح

اللفظُ المُتَواطِئ: هو الذي يكون معناه مطابقًا للفظه، ويُراد به أحد النَّوعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هي جمهور الأسماء الموجودة في اللغات، وهي أسماء الأجناس اللغوية، وهو الاسم المُعلَّق علىٰ الشيء وما أشبهه -سواءٌ كان اسمَ عينٍ أو اسمَ صفةٍ-».

واسمُ الجنس المتواطئ إنْ دلَّ علىٰ نوعٍ أو عينٍ؛ فإنه يقترن به ما يدلُّ علىٰ ما يُقصد به من التخصيص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «اسمُ الجنس العامُّ المتواطئ المُطْلَق إذا

(١) التدمرية (ص١١١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٢٠٠).
(٣) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٢٤٤).

دلَّ علىٰ نوعٍ أو عينٍ، كقولِكَ: هذا الإنسان، وهذا الحيوان، أو قولك: هات الحيوان الذي عندك، وهي غَنَمٌ، فهنا اللفظ قد دلَّ علىٰ شيئين: علىٰ المعنىٰ المشترك الموجود في جميع الموارد، وعلىٰ ما يُختصُّ به هنا هذا النوع أو العين، فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف دلَّ علىٰ القَدْر المشترك، وما قُرن باللفظ من لَامِ التعريف مثلًا أو غيرها، دلَّ علىٰ الخصوص والتعيين».

فلفظُ «الماء» اسمُ جنسٍ لأنواع الماء، فهو يُطلق علىٰ الماء العذب والماء المالح، ويُطلق علىٰ ماء الدنيا وماء الجنة، والإضافة في قولنا: «ماء الدنيا» أو «ماء الجنة» تفيد اختصاصَ كلِّ ماءٍ بصفاته.

وقد أَخْبَرنا الله ﷻ عن صفاته بما يدلُّ علىٰ اختصاصها به، وعدم مماثلتها لصفات مخلوقاته، فقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «القرآن مَلْآن من توحيد الله تعالىٰ؛ وأنّه ليس كمثله شيء، فلا يُمَثَّلُ به شيء من المخلوقات في شيء من الأشياء؛ إذ ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا فيما يستحقُّهُ من العبادة، والمحبَّةِ، والتَّوكُّل، والطَّاعة، والدُّعاءِ، وسائر حقوقه.

قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، فلا أَحَدٌ يُسامِيهِ، ولا يستحقُّ أن يُسمَّىٰ بما يختصُّ به من الأسماء، ولا يساويه في معنىٰ شيء من الأسماء، لا في معنىٰ الحَيِّ، ولا العليم، ولا القدير، ولا غير ذلك من

(١) الجواب الباهر في زوّار المقابر (ص٥٣).

الأسماء، ولا في معنىٰ الذَّات، والموجود، ونحو ذلك من الأسماء العامَّةِ، ولا يكون إلهًا، ولا ربًّا، ولا خالقًا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فلم يكن أَحَدٌ يُكَافِيه في شيء من الأشياء، فلا يساويه شيء، ولا يُماثِلُه شيء، ولا يُعادِلُه شيء».

فأسماء الله ﷻ تدلُّ علىٰ ما اتَّصفَ به الله من الكمال، واللهُ ﷻ إنما ذَكَر لنا أسمائه وصفاته لنعبده بحقائقها، ونَرْغَب ونَصْمُد إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يَذْكُر لهم من أوصاف كماله ونُعوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلىٰ المبادرة إلىٰ دعوته، والمسارعة إلىٰ طاعته، والتنافس في القُرب».

واللهُ ﷻ تَعرَّف إلىٰ عباده بذِكر أسمائه وصفاته؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم الفطري، فيَعْرِفه المؤمنون معرفةً تفصيلية تزيدهم رغبةً ورهبةً وخضوعًا وتعظيمًا وإجلالًا وخشوعًا لرب العالمين.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يَذْكُر صفاته أيضًا عند ترغيبه لهم وترهيبه وتخويفه؛ لتَعْرِفَ القلوبُ مَن تخافه وترجوه، وترغب إليه وترهب منه.

ويَذْكُر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقلَّ أنْ تَجِدَ آيةَ حُكْمٍ من أحكام المُكلَّفِين إلا وهي مُختَتَمة بصفة من صفاته أو صفتين».

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٠).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٠).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم من الذين يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، تأويلَ ما تَشابَه عليهم من القرآن على غير تأويله، كما قال الإمام أحمد في كتابه الذي صنَّفه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شَكَّتْ فيه من متشابه القرآن وتأوَّلته على غير تأويله.

وإنما ذَمَّهم لكونهم تأوَّلوه على غير تأويله، وذَكَر في ذلك ما يشتبه عليهم معناه، وإن كان لا يشتبه على غيرهم، وذمَّهم على أنهم تأوَّلوه على غير تأويله، ولم يَنْفِ مُطْلَق التأويل، كما تقدَّم من أنَّ لَفْظ «التأويل» يُراد به: التفسير المبيِّن لمراد الله تعالى به، فذلك لا يُعابُ بل يُحمد، ويُراد بالتأويل: الحقيقة التي استأثر الله بعلمها، فذاك لا يَعْلمه إلا هو، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع[1].

الشَّرح

أَنْكَر الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مَن تأوَّلَ معاني القرآن والسُّنة بما يُخالِفُ دلالة ظاهر ألفاظهما، وما يخالف فَهْمَ الصحابة الذين تَلَقَّوا معاني الوحي مباشرةً من النبي ﷺ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأويلُ القرآن بلا سُنَّةٍ تدلُّ على معناها، أو معنى ما أرادَ اللهُ ﷻ، أو أُثِر عن أصحاب الرسول ﷺ؛ تأويلُ أهلِ البدع».

وقد أبطلَ الجهميةُ والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة معاني وحقائق القرآن، وتأوَّلوه بما يخالف ظاهره، وتأوَّلوه بما يخالف فَهْمَ إجماع الصحابة.

(١) التدمرية (ص١١٢).

وتأوَّلوا معاني نصوص الوحي بما يخالف إحكامَ ما دَلَّتْ عليه نصوصُه من معانيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «نصوص الصفات إذا تأمَّلها مَن شَرَح الله صدره لقبولها، وفَرِحَ بما أُنْزل على الرسول ﷺ منها، يراها قد حُفّت من القرائن والمُؤَكِّدات بما ينفي عنها تأويلُ المتأوِّل».

تأوَّلَ المعتزلةُ وفروعُهم أخبارَ القرآن عن أسماء الله وصفاته؛ لجَهْلِهم بعظمة الله، وتوهُّمِهم مَحاذِير إمرارها كما جاءت، وليس فيما أخبر الله عن نفسه محذورٌ، بل هو ثناءٌ وتعظيمٌ لله؛ فإنها صفاتُ كمالٍ.

وكما لمْ يَكُنْ في قلوب المُعطِّلة تعظيمٌ وإجلال لله عَزَّوَجَلَّ -بنفيهم صفات كماله التي أخبرنا بها-، لم يكن في قلوبهم تعظيمٌ لكلام الله حيث حرَّفوه، ولم يكن في قلوبهم رِضًا عن اعتقاد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حيث خالفوا اعتقادهم، ولم يأخذوا بفهمهم، ولم يتبعوهم بإحسان.

ودلالةُ ألفاظِ القرآن غايةٌ في البيان والوضوح في إفادة معنىٰ ما أوحاه الله إلينا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الكتاب والسُّنة يحصل منهما كمالُ الهُدىٰ والنور لمَن تدبَّرَ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة نبيه ﷺ، وقَصَدَ اتباع الحق، وأَعْرَض عن تحريف الكَلِم عن مواضعه».

(١) الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ١٩٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٠٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العلم بمراد الله من كلامه، أَوْضَحُ وأظهرُ من العلم بمراد كلِّ مُتكلِّم من كلامه، لكمالِ علمِ المُتكلِّم، وكمال بيانه، وكمال هُدَاه وإرشاده، وكمال تيسيره للقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا وتلاوةً، فكما بَلَّغَ الرسولُ ﷺ ألفاظَ القرآن للأمَّة، بَلَّغَهُم معانيه».

فتحريفاتُ المعتزلة والأشاعرة لنصوص الوحي في أسماء الله وصفاته، هو تكذيبٌ لأخبار الوحي، وصاروا يبطلون حقائقها ومعانيها بتسمية تحريفاتهم: مَجازًا.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لو ساغ ادِّعاءُ المَجاز لكل مُدَّعٍ، ما ثَبَتَ شيءٌ من العبارات، وَجَلَّ اللهُ ﷻ عن أن يُخاطِب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها».

فإبطالُ حقائقِ معاني ألفاظ الوحي هو دِهْلِيزُ الإلحاد والزندقة وأساس الكفر بالوحي تحريفًا وتكذيبًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «تَجِدُ أبا عبد الله الرازي يَطْعَنُ في دلالة الأدلة اللفظية علىٰ اليقين، وفي إفادة الأخبار للعِلم، وهذان هما مُقدِّمتا الزَّنْدقة».

تحريفات الجهمية والمعتزلة والأشاعرة لمعاني نصوص الوحي في أسماء الله وصفاته، طعنٌ في تبليغ النبي ﷺ لمعاني الدِّين؛ إذ كيف يُهْمِلُ التوحيدَ ويُعَلِّم أمَّته آداب الخَلاء؟! هذا مستحيل.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٣٦، ٦٣٧).
(٢) التمهيد (٧/ ١٣١).
(٣) نقض المنطق (ص٨٨).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «مُحَالٌ أن يُظنَّ بالنبي ﷺ أنْ عَلَّم أُمَّته الاستنجاء، ولم يُعلِّمهم التوحيد».

تأويلاتُ المعطلة تجهيلٌ للسلف، فلا يُمْكِن أن يكون انقضىٰ عهدُ الصحابة من غير معرفةٍ بصحيحِ الاعتقاد لمعاني أسماء الله وصفاته، حتىٰ يأتي مَن بعدهم من مبتدعة المعتزلة وفروعهم كالأشاعرة والماتريدية فيزعمون أنّ تحريفاتهم لمعاني القرآن هي الاعتقاد الصحيح، هذا باطِلٌ قطعًا.

الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كما وَصَفهم النبي ﷺ بقوله: «خيرُ الناس قَرْني»، فهُم خيرُ الناس علمًا واعتقادًا وعملًا، وكانوا أفصح الخَلق وأنصحهم، تألَّهوا لله بظاهر النصوص، فكانوا علىٰ الاعتقاد الصحيح.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لا يجوز خلافهم؛ لأنّه لا يجوز علىٰ جميعهم جَهْلُ التأويل».

تحريفاتُ المُعطِّلة طعنٌ في تبليغ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للدِّين، وهذا طعنٌ فيهم وطعنٌ في الله الذي اصطفاهم لتبليغ الدِّين، فالدِّين ما أَدَّاه إلينا الصحابة، وليس هو ما خالفَ إجماعهم من تحريفات المعطلة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصول السنَّة عندنا: التمسُّكُ بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وتَرْكُ البدع».

---

(١) منازل الأئمة الأربعة (ص٩١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٣١٤).

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٦٠هـ)[١]: «إنّ أهل الحق يصفون الله بما وَصَف به نفسه عَزَّ وَجَلَّ، وبما وَصَفه به رسول الله ﷺ، وبما وصَفَهُ به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذا مذهب العلماء ممَّن اتَّبَعَ، ولمْ يَبْتَدِعْ».

فنصوصُ الوحي بيانٌ، فقولُ المعتزلة والأشاعرة: إنّ نصوص الوحي في أخبار الله عن أسمائه وصفاته لم يُقصد بها ظاهرها، وأنّ لها تأويلات تخالف ما دلَّت عليه ألفاظها، ظاهر البطلان؛ فإنّ الله أَكْمَلَ الدِّين ببيان نبيه ﷺ، ولم يُحوِجِ الأُمَّة إلىٰ تحريفات الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الكُلَّابِيَّة والأشاعرة والمَاتُرِيدِيَّة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «إذا بَلَغَكَ عن رسولِ الله ﷺ حديثٌ فلا تَظُنَّنَّ غيره؛ فإنَّ محمدًا ﷺ كان مُبَلِّغًا عن ربِّه».

والأوزاعي هو من أتباع التابعين، تلقَّىٰ عقيدته عن التابعين عن إجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله في السماء، ونؤمن بما وردت السُّنَّة به من صفاته»، رواه البيهقي في الأسماء والصفات[٣].

---

(١) الشريعة (٢/ ١٠٥١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٧٨- رقم ٧٣٤).

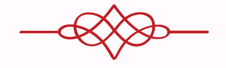
(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (إسناده صحيح)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٧).

فالنبيُّ ﷺ والصحابة رضي الله عنهم والتابعون لم يتكلموا بنفي صفات الله جل وعلا، فكان اعتقادهم الإيمان بحقائقها على ظاهرها، قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله(١): «إنّ مَن مَضَىٰ من الأُمَّة لَمْ يزالوا يقولون في ذلك كما قال الله جل وعلا، لا يَعْرِفون له تأويلًا غير ما يُتْلَىٰ من ظاهره».

فالحاصلُ: أنّ تأويلات المعطلة النافية لصفات الله جل وعلا إلحادٌ في آيات الله وتحريفٌ لمعانيها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠].

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «تأويلُ التحريف من جِنْسِ الإلحاد؛ فإنّه هو المَيل بالنصوص عمَّا هي عليه: إمَّا بالطعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها.

وكذلك الإلحاد في أسماء الله، تارةً يكون بجحد معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها، فالتأويل الباطل هو إلحادٌ وتحريفٌ وإن سمَّاه أصحابه تحقيقًا وعرفانًا وتأويلًا».



(١) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص١٥٤).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧).


قال المصنف رحمه الله:

ومَن لمْ يَعْرِف هذا اضطربت أقواله، مثل: طائفة يقولون: إن التأويل باطِلٌ، وإنه يجب إجراء اللفظ علىٰ ظاهره؛ ويحتجون بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويحتجون بهذه الآية علىٰ إبطال التأويل.

وهذا تناقُضٌ منهم؛ لأن هذه الآية تقتضي أن هناك تأويلًا لا يَعْلمه إلا الله، وهم ينفون التأويل مطلقًا.

وجهةُ الغَلَطِ: أن التأويل الذي استأثر الله بعلمه هو الحقيقة التي لا يَعْلمها إلا هو، وأمَّا التأويل المذموم والباطل فهو تأويلُ أهلِ التحريف والبدع، الذين يتأوَّلونه علىٰ غير تأويله، ويدَّعُون صَرْفَ اللفظ عن مدلوله إلىٰ غير مدلوله بغيرِ دليلٍ يُوجِبُ ذلك، ويدَّعون أنَّ في ظاهره من المحذور ما هو نظيرُ المحذورِ اللازم فيما أَثْبَتُوه بالعقل! ويَصْرِفُونه إلىٰ معانٍ هي نظير المعاني التي نَفَوْهَا عنه! فيكون ما نَفَوْهُ من جنسِ ما أَثْبَتُوه، فإن كان الثابت حقًّا ممكنًا كان المنفي مثله، وإن كان المنفي باطلًا ممتنعًا كان الثابت مثله.

وهؤلاء الذين ينفون التأويل مطلقًا، ويحتجون بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قد يظنون أنَّا خُوطبنا في القرآن بما لا يَفْهَمه أَحَدٌ، أو بما لا معنىٰ له، أو بما لا يُفهم منه شيء.

وهذا مع أنه باطِلٌ فهو مُتناقِضٌ؛ لأنَّا إذا لمْ نفهم منه شيئًا لمْ يَجُزْ أن نقول: له تأويل يخالف الظاهر ولا يوافقه، لإمكان أن يكون له معنىً صحيح، وذلك المعنىٰ الصحيح لا يخالف الظاهر المعلوم لنا، فإنه لا ظاهر له علىٰ قولهم، فلا تكون دلالته علىٰ ذلك المعنىٰ دلالة علىٰ خلاف الظاهر فلا يكون تأويلًا.

ولا يَجُوزُ نَفْيُ دلالته علىٰ معانٍ لا نَعْرِفها علىٰ هذا التقدير، فإنَّ تلك المعاني التي دلَّت عليها قد لا نكون عارفين بها، ولأنّا إذا لم نفهم اللفظ ومدلوله المراد، فلَأَنْ لا نَعْرِف المعاني التي لمْ يدلَّ عليها اللفظ أَوْلَىٰ؛ لأن إشعار اللفظ بما يُراد به أقوىٰ من إشعاره بما لا يُراد به، فإذا كان اللفظ لا إشعار له بمعنىٰ من المعاني، ولا يُفهم منه معنىٰ أصلًا، لم يكن مُشعِرًا بما أُريد به، فلأَنْ لا يكون مُشْعِرًا بما لَمْ يُرَدْ به أَولىٰ.

فلا يَجُوز أنْ يُقال: إن هذا اللفظ متأوّل، بمعنىٰ أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح، فضلًا عن أن يُقال: إن هذا التأويل لا يَعْلمه إلا الله، اللهم إلا أن يُراد بالتأويل ما يخالف الظاهر المختص بالمخلوقين، فلا رَيْبَ أنَّ مَن أراد بالظاهر هذا فلا بُدَّ أن يكون له تأويلٌ يخالف ظاهره[1].



الشَّرْح

التأويلُ في اصطلاح الشرع: يُطلق علىٰ حقيقةِ ما يَؤُول إليه الشيء، كقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يعني: ما ينتظر المُكذِّبون لحقائق ما أَخْبَرتْ به الرُّسُلُ عن اليوم الآخر، إلَّا رؤية ما أَخْبَرتْ به الرسل، فيَوَدُّون حينها الرجوع إلىٰ الدنيا لعلهم يعملون صالحًا.

ويُطلق التأويل في اصطلاح الشرع: علىٰ التفسير، فقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وقال: «اللهم فَقِّهْهُ في الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل»، أي: التفسير.

(١) التدمرية (ص١١٢-١١٥).

ويُطلق التأويل في اصطلاح الشرع: علىٰ ما اختص الله بعلمه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، فالاستواء معلوم يُعلم معناه وتفسيره ويُترجم بلغة أخرىٰ، وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يَعْلَمه إلا الله تعالىٰ».

وفي اصطلاح الناس تجد منهم مَن يستعمل لَفْظ (التأويل) علىٰ تفويض المعنىٰ.

وتفويض معنىٰ القرآن، إبطالٌ لحجيته، فالله جَلَّ جَلَالُهُ مُنزَّه عن أن يخاطب خَلْقَهُ بما لا يعقلون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إذا كان اللفظ لا إشعار له بمعنىٰ من المعاني، ولا يُفهم منه معنىٰ أصلًا، لم يكن مُشْعِرًا بما أُريد به».

والقول بنفي ما وَصَف الله به نفسه وتفويض معناه، من أعظم ما يكون من صدِّ القلوب عن الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وهو إبطالٌ لألوهية العظيم، فمَن لم يَعْرِف الله بصفاته كيف يتألَّه له محبةً ورغبةً ورهبةً وتعظيمًا وإجلالًا؟!

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٩٠).

(٢) التدمرية (ص١١٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الدعاء هو ذِكرٌ للمدعو سبحانه، متضمِّن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أفترىٰ الإيمان يزداد بمُجرَّد لفظٍ لا يُفقه معناه، وإذا فُقه معناه لا يزداد الإيمان بذلك».

وذَكَر شيخ الإسلام أنّ من العلماء مَن يستعمل لَفْظ (التأويل) بمعنىٰ صَرْف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح.

وصرفُ اللفظ عن أَحد الاحتمالين لا بُدَّ له من دليلٍ يدلُّ عليه من: ألفاظ القرآن، وتفسير النبي ﷺ، وفَهْم الصحابة.

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومَن تبعهم بإحسان لم يتوهَّموا في ظاهر نصوص الوحي محذورًا، خصوصًا نصوص صفات الله، فلذلك أَمَرُّوها كما جاءت، ولم ينفوا ظاهر دلالتها.

والقرائن اللفظية في نصوص الصفات دالَّةٌ علىٰ حقيقة ظاهرها، وبطلان تحريفات المتأوِّلين لها.

فدلالة ألفاظ الوحي، وبيانُ النبي ﷺ، وفَهْم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يُبيِّن المعنىٰ الحق الذي دلَّ عليه ظاهرُ خطاب الوحي من المعنىٰ الممتنع.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٤٨).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٣٣٣).

وذَكَر شيخ الإسلام أن من العلماء مَن يستعمل لَفْظ (التأويل) بمعنىٰ الظاهر المقصود، لا الفهم المغلوط المتوهَّم من ظاهر اللفظ، حيث قال شيخ الإسلام[(١)]: «إلا أنْ يُراد بالتأويل ما يخالف الظاهر المختص بالمخلوقين، فلا رَيْبَ أنّ مَن أراد بالظاهر هذا فلا بُدَّ أنْ يكون له تأويلٌ يخالف ظاهره».

فليس فيما وَصَف الله ﷻ به نفسه تمثيلٌ له بخَلقه، فهذا ظاهِرٌ غيرُ مرادٍ، بل هو مُحالٌ، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مَن قال: إنّ مذهب السلف: أنّ هذا غيرُ مرادٍ، فقد أصاب في المعنىٰ، لكن أخطأ في إطلاق القول بأنَّ هذا هو ظاهر الآيات والأحاديث؛ فإنَّ هذا هو المحال، ليس هو الأظهر».

والله ﷻ -كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «وَصَف نفسه فأبلغ»[(٣)]، ولذلك اتفقت كلمة السلف علىٰ فهمِ معاني أسماء الله وصفاته علىٰ ظاهرِ ألفاظها، فكانت كلمة السلف متَّفقة في نصوص الوحي في أسماء الله وصفاته: «أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ».



(١) التدمرية (ص١١٥).
(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٥٢٨، ٥٢٩).
(٣) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٣٧٥).

قال المصنف رحمه الله:

لكن إذا قال هؤلاء: إنه ليس لها تأويلٌ يخالف الظاهر، أو إنها تجري على المعاني الظاهرة منها، كانوا متناقضين. وإنْ أرادوا بالظاهر هنا معنىً وهنا معنىً في سياقٍ واحد من غير بيانٍ كان تلبيسًا، وإنْ أرادوا بالظاهر مجرَّد اللفظ، أيْ: تجرىٰ علىٰ مجرَّد اللفظ الذي يظهر من غيرِ فهمٍ لمعناه، كان إبطالهم للتأويل أو إثباته تناقضًا؛ لأن مَن أَثْبتَ تأويلًا أو نفاه فقد فَهِمَ منه معنىً من المعاني.

وبهذا التقسيم يَتبيَّن تناقُضُ كثيرٍ من الناس من نُفاة الصفات ومُثْبِتيها في هذا الباب[١].

الشَّرح

أنكرَ شيخ الإسلام هنا علىٰ مَن سمَّىٰ تفسيره الباطل لألفاظ الوحي تأويلًا، وأنكرَ علىٰ مَن يسمِّي تفويض معاني الألفاظ تأويلًا.

وأنكرَ شيخ الإسلام علىٰ المتأوِّل المضطرب؛ وهو مَن يُفسِّر اللفظ الواحد في السياق الواحد بمعانٍ مختلفة.

وظاهرُ اللفظ هو ما دلَّ عليه اللفظُ في سياقه، وتأويلات المبتدعين المخالفين لفهم الصحابة هي تحريفٌ للكلم عن مواضعه، وليست هي من معاني ظاهر ألفاظ الوحي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كان السلف ينكرون التأويلات التي

(١) التدمرية (ص١١٥، ١١٦).
(٢) الصفدية (١/ ٢٩١).

تُخرِج الكلام عن مراد الله ورسوله، التي هي من نوعِ تحريفِ الكلم عن مواضعه، فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل».

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «آمنتُ بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنتُ برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ».

ومرادُ الله بينّه النبيُّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنّ النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بَيَّنَ لهم ألفاظه، فقوله تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا وهذا».

ومرادُ رسول الله ﷺ بينّه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حيث بلَّغوا لنا معاني القرآن، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حفظوا للأمَّة معاني القرآن كما حفظوا ألفاظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالقرآن تلقَّىٰ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معانيه من النبي ﷺ مباشرةً، وأَدَّوه إلىٰ الأمَّة، قال التابعي أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي: حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن- عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم-: أنّهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلَّمنا القرآن، والعلم والعمل جميعًا، رواه أحمد بإسنادٍ صحيح.

(١) لمعة الاعتقاد (ص١٦٨).
(٢) مقدمة في أصول التفسير بشرح العلّامة العثيمين (ص٢١).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عَرضتُ المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث مرات، أُوقِفه عند كل آية.

فتفسيرُ ألفاظِ القرآن والسُّنة لا بُدَّ أن يكون بما يقتضيه اللفظُ، وما يُعَيِّنه السياقُ، ويُؤكِّده فَهْمُ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ دِينهم واعتقادُهم فُرقانٌ، وهذا المعيار جَعَلَه النبي ﷺ ميزانًا في معرفة الحقِّ من الباطل، والهدىٰ من الضلالة، والسُّنة من البدعة، والفهم الصحيح من الباطل للقرآن؛ فإنّ النبي ﷺ قال: «ستفترق أُمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين فِرقة، كلُّها في النَّار، إلا ما أنا عليه وأصحابي»[(١)].

فمِنَ الفرض اللازم والإحسان الواجب: اتّباع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فيما تلقَّوه من الدِّين عن رسول ربِّ العالمين، خصوصًا معاني القرآن وتفسيره، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ تأويل مَن تأوَّل القرآن بلا سُنةٍ تدلُّ علىٰ معناها أو معنىٰ ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أثرٍ عن أصحاب الرسول ﷺ، فهذا تأويلُ أهلِ البدع».



(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد»، مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٥).

(٢) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

قال المصنف رحمه الله:

القاعدة السادسة: أنّ لقائلٍ أنْ يقول: لا بُدَّ في هذا الباب من ضابطٍ يُعرف به ما يَجُوز علىٰ الله سبحانه وتعالى ممَّا لا يجوز في النفي والإثبات؛ إذ الاعتماد في هذا الباب علىٰ مُجرَّد نفي التشبيه أو مُطْلَق الإثبات من غير تشبيهٍ ليس بسديد، وذلك أنه ما من شيئين إلا وبينهما قدْرٌ مشترك وقدْرٌ مُميّز.

فالنافي إنِ اعتمد فيما ينفيه علىٰ أنَّ هذا تشبيه، قيل له: إنْ أردتَ أنه مماثل له من كل وجهٍ فهذا باطلٌ، وإنْ أردتَ أنه مشابه له من وجهٍ دون وجهٍ، أو مشارِك له في الاسم، لزمك هذا في سائر ما تُثْبته، وأنتم إنما أَقَمْتُم الدليل علىٰ إبطال التشبيه والتماثل، الذي فَسَّرتموه بأنه يجوز علىٰ أحدهما ما يجوز علىٰ الآخَر، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، ويجب له ما يجب له.

ومعلومٌ أنَّ إثبات التشبيه بهذا التفسير ممَّا لا يقوله عاقِلٌ يتصوَّر ما يقول، فإنه يُعلم بضرورة العقل امتناعُه، ولا يلزم من نَفْيِ هذا نَفْيُ التشابه من بعض الوجوه، كما في الأسماء والصفات المتواطئة[1].

الشَّرْح

المنهج المعتمد في الإثبات والنفي هو: إثبات ما أَثْبَتَهُ اللهُ جل وعلا لنفسه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه؛ فإن الله جل وعلا موصوف بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، واللهُ جل وعلا منزَّه عن النقائص، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

---

(١) التدمرية (ص١١٦، ١١٧).

وأهلُ السُّنة والجماعة نزَّهوا اللهَ عن النقائص وعن مماثلة المخلوقين، وعظَّموا الله ﷻ بإثبات صفاتِ كمالِهِ، والمُعطِّلة النافية قانونهم العقلي الضَّالّ الذي اتخذوه طريقًا لتكذيب ما أخبر الله به عن نفسه من صفات الكمال: زَعْمُهم أنّ الصفات لا تقوم إلا بالأجسام، والأجسام متماثلة، هكذا زعموا.

واللهُ ﷻ موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة به، وليس فيما وَصَف الله به نفسه محذورًا ولا تشبيهًا له بخَلقه، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقانون المُعطِّلة العقلي باطلٌ، مخالِفٌ للمنقول والمعقول والمحسوس، فليست الأجسام متماثلةً.

واللهُ ﷻ صفاته مختصة به، تليق بعظمته، وهذا ينفي تشبيه الخالق بالمخلوق.

وإثبات صفات الكمال لرب العالمين، هو إثباتٌ لحقيقة ألوهيته التي كان بها إله الحق، ومَن لم يَعْرِف الله بصفاته كيف يعبده؟!

فقوانين المُعطِّلة عقليَّاتٌ ضالَّة، تخالف صحيح المنقول وصريح المعقول، فاحذرها!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّ هؤلاء الذين يدَّعون العقليات التي تُعارِضُ السَّمْعِيَّات، هُمْ من أبعد الناس عن متابعة الكتاب المنزّل والنبي المرسَل، وأنّ نفس ما به يقدحون في أدلة الحق التي توافق ما جاء به الرسول ﷺ، لو قدحوا

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٢٦).

به فيما يُعارض ما جاء به الرسول ﷺ لسَلِمُوا عن التناقض، وصحَّ نظرُهم وعقلُهم واستدلالُهم، ومعارضتهم صحيح المنقول وصريح المعقول بالشبهات الفاسدة».

وبيّن شيخ الإسلام ما يدفع أوهام تشبيه الله بخَلقه، حيث قال[(١)]: «ما من شيئين إلا وبينهما قدْرٌ مشترَك وقدْرٌ مُميّز».

فالاشتراك اللفظي للأسماء، إضافة الاسم إلىٰ مُسَمَّاه يدلُّ علىٰ أنّ صفته مختصة به، لا تُماثِلُ غيره من الأسماء في حقائق مسمياتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ هذه الألفاظ مُجْمَلَة، فنقول: هما مشتبهان مشتركان في وجوب الوجود، كما أنّ كل متفقين في اسمٍ متواطئ بالمعنىٰ العامِّ، سواءٌ كان متماثلًا وهو التواطؤ الخاصُّ، أو مشككًا وهو المقابل للتواطؤ الخاصِّ، كالموجودين، والحيوانين، والإنسانين، والسوادين، اشتركا في مسمَّىٰ اللفظ الشامل لهما، مع أنّ كلًّا منهما متميّز في الخارج عن الآخَر من كلِّ وجهٍ، فهما لم يشتركا في أمرٍ يختص بأحدهما، بل وجود هذا يخصّه، ووجود هذا يخصّه؛ وإنما اشتركا في مطلق الوجود.

والوجود المُطْلَق المشترك الكلي لا يكون كليًّا لا في هذا ولا في هذا، بل هو كليٌّ في الأذهان، مختصٌّ في الأعيان».

فمَنْشَأُ ضَلالِ المعطلة تَوهُّمهم أنّ اتفاق الأسماء يستلزم اتفاق المُسَمَّيات، لذلك نفوا صفات الله؛ حَذرًا من التشبيه الذي توهَّمُوه.

---

(١) التدمرية (ص١١٦).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

ويجب علىٰ طالب العلم: ملاحظة استعمال المُتكلِّمِين لمعاني ما يقصدونه بنفي التشبيه، فمَن أراد منهم نفي مماثلة الله لخَلقه كان قوله صوابًا، ومَن أراد نفي حقيقة صفات الكمال لله كان مُبْطِلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لو قال الرَّجُل: هو حيٌّ لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين، وعليم لا كالعلماء، وسميع لا كالسمعاء، وبصير لا كالبصراء، ونحو ذلك، وأراد بذلك نفي خصائص المخلوقين، فقد أصاب.

وإنْ أراد نفي الحقيقة التي للحياة والعلم والقدرة ونحو ذلك، مثل: أنْ يُثْبِتَ الألفاظ وينفي المعنىٰ الذي أَثْبَتَهُ الله لنفسه، وهو من صفات كماله، فقد أخطأ».



(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ١٤٧).


قال المصنف رحمه الله:

ولكن من الناس مَن يجعل التشبيه مُفسّرًا بمعنىٰ من المعاني، ثُمَّ إنَّ كلَّ مَن أثبت ذلك المعنىٰ قالوا: إنه مُشبِّه. ومنازعهم يقول: ذلك المعنىٰ ليس هو من التشبيه.

وقد يفرَّق بين لفظِ «التشبيه» و«التمثيل»؛ وذلك أن المعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات يقولون: كلُّ مَن أثبتَ لله صفةً قديمة فهو مشبِّه ممثِّل، فمَن قال: إن لله علمًا قديمًا، أو قدرة قديمة، كان عندهم مشبهًا ممثلًا؛ لأنَّ «القِدم» عند جمهورهم هو أخصُّ وصفِ الإله، فمَن أثبتَ لله صفةً قديمة فقد أثبتَ له مِثْلًا قديمًا، ويُسمُّونه ممثلًا بهذا الاعتبار.

ومُثْبِتَةُ الصفات لا يوافقونهم علىٰ هذا، بل يقولون: أخصُّ وَصْفِه حقيقة ما لا يتصف به غيره، مثل: كونه رب العالمين، وأنه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه إلهٌ واحد ونحو ذلك، والصفة لا تُوصف بشيء من ذلك[١].

الشَّرح

نَفَىٰ الله ﷻ عن نفسه أن يكون له شريكٌ، أو نظير، أو سَمِيٌّ، أو كُفؤ، وهو لا كفؤ له؛ لكمال صفاته، فهو أَحَدٌ صَمَدٌ، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

أمَّا المُعطِّلة فاستخدموا لفظ (التشبيه)، و(التمثيل) ليُكذِّبوا ما أخبرنا الله ﷻ عن صفاته.

---

(١) التدمرية (ص١١٧، ١١٨).

فالواجب على المسلم: استعمال الألفاظ الشرعية الواردة في القرآن والسُّنة في معانيها الصحيحة، وكَشْف ما في اصطلاحات المبتدعة من الإجمال والاستعمال لها لإبطال ما دلَّ عليه القرآن والسُّنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الطريق إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ: أنْ تَعْرِفَ ألفاظه الصحيحة، وما فَسَّرها به الذين تلقوا عنه اللفظ والمعنى، ولغتهم التي كانوا يتخاطبون بها، وما حدث من العبارات، وتَغيّر من الاصطلاحات».

فالمؤمن بالله ﷻ يتلقَّى عقيدته من القرآن والسُّنة، ولا يُبطِلُ حقائق ما أخبر الله به عن نفسه، ولا يُكذب ذلك لاصطلاحاتٍ وعباراتٍ مُجمَلَة وقواعد عقلية باطلة استعملها المبتدعون لمعانٍ باطلة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنه لا يستقرُّ للعبدِ قَدَمٌ في الإسلام حتى يعقد قلبه على أنّ الدِّين كله لله، وأنّ الهُدَىٰ هُدَىٰ الله، وأنّ الحق دائر مع رسول الله ﷺ وجودًا وعدمًا، وأنّه لا مُطاعَ سِوَاهُ ولا مَتْبوعَ غيره، وأنّ كلامَ غيرِه يُعرض على كلامه فإنْ وافقه قَبِلْنَاهُ، لا لأنه قاله، بل لأنه أخبر به عن الله تعالى ورسوله، وإنْ خالفه رَدَدْنَاه».

وانظر إلى فَرْقِ ما بين عقيدة السلف الذين اهتدوا بالقرآن والسُّنة واتباع السابقين الأوَّلِين بإحسان، وعقيدة المُعطِّلة الذين أخذوا ضلالاتهم عن الجعد بن

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٧٣).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٥٠).

درهم عن اليهود، فالسلف آمَنُوا وصَدَّقُوا بأخبار الوحي في صفات الله وأَمَرُّوها كما جاءت، والمُعطِّلة كذَّبوا بما أخبر الله به عن نفسه.

فالمُعطِّلة النافية صَدّوا عن تصديق أخبار الله عن نفسه، وشَنَّعوا علىٰ مَن آمَنَ بالوحي وصَدَّق به، بوصفه بأنّه مُشَبِّه ومُجَسِّم، واستعملوا من ألفاظهم المُجْمَلَة المُبتدَعَة ما كان سببًا لتضليل الخَلق عن إثبات ما وَصَف الله به نفسه، فقالوا: إنّ الله مُنزَّه عن الأعراض والتجسيم والتشبيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أهل السُّنة هم الذين كشفوا زَيْفَ هذه الألفاظ، وبَيَّنوا زُخْرُفَها وزَغَلَها، وأنّها ألفاظٌ مُمَوَّهَةٌ، بمنزلة طعامٍ طيب الرائحة في إناءٍ حَسَنِ اللون والشكل، ولكنَّ الطعامَ مسمومٌ، فقالوا ما قاله إمامُ أهلِ السُّنة أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نزيل عن الله صفةً من صفاته لأَجْلِ شناعةِ المُشَنِّعِين»».

وأمَّا بالنسبة لأخصِّ صفات الله فهو ﴿ٱللَّهُ﴾، فكلُّ معاني أسماء الله وصفاته ترجع إلىٰ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أنّ اسمَهُ «الله» مستلزِمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنىٰ تفصيلٌ وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتُقّ منها اسمُ «الله»، واسمُ «الله» دالٌّ علىٰ كونه مألوهًا معبودًا، تَأْلَهُهُ الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المُتَضَمِّنَين لكمال المُلك والحمد.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٧٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤).

وإلهيته وربوبيته ورحمانيته ومُلكُه مستلزِمٌ لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمَن ليس بحيٍّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعَّال لِمَا يريد، ولا حكيم في أفعاله».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الله هو ذو الألوهية، والألوهية التي هي وَصْفُه هي الوصف العظيم الذي استحق أن يكون بها إلهًا، بل استحق أن لا يشاركه في هذا الوصف العظيم مشارِكٌ بوجهٍ من الوجوه.

وأوصاف الألوهية هي جميع أوصاف الكمال، وأوصاف الجلال والعظمة والجمال، وأوصاف الرحمة والبرِّ والكرم والامتنان. فإنَّ هذه الصفات هي التي يستحق أن يُؤله ويُعبد لأَجْلِها».

وتَضمَّنتْ سورةُ الفاتحة أُمُّ القرآن أصولَ أسماءِ الله الحسنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنىٰ، وهي اسمُ: الله، والربِّ، والرحمن، فاسمُ اللهِ متضمِّنٌ لصفات الألوهيَّة، واسم الربِّ متضمِّنٌ لصفات الربوبيَّة، واسم الرحمن متضمِّنٌ لصفات الإحسان والجود والبرِّ، ومعاني أسمائه تدور علىٰ هذا».

وأخصُّ صفاتِ الله أنّه ﴿أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]، فالأحدية تنفي عنه الشريك والنظير والشبيه، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] هو

(١) فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتّوحيد (ص١٩، ٢٠).
(٢) الفوائد (ص٢٦).

الموصوف بكل صفات الكمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «اسمه «الأحد» دلَّ علىٰ نفي المشاركة والمماثلة، واسمه «الصمد» دلَّ علىٰ أنّه مستحق لجميع صفات الكمال».

أخصُّ صفاتِ الله هو اسمه الأعظم ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعنىٰ الاسم الأعظم: أن معاني أسماء الله وصفاته كلها ترجع إليه.

عن أسماء بنت يزيد بن السكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]: «إنّ فيهما اسم الله الأعظم»، رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: «حَسَنٌ صحيح».

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الحيُّ يتضمن جميع الصفات الذاتية، والقَيُّوم الذي قام بنفسه واستغنىٰ عن جميع المخلوقات، وقام بها فأوجدها وأبقاها وأَمَدَّها بكل ما تحتاج إليه في بقائها.

فالقيوم يتضمن جميع صفات الأفعال، ولهذا وَرَد أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطىٰ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فإنّ هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما جميع الكمالات الذاتية والفعلية».

أخصُّ صفاتِ الله جَلَّ وَعَلَا أنه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ وذلك لأنّ الله محمودٌ لذاته لكمال أوصافه، ومحمود لكمال أفعاله.

(١) تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٢٥٧).
(٢) تيسير اللطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٢٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «حَمْده الذي هو أعم المعارف، وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونُعوت جلاله، مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود علىٰ كلِّ حالٍ، وعلىٰ كل ما خَلَقه وشَرَعه».

وكان النبي ﷺ في حَجِّه يُهِلُّ بالتوحيد -كما قال الصحابة-، ويقول: «لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلك، لا شريكَ لكَ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فهذا توحيد الرسول ﷺ، المتضمن لإثبات صفات الكمال التي يستحق عليها الحمد، ولإثبات الأفعال التي يستحق بها أن يكون منعمًا، ولإثبات القدرة والمشيئة والإرادة والتصرف والغضب والرضىٰ والغِنَىٰ والجُود الذي هو حقيقةُ مُلكِه».

أخصُّ صفاتِ الله ﷻ عُلُوُّه ومُبايَنته لخَلقه، فقد سأل النبيُّ ﷺ جاريةَ معاوية بن الحَكَم السُّلَمِي: «أين الله؟» قالت: في السماء، وقال لها: «مَن أنا؟» قالت: رسول الله، فقال النبي ﷺ لمعاوية السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَعْتِقْها؛ فإنها مؤمنة»، رواه مسلم.

وسُئل عبد الله بن المبارك: بِمَ نَعرِف ربنا؟ فقال: إنه بائنٌ من خَلقه، مُستوٍ علىٰ عرشه.

أخصُّ صفاتِ الله ﷻ أنّه ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾، وأخصُّ صفات المخلوق أنه ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

(١) بدائع الفوائد (١/ ٧٩).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٣٣).

فالمخلوق ليس به غنىٰ عن ربه طَرفةَ عينٍ، وحاجته إلىٰ ربه إيجادًا وإمدادًا وحفظًا ورزقًا وتدبيرًا ضرورية.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «إنّ غِناهُ من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا رازقًا محسنًا جَوادًا كريمًا رحيمًا، فلا يكون إلا غنيًّا عن الخَلق لا يحتاج إليهم بشيء من الأشياء، بل هم الفقراء إليه في جميع أمورهم، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره طرفةَ عينٍ.

ومن كمالِ غِناهُ: أنّ خزائن السماوات والأرض بيده، وأنّ جُودَهُ علىٰ خَلقِه متواصِل في جميع اللحظات والأنفاس، وأنّ يديه سَحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفقَ منذُ خَلَق السماوات والأرض؛ فإنه لمْ يَغِضْ ما في يمينه.

ومن كمال غناه: أن يدعو عِبادَهُ إلىٰ سُؤَالِه، ويَعِدَهم بالإجابة، ويُؤْتِيهم من كل ما سألوه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن كمال غناه: أنّه لو اجتمع أهل السماوات والأرض، وأولُ الخَلقِ وآخِرهم وإنسهم وجِنّهم في صعيدٍ واحِدٍ، فسأله كلُّ واحدٍ منهم ما بلغتْ أمنيته، ما نَقصَ ذلك من مُلكِه شيئًا.

ومن كمال غناه وسَعَة عطاياه: ما يبسطه علىٰ أهلِ دارِ كرامته من اللذات المتتابعات والشهوات المتواصلات، ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر علىٰ قلبِ بشرٍ، فهو الغني بذاته، المغني لجميع مخلوقاته.

---

(١) التوضيح لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٦٥، ٦٦).

ومن غناه: أنّه لمْ يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ولا مُعِينًا، قال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، تبارك وتعالى وتقدَّس».

أخصُّ صفاتِ الله ﷻ: أنّه موصوف بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ومن كمالِ الله ﷻ وأخصِّ أوصافه: أنّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «فنفى سبحانه وتعالى المَثل عن هذا المَثل الأعلىٰ، وهو ما في قلوب أهل سماواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته.

فهذا المَثلُ الأعلىٰ هو الذي آمَنَ به المؤمنون، وأنسَ به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المُكمّلة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتَّفق علىٰ الشهادة بثبوته: العقلُ، والسمع، والفطرة.

فإذا قال المُثبِتُ: يا الله، قام بقلبه ربٌّ قَيُّومٌ قائمٌ بنفسه، مستوٍ علىٰ عرشه، مُكَلِّمٌ، مُتكلِّم، سامع، قدير، مريد، فعَّال لِمَا يريد، يسمع دعاء الدَّاعِين، ويقضي حاجات السائلين، ويُفَرِّج عن المَكْرُوبِين، تُرْضِيه الطاعات، وتُغْضِبه المعاصي، تَعْرُج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده».

---

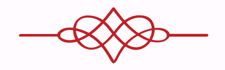
(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٧٥).

وحذَّر شيخ الإسلام من اصطلاح الجهمية واعتقادهم في أسماء الله وصفاته، حيث يثبتون ذاتًا قديمًا واحدًا، وينفون صفاته؛ لئلَّا يُثبِتُوا قدماء مع الله بزعمهم، وهذا من جهلهم حيث توَهَّمُوا أنّ صفات الواحد الأحد تستلزم تعدُّدَ الآلهة فنفوها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّما أَثْبَتُوا -أهل السُّنة- قديمًا واحدًا بصفاته، وصفاته داخلة في مُسمَّىٰ اسمه، كما أنّهم إنّما أَثْبَتُوا إلهًا واحدًا، ولم يجعلوا كل صفة من صفاته إلهًا، بل هو الإله الواحد بجميع أسمائه وصفاته».

ومن أخصِّ أوصاف العظيم: أنّه الأولُ فليس قَبْلَهُ شيء، وأنه الآخِرُ فليس بَعْدَهُ شيء، وأنّ إليه المنتهىٰ، فالله هو الحي الذي لا يموت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخِرُ الذي انتهت إليه عبودياتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراءَ اللهِ شيءٌ يُقصَد ويُعبَد ويُتألّه، كما أنّه ليس قبله شيءٌ يَخلُق ويَبْرَأ. فكما كان واحدًا في إيجادك، فاجعله واحدًا في تألُّهِكَ وعبوديتك».



(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٣٥).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٨).

قال المصنف رحمه الله:

ثُمَّ من هؤلاء الصفاتية مَن لا يقول في الصفات: إنها قديمة، بل يقول: الرب بصفاته قديم؛ ومنهم مَن يقول: هو قديم وَصِفَتُه قديمة، ولا يقول: هو وصفاته قديمان؛ ومنهم مَن يقول: هو وصفاته قديمان، ولكن يقول: ذلك لا يقتضي مشاركة الصفة له في شيءٍ من خصائصه، فإنَّ القِدم ليس من خصائص الذات المجرَّدة، بل هو من خصائص الذات الموصوفة بصفات، وإلا فالذات المجرَّدة لا وجود لها عندهم، فضلًا عن أن تختصَّ بالقِدم، وقد يقولون: الذات متصفة بالقِدم والصفات متصفة بالقِدم وليست الصفات إلهًا ولا ربًّا، كما أنَّ النبيَّ مُحدَثٌ وصفاته مُحدَثة، وليست صفاته نبيًّا[1].

الشَّرح

اللهُ ﷻ هو «الأول»، فقد كان الله ولم يكن شيء قبله، وصفاته قائمة به، وذلك توحيد، ولا يستلزم تعدُّدَ الآلهة؛ فإننا نصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

أمَّا القديم عند نفاة الصفات المعتزلة فهو الذات المجردة عن الصفات.

وعقيدة المعتزلة أنّ اللهَ ذاتٌ مجرَّدةٌ عن الصفات، ومن المعلوم أنّه يمتنع وجود ذاتٍ بلا صفات، وقد سَلكَ المعتزلة طريقة نفي الصفات ليكون واجب الوجود مباينًا للعالَم، وهذه طريقةٌ باطلة مخالفة للنقل الصحيح والعقل الصريح.

وواجبُ الوجود لا يمكن أن نصفه بما يمتنع وجوده كما يقول المعتزلة

---

(١) التدمرية (ص١١٨).

المعطلة النافية: إنّه ذاتٌ بلا صفات، بل واجبُ الوجود إنّما هو إلهٌ واحِدٌ؛ بِمَا انفردَ به من صفات الكمال ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّ القوم ينفون الشيء لمعنىٰ، ويثبتون ما هو أبلغ في إثبات ذلك المعنىٰ منه، وأنّهم من أعظم الناس تناقضًا، وأنّهم يصفون واجب الوجود بما يوجب أن يكون ممتنع الوجود، فيجمعون بين النقيضين اللذين هما في غاية التناقض؛ فإن مناقضة الوجوب للامتناع أبلغ من مناقضة الوجود للعدم».

ومن أعجب ضَلَالِ المُعطِّلة النافية: أنّ صفات الكمال لله ﷻ القائمة به التي ليس كمثلها شيء، إثباتها من أعظم ما يكون توحيدًا لله وتبيينًا لمباينته لخَلقِه، نَفَوْهَا!

فالمعطلة النفاة جعلوا «الله» الكامل في صفاته معدومًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مُبايَنَةٌ لا تُعقل بحالٍ».

والمسلمون يُثبِتُون المُبايَنة التي دلّنا الله عليها بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنّ الثابت لله هو علىٰ خلافِ ما يثبت للمخلوق؛ فإنّ هذه المخالفة هي عدم المماثلة».

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٧٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٢).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٥).

ونفيُ صفاتِ الكمال لله ﷻ تعطيلٌ يَؤُولُ إلىٰ ما يمتنع إثباته ووجوده، وكان مرقاةً إلىٰ عقيدة وحدة الوجود الإلحادية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنّه قد عُلم بالضرورة أنّ الموجود ينقسم إلىٰ واجبٍ قديم، قيّوم غني خالق، وإلىٰ ممكنٍ مُحدَثٍ مدَبَّرٍ فقير مخلوق، فلا سبيل إلىٰ جعلِ الوجود كله واحدًا واجبًا كما يقوله أهل الوحدة، ولا إلىٰ جعلِهِ كله مخلوقًا مربوبًا مُحدَثًا، كما يُذكر عن بعضهم أنّه ادّعىٰ حدوث الوجود كله بدون مُحدِث؛ فإنّ فسادَ كلٍّ من القولين من أبين العلوم الضرورية البديهية، ولهذا كان أهل الوحدة متناقضين لا يلتزمون قولهم.

وأمّا حدوثُ الوجود جميعه بدون مُحدِث، فلا تُعرف طائفة قالته؛ وإنّما يُقدّر تقديرًا ذهنيًّا كما تُقدَّر كثيرٌ من الأقوال السفسطائية؛ لتبيين بطلانها وانتفائها.

فقد تَبيَّن أنّ أقوال نفاة الصفات كقول أهل الإلحاد المعطلة للصانع، وأنّ القول الثاني قول مَن يقول بالوجود المطلق عن النفي والإثبات، هو أَحدُ قولي القَرامِطَة الباطنية. والأولُ قول القرامطة الباطنية الذين يلونهم نفاة الصفات الثبوتية الذين لا يصفونه إلا بالسلوب».

وبيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه القطعة من (الرسالة التدمرية) قاعدة المعطلة في نفي الصفات، وهي توهُّمهم أنّ إثبات الصفات يستلزم تعدُّدَ الآلهة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الجهمية النافية فإنّهم يزعمون أنّ إثبات

---

(١) الصَّفدية (٢/ ١٨).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٩٤، ٩٥).

الصفات ينافي التوحيد، ويزعمون أنّهم هم الموحدون؛ فإنّ مَن أَثْبَتَ الصفات فهو مشبِّه، ليس بموحِّد؛ وأنّه يُثبِتُ تعدُّدَ القدماء، لا يجعل القديم واحدًا فقط، فالجهمية من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم يبنون علىٰ هذا، وقد يسمّون أنفسهم المُوحِّدِين، ويجعلون نفي الصفات داخلًا في مسمىٰ التوحيد».

وقد ضلَّ المعطلة النافية الجهمية والمعتزلة في حقيقة التوحيد، وإنكار ألوهية الله ﷻ كما ضلَّ المشركون قبلهم في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

قال العلّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿قَالُوا۟﴾جحدًا وكفرًا ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بزعمهم الفاسد؛ أنّهم لا يعرفون الرحمن.

وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول: أنْ قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهًا آخَرَ، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك. كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فأسماؤه تعالىٰ كثيرة؛ لكثرة أوصافه، وتعدُّد كماله، فكلُّ واحِدٍ منها دلَّ علىٰ صفةِ كمالٍ».

والله ﷻ صفاته قائمة به، فهو أَحَدٌ موصوف بصفات الكمال، فهو صَمَدٌ، وصفاته هي لموصوفٍ واحِدٍ وهو الله؛ فإنّ الله أضاف صفاته إليه، لا لغيره، وهذا يدلُّ علىٰ اختصاصها به دون مَن سواه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فصفات الله قائمة به، قال

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٣/ ٤٤٨).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لا يجوز أن تقوم صفات الله بأنفسها، بل بموصوف».

وإثباتُ كلِّ ما وَصَف الله به نفسه توحيدٌ؛ لأنّ صفات الله جميعًا كمالٌ ليست لغيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنّما نصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «الله بجميع صفاته إلهٌ واحد».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «الصَّمَد: مَن تَصْمُد نحوه القلوبُ بالرغبة والرهبة؛ وذلك لكثرةِ خِصالِ الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له».

والله ﷻ أحدٌ صمدٌ، لا تَقْبَل ذاتُه التفريق والتبعيض[(٥)]، وهو واحد متصف بصفاتٍ تختصُّ به ليس له فيها شبيهٌ ولا كفؤ. قال تعالىٰ وهو يصف نفسه بالأحدية مع تعدُّدِ وكثرةِ صفاته: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، فابتدأ الله الآيات بذِكر تفرُّدِه بالألوهية، ثم ذَكر أنواع صفاته التي استحق أن يكون بها إلهًا، وختم بتنزيه نفسه عن

(١) منهاج السُّنة (٢/ ٥٩٨).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٩٦).
(٣) الرَّدُّ علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٤٣٩)، مطبوع مع السُّنة للخلال، المجلد الثاني.
(٤) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٢٥).
(٥) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٢٩).

الشركاء، وذَكر أنَّ أسماءه وصفاته كلها غاية في الحُسْن والكمال.

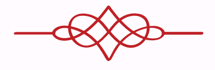
والله ﷻ موصوف بصفاته، فقولُ ابن الهيصم الكرامي: الصفة ليست إلهًا يخلق ويرزق، ليس بصواب[1]؛ فإنّ هذا يخالف المفهوم من أنّ الله ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنّ الغني الصمد، هو غنيٌّ عن مخلوقاته ومصنوعاته، لا يصحُّ أنْ يُقال: هو غنيٌّ عن نفسه وذاته -كما تقدَّم- وصفاته تعالىٰ ليست خارجة عن ذاته، فوجود الصفات والفعل بها كوجود الذات والفعل بها».

فاللهُ ﷻ أحدٌ صمدٌ، قيّوم، صفاته قائمة به، واللهُ خالق رازق، وهذه الصفات من لوازم ذاته، وألوهية الله ﷻ متحقِّقة بما له من كمالِ الصفات.

فالواجب علىٰ المسلم: تَوقِّي قواعد المتكلمين بأنواعهم، خصوصًا المعتزلة؛ فإنّ محاذرتها وتَلقِّي نصوص الوحي بالتصديق فيما أخبر الله به عن نفسه توحيدٌ؛ فإنّ الله لا يصف نفسه بما فيه محذور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنّه مَن تَوقَّاه تخلَّصتْ له السُّنةُ من البدعة، والحق من الباطل، والحجج الصحيحة من الفاسدة، ونجا من ضلال المتفلسِفين، وحيرة المتكلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٢٨).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٢٣٥).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٩٥).

قـال المصنف رحمه الله:

فهؤلاء إذا أطلقوا على الصفاتية اسم «التشبيه» و«التمثيل»، كان هذا بحسب اعتقادهم الذي ينازعهم فيه أولئك، ثم تقول لهم أولئك: هَبْ أنَّ هذا المعنى قد يُسمَّى في اصطلاح بعض الناس تشبيهًا، فهذا المعنى لمْ يَنْفِهْ عقلٌ ولا سمعٌ، وإنما الواجب نفيُ ما نفته الأدلة الشرعية والعقلية.

والقرآن قد نفى مسمَّى «المثل» و«الكُفْء» و«النِّدّ» ونحو ذلك، ولكن يقولون: الصفة في لغة العرب ليست مثل الموصوف ولا كُفْأه ولا نِدّه، فلا تدخل في النص، وأمَّا العقلُ فلمْ يَنْفِ مُسمَّى «التشبيه» في اصطلاح المعتزلة(١).

الشَّـرح

إثباتُ ما وَصَف الله ﷻ به نفسه، ليس فيه محذور، وليس هو تشبيه، فصفات الله مختصة به، تليق بعظمته، وكلُّ أسماء الله حسنى وصفاته عُلْيَا، فإثباتها توحيدٌ وثناءٌ على الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

والتوحيد العلمي هو إثبات ما أَثْبَتَهُ الوحي من أسماء الله وصفاته، وذلك يستلزم عبودية الله وحده بما له وحده من كمال الذات والصفات، فالإلهية تتضمن استحقاقه للعبادة وحده.

ومَن استعمل لفظ (التشبيه) في نفي ما أَثْبَتَهُ الله ﷻ لنفسه، فقد نفى الحق الذي أخبر الله به عن نفسه، وقال على الله بالجهل، وظلمَ في تسميته التوحيد (تشبيهًا).

(١) التدمرية (ص١١٩).

ووَصْفُ مَن أثبتَ لله ﷻ صفاته التي أخبرنا عنها بالمُشبِّه، هو أصلُ (الجهم بن صفوان) الذي أضلَّ به خَلقًا كثيرًا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «وَجَد الجهمُ ثلاثَ آياتٍ من القرآن من المتشابه: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فبنىٰ أَصْلَ كلامه علىٰ هذه الآيات، وتأوَّل القرآن علىٰ غير تأويله، وكذَّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعمَ أنَّ مَن وصفَ من اللهِ شيئًا ممَّا وصفَ به نفسه في كتابه أو حَدّث عنه رسوله ﷺ، كان كافرًا، وكان من المُشبِّهة، فأضلَّ بكلامه بشرًا كثيرًا».

والمُعطِّلة النفاة لصفات الله ﷻ عندهم أنَّ كلَّ ما هو مسمىٰ بالأسماء التي وَصَف الله بها نفسه، فإنّه متماثل، وجَهِلُوا وتجاهلوا أنّ الله مختصٌّ بصفاته التي وصف بها نفسه، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «جعلوا لله عدلًا وسَمِيًّا وكُفوًا في كل ما هو موصوف به، حتىٰ إنّ غاليتهم من الملاحدة والجهمية يقولون: كل ما يُقال له حي وعالِم وقادر فهو جنسٌ واحد متماثل، هؤلاء جعلوا لله عدلًا وسَمِيًّا وكُفوًا ونِدًّا في كل ما له من الأسماء والصفات، حتىٰ لزم من ذلك أن يكون كلُّ جسمٍ عدلًا لله ومثلًا وكفوًا حتىٰ البَقَّة والبَعُوضَة! وأن يكون كلُّ حيٍّ عَدْلًا لله وكفوًا وسميًّا، وكلُّ ذلك بناءً علىٰ أنّ كلَّ ما هو مسمىٰ بهذه الأسماء موصوف بهذه الصفات فإنّه جنسٌ واحد متماثل، وهذا من أعظمِ العدل بالله وجَعْل الأنداد لله».

---

(١) الرَّدُّ علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٤٠٨)، مطبوع مع السُّنة للخلال، المجلد الثاني.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٥٦٢، ٥٦٣).

قال المصنف رحمه الله:

وكذلك أيضًا يقولون: إن الصفات لا تقوم إلا بجسمٍ متحيّز، والأجسام متماثلة، فلو قامت به الصفات للزم أن يكون مماثلًا لسائر الأجسام، وهذا هو التشبيه[(١)].



الشَّرح

اللهُ ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خَلقِه، وهو مع ذلك قريبٌ من خَلقِه، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، فهو العظيم الذي يحيط بكل خَلقه، ولا يحيط به شيءٌ من مخلوقاته.

وقولُ المعطلة النافية: «إنّ الصفات لا تقوم إلا بجسم، والأجسام متماثلة» عقليات باطلة تخالف صحيح المنقول والحِسّ وصريح المعقول، فليست الأجسام متماثلة، والحِسّ يُكذِّب ذلك؛ فإنَّ الناسَ يشاهدون من اختلاف الأجسام ما يَعْرِفُون به كَذِبَ مَن قال: «الأجسام متماثلة».

ولا أضلَّ ممَّن كذَّب بما أخبر الله به عن نفسه، لعقليات الرافضة والمعتزلة الكاذبة الخاطئة.

وأولُ مَن أظهرَ الكلام بلفظ «الجسم» هو هشام بن الحكم الرافضي[(٢)].

واللهُ ﷻ إنما نصفه بما أخبرنا به عن نفسه، ولفظُ (الجسم) مُجمَلٌ ليس من ألفاظ الوحي، واستعمله المبتدعة لمعانٍ باطلة، فالواجبُ: الاعتصام بألفاظ القرآن والسُّنة، وتبيين الحق بنصوص الوحي ومعانيه.

---

(١) التدمرية (ص١١٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٠٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «القول الثابت عن أئمة السُّنة المحضة كالإمام أحمد وذَوِيه، فلا يُطلِقُون لَفْظَ الجسم لا نفيًا ولا إثباتًا، لوجهين:

أحدهما: أنّه ليس مأثورًا لا في كتابٍ، ولا سُنَّةٍ، ولا أثرٍ عن أَحَدٍ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا غيرهم من أئمة المسلمين، فصار من البدع المذمومة.

الثاني: أنّ معناه يدخل فيه حقٌّ وباطِلٌ، فالذين أَثْبتوه أدخلوا فيه من النقص والتمثيل ما هو باطِلٌ، والذي نفوه أدخلوا فيه من التعطيل والتحريف ما هو باطلٌ».

والله ﷻ صفاته قائمة به، وبذلك كان إلهًا واحدًا، ولا نُسَمِّيه ولا نصفه إلا بما وَصَف به نفسه، لذلك لا نقول عنه: إنّه (مُتحيِّز)، وهو سبحانه بائنٌ من خَلقه، مستوٍ علىٰ عرشه، لا يُحاط به، فهو العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يُقال: ما تعني بقولك: «متحيِّزًا»؟ أتعني به: ما كان له حَيِّزٌ موجود يحيط به؟ أَمْ تعني به: ما يقدِّر المقدِّر له حَيِّزًا عدميًّا، أو ما كان منحازًا عن غيره؟

فإنْ عَنَيْتَ الأول كان باطلًا متناقضًا؛ فإنّ الأجسام: إن كانت متناهية لم تكن في حيِّزٍ وجودي؛ فإنّها إذا كانت متناهية، لو كانت في حيِّزٍ وجودي، لزم أن يكون الجسم في جسمٍ آخر إلىٰ ما لا يتناهىٰ، ولزم وجودُ أبعاد لا تتناهىٰ؛ وإن كانت غير متناهية امتنع كون ما لا يتناهىٰ في حيِّزٍ وجودي؛ لأنّ ذلك الحيز هو أيضًا داخِلٌ فيما لا يتناهىٰ. فهذا جوابٌ برهاني.

(١) منهاج السنة (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٨٠، ٨١).

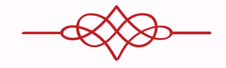
والجواب الإلزامي: أنّ قولك: كل موصوف يحيط به حيِّزٌ وجودي يستلزم وجود أجسام لا تتناهىٰ، وهذا باطلٌ عندك؛ فإنّ العالَم مُتحيِّز موصوف وليس في حيزٍ وجودي.

وإنْ قلتَ: أعني به: أمرًا عدميًّا.

قيل لكَ: العدم لا شيء، وما جُعل في لا شيء لم يُجعل في شيء.

فكأنكَ قلتَ: المتحيِّز ليس في غيره، وحينئذٍ فلا نُسلِّم لكَ امتناع كون الرب متحيِّزًا بهذا الاعتبار».

فالواجبُ علىٰ المسلم: إثبات ما أَثْبَتَ الله لنفسه، وتصديق ما أخبر الله به عن نفسه فليس ذلك مُحالٌ، وليس فيه محذور.




قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك يقول هذا كثير من الصفاتية الذين يثبتون الصفات وينفون عُلُوَّه علىٰ العرش وقيام الأفعال الاختيارية به ونحو ذلك، ويقولون: الصفات قد تَقُوم بما ليس بجسم، وأمَّا العلو علىٰ العالَم فلا يصح إلا إذا كان جسمًا، فلو أثبتنا عُلُوَّه للزم أن يكون جسمًا، وحينئذ فالأجسام متماثلة فيلزم التشبيه.

فلهذا تَجِدُ هؤلاء يسمُّون مَن أَثْبَتَ العلو ونحوه مشبِّهًا، ولا يسمُّون مَن أَثْبَتَ السمع والبصر والكلام ونحوه مشبِّهًا، كما يقوله صاحِبُ «الإرشاد» وأمثاله.

وكذلك قد يوافقهم علىٰ القول بتماثل الأجسام القاضي أبو يُعْلَىٰ وأمثاله من مُثبتَةِ الصفات والعلو، لكن هؤلاء قد يجعلون العلو صفة خبرية، كما هو أول قولي القاضي أبي يعلىٰ، فيكون الكلام فيه كالكلام في الوجه، وقد يقولون: إنَّ ما يثبتونه لا ينافي الجسم، كما يقولونه في سائر الصفات. والعاقل إذا تأمَّل وَجَد الأمر فيما نفوه كالأمر فيما أثبتوه، لا فَرْقَ[1].


الشَّرْح

مَنْشَأُ ضَلالِ المعطلة نفاة صفات الله: أنّهم لم يفهموا منها إلا ما هو اللائق بالمخلوق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا تشبيهٌ وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خَلقِه وصفاته، وتعطيلٌ لِمَا يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

واستواء الله علىٰ عرشه أنكره المعطلة؛ لأنّهم لم يفهموا منه إلا ما يثبت

(١) التدمرية (ص١١٩، ١٢٠).
(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٧، ٢٦٨).

للأجسام المخلوقة، وهذا تسويةٌ وتشبيهٌ منهم لله باستواء الإنسان، واستواء الله علىٰ عرشه وكلُّ صفاته كمالٌ لا تُماثِلُ صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أمَّا استواء يليق بجلال الله ويختص به، فلا يلزمه شيءٌ من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها».

فالله عَزَّ وَجَلَّ موصوفٌ بصفات الكمال، ومن ذلك استواؤه علىٰ العرش، وهو قائم بنفسه مختص بصفاته، لا يماثله فيها مخلوق، ولذلك هو مُباينٌ للمخلوقات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «القيام بالنفس صفةُ كمالٍ، فالقائم بنفسه أكمل ممَّن لا يقوم بنفسه، ومَن كان غناه من لوازم ذاته فقيامه بنفسه من لوازم ذاته، وهذه حقيقة قيوميته سبحانه وهو الحي القيوم، والقيوم: القيوم بنفسه المُقِيم لغيره».

وأنكر شيخ الإسلام علىٰ أبي المعالي الجويني وغيره ممَّن أثبت صفة السمع والبصر ولم يُسمِّه تشبيهًا، بينما أنكر العلو واستواء الله علىٰ عرشه وسَمَّاه تشبيهًا، فالكلام في العلو والاستواء كالكلام في السمع والبصر كلها صفاتُ كمالٍ لله عَزَّ وَجَلَّ، تليق بعظمته لا تُماثِلُ صفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «هم يثبتون من الصفات ما يلزم فيه نظير ما يلزم فيما نفوه، وإذا لزمهم فيما أثبتوه نظير ما يلزم فيما نفوه لزم: إمَّا النفي المطلق وهو التعطيل المَحْض، وإمَّا أن يكون ما ذَكَروه من الدليل علىٰ ما نفوه باطلًا.

(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٦٨).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٠٠).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٤٣٨، ٤٣٩).

مثال ذلك: أنْ يُقال لمَن وَصَفه بالإرادة وقال: لا أصفه بالمحبة والرحمة والرضا والغضب، إلا إذا تأوَّلْتُ ذلك بالإرادة، قال: لأنّ هذه الصفات تستلزم التجسيم؛ لأنّ الغضبَ غليانُ دمِ القلب لطلبِ الانتقام، والرحمة رِقَّة تلحق الرَّاحِم، والرِّقَّة من صفات الأجسام ونحو ذلك.

قيل له: وكذلك الإرادة هي مَيْلُ النفس إلىٰ جلبِ ما ينفعها، ودَفْع ما يضرها، واللهُ منزَّه عن ذلك.

فإن قال: هذه إرادة الإنسان، وإرادة الخالق سبحانه بخلاف ذلك.

قيل له: وكذلك ما ذكرته في الغضب والرحمة ونحو ذلك، إنّما هو في غضب العبد ورحمته ونحو ذلك، وغضبُ الله ورحمته بخلاف ذلك.

فإذا قال: أنا لا أعقل الرحمة والغضب إلا ما يُوجد في الشاهد، واللفظ لا تدل حقيقته إلا علىٰ ما يتصف به الشاهد.

قيل له: وكذلك في الإرادة، بل وفي السمع، والبصر، والكلام، والعلم، والقدرة، والحياة، لا يُعقل في ذلك إلا ما هو موجود في الشاهد، واللفظ لا يدل علىٰ حقيقة إلا علىٰ ما يتصف به الشاهد، فما ادَّعيته في نفي ذلك من قياسٍ وتأويلٍ يلزمك ذلك في نظيره في ذلك».




قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأصلُ كلام هؤلاء كلهم علىٰ أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم، والأجسام متماثلة.

والمُثبِتُون يجيبون عن هذا تارةً بمنع المقدمة الأولىٰ، وتارةً بمنع المقدمة الثانية، وتارةً بمنع كلتا المقدمتين، وتارةً بالاستفصال.

ولا رَيْبَ أنَّ قولهم بتماثُلِ الأجسام قولٌ باطِلٌ، سواءٌ فَسَّروا الجسم بما يُشار إليه، أو بالقائم بنفسه، أو بالموجود، أو بالمركب من الهُيولي[١] والصورة، ونحو ذلك.

فأما إذا فسَّروه بالمركب من الجواهر المفردة علىٰ أنها متماثلة، فهذا يُبنىٰ علىٰ صحة ذلك، وعلىٰ إثبات الجواهر المفردة وعلىٰ أنها متماثلة. وجمهور العقلاء يخالفونهم في ذلك[٢].


الشَّرح

قواعد المتكلمين في معارضة الوحي فيما أخبر الله به عن صفاته، تحكي تشبيههم رب العالمين بمخلوقاته، فنفوا صفات الله ﷻ؛ لأنّ ذلك بزعمهم تجسيم، وقالوا في حقيقة الجسم: إنّه المركب من الهيولي.

والهيولي هو مادة الشيء.

وفَسَّر المتكلمون الجسم بالمركب من الأجزاء التي هي الجواهر المفردة، وهي في زعمهم متماثلة.

(١) الهيولي: هو المادة.

(٢) التدمرية (ص١٢١، ١٢٢).

والمعتزلة وفروعهم اتَّبعوا هذه الطريقة في القول علىٰ الله بكلام الفلاسفة الكافرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أمَّا المعتزلة فطريقتهم هي طريقة الأعراض، هم أهل هذه الطريقة وأشهر الطوائف بها، وعنهم تلقَّاها مَن تلقَّاها من الأشاعرة، وبمثل هذه الطريقة وأمثالها كَثُرَ ذمُّ السلف والأئمة لهم فيما ذمّوه من الكلام».

ومن المعلوم ضرورةً من دِين الإسلام: أنّه لم يتكلم أَحَدٌ من السلف بهذه الطريقة في توحيد الله في أسمائه وصفاته، والله ﷻ نَعْرِفه بما أخبرنا عن نفسه سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «سُئل أبو العَبَّاس ابنُ سُرَيج عن التوحيد، فذكر توحيد المسلمين، وقال: وأمَّا توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجَوَاهر والأعراض؛ وإنَّما بعث الله النبي ﷺ بإنكار ذلك، ولم يُرِدْ بذلك أنّه أنكر هذين اللفظين؛ فإنّهما لم يكونا قد أُحْدِثَا في زمنه، وإنّما أراد إنكار ما يَعْنِي بهما من المعاني الباطلة».

فالمتكلمون من الجهمية المعتزلة ومَن وافقهم جعلوا الإيمان بالله لا يتم إلا بإثبات الجوهر الفرد(٣).

وهذا التنظير من عجائب الفلاسفة والمتكلمين والمعتزلة؛ فإنّ الإله عندهم ذاتٌ مجرَّدة عن الصفات، فالإله عندهم حقيقته العدم، فكلامهم في مادة العدم خبالٌ وضَلالٌ.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٦٠، ١٦١).
(٢) تفسير شيخ الإسلام (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٤٣).

وحقيقة الله ﷻ ووَصْفُه الذي نُخبر به عنه أنّه أَحَدٌ وصَمَدٌ، وقلوب المسلمين تتوَجَّه إليه في علوه؛ تدعوه وتقصده.

حقيقة الله ﷻ أنه موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة به، فقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] يُبطِل قول الفلاسفة والمعتزلة في أجزاء الجواهر المفردة، فالصمد هو الذي لا يَقْبَل التجزُّؤ ولا الأبعاض.

حقيقة الله ﷻ أنّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] وهذه الحقيقة تبطل الكلام في أجزاء الجواهر المفردة، فالله ﷻ ليس كمثله شيء، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

الفيلسوف والمعتزلي ﴿يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطانُ أَحَدَكُم فيقول: مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خَلَق ربَّكَ؟ فإذا بَلَغَهُ فليستعِذْ باللهِ، ولْيَنْتَهِ».

وخوضُ المتكلمين المعتزلة في الهيولي، أيْ: مادة الجسم، وتركيبها من الأجزاء التي هي الجواهر المفردة، هو من خوضهم المنهي عنه في كيفية ذاتِ الله وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال الإمام مالك لمَن سأله عن كيفية الاستواء: «الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة».

وقال السلف: «لا يَعْلَمُ كيف هو، إلا هو»(١).

والكلام في أنّ الجسم مركب من الجواهر المفردة، هذا بيانٌ لمادة المخلوق، ولا يجوز لأحَدٍ أنْ يتكلم بما لَمْ يُحِطْ به علمًا في حقِّ الله ﷻ، والله ﷻ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وما أجهلَ وأضلَّ مَن قال على الله بغير علمٍ وهو لم يُحِطْ علمًا بروحه التي بين جنبيه؛ فإنّ مادتها لا يعلمها إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقيل لعبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بماذا نَعْرِف ربَّنا؟ فقال بأنّه مستوٍ على عرشه، بائِنٌ من خَلقِه.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأعظم مما وصف به نفسه».

فالواجب على المسلم: اتباع الوحي، وتصديق ما أخبر الله به عن نفسه في القرآن وما أخبر عنه رسوله ﷺ، والكفُّ عن الخوض في بِدَعِ الفلاسفة والمعتزلة؛ كمسألة الجسم والجواهر المفردة.

قال أبو أحمد بن أبي أسامة القرشي والد حَمَّاد بن سَلَمة(٢): «لا نُكَيِّفُ صفات الله ﷻ، ولا نُفَسِّرُها تفسير أهل التكييف والتشبيه، ولا نضرب لها الأمثال، بل نتلقَّاها بحُسْن القبول تصديقًا، ونُطْلِقُ ألفاظها تصريحًا، كما قال الله ﷻ في كتابه وكما قال رسول الله ﷺ».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٨٩).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٧٧).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمقصود: أنهم يطلقون التشبيه علىٰ ما يعتقدونه تجسيمًا، بناءً علىٰ تماثُلِ الأجسام، والمثبتون ينازعونهم في اعتقادهم، كإطلاق الرافضة «للنَّصب» علىٰ مَن تَولَّىٰ أبا بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، بناءً علىٰ أنَّ مَن أَحبَّهما فقد أبغض عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومَن أبغضه فهو ناصبيٌّ؛ وأهلُ السُّنة ينازعونهم في المقدمة الأول.

ولهذا يقول هؤلاء: إن الشيئين لا يشتبهان من وجهٍ ويختلفان من وجهٍ.

وأكثر العقلاء علىٰ خلاف ذلك، وقد بَسطنا الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع، وبينّا فيه حُجَج مَن يقول بتماثل الأجسام وحُجَج مَن نفىٰ ذلك، وبينّا فساد قول مَن يقول بتماثلها[(١)].

الشَّرح

إثباتُ ما أَثْبَتَهُ الله ﷻ لنفسه من أسماءٍ وصفاتٍ، توحيدٌ، وتسميةُ ذلك تشبيهًا كذبٌ في الواقع، وهو من الشناعة علىٰ الحق؛ للتنفير منه.

فإثبات ما أَثْبَتَهُ الله ﷻ لنفسه هو توحيدٌ، ففيه تصديقٌ للوحي، وفيه وصفٌ لله بما يختص به، وهو ثناءٌ علىٰ الله بصفات الكمال.

فالمعطلة استعملوا لفظ (التشبيه) في غير موضعه بتسمية مَن وَصَف الله بما وَصَف به نفسه من صفات الكمال مشبِّهًا، وأهلُ السُّنة بُرَآء من التشبيه، وليس فيما وَصَف الله به نفسه محذور التشبيه والتجسيم.

---

(١) التدمرية (ص١٢٢، ١٢٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الجهمية ونحوها يُسَمّون أنفسهم «الموحدين»، ويُسَمّون نفي الصفات «توحيد الله»».

فالجهمية ملاحدةٌ أَلْحَدُوا في أسماء الله وصفاته تكذيبًا وتحريفًا ثم يزعمون أنّهم الموحِّدُون، قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

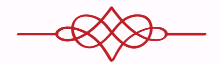
قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإلحاد في أسماء الله تارةً يكون بجحد معانيها وحقائقها، وتارةً يكون بإنكار المُسَمَّىٰ بها، وتارةً يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها».

فالموحدون تألَّهوا لله عَزَّوَجَلَّ وعبدوه بما عرفوا من كماله، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والملاحدة كذَّبوا ما أخبر الله به عن نفسه من صفاته، فالموحدون هم مَن وَصَفُوا الله بما وَصَف به نفسه من صفات الكمال، والملاحدة هم مَن كذَّب خبر الله أو حرَّفه.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أهلُ السُّنة مجمعون علىٰ الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنة، والإيمان بها، وحَمْلِها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المَجاز، إلا أنّهم لا يُكَيِّفُون شيئًا من ذلك، ولا يحدّون فيه صفةً مَحْصُورة.

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦٤٥).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٧).
(٣) التمهيد (٧/ ١٤٥).

وأمَّا أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلُّهم يُنْكرها، ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعمون أنّ مَن أقَرَّ بها مُشبِّه، وهم عند مَن أَثْبَتَها نافون للمعبود. والحقُّ: فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة».



قال المصنف رحمه الله:

وأيضًا، فالاعتماد بهذا الطريق علىٰ نفي التشبيه اعتمادٌ باطِلٌ؛ وذلك أنه إذا أَثْبَتَ تماثُلَ الأجسام فهم لا ينفون ذلك إلا بالحجة التي ينفون بها الجسم، وإذا ثبت أن هذا يستلزم الجسم، وثبت امتناع الجسم، كان هذا وحده كافيًا في نفي ذلك، لا يحتاج نفي ذلك إلىٰ نفي مُسمَّىٰ «التشبيه»، لكن نفي الجسم يكون مبنيًّا علىٰ نفي هذا التشبيه، بأنْ يُقال: لو ثبت له كذا وكذا لكان جسمًا، ثم يُقال: والأجسام متماثلة، فيجب اشتراكها فيما يجب ويجوز ويمتنع، وهذا مُمتنعٌ عليه.

لكن حينئذٍ يكون مَن سلكَ هذا المسلك معتمدًا في نفي التشبيه علىٰ نفي التجسيم، فيكون أصلُ نفيِه نفي الجسم، وهذا مسلكٌ آخَرُ سنتكلم عليه إن شاء الله تعالىٰ[1].



الشَّرح

اعتقادُ المسلمِ كمالَ ما وَصَف الله به نفسه، وأنّه ليس لله مَثَلٌ فيما اختص به من صفات الكمال، يدفع عنه اصطلاحات المعطلة المُضِلّة في نفي صفات الله بزعمهم أنها تستلزم التشبيه والجسم، فالله ﷻ صفاته غاية في الكمال، تليق بعظمته لا تُماثِلُ صفات المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فمَن أثبتَ صفات الله ﷻ فقد أثبتَ كمال الموصوف بها، وهذا الكمال لله سبحانه إثباتُه ينفي النظير والشريك والشبيه والمَثَل، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

---

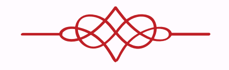
(١) التدمرية (ص١٢٣، ١٢٤).

فالله ﷻ موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة به، وهذا ليس بتجسيم، فالله ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه بائِنٌ من خَلْقِه، وهو أحدٌ صمدٌ، فالأَحَدِيَّةُ تنفي النظير والشبيه والشريك، والصَّمَدِيَّةُ تُثْبِتُ كلَّ صفات الكمال لله وحده.

ونصوصُ القرآن والسُّنة الواردة في الإخبار عن أسماء الله وصفاته، دالَّةٌ علىٰ أحسن المعاني ونَعْتِ الله بأكمل الصفات، فلا نبطل معنىٰ ما أخبرنا الله عنه لباطِلٍ من القول ممَّن لمْ يؤمن بآيات ربه وأحاديث رسوله ﷺ.

فطريقة المعطلة في نفي صفات الله ﷻ طريقةٌ خاطئة باطلة ضالَّة، فقولهم: إنّ إثبات الصفات لله تشبيهٌ، دعوىٰ باطلة، وزعمهم أن الأجسام متماثلة، دعوىٰ كاذبة تخالف العقل الصريح والحِسَّ؛ فإنّ الأجسام غير متماثلة، كل جسمٍ له صفاته التي يتميّز بها عن غيره.

وفي الحقيقة فإنّ المعطلة هم المُجسِّمة وهم المُشبِّهة، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ الجهميَّة هُمُ المشبِّهة؛ لأنّهم شبَّهوا ربَّهم بالصَّنَم، والأصَمِّ، والأبْكَم، الذي لا يسمع، ولا يُبْصر، ولا يتكلَّم، ولا يَخْلُق».



(١) خلق أفعال العباد (ص٣٥).

قال المصنف رحمه الله:

وإنما المقصود هنا: أنَّ مجرد الاعتماد في نفي ما يُنفىٰ علىٰ مجرد نفي التشبيه لا يفيد؛ إذ ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجهٍ ويفترقان من وجهٍ، بخلاف الاعتماد علىٰ نفي النقص والعَيْب، ونحو ذلك مما هو سبحانه وتعالى مُقدَّس عنه، فإن هذه طريقة صحيحة.

وكذلك إذا أُثبتَ له صفاتُ الكمال، ونُفِيَ مماثلةُ غيره له فيها، فإن هذا نفي المماثلة فيما هو مُستحِقٌّ له، وهذا حقيقة التوحيد، وهو أن لا يشركه شيءٌ من الأشياء فيما هو من خصائصه.

وكلُّ صفةٍ من صفات الكمال فهو مُتَّصِفٌ بها علىٰ وجهٍ لا يماثله فيه أحدٌ، ولهذا كان مذهبُ سلفِ الأمَّة وأئمتها إثباتَ ما وَصَف به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته لشيء من المخلوقات[١].

الشَّرح

بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الاعتقاد الصحيح في توحيد الله في أسمائه وصفاته، وتنزيه الله عن النقائص، وهو إثباتُ صفاتِ الكمال لله ونفي مماثلتها لخَلقِه، والدليل علىٰ صحة هذا الاعتقاد: القرآن، والسُّنة، وإجماعُ سلفِ الأمَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «مذهب السلف بين مذهبين، وهُدًىٰ بين ضلالتين: إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، فقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ أهل النفي والتعطيل، فالمُمَثِّل أعْشَىٰ، والمُعطِّل أعمىٰ، الممثل

(١) التدمرية (ص١٢٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٩٦).

يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا».

والله ﷻ من أسمائه الحسنىٰ: ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾، قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «له علوُّ القَدْر، وهو علوُّ صفاته وعظمتها، بحيث كانت صفاته عالية عظيمة، لا يماثلها ولا يقاربها صفةُ شيءٍ من المخلوقات، بل لا يَقْدِر الخَلْق كلهم أن يحيطوا علمًا ببعض صفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]».

وقال العلَّامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[(٢)]: «عَقِلْنَا عن الله، أنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقد نفينا عن الله ما نفىٰ عن نفسه، ووصفناه بما وَصَف به نفسه».

وقال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «نُثْبِتُ حقائقها -صفات الله- علىٰ ما نَعْرِف من جهة الإثبات ونفي التشبيه، كما نفىٰ ذلك عن نفسه -جلَّ ثناؤُه- فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]».

فكلُّ ما أثبتَهُ اللهُ ﷻ لنفسه وأثبتَهُ له رسولُه ﷺ، نُثْبِتُه بما يليق بكمال الله مما لا يُماثِلُ خَلقَهُ.

قال العلَّامة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١١هـ)[(٤)]: «نحن نثبت لخالقنا ﷻ صفاته التي وَصَف الله ﷻ بها نفسه في مُحكَمِ تنزيله، أو علىٰ لسان نبيه المصطفىٰ ﷺ، مما ثبت بنقل العَدْل عن العَدْل موصولًا إليه».

---

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٣٧).

(٢) النقض علىٰ بشر المريسي (ص٣٠٤).

(٣) التبصير في معالم الدين (ص١٤٠).

(٤) التوحيد (١/ ٥٧).

وقال حنبل: سألتُ أبا عبد الله -الإمام أحمد- عن الأحاديث التي تُروىٰ: أن الله سبحانه ينزل إلىٰ سماء الدنيا، وأن الله يُرىٰ، وأن الله يضع قدمه، وما أشبه هذه الأحاديث؟ فقال أبو عبد الله: نؤمن بها، ونُصدِّق بها، ولا نَرُدُّ منها شيئًا، ونَعْلَم أنَّ ما جاء به رسول الله ﷺ حقٌّ، إذا كانت بأسانيدَ صِحَاحٍ، ولا نَرُدُّ علىٰ الله قوله، ولا يُوصف بأكثر ممَّا وَصَف به نفسه بلا حدٍّ ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] [(١)].

وإثباتُ ما أثبتَهُ الله ﷻ لنفسه وما أثبتَهُ له رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته بما يليق بكمال الله من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ لشيء من ذلك بصفات المخلوقين، هو من الاعتقاد الذي أجمع عليه السلف.

قال المُحدِّث الفقيه المُفسِّر الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥١٦هـ)[(٢)]: «كل ما جاء به الكتاب أو السُّنة في صفات الله تعالىٰ، كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرِّجل[(٣)]، والإتيان، والمجيء، والنزول إلىٰ السماء الدنيا، والاستواء علىٰ العرش، والضحك، والفرح، فهذه ونظائرها صفاتٌ لله تعالىٰ، ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وإمرارها علىٰ ظاهرها، معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه، معتقدًا أن الباري ﷻ لا يُشْبِه شيءٌ من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢١١، ٢١٢).
(٢) شرح السنة (١/ ١٦٨-١٧١)، باختصار.
(٣) القَدم.

وعلىٰ هذا مَضَىٰ سلفُ الأمَّة وعلماءُ السُّنة، تلقَّوها جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنَّبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها[1] إلىٰ الله ﷻ، كما أخبر الله ﷻ عن الراسخين في العلم، فقال ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]».

وقال الحافظ أبو محمد عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٠٠هـ) عن اعتقاد سلفِ الأمَّة[2]: «آمَنُوا بما قال الله سبحانه في كتابه، وصَحَّ عن نبيه ﷺ، وأَمَرُّوه كما ورد من غير تعرُّضٍ لكيفية، أو اعتقادِ شبهةٍ أو مثليةٍ، أو تأويلٍ يُؤدِّي إلىٰ التعطيل».

فالله ﷻ ليس كمثله شيء، أسماؤه حسنىٰ، وصفاته عُلْيَا، تَفرَّد بكمال الأسماء والصفات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ فإنه سبحانه ذَكر ذلك عقب ذِكر نُعُوتِ كمالِه وأوصافه، فقال: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ: ١-١١].

---

(١) الكيفية.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٨٠).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٣، ٣٩٤).

فهذا الموصوف بهذه الصفات، والأفعال، والعلو، والعظمة، والحفظ، والعزة، والحكمة، والملك، والحمد، والمغفرة، والرحمة، والكلام، والمشيئة، والولاية، وإحياء الموتىٰ، والقدرة التامة الشاملة، والحُكم بين عباده، وكونه فاطر السماوات والأرض، وهو السميع البصير، فهذا هو الذي ليس كمثله شيء؛ لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها علىٰ وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء، فالمُثبِتُ لصفات كماله هو الذي يصفه بأنه ليس كمثله شيء».

فالله ﷻ له ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤] وله سبحانه ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فهذا الذي أوجب للموحدين الإيمان بحقائقها وعبودية الله بمقتضاها.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الرب أسماؤه كلها حسنىٰ، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمالٌ، ليس فيها صفةُ نقصٍ، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعلٌ خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلىٰ في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفات الكمال، مَنْعُوت بنعوت الجلال، منزَّه عن الشبيه والمثال».

فشيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن هنا أن التوحيد إثباتُ صفاتِ الكمال لله وحده، ونفي مماثلته لغيره، وتنزيهه عن النقائص، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وتوحيد الأسماء والصفات هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه توحيد المعرفة

(١) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٥٥).

والإثبات، وهو الأساس الذي يُبنىٰ عليه توحيد العبودية؛ توحيد القصد والطلب.

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اسمه (الأحد) دلَّ علىٰ نفي المشاركة والمماثلة.

واسمه (الصمد) دلَّ علىٰ أنه مستحقٌّ لجميع صفات الكمال».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «وصفات التنزيه كلها، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المَعْنَيان».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن التوحيد مبناه علىٰ إثبات تفرُّدِ الرب بصفات الكمال».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «لا أحَدَ سواه يستحق أنْ يُؤله ويُعبد، ويُصلىٰ له ويُسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل؛ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المُطاعُ وحده علىٰ الحقيقة، والمَأْلُوه وحده، وله الحُكمُ وحده.

فكلُّ عبوديةٍ لغيره باطلة، وعَناءٌ وضَلَالٌ، وكلُّ محبةٍ لغيره عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غِنًىٰ لغيره فقرٌ وَفاقَةٌ، وكلُّ عِزٍّ بغيره ذلٌّ وصَغارٌ، وكلُّ تكثُّرٍ بغيره قِلَّةٌ وذِلَّةٌ، فكما استحال أن يكون للخَلق ربٌّ غيره، فكذلك استحال أن يكون لهم إلهٌ غيره،

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٥٧).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٢٥٧).

(٣) توضيح الكافية الشافية (٩٧).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٣٩).

فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجَّهت نحوه الطلبات. ويستحيل أن يكون معه إلهٌ آخَر؛ فإن الإله علىٰ الحقيقة هو الغنيُّ الصَّمَدُ الكامل في أسمائه وصفاته».

وقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية: «حقيقةُ التوحيد: إثباتُ صفات الكمال لله»؛ ذلك أن عبودية الله وحده، إنما تكون عن الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وعبوديته بحقائقها، فالتوحيد العملي بعبادة الله وحده لا شريك له، يَقْوَىٰ بقوة التوحيد العلمي الاعتقادي بانفراد الله بصفات الكمال.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إن التوحيد العملي يتفرَّع عنه -التوحيد الاعتقادي-، ويَقْوَىٰ بقُوَّته؛ ولأنه أكبر البراهين علىٰ توحيد الإلهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة.

وهذا النوع مبنيٌّ علىٰ أصلين عظيمين: أحدهما: تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله، وما ينافي كماله.

وحاصلُ هذا النوع يَعُود إلىٰ تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله، أو في حقٍّ من حقوقه وخصائصه، وإلىٰ حفظِ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها.

فيُعلم أنَّ له الكمال المطلق الذي لا يمكن التعبير عن عظمته وكُنْهِه، وأنَّ له من ذلك الكمال غايته ومنتهاه وأكمله».

فمَن آمَنَ بالله وأسمائه وصفاته تألَّه له وعَبَده.

---

(١) توضيح الكافية الشافية (ص١١٥)، باختصار يسير.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «متىٰ منَّ الله علىٰ العبد بمعرفةٍ صحيحةٍ مُتلقَّاة من الكتاب والسُّنة، وتَفقَّه في أسماء الله وصفاته، وتَعبَّد لله بها، واجتهد أن يحقق مقام الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وَلَهِجَ بذِكر الله تعالىٰ؛ استنار قلبه، وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، واللهُ ذو الفضل العظيم».

وقول شيخ الإسلام: «كلُّ صفةٍ من صفات الكمال فهو مُتَّصِفٌ بها علىٰ وجهٍ لا يماثله فيه أحدٌ»، هذه الجملة هي أساس الاعتقاد الصحيح في أسماء الله وصفاته، كلُّ اسمٍ سَمَّىٰ الله به نفسه، وكلُّ صفةٍ أخبرنا بها عن نفسه، فإنها كمالٌ، وإذا اعتقدتَ ذلك أَثبتَّها ولمْ تبتدع بتحريفها أو تكذيبها.

فكلُّ اسمٍ سَمَّىٰ الله به نفسه، وكلُّ صفةٍ أخبرنا الله ﷻ بها عن نفسه، فاملأ قلبك من تعظيم الله ﷻ بإثباتها؛ فإن الله يتمدَّح نفسه بذِكرها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن رب السماوات والأرض يستحيل عقلًا أن يصف نفسه بما يلزمه محذورٌ، ويلزمه مُحالٌ، أو يُؤدِّي إلىٰ نقصٍ».

وقال الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «المسلم إذا سَمِعَ صفةً وُصِفَ بها الله، أول ما يجب عليه: أنْ يعتقد أنَّ تلك الصفة بالغة من الجلال والكمال ما يقطع علائق

---

(١) توضيح الكافية الشافية (ص١٣٠).

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٣٧).

(٣) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٣٩).

أوهام المُشابَهة بينه وبين صفات المخلوقين، فتكون أرضُ قلبِهِ طيبةً طاهرة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

وقول شيخ الإسلام: «ولهذا كان مذهبُ سلفِ الأمَّة وأئمتها: إثبات ما وَصَف به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته لشيء من المخلوقات»، تبيينُ أنَّ إثبات الصفات لله كمالٌ وليس بتمثيلٍ.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣١١هـ) [(١)]: «حاشَ للهِ أنْ يكون مَن وَصَف الله جَلَّ وَعَلَا بما وَصَف الله به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه المصطفى ﷺ مُشبِّهًا خالقه بخَلقِه».

وقال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ صفاته لا تُماثِل صفات المخلوقين، فالكمال وَصْفُه، لذلك له المثل الأعلى، ويستحيل أن يكون له مَثَلٌ ونظير في ذاته وصفاته. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخَر؛ وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، يستحيل أن يكون لمَن له المثل الأعلى مَثَلٌ أو نظير. وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه».

---

(١) التوحيد (١/ ٦٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣١، ١٠٣٢).

فقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «حقيقةُ التوحيد: إثباتُ الكمال لله»؛ ذلك أنَّ المسلم إذا عرف ربه وعرف شريعته فآمَن بالله واتَّبع شَرْعَه؛ فقد تَحقَّق بالتوحيد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا لذة، ولا سرور، ولا أمان، ولا طمأنينة، إلا بأنْ تَعْرِفَ ربَّها، ومعبودها، وفاطرها؛ بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أَحَبَّ إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يُقرِّبها إليه ويُدْنِيها من مرضاته».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثُمَّ يَتبع ذلك أصلان عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصلة إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد، وقُرَّة العين التي لا تنقطع».

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حقيقة التوحيد: إثبات صفات الكمال لله»؛ ذلك أن التوحيد حقيقته هو الإيمان بالله، والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو اعتقادُ كمالِ الخالق، ربِّ كلِّ مخلوق، وشهودُ كمالِ الله في الخَلق والأمر والتدبير، والكفر بالتألُّه لكلِّ مخلوقٍ مَربوبٍ ناقصٍ.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الآلهة موجودة، ولكن عبادتها ودعاءها باطلٌ لا ينفع، والمقصود منها لا يحصل، فهو باطلٌ، واعتقاد ألوهيتها باطلٌ، أي: غير مطابق، واتصافها بالإلهية في أنفسها باطلٌ، لا بمعنىٰ أنه معدوم».

فالله ﷻ إنما تتوجَّه القلوب إليه رغبةً ورهبةً، وتصمد إليه القلوب والجوارح بالعبودية إذا آمنتْ بأسمائه وصفاته، فتألَّهتْ له بحقائقها.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ كلَّ عبدٍ مضطر إلىٰ الله في كل أموره الدينية والدنيوية، ليس له غِنًىٰ عنه طَرْفَة عينٍ، وإليه يلجأ في مُهِمَّاته، ويقصده في كل حاجاته.

فإذا انتفتْ صفات الله علىٰ قول المعطلين -كحياة الله، وعِلْمِه، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وحكمته- لم يكن عند هذا المنفي عنه هذه الصفات مَطالِبُ الخَلق، وفَزعتِ الخَلِيقَةُ إلىٰ غيره، وتَوجَّهتِ القلوبُ لمَن يَعْلَم بأحوالها، ويَقْدِر علىٰ مَصالِحِها، ومنافعها، ودَفْع مَضارّها، واضطرهم هذا الأمر إلىٰ الشرك.

وأمَّا الإثبات لصفات كماله؛ فإنه أصلُ التوحيد، وأوصاف الكمال هي المقتضية لإجابة الدعوات، وتحصيل جميع المطلوبات، وبذلك يحصل للقلب الإنابة التامة، والإخلاص الكامل، لوجود المقتضىٰ من الداعي والمدعو، فالداعي وجود ضرورته التامة في كل أموره، والمدعو عنده جميع المَطالِب، ولديه كلُّ الرَّغائب، وهو الكفيل والوكيل، وهو نِعْمَ المَولىٰ ونِعْمَ النصير، فالإثبات مستلزم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥١٦).

(٢) توضيح الكافية الشافية (ص١٦٦).

لكمال الإخلاص والتوحيد، والنفي مستلزم للشرك».

وإذا عرف المسلم أن حقيقة التوحيد إثبات صفات الكمال لله، عَلِمَ أنَّ مَن أنكر ما وَصَفَ الله به نفسه أو شَبَّه اللهَ بخَلقِه، فقد كفر.

قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «مَن شبّه الله بخَلْقِه كَفَر، ومَن أنكرَ ما وَصَفَ الله به نفسه كفرَ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الإيمان بالصفات وتَعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمَن جَحَد الصفات فقد هَدَم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان».

واعتقاد السابقين الأوَّلِين هو إثبات ما سَمَّىٰ ووَصَفَ الله به نفسه، قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «اتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولًا واحدًا، وشرعًا ظاهرًا، وهم الذين نقلوا ذلك من رسول الله ﷺ حتىٰ قال: «عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدِين مِن بَعْدِي»، وحديث: «لَعَن اللهُ مَن أَحدَثَ حَدَثًا».

فكانت كلمة الصحابة علىٰ الاتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمرنا بالأخذ عنهم؛ إذ لم يختلفوا -بحمد الله تعالىٰ- في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات».

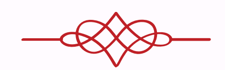
(١) مدارج السالكين (ص٨٨٠).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٧١).

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله -تعالىٰ ذِكرُه- فوق سماواته، ونؤمن بما وردتِ السُّنة به من صفاته».

فالأوزاعي -وهو من أتباع التابعين- ينقل إجماع التابعين الذين تَلقَّوا الدِّين عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ إثبات ما سَمَّىٰ ووَصَف الله به نفسه.

وهذا الاعتقاد أجمعت عليه الأمّة، وتوارثه الخلف عن السلف، ومَن خالفهم في ذلك كان من الضالين.

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألتُ أَبِي وأبا زُرْعَة عن مذهب أهل السُّنة في أصول الدِّين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، ومصرًا، وشامًا، ويمنًا، فكان من مذاهبهم: أن الله علىٰ عرشه، بائنٌ من خَلقِه، كما وَصَف نفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، بلا كيفٍ، أحاط بكل شيء علمًا[٢].



(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إسناده صحيح» بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٧).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص٨٧).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإنْ قيل: إنَّ الشيء إذا شابه غيره من وجهٍ جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه، ووجب له ما وجب له، وامتنع عليه ما امتنع عليه.

قيل: هَبْ أنَّ الأمر كذلك، ولكن إذا كان ذلك القَدْر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعًا؛ كما إذا قيل: إنه موجودٌ حيٌّ عليم سميع بصير وقد سَمَّىٰ بعض المخلوقات حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا.

فإذا قيل: يلزم أن يجوز عليه ما يجوز علىٰ ذلك من جهةِ كونِه موجودًا حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا. قيل: لازِمُ هذا القَدْر المشترك ليس ممتنعًا علىٰ الرب تعالىٰ؛ فإن ذلك لا يقتضي حدوثًا، ولا إمكانًا، ولا نقصًا، ولا شيئًا مما ينافي صفات الربوبية.

وذلك أنَّ القَدْر المشترك هو مُسَمَّىٰ «الوجود» أو «الموجود»، أو «الحياة» أو «الحي»، أو «العلم» أو «العليم»، أو «السمع» و«البصر» أو «السميع» و«البصير»، أو «القدرة» أو «القدير»، والقَدْر المشترك مُطْلَق كليّ لا يختص بأحدهما دون الآخَر، فلَمْ يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المُحدَث، ولا فيما يختص بالواجب القديم، فإنَّ ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه.

فإذا كان القَدْر المشترك الذي اشتركا فيه صفةَ كمالٍ: كالوجود والحياة والعلم والقدرة، ولم يكن في ذلك ما يدل علىٰ شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل علىٰ شيء من خصائص الخالق؛ لم يكن في إثبات هذا محذور أصلًا، بل إثبات هذا من لوازم الوجود، فكلُّ موجودَين لا بُدَّ بينهما من مثل هذا، ومَن نفىٰ هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود.

ولهذا لمَّا اطَّلع الأئمة علىٰ أن هذا حقيقة قول الجهمية سَمّوهم مُعطِّلة، وكان جهم ينكر أن يسمّىٰ الله شيئًا، وربما قالت الجهمية: هو شيء لا كالأشياء، فإذا نفىٰ القدر المشترك مطلقًا لزم التعطيل التام[(١)].

الشَّرْح

اتفاقُ الأسماء لا يَلْزَم منه اتفاقُ المُسَمّيات؛ لكن يُفهم من اتفاق الأسماء قَدْرًا مشتركًا من الاسم يدلُّ علىٰ معنىٰ المُسَمَّىٰ، وكلُّ مُسمَّىٰ له صفاته وحقائقه التي يختص بها، فمُسمَّىٰ وَصِفَةُ المخلوق تليق بنقصه، ومُسمَّىٰ وَصِفاتُ الخالق تليق بكماله، والثابت لله من المسمىٰ هو غاية الكمال اللائق بأحديته وصمديته، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه.

ومعرفة الإنسان النقص من نفسه في صفاته، يدلُّه علىٰ امتناع مماثلتها لصفات الأحد الصمد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «مَن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومَن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنىٰ، ومَن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومَن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومَن عرف نفسه بالذلِّ عرف ربه بالعِزّ، وهكذا أمثال ذلك؛ لأن العبد ليس له من نفسه إلا العدم، وصفات النقص كلها ترجع إلىٰ العدم، وأمَّا الرب تعالىٰ فله صفات الكمال، وهي من لوازم ذاته، يمتنع انفكاكه عن صفات الكمال أَزَلًا وأبدًا، ويمتنع عدمُها؛ لأنه واجب

(١) التدمرية (ص١٢٥-١٢٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٩٧).

الوجود أزلًا وأبدًا، وصفات كماله من لوازم ذاته».

فأَثْبِتْ -أيها المسلم- صفات الله ﷻ التي أَثبَتَها لنفسه علىٰ الكمال اللائق بالله، لا تتوهَّمْ فيها معاني النقص في صفات المخلوقين، فذلك من توحيد الله وتعظيمه ومدحه والثناء عليه بالكمال الذي ليس لغيره.

وكُلَّما ازداد المسلم معرفةً واعتقادًا ويقينًا بمعاني أسماء الله وصفاته، ازداد تعظيمه لربه وخشيته وعبوديته له؛ فإن التوحيد العلمي مادة التوحيد العملي.

فنفيُ ما أَثبَتَهُ الله لنفسه من الصفات تكذيبٌ لأخبار الله، وداعيةٌ إلىٰ تعطيل عبوديته، فمَن نفىٰ صفات الله كيف يعبد عدمًا؟!

فالله ﷻ أخبرنا بأسمائه التي يُفهم من مُسَمَّاها معنىٰ ما أخبر الله به عن نفسه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يَعْلم الإنسان أنه حيٌّ، عليم، قدير، سميع، بصير، مُتكلِّم، فيتوصل بذلك إلىٰ أن يفهم ما أخبر الله به عن نفسه من أنه حيٌّ، عليم، قدير، سميع، بصير؛ فإنه لو لم يتصور لهذه المعاني من نفسه ونظره إليه، لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه، كما أنه لولا تصوُّره لِمَا في الدنيا: من العسل، واللبن، والماء، والخمر، والحرير، والذهب، والفضة، لَمَا أَمْكَنَهُ أنْ يَتصوَّر ما أخبر به من ذلك من الغيب؛ لكن لا يلزم أن يكون الغيب مثل الشهادة، فقد قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

فإنَّ هذه الحقائق التي أَخْبَرَ بها أنها في الجَنَّة ليست مماثلةً لهذه الموجودات في الدنيا، بحيث يَجُوزُ علىٰ هذه ما يجوز علىٰ تلك، ويجب لها ما يجب لها، ويمتنع

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٩٥، ٢٩٦).

عليها ما يمتنع عليها، وتكون مادَّتُها مادَّتَها وتستحيلُ استحالَتَها؛ فإنَّا نَعْلَمُ أنَّ ماء الجَنَّة لا يَفْسُدُ ولا يَأْسِنُ، ولبنَها لا يتغيَّر طعمُه، وخمرها لا يَصَّدَّعُ شارِبُها ولا يُنزِفُ عقلُه؛ فإن ماءها ليس نابعًا من تراب، ولا نازلًا من سحاب مثل ما في الدنيا، ولبنها ليس مخلوقًا من أنعام كما في الدنيا، وأمثال ذلك، فإذا كان ذلك المخلوق يوافق ذلك المخلوق في الاسم، وبينهما قَدْرٌ مُشترَكٌ وتَشابُهٌ؛ عُلِمَ به معنىٰ ما خُوطبنا به، مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة، فالخالق جل جلاله أَبْعَدُ عن مماثلةِ مخلوقاته ممَّا في الجنة لِمَا في الدنيا.

فإذا وَصَف نفسه بأنه حيٌّ عليم سميع بصير قدير، لم يلزم أن يكون مماثلًا لخلقه؛ إذ كان بُعْدُها عن مماثلة خلقه أَعْظَمَ من بُعْدِ مماثلةِ كلِّ مخلوقٍ لكل مخلوق».

وأنتَ -أيها المسلم- مع ما تَعْقِله من معنىٰ أسماء الله ﷻ، فاحذر أنْ تُمثِّلَ صفات الله بخَلقِه، أو أنْ تضربَ لله الأمثال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «إن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وذلك أنَّا لا نَعْلَم الشيء إلا أن ندركه نفسه أو ندرك ما قد يكون مماثلًا له أو مشابهًا له من بعض الوجوه، واللهُ يَعْلَم الأشياء كلها ونحن لا نَعْلَم، فليس لنا أن نضرب له الأمثال بلا علمٍ».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٦٢).

ولا يتحقَّق توحيدٌ لمسلمٍ إلا بالاعتقاد الجازم أن لله المَثَل الأعلىٰ، فالمسلمون حقَّقُوا توحيد الله في أسمائه وصفاته بإثباتها كما تليق بجلاله، ونزَّهُوا الله عن مماثلة خَلقه، ومَن مَثَّل صفات الله بخَلقه فقد جعل لله أندادًا، ومَن أنكر صفات الله فقد أنكر ذاته؛ لأنه لا تُوجد ذاتٌ بلا صفاتٍ.

قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر؛ وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلىٰ أحدهما وحده، يستحيل أن يكون لمَن له المثل الأعلىٰ مَثَلٌ أو نظير. وهذا برهانٌ قاطِعٌ من إثبات صفات الكمال علىٰ استحالة التمثيل والتشبيه».

فالمقصودُ: أنَّ ما وُضع من الأسماء إنما هي صفاتٌ لمَن سُمِّي بها، وما سُمِّي به العظيم هي صفاتٌ حسنىٰ للعظيم تختص بكماله لا تُماثِلُ صفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافته إليه، فإذا قالت: سَمْعُ العبد، وبصرُه، وكلامه، وعِلمُه، وإرادته، ورحمته، فما يخص به يتناول ذلك خصائص العبد.

وإذا قيل: سَمْعُ الله، وبصرُه، وكلامه وعِلمُه، وإرادته، ورحمته، كان هذا متناولًا لما يخص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين».

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣١، ١٠٣٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٠٨).

وكلُّ ما وَصَف الله به نفسه ﷻ، فلا تتوهَّمْ فيه الاعتقادات الباطلة من مماثلة المخلوقين، ولا تنفي ما أخبر الله به عن نفسه فتكون من المُكذِّبين.

وعامَّةُ الخَلقِ يُثبِتُون صفة العلم لله ﷻ، وينفون أن يكون علمُه كعلم المخلوقين، فالواجبُ: إثبات جميع صفات الله بما يليق بكماله من غير تعطيلٍ لها ولا تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ عِلْمَ الله ليس من جنس علومنا، ولا مماثلًا له، وأنَّا لا نستطيعُ أنْ نَعْلَمَ كعِلم الله تعالىٰ، هذا من أوضح الأمور وأبينها عند الخاصة والعامة؛ فإنَّ أحدًا من الخلق كما لا يظن أن ذاته كذات الله تعالىٰ، لا يظن أن عِلمَهُ كعِلم الله تعالىٰ.

ومن المعلوم لكل أحدٍ أنَّ الله أكبر وأعظم مما تعلمونه وتقولونه فيه، فكذلك عِلمُه وقدرته وسائر صفاته أكبر وأعظم من أنْ يُعلمَ كُنْهُ عِلمِه أو يُوصَفَ.

ولمْ يَقُلْ أحدٌ من البشر: إنَّ عِلْمَ الله تعالىٰ مثل عِلْمِنا، ولا تَوهَّم أحدٌ ذلك ولا تَخيَّله».

وقولُ شيخ الإسلام: «وكان جهم يُنكر أن يُسمىٰ الله شيئًا، وربما قالت الجهمية: هو شيء لا كالأشياء»، فالله يُخبر عنه أنه شيءٌ، ولا يُسمىٰ بذلك، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكذلك أخبرنا الله عن نفسه فقال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ولا يُسمىٰ بذلك.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٠٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالىٰ أوسعُ ممَّا يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه؛ فإنه يُخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ مَا يُطلق عليه -سبحانه- في باب الأسماء والصفات توقيفيٌّ، وما يُطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًّا؛ كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه».



(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦١)، ط- دار الكتاب العربي- بيروت.
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٢).

قال المصنف رحمه الله:

والمعاني التي يُوصف بها الرب تبارك وتعالى، كالحياة والعلم والقدرة، بل الوجود والثبوت والحقيقة ونحو ذلك، تجب له لوازمها؛ فإن ثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم، وخصائص المخلوق التي يجب تنزيه الرب عنها ليست من لوازم ذلك أصلًا، بل تلك من لوازم ما يختص بالمخلوق من وجودٍ وحياةٍ وعِلمٍ ونحو ذلك، واللهُ سبحانه وتعالى منزَّه عن خصائص المخلوق وملزومات خصائصه.

وهذا الموضعُ مَن فَهِمَهُ فَهْمًا جيدًا وتَدبَّره، زالت عنه عامَّةُ الشبهات، وانكشف له غلطُ كثيرٍ من الأذكياء في هذا المقام، وقد بُسط هذا في مواضعَ كثيرةٍ، وبُيِّن فيها أنَّ القَدْر المشترك الكلي لا يُوجد في الخارج إلا معيَّنًا مقيَّدًا، وأن معنىٰ اشتراك الموجودات في أمرٍ من الأمور هو تشابهها من ذلك الوجه، وأن ذلك المعنىٰ العام يُطلق علىٰ هذا وهذا، لا أن الموجودات في الخارج يشارك أحدهما الآخَر في شيءٍ موجودٍ فيه، بل كلُّ موجودٍ متميّزٌ عن غيره بذاته وصفاته وأفعاله[1].



الشَّرح

الله عز وجل موصوف بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وإثبات ما أَثبَتَهُ الله لنفسه من الصفات علىٰ ما يليق به توحيدٌ وتعظيم؛ فإنّ صفاته اللائقة بعظمته لا يماثلها مخلوق، فكان في إثباتها كذلك تعظيم الله وتنزيهه عن الأنداد وعن مماثلة العِباد.

فصفات الله عز وجل مخصوصة به، اختصاصُها ينفي عنها مماثلة ما سواه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

---

(١) التدمرية (ص١٢٧، ١٢٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إنّ خصائص الرب تعالىٰ لا يُوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته».

فالمُوحِّدون عرفوا ربهم متفرِّدًا بصفات الكمال، فلمْ يشركوا به في توحيد العلم والمعرفة، ولمْ يشبهوه بمخلوق.

وليس فيما أخبر الله به عن نفسه تنديدٌ ولا تشبيهٌ له بمخلوق، ذلك ظَنُّ المُجَسِّمةِ والمُعطِّلة، وذلك من إلحادهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

والذي يدفع عن نفوس المُوحِّدين أوهام مماثلة الله لخَلقِه أو مشابهتهم: معرفة العلي العظيم الذي كَمُلَ في ذاته وصفاته وأفعاله، فله الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

والله ﷻ إنّما أخبرنا عن صفاته لنثني عليه بها؛ فإنها صفاتُ كمالٍ دالَّةٌ علىٰ كمال الموصوف بها.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

(١) منهاج السنة (٢/ ١١١).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: العلي في ذاته، فهو عالٍ علىٰ جميع المخلوقات، وفي قَدْرِه فهو كامل الصفات، وفي قَهْرِه لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أنّ الأرض قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه. ومن كبريائه: أنّ كرسيه وَسِعَ السماوات والأرض.

ومن عظمته وكبريائه: أنّ نَواصِيَ العِباد بيده، فلا يَتصرَّفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا مَلكٌ مُقرَّب، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، أنّها كلُّ صفةِ كمالٍ وجلال، وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أَجَلّها وأكملها.

ومن كبريائه؛ أنّ العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها: تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارًا للعبادات الكِبار، كالصلاة وغيرها».

ومعرفة المسلم بكمال صفات الله ﷻ كانت سببًا في يقين اعتقاده أن صفات الله ليس كمثلها شيء، وفي تَدبُّرِ ذلك زيادةُ يقينٍ بحقيقة وصِدْقِ هذا الاعتقاد، فصفة الخلق لله ﷻ لا يشركه فيها غيره، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وصفة الخلق دالَّةٌ علىٰ كمالِ صفةِ الله في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٣٣٥).

وانظر إلىٰ عِظَمِ خَلْقِ السماوات والأرضين، وعدد ونوع ما خلق الله، منذ بدأ الخلق إلىٰ يوم القيامة، ما أَيْسَر إعادةَ خَلقِهم وبَعْثهم علىٰ الله! قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إلهٌ واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة.

ولهذا نَبَّه علىٰ عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو عِلمُه المحيط، فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعِلْمِنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: ارتفع وعَظُمَ.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، ولا عِلْمَ عندهم، إلا ما عَلَّمهم الله».

ونفيُ صفات الله ﷻ إبطالٌ لألوهيته، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، والله ﷻ موصوف بصفات الكمال.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات لمَّا أثبتوا واحدًا لا يتصف بشيء من الصفات، كانوا عند أئمة العلم الذين يعرفون حقيقة قولهم إنَّما توحيدهم تعطيلٌ مستلزم لنفي الخالق».

ومذهب المعطلة النفاة تكذيبٌ للقرآن والسُّنة، وإبطالٌ لألوهية العظيم، وردٌّ لدلالة الفطرة والحِسِّ والعقل الصريح علىٰ كمال صفات الله الدالَّة علىٰ ألوهيته.

فمَن لم يَعْرِف الله بصفات كماله فهو من الضالين.

قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

[النمل: ٦٠-٦٤].

فالمسلمون عرفوا الله خالقًا رازقًا هاديًا مجيب الدعاء، وملاحدة المعطلة الجهمية والمعتزلة نفوا صفات العظيم.



(١) منهاج السنة (٢/ ١٤٣).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمَّا كان الأمر كذلك كان كثير من الناس يتناقض في هذا المقام، فتارةً يظن أن إثبات القَدْر المشترك يوجب التشبيه الباطل، فيجعل ذلك له حُجَّة فيما يظن نفيه من الصفات، حذرًا من ملزومات التشبيه؛ وتارةً يتفطَّن أنه لا بُدَّ من إثبات هذا على كلِّ تقديرٍ، فيجيب به فيما يثبته من الصفات لِمَن احتج به من النفاة[(١)].

الشَّرح

ذاتُ الله جَلَّ جَلَالُهُ مخصوصة بصفاتها، وذَوات المخلوقين مختصة بصفاتها، فالله جَلَّ جَلَالُهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في ذاته وصفاته، فإثبات صفات الله لا يستلزم محذورًا، وليس هو تمثيلًا ولا تشبيهًا للخالق بالمخلوق.

ومَنْشَأُ ضَلالِ المعطلة النافية لصفات الله جَلَّ جَلَالُهُ توهُّمُهم أنَّ مُسمَّىٰ ما وَصَف الله به نفسه هو مُسمَّىٰ المخلوق، فكان ذلك سببًا لنَفْيِهِم ما وَصَف الله به نفسه.

وليس مُسمَّىٰ ما وَصَف الله به نفسه هو مُسمَّىٰ صفات المخلوقين، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالمخلوق ليس هو الخالق، والمَربوب ليس هو الرب، والقائم بنفسه الغني بذاته ليس هو الفقير الذي قيامه بالله إيجادًا وإعدادًا وإمدادًا.

فأحقُّ الناس بالتنزيه هم أهل السُّنة والجماعة الذين أَثبَتُوا ما أَثْبَتَهُ الله جَلَّ جَلَالُهُ لنفسه، علىٰ ما يليق به سبحانه، فلَمْ يُمثِّلوه بالعدم كالمعطلة النفاة من الجهمية والمعتزلة، ولَمْ يُمثِّلُوا صفات الله بخلقه كالمُمثِّلة المُجَسِّمة.

(١) التدمرية (ص١٢٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مذهب سلفِ الأمَّة وأئمتها: أن يُوصف الله بما وَصَف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، يُثبِتُون لله ما أَثْبَتَهُ من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، يُثبِتُون له صفات الكمال، وينفون عنه ضُروب الأمثال، ينزِّهونه عن النقص والتعطيل وعن التشبيه والتمثيل، إثباتٌ بلا تشبيهٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ المُمَثِّلَة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ المعطلة».

وقول شيخ الإسلام: «وتارة يتفطن أنّه لا بُدَّ من إثبات هذا علىٰ كل تقدير، فيجيب به فيما يثبته من الصفات لمَن احتجَّ به من النفاة»، تبيينٌ لتناقُضِ المعطلة تعطيلًا جزئيًّا كالأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات لله ﷻ كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وينفون أكثر صفات الله حذرًا من التشبيه بزعمهم.

فإذا كان إثبات صفات الله كالحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة ليس تمثيلًا لمخلوق، فالقول في سائر صفات الله كذلك، فصفات الله ﷻ مختصة به لا تُماثِلُ صفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد سمَّىٰ الله ﷻ ورسوله ﷺ صفات الله تعالىٰ علمًا وقدرة وقوة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ

(١) منهاج السنة (٢/ ١١١).
(٢) منهاج السنة (٢/ ١١٥).

بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، وقال : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، ومعلوم أنّه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة.

وهذا لازِمٌ لجميع العقلاء؛ فإنَّ مَن نفىٰ بعض ما وَصَف الله به نفسه كالرضا والغضب والمحبة والبغض ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم. قيل له: فأنتَ تُثْبِتُ له الإرادة والكلام والسمع والبصر، مع أنّ ما تثبته ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما أَثْبَتَّهُ مثلَ قولِكَ فيما نفيته وأَثْبَتَهُ اللهُ ورسولُه؛ إذ لا فَرْقَ بينهما».




قال المصنف رحمه الله:

ولكثرة الاشتباه في هذا المقام وقعت الشبهة في أنَّ وجود الرب هل هو عينُ ماهيته، أو زائدٌ على ماهيته؛ وهل لفظُ «الوجود» مقول بالاشتراك اللفظي، أو بالتواطؤ، أو التشكيك، كما وقع الاشتباه في إثبات الأحوال ونفيها، وفي أن المعدوم هل هو شيء أَمْ لا؟ وفي وجود الموجودات هل هو زائدٌ على ماهيتها أَمْ لا؟

وقد كَثُرَ من أئمة النُّظَّار الاضطراب والتناقض في هذه المقامات، فتارةً يقول أحدهم القولين المتناقضين، ويحكي عن الناس مقالاتٍ ما قالوها، وتارةً يبقى في الشك والتحيُّر، وقد بَسطنا من الكلام في هذه المقامات، وما وقع من الاشتباه والغلط والحيرة فيها لأئمة الكلام والفلسفة، ما لا تتسع له هذه الجُمَل المختصرة.

وبيَّنا أنَّ الصواب: هو أنَّ وجودَ كلِّ شيءٍ في الخارج هو ماهيته الموجودة في الخارج، بخلاف الماهية التي في الذهن فإنها مُغايِرة للموجود في الخارج، وأنَّ لَفْظَ «الوجود» كلفظِ «الذات» و«الشيء» و«الماهية» و«الحقيقة» ونحو ذلك، وهذه الألفاظ كلها متواطئة، وإذا قيل: إنها مشكِّكة، لتفاضُلِ معانيها، فالمشكِّك نوع من المتواطئ العام الذي يُراعى فيه دلالة اللفظ على القَدْر المشترك، سواءٌ كان المعنى متفاضلًا في موارده، أو متماثلًا.

وبيَّنا أنَّ المعدوم شيء أيضًا في العلم والذهن، لا في الخارج، فلا فرق بين الثبوت والوجود، لكن الفرق ثابت بين الوجود العلمي والعيني، مع أن ما في العلم ليس هو الحقيقة الموجودة، ولكن هو العلم التابع للعالم القائم به.

وكذلك الأحوال التي تتماثل فيها الموجودات وتختلف، لها وجودٌ في الأذهان، وليس في الأعيان إلا الأعيان الموجودة، وصفاتها القائمة بها المعيَّنة، فتتشابه بذلك وتختلف به.

وأمَّا هذه الجُمَل المختصرة فإنَّ المقصود بها التنبيه علىٰ جُمَلٍ مختصرة جامعة، مَن فَهِمَها عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِها، وانفتح له بابُ الهدىٰ، وإمكان إغلاق باب الضلال، ثُمَّ بَسْطُها وشَرْحُها له مقامٌ آخَرُ؛ إذ لكلِّ مقامٍ مَقالٌ.

والمقصود هنا: أن الاعتماد علىٰ مثل هذه الحُجَّة فيما يُنفىٰ عن الرب، ويُنزَّه عنه - كما يفعله كثيرٌ من المُصنِّفين - خطأٌ لمَن تدبَّر ذلك، وهذا من طُرُقِ النفي الباطلة[١].

الشَّرْح

كلام شيخ الإسلام في الماهية أراد به إظهار ضلال وفساد وبطلان اعتقاد المعطلة النافية الجهمية الذين أنكروا صفات الله؛ وأنّ هذا من أوهامِ وخيالِ أذهانهم، ليس له حقيقة في الواقع، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنْ أراد -الرافضي- بالواحد ما تريده الجهمية نفاة الصفات من أنّه ذاتٌ مُجرَّدة عن الصفات، فهذا «الواحد» لا حقيقة له في الخارج، وإنّما يُقدَّر في الأذهان لا في الأعيان، ويمتنع وجودُ ذاتٍ مجردة عن الصفات، ويمتنع وجودُ حيٍّ عليم قدير، لا حياة له ولا عِلْمَ ولا قدرة، فإثبات الأسماء دون الصفات سَفْسَطة في العقليات وقَرْمَطة في السمعيات».

وكلام شيخ الإسلام في حقيقة الرب الموصوف بصفات الكمال، فيه تحذيرٌ من اعتقاد المعطلة النفاة لصفات رب العالمين الذين جعلوه معدومًا.

(١) التدمرية (ص١٢٨-١٣١).
(٢) منهاج السنة (٢/ ١٣٣، ١٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه لا يكون إلا معدومًا؛ وأنّه يمتنع وجودُ ما هو كذلك».

وحقيقة الماهية: هو أنّ الله ﷻ موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة بذاته، وقد سأل أقوام من المشركين النبيَّ ﷺ عن ربه، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، رواه النسائي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فنزّهه وقدّسه عن الأصول والفروع، والنُّظَراء والأمثال. وليس في المخلوقات شيءٌ إلا ولا بُدَّ أنْ يُنسب إلىٰ بعض هذه من الأعيان والمعاني».

وقد سأل فرعونُ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن ماهية الله، فقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] فأجابه موسىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنّ نفي المثل عنه والسَّمِيّ والمُساوِي يقتضي نفي ذلك في كل شيء، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الأشياء قط، لا في شيء من معاني أسمائه وصفاته، ولا في شيء من أفعاله ومخلوقاته».

---

(١) منهاج السنة (٢/ ١٤٩).
(٢) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١١٥).
(٣) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١١٦، ١١٧).

وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «مُحالٌ في حقِّ الرب أن يكون موصوفًا بالصفات التي لحقيقة العبد، ومُحالٌ في حق العبد أن يكون موصوفًا بصفات حقيقة الرب».

ماهية الله ﷻ: اختصاصُه بصفات الكمال، فليس له كُفْؤ في ذلك، فهو أَحَد، ولا أَحَد سواه يُحب لذاته؛ فإنه لا إله إلا الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

وكل النعم فمِنَ الله وحده، لذلك كان شكرُه أن لا يُعبد إلا هو.

ماهية ربِّ العالمين: أنّه الأول فليس قبله شيء، وأنّه أوجدَ الخَلقَ جميعًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الأول ليس قبله شيء؛ إذ هو خالقُ كلِّ شيء، والآخِرُ ليس بَعْدَهُ شيء، أي: إليه يصير العِباد».

ماهية الرب ﷻ: أنّ إليه المصير، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ فلذلك وجب أن يكون سعيُ المخلوق في تحقيق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ماهية الرب: أنّه لا يُسأل عمّا يفعل لكمال إلهيته، وهو لا يفعل إلا لحكمة، والخَلقُ كلهم يسألهم اللهُ، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٢٠).
(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٦٤).

ماهية الله ﷻ: أنّه هو الحق، وتفرَّد بالألوهية، وكل ما سواه فهو باطلٌ، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وتفرُّده بالألوهية هو ما أوجب حقَّهُ في عبادته، وأن لا يكون لغيره شِرْكٌ في حق الله الخالص.

ماهية الله ﷻ: أنّه هو الحق، ولذلك كان حقُّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «حقُّ اللهِ علىٰ العِباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العِباد علىٰ الله: أن لا يُعذِّبَ مَن لا يشرك به شيئًا»، رواه البخاري ومسلم.

حقيقة ربنا: أنه ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن عظمته: أننا لا نحيط به علمًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن عظمته: أننا لا نحصي ثناءً عليه، وقد استأثر في علم الغيب عنده بعض أسمائه الحسنىٰ، فلمْ يَبْلُغْهَا عِلْمُنا.

حقيقة ربنا: أنه ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ [طه: ١١٤]، وكلنا مملوكون له، نواصينا بيده، حتىٰ ملوك الدنيا.

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رحمه الله[(١)]: «هو الذي له المُلكُ التام المُطْلَق، له صفات الملك التي هي نُعوت العظمة والكبرياء والعِزّ والسلطان، وله التصرُّف المطلق في جميع الممالك الذي لا ينازعه فيه منازِعٌ، والموجودات كلها عبيده وملكه، ليس لهم من الأمر شيء».

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٥).

فالعظمة والكبرياء والعِزُّ حقيقة أوصاف ربِّ العالمين، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وكبرياء ربنا وعظمته وعِزُّه وألوهيته كلها مَحامِد، فالله هو الغني الحميد، قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلىٰ دار السلام، وحميدٌ في أفعاله التي لا تَخْرُجُ عن الفضل والعدل والحكمة، وحميدُ الأوصاف؛ لأن أوصافه كلها مَحاسِن وكمالات لا يُدْرِكُ العِبادُ كُنْهَها، ولا يُقَدِّرُونها حقَّ قَدْرِها».

حقيقة رب العالمين: علوُّه علىٰ عرشه، ومباينته لخلقه، لا سبيل لمخلوق أن يُدرِكَ علو ذاته وقَدْرِه وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

عظمة ربنا وجلال صفاته غايةٌ في الكمال، ولا يطيق الخَلْقُ رؤيته في الدنيا، ويجعل الله في عباده المؤمنين يوم القيامة من القوة ما يُمكِّنهم من رؤيته من غير إحاطة، قال النبي ﷺ: «إنّ الله نورٌ وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خَلقِه»، رواه مسلم.

ماهية الله ﷻ: أنّه ربُّ كلِّ شيء، وماهية المخلوق: أنّه مربوب لله رب العالمين، وبذلك نَعْرِفَ أنّ صفات الله كمالٌ، لا تُماثِلُ صفات المخلوقين، لذلك هو رب كل شيء ومليكه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]،

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٩٤).

وقال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ماهية الله ﷻ: قيامه بنفسه وغناه عن خلقه، وماهية المخلوق: افتقاره إلىٰ ربوبية الله؛ فهو الذي خَلَقَهُ وتَولَّاه تدبيرًا وحفظًا وهدايةً ورزقًا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ومن ربوبيته سبحانه: خلقُه لأفعال العِباد، وهدايتهم لأسباب عبادته، والتألُّه له وحده لا شريك له، وبذلك نَعْرِف ضرورة كل مخلوق إلىٰ إعانة الله في عبادته، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المقصود هنا أنّه إذا كان قصدُه وفعلُه مخلوقًا مربوبًا له، لا يُوجد إلا بمشيئته وقدرته وربوبيته وإعانته، إذ يمتنع أن يكون حادثًا بنفسه أو حادثًا من غير مُحدِث، فكذلك أيضًا يجب أن يكون لله، مُبتغي به وجه الله، لا يفعل إلا لمحبته ورضاه وإلهيته وعبادته».



(١) جامع المسائل،المجموعة السادسة (ص١١٢).


قال المصنف رحمه الله:

فصلٌ.

وأَفْسَدُ من ذلك: ما يسلكه نفاة الصفات أو بعضها، إذا أرادوا أن ينزِّهوه عما يجب تنزيهه عنه مما هو من أعظم الكفر، مثل أن يريدوا تنزيهه عن الحزن والبكاء ونحو ذلك، ويريدون الرد علىٰ اليهود الذين يقولون: إنه بكىٰ علىٰ الطوفان حتىٰ رَمِدَ وعادته الملائكة، والذين يقولون بإلهية بعض البشر، وأنه الله.

فإنَّ كثيرًا من الناس يحتج علىٰ هؤلاء بنفي التجسيم أو التحيز ونحو ذلك، ويقولون: لو اتصف بهذه النقائص والآفات لكان جسمًا أو مُتحيِّزًا، وذلك ممتنع.

وبسلوكهم مثل هذه الطريق استظهر عليهم الملاحدة، نفاة الأسماء والصفات، فإن هذه الطريق لا يحصل بها المقصود لوجوه:

أحدها: أنَّ وَصْف الله تعالىٰ بهذه النقائص والآفات أظهر فسادًا في العقل والدين من نفي التحيز والتجسيم، فإن هذا فيه من الاشتباه والنزاع والخفاء ما ليس في ذلك، وكُفْرُ صاحب ذلك معلومٌ بالضرورة من دين الإسلام، والدليلُ مُعرِّفٌ للمَدْلُول، ومُبيِّنٌ له، فلا يجوز أن يُستدل علىٰ الأظهر الأبين بالأخفىٰ، كما لا يُفعل مثل ذلك في الحدود.

الوجه الثاني: أن هؤلاء الذين يصفونه بهذه الآفات يمكنهم أن يقولوا: نحن لا نقول بالتجسيم والتحيز، كما يقوله مَن يُثْبِتُ الصفات وينفي التجسيم، فيصير نزاعهم مثل نزاع مُثْبِتَة صفات الكمال، فيصير كلامُ مَن وَصَف الله بصفات الكمال وصفات النقص واحدًا، ويبقىٰ ردُّ النفاة علىٰ الطائفتين بطريقٍ واحد، وهذا في غاية الفساد.

الثالث: أن هؤلاء ينفون صفات الكمال بمثل هذه الطريقة، واتصافه بصفات الكمال واجب، ثابت بالعقل والسمع، فيكون ذلك دليلًا علىٰ فساد هذه الطريقة.

الرابع: أن سالكي هذه الطريقة متناقضون، فكلُّ مَن أَثبَتَ شيئًا منهم ألزمه الآخَرُ بما يوافقه فيه من الإثبات، كما أنَّ كلَّ مَن نفىٰ شيئًا منهم ألزمه الآخَرُ بما يوافقه فيه من النفي، فمثبتة الصفات كالحياة والعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، إذا قالت لهم النفاة كالمعتزلة: هذا تجسيم؛ لأن هذه الصفات أعراض، والعَرَض لا يقوم إلا بالجسم، فإنَّا لا نَعْرِف موصوفًا بالصفات إلا جسمًا؛ قالت لهم المثبتة: وأنتم قد قلتم: إنه حيٌّ عليم قدير، وقلتم: ليس بجسمٍ، وأنتم لا تعلمون موجودًا حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا، فقد أثبتموه علىٰ خلاف ما علمتم، فكذلك نحن، وقالوا لهم: أنتم أثبتُّم حيًّا عالمًا قادرًا، بلا حياةٍ ولا علمٍ ولا قدرة، وهذا تناقضٌ يُعلم بضرورة العقل.

ثم هؤلاء المثبتة إذا قالوا لمَن أَثبَتَ أنه يرضىٰ ويغضب ويحب ويبغض، أو مَن وَصَفه بالاستواء والنزول والإتيان والمجيء، أو بالوجه واليد ونحو ذلك؛ إذا قالوا: هذا يقتضي التجسيم، لأنَّا لا نَعْرِف ما يُوصف بذلك إلا ما هو جسم، قالت لهم المثبتة: فأنتم قد وصفتموه بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، وهذا هكذا، فإنْ كان هذا لا يُوصف به إلا الجسم فالآخَرُ كذلك، وإنْ أمكنَ أنْ يُوصفَ بأحدهما ما ليس بجسم فالآخَر كذلك، فالتفريق بينهما تفريقٌ بين المتماثلين.

ولهذا لمَّا كان الردُّ علىٰ مَن وَصَف الله تعالىٰ بالنقائص بهذه الطريق طريقًا فاسدًا؛ لم يسلكه أَحدٌ من السلف والأئمة، فلم ينطق أَحدٌ منهم في حق الله تعالىٰ بالجسم لا نفيًا ولا إثباتًا، ولا بالجوهر والتحيُّز ونحو ذلك؛ لأنها عباراتٌ مجملة لا تُحِقُّ حقًّا ولا تُبطِلُ باطلًا، ولهذا لم يَذْكُرِ اللهُ في كتابه فيما أنكره علىٰ اليهود وغيرهم من الكفار، ما هو من هذا النوع، بل هذا هو من الكلام المبتَدَع، الذي أنكره السلف والأئمة[١].

---

(١) التدمرية (ص١٣٢-١٣٦).

الشَّرْح

الردُّ علىٰ باطلِ مَن وَصَف الله بالنقائص لا يكون بنفي صفات الله ﷻ، فالباطل لا يُردُّ عليه بالباطل، وإنّما يُردُّ عليه بالحق.

واستعمل الجهمية والمعتزلة ألفاظًا مُجمَلَة كـ «الجسم» و«الجزء» لردِّ خبرِ الله ﷻ ورسوله ﷺ، والمسلمون لا يَدَعُونَ كتابَ ربهم وسُنةَ نبيهم لقولِ جهميٍّ ولا معتزلي.

والله ﷻ لا يُخبِرُ إلا بحقٍّ وصدقٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، والرسول ﷺ لا ينطق الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

فعلىٰ المؤمن أن يتلقَّىٰ ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه وما أخبر عنه رسوله ﷺ بالتصديق، فذلك من حقائق الإيمان بالله ورسوله، وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح جميعًا في أخبار الوحي عن صفات الله ﷻ كلهم قالوا: «أَمِرُّوها كما جاءت».

والصديقية من حقائقها: التصديق بأخبار الله ﷻ، وكان السلف خير الأمّة علىٰ ذلك، قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنّا والتابعون متوافرون نقول: إنّ الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردتْ به السُّنة من صفاته».

والجهمية والمعتزلة ما آمنوا بمثل ما آمن به السابقون الأولون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والمسلم يتلقَّىٰ عقيدته عن سلفِ الأمّة؛ فيكون من المهتدين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ولا يتلقَّىٰ المسلم عقيدته عن الجهمية والمعتزلة.

وطريقة الجهمية والمعتزلة في إنكار صفات الله وعلوه علىٰ خلقه تحكي حقيقة ما امتلأت به قلوبهم من توهُّمِ مشابهة الله بالمخلوقات، لذلك أحدثوا ألفاظًا مجملة كـ «الجزء» و«الجسم» لتكذيب ما أخبر الله به عن نفسه من صفاته.

واللهُ ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] موصوفٌ بصفات الكمال، وصفاته قائمة به، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وليس فيما أخبر الله به عن نفسه محذور ليكذِّبه الجهمية والمعتزلة.

فاستعمالُ المعطلة النافية لَفْظ «الجزء» و«الجسم» لتكذيب ما أخبر الله به عن نفسه، مردودٌ عليهم، واللهُ ﷻ موصوف بأنّه ﴿أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، صفاته قائمة به.

وليس ما أخبر الله به عن نفسه تجسيم بمعنىٰ تمثيل للخالق بالمخلوق كما هو في اصطلاح واستعمال المعطلة؛ فإنّ ما أخبر الله به عن نفسه إنّما هو خبرٌ عن صفاته التي هي غاية في الكمال ولا تُماثِلُ صفات المخلوقين.

واللهُ ﷻ ﴿أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢] غَيْر مُتعدِّد إلىٰ أجزاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فصفاته قائمة به، فهو أَحدٌ صَمدٌ، حيٌّ قيوم، عظيم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ليست صفاته خارجة عن مُسمَّىٰ اسمه».

فالاعتصام بالكتاب والسُّنة، ووَصْفُ الله ﷻ بالألفاظ التي وَصَف الله بها نفسه ووَصَفه بها رسوله ﷺ، نجاةٌ من ضلالات الجهمية والمعتزلة الذين كذَّبوا أخبار الوحي لألفاظٍ مجملة من اصطلاحاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الواجب: أن يُنظر في هذا الباب، فما أثبتَه الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يُعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني».

فالمعطلة استخدموا ألفاظًا مجمَلة لم تَرِدْ في القرآن والسُّنة ليتوصلوا بها إلىٰ إبطال ما وَصَف الله به نفسه، ولإضلال الخَلق عن ألفاظ ومعاني الوحي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «سُئل أبو العباس ابن سُرَيْجٍ عن التوحيد، فذَكَر توحيد المسلمين، وقال: وأمَّا توحيد أهل الباطل: فهو الخوض في الجواهر والأعراض؛ وإنما بعثَ اللهُ النبيَّ ﷺ بإنكار ذلك، ولم يُرِدْ بذلك أنه أنكر هذين اللفظين؛ فإنهما لم يكونا قد أُحدثا في زمنه؛ وإنما أراد إنكار ما يعني بهما من المعاني الباطلة».

استخدمَ المبتدعة لَفْظ «الجسم» لإنكار قيام صفات الكمال بالله.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٩٦).

(٢) منهاج السنة (٢/ ٥٥٤).

(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إن أول مَن تكلم بالجسم نفيًا وإثباتًا هم طوائف من الشيعة والمعتزلة».

فصار قول المبتدعة «إن الله ليس بجسمٍ» سبيلًا لهم إلىٰ إنكار صفات الله التي أَثبتَها لنفسه وأَثْبَتَها له رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «قالوا -الجهمية-: إن الرب لا تقوم به الصفات ولا الأفعال؛ فإنها أعراضٌ وحَوادث، وهذه لا تقوم إلا بجسم، والأجسام مُحدَثَة، فيلزم أن لا يقوم بالرب علمٌ، ولا قدرة، ولا كلام، ولا مشيئة، ولا رحمة، ولا رضا، ولا غضب، ولا غير ذلك من الصفات، بل جميع ما يُوصف به من ذلك؛ فإنما هو مخلوقٌ منفصل عنه».

واستخدم المعتزلة لَفْظ «الجهة» لنفي علوِّ الله، ونفي رؤية المؤمنين لرب العالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «كانوا يُعبِّرون عن ذلك بعباراتٍ مُبتدَعَة فيها إجمالٌ وإبهام، كقولهم: ليس بمتحيِّز، ولا جِسْم، ولا جَوْهر، ولا هو في جهة، ولا مكان، وأمثال هذه العبارات التي يَفهم منها العامة تنزيه الرب تعالىٰ عن النقائص، ومقصودهم بها: أنه ليس فوق السماوات ربٌّ، ولا علىٰ العرش إلهٌ يُعبد، ولا عُرج بالرسول ﷺ إلىٰ الله ﷻ».

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٩٠).
(٢) منهاج السنة (١/ ٣١٢).
(٣) المراكشية (ص٥٦، ٥٧).

فالواجبُ: استعمال ألفاظ القرآن والسُّنة في توحيد الأسماء والصفات؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يُقال فيها إلا بنصٍّ من الوحي، وألفاظ نصوص القرآن والسُّنة عصمةٌ من اللوازم الباطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لم ينطق كتابٌ، ولا سُنةٌ، ولا أثرٌ من السلف بلفظ «الجسم» في حق الله تعالىٰ، لا نفيًا ولا إثباتًا، فليس لأحد أن يبتدع اسمًا مجمَلًا يحتمل معاني مختلفة لم ينطق به الشرع، ويُعلِّق به دِين المسلمين، ولو كان قد نطق باللغة العربية، فكيف إذا أَحْدَثَ للفظِ معنًىٰ آخر؟!

والمعنىٰ الذي يقصده إذا كان حقًّا عَبَّر عنه بالعبارة التي لا لَبْسَ فيها، فإذا كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة، وأن الله ليس كمثله شيء، وهو سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كُفؤ له، فهذه عباراتُ القرآنِ تُؤدِّي هذا المعنىٰ بلا تلبيسٍ ولا نزاع».



(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٧/ ٣٤٥).



فصلٌ.

وأمَّا في طُرُق الإثبات: فمعلومٌ أيضًا أنَّ المُثبِتَ لا يكفي في إثباته مجرَّد نَفْي التشبيه؛ إذ لو كفىٰ في إثباته مجرَّد نَفْي التشبيه لجاز أن يُوصف الله ﷻ من الأعضاء والأفعال بما لا يكاد يُحصىٰ مما هو ممتنِعٌ عليه مع نفي التشبيه، وأن يُوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه، كما لو وَصَفه مُفترٍ عليه بالبكاء والحزن والجوع والعطش مع نفي التشبيه، وكما لو قال المُفترِي: يأكل لا كأكلِ العِباد، ويشرب لا كشُرْبِهم، ويبكي ويحزن لا كبكائهم ولاحزنهم، كما يُقال: يضحك لا كضحكهم، ويفرح لا كفرحهم، ويتكلم لا ككلامهم، ولجاز أن يُقال: له أعضاء كثيرة لا كأعضائهم، كما قيل: له وجهٌ لا كوجوههم، ويَدانِ لا كأيديهم، حتىٰ يَذْكُرَ المَعِدَة والأمعاء والذَّكَر، وغير ذلك ممَّا يَتعالىٰ اللهُ ﷻ عنه، ﷻ عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

فإنه يُقال لمَن نفىٰ ذلك مع إثبات الصفات الخبرية وغيرها من الصفات: ما الفَرق بين هذا وبين ما أثبتَّه، إذا نفيتَ التشبيه، وجعلتَ مجرد نفي التشبيه كافيًا في الإثبات؟ فلا بُدَّ من إثباتِ فَرْقٍ في نفس الأمر[1].



تشبيه الخالق بالمخلوق ممتنع؛ فإنّ الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ونفيُ ما أَثبتَهُ الله لنفسه لتوهُّمِ مماثلتها صفات المخلوقين، تكذيبٌ لِمَا يُخبِر الله به عن نفسه.

(١) التدمرية (ص١٣٦-١٣٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إثباتُ شيءٍ من خصائص المخلوقين لله، فكلُّ قولٍ تضمَّن هذا فهو باطلٌ».

وكلُّ ما وَصَف الله به نفسه فهو صفةُ كمال، وتعظيم الله يكون بإثبات ما أَثبَتَه الله لنفسه، لا بنفي ما أَثبَتَه الله لنفسه تكذيبًا وتحريفًا لتوهُّمِ مشابهة صفاته لصفات المخلوقين، ولا يكون تعظيم الله بوصفه بالنقائص -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- ، قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

والكلام في صفات الله ﷻ إثباتًا ونفيًا، يرجع إلىٰ ما دلَّ عليه السمع وعَضّدته الفطرة المستقيمة والعقل الصريح ممَّا يليق بكمال ربوبية الله وعظمة أسمائه وصفاته، فهو أحدٌ ليس كمثله شيء، وصمدٌ موصوف بصفات الكمال.

ومن المعلوم المتيقن: أنّ الله نزَّه نفسه عن صفات النقص التي وَصَفَه بها اليهود ومشركو العرب، فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وسيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَرفَ ربَّه بكماله، وأنكر الأنداد لنقصها، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقول شيخ الإسلام: «لا يكفي في إثباته -صفات الله- مجرَّد نَفْي التشبيه؛ إذ لو كفىٰ في إثباته مجرَّد نَفْي التشبيه لجاز أن يُوصف الله ﷻ من الأعضاء والأفعال بما

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ١٤٦).

لا يكاد يُحصىٰ مما هو ممتنِعٌ عليه مع نفي التشبيه، وأن يُوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه، كما لو وَصَفه مُفتَرٍ عليه بالبكاء والحزن والجوع والعطش مع نفي التشبيه»، فيه تحذيرٌ من دعوىٰ الضالين، كالجهمية الصوفية الذين يثبتون لله النقائص بدعوىٰ أنه لا موجود إلا هو؛ فإنَّ ما يُثبت لله ﷻ هو ما أخبر الله به عن نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وما يُثبت لله فهو كمالٌ مع عدم مماثلة المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من هؤلاء الجهمية الاتحادية مَن يقول: إنّه موصوف بكل النقائص والعيوب، كما هو موصوف عنده بكل المدائح؛ إذ لا موجود عنده إلا هو، فله جميع النعوت: محمودها ومذمومها.

وهذا القائل يدَّعِي أنّ هذا غاية الكمال المطلق، كما قال ابن عربي وغيره: «العلي لذاته هو الذي يكون له الكمال المطلق، الذي يتضمن جميع الأمور الوجودية والنِّسَب العدمية، سواءٌ كانت محمودةً عقلًا وشرعًا وعُرفًا، أو مذمومةً عقلًا وشرعًا وعرفًا، وليس ذلك إلا لمُسمَّىٰ الله خاصةً».

وجمهور العقلاء الذين يتصورون هذا القول، يقولون: هذا معلومُ الفساد بالحِسِّ والعقل، كما هو كفرٌ باتفاق أهل المِلَل».

وحقيقة قول الجهمية الاتحادية الصوفية: هو الشرك والتنديد، وتمثيلُ الله بخَلقه، ووَصْفُه بالنقائص.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٨٦، ٨٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هؤلاء من أعظم الخَلق تمثيلًا لربهم بكل شيء، وتشبيهًا له بكل شيء، وقد جعلوا كل شيء ندًا له وكفوًا، حيث جعلوا حقيقته هي الوجود المطلق، وذلك يثبت لكل موجود، فهم أعظم الخَلق إشراكًا بالله».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٣٧٣).

قال المصنف رحمه الله:

فإنْ قال: العمدة في الفَرق هو السمع، فما جاء السمع به أَثْبَتَهُ، دون ما لم يَجِئْ به السمع.

قيل له: أولًا: السمع هو خبر الصادق عمّا هو الأمر عليه في نفسه، فما أخبر به الصادق فهو حقٌّ من نفيٍ أو إثبات، والخبر دليلٌ على المخبَر عنه، والدليل لا ينعكس، فلا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه، فما لم يَرِدْ به السمع يجوز أن يكون ثابتًا في نفس الأمر، وإن لم يَرِدْ به السمع؛ إذا لم يكن قد نَفاه، ومعلومٌ أن السمع لم ينفِ كلَّ هذه الأمور بأسمائها الخاصة، فلا بُدَّ من ذِكر ما ينفيها من السمع، وإلا فلا يجوز حينئذٍ نفيُها، كما لا يجوز إثباتها[1].

الشَّرْح

ما أَثبَتَه الوحي من صفات الله ﷻ أثبتناه؛ لأنّه غيبٌ، وما نَفاهُ نفيناه، وما سكت عنه لم نَخُضْ فيما لم نُحِطْ به علمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «إنّ السلف كانوا يراعون لَفْظَ القرآن والحديث فيما يثبتونه وينفونه عن الله من صفاته وأفعاله، فلا يأتون بلفظٍ مُحدَثٍ مُبتَدَعٍ في النفي والإثبات، بل كلُّ معنىً صحيح فإنّه داخِلٌ فيما أخبر به الرسول ﷺ».

وفي توحيد الله ﷻ في أسمائه وصفاته هناك بدعتان متقابلتان؛ بدعةُ نفيِ ما أَثبَتَه الله ﷻ لنفسه وهذه بدعةُ الجهمية، وبدعةُ إثباتِ ما لَمْ يدلَّ عليه دليلٌ من الوحي،

(١) التدمرية (ص١٣٧، ١٣٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٤٣٢).

وهذه بدعةُ المُشبِّهة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]: «أمَّا المبتدعة من المُشبِّهة والمُجسِّمة فإنّ بِدْعَتهم الزيادة في الإثبات».

والقول في صفات الله ﷻ تفصيلًا بغير توقيفٍ من نصوص الوحي من القرآن والسنة، قولٌ علىٰ الله بغير علمٍ.

قال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ مَن أَثبتَ لله صفةً، أو اسمًا ما أَثبَتَه لنفسه، أو نفىٰ عنه ما اتصف به، فهو قائلٌ عليه بلا علمٍ».

فما أخبرنا اللهُ ﷻ عن صفاته أثبتناه، وما نفاه الله عن نفسه نفيناه، وهكذا نُثبِتُ معاني أسماء الله وصفاته، فمعرفة الله ﷻ بأوصاف كماله ترجع إلىٰ معاني ما أخبر الله به عن نفسه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنّه سبحانه أحدٌ صمدٌ قيوم، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، ويمتنع عليه أضداد أسمائه الحسنىٰ التي وجبت له بنفسه».

والواجب علىٰ المسلم: اتِّباع طريقة القرآن فيما أخبر الله ﷻ عن نفسه؛ إثباتٌ مُفصَّل ونفيٌ مُجمَلٌ، فاحذر -أيّها المسلم- طريقة المبتدعين الذين خالفوا المنهج

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٢١).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص٧٦).

(٣) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص١٧).

القرآني وأخبروا عن الله بنفيٍ مُفصَّلٍ، وإثباتٍ مُجمَلٍ بألفاظٍ لم تَرِدْ في القرآن والسُّنة تحتمل حقًّا وباطلًا.

واحذر -أيها المسلم- من القول على الله بغير علمٍ؛ مِن وَصْفِ الله بما لم يصف به نفسه؛ فإنَّ أقوامًا وصفوه بما يُوصف به المخلوق من صفات النقص ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اليهود وَصَفوا الله بالنقائص التي يتنزَّه عنها، فشبَّهوه بالمخلوق، كما وَصَفوه بالفقر والبخل واللُّغوب، وهذا باطلٌ؛ فإن الرب تعالىٰ منزَّهٌ من كل نقصٍ، وموصوفٌ بالكمال الذي لا نَقْصَ فيه، وهو منزَّه في صفات الكمال أن يُماثِلَ شيءٌ من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

فليس له كفؤًا أحد في شيء من صفاته؛ لا في عِلْمِه، ولا قدرته، ولا إرادته، ولا رضاه، ولا غضبه، ولا خَلقه، ولا استوائه، ولا إتيانه، ولا نزوله، ولا غير ذلك مما وَصَف به نفسه أو وصفه به رسوله».

وممَّا وَصَف الله ﷻ به نفسه ووَصَفه رسوله ﷺ: أنّه يتكلم ويحب ويبغض ويضحك -بما يليق بجلاله-، فنصفه بذلك، ولم يصفِ اللهُ ﷻ نفسه باللذة والألم، فلا نصف الله ﷻ بما لم يصف به نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الكتاب والسُّنة إنّما أطلق الحب والبغض والوُدَّ والمَقْت والرضا والغضب والفرح والأذىٰ، دون لفظ اللذة والألم؛

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٣١، ٤٣٢).
(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٥٤، ٥٥).

لأنّ هذين الاسمين كثيرًا ما يطلقان في خصائص المخلوق التي تنفعه وتضره، مثل: الأكل والشرب والنكاح، ومثل: المرض الذي هو الوَصَبُ والنَّصَبُ والجوع والعطش والعذاب بالنار ونحو ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

فالالتذاذ والانتفاع متقاربان، والتألُّم والتضرُّر متقاربان؛ وإن كان المنفعة والمضرة أعمَّ في الاستعمال، ولهذا قيل: إنّ المنفعة قرينة الحاجَة؛ فإنّما ينتفع الحي بما هو محتاج إليه، ويتضرر بما يؤلمه، وقد قال الله تعالىٰ -فيما يُروىٰ في الحديث الصحيح-: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضرّي فتضروني»، وهذا الحديث ينفي بلوغ الخَلق لذلك، وعجزهم عن ذلك، وما فَعَله الخَلق فإنّما فعلوه بقوة الله ومشيئته وإذنه، ولا حول ولا قوة إلا به».

فالمقصود: أننا لا نصف الله إلا بما وَصَف به نفسه أو وَصَفه به رسوله ﷺ، ووَصْفُ الله ﷻ مرجعه الوحي من القرآن والسُّنة، وقد ضلَّ مَن وَصَف الله بصفات المخلوقين، فإلهنا رب العالمين، يُنزّه عن أمرين عظيمين: عن مماثلة المخلوقين، وعن أن يُوصف بصفات نقصهم.

ومن أضل ما وقع فيه طائفة من الخَلق: تفسيرهم الظلم الذي نفاه الله عن نفسه بنحو ظُلْمِ العِباد وهو الإضرار غير المستحق، وعدم أداء حق الله في عبادته، وتسوية غيره به في خصائصه، وصَرْف شيء من حق الله لمخلوقٍ، لمْ يَعُدّوه في تفسير الظُّلْمِ.

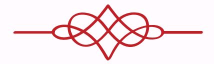
قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هؤلاء الذين قالوا: إنّ الظلم إضرارٌ غير مستحق، قصدوا بذلك الظلم المعروف بينهم، وهو ظلمُ العِباد الذين يتضررون بالظلم في حقوقهم.

وأمَّا الظلم في حق الله تعالىٰ فلم يستشعروه ولم يقصدوه، ولعلهم لا يَعدُّونه ظلمًا، كما هو في أكثر النفوس العامية، بناءً علىٰ أنّ الله غنيٌّ لا يلحقه ضررٌ؛ لكن أكثر هؤلاء مع هذا يوجبون شكره علىٰ إحسانه إليهم بالعقل المجرد قبل ورود شرع إذا فُرِضَ خُلُوُّ العباد عن شرعٍ يجعلون العقل معرِّفًا لوجوب ذلك مع الشرع، كما تُعرف بالعقل أمورٌ كثيرة تُعرف بالشرع أيضًا، مع عِلْمِهم بأنه سبحانه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ومعلومٌ أنّ تَرْكَ الحق الواجب ظلمٌ، فيناسب أصولهم -المعتزلة- أن لا يكون الظلم مجردًا لإضرار غير المستحق، بل يدخل فيه تَرْكُ ما يُحَبّ لذاته وفِعْلُ ما يقبح لذاته عندهم.

ولهذا يقولون: إنّه عُرف بالعقل أنّ الظلم من الله قبيح وإن كان لا يتضرر بفعله. وهذا فيه حقٌّ؛ لكنهم يَعْنُونَ بذلك أنّ الظلم منه نظيرُ الظلم من العِباد بعضهم بعضًا، فيجعلون لله أندادًا، ويمثِّلونه بخلقه، ويضربون له الأمثال، ومن هنا وقعوا في الضلال، وصاروا من القدرية المجوسية المنكرين لمشيئته النافذة وقدرته الكاملة وخَلْقه للأفعال. ومنهم مَن ينكر عِلْمَهُ القديم وكتابه المحيط بجميع الأحوال».



(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٤٠).


قال المصنف رحمه الله:

وأيضًا، فلا بُدَّ في نفس الأمر من فَرْقٍ بين ما يُثبتُ له ويُنفىٰ عنه، فإنَّ الأمور المتماثلة في الجواز والوجوب والامتناع يمتنع اختصاصُ بعضِها دون بعضٍ بالجواز والوجوب والامتناع، فلا بُدّ من اختصاصِ المَنْفِي عن المُثبَت بما يخصُّه بالنفي، ولا بُدَّ من اختصاصِ الثابت عن المنفي بما يخصُّه بالثبوت.

وقد يُعبر عن ذلك بأنْ يُقالَ: لا بُدَّ من أمرٍ يُوجِب نَفْيَ ما يجب نفيُه عن الله تعالىٰ، كما أنه لا بُدَّ من أمرٍ يُثْبِتُ له ما هو ثابِتٌ، وإن كان السمع كافيًا كان مخبِرًا عما هو الأمر عليه في نفسه، فما الفَرقُ في نفس الأمر بين هذا وهذا؟

فيُقال: كلُّ ما نافىٰ صفات الكمال الثابتة لله فهو منزَّه عنه، فإنَّ ثبوت أحد الضِّدَّين يستلزم نفي الآخَر، فإذا عُلم أنه موجودٌ واجِبُ الوجود بنفسه، وأنه قديمٌ واجِبُ القِدَم؛ عُلم امتناع العدم والحدوث عليه، وعُلم أنه غنيٌّ عمّا سواه، فالمفتقر إلىٰ ما سواه في بعضِ ما يَحتاج إليه لنفسه؛ ليس هو موجودًا بنفسه، بل بنفسه وبذلك الآخَرِ الذي أعطاه ما تَحتاج إليه نفسه، فلا يُوجد إلا به، وهو سبحانه وتعالى غنيٌّ عن كل ما سواه، فكلُّ ما نافىٰ غناه فهو منزَّه عنه، وهو سبحانه وتعالى قدير قوي فكلُّ ما نافىٰ قدرته وقوته فهو منزَّه عنه، وهو سبحانه حيٌّ قيوم فكلُّ ما نافىٰ حياته وقيوميته فهو منزَّه عنه[1].

الشَّرح

إنّ الله عز وجل لا شريك له، فليس له مثلٌ في ذاته ولا صفاته، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وليس لله شريكٌ فيما يستحقه من العبودية، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ

---

(١) التدمرية (ص١٣٨، ١٣٩).

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

والله ﷻ لا شريك له في ربوبيته وملكه، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «نفىٰ نفيًا عامًّا لمسمَّىٰ شرك، نكرة في سياق النفي، ليبيِّن أنّ الشريك المنفيَّ عنه مَن جُعِلَ شريكًا له في أدنىٰ شيء من ملكه».

وما للمخلوق من مُلْكٍ أو سببِ فِعْلٍ فإنّما هو بفضل الله الذي آتاه ذلك، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وعن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: «لا تقولوا: ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ، ولكن قولوا: ما شاء اللهُ ثُمَّ شاء فلان»، رواه أبو داود(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أثبت المشيئة في مرتبة العبودية، لا في مرتبة المُنادَّة».

فالإخبار عن صفات الله إخبارٌ بخصائصه من الكمال، والإخبار عن صفات المخلوق إخبارٌ بما يليق به من خصائص بشريته وما لم يبلغه من الكمال.

(١) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١٤٨).
(٢) قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بسندٍ صحيحٍ»، كتاب التوحيد (ص١٤٤).
(٣) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص١٤٩، ١٥٠).

وحقيقةُ الألوهية لله ﷻ نفيُها عن سواه، وإثباتها لله وحده لا شريك له، وإفراده بالعبودية وحده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنّها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحقِّ، وتُثْبت في قلبه ألوهية الحق.

فيكون نافيًا لألوهيةِ كلِّ شيءٍ من المخلوقات، ومُثْبتًا لألوهية ربِّ العالمين، ربِّ الأرض والسماوات، وذلك يتضمَّن اجتماع القلْب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مُفَرِّقًا -في عِلْمِه وقَصْدِهِ، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبَّته- بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله تعالىٰ، ذاكرًا له، عارفًا به.

وهو مع ذلك عالِمٌ بمباينته لخَلقه، وانفراده عنهم، وتوحُّدِهِ دونهم.

ويكون محبًّا لله، مُعَظِّمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مُحِبًّا فيه، مُواليًا فيه، مُعَاديًا فيه، مستعينًا به، متوكِّلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره.

والتَّوكُّل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرَّجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطَّاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله ﷻ».

وسُئل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: بماذا نَعْرِف ربنا؟ قال: إنّه بائنٌ من خَلقه، مستوٍ علىٰ عرشه.

فوَصف ابنُ المبارك اللهَ بصفاته التي اختص بها، والتي تدل علىٰ كماله، وانتفاء الشريك له، وهذا من محاسن الجواب.

---

(١) العبودية (ص١١٥).

وهكذا أجاب اللهُ كُفَّارَ العرب حين سألوا النبي ﷺ أنْ يَنْسِبَ ربَّه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فالأحدية تنفي الشريك، والصمدية تُثبِتُ كمال صفاته، فذاتُ الله موصوفة بصفات الكمال، من أَجْلِ ذلك صَمدَ له وحده الموحدون.

وهكذا دلَّ قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] علىٰ اختصاص الكمال بالله، وعلىٰ نقصِ مَن دُونه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

والنصوص من الوحي كثيرة دالة علىٰ انفراد الله بالكمال، فليس له كفؤ ولا شريك، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

والخلق كلهم مربوبون لله وحده لا شريك له، وكلهم فقراء إليه، واللهُ هو الغني الحميد، فبذلك نعرف اختصاص الله بالكمال، وضرورة كل مخلوق إلىٰ رب العالمين خَلقًا وإيجادًا وإمدادًا، وهدايةً ورزقًا وحفظًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ الإله -علىٰ الحقيقة- هو الغنيُّ الصَّمد الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجَةُ كلِّ أحدٍ إليه، ولا حاجَةَ به إلىٰ أحدٍ، وقيام كلِّ شيءٍ به، وليس قيامه بغيره».

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٩٢).

﴿وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ذَكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعًا متعبدةٌ له التعبد العام، سواءٌ أَقرَّ بذلك المُقِرُّ بذلك أو أنكره، وهم مدينون له، مُدبَّرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروجٌ عمَّا شاءه، وقدَّره، وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو ربُّ العالمين ومليكهم، يُصرِّفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومُصوِّرهم. كل ما سواه فهو مربوبٌ، مصنوع، مفطور، فقير، محتاج، مُعَبَّدٌ، مقهور، وهو سبحانه الواحد، القهار، الخالق، البارئ، المُصوِّر».

وتوحيد المعرفة، والقصد والطلب متلازمان، فمَن عرفَ ما اختص الله به من الربوبية وكمال صفاته أوجب له ذلك تعظيم الله وعبوديته وحده.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من معاني عظمته تعالىٰ: أنّه لا يستحق أحدٌ التعظيم من الخَلق غيره تعالىٰ، فيستحق علىٰ العباد أن يُعظِّموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه: أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذْكَر فلا يُنسىٰ، ويُشْكَر فلا يُكفَر.

ومن تعظيمه وإجلاله: أن لا يُعترَض علىٰ شيءٍ مما خَلَقه أو شَرَعه، بل يُخْضَع لحكمته، ويُنقاد لحكمه».

---

(١) العبودية (ص٨٤).

(٢) التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين (ص٣٩).

المعلوم المتيقن: انفرادُ الله وحده بالكمال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من حُسْنِها أنّها دالة علىٰ الصفات الكاملة، وأنّ له من كلِّ صفةٍ أكملها».

والضالون عن تحقيق ألوهية رب العالمين أنواع: منهم مَن شبَّه الله بخلقه كالممثلة، ومنهم مَن نفىٰ صفات الله متوهمًا مماثلتها لصفات المخلوقين كالجهمية، وشرُّهم الحلولية الاتحادية الصوفية الذين جعلوا حقيقة الله هو حقيقة المخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد آل الأمر بهؤلاء إلىٰ أن سَوُّوا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقُّه من العبادة والطَّاعة حقًّا لكل موجود، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات! وهذا من أعظم الكفر والإلحاد بربِّ العِباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلىٰ أنهم لا يشهدون أنهم عبادٌ، لا بمعنىٰ أنهم مُعبَّدون، ولا بمعنىٰ أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم، كابن عربي صاحب «الفصوص»، وأمثاله الملحدين المفترين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون».



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٣/ ٢٢٥).
(٢) العبودية (ص٣٧).



وبالجملة، فالسمع قد أَثبَتَ له من الأسماء الحسنىٰ وصفات الكمال ما قد وَرَد، فكلُّ ما ضاد ذلك فالسمع ينفيه، كما ينفي عنه المثل والكفؤ، فإنَّ إثبات الشيء نفيٌ لضده ولِمَا يستلزم ضده، والعقلُ يَعْرِف نفي ذلك، كما يَعْرِف إثبات ضده، فإثباتُ أحدِ الضدين نفيٌ للآخر ولِمَا يستلزمه.

فطُرُقُ العلم بنفي ما يُنزَّه الرب عنه مُتَّسِعَة، لا يحتاج فيها إلىٰ الاقتصار علىٰ مجرد نفي التشبيه والتجسيم كما فَعَله أهل القصور والتقصير، الذين تناقضوا في ذلك وفرّقوا بين المتماثلين، حتىٰ إنَّ كلَّ مَن أَثبَتَ شيئًا احتج عليه مَن نفاه بأنه يستلزم التشبيه.

وكذلك احتجَّ القرامطة علىٰ نفي جميع الأمور حتىٰ نفوا النفي، فقالوا: لا يُقال موجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي؛ لأن ذلك تشبيه بالموجود أو المعدوم. فلزم نفي النقيضين، وهو أظهر الأشياء امتناعًا، ثم إن هؤلاء يلزمهم من تشبيهه بالمعدومات والممتنعات والجمادات أعظم ممّا فروا منه من التشبيه بالأحياء الكاملين، فطُرُقُ تنزيهه وتقديسه عمّا هو مُنزَّه عنه متسعة لا تحتاج إلىٰ هذا.

وقد تقدَّم أنَّ ما يُنفىٰ عنه سبحانه وتعالى، يُنفىٰ لتضمن النفي الإثبات، إذ مجرد النفي لا مَدْحَ فيه ولا كمال، فإن المعدوم يُوصف بالنفي، والمعدوم لا يشبه الموجود، وليس هذا مدحًا له؛ لأن مشابهة الناقص في صفات النقص نقصٌ مطلق، كما أن مماثلة المخلوق في شيء من الصفات تمثيلٌ وتشبيهٌ، يُنزَّه عنه الربُّ تبارك وتعالى[1].

---

(١) التدمرية (ص١٣٩-١٤١).

الشَّرح

مَنْشَأُ ضَلالِ الجهمية المعطلة النافية لصفات الله ﷻ: اعتقادهم أنّ إثبات صفات الله ﷻ تشبيهٌ له بالمخلوق، وليس ما أخبر الله به عن نفسه تشبيهٌ؛ فإنّ الله ﷻ أخبرنا بكمال صفاته؛ وأنّه من كمالها لا تشبه صفات المخلوقين، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «حاشَ لله أن يكون مَن وَصَف الله ﷻ بما وَصَف الله به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه المصطفى ﷺ مُشبِّهًا خالقه بخلقه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنّه سبحانه وَصَف نفسه بأنّه ليس كمثله شيء؛ وأنّه لا سَمِيَّ له، ولا كفؤ له، وهذا يستلزم وَصْفَهُ بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين، واستحق بقيامها أنّه يكون ليس كمثله شيء.

وهكذا كونه ليس له سَمِيٌّ، أي: مثيلٌ يُسامِيهِ في صفاته وأفعاله، ولا مَن يُكافِيه فيها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنّ الثابت لله، هو على خلاف ما يثبت للمخلوق؛ فإنّ هذه المخالفة هي عدم المماثلة، والنصوص تدل على ذلك».

فأذهان الموحدين تَعْرِف فَرْقَ ما بين الخالق والمخلوق، فلا تتوهَّم الشَّبه

---

(١) التوحيد (١/ ٦٤).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٥).

بينهما، فتثبت صفات الكمال لله ولا تنفيها، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

أمَّا أذهان الجهمية فتتوهَّم نَقْصَ ما أَثبَتَه الله لنفسه بمماثلة صفات المخلوقين، فتنفي صفات الكمال لله.

والمسلم اعتقاده الذي لا رَيْبَ فيه: أنّ الله صادِقٌ فيما يُخبر به عن نفسه، وهو سبحانه يتمدَّح نفسه بما أخبرنا به من صفاته؛ لأنّها كمالٌ لا يدركه نظيرٌ، وأَمَرنا الله أن نعبده بحقائق صفاته؛ فنزداد تعظيمًا وعبودية لله.

والله عرّفنا ألوهيته بما أخبرنا عن صفاته، فقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فمعنىٰ الآية: أنّ الله الذي لا إله إلا هو وَصْفُه أنّه ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

وهكذا وَرَد نظير ذلك في آيات كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فإثباتُ ما أَثبَتَ الله ﷻ لنفسه من الصفات، توحيدٌ بتصديق خبر الله ﷻ، وتكذيبُ ذلك كفرٌ بالله وانتقاصٌ له، حيث نفىٰ المعطلة صفات الكمال لله التي تمدَّح بها نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن ظَنَّ أنّ أسماء الله تعالىٰ وصفاته إذا كانت حقيقةً لزمَ أن يكون مماثلًا للمخلوقين، وأنَّ صفاته مماثلة لصفاتهم، كان من أجهل الناس، وكان أول كلامه سَفْسَطة وآخِره زَنْدَقة؛ لأنّه يقتضي نفي جميع أسماء الله وصفاته، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد».

كلمةُ «تشبيه» أكذوبة الجهمية، يُكذِّبون بها خبر الله عن صفاته، ويَكْذِبون بها علىٰ العامة لتضليلهم عن إثبات ما أَثبَتَه الله لنفسه، فاستعملَ الجهميُّ لفظةَ «تشبيه» لنفي ما أَثبَتَه الله لنفسه.

والله ﷻ أحدٌ لا شبيه ولا شريك له، موصوف بصفات الكمال فهو صمدٌ، ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته، فإثبات الكمال لله فيه نفيُ النظير والنِّد والشبيه له، ونفيُ صفات الله ﷻ في الحقيقة هو نفيٌ لذاته؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، فحقيقة مذهب المعطلة نفيُ ألوهية المعبود.

وقد حذرّ السلف من مذهب المعطلة وأخبروا بحقيقته نصيحةً للمسلمين من أن يُفسِدَ الجهمية توحيدهم.

قال حمّاد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء».

فنفيُ ما أَثبتَه الله لنفسه بدعوىٰ التشبيه هو كما قال شيخ الإسلام[(٢)]: «هي وسائل الجهل والتعطيل وتكذيب المُرسَلِين»، فليكن اعتقادك -أيُّها المسلم- يقينيًّا أنّ كل ما أخبر الله به عن نفسه فهو حقٌّ وصِدقٌ وكمالٌ.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢١٢).
(٢) بيان تلبيس الجهمية(١/ ٣٣٦).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي ﷺ قال: «قال الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «مَن ظنَّ وتوهَّمَ في ربه أنّه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، كان هذا الظن والتوهم حقًّا؛ وإن كان الواجب تيقّن ذلك».

ومن أشنع الباطل: تسمية التوحيد شركًا، وتكذيب توحيد المعرفة، وتسمية ما أَثبتَ الله لنفسه تشبيهًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «تفسير التشبيه بما فيه إثبات الصفات، هو أيضًا باطلٌ».

وصار الجهمية والمعتزلة يُسَمّون نفي وتعطيل صفات الله توحيدًا وتنزيهًا!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «إنّ توحيدهم وتنزيههم هذا دِهليز التعطيل والزندقة».

وتعطيل الجهمية والمعتزلة وفروعهم هو إنكارٌ لألوهية الله، وهذا لا يكون توحيدًا، بل يكون كُفرًا.

قال نُعيم بن حمّاد الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أنكر ما وَصَف الله به نفسه فقد كَفر، ومَن شبَّه الله بخَلقه فقد كَفر».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٢٤).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٩).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٣٠).

وقال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نبغتْ هذه النابغة بين أظهر المسلمين، فأعظموا في الله القول، وسَبّوه بأقبح السُّباب، وجَهّلوه، ونفوا عنه صفاته التي بها يُعرف صفةً صفةً».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المُثبِت لصفات كماله هو الذي يصفه بأنّه ليس كمثله شيء».

وحذَّر شيخُ الإسلام من عقيدة القرامطة حيث قال: «احتجَّ القرامطة علىٰ نفي جميع الأمور حتىٰ نفوا النفي، فقالوا: لا يُقال موجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي؛ لأنّ ذلك تشبيه بالموجود أو المعدوم».

فالقرامطة والجهمية والمعتزلة المعطلة النافية لصفات الله عَزَّوَجَلَّ أبطلوا أحدية الله وصمديته، وجعلوا الله غير موصوف بالكمال، فجعلوه عدمًا بلا أسماءٍ ولا صفات ولا أفعال، فهو والعدم سواءٌ في تعطيلهم، سبحان الله عمّا يصفون!

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «وهل كان ربُّ العالمين أهلَ الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله، ونُعوت جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنىٰ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «مذهب السلف بين مذهبين، وهُدًىٰ بين ضلالتين؛ إثبات الصفات ونفيُ مماثلة المخلوقات، فقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

---

(١) الرد علىٰ الجهمية (ص٧١)، ط- المكتب الإسلامي، تخريج الألباني.
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٤).
(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٨٨).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٩٦).

شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] ردٌّ علىٰ أهل النفي والتعطيل».

وإلهُ الحق موصوفٌ بصفات الكمال، والشركاءُ وَصْفُهم العدم لصفات الكمال،

قال الله ﷻ في وصفِ العجل الذي عبدته بنو إسرائيل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

واللهُ ﷻ صمدٌ، كَمُل في كثرة أوصافه، وصفاته غاية في الكمال، قال النبي ﷺ في وصفِ ربنا: «لله تسعة وتسعون اسمًا، مَن أحصاها دَخَل الجَنَّة»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فتعظيم الله وتوحيده هو بإثبات صفات الله؛ لذلك كَثُرت نُعوتُ الله لكماله.

قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم رحمه الله(١): «مَن سَلَب صفات الكمال عن الله تعالىٰ، وعلوه علىٰ خَلقِه، وكلامه، وعِلمه، وقدرته، وسائر ما وَصَف به نفسه، فقد جعل الله تعالىٰ مثل السوء ونَزَّهه عن المثل الأعلىٰ.

فإنّ مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضِدّه المثل الأعلىٰ وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٥).

الموصوف وأكمل كان أعلىٰ من غيره».

وأفضلُ الخَلق وأعظمهم تحقيقًا للتوحيد كان يُعظِّم الله ﷻ بذكر صفاته الثابتة له؛ لأنها كمالٌ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ: «قرأ علىٰ المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «الآية دلّت علىٰ عِظَم قَدْر الرب، الذي يقبض الأرض ويطوي السماوات، وهذا وصفٌ لأمور وجودية تقتضي عظمة القَدْر».

وهكذا تَلَا النبي ﷺ قوله تعالىٰ: «﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال: هذه أهون»، رواه البخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

وقال ﷺ في الثناء علىٰ الله: «لا أُحْصِي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أَثنيتَ علىٰ نَفْسِكَ»، رواه مسلم، وقد كان يثني علىٰ الله بصفاته الثبوتية.

قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «هذا لكثرة أسمائه، وصفات كماله، ونعوت جلاله».

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يُعظِّمون الله ﷻ بذكر صفاته الثبوتية، قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه: «مَن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»، رواه البخاري.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٦٧).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٦٧).

وقالت أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «سبحان مَن وَسِعَ سمعُه الأصوات؛ إنْ كنتُ لفي الحجرة الأخرىٰ ويخفىٰ عليَّ بعضُ حديثها، واللهُ فوق سماواته لمْ يخفَ عليه شيء».

وكل ما جاء في القرآن والسُّنة مما نفاه الله عَزَّ وَجَلَّ عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنّه متضمِّن لصفاتٍ ثبوتية لله، هي كمالُ ضِدِّ ما نفاه الله ورسوله؛ لأن مجرد النفي عدمٌ، والعدم لا كمالَ فيه؛ وإنّما الكمال في الصفة الثبوتية التي هي ضدُّ صفةِ النقص المنفية عن الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنّ الله سبحانه إنّما نفىٰ عن نفسه ما يناقض الإثبات ويضاد ثبوت الصفات والأفعال، فلمْ ينفِ إلا أمرًا عدميًّا، أو ما يستلزم العدم، كنفيِ السِّنة والنوم المستلزم لعدم كمال الحياة والقيومية، ونفي العزوب والخفاء المستلزم لنفي كمال العلم، ونفي الظلم المستلزم لنفي كمال الغنىٰ والعدل، ونفي الشريك والظهير والشفيع المقدم بالشفاعة المستلزم لنفي كمال الغنىٰ والقهر والمُلك، ونفي الشبيه والمثيل والكفؤ المستلزم لعدم التفرُّد بالكمال المطلق، ونفي إدراك الأبصار له وإحاطة العلم به المستلزِمَين لعدم كمال عظمته وكبريائه وَسَعته وإحاطته، وكذلك نفي الحاجَة والأكل والشرب عنه سبحانه لاستلزام ذلك عدم كمال غِناه».



(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والنقص ضدُّ الكمال، وذلك مثل أنه قد عُلم أنه حيٌّ والموتُ ضدُّ ذلك، فهو مُنزَّه عنه، وكذلك النوم والسِّنَةُ ضدُّ كمال الحياة، فإنَّ النوم أخو الموت، كذلك اللُّغُوب نقصٌ في القدرة والقوة، والأكل والشرب ونحو ذلك من الأمور فيه افتقارٌ إلىٰ موجود غيره، كما أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به ونحو ذلك يتضمن الافتقار إليه والاحتياج إليه، وكلُّ مَن يحتاج إلىٰ مَن يحمله أو يعينه علىٰ قيام ذاته أو أفعاله فهو مفتقر إليه ليس مستغنيًا بنفسه، فكيف مَن يأكل ويشرب، والآكِل والشارب أجوف، والمُصْمَتُ الصمد أكمل من الآكل الشارب، ولهذا كانت الملائكة صمدًا لا تأكل ولا تشرب(١).

الشَّرح

أحديةُ الله ﷻ سببها كمالُ صفاته ونعوته، لذلك قَصَده الموحِّدون وحده لا شريك له بالعبودية؛ لأنّه صمدٌ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الاسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن صفات الكمال، والاسم (الأحد) يتضمن نفي المثل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «اسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن صفات الكمال، كما روىٰ الوالبي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: هو العليم الذي كَمُل في عِلمه، والقدير الذي كَمُل في قدرته، والسيد الذي كَمُل في سُؤْدده، والشريف الذي كمل في حلمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد،

---

(١) التدمرية (ص١٤١، ١٤٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٣٢٩).

(٣) منهاج السنة (٢/ ١٨٦، ١٨٧).

هو الله ﷻ، هذه صفته، لا تنبغي إلا له.

والأحد يتضمن نفي المثل عنه، والتنزيه الذي يستحقه الرب يجمعه نوعان: أحدهما: نفي النقص عنه، والثاني: نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال، فإثباتُ صفات الكمال له مع نفي مماثلة غيره له يجمع ذلك».

فالله ﷻ موصوف بصفات الكمال، منزَّه عن النقص والمثال، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الأمور العَدَمِيَّة لا تكون كمالًا إلا إذا تضمَّنتْ أمورًا وجودية؛ إذ العدم المحض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون كمالًا؛ فإنّ الله سبحانه إذا ذَكَر ما يَذْكُره من تنزيهه ونفي النقائص عنه، ذَكَر ذلك في سياق إثبات صفات الكمال له، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفي السِّنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيومية، وهذه من صفات الكمال.

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فتنزيهه لنفسه عن مَسِّ اللُّغُوب يقتضي كمال قدرته، والقدرة من صفات الكمال، فتنزيهه يتضمن كمال حياته وقيامه وعِلمه وقدرته، وهكذا نظائر ذلك».



(١) منهاج السنة (٢/ ١٨٣).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد تقدَّم أنَّ كلَّ كمالٍ ثبَتَ لمخلوق فالخالق أَوْلَىٰ به، وكلُّ نقصٍ تنزَّه عنه مخلوق فالخالق أَوْلَىٰ بتنزيهه عن ذلك. والسمع قد نفىٰ ذلك في غير موضعٍ، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[1].

الشَّرح

كلُّ كمالٍ ثَبَت لمخلوق فالخالق أَوْلَىٰ به؛ لأنّ الله موصوف بالكمال، ومنزَّه عن مماثلة المخلوق، فنفيُ التمثيل يُوجِبُ اختصاصه بصفات الكمال، والله ﷻ هو معطي بعض الكمال لمخلوقاته، فهو أحرىٰ بصفات الكمال، واختصاصه بذلك هو من ربوبيته المستلزمة لألوهيته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كلُّ كمالٍ ثَبَت للمخلوق، فالخالق أحقُّ به، وكلُّ نقصٍ تنزَّه عنه مخلوق فالخالق أحقُّ بتنزيهه عنه؛ لأنّ الموجود الواجب القديم أكمل من الموجود الممكن والمُحدَث؛ ولأنّ كلَّ كمالٍ في المفعول المخلوق هو من الفاعل الخالق، وهم يقولون: كمال المعلول من كمال العِلَّة، فيمتنع وجودُ كمالٍ في المخلوق إلا من الخالق، فالخالق أحقُّ بذلك الكمال.

ومن المعلوم بضرورة العقل: أنَّ المعدوم لا يُبدِع موجودًا، والناقص لا يبدع ما هو أكمل منه؛ فإنّ النقص أمورٌ عدمية، ولهذا لا يُوصف الرب من الأمور السلبية

(١) التدمرية (ص١٤٢).
(٢) الصفدية (١/ ٩٠، ٩١).

إلا بما يتضمَّن أمورًا وجودية، وإلا فالعدمُ المحض لا كمال فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنزَّه نفسه عن السِّنة والنوم؛ لأن ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية».

والله ﷻ لا يجوز في حقه قياسُ التمثيل؛ فإنّ الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، أمَّا قياسُ الأَوْلَىٰ فقد دلَّ القرآنُ علىٰ استعماله في حق الله، وهو مأثور عن السلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا النمط هو الذي كان السلف والأئمة -كالإمام أحمد وغيره من السلف- يسلكونه من القياس العقلي في أمرِ الربوبية، وهو الذي جاء به القرآن».

وهذا المنهج في الاستدلال دلَّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ودلَّ عليه قولُ سيِّد الحُنفاء: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المستعمل في الكتاب والسُّنة وكلام السلف في حقه تعالىٰ: هو «قياسُ الأَوْلَىٰ»، مثل: أنْ يُعلمَ أنَّ ما ثَبَت لغيره من كمالٍ مطلق لا نَقْصَ فيه، فهو أحقُّ بأنْ يُثبتَ له من ذلك الكمال ما هو أحق به مما سواه، فإذا كان الحياة والعلم والقدرة كمالًا لا نَقْصَ فيه، وقد اتصف به المخلوق،

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٥٦).

(٢) شرح الأصبهانية (ص٣٩٥).

فالخالق تعالىٰ أحقُّ أنْ يتصفَ بالحياة والعلم والقدرة، وما يُنزَّه عنه غيره من العيوب فهو سبحانه أحق بتنزيهه عنه».

وبالدليل الحسيِّ أَثبَتَ الموحِّدون جملةً من صفات الله ﷻ؛ فإنه في كل يوم يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويُعِزّ ويُذِلّ، ويرفع ويخفض، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وأدلة ربوبية الله ﷻ أجمعَ عليها عامَّةُ الخَلق، ولم ينكرها إلا الدَّهريون، وأنكرها فرعون عنادًا مع يقينه بصدقها، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأدلة ربوبية الله ﷻ دالَّةٌ علىٰ صفاته، وذلك مستلزم لألوهيته وعبوديته وحده.

واللهُ ﷻ خلقَ في فِطَر عِباده معرفته وتعظيمه، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال الله ﷻ في الحديث القدسي: «خلقتُ عبادي حُنفاء، فاجتالتهم الشياطينُ»، رواه مسلم.

فمِن فِطَرِ الناس المُجْمَع عليها: توجههم إلىٰ العلو إذا دعوا الله وسألوه. وقال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وما يَذْكُره العلماء من استعمال قياس الأَوْلَىٰ في حق الله ﷻ، يَحْذَر فيه المسلم من الغلط في القياس إثباتًا أو نفيًا لصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد أنكر الله ﷻ علىٰ مشركي العرب ما وصفوا الله به بغير علمٍ، وما قالوه بأهوائهم وبأقيستهم وعقولهم الضالة في حق الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢].

وكما ضَلَّ المشركون فيما أثبتوه لله ﷻ من الصفات، كذلك ضلوا فيما نفوه عنه ﷻ؛ فإنهم أنكروا اسم الله (الرحمن)، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠].





قال المصنف رحمه الله:

والصَّمدُ: الذي لا جَوْفَ له، ولا يأكل، ولا يشرب.

وهذه السورة هي نَسَبُ الرحمن، وهي الأصل في هذا الباب. وقال في حق المسيح وأُمِّه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فجعل ذلك دليلًا على نفي الألوهية؛ فدلَّ ذلك على تنزيهه عن ذلك بطريق الأَوْلَى والأحرى.

والكبد والطحال ونحو ذلك هي أعضاء الأكل والشرب، فالغني المُنزَّه عن ذلك مُنزَّهٌ عن آلات ذلك، بخلاف اليد فإنها للعمل والفعل، وهو ﷻ موصوف بالعمل والفعل، إذ ذلك من صفات الكمال، فمَن يَقْدر أن يفعلَ أكمل ممَّن لا يَقْدر على الفعل.

وهو سبحانه مُنزَّه عن الصاحبة والولد وعن آلات ذلك وأسبابه، وكذلك البكاء والحزن هو مستلزم للضعف والعجز الذي يُنزه الله عنه، بخلاف الفرح والغضب فإنه من صفات الكمال، فكما يُوصف بالقدرة دون العجز، وبالعلم دون الجهل، وبالحياة دون الموت، وبالسمع دون الصَّمَم، وبالبصر دون العَمَى، وبالكلام دون البكم، فكذلك يُوصف بالفرح دون الحزن، وبالضحك دون البكاء، ونحو ذلك[1].

الشَّرح

كلُّ كمالٍ لا يستلزم النقص فاللهُ أَوْلَى به، وكلُّ ما كان من خصائص المخلوق فاللهُ مُنزَّه عنه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأسماءُ الله غايةٌ في الحُسن؛ لأنها متضمنة لصفات الكمال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(١) التدمرية (ص١٤٢-١٤٤).

فاللهُ ﷻ مُنزَّه عن أوصاف المخلوقين المخصوصة بهم، فهو أحدٌ صمدٌ، لذلك لمْ يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، فهو صمدٌ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

وذكرَ شيخ الإسلام من القرآن ما نفاه اللهُ عن نفسه مما هو من صفات النقص في المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، فكلُّ صفةِ نقصٍ في المخلوق فاللهُ مُنزَّه عن الاتصاف بها، لذلك قال شيخ الإسلام: إن الله مُنزَّه عن الأكل وآلة وأعضاء الأكل.

وذكرَ شيخ الإسلام أمثلةً مما يتنزَّه اللهُ عنه؛ لأنه من خصائص المخلوقين وما يليق بنقصهم، واللهُ المتصف بالكمال مُنزَّه عن ذلك، من ذلك: البكاء والحزن، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إذا كانت الصفةُ نقصًا لا كمالَ فيها، فهي ممتنعةٌ في حقه، كالموت والجهل والعجز والصمم والعمىٰ ونحو ذلك؛ لأنه سبحانه عاقبَ الواصفين له بالنقص، ونزَّه نفسه عما يصفونه به من النقائص؛ ولأنَّ الرب لا يمكن أنْ يكونَ ناقصًا لمنافاة النقص للربوبية».

فاللهُ ﷻ موصوف بالكمال، مُنزَّه عن النقص والمثال، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، وهو سبحانه له المثل الأعلىٰ، مُتفرِّد بالكمال، ليس له كفؤ ولا نظير.

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد (ص١٠).

وللمخلوقِ صفاتُ كمالٍ، وهي من الله تعالىٰ، قال العلَّامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معطي الكمالَ أَوْلَىٰ به».

قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٥].

فالمخلوقُ الذي ينفقُ سرًّا وجهرًا أكملُ من المخلوق الذي لا ينفق، واللهُ ﷻ أَوْلَىٰ بهذا الكمال، وليس كمثله شيء في نفقته، فيداه مبسوطتان بالعطاء، ولا تغِيضُها نفقةٌ، وكل مخلوق ما ينفقه فهو مما آتاه الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «اللهُ سبحانه هو المالك لكل شيء، وينفق كيف يشاء علىٰ عبيده، سرًّا وجهرًا، وليلًا ونهارًا، يمينه ملأىٰ، لا يغِيضُها نفقةٌ، سَحَّاء الليل والنهار، والأوثانُ مملوكةٌ عاجزة لا تَقْدر علىٰ شيءٍ، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفَرْق المُبِين؟! هذا قولُ مجاهد وغيره».



(١) القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ (ص١٨).
(٢) بدائع التفسير (٢/ ١١٤).


قال المصنف رحمه الله:

وأيضًا فقد ثبتَ بالعقل ما أَثبتَهُ السمعُ من أنه سبحانه لا كفؤ له، ولا سَمِيّ له، وليس كمثله شيء، فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيءٍ من المخلوقات، ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيءٍ من صفات المخلوقات.

فيُعلم قطعًا أنه ليس من جنسِ المخلوقات؛ لا الملائكة، ولا السماوات، ولا الكواكب، ولا الهواء، ولا الماء، ولا الأرض، ولا الآدميين، ولا أبدانهم، ولا أنفسهم ولا غير ذلك، بل يُعلم أن حقيقته عن مماثلة شيء من الموجودات أبعد من سائر الحقائق، وأن مماثلته لشيءٍ منها أبعد من مماثلة حقيقة شيءٍ من المخلوقات لحقيقة مخلوقٍ آخَرَ.

فإنَّ الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كلِّ واحدةٍ ما يجوز على الأخرى، ووجب لها ما وجب لها، وامتنع عليها ما امتنع عليها فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدَث المخلوق من العدم والحاجة، وأنْ يثبت لهذا ما يثبت لذاك من الوجوب والغنى، فيكون الشيء الواحد واجبًا بنفسه غير واجب بنفسه، موجودًا معدومًا، وذلك جمع بين النقيضين.

وهذا ممَّا يُعلم به بطلان قول المُشبِّهة الذين يقولون: بصرٌ كبصري، ويدٌ كيدي ونحو ذلك، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[(١)].


الشَّرح

حقيقة المخلوق: النقص، والضعف، والجهل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وكل خصال الخير والفضل إنما يدركها بعطاء الله وإمداده.

(١) التدمرية (ص١٤٤-١٤٦).

والمخلوق أَوْجَده اللهُ من العدم، وأَمدَّه بأسباب البقاء والكسب والهداية، فيظهر بذلك حقيقة (الأول) الذي أَوْجَده وأَمَدَّه بأسباب مصالحه الدينية والدنيوية، قال تعالىٰ مخبراً عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال في ذِكر أخص صفات كمال الله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الرب: هو الذي يُربِّي عَبْدَه، فيعطيه خَلْقَهُ ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله من العبادة وغيرها».

المخلوق يلحقه الفناء والموت، واللهُ هو الذي يميته كما خَلَقه وأحياه، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «كيف يشركون بمَن انفرد بهذه الأمور، ومَن ليس له تصرُّفٌ فيها بوجه من الوجوه؟!

فسُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتقدَّس، وتنزَّه، وعَلَا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وباله عليهم».

والتوحيد العلمي لأسماء الله وصفاته من أسباب توحيد الله بعبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

فَرْق ما بين حقيقة الخالق والمخلوق: أنَّ أزمة الأمور كلها بيد الله، وأنَّ

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٥/ ١٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٧٥٥).

المخلوق ليس له من الأمر شيء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
وقال تعالىٰ لصفوة خلقه من البشر محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أي: ليس لكَ من الحُكم شيء في عبادي إلا ما أَمرتُكَ به فيهم». فهذا الكمال الذي تفرَّد الله به، هو كمالٌ أيضًا في صفته وكيفيته، قال تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

والله ﷻ يُجِيرُ ولا يُجارُ عليه، ولا أحد يستطيع أن يخرج عن مُلكِه وعن حُكمِه وقضائه الكوني، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: أي: يجارون[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: مُلْك كل شيء من العالَم العلوي والعالَم السفلي، ما نبصره وما لا نبصره، والمَلَكُوت صيغة مبالغة، بمعنىٰ المُلْك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤١٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٣٣٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٦٤٩).

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عِبادَهُ من الشر، ويدفع عنهم المَكارِه، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير علىٰ الله، ولا يدفع الشر الذي قَدَّره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه».

حقيقة الله ﷻ أنه القهار، فهو قاهرٌ لكل مخلوق، وحقيقة المخلوق أنّه مقهور مربوب لله رب العالمين لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ الوحدانية والقهر متلازمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وأنّ قول: (الله أكبر) ملازِمٌ لقول: (لا إله إلا الله.

ولهذا قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يا عدي، ما يُفِرُّك؟ أَيُفِرُّك أنْ يُقال: لا إله إلا الله، فهل تَعْلَم من إلهٍ غير الله؟ يا عدي، أَيُفِرُّك أنْ يُقال: الله أكبر، فهل تَعْلم شيئًا أكبر من الله؟»، رواه أحمد والترمذي وصحَّحه».

فالقهر من أخص الصفات دلالةً علىٰ توحيد الله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القهر التام يستلزم الوحدة؛ فإنّ الشركة تنافي تمام القهر».

وكلُّ مَن سوىٰ الله مربوبٌ مقهور لله العزيز الجبار، وكلُّ مخلوق له ضِدٌّ ومُنافٍ ومُشارِكٌ، واللهُ قاهرُ كلِّ مخلوقٍ وخالقه ومُدبِّره، ليس لله كفو، ولا نِد، ولا مُشارِك، ولا مُعاوِن، ولا وَلِيّ من الذلِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) شرح الأصبهانية (ص١٥١).

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٤٨٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كَسَر -سبحانه- كلَّ شيءٍ بمُقابِلِه، ومصادمته بضده، لتظهرَ عليه آثارُ القهر، وسِماتُ الضعف والعجز، ويتيقَّن العبد أنّ القهار لا يكون إلا واحدًا؛ وأنّه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوحدة متلازمان، فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومَن سواه مربوب مقهور، له ضدٌّ ومُنافٍ ومشارك».

وحقيقة الخالق: الألوهية، وحقيقة المخلوق: العبودية، واللهُ خلقَ الخَلق وكلهم عبيدٌ لله مقهورون خاضعون لأمره وحُكمِه، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا؛ فإنّه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع».

حقيقة الله عَزَّ وَجَلَّ: تفرُّده بالخَلق والأمر، ليس له كفوًا أحد، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وليس ذلك لغير الله.

قال العلّامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: له الخَلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات، علويها وسفليها، أعيانها، وأوصافها، وأفعالها. والأمر: المتضمن للشرائع والنبوات.

(١) طريق الهجرتين (ص١٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٧٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير لكلام المنان (٢/ ١١٨).

فالخَلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء».

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، فالله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار، وليس لله في ذلك شريك، فالله خالقُ كلِّ مخلوق، وكلٌّ في سلطانه وتحت قَهْره، وهو الحاكم عليهم في الدنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الجميع مِلكٌ له، عبيدٌ له. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩]، أي: هو المتصرِّف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة».

فالحاصل: أنّ معرفة فَرْق ما بين حقيقة ذات الله وصفاته وأفعاله وذوات المخلوقات، من أسباب توحيد الله بإثبات صفات كماله البالغة في الحُسْن، التي لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الطريق واضحةُ المَنار، بَيِّنَة الأعلام، مضيئة للسالكين، وأَوّلها: أن تحذف من خصائص المخلوقين عن إضافتها إلىٰ صفات رب العالمين؛ فإن هذه العُقدَة هي أصلُ بلاءِ الناس، فمَن حَلَّها فما بَعْدها أيسر منها، ومَن هَلَك بها فما بعدها أشد منها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٩٥).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٥١٤، ٥١٥).

وهل نفىٰ أحدٌ ما نفىٰ من صفات الرب ونعوت جلاله إلا لسبق نظره الضعيف إليها، واحتجابه بها عن أصل الصفة وتجرُّدها عن خصائص المحدث؟ فإنَّ الصفة يلزمها لوازم باختلاف محلها، فيظن القاصر إذا رأىٰ ذلك اللازم في المحل المحدث أنه لازِمٌ لتلك الصفة مطلقًا، فهو يَفِرُّ من إثباتها للخالق سبحانه، حيث لم يتجرَّد في ظنه عن ذلك اللازم».

اللهُ ﷻ هو القوي العزيز، والمخلوق خالقه اللهُ ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨]، وما تَفرَّد اللهُ به من الكمال يُوجِبُ إفرادَهُ وحده بالتألُّه والعبودية.



قال المصنف رحمه الله:

وليس المقصود هنا: استيفاء ما يثبتُ له، وما يُنزَّه عنه، واستيفاء طُرُق ذلك؛ لأن هذا مبسوطٌ في غير هذا الموضع، وإنما المقصود هنا: التنبيه علىٰ جوامع ذلك وطُرُقِه، وما سكتَ عنه السمع نفيًا وإثباتًا ولم يكن في العقل ما يثبته ولا ينفيه، سكتنا عنه، فلا نُثبِته ولا ننفيه، فنُثبِت ما عَلِمنا ثبوته، وننفي ما عَلِمنا نفيه، ونسكت عمَّا لا نَعْلم نفيه ولا إثباته، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

الشَّرْح

شرحَ شيخُ الإسلام القول الجامع فيما يُوصف الله به، وما يُنزَّه ويُنفىٰ عنه، وقاعدة ذلك: ترجع إلىٰ إثبات ما جاء في القرآن والسُّنة، ونفي ما نفتهما، والسكوت عمَّا لَمْ يَرِدْ فيه الدليل النقلي بشيء.

والعقل الصريح يُثبِتُ لله علىٰ سبيل الإجمال صفة الكمال لله عز وجل، وينفي صفة النقص عنه سبحانه وتعالى، أمَّا تفصيل ما يُثبت لله ويُنفىٰ عنه فهذا غيبٌ لا يدركه ولا يحيط به العقل.

والعقل الصريح يوافق النقل الصحيح فيما أَخْبَر به عن صفات الله وأفعاله وأحكامه، فمَن أثبتَ ما أثبَتَه اللهُ لنفسه ونفىٰ ما نفاه الله عن نفسه، كان عقلُه صريحًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «الصفات نوعان: أحدهما: صفاتُ نقصٍ،

(١) التدمرية (ص١٤٦).
(٢) الصفدية (١/ ١٠٢، ١٠٣).

فهذه يجب تنزيهه عنها مطلقًا، كالموت والعجز والجهل.

والثاني: صفاتُ كمال، فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء. وكذلك ما كان مختصًّا بالمخلوق فإنه يمتنع اتصاف الرب به، فلا يُوصف الرب بشيء من النقائص، ولا بشيء من خصائص المخلوق، وكلُّ ما كان من خصائص المخلوق فلا بُدَّ فيه من نقصٍ. وأمَّا صفات الكمال الثابتة له فيمتنع أن يماثله فيها شيء من الأشياء.

وبهذا جاءت الكتب الإلهية؛ فإنّ الله تعالىٰ وَصَف نفسه فيها بصفات الكمال علىٰ وجه التفصيل؛ فأخبر أنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير؛ وأنّه عزيز حكيم، غفور ودود، سميع بصير، إلىٰ غير ذلك من أسمائه وصفاته، وأخبر أنّه ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوًا أحد. وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، فأثبت لنفسه ما يستحقه من الكمال بإثبات الأسماء والصفات، ونفىٰ عنه مماثلته المخلوقات.

ولهذا كان مذهبُ سلفِ الأمَّة وأئمتها: أنّهم يصفون الله ﷻ بما وَصَف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، يثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، إثباتٌ بلا تمثيل وتنزيهٌ بلا تعطيل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ ردٌّ علىٰ أهل التمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ردٌّ علىٰ أهل التعطيل».



قال المصنف رحمه الله:

القاعدة السابعة: أنْ يُقال: إنَّ كثيرًا ممَّا دلَّ عليه السمع يُعلم بالعقل أيضًا، والقرآن يُبيِّن ما يستدل به العقل، ويرشد إليه، ويُنبِّه عليه، كما ذكر الله ذلك في غير موضع؛ فإنه سبحانه وتعالى بيّن من الآيات الدالة عليه، وعلىٰ وحدانيته، وقدرته، وعِلمه وغير ذلك، ما أرشد العِباد إليه ودلَّهم عليه، كما بيّن أيضًا ما دلَّ علىٰ نبوة أنبيائه، وما دلَّ علىٰ المعاد وإمكانه.

فهذه المطالب هي شرعية من جهتين: من جهة أن الشارع أخبر بها، ومن جهة أنه بيّن الأدلة العقلية التي يستدلّ بها عليها، والأمثال المضروبة في القرآن هي أقيسةٌ عقلية، وقد بُسِطَ هذا في غير هذا الموضع.

وهي أيضًا عقلية من جهة أنها تُعلم بالعقل أيضًا[1].



الشَّرح

العقل شَهِد بصحة الشرع، وتَعاضَدتِ الفطرةُ والعقل علىٰ ما جاء به الشرع، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «البَيِّنة: الوحي، والشاهِد: هو الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشَرَعه وعَلِم بعقله حُسْنَهُ، فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

وأول ما خاطب الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ من الوحي: الاستدلال بالعقل علىٰ توحيد الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ

(١) التدمرية (ص١٤٦، ١٤٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٢٥) باختصار.

﴿٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

قال العَلَّامة أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنّ هذا أوّلُ ما نزل، وفي ابتدائه بإنزال هؤلاء الآيات عليه، التنبيه على النّظر والفكر المؤديين إلى علمِ التوحيد، لذكر الرُّبوبيَّة المنتظمة للتَّربية والتّدبير واللُّطف بالصّحّة والرّزق.

وتنبيهٌ ثانٍ: على الاستدلال بما يراه من خلقِ جنسه من أهله وولده وغيرهم، ممّا يعلم أنّ حاله وحالهم فيه سواءٌ، من ظهورهم أشخاصًا حسّية متحرِّكة من نطفةٍ مَواتِ في الرّحم، حيث لا يصلُ إليها يدٌ ولا آلة، ولا يمسُّها شيء، بل يشهد العقل بأنّها تحوُّلٌ من حالٍ إلى حالٍ، بإرادةِ حيٍّ قادرٍ ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]».

فتفكُّرُ الإنسان بعقله في خلقِ الله يهديه إلى معرفة الخالق، ويوجب عليه إفرادُه وحده بالعبادة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «دعا اللهُ سبحانه عِباده إلى الفِكر فيه بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فيتفكرون في الآيات التي بيَّنها لهم فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصِدْق رُسُلِه، والعلم بلقائه، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها».

---

(١) شرح الحديث المقتفي في مبعث النبي المصطفى ﷺ (ص١٢٧، ١٢٨).
(٢) مدارج السالكين (ص٨٨٦).

وقد حثّنا الله ﷻ علىٰ تدبُّرِ آياته الكونية والشرعية، ففيها الهداية للإيمان بالله، وفيها زيادة إيمان المؤمنين، فمخلوقات الله العظيمة دالَّةٌ علىٰ عظمة خالقها، وانتظام الكون في إحكامٍ مُتقَنٍ دالٌّ علىٰ ربوبية الله الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ. قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي أمور الآخرة، وما فيها من الوعد والوعيد ونحو ذلك مما يزيد الإيمان في القلب، وينشأ عنه كثيرٌ من أعمال القلوب، كالخشية، والمحبَّة، والرَّجاء، والتوكُّل وغير ذلك».

في الكون آياتٌ عظيمةٌ دالَّةٌ علىٰ ربوبية الله ﷻ، لذلك دعا الله الخَلقَ إلىٰ التفكر فيها؛ لأنها من أسباب الهداية للإيمان بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من أسباب الإيمان ودواعيه: التَّفكُّر في الكون؛ في خلقِ السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في الإنسان وما هو عليه من الصفات؛ فإنّ ذلك داعٍ قويٌّ للإيمان،

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٧١).
(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧٩-٨١).

لِمَا في هذه الموجودات من عظمة الخَلق الدَّال علىٰ قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحُسْن والانتظام والإحكام الذي يُحيِّر الألباب، الدَّال علىٰ سَعَةِ علمِ الله، وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنِّعم الكثيرة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ، الدالة علىٰ سعة رحمة الله وجُودِه وبِرِّه، وذلك كله يدعو إلىٰ تعظيمِ مُبدِعِها وبارِئِها، وشُكرِه، واللَّهج بذِكره، وإخلاص الدِّين له، وهذا هو روحُ الإيمان وسرُّه.

وكذلك النظر إلىٰ فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلىٰ ربها من كل الوجوه، وأنّها لا تستغني عنه طرفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار.

وذلك يوجب للعبد كمالَ الخضوع وكثرة الدعاء والتضرع إلىٰ الله في جلبِ ما يحتاجه من منافع دِينه ودنياه، ودفعِ ما يضره في دِينه ودنياه.

ويوجب له قوة التوكُّل علىٰ ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوىٰ التَّعبُّد؛ فإنّ الدُّعاء مُخُّ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نِعَمِ الله وآلائه العامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين؛ فإنَّ هذا يدعو إلىٰ الإيمان».

والدعوة إلىٰ تدبُّر عقليات الشرع، والنظر في مخلوقات الله من أسباب تنمية العلم الضروري الذي فُطر عليه الخَلق من توحيد الله والإيمان به، فهذا التفكر من أسباب رسوخ العلم الضروري الفطري بتوحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

فاحذر دعوة ومنهج المعتزلة وفروعهم من الأشاعرة الذين زعموا أنّ أول واجب على المُكلَّف: النظر، يريدون من الناس الانسلاخ من العلم الضروري الفطري، لينظروا بعد ذلك هل يحصل لهم الإيمان بنظرهم، وربما مات أحدهم وقت النظر بلا إسلامٍ، وربما ضَلَّ نظرُه، وأَوْرَثَ صاحِبَهُ كُفرًا.

فأولُ واجبٍ على المُكلَّف: توحيد الله، ثم تنميته بعلوم الشرع وإقامة الدِّين؛ فإن النبي ﷺ بَعثَ معاذ بن جبل رضي الله عنه داعيًا إلى الله، وقال له: «ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «النبي ﷺ لَمْ يَدْعُ أحدًا من الخَلق إلى النظر ابتداءً، ولا إلى مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أَمَرَ أصحابه».

فالزَمِ العلمَ الفطري الضروري بتوحيد الله، وعليك بتنميته بعلوم الشرع وبالإتيان بأسباب زيادة الإيمان من العبادات، واحذر منهج المعتزلة وفروعهم من الأشاعرة الذين جعلوا النظرَ أول واجبٍ على المخلوق.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2]: «عن أبي الوليد الباجي، عن أبي جعفر السمناني -وهو من كبار الأشاعرة- أنّه سمعه يقول: إنّ هذه المسألة من مسائل المعتزلة بقيت في المذهب -مذهب الأشاعرة-».

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٦).
(٢) فتح الباري (١/ ٩٧).

وقولُ شيخِ الإسلام: (القرآن يُبيِّن ما يستدل به العقل) توجيهٌ لتعلُّم عقليات الشرع التي جاءت في القرآن والسُّنة؛ فإنّها تنمي الأذهان، وتزيد في الإيمان، وتهدي الإنسان إلىٰ معرفة المعقولات الصحيحة، فيستفيد من ذلك المهتدي فرقانًا يُميِّز فيه بين المعقولات الصحيحة والباطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أنواع العلوم[1]: «العلوم بهذا الاعتبار، إمَّا أن تُعلم بالشَّرْع فقط، وهو ما يُعْلَمُ بمجرد إخبار الشرع ممَّا لا يهتدي العقل إليه بحالٍ، لكنَّ هذه العلوم قد تُعْلَمُ بخبرٍ آخَرَ غير خبرِ شارِعنا محمد ﷺ، وإمَّا أن تُعلم بالعقل فقط، كمَرْوِيَّات الطِّبِّ والحساب والصِّنَاعات، وإمَّا أن تُعْلَمَ بهما، فإمَّا أن يكون الشارع قد هدىٰ إلىٰ دلالتها كما أخبر بها أم لا.

فإنْ كان الأوَّلُ فهي عقليَّات الشَّرْعيَّات، أو عقليُّ الشَّارع، أو ما شُرِعَ عقْلُهُ، أو العَقْلُ المَشْرُوعُ، وإمَّا أن يكون قد أخبر بها فقط فهذه عَقْليَّةٌ من غير الشَّارع، فيجب التَّفَطُّنُ.

لَكِنَّ العَقْلِيَّ قد يُعْقَلُ من الشَّارع، وهو عَامَّةُ أصول الدِّين، وقد يُعقل من غيره ولم يُعْقَلْ منه، فهذا في وجوده نظرٌ».

وقولُ شيخِ الإسلام: «الأمثال المضروبة في القرآن هي أقيسةٌ عقلية» فيه حثٌّ علىٰ تدبُّرها؛ فإنّ فهم الأمثلة في القرآن والسُّنة هو من تدبُّر القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٣١، ٢٣٢).

وضَرْبُ الأمثال في القرآن من بلاغة القرآن في تنوُّع أساليب خطابه، وهو من جمالِ خطاب القرآن وقوة بيانه، فهو ليس علىٰ نمطٍ واحد في أسلوب الخطاب، فيكون الخطاب تارةً في أسلوبِ سؤالٍ وجواب، ومرةً أخرىٰ بضرب الأمثال، وأحيانًا بأسلوب القصص، وأخرىٰ بأسلوب المناظرات، وأخرىٰ بأسلوب إلقاء المعلومة.

وفوائد ضرب الأمثلة في القرآن كثيرة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)] : «ضربُ الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث، والزَّجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلىٰ الحِسِّ».

والمقصود بهذه الجملة من العقيدة: بيانُ أنَّ الله خَلَق في الإنسان العقل الذي يَعْرِفُ به ربَّه وصِدْق رسوله محمد ﷺ، وبالاهتداءِ بالوحي والاستدلال بالعقل يُدْرِكُ المُستدِلُّ الدلائِلَ علىٰ وحدانية الله وصِدْق رسوله، والبعث والمعاد.



(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣١٤).

قال المصنف رحمه الله:

وكثيرٌ من أهل الكلام يُسمِّي هذه «الأصول العقلية» لاعتقاده أنها لا تُعلم إلا بالعقل فقط؛ فإنَّ السمع هو مجرد إخبار الصادق وخبر الصادق -الذي هو النبي- لا يُعلم صِدْقُه إلا بعد العلم بهذه الأصول بالعقل.

ثم إنهم قد يتنازعون في الأصول التي يتوقف إثبات النبوة عليها: فطائفة تزعم أنَّ تحسين العقل وتقبيحه داخِلٌ في هذه الأصول، وأنه لا يمكن إثبات النبوة بدون ذلك، ويجعلون التكذيب بالقَدَر مما ينفيه العقل[(١)].

الشَّرح

الشرعُ تضمَّن الإخبار عن الغيب، وأظهر أنواعًا من العلوم العقلية، فاعتضد الشرع والعقل علىٰ ثبوت الحقائق الصحيحة والعلوم النافعة.

ودلائل نبوة محمد ﷺ دلَّ عليها الشرع والعقل، فما كان الله لِيَذَرَ خَلْقَهُ من غير هادٍ يُبيّن لهم كيفية عبادته والطريق الموصل إلىٰ جنته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

والله ﷻ أرسل الرُّسل عليهم الصلاة والسلام إعذارًا للخَلق وبيانًا للحق وهدايةً للناس لأسباب دخولهم الجنة، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والله ﷻ لم يخلقنا عبثًا، وإنّما خلقنا لعبادته، ويحاسبنا يوم المعاد علىٰ ذلك،

(١) التدمرية (ص١٤٧).

قال تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

فالإيمان بالله ورُسُله وكُتُبه واليوم الآخِر دلَّ عليه الشرع والعقل معًا.

فإرسال الرُّسل وإنزال الكتب دالٌّ علىٰ عدلِ الله في خلقه، فالمُعظِّم لله ﷻ يعتقد صِدْقَ ذلك، ويوقن بحقيقة ذلك، ولا يجحد ذلك إلا مُكابِرٌ أو جاهِلٌ بالله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

فاستدلال المسلم علىٰ ربوبية الله بالأدلة العقلية هذا مما دلَّ عليه الشرع واستحسنه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الاستدلال علىٰ الخالق بخَلْق الإنسان في غاية الحُسْن والاستقامة، وهي طريقة عقليَّة صحيحة. وهي شرعيَّة دلَّ القرآن عليها، وهَدَىٰ النَّاسَ إليها، وبيَّنها إليها».

وحقائقُ ما بَعَث اللهُ به رُسُلَهُ وأنزل به كُتُبه من أعظم الدلائل علىٰ صحة نبوتهم، فعلوم الوحي التي يُبلِّغها رُسُلُه عنه من أعظم البراهين علىٰ صدقِ نبوتهم.

فحالُ النبي والعلوم التي يُبلِّغها من دلائل نبوته، أمَّا الكاذب فإنّه لا يَسْتَوْثِقُ له نامُوسُه فيما ادَّعاه من الكذب، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ آيات الأنبياء الدالَّة علىٰ صِدْقِهم كثيرة متنوعة، وأنّ النبيَّ الصادق خيرُ الناس، والكاذب علىٰ الله شرُّ النَّاس، وبينهما

(١) النبوات (١/ ٢٩٢).
(٢) النبوات (١/ ٥٢٢، ٥٢٣).

من الفروق ما لا يحصيه إلا الله، فكيف يشتبه هذا بهذا؟!».

ومحتوىٰ القرآن دالٌّ علىٰ صدقِ نبوة محمد ﷺ، وأنّه كلام رب العالمين، فسلطانه علىٰ القلوب عند تلاوته أو سماعه معلوم، وليس هذا لكلام غيره.

وفصاحة القرآن وقوة ألفاظه وبلاغة معانيه دالٌّ علىٰ أنّه كلام رب العالمين، ليس في مقدور جميع الخَلق -فضلًا عن آحادهم- أن يأتي بمثله، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

إحكام معاني القرآن دالٌّ علىٰ صدقِ نبوة محمد ﷺ، فأحكامه كلها متفقة علىٰ معاني الشرع، لا اختلاف ولا تضاد فيها، فليس فيه شيء من المعاني الباطلة ولا الأخبار الكاذبة ولا الأحكام الجائرة، وليس فيه شيء من التناقض والزَّلَل كما هو صفةُ كُتُبِ المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

أنواع العلوم التي احتوىٰ عليها القرآن دالَّةٌ علىٰ صدقِ نبوة محمد ﷺ، فالعلوم الإلهية التي جاءت في القرآن دالَّةٌ علىٰ أنّه كلام رب العالمين، ففيها مُفصَّل صفات الله ﷻ التي لا تُعلم إلا بالوحي لأنّها غَيْبٌ، وفيها تفاصيل الأمر بعبودية الله وإنكار الشرك علىٰ المِلل كلها، وفيها أخبار الرُّسل والأمم السابقة مُفصَّلة، وفيها بيانُ أحوال الآخرة، وصفة الجنة والنار، وحالُ كلِّ فريقٍ من أهلها.

ودلالة العقل علىٰ نبوة محمد ﷺ معلومةٌ، قال تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

﴿ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «أي: إنّ القرآن حقٌّ، ثم قال تعالىٰ: ﴿يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فإنّ الله شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمَنَ به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات، ما يدلُّ علىٰ مثل ما أخبر به في القرآن».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : «قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي: أنّ القرآن حقٌّ، فأخبر أنّه لابدَّ أن يُريهم من آياته المشهودة ما يُبَيِّنُ لهم أنَّ آياته المَتلوَّة حقٌّ».

وقد قصَّ الله علينا في القرآن أخبار بني إسرائيل مُفصَّلة، وذَكَر الله لنا أحوالهم مع أنبيائهم، وجاءت مُفصَّلة خصوصًا قصتهم مع نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبيان ذلك جاء مُفصَّلًا حقًّا وصِدقًا، لم يتطرَّق إليه الخطأ، ولم يجادل اليهود في صِدْقِه، وذلك من أبينِ الحُججِ علىٰ صدقِ مَن أُوحِيَ إليه هذا القرآن صلواتُ الله وسلامه عليه.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] : «يمتنُّ الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ بما قصَّه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين، كهذه القصَّة العظيمة،

---

(١) الإيمان الكبير (ص٤٧٧).

(٢) الفوائد (ص٢٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩٣).

وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحدٌ من أهل الكتاب، فأنتَ لمْ تدرُسْ أخبار الأوَّلِين، ولم تتعلَّمْ ممَّن دَراها، فإخبارك بالحقِّ اليقين من أخبارهم دليلٌ علىٰ أنّك رسول الله حقًّا، وما جئتَ به صِدقٌ، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾، أي: عطيَّة نفيسة ومِنْحة جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾: وهو هذا القرآن الكريم، ذِكْرٌ للأخبار السابقة واللاحقة، وذِكْرٌ يُتَذَكَّرُ به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا ممَّا يدلُّ علىٰ أنّ القرآن مشتمل علىٰ أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفِطَرُ بحسنها وكمالها».

ومن دلائل صحة نبوة محمد ﷺ فيما بَلَّغه من القرآن: شهادة المنصفين من أحبار اليهود والنصارىٰ، الذين عرفوا ما فيه من الحق، بدلالة محتواه علىٰ توحيد الله وعبادته ومحاسن الأمور، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

محمد ﷺ صَدَق فيما بَلَّغه عن الله من القرآن، ولو كان كاذبًا في دعواه لعاجله الله بعقوبته، مكثَ ثلاثة وعشرين عامًا يُبلِّغ وَحْيَ الله حتىٰ ظهر به هُدَىٰ الله الذي هَدَىٰ الله به ما لا يُحصىٰ من الخَلق، فظهر به مصداق قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن أعظم ما دلَّ علىٰ صدقِ محمد ﷺ في تبليغه القرآن: ما دعا إليه، وأمر به، ونهىٰ عنه، وأحلَّه، وحَرَّمه[(١)]، وأخبر عنه؛ فإنّه دعا إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح،

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٦١).

وأحلّ الطيبات وحرّم الخبائث، وأمر بالتوحيد ونهىٰ عن الشرك، وأَمَر بكل معروف ونهىٰ عن كل مُنكَر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنّه يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث، فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا، إنّما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به، لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويُحِلّ لهم ما يُحِلّه، ويُحرِّم عليهم ما يُحرِّمه! وأيُّ فائدةٍ في هذا؟! وأيُّ علمٍ يبقىٰ فيه لنبوته؟!

وكلام الله يُصان عن ذلك، وأن يُظَنَّ به ذلك، وإنّما المدح والثناء والعَلَم الدالّ علىٰ نبوته، أنَّ ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حُسْنَهُ وكونه معروفًا، وما ينهىٰ عنه تشهد قُبْحَهُ وكونه منكرًا، وما يُحِلُّه تشهد كونه طيبًّا، وما يحرِّمه تشهد كونه خبيثًا.

وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المُتَغَلِّبين المُبطِلين والكذّابين والسَّحَرة؛ فإنّهم يَدْعُون إلىٰ ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيحٍ ومُنكَرٍ وبغيٍ وإثمٍ وظلمٍ.

ولهذا قيل لبعض الأعراب -وقد أسلم- لمَّا عرفَ دعوته ﷺ: عن أيِّ شيءٍ أسلمتَ؟ وما رأيتَ منه ما دَلَّكَ علىٰ أنّه رسول الله؟ قال: «ما أَمَر بشيءٍ فقال العقل: لَيْتَهُ نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمَرَ به، ولا أَحَلَّ شيئًا فقال العقل: ليته حرَّمه، ولا حرَّم شيئًا فقال العقل: ليته أباحه».

---

(١) مدارج السالكين (ص١٤٨، ١٤٩).

فانظر إلىٰ هذا الأعرابي وصحة عقلِه وفِطرتِه وقوة إيمانه، واستدلاله علىٰ صحة دعوته بمطابقة أَمْرِه لكلِّ ما حَسُن في العقل، ومطابقة نهيه لِمَا هو قبيحٌ في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه».

محتوىٰ القرآن دالٌّ علىٰ صدقِ مَن أُوحي إليه صلوات وسلامه عليه؛ فإنّه جاء بالحق وصَدَّق المُرسَلِين.

هذا القرآن يدعو للتي هي أقوم في الاعتقاد والقول والعمل، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

هذا القرآن جاء بذكر تفاصيل علوم الصراط المستقيم، الذي مَن اهتدىٰ به دخل الجنة، فذكر مفصل علوم الصراط دال علىٰ صدق من أوحي إليه هذا القرآن؛ فإنّه لا سبيل إلىٰ معرفته إلا من الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ما في القرآن من التعاليم والتوجيهات دالٌّ علىٰ أنه من عند الله، فهو مَلِيءٌ بالتوجيهات التي تُزَكِّي النفوس وتُقوِّم سلوكها، وتُنمِّي الخير فيها، فهي توجيهاتٌ إلهية ممَّن خَلَقَ النفوس، وهو الأعلم بما يُصْلِحها.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك والمعاصي والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق».

دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة، غير ما ذكرتُ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «للناس طُرُقٌ في دلالة المعجزة علىٰ صدقِ الرسول: طريق الحكمة، وطريق القُدْرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سُنَّته وعادته التي بها يُعرف أيضًا ما يفعله، وهو من جنس المُوَاطَأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلها طُرقٌ صحيحة».

دلائل نبوة محمد رسول الله ﷺ كثيرة جدًّا، صُنِّفت فيها المُصنَّفات، وحسبي هنا أن أَذْكُر بعضًا منها:

١. بشارة الكتب السماوية بها.

٢. خاتم النبوة في كتفه.

٣. غَسْل الملائكة قلبه بماء زمزم، وهو رضيع.

٤. تسليم الحَجَر بمكة عليه.

٥. تسبيح الطعام بين يديه.

٦. نُطْق الشَّاة المسمومة له.

٧. انشقاق القمر له.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥٣).

(٢) النبوات (٢/ ٦٨٤).

٨. إخباره بالغيب في المستقبل.

٩. حراسة السماء من استراق الجن لخبر السماء بعدما أُوحي له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «تنوَّعت آيات الأنبياء بل النبي الواحد تتنوَّع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر، ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام والشراب، كنبع الماء من بين الأصابع.

وهذا كما أنّ آيات الرب الدالَّة علىٰ قدرته، ومشيئته، وحكمته، وأمره ونهيه، لا تختص بنوع فكذلك آيات أنبيائه. فهذا ممَّا ينبغي أن يُعرف. ولكن خاصتها أنّها لا تكون إلا مستلزمة لصدقِ النبي وصِدْق الخبر بأنه نبيٌّ».



(١) النبوات (٢/ ٨٦٥).


قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وطائفةٌ تزعم أن حدوث العالَم من هذه الأصول، وأن العلم بالصانع لا يمكن إلا بإثبات حدوثه، وإثبات حدوثه لا يمكن إلا بحدوث الأجسام، وحدوثها يُعلم إمَّا بحدوث الصفات، وإمَّا بحدوث الأفعال القائمة بها، فيجعلون نَفْيَ أفعال الرب ونفي صفاته من الأصول التي لا يمكن إثبات النبوة إلا بها[(١)].

الشَّرْح

حذَّر شيخُ الإسلام هنا من أصول المُبتدِعِين في إثبات التوحيد والنبوة؛ فإنّهم ابتدعوا كلامًا لا يَهْدِي إلىٰ الحق ولا يُبيِّنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ المُبتدِعِين الذين ابتدعوا كلامًا وأصولًا تُخالف الكتاب، وهي أيضًا مخالفة للميزان وهو العدل، فهي مخالفة للسمع والعقل، كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بأنّها مستلزمة للأعراض لا تنفك عنها. قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادِثٌ؛ لامتناع حوادث لا أول لها.

فهؤلاء إذا حُقِّق عليهم ما قالوه، لم يوجدوا قد أَثْبَتُوا العلم بالصانع، ولا أَثْبَتُوا النبوة، ولا أَثْبَتُوا المعاد. وهذه هي أصول الدين والإيمان، بل كلامهم في الخَلق والبعث والمبدأ والمعاد، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيقُ العلم، لا عقلًا، ولا نقلًا».

---

(١) التدمرية (ص١٤٨).

(٢) النبوات (٢/ ٦٢٢).

وفِرَقُ المبتدعة وشيوخهم من المُتكلِّمين ليس في كلامهم علمٌ مُحَقَّق نافِعٌ في مسائل أصول الدِّين، بسبب سلوكهم أصولًا مبتدعة وقواعد خاطئة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أمَّا كلامه -الرازي- في المعاد: فأبعد من هذا وهذا، كما قد بُيِّن أيضًا، وكذلك كلام مَن تقدَّمه من الجهمية وأتباعهم من الأشعرية وغيرهم، ومن المعتزلة، فإنّك لا تجد في كلامهم الذي ابتدعوه، لا إثبات الربوبية، ولا النبوة، ولا المعاد».

العقول تهتدي لمعرفة الصانع بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، واللهُ فَطَر كلَّ إنسانٍ علىٰ معرفة ربِّه والهداية إلىٰ ما ينفعه واجتناب ما يضره، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «تعريف الرسل علىٰ وجهين: تارةً تُنبِّه القلوب وترشدها وتُذكِّرها بما فيها، فيَعْلم الإنسان بعقله ونظره واستدلاله الذي دلَّه عليه الرسول وأرشده إليه ما أخبره به الرسول، ولا يكون في هذا مقلِّدًا للمخبر ولا مستفيدًا له بمجرد خبره، بل بالنظر والاستدلال العقلي الذي أرشده إليه الرسول، كما بيَّن الله تعالىٰ في القرآن الدلائل الدالة علىٰ وحدانيته، وصِدْق رُسُله، وإمكان المعاد، وإثبات صفاته».

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقاموا البراهين علىٰ صدقِ نبوتهم، والأدلة علىٰ وحدانية الله.

(١) النبوات (٢/ ٦٢٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السابعة (ص٣٧٠، ٣٧١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)] : «إنّ الرسول إذا دعا قومًا إلىٰ الله، فلا تتم دعوته إلا بأنْ يُبيّن ما يُعرف به صدقُه، ولا يُعرف صدقُه إلا بأنْ يُعرف الصانع وتقوم الآيات علىٰ صِدقِ رُسُله».

وبيان الدين كله يرجع إلىٰ بيان الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أنّ محمدًا رسول الله، والمتكلمون وأتباعهم المبتدعون من أضلِّ الناس عن معناهما وحقيقتهما، فضلًا عن شَرْحهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)] : «قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فالبيّنات: جمع بيّنة، وهي الأدلة والبراهين التي هي بيّنة في نفسها، وبها يتبيّن غيرُها، يُقال: بيّن الأمر: أي: تبيّن في نفسه، ويُقال: بيّن غيره، فالبيّن: اسمٌ لِمَا ظَهَر في نفسه، ولِمَا أظهر غيره. وكذلك المبيّن، كقوله: فاحشة مبيّنة، أي: متبينة.

فهذا شأن الأدلة؛ فإن مقدماتها تكون معلومة بنفسها، كالمقدمات الحسية والبديهية، وبها يتبيّن غيرها، فيستدل علىٰ الخفي بالجلي.

والهُدَىٰ: مصدر هداه هُدَىٰ، والهدىٰ: هو بيان ما ينتفع به الناس، ويحتاجون إليه، وهو ضد الضلالة، فالضالُّ يضل عن مقصوده وطريق مقصوده.

وهو سبحانه بيَّن في كتبه ما يهدي الناس، فعرّفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق، عرَّفهم أنّ الله هو المقصود المعبود وحده، وأنّه لا يجوز عبادة غيره، وعرَّفهم الطريق، وهو ما يعبدونه به.

(١) جامع المسائل، المجموعة السابعة (ص٣٧٤).
(٢) النبوات (٢/ ٦٤٠، ٦٤١).

ففي الهدىٰ: بيان المعبود، وما يُعبد به. والبينات فيها بيان الأدلة والبراهين علىٰ ذلك».

ودلائل نبوة النبي تدلُّ علىٰ ألوهية مَن أنبأه وأرسله، والوحي الذي يُبلِّغه عن الله ﷻ دالٌّ علىٰ ألوهية مَن أوحاه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «آيات الأنبياء هي معتادة أنّها تدل علىٰ: خبرِ الله وأمرِه، علىٰ عِلمه وحُكْمِه، فتدلّ علىٰ أنّهم أنبياء، وعلىٰ صدقِ مَن أخبر بنبوتهم».

عَرَفنا الصانع بخَلقِه وأَمْرِه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فإنّه لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وليس كمثله شيء في صفاته، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وضلَّ المبتدعة عن معرفة الله بذلك فنفوا صفات الله، وعطلوا حكمته ونفوها في أمره ونهيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّه -سبحانه- حكيم، وإنّ حكمته لازمة لعلمه ولازمة لإرادته، وهما لازمان لذاته، كانت حكمته من لوازم ذاته، فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة، ويمتنع أن يفعل علىٰ خلاف الحكمة.

ومعلومٌ بصريح العقل أنّ العلم خيرٌ من الجهل، والصدق خير من الكذب، والعدل خير من الظلم، والإصلاح خير من الإفساد. ولهذا وجب اتصافه تعالىٰ بالرحمة، والعلم، والصدق، والعدل، والإصلاح، دون نقيض ذلك.

(١) النبوات (٢/ ١٠٧٥).
(٢) النبوات (٢/ ٩٢٦).

وهذا ثابتٌ في خَلقِهِ وأَمْرِه، فكما أنّه في خلقِه عادلٌ حكيمٌ رحيم، فكذلك هو في أمره وما شَرَعه من الدِّين؛ فإنّه لا يكون إلا عدلًا، وحكمةً، ورحمةً، ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة، ومَن اتبعهم من أهل الكلام والرأي: إنّه يأمر العِباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه، وإنّ ما أمر به لا يجب أن يفعل علىٰ حكمة، وينكرون تعليل الأحكام، أو يقولون: إنّ عِلَلَ الشرع أمارات محضة، فهذا كله باطِلٌ، كما قد بُسط في مواضع.

بل ما يأمر به مصلحةٌ لا مفسدة، وحَسَنٌ لا قبيح، وخيرٌ لا فساد، وحكمة وعدل ورحمة، والحمد لله رب العالمين».

وبهذا البيان تَعْرِف ضلال المبتدعين الملحدين الذين حذَّر شيخ الإسلام من أصل استدلالهم حيث قال عنهم[(١)]: «يجعلون نفي أفعال الرب ونفي صفاته من الأصول التي لا يمكن إثبات النبوة إلا بها».

عَرَفنا الله بتفرُّده بالخَلق والمُلْك والتدبير الموجب لعبوديته وحده، وهذا شأنه في كل يوم، بل وفي كل لحظة، عرفناه بنفاذ تقديره وخَلقِه وأَمْره في عباده، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يغفر ذنبًا، ويُفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفك عانيًا، ويُغنِي فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقِيل عَثْرة،

(١) التدمرية (ص١٤٨).
(٢) طريق الهجرتين (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

ويستر عورةً، ويُعِز ذليلًا، ويُذِل عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويُذْهِب بدولة، ويأتي بأخرىٰ، ويُداوِل الأيام بين الناس، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين.

يَسُوق المقادير التي قدَّرها قبل خَلْق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلىٰ مواقيتها، فلا يتقدَّم شيء منها عن وقته ولا يتأخَّر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرىٰ به قلمه، ونفذَ فيه حُكْمُه، وسبقَ به عِلْمُه.

فهو المتصرِّف في الممالك كلها وحده، تصرُّفَ مَلِكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحِيمٍ تامِّ المِلكِ، لا ينازعه في مُلكِهِ منازِعٌ، ولا يعارضه فيه مُعارِض، فتصرُّفُه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك».

فالواجب علىٰ المسلم: لزوم الوحي، والفطرة، وما دلَّ عليه العقل الصريح الذي يوافق الشرع، ولا يخالفه.

وليحذر المسلم من ضلالات المتكلِّمين والمُبتدِعين الذين ضلوا عن الحق بقواعدهم العقلية الباطلة، وكانوا سببًا في ضلال الخَلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تكلَّمَ أهلُ البدع في مسألة حدوث العالَم والمعاد والصفات والنبوات بما أضافوا إلىٰ دِين المسلمين من الأقوال التي ليست في كتاب الله، ولا في حديث عن رسول الله، ولا قالها أَحَدٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أحد من أئمة المسلمين؛ وإنّما هي مأخوذة عن أهل الكلام المبتدع المحدَث المذموم عند السلف والأئمة، الذي أصلُه مأخوذ عن الجهمية والمعتزلة،

(١) الصَّفدية (٢/ ٣٢٨).

فصارت الأصول التي يَذْكُرها أهل البدع وأتباعهم، التي هي يُضاف بعضها إلىٰ الله ورسوله ودين الإسلام ويناظر عليها عند مَن لمْ يَعْرف إلا أقوال أهل البدع والمتكلمين والفلاسفة الملحدين، بل ومنها ما يُظن بل يُحكىٰ أنّها إجماع المسلمين، وأنّ مَن خالفها فقد خرج عن دين الإسلام، وتكون تلك الأصول من البدع المحدَثة في الإسلام، المخالفة لقول الله ورسوله والصحابة والتابعين بإحسان».



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم هؤلاء لا يَقْبلون الاستدلال بالكتاب والسُّنة علىٰ نقيض قولهم؛ لظنهم أن العقل عارَضَ السمع -وهو أصلُه- فيجب تقديمه عليه، والسمع إمَّا أنْ يُؤَوَّل، وإما أن يُفوَّض[1].

الشَّرْح

عمدة المتكلمين وفروعهم من المبتدعين: عقولهم الضَّالَّة، فيُكذِّبون بما أخبر الله ﷻ ورسوله ﷺ به؛ لأنّ عقولهم تنفيه ولا تُثبته.

ولم يسلك أحد هذه الطريقة إلا تَزَنْدَقَ، قال أبو يوسف القاضي: مَن طلبَ الدِّين بالكلام تزندقَ. وقال الإمام أحمد: علماء الكلام زنادقة، وقال: ما ارتدىٰ أحد بالكلام فأفلح.

والوحي معصوم، وهو فُرقانٌ يُعرف به ضلالةُ مَن ضلَّ، وهُدَىٰ مَنِ اهتدىٰ، فالوحي حقٌّ وما خالفه فهو باطِلٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فالمسلم يتلقَّىٰ دِينَهُ من القرآن والسُّنة؛ وذلك لاعتقاده اليقيني بأنّ الله ﷻ بعث رسوله ﷺ بالهدىٰ ودين الحق، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

ويجب علىٰ كل مسلم أن يستدلَّ لكل مخلوق من عالِمٍ أو مُتعالِمٍ بالكتاب والسُّنة، لا يستدل به علىٰ كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ، لا يتقدَّم بين يدي الله ورسوله،

(١) التدمرية (ص١٤٨).

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

حقيقة الدين كله الإيمان بالله والإيمان برسوله محمد ﷺ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، فمَن كذَّب خبر الله ورسوله ولمْ يَنْقَدْ لأمرهما فهو كافر.

وتكذيب الوحي لمعقولات المتكلمين والمبتدعين الضالة أوقعت في الأمّة الفُرقة، وأَضلَّتِ الخَلق عن اتباع الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ المقصود الذي خُلق له هو عبادة الله الجامعة لمعرفته بأسمائه وصفاته، ومحبته والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والطريق إلىٰ ذلك هم رُسُل الله تعالىٰ، فالإيمان بالله ورسوله هما المقصود والوسيلة، وبدون أحدهما لا يحصل ذلك، فمَن أقرَّ بالخالق ولم يؤمن بالرسل لم يَعْلَم ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به، ولا ما يكرهه ويسخطه وينهىٰ عنه، ولم يَعْرف أيضًا من أسمائه وصفاته ما لا يُعرف إلا من الرسل، سواء في ذلك العلوم والأعمال التي قد يعلمها الإنسان بعقله؛ فإنّ هذا القِسم ليس بيِّنًا في العقول ولا ظاهرًا للناس، ولا هو مُتَّفقٌ عليه بين أرباب العقل العام، بل مَن لم يهتدِ بنور الرسالة واكتفىٰ فيه برأيه ورأي بني جنسه، فإنه يقع في الشبهات والإشكالات والاختلاف والتفرق الذي لا يحيط به إلا الله تعالىٰ».

ورَدُّ الوحي وعدمُ تصديقه والانقياد له من أسبابِ زيغِ القلوب، قال تعالىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثامنة (ص٢٠٧).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «إذا لم نُقِرَّ بما جاء عن النبي ﷺ ودفعناه، رَدَدْنَا على الله أَمْرَهُ، قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] ».

ومَن له معرفة بمقالات وأقوال واعتقادات المتكلمين المبتدعين، اطلع على أسباب تَقلُّبِهم في الضلالات بسبب رَدِّهِم لنصوص الوحي لمخالفتها لأوهام عقولهم.

وردُّ نصوصِ الوحي لمخالفتها لعقول المبتدعين هو من رَفْعِ أصوات المبتدعين فوق صوت الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : «من الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته؛ فإنّه سببٌ لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سُنَّته وما جاء به؟! أتُرى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورَفْع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟!».

المعتزلة وفروعهم من الأشاعرة يَرُدُّون ما جاء به الشرع المعصوم إذا خالفتها عقولهم، قال الرازي[٣] : «الاستدلال بالسمع مشروطٌ بأن لا يُعَارضه قاطِعٌ عقلي، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه».

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٠).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣١٤).
(٣) ذكره في المطالب العالية، انظر مجموع الفتاوى (١٣/ ١٣٩).

وقال عمرو بن عبيد المعتزلي -وذُكر له حديث الصَّادق المَصْدُوق-: لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبته، ولو سمعتُ زيد بن وهب يقول هذا ما أجبته، ولو سمعتُ عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قَبِلْتُه، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لَرَدَدْتُهُ، ولو سمعتُ الله تعالىٰ يقول هذا لقلتُ له: ليس علىٰ هذا أخذتَ ميثاقنا[1].

وقال بِشْرٌ المريسيُّ[2]: «إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأخبار، فادفعوها بالتَّكذيب».

هذه هي حقيقة منهج المعتزلة وأشباههم: تكذيبٌ بالوحي، وتحريفٌ له لأغلوطات عقولهم الضالة.

وتسليط المبتدعة تأويلاتهم علىٰ نصوص الوحي هو من تحريف الكَلِم عن مواضعه، وهذا ممَّا شابَهَ فيه المبتدعة اليهود، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «ذمَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المحرِّفين لكتابه، والأُمِّيِّين الذين لا يَعْلَمُون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأماني، والذين يكتبون فيكتبون الباطل ويقولون: هذا حقٌّ، وهو من عند الله.

---

(١) تهذيب الكمال (٢٢/ ١٢٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢١٧، ٢١٨)، الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٨).

(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٩، ١٠٥٠).

وذمَّ في عِدَّة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدىٰ.

وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي، المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم؛ فإنهم تارةً يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث علىٰ وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون: هذا من عند الله، وتارةً يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم وأذواقهم وخيالاتهم، ويَدَّعُون أنها الدِّين الذي يجب اتباعه ويُقدِّمونها علىٰ نصوص الوحي.

وأمَّا تحريفهم للنصوص بأنواع التأويلات الفاسدة التي يُحرِّفون بها الكَلِم عن مواضعه، فأكثر وأشهر من أن تُذكر، كتأويلات القرامطة والباطنية والفلاسفة والرافضة والجهمية والقدرية».

أَقْبِلْ -أيُّها المسلم- علىٰ نصوص الوحي إقبالَ مُهْتَدٍ بها، واجعل كلام الله ﷻ حاكمًا علىٰ هواك، ولا تنصب نفسك معارضًا لله العليم الحكيم، ولكلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومَنِ امتلأ قلبُه من زيغِ الشبهات والضَّلالات والعقائد الباطلة، فليشفِ قلبَهُ بنور الوحي؛ فإنّه شفاءٌ لِمَا في الصدور، ومَنِ استضاء بنور الوحي كان من المهتدين، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وليحذر المخلوق أنْ يُنصِّب نفسه عدوًّا وندًّا لله، يرد علىٰ الله كلماته ووحيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «لا ترىٰ مَن عارض الوحي برأيه وجعله ندًّا له إلَّا مشركًا بالله، قد اتخذ من دون الله أندادًا، ولهذا كان مرضُ التعطيل ومرضُ الشرك أخوين متصاحبين، لا ينفك أحدهما عن صاحبه؛ فإنّ المعطل قد جعل آراء الرجال وعقولهم ندًّا لكتاب الله، والمشرك قد جعل ما يعبده من الأوثان ندًّا له».



(١) الصَّواعق المرسلة (٤/ ١٣٥٣).



قال المصنف رحمه الله:

وهم أيضًا عند التحقيق لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسُّنة علىٰ وفق قولهم، لِمَا تقدَّم.

وهؤلاء يَضِلُّون من وجوه:

منها ظنهم أنَّ السمع بطريق الخبر تارة، وليس الأمر كذلك، بل القرآن بيّن من الدلائل العقلية التي تُعلم بها المطالب الدينية ما لا يُوجد مثلُه في كلام أئمة النظر، فتكون هذه المطالب شرعيةً عقلية.

ومنها ظنهم أنَّ الرسول لا يُعلم صِدقُه إلا بالطريق المُعيّنة التي سلكوها، وهم مخطئون قطعًا في انحصار طريق تصديقه فيما ذَكَرُوه؛ فإنَّ طُرُق العِلم بصدق الرسول كثيرة، كما قد بُسط في غير هذا الموضع.

ومنها ظنهم أنَّ تلك الطريق التي سلكوها صحيحة، وقد تكون باطلةً.

ومنها ظنهم أنَّ ما عارضوا به السمع معلومٌ بالعقل، ويكونون غالطين في ذلك، فإنه إذا وُزن بالميزان الصحيح وُجد ما يُعارِضُ الكتابَ والسُّنة من المجهولات لا من المعقولات، وقد بُسط الكلام علىٰ هذا في غير هذا الموضع[1].



الشَّرح

العقل الصريح يوافق النقل الصحيح، ومَن توهَّمَ مخالفة العقل لنصوص الوحي من القرآن والسُّنة، فإنّما ذلك لضلال عَقْلِه.

والاهتداء بالقرآن من أسباب زَكاء النفوس وتنمية الأذهان والعقول، ففيه الاستدلال بالأدلة العقلية الصحيحة علىٰ الحقائق والعلوم النافعة، ومن ذلك دلائل

(١) التدمرية (ص١٤٨، ١٤٩).

التوحيد والنبوة والمعاد.

فالاهتداء بالوحي والإعراض عمَّا خالفه من الضلالات، ضَمانةٌ لصحة الاعتقاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «القرآن قد ضَرَب الله للناس فيه من كل مَثلٍ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية».

والمتكلمون المبتدعون من أضلِّ الخَلق عن دلالة العقل الصريح، فطائفة منهم ضلوا عن معرفة الله بالدليل العقلي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] : «إنّ كثيرًا من متأخري النُّظّار اضطربوا في معرفة التوحيد وأدلته العقلية، حتىٰ ظنَّ منهم طائفة أنّه لا يقوم عليه دليلٌ عقليٌّ».

وأنتَ -أيُّها المسلم- إذا تأملتَ شبهات المعتزلة وغيرهم من المبتدعة التي عارضوا بها الوحي -وقد تضمّنت الرسالة التدمرية مناقشة جملة من ذلك- تبيّن لكَ فسادها وضلالها عن صحيح المنقول وصريح المعقول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)] : «إنّ السَّفْسَطة إمَّا خيالٌ فاسِدٌ، وإما مُعانَدة للحق، وكلاهما لا ضابط له، بل هو بحسب ما يخطر للنفوس من الخيالات الفاسدة والمعاندات الجاحدة».

وحاصلُ عقليات المتكلمين والمبتدعين ضلالٌ زَخْرَفُوه بالعبارات المُمَوَّهَة،

---

(١) شرح الأصبهانية (ص١٣٣).
(٢) شرح الأصبهانية (ص١٠٥).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٦٠).

وصارت ضلالاتهم هذه شُبهاتٌ يُزَلْزِلُون بها عقائد المسلمين، ويُكذِّبون بها نصوص القرآن والسُّنة.

وما في كلام المتكلمين والمبتدعين من التناقض خيرُ دليلٍ علىٰ فساد عقولهم وضلال معقولاتهم التي يعارضون بها الوحي.

والمبتدعة القائلون بِرَدِّ نصوص الوحي لتوهُّمِهم معارضتها لعقولهم، هم في الحقيقة مُكذِّبون لِمَا بلَّغه رسول الله ﷺ، كافرون بالوحي.

والعقل لا يحيط علمًا بالأمور الغيبية، وما تنفيه العقول القاصرة لجهلها وتعالُمِها ليس حُجَّةً علىٰ كلام الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هَبْ أنّكم لم تعلموا بالعقل ثبوت صفةٍ أخرىٰ، فمن أين لكم نفيها بلا دليلٍ، والسمع قد دلَّ عليها؟!

الثاني: أنْ يُقال: فهذا عَزْلٌ للرسول ﷺ عن الإخبار بصفات مُرسِلِه؛ فإنّكم لم تُثبِتُوا إلَّا ما عَلِمْتُم بعقولكم، وما لم تُثبته عقولكم نفيتموه، فبَقي كلامُ الرسولِ عديمَ الفائدة في باب أسماء الله وصفاته.

الثالث: أنْ يُبيَّن لهم أنّ العقل يَدُلُّ علىٰ ما نفيتموه نظير دَلالته علىٰ ما أثبتموه».

وقولُ شيخِ الإسلام عن المتكلِّمِين والمُبتدِعِين: «إنّ الرسول لا يُعلم صِدقُه

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص١٧٨، ١٧٩).

إلا بالطريق المُعيّنة التي سَلَكُوها» فيه تحذيرٌ من الأخذ بطُرُقِ المتكلمين والمبتدعين واستدلالاتهم العقلية في إثبات النبوة.

وقد شرحتُ -قبل قليل- بطلان وفساد طريقتهم، وذكرتُ الطُّرق الصحيحة الصريحة من الأدلة النقلية والعقلية في إثبات النبوة، ممَّا يُبيِّن لكَ فساد طريقة المتكلمين والمبتدعين في استدلالاتهم العقلية.

طريقتهم في استدلالهم علىٰ ثبوت الصانع، فقد زعموا أنّ إثبات الصانع لا يمكن إلا بمعرفة حدوث العالَم، وذلك لا يمكن إلا بمعرفة حدوث الأجسام، ومعرفة حدوث الأجسام هو بمعرفة استلزامها للحوادث، وأنَّ ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادِثٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «هذه طريقة الجهمية والمعتزلة ومَن وافقهم من الكُلَّابية وغيرهم.

كما فعلَ ذلك كثيرٌ من المنتسبين إلىٰ الأئمة الأربعة وغيرهم، وجَلَّوا القول بذلك عن الأئمة الكبار من أتباع الأربعة وسائر أئمة المسلمين.

وهؤلاء أخطؤوا من وجوه:

منها: دعواهم أنّ الربّ تعالىٰ لا يُعرف إلا بهذه الطريق.

ومنها: دعواهم أنّها أول واجب علىٰ العِباد.

ومنها: التزامهم للوازمها، كنفي الصفات والأفعال، أو رؤية الله، أو غير ذلك من اللوازم المبسوطة في غير هذا الموضع.

---

(١) شرح الأصبهانية (ص١٥٤-١٥٦).

وقد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام: أنّ الرسول ﷺ لم يَدْعُ أَحدًا بهذه الطريق، فضلًا عن أن يوجبها على كل مُكَلَّف، ولا سَلكَ هذه أَحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم.

بل لمَّا أَحْدَثها مَن أَحْدَثها من أهل الكلام تطابقت أئمة الإسلام على ذمِّ هذا الكلام، كما هو مشهور عنهم متواتِرٌ، كما هو معروف عن: مالك، وأبي حنيفة، وحَمَّاد بن زيد وحَمَّاد بن سلمة، وعبد الله بن المبارك، وأبي يوسف، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهوية، وغيرهم من أئمة الإسلام.

وجمهور الناس أنكروا عليهم إيجاب سلوك هذه الطريق، ودعواهم أنّه لا سبيل إلىٰ معرفة الله تعالىٰ إلا بها؛ لظهور فساد ذلك في شريعة الإسلام.

لكن من هؤلاء مَن سلَّم صحتها، ولكن رآها طويلةً كثيرة الشُّبهات، وأمَّا أئمة الإسلام والسُّنة فرَأَوْها طريقةً فاسدة في العقل، كما هي بدعةٌ في الشرع، وأنّها إلىٰ نفي حدوث العالَم وعدم الدلالة علىٰ إثبات الصانع، أقرب منها إلىٰ إثبات حدوث العالَم وإثبات الصانع؛ فإنّ مبناها علىٰ ترجيحِ أَحَدِ المُتماثِلَين بلا مرجِّح، وحدوث الحادث بلا سببٍ لحدوثه ولا حكمةٍ لإحداثه، وأنّ ما قامت به الصفات والأفعال فهو محدَثٌ، كائنٌ بعد أن لم يكن، وغير ذلك من لوازمها المنافية لصريح المعقول وصحيح المنقول».



قال المصنف رحمه الله:

والمقصود هنا: أنَّ من صفات الله تعالىٰ ما قد يُعلم بالعقل، كما يُعلم أنه عالِمٌ، وأنه قادر، وأنه حي، كما أرشد إلىٰ ذلك قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

وقد اتفق النُّظَّار من مثبتة الصفات علىٰ أنه يُعلم بالعقل -عند المُحقِّقِين- أنه حيٌّ عليم قدير مُرِيد، وكذلك السمع والبصر والكلام يَثْبُت بالعقل عند المحققين منهم.

بل وكذلك الحب والرضا والغضب يمكن إثباته بالعقل.

وكذلك علوه علىٰ المخلوقات ومباينته لها ممَّا يُعلم بالعقل، كما أثبتته بذلك الأئمة مثل: أحمد بن حنبل وغيره، ومثل عبد العزيز المكي وعبد الله بن سعيد بن كُلَّاب.

بل وكذلك إمكان الرؤية يَثْبُت بالعقل، لكن منهم مَن أَثْبَتها بأنَّ كلَّ موجود تصح رؤيته، ومنهم مَن أثبتها بأنَّ كل قائم بنفسه تُمْكِنُ رؤيته، وهذه الطريق أصح من تلك.

وقد يمكن إثبات الرؤية بغير هذين الطريقين، بتقسيمٍ دائرٍ بين النفي والإثبات، كما يُقال: إنَّ الرؤية لا تتوقف إلا علىٰ أمور وجودية، فإنَّ ما لا يتوقف إلا علىٰ أمور وجودية يكون الموجود الواجب القديم أحقَّ به من الممكن المحدَث. والكلام علىٰ هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع(١).



الشَّرح

عَرَفنا اللهَ بأنَّه صَمَدٌ، فالخَلقُ كلهم يقصدونه ويسألونه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

(١) التدمرية (ص١٤٩-١٥١).

ربوبية الله وخلقه وإنعامه دالٌّ علىٰ صفة الخَلق، والرزق، والإحسان، والرحمة، والعلم، والقدرة، والقوة.

ومفاضلة الله بين عباده في الرزق دالٌّ علىٰ صفاته من الحكمة والرحمة.

عَرَفنا الله بالعقل؛ أنّ الله هو المَلِكُ، فكلُّ شيءٍ مربوب له، وله مُلكُ السماوات والأرض وما فيهن، والخلق كله تحت تدبيره وأَمْرِه.

عَرَفنا من صفات الله أنّه وَلِيُّ الذين آمنوا، يهديهم ويرزقهم ويحفظهم وينصر مَن نصره، وليس للخَلق ناصرٌ ولا رازق ولا حافظ سواه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

والله ﷻ فَطَر خَلْقَهُ علىٰ معرفته، وآلائه ونعمه ومخلوقاته دالَّةٌ علىٰ صفاته من الإحسان والخلق والرحمة وغيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإحسان إلىٰ المخلوقات، وأنواع الرزق والهدىٰ والمسرات، هو دليلٌ علىٰ رحمة الخالق سبحانه.

والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق، تارةً يدلّهم بالآيات المخلوقة علىٰ وجود الخالق، ويثبت عِلْمَهُ وقدرته ومشيئته، وتارةً يدلّهم بالنِّعم والآلاء علىٰ وجودِ بِرِّه وإحسانه المستلزم رحمته».

عَرَفنا ربنا بإحاطته بخلقه، وأنه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، قيل لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

(١) شرح الأصبهانية (ص٣٧، ٣٨).

كيف يحاسب الله تعالىٰ الخَلق في ساعة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في ساعة واحدة[(١)].

والاستدلال علىٰ صفات الله بخلقه وأَمْره منهجٌ نبوي، يأخذ العلماء به في إثبات صفات الكمال لله ﷻ، ففي الصحيحين من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يغار، ومن أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أَجْلِ ذلك بَعَث الرسل مُبشِّرين ومُنذِرين».

وقد أخبرنا الله ﷻ عن رحمته التي من أَجْلِها يغفر ذنوب التائبين من عباده، فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «نثبت لله تعالىٰ الرحمةَ حقيقةً، كما أثبتها لنفسه منزَّهَةً مبرَّأَةً عن خواصِّ صفات المخلوقين، كما نقوله في سائر صفاته، من إرادته وسَمْعِهِ وبَصَرِه وعِلمه وحياته، وسائر صفات كماله».

وصفات المحبة والرضا، والبغض والغضب لله ﷻ بما يليق بعظمته دلّ عليها نصوصُ الوحي من القرآن والسُّنة، وهي صفاتٌ معلومٌ ثبوتُها من جهة ما شَرَع اللهُ وأَمرَ ونَهَىٰ؛ فإنّه سبحانه يرضىٰ الإسلام ويكره الكفر، ويأمر بالمعروف وينهي عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٦).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٧٠).

فاللهُ ﷻ أَمَر ونَهَىٰ، وصفات الله من المحبة والرضا والغيرة والبغض والغضب هي التي من أَجْلِها أَمرَ ونَهَىٰ[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)] : «لا رَيْبَ أنّ الغيرة تستلزم المنع والزَّجْرَ مما يغار منه، وكذلك الغضب والبغض ونحو ذلك من الصفات، كما أنّ الحب والرضا يتضمن اقتضاء المحبوب المرضي وطلبه والأمر به».

عَرَفنا أنّ الله في العلو؛ لأنّ ضده السّفل وهو صفةُ نقصٍ، يُنزَّه اللهُ عنه.

وفي فِطَرِ الناس علمٌ ضروري بالتوجه إلىٰ العلو في دعاء الله وسؤاله، وبهذا حاجّ أبو جعفر الهمذاني أبا المعالي الجويني حيث قال له: أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ما قال عارِفٌ قط: يا الله، إلا ووجدَ في قلبه ضرورةً بالتوجه إلىٰ العلو، لا يلتفت يُمنةً ولا يُسرة.

وقيل لعبد الله بن المبارك: بِمَ نَعْرِف ربنا؟ قال: بأنه مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خلقه.

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)] : «لو أن هؤلاء رجعوا إلىٰ فِطَرِهم وما رُكبت عليه خِلْقَتُهم من معرفة الخالق، لعَلِمُوا أنّ الله هو العلي، وهو الأعلىٰ، وأنّ الأيدي تُرفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عَرَبها وعَجَمها يقولون: إنّ الله في السماء، ما تُركت علىٰ فِطَرِها».

(١) بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٤٢٢).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٤١٤).

(٣) مختلف الحديث، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٤٨٩).

عَرفَ الخَلق أنّ الله سيحاسبهم علىٰ ما عملوا في الدنيا، من حكمة الله التي تَأْبَىٰ أنْ يخلقَ الخَلق عبثًا، ومن ذلك عرفوا أنهم مُلَاقوا ربهم، وأنهم إليه راجعون، ليجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ وزيادة، فيُنعِم عليهم بلقائه ورؤيته وتحيته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

ومقصودُ شيخ الإسلام بهذه الجملة من العقيدة: بيانُ أنَّ ما أنكرته الجهمية من صفات الله ﷻ دلَّ عليه القرآن والسُّنة والإجماع والفطرة والعقل.

أنكر الجهمية والمعتزلة صفات الله كلها، فجعلوا الحيَّ القيوم عدمًا، فما أعظمَ ضلالَ هؤلاء الزائغين!

وبذلك يتبيّن للمُنصِف أنَّ أهل السُّنة والجماعة أعلم بصحيح المنقول وصريح المعقول من أئمة الضلال من المتكلمين والمبتدعين.



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود هنا: أنَّ من الطُّرق التي يسلكها الأئمة ومَن اتبعهم من نُظَّار السُّنة في هذا الباب، أنه لو لم يكن موصوفًا بإحدىٰ الصفتين المتقابلتين للزم اتصافه بالأخرىٰ، فلو لمْ يُوصَف بالحياة لَوُصِفَ بالموت، ولو لمْ يُوصف بالقدرة لوُصف بالعجز، ولو لمْ يُوصف بالسمع والبصر والكلام لوُصف بالصَّمم والخَرس والبَكَم.

وطرد ذلك أنه لو لمْ يُوصف بأنه مبايِنٌ للعالَم لكان داخلًا فيه، فسلبُ إحدىٰ الصفتين المتقابلتين عنه يستلزم ثبوت الأخرىٰ، وتلك صفةُ نقصٍ يُنزَّه عنها الكامل من المخلوقات، فتنزيه الخالق عنها أَوْلَىٰ(١).

الشَّرح

اللهُ ﷻ موصوف بصفات الكمال، ممتنع عليه النقص، والتفرُّد بالكمال هو الذي أَوْجَبَ التألُّه له وحده لا شريك له.

والإخبار عن الله ﷻ بما له من الصفات وتنزيهه عن صفات النقص، هذا من توحيد الله بمعرفته بأسمائه وصفاته المستلزم للتألُّه له وحده لا شريك له.

ونفيُ مماثلة الله لخلقه بتنزيهه عن النقائص، وإثبات صفات الكمال له ﷻ هذا مما دلَّ عليه الوحي من القرآن والسُّنة.

وقد جاء الوحي بالإخبار بأنّ كلَّ كمالٍ في المخلوق فالله أكمل في ذلك الوصف، وكلَّ نقصٍ في المخلوق فالله مُنزَّهٌ عنه.

(١) التدمرية (ص١٥١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «إنّ الله لا يساوي في شيء من صفاته وأسمائه، بل ما كان من صفات الكمال فهو أكمل فيه، وما كان من سلبِ النقائص فهو أنزهُ منه؛ إذ له المَثَل الأعلىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فوصفُه بأنه أغير من العِباد، وأنّه لا أغير منه، كوصفه بأنّه أرحم الراحمين، وأنّه أرحم بعبده من الوالدة بولدها.

وكذلك قول النبي ﷺ لأبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «واللهِ، للهِ عليكَ أَقْدَرُ منكَ علىٰ هذا».

وكذلك العلم، كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وكذلك الكلام، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، وقول النبي ﷺ: «أصدقُ الكلامِ كلامُ الله»، ووصفُه في حديث ابن مسعود والمغيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «بأنّه لا أحد أحب إليه المدح من الله»، وكذلك قوله: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»».

والله عَزَّ وَجَلَّ لا يُقاس بخلقه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢)، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وكما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

فقياسُ التمثيل والشمول ممتنع في حق الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنّما دلَّت النصوص التي ذَكَرها شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية علىٰ صواب استعمالِ قياسِ الأَوْلَىٰ في حقه.

(١) بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٤١٠-٤١٢).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٤)، ط- دار الصميعي.

قال العَلَّامة محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «إنّه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه في الشؤون الإلهية.

وذلك مثل: قياس التمثيل الذي يُعرِّفه علماء الأصول بأنَّه إلحاقُ فرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ جامعٍ، كإلحاق النبيذ بالخمر في الحرمة لاشتراكهما في عِلَّة الحُكم وهي الإسكار.

فقياس التمثيل مبنيٌّ علىٰ وجود مماثَلَة بين الفرع والأصل، واللهُ ﷻ لا يجوز أن يُمثَّل بشيء من خلقه.

ومثل: قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنّه الاستدلال بكليٍّ علىٰ جزئيٍّ بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكُليِّ.

فهذا القياس مبنيٌّ علىٰ استواء الأفراد المنْدَرِجة تحت هذا الكُلِّي، ولذلك يُحكَم علىٰ كلٍّ منها بما حُكم به عليه. ومعلوم أنّه لا مساواة بين الله ﷻ وبين شيء من خلقه.

وإنّما يُستعمل في حقه تعالىٰ قياسُ الأَوْلىٰ، ومضمونه: أنّ كلَّ كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتَّصف به الخالق، فالخالق أَوْلىٰ به من المخلوق، وكلَّ نقصٍ تَنَزَّهَ عنه المخلوق، فالخالق أحق بالتنزُّه عنه».

والواجب علىٰ المسلم: أن لا يقول في أسماء الله وصفاته إلا بعلمٍ؛ فإنّ أسماء الله ﷻ وصفاته توقيفية، وليحذر المسلم من الأقيسة الضالَّة، وليأخذ دِينه عن سلف الأُمَّة فإنهم خير الناس وأعلمهم.



(١) شرح العقيدة الواسطية بتعليق العثيمين (ص١٠٠، ١٠١).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الطريق غير قولنا: إنَّ هذه صفات كمال يتصف بها المخلوق فالخالق أَوْلَىٰ، فإنَّ طريق إثبات صفات الكمال بأنفسها مغايِرٌ لطريق إثباتها بنفي ما يناقضها[1].

الشَّرْح

الاعتقاد الصحيح الذي دلَّ عليه القرآن والسُّنة وفَهْمُ السابقين الأَوَّلِين، هو إثباتُ ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، ونفيُ ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ، إثباتٌ من غير تمثيلٍ ولا تكييفٍ ولا تحريفٍ ولا تعطيلٍ، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وإجراء نصوص صفات الله الواردة في القرآن والسُّنة علىٰ ظاهرها، هو من وصفِ الله بما وَصَف به نفسه وبما وَصَفه به رسوله ﷺ، وهو من تصديق الوحي والإيمان به.

أمَّا المتكلمون والمبتدعون فإنّهم نفوا ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ؛ لضلالات عقولهم، ولِمَا ألقته الشياطين في نفوسهم من أوهامِ مُماثَلَةِ صفاتِ الله لخلقه، فنَفَوْهَا.

وإثبات صفات الكمال لله ﷻ وتنزيهه عن النقائص هو من ضرورة الفطرة والعقل التي حاجَّ بها سيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المشركين؛ فإنهم كانوا يعبدون أصنامًا، لا تسمع ولا تبصر ولا تنصر ولا ترزق.

(١) التدمرية (ص١٥١).

قال إبراهيم عليه السلام مخاطبًا أباه وقومه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

قال العَلَّامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رحمه الله[١]: «أي: لِمَ تعبد أصنامًا ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًّا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهانٌ جليٌّ دالٌّ على أنّ عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلًا وشرعًا.

ودلَّ بتنبيهه وإشارته، أنّ الذي يجب ويَحْسُن: عبادةُ مَن له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمةً إلا منه، ولا يدفع عنهم نِقْمَةً إلا هو، وهو الله تعالى».

فالنقصُ صفةُ المَربوب، والكمالُ صفةُ الربِّ، قال العلَّامة صالح الفوزان حفظه الله[٢]: «اللهُ تعالى عابَ على بني إسرائيل لمَّا عبدوا العِجل، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، يعني: لا يتكلم، وهذا عيبٌ في الآلهة الباطلة أنها لا تتكلم، وليس لها أوامرٌ، ولا نَواهٍ، ولا تدبير، ولا إرادة، ولا خَلْق».

دلالة النقل الصحيح والعقل الصريح على إثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه عن النقائص معلومةٌ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالكمال وصفُهُ، وصفاته غايةٌ في الحُسْن.

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «إنّ الكمال التام، لا يكون إلا لواحد».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٤).
(٢) التعليق المختصر على القصيدة النُّونية (١/ ١٦٧).
(٣) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٧٢).

وأخبرنا الله ﷻ عن تنزّهه عن صفات النقص التي للمخلوقين، فقال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

فضرورة العقل تفيد تفرّد الله بالكمال، وامتناع مماثلته لمن هو دونه، واستحالة أن يكون له مثل ونظير وكفؤ، وذلك أوجب الحق له بعبادته وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رحمه الله(١): «يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلىٰ أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمَن له المثل الأعلىٰ مثل أو نظير».

وضرورة العقل تفيد بأنّ ثبوت الكمال لا يكون إلا لواحد، وهو إلهُ الحقِّ، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «التنزيه يجمعه نوعان:

أحدهما: أنّه منزَّه عن النقائص مطلقًا، ونفس ثبوت الكمال له ينافي النقص.

الثاني: أنّه منزَّه عن أن يكون له مِثْلٌ في شيء من صفات الكمال».

ومعلومٌ بضرورة الفطرة والعقل أنّ الموصوف بصفات الكمال خيرٌ ممَّن ليس كذلك.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٦٠).

(٢) شرح الأصبهانية (ص٤٣٢، ٤٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «إنّه من المعلوم بصريح العقل أنّه مَن يخلق أكملُ ممَّن لا يخلق، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، فاستفهم سبحانه استفهامَ إنكارٍ، وهو يتضمن الإنكار علىٰ مَن سوَّىٰ بين مَن يَخْلُقُ ومَن لا يَخْلُقُ، وذلك علىٰ أنّ تفضيل مَن يَخْلُق علىٰ مَن لا يَخْلُق أمرٌ فِطْريٌّ ضروري، كتفضيل مَن يَعْلَمُ علىٰ مَن لا يَعْلَم».

وضرورة العقل تفيد بتنزيه الله عن كلِّ نقصٍ، وإثبات صفات الكمال له، وأنّه أحق بإثبات الكمال والتنزيه عن النقائص، فالكمال له من كل وجهٍ من لوازم ذاته التي كان بها إله العالمين. واللهُ ﷻ هو مبدع الكمال في مخلوقاته، فهو أحق بالكمال من غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] : «إنّ ما ثبتَ لغيره من كمالٍ مطلقٍ لا نَقْصَ فيه، فهو أحقُّ بأنْ يَثْبُتَ له من ذلك الكمال ما هو أحقُّ به ممَّا سواه، فإذا كان الحياة والعلم والقدرة كمالًا لا نَقْصَ فيه، وقد اتصف به المخلوق، فالخالق تعالىٰ أحقُّ أنْ يتَّصفَ بالحياة والعلم والقدرة، وما يُنَزَّه عنه غيره من العيوب فهو سبحانه أحق بتنزيهه عنه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٥٨-٦٠] ».

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٤١٣).

(٢) شرح الأصبهانية (ص٣٩٥).

الفلاسفة والجهمية والمعتزلة نفوا صفات الله كلها، فقالوا بالمُحالِ، فيمتنع وجودُ ذاتٍ بلا صفات، فهؤلاء أضلُّ الخَلق في مخالفة صحيح المنقول وصريح المعقول.

فالمعطلة من أضلِّ خَلْقِ الله عن موافقة المعقول الصريح، وإنّما أوقعهم في تكذيبِ وتحريفِ نصوصِ الوحي ضلالُ عقولهم.

وقد بَلَغ بنقص عقول مَن يُشار إليه منهم الجهل بأوجب ما تقتضيه العقول من تنزيه الله عن النقائص.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «يُقال لهؤلاء المعارضين للوحي بعقولهم: إنّ من أئمتكم مَن يقول: إنّه ليس في العقل ما يوجب تنزيه الرب سبحانه عن النقائص، ولمْ يَقُمْ علىٰ ذلك دليلٌ عقلي أصلًا، صرّح به الرازي، وتَلَقَّاه عن الجويني وأمثاله، قالوا: وإنّما نفينا عنه النقائص بالإجماع، وقد قَدَح الرازي وغيره من النفاة في دلالة الإجماع، وبيّنوا أنها ظنية لا قطعية، فالقوم ليسوا قاطعين بتنزيه الله عن النقائص، بل غاية ما عندهم في ذلك الظن».

وعقول المتكلمين والمبتدعين ضالَّةٌ، ينفون كمال صفات الله ﷻ لتوهُّمِهم أنها تماثِلُ صفات المخلوقين، وينفون صفات الله لتوهُّمِهم أنّها تستلزم معاني باطلة، وهذا جهلٌ منهم بالله، فالله ﷻ لا يصف نفسه بما فيه محذور، بل يصف نفسه بالحق والصدق والمعاني الحميدة.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٩٤)، ط- دار الحديث- القاهرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «أمَّا مَن عَدلَ عن طريقة الكتاب والسُّنة من أهل الكلام المحدَث؛ فإنّهم لا يَذْكُرون في تنزيهه عن النقائص قولًا مطردًا مستقيمًا، بل أقوالهم متناقضة؛ فإنّهم يَذْكُرون في النفي أنه ليس بجوهر، ولا جسم، ولا متحيِّز، ونحو ذلك من العبارات، ثم ما ينفونه من الصفات يقولون: «لأنّ هذا يستلزم أن يكون جوهرًا أو جسمًا أو عَرَضًا، وهذا محالٌ».

ثم هم يُثبتون من الصفات ما يلزم فيه نظير ما يلزم فيما نفوه، وإذا لزمهم فيما أثبتوه نظير ما يلزم فيما نفوه لزمهم: إما النفي المطلق وهو التعطيل المحض، وإما أن يكون ما ذكروه من الدليل علىٰ ما نفوه باطلًا».

الجهمية والمعتزلة الذين نفوا صفات الله كلها، فرارًا من التمثيل بزعمهم هم المُمَثِّلة حقًّا، حيث شَبَّهوا الله بالعدم بنفي صفاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] : «ليس كمثله -الله- شيءٌ؛ لكثرة نُعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها علىٰ وجه الكمال لا يماثله فيه شيء.

فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنّه ليس كمثله شيء، وأمَّا المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإنّ وَصْفَه بأنّه ليس كمثله شيءٌ مَجازٌ لا حقيقة له، كما يقوله في سائر أوصافه وأسمائه».



(١) شرح الأصبهانية (ص٤٣٨).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٥٩).


قال المصنف رحمه الله:

وقد اعترض طائفة من النُّفاة على هذه الطريقة باعتراضٍ مشهور لَبَّسُوا به على الناس، حتى صار كثيرٌ من أهل الإثبات يظنُّ صحته ويُضعف الإثبات به، مثل: ما فعلَ مَن فعلَ ذلك من النُّظَّار حتى الآمدي وأمثاله، مع أنه أصلُ قولِ القرامطة الباطنية وأمثالهم من الجهمية، فقالوا: «القول بأنه لو لم يكن متصفًا بهذه الصفات كالسمع والبصر والكلام، مع كونه حيًّا لكان متصفًا بما يقابلها، فالتحقيق فيه متوقِّفٌ على بيان حقيقة المتقابِلَيْن وبيان أقسامهما.

فنقول: أمَّا المتقابلان فما لا يجتمعان في شيءٍ واحد من جهةٍ واحدة، وهو إمَّا أن لا يصحَّ اجتماعهما في الصدق ولا في الكذب، أو يصحّ ذلك في أحد الطرفين.

فالأول هما المتقابلان بالسلب والإيجاب، وهو تقابُلُ التناقض، والتناقض هو اختلاف القضيتين بالسلب والإيجاب على وجهٍ لا يجتمعان في الصدق ولا في الكذب لذاتيهما، كقولنا: زيدٌ حيوان، زيدٌ ليس بحيوان.

ومن خاصة استحالة اجتماع طرفيه في الصدق والكذب: أنه لا واسطة بين الطرفين، ولا استحالة لأحد الطرفين من جهةٍ واحدة، ولا يصحُّ اجتماعهما في الصدق ولا في الكذب؛ إذ كون الموجود واجبًا بنفسه وممكنًا بنفسه لا يجتمعان ولا يرتفعان.

فإذا جعلتم هذا التقسيم -وهما النقيضان ما لا يجتمعان ولا يرتفعان- فهذان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وليس هما السلب والإيجاب، فلا يصحُّ حصرُ النقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان في السلب والإيجاب.

وحينئذٍ فقد ثبتَ وصفان: شيئان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وهو خارج عن الأقسام الأربعة.

وعلىٰ هذا فمَن جعلَ الموت معنىٰ وجوديًّا فقد يقول: إن كون الشيء لا يخلو من الحياة والموت هو من هذا الباب.

وكذلك العلم والجهل، والصمم، والبكم، ونحو ذلك(١).


الشَّرْح

اعترضَ المتكلمون علىٰ إثبات صفات الكمال لله ﷻ الثابتة بالنقل الصحيح من القرآن والسُّنة والعقل الصريح، بأنَّ الله غير قابل للاتصاف بها.

والله ﷻ موصوفٌ بصفات الكمال، والمتكلمون والمبتدعون الذين أخذوا عنهم معقولاتهم واصطلاحاتهم جادلوا بما ليس لهم به علمٌ، فدَعْوَاهُم أنَّ الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال كذبٌ وقولٌ علىٰ الله بغير علمٍ، وجدالٌ بالباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) : «إن لم يتصف بالحياة والعلم والقدرة لزم اتصافه بالموت والعجز والجهل، وهذا ممتنع بالضرورة، فنقيضُه حقٌّ».

ونفيُ صفات الكمال عن الله ﷻ بدعوىٰ أنّه غير قابل للاتصاف بها، هذا وصفٌ للمعدوم وغير الموجود، واللهُ الحيُّ القيوم قائم بنفسه موصوف بصفات الكمال.

فالأحد قائم بنفسه، فصفات الكمال قائمة به، فحينئذٍ جدالُ الضالِّين بتكذيب صفات الله ونفيها خبالٌ في المعقول وتكذيبٌ للمنقول.

(١) التدمرية (ص١٥١-١٥٥).
(٢) الصَّفدية (١/ ٩٠).

وليس للمعطلة حُجَّة بامتناع اتصاف الله بصفات الكمال، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

وعندما تبيَّن ضَلال هذه المُحاجَّة، صار في المتكلمين مَن يسكت عن وصفِ الله بالكمال وضِدِّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من هؤلاء: طائفة ثالثة تقول: نحن لا نقول: ليس بموجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، فلا ننفي النقيضين، بل نسكت عن هذا وهذا، فنمتنع عن كلٍّ من المتناقضين، لا نَحْكُم بهذا ولا بهذا، فلا نقول: ليس بموجود ولا معدوم، ولكن لا نقول: هو موجود، ولا نقول: هو معدوم.

ومن الناس مَن يحكي نحو هذا عن الحَلَّاج».

الفلاسفة والقرامطة ومَن فيه من شُعَبِهِم من الجهمية ونحوهم الذين اغترَّ بهم مَن تَوهَّمَ فيهم الحِذْق والذكاء يمتنعون أن يصفوا الله بالصفات الثبوتية أو السلبية، يقولون: لا نقول: هو حي ولا ميت، ولا عالِم ولا جاهِل، ولا سميع ولا أصمّ، ولا بصير ولا أعمىٰ، قد نادوا علىٰ أنفسهم بأنهم من أجهل الناس وأغباهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هؤلاء يقولون في أنفسهم أنهم: من أذكىٰ الناس وأفضلهم، وهم من أجهل الناس وأضلهم وأكفرهم.

فإنّه يُقال لهم: أولًا: سلبتم النقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان،

(١) الصَّفدية (١/ ٩٦، ٩٧).
(٢) الصَّفدية (١/ ٨٩).

فكما يمتنع اجتماع النقيضين يمتنع ارتفاع النقيضين، وكما يمتنع أنْ يُقال في شيء واحد: إنه موجود معدوم يمتنع أنْ يُقال: ليس بموجود ولا معدوم».

وقول شيخ الإسلام: «اعترض طائفة من النفاة»، وقوله: «يظن صحته»، وقوله: «الآمدي»، فيه بيانُ منشأ هذا الضلال، ومَن الذي أدخله على المسلمين، ومَن الذي اعتقده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1] : «النفاق ينقسم إلىٰ أكبر وأصغر، ومَن تدبَّر حال كثير من أئمة الضلال -من المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ومَن فيه شُعَبٌ من ذلك من الجهمية والرافضة ونحوهم- وجدَهم علىٰ ذاك الحال؛ فإنّهم يتناقضون، فَيُقِرُّونَ بالحق وينكرونه، ويعرفونه ثم ينكرونه، ولهذا يجمعون في كلامهم بين ما هو من قول المؤمنين، وبين ما هو من قول الكفار الجاحدين، كالذي يكون مسلمًا، ثم يتفلسف وينافق شيئًا بعد شيء، كالقرامطة الذين كان أولًا فيهم إسلامٌ؛ وإن كانوا مبتدعة من الشيعة مثلًا، ثم إنّ النفاق قَوِيَ فيهم حتىٰ جحدوا ما كانوا أَقَرّوا به أولًا، وصاروا يقولون: لا نقول: حي ولا ميت، ولا عالِم ولا جاهِل، ولا سميع ولا أصمّ، ولا بصير ولا أعمىٰ».



(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٧٤، ٧٥).


قال المصنف رحمه الله:

الوجه الثاني: أنْ يُقال: هذا التقسيم يتداخل، فإنَّ العدم والملكة يدخل في السلب والإيجاب، وغايته أنه نوعٌ منه، والمتضايفان يدخلان في المتضادين، وإنما هو نوعٌ منه.

فإنْ قال: أعني بالسلب والإيجاب: ما لا يدخل فيه العدم والملكة، وهو أنْ يُسلب عن الشيء ما ليس بقابِلٍ له، ولهذا جُعل من خواصه أنه لا استحالة لأحد طرفيه إلىٰ الآخر.

قيل له: عن هذا جوابان:

أحدهما: أن غاية هذا أن السلب ينقسم إلىٰ نوعين؛ أحدهما: سلبُ ما يمكن اتصاف الشيء به، والثاني: سلبُ ما لا يمكن اتصافه به.

ويقابل الأول إثبات ما يمكن اتصافه ولا يجب، والثاني إثبات ما يجب اتصافه به، فيكون المراد به سَلْبَ الممتنع وإثبات الواجب، كقولنا: زيدٌ حيوان، فإنَّ هذا إثبات واجب، وزيدٌ ليس بحَجَر، فإنَّ هذا سلبٌ ممتنع.

وعلىٰ هذا التقدير، فالممكنات التي تقبل الوجود والعدم، كقولنا: المثلث إما موجود وإما معدوم، يكون من قِسْم العدم والملكة، وليس كذلك، فإنَّ ذلك القِسم يخلو فيه الموصوف الواحد عن المتقابلين جميعًا، ولا يخلو شيء من الممكنات عن الوجود والعدم(١).


الشَّرْح

ما ليس بقابلٍ لأَنْ يُوصف الله به يرجع إلىٰ صحيح المنقول وصريح المعقول، فالله أعلم بما يصف به نفسه.

---

(١) التدمرية (ص١٥٥، ١٥٦).

ومعقولات المعطلة ضالَّة، فنَفَتْ ما أَثبَتَ الله لنفسه، فالمكذبون للوحي ما تُغْنِي عنهم سَفْسَطتهم بألفاظٍ حقائِقُها تكذيبٌ للقرآن، كقولهم: (السلب والإيجاب، العدم والملكة)، فما وَصَف الله به نفسه هو من الصفات الثبوتية التي نثبتها لله، وذلك دالٌّ علىٰ كمال الله، وما نفاه الله عن نفسه من الصفات تنزّه الله عنها؛ لأنّها صفاتُ نقصٍ، ونثبت لله كمالَ ضِدِّها؛ لأن الله متصف بضد ذلك من الكمال، فالسلب والإيجاب هو إثبات صفات الكمال لله ﷻ ونفيُ صفاتِ النقص عنه.

صفات الله فإثباتها دلَّ عليه صحيحُ المنقول وصريح المعقول، وليس هذا مما يمتنع ثبوته لله، ودعوىٰ أنّ الله غير قابل للاتصاف بها باطلةٌ، فليس ذلك مما لا يمكن اتصافه بها.

المعطلة يجادلون في المُحالِ، فينفون صفات الله، ولا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، فالواجب عليهم: تصحيح عباراتهم باستعمال ألفاظ الوحي؛ فإنّها عصمةٌ من الضلال، ومَن اهتدىٰ بنور الوحي عَلِمَ أنَّ ما خالفه فهو باطلٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].



قال المصنف رحمه الله:

وأيضًا فإنه على هذا التقدير، فصفات الرب كلها واجبة له، فإذا قيل: إمَّا أنْ يكون حيًّا أو عليمًا أو سميعًا أو بصيرًا أو متكلِّمًا، أو لا يكون، كان مثل قولنا: إمَّا أن يكون موجودًا وإما أن لا يكون، وهذا مُتقابِل تقابُلَ السلب والإيجاب، فيكون الآخر مثله، وبهذا يحصل المقصود.

فإنْ قيل: هذا لا يصح حتى يُعلم إمكان قبوله لهذه الصفات.

قيل له: هذا إنما اشتُرِط فيما أمكن أنْ يثبت له ويزول كالحيوان، فأمَّا الرب تعالى فإنه بتقدير ثبوتها له فهي واجبة، ضرورة أنه لا يمكن اتصافه بها وبعدمها باتفاق العقلاء، فإن ذلك يوجب أن يكون تارةً حيًّا وتارةً ميتًا، وتارةً أصمَّ وتارةً سميعًا، وهذا يوجب اتصافه بالنقائص، وذلك منتفٍ قطعًا.

بخلاف مَن نفاها، وقال: إنَّ نَفْيَها ليس بنقصٍ؛ لظنه أنه لا يَقْبَل الاتصاف بها، فإنَّ مَن قال هذا لا يمكنه أن يقول: إنه مع إمكان الاتصاف بها لا يكون نفيها نقصًا. فإنَّ فسادَ هذا معلوم بالضرورة[(١)].

الشَّرح

يُقال لمتفلسفة المُعطِّلة: من أين لكم أنَّ الله غيرُ قابِلٍ للاتصاف بصفات الكمال؟! فالله ﷻ لمْ يَرَهُ أَحدٌ في الدنيا، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟

خَلْقُ اللهِ وأَمْرُه دلَّ على بعض صفاته، وخبرُ الله ووحيُه من القرآن والسُّنة دلَّ على كثير من صفاته، وقد استأثر الله في علمِ الغيب عنده بعِلْم بعض صفاته، ولم يخبرنا بها.

(١) التدمرية (ص١٥٦).

فالواجب على المعطلة: تصحيح منطقهم ومعقولاتهم بطلب حقائق صفات الله بما أخبر الله به عن نفسه، واستعمال الألفاظ الموافقة للقرآن والسُّنة فيما يُوصف الله به ويُنزّه عنه.

القرامطة -ومَن وافقهم في قولهم- عمدتهم في نفي الصفات الثبوتية والسلبية عن الله ﷻ توهُّمُهم أنّ الإثبات تشبيهٌ بالمخلوق، والنفي تشبيهٌ له بمَن هو غير موصوف بذلك كذلك، وهذا باطلٌ؛ فإنّ صفات الله مختصة به لا تماثِلُ صفات المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «إنّ الحي القابل للسمع والبصر والكلام إمَّا أن يتصف بذلك، وإمَّا أن يتصف بضده وهو الصَّمَم والبَكَم والخَرس، ومَن قدَّر خلوَّه عنهما فهو مشابه للقرامطة الذين قالوا: لا يُوصف بأنّه حي ولا ميت، ولا عالِم ولا جاهِل، ولا قادر ولا عاجز. بل قالوا: لا يُوصف بالإيجاب ولا بالسلب، فلا يُقال: هو حي عالم، ولا يُقال: ليس بحيٍّ عالِمٍ، ولا يُقال: هو عليم قدير، ولا يُقال: ليس بقدير عليم، ولا يُقال: هو متكلِّم مُرِيد، ولا يُقال: ليس بمتكلِّم مُرِيد. قالوا: لأنّ في الإثبات تشبيهًا بما تثبت له هذه الصفات، وفي النفي تشبيه له بما ينفى عنه هذه الصفات».

ضلَّتْ عقولُ القرامطة ومَن وافقهم حيث نفوا صفات الكمال عن الله ﷻ بدعواهم أنّ الله غير قابل للاتصاف بها، وقد جمعوا في مقالتهم هذه بين تعطيل الله عن كماله، وأيضًا وَصْفه بما يمتنع عليه.

---

(١) شرح الأصبهانية (ص٥١٣، ٥١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)] : «نفيُ قبول هذه الصفات أبلغ في النقص والعجز، وأقرب إلىٰ اتِّصَاف المعدوم ممَّن يقبلها واتَّصف بأضدادها».

والذي دلَّ عليه العقل هو أنّ إله الحق إنّما استحق التألُّه له؛ لكماله الذي تفرّد به، فكمالُه من لوازم ذاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)] : «كلُّ صفةِ كمالٍ لا نَقْصَ فيه فإنّ الرب يتصف بها، واتصافه بها من لوازم ذاته، ولم يزل موصوفًا بصفات الكمال، وذاته هي المستلزمة لصفات كماله».

عمدة المعطلة في نفي صفات الله: أنّ عقولهم لا تُثبِت ذلك، وعقولُ وفِطَرُ غيرِهم الموافقة لصحيح المنقول تثبت ذلك.

فالواجب علىٰ المعطلة: تصحيح منطقهم وعقلهم بما يوافق كلام الله، فليسوا بأعلم من الله حتىٰ يردوا عليه قوله ويُكذِّبوا خبره.

ومَن كان جاهلًا بالله لا يعرفه، كيف يقصده بعبادته؟!

فالجهلة بالله لا يمكن أن تكون عقولهم معيارًا فيما يَثْبُت ويُنْفَىٰ عن الله من الصفات، فالله ﷻ أخبرنا بصفاته ورسوله ﷺ أخبرنا بذلك، آمَنَّا بالله ورسوله وكَفَرنا بتعطيل القرامطة والجهمية.



(١) شرح الأصبهانية (ص٥٣٦).
(٢) قاعدة في أنّ كل دليل عقلي يحتج به مبتدع ففيه دليل علىٰ بطلان قوله (ص٦٤).


قال المصنف رحمه الله:

وقيل له أيضًا: أنتَ في تقابُلِ السلب والإيجاب، إنِ اشترطتَ العلم بإمكان الطرفين لَمْ يصحَّ أنْ تقول: واجب الوجود إمَّا موجود وإمَّا معدوم، والممتنع الوجود إمَّا موجود وإمَّا معدوم؛ لأن أحد الطرفين هنا معلوم الوجود، والآخَر معلوم الامتناع.

وإنِ اشترطتَ العلم بإمكان أحدهما صحَّ أنْ تقول: إمَّا أن يكون حيًّا وإمَّا أن لا يكون، وإمَّا أن يكون سميعًا بصيرًا وإمَّا أن لا يكون؛ لأن النفي إن كان ممكنًا صحَّ التقسيم، وإن كان ممتنعًا كان الإثبات واجبًا، وحصل المقصود.

فإنْ قيل: هذا يفيد أنَّ هذا التأويل يقابل السلب والإيجاب ونحن نُسلِّم ذلك، كما ذُكر في الاعتراض، لكن غايته أنه إمَّا سميع وإمَّا ليس بسميع، وإمَّا بصير وإمَّا ليس ببصير، والمنازع يختار النفي.

فيُقال له: علىٰ هذا التقدير فالمُثبَت واجب، والمسلوب ممتنع، فإمَّا أن تكون هذه الصفات واجبة له، وإمَّا أن تكون ممتنعة عليه، والقول بالامتناع لا وَجْهَ له؛ إذ لا دليل عليه بوجه.

بل قد يُقال: نحن نَعْلم بالاضطرار بطلان الامتناع، فإنه لا يمكن أن يستدل علىٰ امتناع ذلك إلا بما يستدل به علىٰ إبطال أصل الصفات، وقد عُلم فساد ذلك، وحينئذٍ فيجب القول بوجوب هذه الصفات له[1].


الشَّرح

الوجود كله موجود بخلق الله، والمخلوقات تحت قَهْرِه وربوبيته وحُكْمِه الكوني القدري، ومَن يَتوهَّم امتناع اتصاف الله بصفات الكمال، يقول اللهُ لهم: ﴿مَاذَا

(١) التدمرية (ص١٥٧).

﴿خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، ويقول اللهُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

واللهُ ﷻ خلق الخَلق لحكمةٍ عظيمة وهي عبادته، فيرضىٰ لهم الإسلام دِينًا، وفي ذلك عبادته بما شَرَع، وإقامة أحكام الله في خلقه.

وخلقُ اللهِ وأَمْرُه دالَّانِ علىٰ كثيرٍ من صفاته ﷻ، فالعلم بذلك فِطريٌّ وعقليٌّ صريحٌ، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن والسُّنة.

ملاحدة القرامطة والمُعطِّلة عموا عمَّا أبدعَ الله خلقه، وعن كمالِ ما شَرَعه من أحكامه التي أوحاها إلىٰ رُسُلِه، الدالَّة علىٰ كمالِ صفاتِ مَن له الخَلق والأمر وحده، فمَن يهدي مَن أعمىٰ اللهُ بصيرته عن هُدَىٰ الله الذي يهدي به مَن يشاء؟!

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

المُعطِّلة نوعان: مُعطِّلة تعطيل كُلِّي وهم الجهمية والمعتزلة، ومعطلة تعطيل جزئي وهم الأشاعرة والماتريدية، وكلهم ألحدوا في أسماء الله وصفاته بما لم يؤمنوا به من ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «كلُّ مَن جَحَد شيئًا ممَّا وَصَف الله به نفسه أو وَصَفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر».

وضلال المعطلة جهلٌ وإلحاد، فاحذر جهلهم بمعرفة الله وتوحيده أن يضلوك، فدعوىٰ القرامطة والمعطلة أنّ الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٩، ١٧٠).

إلحادٌ وليس علمًا صحيحًا يفيد تألُّهًا لله ﷻ، فالجهلُ بالله لا يدعو إليه إلا أضلّ الخَلق ممَّن فَسدَ عقلُه وتغيَّرت فطرته، ولا يتبعه إلا مَن هو مثلهم ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

حقيقةُ قولِ القرامطة والمعطلة: إنكارُ معرفة الله ﷻ، ذلك مَبْلَغهم من العلم، جهلوا ما عرفه الخَلق جميعًا ممَّن لم تفسد فطرته، ولم يضلَّ عقلُه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «تجد جميع الأمم معرفةً بالله فطرية».

وقال شيخ الإسلام[2] : «القلب مفطور علىٰ الحنيفية التي هي الإقرار بالله وعبادته المتضمنة معرفته ومحبته».

نفيُ القرامطة والمعطلة صفات الله ﷻ بدعوىٰ أنَّ الله ﷻ غير قابل للاتصاف بها، هو من بَطرِ الحق الذي دلَّ عليه الفطرة، والعقل الصريح، والإجماع، والقرآن، والسُّنة.

عقليات القرامطة والمعطلة ليست هي المعرِّفة لصفات الله ﷻ، حتىٰ يقولوا علىٰ الله بغير علمٍ: إنَّ الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال.

بطلان عقليات القرامطة والمعطلة في غاية الظهور، فهي جهالاتٌ تُضِلُّ عن الحق وتجعل معتقدها ملحدًا في أسماء الله وصفاته، مخالفًا لصحيح المنقول وصريح المعقول، مُشَبِّهًا لله سبحانه بالمعدوم.



(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٢).
(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٢).



قال المصنف رحمه الله:

واعلم أنَّ هذا يمكن أن يُجعل طريقة مستقلة في إثبات صفات الكمال له، فإنها إمَّا واجبة له، وإمَّا ممتنعة عليه، والثاني باطلٌ فتعيَّن الأول؛ لأن كونه قابلًا لها خاليًا عنها يقتضي أن يكون ممكنًا، وذلك ممتنع في حقِّه، وهذه طريقة معروفة لمَن سلكها من النُّظَّار.

الجواب الثاني: أنْ يُقال: فعلىٰ هذا إذا قلنا: زيدٌ إمَّا عاقل وإمَّا غير عاقل، وإمَّا عالِمٌ وإمَّا ليس بعالِمٍ، وإمَّا حيٌّ وإمَّا غير حيٍّ، وإمَّا ناطِق وإمَّا غير ناطِقٍ، وأمثال ذلك ممَّا فيه سلبُ الصفة عن محلٍّ قابِلٍ لها، لم يكن هذا داخلًا في قِسْمِ تقابُلِ السلب والإيجاب.

ومعلومٌ أنَّ هذا خلافُ المعلوم بالضرورة، وخلافُ اتفاق العقلاء، وخلافُ ما ذَكَرُوه في المنطق وغيره.

ومعلومٌ أنَّ مثل هذه القضايا تتناقض بالسلب والإيجاب علىٰ وجهٍ يَلْزَم من صِدْقِ إحداهما كَذِب الأخرىٰ، فلا يجتمعان في الصدق والكذب، فهذه شروط التناقض موجودة فيها.

وغايةُ فِرَقهم أن يقولوا: إذا قلنا: هو إمَّا بصير وإمَّا ليس ببصير، كان إيجابًا وسلبًا، وإذا قلنا: إمَّا بصير وإمَّا أعمىٰ، كان ملكةً وعدمًا.

وهذا منازعة لفظية، وإلا فالمعنىٰ في الموضعين سواءٌ، فعُلم أنَّ ذلك نوعٌ من تقابُلِ السلب والإيجاب، وهذا يُبطِل قولهم في حد ذلك التقابل: إنه لا استحالة لأحد الطرفين إلىٰ الآخر، فإنَّ الاستحالة هنا ممكنة كإمكانها إذا عبر بلفظ «العمىٰ»[1].

(١) التدمرية (ص١٥٨).

الشَّرح

ليس مع القرامطة -ومَن وافقهم- دليلٌ عقلي بنفي صفات الله ﷻ، ليس معهم إلا مجرد دعواهم أنّ الله غير قابل للاتصاف بذلك، والدعاوىٰ إلا إذا لم يدلَّ عليها دليلٌ كانت باطلةً.

وطُرُق العلم بصفات الله ﷻ دلَّ عليها: القرآن، والسُّنة، والإجماع، والفطرة، والعقل.

وما دلَّ عليه صحيح المنقول وصريح المعقول معارضته بجهالات القرامطة سَفَهٌ في العقول وضلالٌ في الاستدلال.

فالمعطلة من أجهل الخَلق بالعلوم السمعية والعقلية، والمعلوم المتيقن ثبوته من خبر الله الذي وَصَف به نفسه لا يَلتفتُ عنه إلىٰ جهالات القرامطة اللفظية إلا مَن هو أسفه الخَلق عقلًا وأجهلهم معرفة بالله.

الحُجَّة في الألفاظ الإلهية فإنّها حقٌّ وصِدقٌ، خصوصًا فيما يُخبر به عن الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فالمسلم لا ينازع الكلمات الإلهية بِلَغْوٍ من قول الفلاسفة والقرامطة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فضلًا عن أن يلتفت عن الحق الإلهي إلىٰ الباطل الإلحادي.

حقيقةُ قولِ القرامطة والمعطلة إبطالُ معرفة الله، ومنعُ قَصْدِه بالعبادة والتألُّه والرجاء والرغبة والرهبة، فكيف يتألَّه الناس لمَن لا يعرفون.

حقيقة تكذيب الخبر بنعوت الله وصفاته منعُ ذِكْرِه وشُكْرِه علىٰ نعمه وآلائه.

حقيقة تكذيب الخبر بصفات الله إبطالُ دلالةِ الوحي والفطرة والعقل الصريح علىٰ ذلك بغير حُجَّةٍ ولا دليل.

ألقىٰ الشيطان في نفوس القرامطة والمعطلة قولهم: «الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال»، واغترَّ أولياء الشيطان بوسوسته فزخرفوه في مخاطبة الناس ليكذبوا بكلمات الله، وليدعوا إلىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فأَقْبِل -أيُّها المسلم- علىٰ كلمات الله، وأَعْرِض عن لَغْوِ القرامطة والمعطلة المبتدعين، ولا تشاركهم في لَغْوِهِم وباطلهم وصَدِّهم عن الله، وتألَّهْ لله ﷻ بحقائق ما أخبر به عن نفسه؛ فإنّ كل ما وَصَف الله به نفسه غاية في الحسن والكمال.

مَن أنكر ما وَصَف الله به نفسه، وقال: إنّ الله غير موصوف بصفاته؛ لأنّه غير قابل للاتصاف بذلك، فقد كفر؛ لأنّه مُكذِّب للقرآن.

قال نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن أنكر ما وَصَف الله به نفسه فقد كفر، ومَن شبّه الله بخلقه فقد كفر».

فالمتبعون للقرامطة والمعطلة أُبسلوا بألفاظهم: «الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال»، فكَفَرُوا بالله بتصديقهم بألفاظ الجهلة الكاذبين وتكذيبهم بكلام رب العالمين.

الذين صَدَّقوا بكلمات الله ﷻ ورُسُلِه صلىٰ الله عليهم وسلم أولئك هم المهتدون، وذلك منهجٌ لا يستبدله مخلوق إلىٰ كلمات القرامطة إلا الملحدون.

وبمدارسة ضلالات الكافرين والملحدين المبتدعين نعرف من صفات الله ﷻ الحِلم، ففي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر علىٰ أذًىٰ سَمِعَهُ من الله؛ إنّه يُشْرَكُ به، ويُجعل له ولدًا، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم»، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].



قال المصنف رحمه الله:

الوجه الثالث: أنْ يُقال: التقسيم الحاصر أنْ يُقال: المتقابلان إمَّا أن يختلفا بالسلب والإيجاب، وإمَّا أن لا يختلفا بذلك، بل يكونان إيجابين أو سلبين، فالأول هو النقيضان، والثاني: إمَّا أنْ يمكن خلو المحل عنهما، وإمَّا أن لا يمكن، والأول هما الضدان كالسَّوَاد والبياض، والثاني هما في معنىٰ النقيضين وإنْ كانا ثبوتَين كالوجوب والإمكان، والحدوث والقدم، والقيام بالنفس والقيام بالغير، والمباينة والمجانبة، ونحو ذلك.

ومعلومٌ أنَّ الحياة والموت، والصَّمَم والبَكَم والسمع، ليس ممَّا إذا خلا الموصوف عنهما وُصِفَ بوصفٍ ثالثٍ بينهما كالحمرة بين السواد والبياض، فعُلم أن الموصوف لا يخلو عن أحدهما فإذا انتفىٰ تَعيَّن الآخَرُ[1].

الشَّرْح

لو كانت ذاتُ اللهِ ﷻ غير موصوفة بصفات الكمال لأنّها غير قابلة للاتصاف بذلك -كما زَعَم القرامطة ومَن وافقهم من المعطلة- لكانت معدومةً، وهذا ممتنع علىٰ مَن له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

فالممتنع هو وجودُ ذاتٍ بلا صفات، كيف وربنا ليس له سَمِيٌّ في كمال صفاته، فهو أحدٌ لتفرده بكمال صفاته.

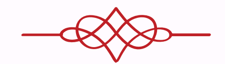
والمعلوم المتيقن بدلالة النقل والعقل ثبوتُ صفات الكمال لله وانتفاءُ النقص عنه، والممتنع نفيُ صفاته، فصفات الله قائمة به، لا يمكن خلوه من صفاته

(١) التدمرية (ص١٥٩).

الذاتية، ولا يصحُّ نفيُ أفعاله الاختيارية المتعلقة بمشيئته، فنفي صفات الله الثبوتية هو السلبُ لكماله الذي لا يصحُّ ويمتنع غاية الامتناع.

الثبوت الواجب لله صفات الكمال، والسلب المنفي عنه هو صفات النقص، قال تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن النقص منتفٍ عن الله عَزَّ وَجَلَّ عقلًا، كما هو منتفٍ عنه سمعًا، والعقل يوجب اتصافه بصفات الكمال، والنقص هو ما يضاد صفات الكمال، فالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة صفاتُ كمالٍ وأضدادها نقصٌ، فوجب تنزيهُه عنها؛ لمنافاتها لكماله».



(١) شفاء العليل (٢/ ١٦٦، ١٦٧).


قال المصنف رحمه الله:

الوجه الرابع: المحل الذي لا يقبل الاتصاف بالحياة والعلم والقدرة والكلام ونحوها، أنقص من المحل الذي يقبل ذلك ويخلو عنها، ولهذا كان الحجر ونحوه أنقص من الحي الأعمى.

وحينئذٍ فإذا كان البارئ مُنزَّهًا عن نفي هذه الصفات -مع قبوله لها- فتنزيهه عن امتناع قبوله لها أَوْلَىٰ وأحرىٰ؛ إذ بتقدير قبوله لها يمتنع مَنْع المتقابلين، واتصافه بالنقائص ممتنع، فيجب اتصافه بصفات الكمال، وبتقدير عدمِ قبوله لا يمكن اتصافه لا بصفات الكمال ولا بصفات النقص، وهذا أشد امتناعًا، فثبتَ أنَّ اتصافه بذلك ممكن، وأنه واجب له، وهو المطلوب، وهذا في غاية الحسن[1].

الشَّرْح

ما يُقبل ويجب اتصافُ الربِّ به هو ما يليق بكمال الله ﷻ، وهو ما أخبر الله به عن نفسه، وما أخبر عنه رسوله ﷺ، لا ما جَهِله ونَفاه القرامطة والمعطلة.

وذاتٌ موصوفة بصفات الكمال أكملُ من ذاتٍ بلا صفات، وذاتٌ بلا صفاتٍ لا وجودَ لها في الحقيقة، بل هذا ممتنعٌ غاية الامتناع.

فالتنزيه لله ﷻ لا يكون بوصفه بالعدم، بل التنزيه -حقًّا- إثباتُ صفاتِ الكمال لله بما يختص به، بما لا يماثله فيه غيره، وبنفي صفات النقص عنه.

المسلمون عرفوا الله بصفات كماله، لذلك تألَّهوا له وحده، وعرفوا أنّ صفاته غاية في الحسن والكمال، لا نحصي ثناءً عليه، نِعَمه التي هي من خَلْقِه وأَمْرِه

(١) التدمرية (ص١٥٩).

لا نستطيع إحصاءها، فمَن جَهِلَ أنّ الله موصوف بصفات الكمال، فقد عَمِيَ عن أوضح الأمور التي عرفها مَن هدىٰ الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «الربّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَدُّه، ولا إله غيره، هو المُنعِم -علىٰ الحقيقة- بصُنُوف النِّعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادُهم نعمةٌ منه، وجعلُهم أحياءً ناطقين نعمةٌ منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة، وإِدْرَار الأرزاق عليهم -علىٰ اختلاف أنواعها وأصنافها- نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذِكره علىٰ ألسنتهم ومحبته ومعرفته علىٰ قلوبهم نعمة منه، وحِفْظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامهم بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلىٰ أسباب مصالحهم ومعاشهم نعمة منه».



(١) شفاء العليل (١/ ٣٧١).

قال المصنف رحمه الله:

الوجه الخامس: أنْ يُقال: أنتم جعلتم تقابُلَ العدم والملكة فيما يمكن اتصافه بثبوتٍ، فإنْ عَنَيْتُم بالإمكان الإمكان الخارجي، وهو أن يُعلم ثبوت ذلك في الخارج، كان هذا باطلًا[1].

الشَّرح

ما ادَّعاه المعطلة يمتنع وجوده في الخارج، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، ومَن جعل ذلك غايته في التنزيه، فقد ضلَّ عن حقيقة التنزيه ومعناه.

المنكرون لصفات الله النافون لها جاحدون لإلهيته وعظمته، هؤلاء أجهلُ الخَلق وشرُّهم.

القرمطي والمعطل جهلَ مرتبته من العلم بالنسبة إلىٰ علمِ الله واغترَّ بنقصه، وازداد غرورًا بنفي صفات الكمال عن الله.

القرامطة والمعطلة ظلموا أنفسهم بتعالُمِهم علىٰ الله، ونفيهم ما أثبته الله لنفسه.

لا ينفي عن الله ما أثبته لنفسه إلا مخبولٌ في عقلِهِ، ضالٌّ في منطقه، مُصَمِّم علىٰ جهله، كافر بالله، غير مؤمن به، مُكذِّب بخبره.

المسلمون آمنوا بخبر الله، وعلموا أنّ الأخذ بمنطق القرامطة والمعطلة وجهالاتهم كفرٌ، وإلحاد، وزَيْغ، وضلال، ومُمتنع، ومُحال.

---

(١) التدمرية (ص١٦٠).

استبداد القرمطي والمعطل بهذيان ألفاظه الباطلة في مُعارَضَة كلام الله ﷻ هو من أغلظ كُفْرِه، ولا يتبعه في ذلك إلا زنديقٌ، يُريد أن يجعل كلام الجهلة مُهَيْمِنًا علىٰ كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هذيانُ القرامطة والمعطلة بدعواهم أنّ الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال، نسيجٌ من وساوس الشياطين وغرورهم بجهلهم، وهو من رَنَّة الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].





كان هذا باطلًا من وجهين:

أحدهما: أنه يلزمكم أن تكون الجامدات لا تُوصف بأنها لا حيّة ولا ميتة، ولا ناطقة ولا صامتة، وهو قولكم، لكن هذا اصطلاحٌ محض، وإلا يصفون هذه الجمادات بالموت والصمت.

وقد جاء القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، فهذا في الأصنام وهي من الجمادات، وقد وُصفت بالموت.

والعرب تُقسِّم الأرض إلىٰ الحيوان والمَوَتان، قال أهل اللغة: المَوَتان، بالتحريك: خلاف الحيوان، يُقال: اشْتَرِ المَوَتان ولا تَشْتَرِ الحيوان، أي: اشترِ الأرضين والدّور، ولا تشترِ الرقيق والدّواب. وقالوا أيضًا: المَوَات: ما لا روح فيه.

فإنْ قيل: فهذا إنما سُمِّي مَواتًا باعتبار قبوله للحياة التي هي إحياء الأرض.

قيل: وهذا يقتضي أن الحياة أعمُّ من حياة الحيوان، وأن الجماد يُوصف بالحياة إذا كان قابلًا للزرع والعمارة[1].



منطقُ القَرْمَطِيِّ والمُعطِّل مخالِفٌ لدلالة ألفاظ القرآن والسُّنة ولغة العرب، والإجماع، والفطرة، والعقل الصريح، والحِسّ.

السلب والإيجاب، والعدم والملكة نفيُها عن الذات الواحدة باطِلٌ وممتنع، فصفات الذات تُخبر عن وجودها وتنفي عدمها، وحقيقة الذات تُبيّن عدمها أو ملكتها.

---

(١) التدمرية (ص١٦٠، ١٦١).

فالله ﷻ أحد، وحياته تنفي موته وعدمه، وتدل علىٰ إلهيته وعظمته وكماله، وتدل علىٰ صفاته المتصف بها.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)] : «إنّه سبحانه حيٌّ حقيقةً، وحياته أكمل الحياة وأتمها، وهي حياة تستلزم جميع صفات الكمال، ونفي أضدادها من جميع الوجوه.

ومن لوازم الحياة: الفعل الاختياري؛ فإنّ كلَّ حيٍّ فَعَّال، وصدور الفعل عن الحيّ بحسب كمال حياته ونقصها، فكلُّ مَن كانت حياته أكمل من غيره كان فِعْلُه أقوىٰ وأكمل، وكذلك قدرته، ولهذا كان الربُّ تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، وهو فعَّال لما يريد».

وبدلالة الحس، ومشاهدة الخَلق، ترىٰ الأرض ميتةً إذا وُجدت فيها صفات الموات، وترىٰ الأرض حيةً بوجود صفات الحياة فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾ [يس: ٣٣].

فالسير وراء ألفاظ القرامطة والمعطلة يقطع عن الاعتقاد الصحيح، ويُوقِع في هلكة الكفر والإلحاد والتعطيل. فاحذر -أيُّها المسلم- أسباب الهلاك، والزم ألفاظ القرآن فإنّه يهدي للتي هي أقوم.

ألفاظ القرامطة والمعطلة تقطع عن معرفة الله وتوحيده بقصده وعبادته، وتُوقِع في الكفر بالله وتكذيب كلماته.

(١) شفاء العليل (٢/ ١٠٧).

أَخْذُ المسلم بألفاظ القرآن والسُّنة هو من إيمانه وتصديقه بالله ﷻ ورسوله ﷺ، وهو من فرحه بأصدق الحديث، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

تَحقُّق المسلمون بمعرفة صفات الله بوجود آثارها، وفي كل شيء آية تدلُّ علىٰ أحدية الله وكماله فيما خلق وشرع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «إنّ الربّ سبحانه كامل في أوصافه وأسمائه وأفعاله، فلابدّ من ظهور آثارها في العالَم؛ فإنّه مُحسِن ويستحيل وجود الإحسان بدون مَن يُحْسِن إليه، ورازق فلابدّ من وجود مَن يرزقه، وغفّار وحليم، وجَوَاد وبَرّ، ولطيف بعباده، ومَنّان ووهّاب، وقابِض وباسِط، وخافِض ورافِع، ومُعِزّ ومُذِلّ، وهذه الأسماء والصفات تقتضي مُتعلَّقاتٍ تتعلق بها، وآثارًا تتحقق بها».



(١) شفاء العليل (٢/ ١٨٦).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والخَرَسُ ضدُّ النُّطقِ، والعرب تقول: لبن أخرس، أي: خاثِر لا صوت له في الإناء، وسحابة خرساء، ليس فيها رعدٌ ولا برقٌ، وعَلَم أخرس، إذا لم يُسمع له في الجبل صوت صَدًى، ويُقال: كتيبة خرساء، قال أبو عبيد: هي التي صمتت من كثرة الدروع ليس لها قعاقع.

وأَبْلَغُ من ذلك الصمت والسكوت، فإنه يُوصف به القادر على النطق إذا تركه، بخلاف الخرس، فإنه عجزٌ عن النطق، ومع هذا فالعرب تقول: ما له صامِتٌ ولا ناطِق، فالصامِتُ: الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم، والصامت من اللبن: الخاثر، والصَّمُوت: الدّرع التي إذا صُبَّت لم يُسمع لها صوتٌ.

ويقولون: دابَّة عَجْماء وخرساء، لِمَا لا ينطق ولا يمكن منه النطق في العادة، ومنه قول النبي ﷺ: «العَجْمَاءُ جُبَارٌ».

وكذلك في العمى، تقول العرب: عَمَى الموجُ يَعْمِي عَمْيًا إذا رمى القذى والزَّبَدَ، والأعميان: السَّيل والجَمل الهائج، وعَمِيَ عليه الأمر إذا التبسَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾.

وهذه الأمثلة قد يُقال في بعضها: إنه عدم ما يقبل المحل الاتصاف به كالصوت، ولكن فيها ما لا يقبل كموت الأصنام[(١)].



الشَّرح

هذه أمثلة لبعض المخلوقات تُنعت بصفاتها، فصفاتها تُخبِر عن اختصاصها بالعدم أو الملكة والسلب والإيجاب.

---

(١) التدمرية (ص١٦١، ١٦٢).

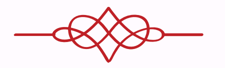
ولله المثل الأعلىٰ فإنّه موصوف بصفاته التي اختص بها، وهي صفاتٌ ثبوتية في غاية الكمال، متنزِّه عن أضدادها من صفات النقص.

الملاحدة من القرامطة والمعطلة ينفون صفات الله بقولهم علىٰ الله بغير علمٍ: إنّه غير قابل للاتصاف بها، فقولهم هو الباطل، واللهُ أعلمُ بما يصف به نفسه، وليس فيما وَصَف الله به نفسه محذور.

ونفيُ صفات الله ﷻ تشبيهٌ له بالعدم، والعدم المحض لا كمال فيه.

حقيقة قول القرامطة والمعطلة هو الكفر، ومضمونه الإعراض عن معرفة الله وعبوديته والتألُّه له(١).

الاعتقاد الصحيح في معرفة الله ﷻ هو إثبات الكمال لله الذي أخبرنا عنه، وذلك ينفي التمثيل عنه؛ لأن صفاته مختصة به، فاللهُ منزَّه أن يُوصف بشيء من خصائص المخلوق، أو أن يكون له مماثلٌ في شيء من صفات كماله(٢)، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].



(١) الصَّفدية (١/ ٩٧).
(٢) الصَّفدية (١/ ١٠٠).

قال المصنف رحمه الله:

الثاني: أن الجامدات يمكن اتصافها بذلك، فإنَّ الله سبحانه قادر أن يخلق في الجمادات حياة، كما جعل عصى موسىٰ حيّة تبلع الحِبالَ والعِصِيَّ.

وإذا كان في إمكان العادات كان ذلك مما قد عُلم بالتواتر، وأنتم أيضًا قائلون به في مواضع كثيرة.

وإذا كان الجمادات يمكن اتصافها بالحياة وتوابع الحياة، ثبتَ أنَّ جميع الموجودات يمكن اتصافها بذلك، فيكون الخالق أَوْلَىٰ بهذا الإمكان.

وإنْ عَنَيْتُم الإمكان الذهني، وهو عدم العلم بالامتناع، فهذا حاصِلٌ في حقِّ الله، فإنه لا يُعلم امتناع اتصافه بالسمع والبصر والكلام[١].

الشَّرح

الله ﷻ خالِقُ كلِّ مخلوق، وهو سبحانه أعلم بهيأته وطبيعته وصفاته، ونحن نَصِفُ الجَماد بما نَعْلَمه من أوصافه.

والجمادُ وَصَفه اللهُ ﷻ ببعض صفات الحي، فقال العليم الخبير: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وهذا يدلّك أنّ وَصْفَ الذَّوات بالسلب والإيجاب والعدم والملكة لا يكون إلا عن علمٍ بها، ولا يُنبئكَ بصفات الله سبحانه مثله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) التدمرية (ص١٦٢، ١٦٣).

جحدُ القرامطة والمعطلة لصفات الله ﷻ مُكابَرَة، والمسلمون يرون في كل شيء آية تدلُّ علىٰ أنه أَحدٌ صَمدٌ، فيرون خلقه وأَمْرَه ومشيئته وقَدَرَهُ وربوبيته لكل شيء تدلُّ علىٰ كمال صفاته، فلا يجحد صفات الله إلا مكابِرٌ مُبطِلٌ.

فالله ﷻ عَرَفه المسلمون بكماله الذي ليس له فيه نظير ولا كفؤ ولا مثيل، فما وَصَف الله به نفسه فهو غاية في الكمال، مختصٌّ بعظمة الأحد الصمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «الصفات نوعان: أحدهما: صفاتُ نقصٍ، فهذه يجب تنزيهه عنها مطلقًا، كالموت والعجز والجهل.

والثاني: صفاتُ كمالٍ، فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء. وكذلك ما كان مختصًّا بالمخلوق فإنّه يمتنع اتصاف الرب به، فلا يُوصف الرب بشيء من النقائص، ولا بشيء من خصائص المخلوق.

وكلُّ ما كان من خصائص المخلوق فلابُدَّ فيه من نقصٍ. وأمَّا صفات الكمال الثابتة له فيمتنع أن يماثله فيها شيء من الأشياء. وبهذا جاءت الكتب الإلهية؛ فإنّ الله تعالىٰ وَصَف نفسه فيها بصفات الكمال علىٰ وجه التفصيل، فأخبر أنّه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنّه عزيزٌ حكيم، غفورٌ ودود، سميعٌ بصير، إلىٰ غير ذلك من أسمائه وصفاته.

وأخبر أنّه ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوًا أحد. وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، فأثبت لنفسه ما يستحقه من الكمال بإثبات الأسماء والصفات، ونفىٰ عنه مماثلته للمخلوقات».

---

(١) الصَّفدية (١/ ١٠٢، ١٠٣).

جهلُ القرمطي والمعطل جعله ينكر صفات الكمال لله ﷻ ويجحد كمال ربوبيته، وذلك بسبب ضلال إدراكه، وعمىٰ بصيرته، وفساد منطقه.

أمَّا المسلمون فقد عرفوا من أنفسهم بعض صفات ربهم، ولو تأمَّلَ المسلم إلىٰ هداية الله له فقط في علمه، لتحقَّق بكمال ربوبية الله وصفاته ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّه سبحانه هدىٰ الناس هدايةً عامَّةً بما أَوْدَعه فيهم من المعرفة، ومكَّنهم من أسبابها، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمونه، ففي كل نفس ما يقتضي معرفتها بالحق ومحبتها له.

قد هدىٰ اللهُ كلَّ عبدٍ إلىٰ أنواع من العلم يمكنه التوصّل بها إلىٰ سعادة الآخرة، وجعل في فطرته محبة لذلك».



(١) شفاء العليل (٢/ ٦٥).

قال المصنف رحمه الله:

الوجه السادس: أنْ يُقال: هَبْ أنه لا بُدَّ من العلم بالإمكان الخارجي، فإمكان الوصف للشيء يُعلم تارةً بوجوده له، أو بوجوده لنظيره، أو بوجوده لِمَا هو الشيء أَوْلَىٰ بذلك منه.

ومعلومٌ أنَّ الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ثابتة للموجودات المخلوقة، وممكنة لها، فإمكانها للخالق تعالىٰ أَوْلَىٰ وأَحْرَىٰ، فإنها صفاتُ كمالٍ، وهو قابل للاتصاف بالصفات، وإذا كانت ممكنةً في حقِّه فلو لَمْ يتَّصف بها لاتَّصفَ بأضدادها[1].


الشَّرح

الرّب سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، منزَّه عن النقص والمثال.

المسلمون يصفون الله بما قام به، وهذه هي صفات الله الثبوتية، وينفون عنه صفات النقص التي تنزّه عنها، فالشرّ والنقص ليس إليه، والكمال وصفُه.

فتنزيه الله عز وجل عن ضَلَال القرمطي والمُعطِّل توحيدٌ، فنَصِفُ اللهَ بما وَصَف به نفسه وبما وَصَفه به رسوله ﷺ، فصفات الله قائمة به، لا يمتنع عليه الكمال الذي نفاه القرمطىٰ والمعطل بزعمه أنّ الله غير قابل للاتصاف بصفات الكمال.

إذا فسدَ الذهنُ وَضَلَّ تَوهَّم الممتنعَ والمُحال، فالقرمطي والمعطل يجادل بما لا يصح في الإمكان الخارجي، فلا تُوجد ذاتٌ بلا صفات، ولو تأمَّل القرمطي والمعطل حقيقة قوله لكفىٰ المسلمين شرَّه.

(١) التدمرية (ص١٦٣).

فالقرمطي والمعطل نفىٰ صفات الله كلها متوهِّمًا أنّ الله غير قابل للاتصاف بها، فمَن أَوْجَدَ القرمطيَّ والمعطل؟! ومَن خَلَقهم؟!

مَن نفىٰ خَلْقَ اللهِ وأَمْرَهُ، فقد وَصَف الله بالعدم، ونفىٰ وجود المخلوقات كلها! ونفىٰ وجودَ شَرْعِ الله وأَمْرَهُ ونَهْيَهُ!

إنّ الله ﷻ موصوف بصفات الكمال، وثبوتُ ذلك دلَّ عليه: القرآن، والسُّنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحِسّ، لا نُبْطِلُ كمالَ اللهِ لجهل وتعالُمِ قرمطي ومعطل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «إثبات خَلْقِه وأَمْرِه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وكونه ربّ العالمين، وأنّ كماله المُقدَّس من لوازم ذاته، فإنّا به قائلون، وله ملتزمون.

كما أنّا ملتزمون لكل ما لزم من كونه: حيًّا، عليمًا، قديرًا، سميعًا، بصيرًا، متكلّمًا، آمرًا ناهيًا، فوق عرشه، بائن من خلقه، يراه المؤمنون بأبصارهم عيانًا في الجنة، وفي عَرَصات القيامة، ويُكلِّمهم ويُكلِّمونه؛ فإنّ هذا حقٌّ، ولازِمُ الحق مثله، وما لم يلزم من إثبات ذلك من الباطل الذي تتخيله خفافيش العقول فنحن له منكرون، وعن القول به عادلون».



(١) شفاء العليل (٢/ ١٨، ١٩).

قال المصنف رحمه الله:

الوجه السابع: أنْ يُقال: مجرد سَلْب هذه الصفات نقصٌ لذاته، سواءٌ سُمِّيت عمًى وصَممًا وبَكمًا، أو لمْ تُسَمَّ، والعلم بذلك ضروري، فإنَّا إذا قَدّرنا موجودَين، أحدهما يسمع ويبصر ويتكلم، والآخر ليس كذلك، كان الأول أكمل من الثاني.

ولهذا عاب الله سبحانه مَن عبدَ ما تنتفي فيه هذه الصفات، فقال تعالىٰ عن إبراهيم الخليل: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، وقال أيضًا في قصته: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، وقال تعالىٰ عنه: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾.

وكذلك في قصة موسىٰ في العجل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فقابل بين الأبكم العاجز وبين الآمر بالعدل الذي هو علىٰ صراطٍ مستقيم[1].

الشَّرح

صفات الكمال التي اتصف بها رب العالمين نُثبِتُها له، وما يضادّها من صفات النقص ننفيها عن الله ﷻ، فهذا الذي دلَّ عليه النقل الصحيح والعقل الصريح، فالله ﷻ حيٌّ، فنُثْبِت له الحياة، وننفي عنه الموت.

(١) التدمرية (ص١٦٣، ١٦٤).

وكمالُ الله ﷻ من لوازم ذاته، وظهور ذلك في خَلقِه وأَمْرِه أمرٌ لا يجهله إلا قرمطي ومعطل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «إنّ من أسمائه: المَلِك، ومعنىٰ المُلْك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه، وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال؛ إذ من المُحال ثبوت المُلْك الحقيقي التام لمَن ليس له حياة، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا سَمْع ولا بصر، ولا كلام، ولا فِعْل اختياري يقوم به.

وكيف يُوصَف بالمُلْك مَنْ لا يأمر ولا ينهي، ولا يُثِيب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يُعِزّ ويُذِلّ، ويُهِين ويُكْرِم، ويُنعِم ويَنتقم، ويخفض ويرفع، ويُرسِل الرُّسُل إلىٰ أقطار مملكته، ويتقدم إلىٰ عبيده بأوامره ونواهيه؟ فأيُّ مُلْكٍ في الحقيقة لمَن عَدِم ذلك؟!

وبهذا يتبيَّن أنّ المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه».

ومن صفات الله التي تَحقَّق عِلْمُ المسلمين بها: حكمته ﷻ، التي عرفنا بعضها، ولا تدرك عقولنا الإحاطة بجميعها.

من ذلك: ابتلاء الله المؤمنين بالكافرين، والمهتدين بالضالين، والعلماء بالجاهلين، فيدفع الله بجهاد المُحِقِّين ضلال المبطلين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فسعيُ المُضلِّين في إبطال دلالة كلمات الله علىٰ صفاته بمنطقٍ باطِلٍ، أقام له

(١) شفاء العليل (٢/ ٢٠٠).

ربُّ العالمين مَن يُبيّن ما في كلمات الله من الحق والصدق وما في منطق القرامطة والمعطلة من الضلال.

كلمات المُبطِلين لَغْوٌ وباطِلٌ، جَعَله الكافر بكلمات الله المُرْتَاب في صِدْقِها مُهَيْمِنةً علىٰ كلام رب العالمين، فالقرامطة والمعطلة كالكفار الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

المعطلة سَعَوْا في إبطال ألوهية الله ونفي كمال صفاته بقولهم: إنّ الله غير قابل للاتصاف بذلك، وأتوا إلىٰ كلِّ صفةٍ سَمَّىٰ الله بها نفسه وجعلوا لها معنىٰ يخالفها لينفوا ما أثبته الله لنفسه، فأَعْرِضُوا عن ضلالات الملحدين يَسْلَم لكم إسلامكم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «لا نُسَمِّي العرش حيِّزًا، ولا نسمي الاستواء تحيُّزًا، ولا نسمي الصفات أعراضًا، ولا الأفعال حوادث، ولا الوجه واليدين والأصابع جوارح وأعضاء، ولا إثبات صفات كماله التي وَصَف بها نفسه، ووَصَفه بها رُسُلُه: تجسيمًا وتشبيهًا، فنجني جنايتين عظيمتين: جنايةً علىٰ اللفظ، وجناية علىٰ المعنىٰ، فنُبَدِّل الاسم، ونُعَطِّل معناه».



(١) شفاء العليل (١/ ٤١٨).



قال المصنف رحمه الله:

فصلٌ.

وأمَّا الأصل الثاني، وهو التوحيد في العبادات، المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعًا، فنقول: إنه لا بدّ من الإيمان بخلق الله وأمره، فيجب الإيمان بأن الله خالقُ كلِّ شيءٍ وربه ومليكه، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وقد عَلِمَ ما سيكون قبل أن يكون، وقَدَّر المقادير وكتبها حيث شاء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سَنةٍ وكان عرشُه علىٰ الماء»[1].

الشَّرح

خَلَق اللهُ الخَلق لعبادته، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ورَتَّب الله الثواب الدنيوي والأخروي علىٰ طاعته، فقال ﷻ: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

وإيمان المرء لا يتحقق إلا بتوحيد الله في خلقه وأمره، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) التدمرية (ص١٦٥).

قال العَلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «أي: له الخَلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويّها وسفليّها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات.

فالخَلق يتضمَّن أحكامه الكونيَّة القدريَّة، والأمر يتضمَّن أحكامه الدينيَّة الشرعية، وثَمَّ أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء».

الإرادة الكونية القدرية هي مقتضىٰ الربوبية، والإرادة الشرعية هي مقتضىٰ الإلهية، والواجب علىٰ المسلم: التألُّه لله والانقياد لأمره الشرعي وحُكمِه الكوني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] : «إنّ الإرادة نوعان: منها ما هو بمقتضىٰ الربوبية، وهي الإرادة الكونية، ومنها ما هو بمقتضىٰ الإلهية، وهي الإرادة الدينية، فالأُولَىٰ إرادة فاعلية، والثانية إرادة غائية، الأُولَىٰ من اسمه الأول، والثانية من الآخِر.

الأولىٰ يكون الرب بها مُرِيدًا والعبد مرادًا إرادة تكوين وربوبية، ولذلك قد يكون مريدًا.

والثانية يكون الربُّ بها مريدًا إرادةَ حبٍّ ورضًا وإلهية، والعبد أيضًا مريدًا إرادة عبادة وديانة وإنابة وإرادة وقصدٍ، وقد يكون بها مرادًا إرادة ربوبية إذا حصل ذلك».

والواجب علىٰ كل مخلوق: توحيد الله في خَلقِه وفي أَمْرِه وحُكْمِه، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٧، ١٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (ص٣١٧).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص٦٧).

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «إنّه لا يشبهه أحد، ولا كفؤ له ولا ندَّ له، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعَّال لِمَا يريد، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾: شيئًا، لا قليلًا ولا كثيرًا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فتعرفون أنّ المنفرد بالخلق أحقُّ بالعبادة كلِّها، فكما أنّه واحد في خَلقِه وتدبيره؛ فإنّه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنّه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادًا في عبادته، بل أخلصوا له الدين».

وملاحظة المخلوق لإنعام الله عليه وإحسانه إليه من أسباب قيامه بتوحيد الله في أمره وحُكْمِه، فنِعم الله علىٰ خَلْقِه إيجادًا وإمدادًا لا تُحصىٰ؛ بإمدادهم بأنواع الخيرات، ودَفْع أنواع المَضَرَّات، توجب للشكور القيام بحق الله في ألوهيته.

ومتىٰ عَلِمَ المسلم أنّ الأمر كله لله، وأنّ الله يفعل ما يشاء، ويضل مَن يشاء ويهدي مَن يشاء، استعان بالله في عبادته وطاعته وأَمْرِه كله. قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] : «إنّ الله أمر بطاعته ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، ونهىٰ عن معْصيته، ومعصية رسوله، وأنّه لا يُحِبُّ الفساد، ولا يرضىٰ لعباده الكفر، وأنّ علىٰ الخَلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا به علىٰ كل ذلك».

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٠٠).
(٢) العبودية (ص٣٨).

ومتىٰ عَلِمَ المسلم أنّ الله كافٍ عبده وحده، وأنّ الله وحده النافع الضار، وأنّ الله مع المتقين حفظًا وهدايةً ورزقًا ونصرةً قَوِيَ توكُّلُه علىٰ الله، وأخذَ بأسباب كفاية الله ومَعِيّتِه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

ضلَّ كُفَّارُ العرب في جاهليتهم عن تحقيق التوحيد وطاعة أَمْر الله الشرعي، فأشركوا بالله، واحتجّوا بحكمه القدري علىٰ كفرهم بمخالفة الأمر الإلهي، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا﴾ [النحل: ٣٥]، بل كانوا شرًّا من ذلك حيث كَذَبوا علىٰ الله في زعمهم أنّ الله أمرهم بالفواحش، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وواقع الكفار في جاهليتهم يدلُّ علىٰ كَذِبهم وضلال اعتقادهم؛ فإنّ أكثرهم أسلم بعد ذلك، ولم يكن لاستدلالهم بقدر الله وحُكْمِه الكوني حُجَّة علىٰ كفرهم؛ فإنهم أسلموا قدرًا ووافقوا أَمْر الله الشرعي.

ومعرفة المسلم بارتباط الحُكم الكوني القدري بالحُكم الشرعي يوجب عليه الإتيان بالأحكام الشرعية الموجبة لرضا الله بما يجلب له القضاء الإلهي بسعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإنَّما تُصاب الأمم والأفراد بأنواع الآفات والمصائب بأسباب مخالفتها لأحكام الله الشرعية، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾.

فصلاح الدنيا وثواب الآخرة كله مترتب علىٰ تحقيق التوحيد، وبلاء الخَلق في الدنيا وشقاؤهم في الآخرة سببُه الشرك، قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : «علىٰ قَدْر قيامه -المخلوق- بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل».

ويُبتلىٰ المؤمنون ببعض أنواع الابتلاءات بما هو من ضرورة التكليف ليستخرج الله عبودية خَلقِه في الأحوال كلها، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

ومن الواجب علىٰ المسلم من الأحكام الشرعية: الرضا عن الله في أحكامه الكونية، عن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، إنْ أصابته سَرَّاء شَكَر فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم»، رواه مسلم.

فإيمان المسلم يتحقق بالقيام بأحكام الله الدينية، والصبر علىٰ أحكامه الكونية القدرية.

---

(١) الفوائد (ص٢٩٣).

ومعرفة المخلوق بأمر الله الكوني وحُكمِه الشرعي من أسباب سيره إلىٰ الدار الآخرة بما يرضي مَن ينتهىٰ إليه الأمر وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ومَن أيقن بكمال الله وصفاته، وتحقَّق بتفرُّدِه بالأمر، أوجب له القيام بحقه؛ بالانقياد له في أمره وتحكيم شَرْعه.

وإنّما يقوم بتوحيد الله في أحكامه مَن أيقن أنّ الله لا يحكم إلا بما هو خيرٌ للأفراد والمجتمعات، ومَن أيقن أنّ الله العليم حُكمُه عدلٌ، فلا يخاف المسلم أن يَحِيفَ الله عليه في أحكامه، وإنما يحكم بشرع الله مَن قدَّر الله حقَّ قَدْرِه وأيقن أنّ عِلْم المخلوق لا شيء بالنسبة لعلم العليم الخبير.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].



قال المصنف رحمه الله:

ويجب الإيمان بأن الله تعالىٰ أمر بعبادته وحده لا شريك له، كما خلق الجن والإنس لعبادته، وبذلك أرسل رُسُلَه، وأنزل كُتُبَه.

وعبادته تتضمن كمال الذّل له والحب له، وذلك يتضمن كمال طاعته، ومَن يطع الرسول فقد أطاع الله، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(١)].

الشَّرح

دِينُ الإسلام هو عبودية الله ﷻ وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وجميع رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالدعوة إلىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والعبودية لله ﷻ هي الخضوع له بالتصديق لخبره والانقياد لأمره ونهيه.

والخَلقُ كلهم خاضعون لأمر الله الكوني، قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، والمسلمون مِنَ الخَلق هم الذين خضعوا لله طوعًا، رغبةً ورهبةً ومحبةً ورجاءً لله

(١) التدمرية (ص١٦٦).

ربِّ العالمين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالحمد لله أن هدانا للإسلام، والحمد له أنْ رزقنا الخضوع والانقياد له.

قال عيسىٰ عليه السلام وأتباعه: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله[1]: «آمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يَكْتُبهم مع الشَّاهدين له بالتوحيد، وأن يحقق لهم القيام به قولًا وعملًا واعتقادًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، هو أن يستسلم العَبْدُ لله -لا لغيره-، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر».

والكافر هو الذي استكبر عن عبادة الله، وما انقاد لأمره ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقول شيخ الإسلام: «وعبادته تتضمن كمال الذّل له والحب له، وذلك يتضمن كمال طاعته»، فيه شرحٌ لحقيقة الإسلام الذي هو حقيقة العبودية لله عز وجل.

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٢١).

(٢) العبودية (ص٧٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «لفظ الإسلام: يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «لا بُدَّ في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لِمَا سواه، وهذا حقيقة قولنا: «لا إله إلا الله»، فمَنِ استسلم لله ولغيره فهو مشرك، واللهُ لا يغفر أن يُشرك به، ومَن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فقوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلسِّلْمِ﴾ أي: في الإسلام، وفي الطاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «كلاهما مأثور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكلاهما حقٌّ؛ فإنَّ الإسلام هو الطاعة».

وقال شيخ الإسلام[٤]: «كلُّ ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه؛ فإنْ كان واجبًا علىٰ الأعيان لَزِمَهُ فِعلُه، وإن كان واجبًا علىٰ الكفاية اعتقد وجوبَهُ، وعَزمَ عليه إذا تَعيَّن، أو أَخَذ بالفضل ففَعَله، وإنْ كان مستحبًّا اعتقد حُسْنَه وأحبَّ فِعْلَه».

وقد فسَّر علماءُ السلف من التابعين الإسلامَ بصراط الله المستقيم؛ وذلك لأنّ العبودية لله لا تكون إلا بما شَرَع، وذلك يوجب علىٰ المسلم العلم بالصراط

(١) الصراط المستقيم (ص٥٦٠).
(٢) الصراط المستقيم (ص٥٦٠).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٦٦).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٦٧).

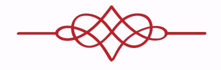
المستقيم واتباعه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالعلم بالصراط المستقيم والسير عليه بخضوعٍ لله وإخلاصٍ له، هو العلم النافع والعمل الصالح.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلَّمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنّه الإسلام، ولا تحرِّفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، وعليكم بسُنَّة نبيكم ﷺ والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تُلقِي بين الناس العداوة والبغضاء».

وقال تعالىٰ مخبرًا عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّه قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [آل عمران: ٥١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي أمرنا الله بسؤال هدايته؛ فإنَّه قد وُصف بأنَّه الإسلام، ووُصف بأنّه اتباع القرآن، ووُصف بأنّه طاعة الله ورسوله، ووُصف بأنّه طريق العبوديَّة، ومعلوم أنّ كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه، ومسماها كلها واحد وإن تنوَّعت صفاته».



(١) الاستقامة (ص١٩٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٩).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

فأَمَر الرُّسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إنّا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء إخوة لِعَلَّات، وأنا أَوْلَىٰ الناس بابن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبيٌّ»[(١)].

الشَّرح

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، فهم مبعوثون من الله عَزَّوَجَلَّ بالدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته بما شَرَع، فالواجبُ: الدعوة إلىٰ ما بُعثوا به، فبذلك تَأْتَلِف قلوب الخَلق علىٰ الحق، ويعبد الناس إله العالمين، ويكونون بذلك أتباع النبيين جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

الأنبياء أخوة، ومحمد ﷺ خاتمهم، ولا نبيَّ بعده؛ لأنّ الله تَعبَّد الخَلق جميعًا بشِرعة الإسلام التي بُعث بها إلىٰ يوم القيامة، قال تعالىٰ آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد أَمَر الله الخَلق جميعًا بتوحيده واتِّباع نبيه محمدًا ﷺ، فقال سبحانه:

(١) التدمرية (ص١٦٦، ١٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

واتِّباعُ محمدٍ ﷺ طاعةٌ لله ﷻ، واتِّباعٌ للنبيين قبله؛ فإنّهم بَشَّروا به وأمروا بطاعته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أنَّ دعوة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المرسلين قَبْلَه من أولهم إلىٰ آخرهم، فالمكذِّبُ بدعوته مكذِّبٌ بدعوة إخوانه كلِّهم؛ فإنَّ جميع الرُّسل جاؤوا بما جاء به».

قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

قال العَلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «قوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: اثبتوا علىٰ التوحيد، وقيل: أَقِيمُوا الدِّين، أي: استقيموا علىٰ الدِّين، ويُقال: أقيموا الدِّين هو فعلُ الطاعات وامتثال الأوامر».

فإقامة الدين هو توحيد الله بإقامة شرائعه، وذلك جملة الدين كله، قال النبي ﷺ: «قل: آمنتُ بالله، ثم استقم»، رواه مسلم من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ونحن في ضرورة إلىٰ دعوة أتباع النبيين لإقامة الدين الذي اتفقت عليه الشرائع التي بُعث بها النبيون، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٤٣١).
(٢) تفسير القرآن (٥/ ٦٧).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ٦٤]: لا وثنًا، ولا صليبًا، ولا صنمًا، ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا، بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل».

محتوىٰ الدعوة دالٌّ علىٰ صدق نبوة مَن بُعث بها صلوات الله وسلامه عليه، وهي دالَّة علىٰ موافقتها لدعوة النبيين قبله عليهم الصلاة والسلام.

سأل هرقل أبا سفيان عن محتوىٰ ما يدعو إليه محمد ﷺ؟ فقال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تُشركوا به شيئًا، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصِّلَة والصِّدْق والعفاف، متفق عليه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه معاني الدين وشرائع النبيين جميعًا عليهم الصلاة والسلام، تتلقَّاها النفوس الزَّكِيَّة بالتصديق والانقياد، فهذا دِينُ الموحِّدين، وهذه حقائق الإيمان: اعتقادٌ صحيح، وقولٌ وعملٌ صالح.

هذه حقيقة التقوىٰ التي وَصَّىٰ الله بها الأوَّلِين والآخرين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١].

والمؤمنون شاهدون بصحة الشرع الذي بلّغه محمد ﷺ، وهم موقنون أنّ القرآن الذي بلّغه حقٌّ ووحيٌ من الله، محتواه دالٌّ علىٰ ذلك، لذلك هم قائمون بشهادة التوحيد، ويُؤدّونها إلىٰ خلقِ الله جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥٩).

ومَن رُزق عدلًا وإنصافًا آمَنَ بالإسلام، وكان ذلك من رحمة الله به إذ هداه إلىٰ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فالعقول الزكية تؤمن بالحق وتتبعه، وتَأْبَىٰ أعظم الظلم وهو الشرك فتحذره.

وفي أهل الكتاب منصفون، عرفوا الحق واتّبعوه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] تضمَّن وَصْفَهُم بأنّ فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وَصْفَهُم بالانقياد للحق واتّباعه والإنصاف».

واتِّباعُ الحق هو من موالاة الله جَلَّ وَعَلَا والنبيين جميعًا عليهم الصلاة والسلام، فالرُّسُل مُبلِّغون عن الله شَرْعَهُ، فاتِّباعهم هو من الإيمان بالله الذي بَعَثهم مُبلِّغين عنه، وهو من موالاة الأنبياء؛ لأنهم جميعًا رُسُل الله، ودعوتهم واحدة، والأنبياء جميعًا بَشَّروا بمحمد ﷺ، قال النبي ﷺ: «أنا دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشْرَىٰ أخي عيسىٰ»، رواه أحمد من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو حديثٌ حَسَنٌ.



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٠).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الدين هو دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينًا غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإنَّ جميع الأنبياء على دِين الإسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، وقال عن موسىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، وقال في خبر المسيح: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، وقال فيمَن تقدَّم من الأنبياء: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وقال عن بلقيس أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

الشَّرْح

دِينُ الإسلام هو الخضوع والطاعة لله وحده تألُّهًا، قال تعالىٰ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤].

وكلُّ نبيٍّ أَرْسَله الله ﷻ فقد أَرْسَله بالإسلام، وكلُّ الأنبياء بُعثوا بالإسلام،

(١) التدمرية (ص١٦٨، ١٦٩).

الذي هو عبادة الله وحده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الإسلام هو دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، ومَنِ اتّبعهم من الأمم، كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أنّهم كانوا مسلمين. وكذلك عن أتباع موسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم.

والإسلام هو أن يُستسلم لله، لا لغيره، فيعبد الله ولا يُشرك به شيئًا، ويتوَكَّل عليه وحده، ويرجوه، ويخافه وحده، ويُحبّ الله المحبَّة التامَّة، لا يُحبّ مخلوقًا كحبِّه لله، بل يُحبُّ لله، ويُبغِض لله، ويُوالِي لله، ويُعادِي لله، فمَنِ استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلمًا، ومَن عَبَد مع الله غيره لم يكن مسلمًا.

وإنّما تكون عبادتُه بطاعته، وهو طاعة رُسُلِه، فمَن يُطِع الرسول فقد أطاع الله، فكلُّ رسولٍ بُعث بشريعة، فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام».

ودينُ الإسلام هو ما بُعث به الرسل من شرعِ الله، لا ما حُرِّف وبُدِّل من الأديان.

دينُ الإسلام الذي بُعث به موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام ليس هو قَتْل النبيين، وعبادة العجل، والاستكبار عن الانقياد لأمر الله ونَهْيِه.

وليس دينُ الإسلام الذي بُعث به موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام الشرك بالله، واتخاذ عيسىٰ وأمه إلهين مع الله، فعقيدة التثليث ودعوىٰ أن عيسىٰ ابن الله ليس هو من توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

(١) النبوات(١/ ٤١٧، ٤١٨).

﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

والله ﷻ دعا أهل الكتاب في القرآن إلىٰ تصحيح عقائدهم بالتوحيد، ونهاهم عن الشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: ١٧١].

دينُ موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام توحيد الله ﷻ، واعتقاد صحة نبوة محمد ﷺ، وأنّه إذا بُعث يجب اتباعه ونصرته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بَعَث الله من نبيٍّ إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ به، ولَيَنْصُرَنَّه، وأَمَره أنْ يأخذ الميثاق علىٰ أُمَّتِه؛ لئن بُعث محمد وهم أحياء لَيُؤْمِنُنَّ به وَلَيُتَابِعُنَّه، رواه ابن أبي حاتم، وهو أثرٌ صحيحٌ.

وقال النبي ﷺ: «لو كان موسىٰ حيًّا لَمَا وَسِعَهُ إلا اتِّباعي»، رواه الدارمي وأحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن الفاروق عمر رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: «يوشك أن ينزل ابن مريم حكمًا عدلًا، يَكْسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: «يكسر الصليب» يريد إبطال النصرانية، والحكم بشرع الإسلام، ومعنىٰ قتل الخنزير: تحريم اقتنائه وأَكْله وإباحة قَتْله، وفيه بيانُ أنَّ أعيانها نجسة؛ لأنّ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنّما يقتلها علىٰ حُكمِ شرعِ الإسلام، والشيء الطاهر المنتفع به لا يحل إتلافه».

فالعقائد الباطلة التي كذَّبها القرآن ليست من دين موسىٰ وعيسىٰ، فقد أكذبَ اللهُ اليهود في قذفهم مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وأكذب الله اليهود والنصارىٰ في دعواهم صَلْب المسيح عيسىٰ ابن مريم، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٨].

وليس من دِين الإسلام اتخاذ القبور مساجد، فليس من دين موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام الاستغاثة بالموتىٰ وسؤالهم ما لا يَقْدِر عليه إلا الله من الرزق والنصر وشفاء الأسقام وغيره، ففي الصحيحين من حديث عائشة وأم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنّ النبي ﷺ قال: «لَعَن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت أمهات المؤمنين: يُحذِّر ما صنعوا.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

(١) شرح السنة (١٥/ ٨١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «القرآن كلُّه يدلُّ على أنَّ الحنيفيَّة هي مِلَّةُ إبراهيم، وأنَّها عبادة الله وحده والبراءة من الشرك.

وعبادته سبحانه إنّما تكون بما أمَرَ به وشَرَعَه، وذلك يدخل في الحنيفية، ولا يدخل فيها ما ابتُدِعَ من العبادات، كما ابتدع اليهود والنصارى عباداتٍ لم يأمر بها الأنبياء؛ فإنَّ موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل ومَنِ اتَّبعَهم كانوا حنفاء، بخلاف مَن بَدَّلَ دِينهم فإنّه خارج عن الحنيفية».

دينُ الإسلام هو شرعُ الله الذي أوحاه إلى موسى وعيسى قبل التحريف والنَّسْخ، فمَن تَعبَّد لله وقتها بالتوراة والإنجيل قبل التحريف كان من المسلمين.

وقد أخبرنا الله أنّ أهل الكتاب كتموا كثيرًا من التوراة والإنجيل وحرّفوا بعضًا منها، فليست التوراة والإنجيل المُحَرَّفَتين دِينَ الله، مِن أَجْل ذلك بَعَث الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن ناسخًا للكتب قبله ومُهَيْمِنًا عليها.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «أمَّا اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المُبَدَّل، وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كَذَّبوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذه ليست دِينَ أحد من الأنبياء، لا موسى، ولا عيسى، ولا غيرهما».



(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (١/ ٣٥١).
(٢) تفسير آيات أُشكلت (١/ ٢٨١).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمَن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومَن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافرٌ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده.

وهذا دِينُ الإسلام الذي لا يَقْبَل الله غيره، وذلك إنما يكون بأنْ يُطاع في كل وقت بفعل ما أَمَر به في ذلك الوقت، فإذا أَمَر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمر ثانيًا باستقبال الكعبة، كان كلٌّ من الفعلين حين أَمَر به داخِلًا في دين الإسلام، فالدِّين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوّع بعضُ صُوَرِ الفعل وهو وِجْهَة المُصَلِّي، فكذلك الرسل دينهم واحد، وإنْ تنوَّعتِ الشِّرعةُ والمنهاج والوِجهة والمَنْسَك، فإنَّ ذلك لا يمنع أن يكون الدِّين واحدًا، كما لم يمنع ذلك في شرعة الرسول الواحد[1].

الشَّرح

دِينُ الله هو عبادته وطاعته بما شَرَع، وذلك بإخلاص العمل له، وهو توحيده بالعبادة، وهو إنّما يُعبد بما شَرَع وأَمَر.

فالإسلام حقيقته إسلامُ الوجه بطاعة الله وعبادته بما شَرَع، قال تعالىٰ آمرًا عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال العَلَّامة أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إنّ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هي الحنيفية ملَّة إبراهيم التي أَمَر الله بها عِباده كلهم، ولا يَقْبَل من أَحدٍ

(١) التدمرية (ص١٦٩، ١٧٠).
(٢) تجريد التَّوحيد (ص٢٧).

غيرها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]».

فحنيفية التوحيد مِلَّة إبراهيم هي عبادة الله وحده بما شَرَع، هذه حقيقة الملَّة المستقيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال الحافظ عبد الرزاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: دِين الملَّة المستقيمة».

الإسلامُ: هو تصديق الله فيما أخبر، والانقياد لأمره ونهيه، وإقامة شرائع الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال العَلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «السِّلْم: الانقياد، والمراد به الإسلام ههنا. وقال الأزهري أيضًا: معناه: ادخلوا في الإسلام وشرائعه كافَّة».

بعثَ اللهُ محمدًا ﷺ إلىٰ الناس كافة؛ رحمةً بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، بَعَثه اللهُ ﷻ بعد أنْ تحرَّفت الشرائع السابقة، فأقام اللهُ حُجَّته علىٰ خَلقِه برسالة محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٦٩٨).
(٢) تفسير القرآن (١/ ٢٠٩).

﴿كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]، فكان القرآن الذي أوحاه الله إلىٰ محمد ﷺ حُجَّةَ الله علىٰ خَلقِه، قال تعالىٰ مخبراً عن نبيه أنّه قال مخاطبًا الخَلق: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمَن كفر بالقرآن فلا حُجَّةَ له عند الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أَحَدٌ من هذه الأُمَّة من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، رواه مسلم.

أَتمَّ اللهُ نعمته علىٰ الخَلق بالإسلام والقرآن، وهَدَىٰ اللهُ بالإسلام إلىٰ الدِّين القيِّم الموافق للفطرة المستقيمة والعقل الصَّريح الحُنفاء من عِباده، وتَزكَّىٰ الخَلق بشرائع الإسلام التي تهدي إلىٰ أقوم العقائد والعبادات والأحكام والسياسات والأخلاق.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١]: «الدِّين واحد، ثُمَّ خَتَم اللهُ الشرائع والمِلَل بالشريعة العامَّة الكاملة، الحنيفية المحمدية، المحتوية علىٰ جميع محاسن الشرائع، المتضمنة لجميع مصالح العِباد في المعاش والمعاد، فأكملَ الله بها دِينَه الذي ارتضاه لنفسه، وختمَ بها العلم الذي أنزله من السماء علىٰ رُسُلِه، فلذلك تضمَّنت جميع محاسن الشرائع المتقدمة، وزادت عليها أمورًا عظيمة وأشياءَ كثيرة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة».

---

(١) جامع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٥٥٧).

بَعَث الله ﷻ النبيين جميعًا بالدعوة إلىٰ التوحيد، وشرائعُ كلِّ مِلَّة بَعث الله بها نبيه، هي تفاصيلٌ لتوحيد الله، وكلُّ الشرائع الإلهية اتَّفقت علىٰ الأمر بالتوحيد والعدل والعبادات التي يُحقِّق فيها الخَلق عبوديتهم لله، وكلها تأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال والأفعال، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وعن أبي مسعودٍ عقبة بن عمرو ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأُولَىٰ: إذا لَمْ تستح فاصنع ما شئتَ»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀(١): «إنّ النبي ﷺ هو وسائر المؤمنين لا يُخبرون إلَّا بحقٍّ، ولا يأمرون إلَّا بعدل، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علمٍ.

فهم بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلَّا بما يُوافق المعروف في العقول، الذي تتلقَّاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنّهم هم لا يختلفون، فلا يناقض بعضهم بعضًا، بل دِينهم ومِلَّتهم واحدة، وإنْ تنوَّعت الشرائع، فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فَطَر الله عليها عباده، موافقون للأدلَّة العقلية لا يُناقضونها قط، بل الأدلَّة العقليَّة الصحيحة كلهُّا توافق الأنبياء لا تخالفهم».

(١) النبوات (٢/ ١٠٩٠، ١٠٩١).

الشرائع الإلهية كلها متفقة علىٰ توحيد الله، وإثبات النبوات، والمعاد، والبشارة بالجنة للمؤمنين، والوعيد بالنار للكافرين.

واتفقت الشرائع الإلهية علىٰ الأمر بأركان الإسلام، قال الله ﷻ في شأن أنبيائه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

والصيام فَرَضه الله في جميع الشرائع، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لِمَا فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذَكَر أنّه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه علىٰ مَن كان قبلهم، فلهم فيه أُسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل ممَّا فَعَله أولئك».

والحج شَرَعه الله لجميع الأمم، منذ أمر خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببناء الكعبة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

قال يحيىٰ بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ الله ﷻ لم يبعث نبيًّا قط إلا بهؤلاء الخمس: التوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، وشرائع بعدُ».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص١٣٨).
(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٥١).

واتَّفقت الشرائع الإلهية علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّ به حِفْظَ شريعة الله التي بَعَث بها رُسُله من التحريف والتبديل والإفساد؛ ولأنّ به إصلاح الأفراد والمجتمعات، قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)]: «لُعنوا بكل لسان، لُعنوا علىٰ عهدِ موسىٰ في التوراة، وعلىٰ عهدِ داود في الزَّبُور، وعلىٰ عهدِ عيسىٰ في الإنجيل، وعلىٰ عهدِ محمد ﷺ في القرآن».

واتَّفقت الشرائع الإلهية العظيمة علىٰ الجهاد علىٰ ثواب الجنة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّ الله ﷻ وَعَدهم هذا الوعد، وبيّنه في هذه الكتب، وفيه دليلٌ علىٰ أنّ أهل المِلل كلهم أُمروا بالجهاد علىٰ ثواب الجنة».

هذه جملة من أنواع ما اتفقت عليه الشرائع الإلهية، وهي كلُّ ما كان فِعْلُه مصلحةً في كل وقت.

قال تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٦٥).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٣٢٩).

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم هي التي تتغير بحسب تغيُّر الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلىٰ العدل في وقت شرعتها، وأمَّا الأصول الكِبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان؛ فإنّها لا تختلف، فتُشرع في جميع الشرائع».

وأمَّا بالنسبة لخصوص استقبال القِبلة في الصلاة، فقد أُمر المسلمون بالصلاة إلىٰ جهة بيت المقدس بعد الهجرة، ثم أمُروا بعد ذلك باستقبال الكعبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الدِّين واحد وإنْ تنوَّعتِ القِبلة في وقتين من أوقاته».

وفضائلُ المسجد الحرام خاصَّةٌ به؛ فهو قِبْلَةُ المُصَلِّين، ولا يُشرع الطواف إلا بالكعبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المساجد جميعها تشترك في العبادات، فكلُّ ما يُفعل في مسجد يُفعل في سائر المساجد، إلا ما خُصَّ به المسجد الحرام من الطواف ونحوه؛ فإنّ خصائص المسجد الحرام لا يشاركه فيها شيءٌ من المساجد، كما أنّه لا يُصلىٰ إلىٰ غيره».

والمسجد الحرام هو البيت العتيق، وهو أولُ مسجدٍ في الأرض، فظهرت بذلك حكمة الأمر باستقباله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٤٦).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٩).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٥٤).

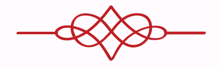
﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وروىٰ البخاري ومسلم من حديث أبي ذرٍّ ﵁ أنه قال للنبي ﷺ: أيُّ مسجدٍ وُضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلتُ: ثُمَّ أَيّ، قال: «المسجد الأقصىٰ»، قلتُ: كم بينها؟ قال: «أربعون سنة».

وهذا الحديث يدلُّ علىٰ فضلِ هذين المسجدين، فقد بنىٰ المسجدَ الحرام نبيُّ الله وخليله إبراهيم ﵊، والمسجد الأقصىٰ بناه سليمان بعد بناء إبراهيم ﵉، ومحمد ﷺ بنىٰ مسجد المدينة، فهذه أعظم وأفضل المساجد عند الله، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُشد الرِّحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ، ومسجدي هذا».

والمقصود بالصلاة في المساجد باستقبال القِبلة هو عبودية الله ﷻ وتعظيمه بما شَرَع، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وأمَّا مَقامات الأنبياء التي قاموا فيها؛ لكنّهم لم يتخذوها مساجد، فهذه لا يُشرع قَصْدُها للعبادة، فآثار الأنبياء ليست مساجد لعبادة الله.

قال الفاروق عمر ﵁: «إنّما هَلَك أهل الكتاب قبلكم؛ لأنّهم اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعًا»، رواه سعيد بن منصور في سُننه(١).



(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٧٣).

قال المصنف رحمه الله:

والله تعالىٰ جعَل من دِين الرسل أنَّ أولهم يُبشِّر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يُصدِّق بأولهم ويؤمن به، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبعث اللهُ نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق علىٰ أُمَّته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

وجعَل الإيمان بهم متلازمًا، وكفَّر مَن قال: إنه آمَنَ ببعضٍ وكفَر ببعضٍ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقد قال لنا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فأَمرنا أنْ نقولَ: آمَنَّا بهذا كله ونحن له

مسلمون، فمَن بَلَغته رسالة محمد ﷺ فلمْ يُقِرَّ بما جاء به لم يكن مسلمًا ولا مؤمنًا، بل يكون كافرًا، وإنْ زَعَم أنه مسلمٌ أو مؤمنٌ[(١)].

الشَّرح

الإيمان بالرسل جميعًا هو من الإيمان بالله الذي أرسلهم، لذلك لا يصحُّ إسلام مخلوق إلا بالإيمان بالرسل جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال النبي ﷺ في شرحِ حقيقة الإيمان: «أنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه واليوم الآخِرِ والقَدَر خيره وشره»، رواه البخاري ومسلم.

وقال الله تعالىٰ في صفة المؤمنين: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل، وبما اشتملت عليه خصوصًا التوراة والإنجيل والزَّبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب السماوية كلها وبجميع الرسل فلا يُفرِّقون بين أحدٍ منهم».

فالإيمان بالنبيين جميعًا عليهم الصلاة والسلام هو من الإيمان بالله الذي بعثهم بوحيه، يدعون إلىٰ عبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا

---

(١) التدمرية (ص١٧٠-١٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (ص٣٠).

﴿ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام بَعَثهم الله إلىٰ خَلقِه بوحيه ليكونوا حُجَّةً لله علىٰ خَلقِه، فقد أَعْذرَ اللهُ إلىٰ خَلقِه بإرسالهم، وكانت علوم النبوة بيانًا لصراط الله الذي مَن سار عليه دَخَل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «معلومٌ أنَّ الله تعالىٰ إنّما أقام الحُجَّة علىٰ خَلقِه برُسُلِه، فقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلمْ يبقَ لهم بعد الرسل حُجَّة، وإنّما تقوم الحُجَّة في مَغِيبهم ومماتهم بمَن يُبلِّغ عنهم، كما قال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لكيلا تَبطُل حُجَجُ الله وبَيِّناته»، ولا تقوم الحجة حتىٰ يُبلِّغ اللفظ والمعنىٰ جميعًا؛ إذ تبليغُ اللفظ المُجرَّد الذي لا يدلُّ علىٰ المعنىٰ المقصود لا تَقُوم به حُجَّةٌ، بل وجوده كعدمه.

فالقائمون بحُجَّةِ الله هم المبلِّغون لِمَا جاءت به الرسل لفظًا ومعنىٰ».

ما بعثَ الله ﷻ به رسوله محمدًا ﷺ والرسل من قبله هُدًىٰ ورحمة للمؤمنين، فيه هدايتهم وسعادتهم الدنيوية والأخروية، وفيه تزكيتهم بالعقائد الصحيحة والأقوال والأعمال الصالحة، وفي اتِّباعهم عِتقٌ لهم من النار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧، ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص٣٣).

يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

والقرآن الذي أَوْحَاه الله ﷻ إلىٰ رسوله محمد ﷺ مُصَدِّقٌ لِمَا بين يديه من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، وناسِخٌ لبعض الأحكام التي هي خيرٌ من المنسوخ رحمة من الله بالعباد وتكميلًا لشرائع دينهم علىٰ أحسن ما يكون، قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «عن الوالبي، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: شهيدًا، وكذا قال مجاهد وقتادة والسّدي.

وقال العوفي: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: حاكمًا علىٰ ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنىٰ؛ فإنَّ اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهِدٌ وحاكِمٌ علىٰ كل كتابٍ قبله، جَعَلَ الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جَمَعَ فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها،

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١٣).

وتكفَّل تعالىٰ بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]».

نؤمن برسل الله جميعًا عليهم الصلاة والسلام؛ لأنّهم مُبلِّغون عن الله ﷻ شَرْعَهُ ووحيه، وهم جميعًا دعاة إلىٰ توحيد الله، فعقيدتهم واحدة.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نُوحِّده بالألوهية، ولا نُشرِك به شيئًا غيره، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

والإسلام هو مِلَّةُ الأنبياء قاطبةً، وإنْ تنوَّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات في هذا كثيرة، وأمَّا الأحاديث: فمنها: قوله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولادُ عَلَّات، ديننا واحد».

فالإيمان بالله ﷻ والاتِّباع لرُسُله عليهم الصلاة والسلام هو حقيقة الدِّين، وذلك هو تقوىٰ الله، وبذلك يعبد الناس ربهم علىٰ بصيرة، فيهتدوا، ويدركوا ثواب الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٤٩).

وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

قال شيخُ المُفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٢٢٤-٣١٠هـ) [(١)]: «﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: سُبُلَ مَن قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه، ومناهجهم».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وعندما فاجأ الوحيُ النبيَّ محمدًا ﷺ أول مرة، وأخبر بذلك ورقة بن نوفل، الذي كان مُتمسِّكًا بما لَمْ يُحرَّف من الإنجيل، قال ورقة رضي الله عنه: «هذا الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ»، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]: «الأنبياء يُصدِّق متأخِّرُهُم مُتقدِّمَهم، ويُبشِّر مُتقدِّمُهم بمتأخِّرِهم، كما بشَّرَ المسيح ومَن قبله بمحمدٍ ﷺ، وكما صَدَّق محمدًا جميعُ النبيين قبلَهُ».

ودعوةُ النبي محمد ﷺ محتواها دالٌّ علىٰ صِدقِه؛ فإنّه دعا إلىٰ ما دعا إليه الرسل من قبله؛ دعا إلىٰ توحيد الله، وعبادته بما شَرَع، قال تعالىٰ: ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

(١) جامع البيان (٦/ ٦١٩).
(٢) النبوات (٢/ ١٠٨٨).

ومحاسن ما يأمر به الرسل عليهم الصلاة والسلام دالٌّ علىٰ صِدقهم؛ وأنّهم مُبلِّغون عن الله شَرْعَه وأمره ونهيه، فلذلك تجد دعوة المرسلين مُتَّفقة علىٰ الأمر بكل خير والنهي عن كل شر، فمحتوىٰ دعوة المرسلين دالٌّ علىٰ صِدقهم.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال العَلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أعظمُ دليلٍ يدلُّ علىٰ أنّه -محمد- رسولُ الله: ما دعا إليه، وأَمَر به، ونَهىٰ عنه، وأَحلَّه، وحَرَّمه؛ فإنَّه يُحِلُّ الطيبات من المطاعم والمشارب والمَناكِح ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] من المطاعم والمشارب والمَناكِح والأقوال والأفعال ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: ومِنْ وَصْفِه: أنّ دِينَهُ سهلٌ وسَمِحٌ مُيَسَّر، لا إِصْرَ فيه، ولا أَغلال، ولا مَشقّات، ولا تكاليف ثِقَال».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنّ ما بَعَث اللهُ به نبيه محمدًا ﷺ من الكتاب والحكمة يجمع مصالح العباد في المعاش والمعاد علىٰ أكمل وجهٍ».

ومن مصالح الدنيا والآخرة التي اتفقت عليها الشرائع: التمكين في الأرض، والمقصود من ذلك: عمارتها بعبودية الله وحده لا شريك له، وإقامة العدل، ونصرة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (ص٣٣٥).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٨٤٦).

الحق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهرقل بعد قراءته كتاب النبي ﷺ إليه، وسؤاله لأبي سفيان عن دلائل نبوة محمد ﷺ خاتم المرسلين قال لقومه: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرُّشْدْ، وأن يَثْبُتَ مُلْككم فتُبايِعُوا هذا النبي»، متفق عليه، وفي رواية: «فتُتَابِعُوا».

فالإيمان بالله ﷻ يستلزم الإيمان برُسُله جميعًا عليهم الصلاة والسلام؛ لأنّهم جميعًا رسله ودعاته، فمَن آمنَ ببعضٍ وكفَرَ ببعضٍ فهو كافر بالله مُفرِّق بين رسله في الإيمان بهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فمَن آمنَ بموسىٰ وعيسىٰ وكفرَ بمحمدٍ فهو كافر، ومَن آمنَ بمحمدٍ وكفرَ بموسىٰ وعيسىٰ فهو كافر، ومَن آمن بآدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد والنبيين جميعًا فهو مؤمن.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أخبر الله أنّ الإيمان بالبعض كفرٌ بالكُلِّ».

وحقيقة الإيمان بالرسول اتباعه فيما بَعَثه اللهُ به، قال إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٦٥٧).

وقد أَمَرَ اللهُ أهلَ المِلل؛ اليهودية والنصرانية باتباع محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والطاعة للرسول محمد ﷺ طاعةٌ لله الذي أَرْسَله وأَمَر باتباعه، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الذين كانوا يتمسكون بالتوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل كانوا علىٰ دِين الإسلام، وإن كان لهم شريعة تختص بهم، وكذلك المتمسكون بالإنجيل قبل النسخ والتبديل علىٰ دين الإسلام، وإن كان المسيح قد نَسَخ بعض ما في التوراة وأحلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، وكذلك محمد ﷺ بُعث بدِين الإسلام وإنْ نَسخَ اللهُ ما نسخه كالقِبلة، ومَن لم يتّبع محمدًا ﷺ لم يكن مسلمًا، بل كافرًا، ولا ينفعه بَعْد أنْ بَلَغَهُ دعوة محمد التمسك بما يخالف ما أُمر به؛ فإنَّ ذلك لا يُقبل منه».



(١) الصَّفدية (٢/ ٣٠٨).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما ذكروا أنه لمَّا أنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ قالت اليهود والنصارىٰ: فنحن مسلمون، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ فقالوا: لا نحج، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فإنَّ الاستسلام لله لا يتم إلا بالإقرار بما له علىٰ عِبادِه من حَجِّ البيت، كما قال النبي ﷺ: «بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»، ولهذا لمَّا وَقفَ النبي ﷺ بعرفة أنزل الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].

الشَّرْح

الإسلام هو الانقياد لله، وعبادةُ الله وحده لا شريك له بما شَرَع، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

فالمسلم هو الذي أسلم لرب العالمين، فانقاد له وعَبَده كما شرعَ له، ومَنِ استكبر عن عبادة الله فذلك من الكافرين.

قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

---

(١) التدمرية (ص١٧٢، ١٧٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لفظُ «أَسْلَم» يتضمن شيئين: أحدهما: الإخلاص، والثاني: الاتباع والإذلال.

كما أنَّ «أسلم» إذا استُعْمل لازمًا مثل ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] يتضمَّن الخضوع لله والإخلاص له.

وضِدُّ ذلك إمّا الكبرُ وإمّا الشركُ، وهما أعظم الذنوب، ولهذا كان الدِّين عند الله الإسلام؛ فإنّ دِين الله أن نعبده وحده لا شريك له، وهذا حقيقة قول: لا إله إلا الله، وبه بُعِثَتِ الرسلُ جميعها.

ومن عبادته وحده: أنْ لا نُشرك به، ولا نتكبَّر عن أمره، فلا بدَّ من الإيمان بجميع كُتُبه، وجميع رُسُله، وإلا لم يكن العبد مسلمًا له ولا مسلمًا وجهه له إذا امتنع عن الإيمان بشيءٍ من كُتُبه ورُسُله، وهذا هو الإسلام العامُّ الذي دخل فيه جميع الأنبياء والمرسلين وأممهم المتبعين غير المبدِّلين».

والشرائع السابقة ما وَافقتْ فيه شِرْعةَ الإسلام من العبادات، يجب إقامتها علىٰ الصفة المشروعة بما بُعث به خاتم النبيين محمد ﷺ، وما نُسخ من الشرائع السابقة من العبادات والأعمال فهذه لا يجوز التعبُّد لله بها؛ لأنَّها منسوخة.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٨، ٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الإسلام في كل مِلَّةٍ قد يكون بنوعٍ من الشرع والمناهج والوجه والمناسك، فلمَّا بَعث اللهُ محمدًا ﷺ وختمَ به الرسلَ كان الإسلام لله لا يتمُّ إلا بالدخول فيما جاء به من الشرع والمناهج والمناسك، وهو الإسلام الخالص، ولهذا قال النبي ﷺ «بُني الإسلام على خَمْسٍ..» الحديثَ.

فإنَّ الإسلام الذي في القلب لا يتمُّ إلا بعمل الجوارح، فكُنَّ مبانيَ له يَنْبَنِي عليها، فالمباني الظاهرة تَحمُل الإسلام الذي في القلب كما يحمل الجسدُ الروح، وكما تحملُ العُمُدُ السقفَ، والقبة الأركان، فالإسلام الذي هو دِين الله بُني بمبعثِ محمدٍ رسول الله ﷺ على هذه الأركان».

فالعابدون لله ﷻ بإخلاص الدين له، وعبدوه بما شرع، هم المُنعَم عليهم، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّه سبحانه قَسَّم الناسَ إلى ثلاثة أقسام: مُنعَم عليهم؛ وهم أهل الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم؛ وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه، وضالُّون؛ وهم الذين جهلوه فأخطأوه».

فعبادة الله بالمنسوخ من الشرائع وبالعبادات المبتدعة هو من مخالفة الصراط المستقيم إلى طريقة أصحاب الجحيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٩).

(٢) بدائع التفسير (١/ ١٧٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نهاهم عن الغلو في دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بِدَعًا غَيَّرُوا بها شَرْعَ المسيح، فضَلّوا من قَبْل هؤلاء الأتباع، وأَضَلّوا كثيرًا من هؤلاء الأتباع وغيرهم، وضَلّوا عن سواء السبيل».

وكان من كُفْرِ اليهود أنَّهم استعاضوا عن علمِ التوحيد والعدل الذي جاءتهم به رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام بـ: الشرك، والظلم، والجَوْر، وعلوم الضلالة كالسِّحْر وغيره، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

فالجِبْت: هو السِّحر. والطاغوت: هو الشِّرك، فالشركُ من علوم وأعمال أهل الكتاب.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «هم أهلُ الصَّوَامع والديارات»، رواه البخاري.

وقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هم كَفَرةُ أهلِ الكتاب، كان أوائلهم علىٰ حقٍّ، فأشركوا بربِّهم، وابتدعوا في دينهم، الذين يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنّهم علىٰ حق، ويجتهدون في الضَّلالة، ويَحْسَبون أنّهم علىٰ هُدًىٰ، فضَلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنّهم يُحسِنون صنعًا[(٢)].

---

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٢/ ٥٢٠).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٤٢٦).

وقد أخبرنا الله أنَّ النصارىٰ تَعبَّدوا لله بالبدع، فلمْ تَكُنْ أعمالُهم مقبولةً عند الله؛ لأنَّها علىٰ غير هُدًىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وكنائس النصارىٰ الآن مَلَأوها من الأصنام، فصارت عبادة أهل الكتاب بالشرك والبدع.

والله ﷻ خَلقَ عِباده علىٰ فطرة التوحيد وربَّىٰ خَلقَهُ بشرعة الإسلام علىٰ حنيفية التوحيد، ومَنِ انحرف عن الإسلام إلىٰ المنسوخ والمُحرَّف المُبدَّل من اليهودية والنصرانية لم يكن من المؤمنين الموحدين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة -وفي لفظ: علىٰ هذه الملة، وفي لفظ: علىٰ فطرة الإسلام- فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا -إنْ شئتم-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، متفق عليه.

وكفرُ النصارىٰ من أسبابه: اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقلتُ له: إنَّا لسنا نعبدهم، قال: «أليس

يُحرِّمون ما أَحَلَّ الله فتُحرِّمونه، ويُحِلُّون ما حرَّم الله فتُحِلُّونه؟»، فقلتُ: بلىٰ، قال: «فتلك عبادتهم»، رواه أحمد والترمذي وحَسَّنه.

وكُفْرُ اليهود هو بالاستكبار عن الانقياد لله ﷻ، وبتكذيب رسل الله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وحقائق الإسلام والإيمان مَن أتىٰ بها حُكِمَ له بها، ومَن عُدم الإسلام والإيمان فذلك هو الكافر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ جبريل جاء في صورةِ رَجُلٍ إلىٰ النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشره.

قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أنْ تعبدَ الله ولا تُشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إنِ استطعتَ إليه سبيلًا.

قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: أن تعبدَ الله كأنكَ تراه؛ فإنْ لمْ تكُنْ تراه فإنه يراك»، رواه البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إنّ كُفْرَ اليهود أصلُه من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يَعْلمون الحق ولا يتبعونه عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا.

وكفرُ النصارىٰ من جهة عملهم بلا علمٍ، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعةٍ من الله، ويقولون علىٰ الله ما لا يَعْلمون».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩).

اليهود كان فيهم عَنَتٌ مع أنبيائهم، خالفوهم وآذوهم وقتلوهم، وحرّفوا كلام الله ووَحْيَهُ، قال تعالىٰ في وصفهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

وبسبب عَنتِ اليهود عن طاعة الله ﷻ واتباع رُسُله عاقبهم الله بتحريم بعض الطَّيِّبات عليهم، قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٠]، ثم بعث الله إليهم المسيح عيسىٰ ابن مريم بالإنجيل فيه تخفيفٌ لهم ورحمةٌ من الأحكام التي كانت مُغلَّظةً عليهم في التوراة، فكذَّبوه وَسَعَوْا في قتلِه.

فكفار اليهود أعداءُ أنفسهم، حَرَموا أنفسهم رحمة الله، وسعادة الدنيا والآخرة بالاستكبار عن إتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد جاء المسيح بحُكم التوراة، ولم يأتِ بشريعة تخالفها، ولم يُقاتِلْهُمْ، وإنّما أتىٰ بتحليل بعض ما حُرِّم عليهم تخفيفًا ورحمةً وإحسانًا، وجاء مكمِّلًا لشريعة التوراة، ومع هذا فاختاروا كلُّهم الكفر علىٰ الإيمان».

ومن أسباب كفر اليهود والنصارىٰ: إيثارهم للكفر تقليدًا للآباء والأجداد علىٰ توحيد الله ﷻ وعبوديته بما شرع.

ومن أسباب كفر اليهود والنصارىٰ: إيثارهم العجز والكسل وما أَلِفُوه من الراحة والانهماك في متاع الدنيا علىٰ عبودية الله وطاعته.

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٤٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «منهم مَن حَمله محبة الآباء والأسلاف وحُسْن الظن بهم، ومنهم مَن حمله أُلْفَةُ الدِّين الذي نشأ عليه وجُبِل بطبعه فصار انتقاله عنه كمفارقة الإنسان ما طُبع عليه.

وأنتَ ترىٰ هذا السبب كيف هو الغالب المستولي علىٰ أكثر بني آدم في إيثارهم ما اعتادوه من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والديانات علىٰ ما هو خير منه وأَوْفَقُ بكثير، ومنهم مَن حمله التقليد والجهل، وهم الأتباع الذين ليس لهم علمٌ».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «اليهود والنصارىٰ لمَّا تَطاوَل عليهم الأمد بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلًا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا علىٰ الآراء المختلفة والأقوال المُؤْتَفكة، وقلَّدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله».

وأهل الكتاب بعد بعثة محمد ﷺ مَن أسلم منهم ضُوعِفت حسناته؛ لإيمانه بنبيه وبخاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٢٧٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨١).

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: موحِّدين».

ومَن امتنع من أهل الكتاب من الإيمان بمحمد ﷺ فذلك كافر بالله الذي أرسله وكافر بالرُّسل الذين بَشَّروا به، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، رواه مسلم.

وأسباب الكفر مَن أتىٰ بها حُكم له بمقتضاها، فمَنِ انتسبَ إلىٰ الإسلام ولم يُقِم أركانه ولم يأتِ بشرائعه فلا حَظَّ له في الإسلام، ومَنِ انتسب إلىٰ الإسلام وعَبَد الله بلا اتباعٍ لمحمد ﷺ فلا حظَّ له في الإسلام، فحقيقة الإسلام تحقيقُ الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله.

قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «نفىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون ثوابه وجنته بالأماني الكاذبة والدعاوي الباطلة كما زعمته اليهود في قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

---

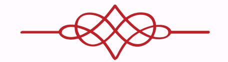
(١) تفسير القرآن (٤/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٦٣٣).

فلما أوضح لعباده خيبة الأماني الكاذبة أَعْلَمَهُم أنَّ الجزاء معقود بالأعمال لا بالأماني والآمال».

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلا مَن أَبَىٰ!» قيل: ومَن يَأْبَىٰ يا رسول الله؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنَّة، ومَن عصاني فقد أبىٰ»، رواه البخاري.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «مَن أَبَىٰ الطَّاعة يَأْبَىٰ دخول الجنَّة».



(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٧/ ٣١٠).

قـال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

وقد تنازع الناس فيمَن تقدَّم من أُمَّة موسىٰ وعيسىٰ هل هم مسلمون أم لا؟ وهو نزاعٌ لفظي.

فإنَّ الإسلام الخاص الذي بَعث اللهُ به محمدًا ﷺ، المتضمن لشريعة القرآن، ليس عليه إلا أُمَّة محمد ﷺ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا، وأمَّا الإسلام العام المتناوِل لكل شريعة بعثَ اللهُ بها نبيًّا من الأنبياء، فإنه يتناول إسلام كلِّ أُمَّةٍ مُتّبعة لنبي من الأنبياء[1].



الشَّرح

الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهو حنيفية التوحيد مِلَّة إبراهيم.

قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]: «قوله: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ [آل عمران: ٦٧]، نفيٌ أنْ يكون علىٰ ما اختص به شَرْع التوراة والإنجيل، وليس علىٰ مِلَّة إبراهيم، بل مِلَّةُ إبراهيم أن يعبد الله وحده بما أَمَر، ومحمدٌ أُمر بملة إبراهيم، وأُمر بها أن يعبد الله وحده، ورُفع به الآصار والأغلال التي كانت علىٰ أهل الكتاب

(١) التدمرية (ص١٧٣، ١٧٤).
(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٨٣).

ولم تكن مشروعة لإبراهيم، فكان الشرع الذي بُعث به أَوْلَىٰ بإبراهيم.

وأمَّا اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المُبَدَّل -وهي التي عليها اليهود والنصارىٰ الذين كذَّبوا محمدًا-، فهذه ليست دِينَ أحدٍ من الأنبياء، لا موسىٰ ولا عيسىٰ ولا غيرهما».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يخبر تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الدِّين الذي لا دين له سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾، وهو الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شَرَعه علىٰ ألسنة رُسُله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فمَن دَانَ بغير دين الإسلام، فهو لم يَدِنْ لله حقيقةً؛ لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه علىٰ ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالىٰ، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ وإنما اختلفوا، فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حقَّ المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله هي التي صَدَّتهم عن اتباع الحق.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: فلينتظروا ذلك فإنه آتٍ، وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

لمَّا بيَّن أنَّ الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحُجَّة فعاندوها، أَمَره الله تعالىٰ عند ذلك أن يقولَ ويُعْلِنَ: أنه أسلم وجهه، أي: ظاهِرَه وباطِنَه لله، وأنَّ مَنِ اتَّبعه كذلك، قد وافقوه علىٰ هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب والأُمِّيِّين، أي: الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إنْ أسلمتم فأنتم علىٰ الطريق المستقيم والهدىٰ والحق؛ وإنْ تَوَلَّيتم فحسابكم علىٰ الله، وأنا ليس عليَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمتُ عليكم الحُجَّة».

آدم عليه الصلاة والسلام سيد البشر وأبوهم، وكان نبيًّا، آمن به بنوه عشرة قرون، وكانوا علىٰ التوحيد حتىٰ وقع الشرك في قوم نوح، وبعث الله ﷻ نوحًا إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ التوحيد ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاوتون في كثرة أتباعهم، فمنهم مَن لم يؤمن به أحدٌ من قومه، ومنهم مَن آمن به كلُّ قومه كيونس عليه السلام. قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «من فضائل النبي كثرة أتباعه».

وأكثر الرسل أقوامهم منهم المؤمن ومنهم الكافر، وأتباع موسىٰ عليه السلام علىٰ التوحيد كثيرون، وخاتم النبيين محمد ﷺ أكثر الأنبياء أتباعًا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عليّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرَّجُل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننتُ أنَّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه، فنظرتُ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أُمَّتُك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب»، رواه البخاري ومسلم.

فالمهتدون من ذرية آدم ونوح وإبراهيم هُمْ مَن آمن بالله وعَبَده بما شرع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]: «إبراهيم -صلوات الله وسلامه عليه- هو الذي جَعَله اللهُ إمامًا لمَن بعده من الناس، فلا يُوجد قطُّ مؤمن ولا منافق يُظهِر الإيمان إلا وهو مُعظِّمٌ لإبراهيم، وإن كان فيهم مَن يُكذِّبُ بكثيرٍ ممَّا كان عليه إبراهيم.

وقد جَعَل الله في ذريَّته النبوَّة والكتاب، فالأنبياء بعدَه من ذريَّته، فلا يُوجَد مَن يؤمن بالأنبياء إلَّا وهو مؤمن بإبراهيم، ولا مَن يدعو إلىٰ عبادة الله في الجملة وينهىٰ عن الشرك إلَّا وهو مُعظِّمٌ لإبراهيم، وإن كان فيهم مَن هو مكذِّبٌ بكثير ممَّا كان عليه إبراهيم، ومكذِّبٌ ببعض الأنبياء والرسل، فإبراهيم بريءٌ منه، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] ».

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٧).

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وما من نبيٍّ بُعث بعده إلا وهو من ذريته، ومنهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، قال الله تعالىٰ عن الخليل إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وأبقىٰ الله التوحيد دِينًا فيمَن اصطفاهم الله ﷻ من ذريته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

فمَن آمَن بإبراهيم واتبّع مِلَّته التي جدَّدها ابنه محمد ﷺ فهو من عباد الله المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فالحنفاء الموحدون هم الذين آمنوا بالله وعبدوه وحده، وأدوا التكاليف التي أمرهم الله بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «القرآن كلُّه يدل علىٰ أنَّ الحنيفيَّة هي ملَّةُ إبراهيم، وأنَّها عبادة الله وحده، والبراءة من الشرك.

وعبادته سبحانه إنَّما تكون بما أمَرَ به وشَرَعه، وذلك يدخل في الحنيفية، ولا يدخل فيها ما ابتُدِعَ من العبادات، كما ابتدع اليهود والنصارىٰ عبادات لم يَأمر بها الأنبياء؛ فإنّ موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل ومَن اتبعهم كانوا حُنَفاء، بخلاف مَن بَدَّلَ دينهم فإنّه خارج عن الحنيفية».

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٠).

مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧]، إن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم علىٰ ملَّة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمانٍ مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم ومِلَّته في شيء، وإنّما هم في شِقاقٍ وعداوة؛ فإنّ ملَّة إبراهيم: الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يُفرَّق بين أحدٍ منهم، فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعض، فمَن لمْ يأتِ بمثل هذا الإيمان فهو بريءٌ من ملَّة إبراهيم، مُشاقٌّ لمَن هو علىٰ ملَّته».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦، ٢٧].

وعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان آخر أنبياء بني إسرائيل، وهو آخر رُسُل الله إلىٰ الأرض قبل محمد ﷺ، وكان من نعمة الله عليه أن جعل له أتباعًا من الحَوَارِيِّين آمنوا به ونصروه، وكانوا دعاةً إلىٰ توحيد الله.

قال تعالىٰ في عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣١، ١٣٢).

بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١٠، ١١١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من جملة نِعم الله علىٰ عَبْدِه ورسوله عيسىٰ ابن مريم، أنْ جعلَ له أنصارًا وأعوانًا وحَوَارِيِّين ينصرونه ويَدْعون معه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له».

فالمسيح عيسىٰ ابن مريم آمَن به طائفة ممَّن تَبِعوه علىٰ الإنجيل قبل التحريف، وكَفَر به أكثر بني إسرائيل.

قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «دعا عيسىٰ بني إسرائيل وغيرهم إلىٰ الله تعالىٰ، منهم مَن آمَن ومنهم مَن كَفَر، فكان ممَّن آمَن به أهل أنطاكية بكمالهم».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كَفَر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود، فأيَّدَ الله مَن آمن به علىٰ مَن كَفَر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فكلُّ مَن كان إليه أقرب، كان غالبًا لمَن دونه».

(١) البداية والنهاية (٢/ ٤٨٥).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٤٨٩، ٤٩٠).
(٣) البداية والنهاية (٢/ ٤٩٠).

اندرس علمُ النبوة بعد رَفْعِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتحرَّفت التوراة والإنجيل، وتحرّفت حنيفية التوحيد ملة إبراهيم، وفشا في الناس الشرك، ولمْ يبقَ من الخَلق علىٰ التوحيد إلا نفرٌ قليل.

قال النبي ﷺ: «إنَّ الله نَظَر إلىٰ أهل الأرض، فمَقَتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»، رواه مسلم من حديث عياض المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان زيد بن عمرو بن نفيل العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمكة بفطرته استنكر عبادة قومه لأصنامٍ لا تنفع ولا تضر، وأيقنَ أنَّ قومه أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه، فخرج إلىٰ الشام، يطلب في أهل الكتاب دين إبراهيم، ويسأل عنه، حتىٰ أتىٰ راهبًا ببيعةٍ من أرض البلقاء، كان ينتهي إليه علم النَّصْرَانِيَّة -فيما يزعمون-، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال له الرَّاهبُ: إنَّك لتسأل عن دِينٍ ما أنتَ بواجِدٍ مَن يَحْمِلُك عليه اليوم، لقد دَرَس من علمِه وذَهَب مَن كان يعرفه، ولكنَّه قد أظَلَّك خروجُ نبيٍّ، وهذا زمانه.

تحرَّفت التوراة والإنجيل، وحرَّف المشركون في جزيرة العرب ملَّة إبراهيم فصار الناس في ضرورة إلىٰ مَن يُجدِّد مِلَّة إبراهيم فبعث الله محمدًا ﷺ هاديًا وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهدىٰ الله به الحُنفاء من خَلقِه إلىٰ صراطٍ مستقيم.

كان النبي يُبعث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعث محمد ﷺ إلىٰ الناس كافَّة، ومعجزته القرآن باقية إلىٰ يوم القيامة يهتدي بها الناس، فلذلك هو أكثر الأنبياء تابعًا.

ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما من نبيٍّ من الأنبياء، إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمَن علىٰ مثلِه البشر، وإنَّما كان الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

فهذا القرآن من دلائل نبوة محمد ﷺ، واتِّباعه بتصديق أخباره والانقياد لأمره ونهيه هو حقيقة الإسلام، واتِّباع القرآن سببٌ لهداية الخَلق وسعادتهم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وفضائل الأمم تَبَعٌ لفضائل اتِّباعهم لأنبيائهم، وأمَّة محمد ﷺ هي خير الأمم، وأمَّته هي كلُّ مَن آمَن به واتَّبعه.

قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفضل من موسىٰ، وإنَّ محمدًا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأُمَّةُ أفضل من سائر الأمم قبلها، وأكثر عددًا، وأفضل علمًا، وأزكىٰ عملًا من بني إسرائيل وغيرهم».



(١) البداية والنهاية (٢/ ٤٢٤، ٤٢٥).

قال المصنف رحمه الله:

ورأسُ الإسلام مطلقًا شهادة أن لا إله إلا الله، وبها بَعَث الله جميع الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وقال تعالىٰ عن الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقال تعالىٰ عنه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وذكر عن رُسُلِهِ: كنوحٍ وهودٍ وصالحٍ وغيرهم أنهم قالوا لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ذكر ذلك في موضعين من كتابه[١].

---

(١) التدمرية (ص١٧٤، ١٧٥).

الشَّـرْح

النبيون جميعًا عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده بما شرع، ونهوا عن الشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُبيِّنًا حقيقة دعوة المرسلين[١]: «كلُّ أمَّة بَعَث الله إليها رسولًا -من نوحٍ إلىٰ محمد- يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدَّليل: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وافترض الله علىٰ جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله».

خَلَق الله الخَلق لعبادته وحده لا شريك له، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ٣٦]، فالله ﷻ ما أرسل الرسل، ولا أنزل الكتب، ولا أقام سوق الجهاد إلا من أجل توحيده وعبادته وحده لا شريك له.

عبادة الله وحده هو حقُّ الله علىٰ عباده، عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «حقُّ الله علىٰ العِباد: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وحقُّ العِباد علىٰ الله: أن لا يُعذِّبَ مَن لا يُشرك به شيئًا»، رواه البخاري ومسلم.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣١، ٣٢).

فمَن عَبَد الله وحده فذلك المسلم، فتوحيد الله هو عبوديته؛ بإقامة أركان الإسلام وشعائره وشرائعه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «حقيقة الدِّين كله هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهو صراط الله المستقيم ممَّا ارتضاه الله لخَلقِه من الاعتقادات والأقوال والأفعال».

والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ بعبوديته واتباع صراطه المستقيم، هو العلم النافع والعمل الصالح، وهو حقيقة الدِّين كله، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ الهدىٰ هو العلم بالله ودِينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح».

وتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ لا يكون إلا بعبادته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فالحنيفية هي توحيد الله وعبادته بما شَرَع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنَّ العبادة هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له التي خَلقَ الخَلق لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٠).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤١٤).
(٣) العبودية (ص٤٤، ٤٥).

وبها أرسلَ جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب وغيرهم لقومهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: «﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦] أمرٌ بعبادة الله وحده، ونهيٌ عن كل أنواع الشرك صغيره وكبيره، فإنَّ قوله: ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، فلا تُشركوا به شيئًا، لا دقيق الشرك وخَفِيّه، ولا جليله، وهو عامٌّ للنهي عن الشرك في القصد والإرادات والعمل.

أمَّا الشرك الأكبر فهو ما ضادَّ أَصْل التوحيد، والأصغر هو ما ضادَّ كمالَهُ.

والشرك أكبر الكبائر؛ لأنَّه أعظم الأمور منافاة لمقصود الخَلق، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فلمَّا كان الشركُ أكبرَ شيءٍ منافاة للأمر الذي خلقَ الله له الخَلق وأَمَر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله».

والشرك لا يغفره الله؛ لأنَّه عدولٌ عن حقِّ الله الخالص إلىٰ مخلوقٍ ناقِصٍ لا يستحقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، فالشرك أعظم الظلم؛ لأنَّه صرفٌ لحق الله الخالص لغيره.

(١) الجواب الكافي (ص٣٢٩).

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه أقبحُ القبيح، وأظلم الظُّلم؛ إذ مضمونه تنقيصُ رب العالمين، وصرفُ خالِصِ حقِّه لغيره، وعَدْلُ غيره به، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

ولأنَّه مناقِضٌ للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعانَدة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذُّلِّ له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالَم إلا بذلك، فمتىٰ خَلَا منه خَرِبَ وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتىٰ لا يُقال في الأرض: الله، الله» رواه مسلم.

ولأنَّ الشرك تشبيهٌ للمخلوق بالخالق -تعالىٰ وتقدَّس- في خصائص الإلهية، من مُلك الضُّر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلُّق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده».

فالواجب علىٰ الحُنفاء: تحقيق التوحيد، وتعاهُد توحيدهم بأسباب حفظه وتنميته، وتجريد توحيدهم من شوائب الشرك، وتخليص نفوسهم من أهواء النفوس المذمومة، وقَصْد الله وحده، وتنمية العلم بأسماء الله وصفاته والتألُّه لله بحقائقها.

فالواجب علىٰ الخَلق جميعًا: عبودية الله وحده لا شريك له، والتوجه إليه وحده، فيخضع المسلم لله وحده، ويعبده وحده بأنواع العبادات، ويقصده وحده بالعمل، ويعبده بما شرع، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده، فلا يُصَلِّي إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يحج إلا بيت الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يخاف إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله، وفي الصحيحين عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمَن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»، وفي السُّنن: «مَن حلف بغير الله فقد أشرك»، وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأنْ أحلفَ بالله كاذبًا أَحَبّ إليَّ من أن أحلفَ بغيره صادقًا»؛ لأنَّ الحلف بغير الله شركٌ، والحلف بالله توحيد».



(١) مجموع الفتاوى (١/ ٨٠، ٨١).

قال المصنف رحمه الله:

وقد بيَّن في كتابه الشرك بالملائكة، والشرك بالأنبياء، والشرك بالكواكب، والشرك بالأصنام -وأصل الشرك: الشرك بالشيطان- فقال عن النصارىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، فبيَّنَ أنَّ اتخاذَ الملائكةِ والنبيين أربابًا كفرٌ[(١)].

الشَّرح

هذه القطعة من العقيدة ذَكَر فيها شيخ الإسلام أنواع الشرك، كالشرك بالكواكب والأصنام والملائكة والأنبياء والصالحين.

وذكَر شيخ الإسلام أَصْلَ الشرك وأساسه ومبدأه، فقال: «أَصْل الشرك: الشرك بالشيطان».

(١) التدمرية (ص١٧٥، ١٧٦).

وما قاله شيخ الإسلام يدلُّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّما كانت عبادتهم الشيطان، أنّهم أطاعوه في دينهم».

والشرك أنواعه ترجع إلىٰ صرفِ شيءٍ من العبادات لغير الله، فالعبادة حقُّ الله الخالص لا يجوز صرفها لغير الله. قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

والشرك يرجع إلىٰ نسبة وإضافة أفعال الله إلىٰ المخلوقين، كما أنّ الشرك يكون بتشبيه المخلوق بالخالق.

فالشرك من أنواعه تسوية المخلوق برب العالمين في المحبة والتألُّه والتعظيم، ولذلك يقول المشركون لمعبوديهم يوم القيامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

ومن الشرك: تعظيم المخلوق كتعظيم الله، أو تعظيم المخلوق بما يختصُّ الله به، فهذا شركٌ، كالحلف بغير الله؛ فإنه لا يجوز توكيد المَحْلُوف عليه بذِكر مُعَظَّمٍ غير الله، عن الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلفَ بغير الله فقد كفرَ، أو أشركَ»، رواه الترمذي وحَسَّنه، وصحَّحه الحاكم.

فالعبادة بأنواعها لله وحده، يجب أن تُؤدَّىٰ خالصةً لله كما شرع، قال تعالىٰ:

(١) تفسير شيخ الإسلام (٥/ ٣٣١).

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدِّين كله لله، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده إلىٰ بيت الله وحده».

فمَن صَرفَ شيئًا من العبادات لغير الله فقد أشرك، فالذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والسجود لغير الله كله من الشرك.

ومَن استكبر عن عبادة الله كان من الكافرين، فحقيقة التوحيد الخضوع والعبودية لله وحده لا شريك له.

ومن أنواع الشرك التي ذَكَرها هنا شيخ الإسلام وحذَّر منها: طاعة الأحبار والرهبان في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله، قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كانت تلك الطَّاعة عبادةً لهم وشركًا بالله».

وهذا النوع من الشرك هو الذي أفسد به عَمْرو بن لُحَيّ الخُزاعِي ملَّة إبراهيم في جزيرة العرب.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٥٦).
(٢) الأخنائية (ص٣٨١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ العرب قبله -عمرو بن لحي- كانوا علىٰ مِلَّة أبيهم إبراهيم، علىٰ شريعة التوحيد والحنيفية السمحة دين أبيهم إبراهيم.

فتَشَبَّه عمرو بن لحي -وكان عظيم أهل مكة يومئذٍ؛ لأنّ خُزاعة كانوا وُلاة البيت قبل قريش، وكان سائر العرب متشبِّهين بأهل مكة؛ لأنّ فيها بيت الله، وإليها الحج، ما زالوا مُعظّمين من زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، فتَشَبَّه عمرو بمَن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، ورأىٰ أنّ في تحريم ما حرّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام تعظيمًا لله ودينًا، فكان ما فَعَله أَصْل الشرك في العرب، أهل دين إبراهيم، وأَصْل تحريم الحلال».

فالواجب: توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ في أفعاله؛ فإنّ التحليل والتحريم أحكامه إلىٰ الله، لا يجوز لمخلوقٍ أنْ يُضاهِي الله في أحكامه، فإنّ ذلك من الشرك.

وحذَّر شيخ الإسلام هنا من الشرك بالكواكب، وهو شركُ قومِ إبراهيم وصابئة حرَّان، فالمشركون كانوا يعبدون الكواكب، وجعلوا لها تماثيل في الأرض، جعلوها بيوتًا للعبادة يسمُّونها الهياكل، فكانت عبادتهم للأصنام وتعظيمهم لها تعظيمًا منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام علىٰ صورها.

وكان أولئك الصابئة يعتقدون أنَّ روحانيَّة الكوكب تتنزَّل عليهم في الهياكل، فتخاطبهم وتقضي حوائجهم، وتلك الشَّياطين تنزَّلت عليهم، وخاطبتهم، وقضت حوائجهم[(٢)].

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٥١).
(٢) مفتاح دار السَّعادة (٣/ ١٣٦٤، ١٣٦٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أقوىٰ السَّببين في الشِّرك الواقع في العالم، وهو الشِّرك بالنُّجوم وتعظيمها، واعتقاد أنّها أحياء ناطقة، ولها روحانيَّات تتنزَّل علىٰ عابديها ومخاطبيها».

حذَّر شيخ الإسلام هنا من الشرك بالملائكة والأنبياء؛ فإنَّه مَهْمَا عَظُمَتْ رتبة المخلوق فإنَّه مربوبٌ لله، فمَن صَرَف إليه شيئًا من حقوق الله، أو نَسَب إليه شيئًا من أفعاله، أو جَعَله في رتبة ربِّ العالمين، فقد جَعَله نِدًّا لله وأشرك بالله.

قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «مَن جَعَل لله نِدًّا من خَلقِه فيما يستحقه عَجَلَّ من الإلهية والربوبيَّة، فقد كفرَ بإجماع الأمَّة».

والنبي ﷺ هو سيِّدُ ولدِ آدم، وأفضل الخَلق عند الله، وكان يُحذِّر من الغلو فيه، وكان ينهىٰ عن الاستغاثة به، ويُوجِّه الناس إلىٰ الاستغاثة بالله رب العالمين؛ فإنَّه قال: «إنَّه لا يُستغاث بي، وإنّما يُستغاث بالله»، رواه الطبراني[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

(١) مفتاح دار السَّعادة (٣/ ١٣٨٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٨).

(٣) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسنُ الحديثِ»، مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الاستغاثة هي طلبُ كشفِ الشدَّة، فكلُّ مَن دعا ميتًا، أو غائبًا من الأنبياء، أو الصالحين، أو دعا الملائكة، أو دعا الجن، فقد دعا مَن لا يُغِيثُه، فلا يملك كَشْفَ الضر عنه ولا تحويله».

فالمخلوق مَهْمَا كان من الصالحين، سواءٌ كان من الملائكة، أو الأنبياء، أو الأولياء فلا يجوز دعاءَهُ، ولا الاستغاثة به فيما لا يغيث؛ فإنَّ هذا شركٌ عظيم.

قال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «العبادة حقُّ الله وحده، وهو الذي يُدعىٰ ويُرجىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فسمّاهم كفرة بدعوتهم غير الله من الجن والملائكة وأصحاب القبور والكواكب، أو الأصنام.

كلُّ هؤلاء دعوتهم مع الله شركٌ أكبر، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، يعني: المشركين».

فدعاءُ غيرِ الله شركٌ، واتخاذ الشفعاء في دعاء الله شركٌ، وهو الذي أنكره الله علىٰ كفَّار الجاهلية، فعاد المعاصرون إلىٰ شركِ أولئك، بل إلىٰ شرٍّ من ذلك؛ فإنَّ المشركين الأوَّلين كان شركهم في دعاء الله باتِّخاذ الشَّفاعة الشِّركية في السرَّاء وفي الضرَّاء، يَدْعُون الله وحده من غير الوسائط الشركية، والمعاصرون المشركون باتِّخاذ الوسائط في دعاء الله شركُهم في السرَّاء والضرَّاء.

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٤٨).
(٢) الفتاوىٰ البازية (٦/ ٤١٨).

فالمسلم الموحِّد يلجأ إلىٰ ربه دائمًا في أحواله كلِّها في السرَّاء والضرَّاء، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وأمَّا المشركون فيلجؤون إلىٰ القبور، ويَدْعُون المخلوقين المَوْتَىٰ، ويستغيثون بهم، ويسألونهم -والغائبين من الأحياء- ما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أين التوحيد للخالق؛ بالرغبة والرهبة إليه، والرجاء له والتوكل عليه، والحب له، من الإشراك به؛ بالرغبة إلىٰ المخلوق، والرجاء له، والتوكُّل عليه؟».

وشرَحَ شيخ الإسلام ابن تيمية هنا الشرك الذي أنكره الله ﷻ علىٰ الكفار في الجاهلية، لِيَحْذَرَ المسلمون من الوقوع في نظيره؛ فإنَّ المشركين في الجاهلية اتخذوا الموتىٰ وسائط في دعاء الله، فمَن فَعَل فِعلهم كان مشركًا مثلهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ المشركين لمْ يَكُنْ أحدٌ منهم يقول: إنَّ العالَم له خالقان، ولا أنَّ الله له شريك يساويه في صفاته، هذا لمْ يَقُلْهُ أحدٌ من المشركين، بل كانوا يُقِرُّون بأنَّ خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقوله

---

(١) التوسل والوسيلة (ص١٢١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٥٨).

تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وكانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيكَ لا شريكَ لكَ، إلا شريكًا هو لكَ تملكه وما مَلكَ)، فقال تعالىٰ لهم: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [الروم: ٢٨]، وكانوا يتخذون آلهتهم وسائط تُقرِّبهم إلىٰ الله زُلْفَىٰ، وتشفع لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] ».

وطلبُ الحاجات ممَّن لا يملك ذلك من جلبِ المنفعة ودفعِ المضرة، هو من الشرك الأكبر، فدعاء غير الله أو اتخاذ المخلوق واسطةً في دعاء الله هو من الشرك الأكبر.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إذا كان ﷺ نهىٰ عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور، لئلَّا يُفضِي ذلك إلىٰ نوعٍ من الشرك بربهم، فكيف إذا وُجد ما هو نوعٌ من الشرك من الرغبة إليهم، سواءٌ طُلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو طُلِب منهم أن يطلبوا ذلك من الله تعالىٰ».

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٠٤).

وكان النبي ﷺ يُعلِّم الناسَ التوحيد، وممَّا علَّمه أصحابه قوله لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله»، رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حَسَنٌ صحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «فهو الذي يُتوكَّل عليه، ويُستعان به، ويُستغاث به، ويُخاف ويُرجىٰ، ويُعبد، وتُنِيب القلوب إليه، لا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ منه إلا إليه».

ولا رَيْبَ أنَّ دعاء غير الله شركٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فالدعاء عبادة لا يجوز صَرْفُه لغير الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فسمَّىٰ الله الدعاء عبادة، وكذلك قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والدُّعاء من أخصِّ أنواع العبودية لله، حيث يَتوجَّه قلبُ الداعي إلىٰ الله قصدًا ورغبةً ورهبةً، متضرِّعًا إليه، خاشعًا له وحده لا شريك له، فهذه العبادة العظيمة من أخصِّ مقامات العبودية لله، فلا بُدَّ من تجريدها لله وحده لا شريك له.

وتحقيق العبوديَّة لله، وتجريد التَّوحيد له، وإخلاص الدُّعاء له، هو من أسباب استجابة الدُّعاء، فمتىٰ استجاب العبد لله، استجاب الله دعاءه، قال بعض التابعين رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أطعتم الله ما عصاكم»(٢).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٦٧).
(٢) فتح الباري (١/ ٢١).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: ما منعكم شيئًا تطلبونه منه»(١).

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فاستجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد والعمل الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «ولهذا قيل: إجابة الدُّعَاء تكون عن صحة الاعتقاد وعن كمال الطاعة؛ لأنَّه عَقَّبَ آية الدُّعَاء بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]».

دعاءُ غيرِ الله تضمَّن أنواعًا من الشرك: منها: الشرك في العبودية، قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «لا رَيْبَ أنَّ الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك، كتوجُّه الوجه والقلب واللسان للمدعو تذلُّلًا له وخضوعًا واستكانةً ورغبةً، وهذا هو العبادة؛ لأنَّ أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع والتذلُّل للمعبود.

ولا بُدَّ مع ذلك من المحبة، وأنت ترىٰ ما يفعله المشركون من إقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلُّل وإسلام الوجه والقلب والجوارح بسُؤَالِ صاحِبِ القبر ما لا يُوجد مثله في المساجد.

وهذا لا يخفىٰ علىٰ مَن عَرفَ حال هؤلاء المشركين مع مَن كانوا يقصدون

---

(١) فتح الباري (١/ ٢١).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٢١).
(٣) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٧٣).

لإغاثة لَهَفَاتِهم وتفريج كُرباتهم، فيقع منهم من الشرك بالله ما يَجِلُّ عن الوصف، فعبدوا غير الله بالقول والاعتقاد، وأقبلوا عليه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم».

ودعاءُ غيرِ الله فيه شركٌ في الربوبية في سؤال المخلوقين ما لا يَقْدِر عليه إلا الله، وفيه شركٌ في أسماء الله وصفاته حيث جَعَل المشركون المخلوقين كرَبِّ العالمين في سمعه الدعاء وإجابته، فهم مُشَبِّهون اللهَ بخَلقِه في خصائص ربوبيته.

قال العَلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا رَيْبَ أنَّ هذا الدعاء يقتضي إثباتَ قدرةٍ عامَّة، وعِلمٍ عامٍّ، وسمعٍ مُحيطٍ، لاسيَّما إن كان مَن يدعو الصالحين ويسألهم جَعَل ذلك دَيْدَنَه في كل مكان، وإنْ بَعُدت الديار وتَناءت الأقطار. وإنْ زَعَم أنّه لَمْ يثبت قدرةً ولا علمًا ولا سمعًا عامًّا محيطًا لا يليق بالمخلوق، فهو مكابِرٌ مَلْبُوسٌ عليه، ثم في ذلك من الخضوع والذلِّ والمحبة والإنابة ما هو من خالص العبادة وَلُبِّها، فكيف جاز صَرْفُه لغير الله؟!».

ومن أنواع الشرك: التبرك بالشجر والحجر وبالجمادات، يدلُّ لذلك حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدثاء عَهْدٍ بكُفرٍ، وللمشركين سِدْرَة يَعْكُفون عندها، ويَنُوطون بها أسلحتهم، يُقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرةٍ، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنّها السَّنَنُ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم»، رواه الترمذي وصحَّحه.

---

(١) مصباح الظلام في الردِّ على من كذب على الشيخ الإمام (ص٣١٥).

قال العَلَّامة أبو بكر محمد الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٢٠هـ) [(١)]: «انظروا - رحمكم الله- أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظِّمون من شأنها، ويَرجون البُرْءَ والشفاء من قِبَلِها، وينوطون بها المسامير والخِرَق، فهي ذاتُ أنواطٍ فاقطعوها».

فمَن أراد البركة فليطلبها من الله، فهو المتبارك، والبركة كلها منه خَلْقًا وإمدادًا وإحسانًا، قال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ [(٢)]: «إنّ الخير كله بيده، وكل الخير منه».

ومن أنواع الشِّرك في الأسباب والمؤثرات: شركُ التنجيم من اعتقاد تأثير الأحوال العلويَّة علىٰ الحوادث الأرضيَّة، من ذلك: اعتقاد أنَّ مواقع النُّجوم والكواكب ومنازلها سببٌ أو مُؤَثِّرٌ في الخير والشَّرِّ الذي يصيب الأرض وسُكَّانها، وهذا لا حقيقة له، فالله ﷻ وحده الذي يُقدِّر المقادير ويخلق الحوادث، لا أثر للنُّجوم والكواكب وهيئاتها ودورانها وحركاتها في ذلك.

واعتقاد تأثير النُّجوم هو شركُ الصَّابئة الذي أبطله سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وشركُ التنجيم من أنواعه: الكهانة بالنظر في النجوم في ادِّعاء علمِ الغيب، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فالاستدلال بمواقع النجوم علىٰ الحوادث الأرضية هذا من الشرك، وليس شيء من ذلك له تأثير في الحوادث الأرضية؛ فإنَّ الله وحده هو الذي يُقدِّر المقادير.

---

(١) الحوادث والبدع (ص١٠٥).

(٢) جلاء الأفهام (ص٤٣٣).

وقد كُسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، فتحدَّث الناس أنَّ الشمس كُسفت لموت إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلىٰ الصلاة»، متفق عليه.

ومن الشرك بالله: اتخاذ ما لم يجعله الله سببًا شرعًا ولا قَدَرًا سببًا، وهذا النوع من الشرك فاشٍ في المسلمين إلا مَن هدىٰ الله وعصمه.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن تَعلَّق تميمةً فقد أشرك»، رواه أحمد.

فلُبْسُ التميمة أو الحلقة أو الخيط لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا في دفعِ البلاء، أو رَفْعه، فالله وحده هو الذي ينفع ويضر.

فالنبي ﷺ أبطلَ اعتقادات الجاهلية الباطلة، وحذَّر من الضلال عن حقيقة التوحيد، فالشرع والقدر لله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالنبي ﷺ نفىٰ ما لا حقيقة له من الأسباب.

ومن الشرك: إضافة أفعال الله المختصة به للمخلوقين؛ فإنَّ هذا شركٌ في الربوبية، كنسبة أفعال الله إلىٰ النجوم والأنواء والكواكب، قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه أنه قال: «أصبح من عبادي مؤمِنٌ بي وكافر، فأمَّا مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافِرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»، متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمن الكفر بالله وبنعمه: نسبة أفعاله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

ومن التألُّه لغير الله: اتِّباع الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومَن تألَّه لهواه في أمره كله وفيما يأتيه ويَذَره، فهو مشركٌ شركًا أكبر، ومَن تألَّه لله وحده لا شريك له، وله هوىٰ في بعض الذنوب والمعاصي غير المُكَفِّرة، فهو من عصاة الموحدين.

وواجب المسلم: التألُّه لله وحده محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا ورغبةً ورهبةً، ومَن وافق ربَّهُ فيما يُحبُّهُ وما يكرهه، كان الله ﷻ ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما[(١)].

والشرك يكون في الربوبية وفي الألوهية وفي أسماء الله وصفاته، هذه أضداد أنواع التوحيد.

فأنواع الشرك ترجع إلىٰ التألُّه لغير الله، وصَرْف شيء من العبادات لغير الله، أو نسبة أفعال الله لغيره، أو تشبيه المخلوق بالخالق في صفاته، أو في تعظيمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ الشرك نوعان:

شركٌ في ربوبيته: بأنْ يُجعل لغيره معه تدبيرًا ما، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟

(١) العبودية لشيخ الإسلام (ص٧٣).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فبيّن سبحانه أنّهم لا يملكون ذرَّةً استقلالًا، ولا يشركونه في شيء من ذلك، ولا يُعِينونه علىٰ مُلكِه، ومَن لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عَوْنًا فقد انقطعت علاقته.

وشركٌ في الألوهية: بأنْ يُدْعىٰ غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

الله ﷻ ليس كمثله شيءٌ في كمالِ ذاته وصفاته، فما أضلَّ مَن جَعَل رغبته ورهبته لأندادٍ ناقصة، لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يكون -العبد- مؤمنًا بأنَّ الله إله العالمين حتىٰ يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنًا بأنَّه (لا إله إلا هو) حتىٰ يَسلبَ خصائص الإلهية عن كل موجودٍ سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفيَّة في الحقيقة والخارج».

ومِلَلُ الشرك والضلال أمهاتها التي كانت أكثر ظهورًا في الشعوب والأمم: اليهودية، والنصرانية، والصابئة، والمجوسية، والوثنية.

وهذه المِللُ منها اليهودية والنصرانية، وقد كانت في أول أَمْرِها تتبع شريعة الله التي أوحاها إلىٰ رُسُله موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، وبعد ذلك تحرّفت هذه الشرائع وصارت اليهودية والنصرانية محرَّفةً عن دين الله، منسوخةً مُبدَّلةً لا يجوز التديُّن بها.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٧٤).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، رواه مسلم.

وأمَّا الصابئة والمجوسية والوثنية فهي جهالاتٌ شركية مستمدة من تضليل الشيطان، وكلُّ مِلَّةٍ ونِحْلَة لم تهتدِ بنور الوحي المُحْكَم غير المنسوخ بعبادة الله وحده بما شرع، فهي مِلَّةٌ جاهلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «في الحديث: «ومُبتَغٍ في الإسلام سُنَّة جاهلية» يندرج فيه: كلُّ جاهليةٍ مطلقة أو مقيدة، يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو صابئة، أو وثنية، أو مركبة من ذلك، أو بعضه، أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية؛ فإنَّها جميعها: مبتدعها ومنسوخها، صارت جاهليةً بمبعث محمد ﷺ».



(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٩، ٢٦٠).

قال المصنف رحمه الله:

ومعلومٌ أنَّ أَحَدًا من الخَلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان أو المسيح ابن مريم شاركوا الله في خَلْقِ السماوات والأرض، بل ولا زعم أحدٌ من الناس أن العالَم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، بل ولا أثبتَ أحدٌ من بني آدم إلهًا مساويًا لله في جميع صفاته.

بل عامَّةُ المشركين بالله مُقِرُّون بأنه ليس شريكه مثله، بل عامتهم مُقِرُّون أن الشريك مملوك له سواءٌ كان ملكًا أو نبيًّا أو كوكبًا أو صنمًا، كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما مَلكَ، فأهلَّ رسولُ الله ﷺ بالتوحيد، فقال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[(١)].



الشَّرح

لمْ يَكُنْ شركُ العرب في جاهليتهم باعتقاد أنّ مع الله خالقًا، وكان شركهم في اتخاذ الوسائط في دعاء الله، وفي تعظيم وعبادة الأصنام، وكان شركهم أيضًا في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل الله.

وكذلك اليهود والنصارىٰ كثيرٌ من أنواع شركهم كان بتعظيم وعبادة الأصنام، وتحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله.

واشتركَ اليهود والنصارىٰ والعرب في جاهليتهم بالغلو في الصالحين، وكان ذلك من أعظم شركهم.

---

(١) التدمرية (ص١٧٦، ١٧٧).

وقول شيخ الإسلام: «بل ولا زعم أحدٌ من الناس أنّ العالَم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، بل ولا أثبتَ أحدٌ من بني آدم إلهًا مساويًا لله في جميع صفاته»، أراد به بيان اعتقاد جميع المشركين؛ فإنّهم لا يُثبِتُون إلهًا مساويًا مكافئًا لله في خلقِ جميع المخلوقات، ولا يُثبِتُون له مثيلًا في جميع صفات الربوبية.

وشيخ الإسلام في سائر كُتُبه يَذْكُر أنواعَ شركِ الكافرين فيما اختصَّ الله به من الخَلق والأمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشرك الذي حرَّمه الله علىٰ أَلْسُنِ رُسُله، وحَكَم بكُفْر أصحابه: عبادة إلهٍ سواه، وإن كان العابد له يعتقد ذلك خَلقًا من مخلوقاته؛ فإنّ هذا قولُ جميع المشركين من جميع الأمم، لم يكن من المشركين مَن يقول: إنّ مع الله إلهًا مساويًا له في صفاته، أو أفعاله، أو أنّه شاركه في خلقِ جميع المخلوقات، بل جمهور مَن أشرك به يُقِرُّ بأنّ شريكه مملوكه، سواءٌ أشركوا به الملائكة، أو الكواكب، أو الأنبياء، أو الصالحين، أو الجنّ، أو الأوثان، أو الأصنام، أو غير ذلك».

مقصود شيخ الإسلام بتنبيهه هذا: بيان أنّ إثبات خلق الله لمخلوقاته ليس كافٍ في تحقيق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «حقَّقُوا التوحيد الذي أقرَّ به المشركون، ولم يدخلوا في توحيد الله ودينه الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثامنة (ص١٧٣، ١٧٤).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الثانية (ص٨٧).

وشيخ الإسلام والعلماء الناصحون للخلق يُحذِّرون من الشرك بأنواعه، ويَذْكُرون في مواضع من كتبهم كل أنواعه ومِلَلِه، ومع هذا يكون تحذيرهم من أشهر أنواعه أكثر، وهكذا الواجب علىٰ الناصحين سلوكُ هذا المنهج في الشرح والتبيين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الشرك في بني آدم أكثره عن أصلين:

أولّهما: تعظيم قبور الصالحين، وتصوير تماثيلهم للتبرّك بها. وهذا أول الأسباب التي بها ابتدعَ الآدميون الشركَ، وهو شركُ قوم نوح.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنّ نوحًا أولُ رسولٍ بُعث إلىٰ أهل الأرض، ولهذا لم يَذْكُرِ اللهُ في القرآن قبله رسولًا؛ فإنّ الشرك إنّما ظهر في زمانه.

وقد ذَكَر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وذكره أهل التفسير والسِّيَر عن غير واحد من السلف في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، أنّ هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا علىٰ قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، وأنّ هذه الأصنام صارت إلىٰ العرب. وذكر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قبائل العرب التي كانت فيهم مثل هذه الأصنام.

والسبب الثاني: عبادة الكواكب، فكانوا يصنعون للأصنام طلاسم للكواكب، ويتحرّون الوقت المناسب لصنعة ذلك الطلسم، ويصنعونه من مادّة تناسب ما يرونه من طبيعة ذلك الكوكب، ويتكلمون عليها بالشرك والكفر، فتأتي الشياطين فتكلمهم، وتقضي بعض حوائجهم، ويسمونها (روحانية الكواكب)، وهي الشيطان أو الشيطانة التي تضلهم».

---

(١) الرّد علىٰ المنطقيّين (ص٢٨٥، ٢٨٦).

وفرعون الذي كان كفره تعطيلًا بجحد الله، كان مشركًا في الباطن، وكان قومه مشركين باتخاذه إلهًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كان قوم فرعون الذين وَصَفهم -الله- بالاستكبار والعلوّ في الأرض، وهم الذين استعبدوا بني إسرائيل، كانوا مع ذلك مشركين بفرعون، اتخذوا إلهًا وربًّا، كما قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وفرعون نفسه الذي كان هو المستكبر الأعظم علىٰ قومه وغيرهم، كان مع هذا مشركًا، كما ذكر ذلك تعالىٰ عنه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، قيل: كان له آلهة يعبدها سرًّا، وقد وَصَفهم جميعًا بالإشراك في قول الرجل المؤمن: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مَن لمْ يعبد الله أصلًا كفرعون ونحوه، ممَّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهؤلاء معّطلة، وهم شرُّ الكفار، ومع هذا يكون لهم ما يعبدونه دون الله، كما قال تعالىٰ في قوم فرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فقال غير واحد من السلف: كان له آلهة يعبدها».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) الرّد علىٰ المنطقيّين (ص٢٩٢).

والجهمية معطلة منكرون لأسماء الله وصفاته، فمذهبهم حقيقته إنكار وجود الله ﷻ؛ إذ لا تُوجد ذاتٌ بلا صفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في جهم بن صفوان وفرقة الجهمية[١]: «زَعَم أنّه ليس فوق السماوات ربٌّ يُعبَد، ولا إلهٌ يُصلَّىٰ له ويُسْجَد، وأنّه ليس هناك إلا العدم المحض والنفي الصِّرْف.

وهذا قول الجهمية الضالة الذين يَؤُول قولُهم إلىٰ جَحْد الصانع وإنكار الخالق، تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا».

وكفرُ الفلاسفة أغلظ من كفرِ مشركي العرب واليهود والنصارىٰ؛ فإنّهم يعتقدون أنّ حوادث العَالَم لا مُحْدِثَ لها، وهو ما يسمونه الواجب بذاته، أو يسمونه العِلَّة التامة الأزلية، وقالوا: جميع الحوادث لا سبَبَ لها إلا حركة الفلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «هذا شركٌ في الربوبية».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «هذا باطلٌ قطعًا».

والفلاسفة جعلوا لله أندادًا، حيث قالوا بثبوتِ مَعْلُولٍ مساوٍ للرب تعالىٰ، وهي النفس القديمة التي لم تزل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «هذا القول مُخالِفٌ لِمَا جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومخالف لصريح العقل؛ فإنّ الرسل وأتباعهم أهل المِلل مُتَّفِقُون علىٰ أنّ الله تعالىٰ خالقٌ لكل ما سواه، فليس

(١) جامع المسائل، المجموعة السابعة (ص٣٤٢).
(٢) الأصبهانية (ص١٣٤).
(٣) الأصبهانية (ص١٧٠).
(٤) الأصبهانية (ص٢٨٩).

معه شيء قديم بِقدَمِه، لا نفس، ولا عقل، ولا غير ذلك من الأعيان».

كفرُ الفلاسفة أغلظ من كفر اليهود والنصارىٰ، فهم لا يثبتون إلهًا حقًّا، ولا يؤمنون بملائكته، ولا كتبه، ولا رسله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «عَطَّلوا الرَّبَّ الذي فَطَر السماوات والأرض عن صفات كماله، ونُعوت جلاله وأفعاله، فلَمْ يُثْبتوا له ذاتًا ولا صفةً، ولا فعلًا، ولا تصرُّفًا باختياره في مُلْكه، ولا عالِمًا بشيء مما في العالَم العُلْوي والسُّفْلي، وعاجزًا من أنشأ النَّشأة الأولىٰ أن يُعيدَها مرة ثانية.

وفي الحقيقة: لم يثبتوا ربًّا أنشأ شيئًا، ولا ينشئه، ولا أثبتوا لله ملائكةً، ولا رسلًا، ولا كلامًا، ولا إلهية، ولا ربوبية».

والله عَزَّوَجَلَّ عند الفلاسفة (هو) الهوية المحضة غير المتكثرة، وليس له أي صفة ثبوتيه عندهم، ولا فعلًا ولا قدرةً، ولا اسمًا، فهم يعتقدون أنّ الله لا يُعبَّر عنه إلا بـ (هو).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إنّ جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته».

فالفلاسفة نفوا صفات الكمال لله، وأثبتوا للأفلاك ما ليس لها من الصفات، فالفلاسفة قالوا: إنّ الأفلاك خَلقتِ الحوادث الأرضية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «كان ما نفوه أحق بالإثبات ممَّا أَثْبَتُوه؛ إذ

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٦٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١).
(٣) الرّد علىٰ المنطقيّين (ص٢١٧).

كانوا مُعرِضِين عن الله ومعرفته وعبادته، جاهلين بما يجب له ويستحقه، يعبدون المخلوقات، ويُعظِّمونها، ويَعْرِفُون من كمالها ما يتخذونها به آلهة إشراكًا منهم بالله، ويَدْعُون رب العالمين، لا يَعْرِفُونه، ولا يعبدونه، ولا يعرفون ما يستحقه من الكمال الذي به يجب أن يُعبد، بل الذي يُعلم به أنّه لا يستحق العبادة إلا هو».

وكفرُ اليهود والنصارىٰ أسبابه كثيرة، منها: شركهم بتشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد أمرنا الله أن نقول في صلواتنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال النبّي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارىٰ ضالّون».

فاليهود شبَّهوا الخالق بخلْقِه، فوصفوه بصفات النقص والعيب، كالفقر والبخل واللُّغوب، والنصارىٰ شبَّهوا المخلوق بالخالق، فوصفوه بصفات الإلهيّة التي لا يستحقُّها إلا الله، حتىٰ أشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطانًا.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُطْروني كما أَطْرَتِ النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم؛ فإنّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثانية (ص١١١، ١١٢).

ومِنَ الكُفَّار مَن ينكر خَلْقَ اللهِ للخَلق كله، وهؤلاء هم الدَّهْرِيُّون، ومن الكفار مَن يوافقهم في بعض قولهم في إنكار المعاد، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يخبر تعالىٰ عن قول الدهرية من الكفار ومَن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معادٌ ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة».

والشرك في الربوبية وفي نسبة الخَلق إلىٰ غير الله، واقِعٌ من طوائف من الفلاسفة ومن بعض الفِرق المنتسبة للإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أهل الطبيعة يضيفون الحوادث إلىٰ ما دون الله من: جسمٍ، أو طَبْعٍ، أو فلكٍ، أو نجمٍ، أو عقلٍ، أو نفسٍ، والقدرية الذين يزعمون أنّ أفعال الحيوان لم يَخلُقْها الله ولا يَقْدِر علىٰ خلقها».

فالقدرية المعتزلة الذين نفوا خَلْقَ الله لأفعال العباد وتقديره لها، ضاهوا المجوس في إثبات الخَلق لغير الله، ولذلك سمّاهم السلف بـ(مجوس الأُمَّة).

قال العَلَّامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الذين أشركوا به تعالىٰ في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٦١٢).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢١٠).

(٣) تجريد التوحيد المفيد (ص٥٩-٦١).

الربوبية، منهم: مَن أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنّه إلهٌ مكافئ له، وهم المشركون ومَن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالَم الكاملة المطلقة تُبطِلُ أقوالهم؛ لأنّها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات».

وقال العَلَّامة تقي الدين أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا العلاقة بين الإيمان بالقدر والتوحيد، وما وقع فيه القدرية من الشرك[1]: «شركُ القدرية مختصر من هذا الباب، وبابٌ يدخل منه إليه، ولهذا شَبَّهَهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وقد روىٰ أهل السُّنن منهم في ذلك مرفوعًا: «أنهم مجوس هذه الأمة»».

وقد نشأ في دُوَلِ الإسلام مَن ينتسب إلىٰ القِبلة، وكان اعتقاده ممزوجًا من أنواع الشركيات، كدولة العُبَيْدِيِّين بمصر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القرامطة والباطنية الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس، وأظهروا الرفض».

فكان من أسباب رَوَاج مذهبهم ما أظهروه للعامَّة من التشيع، وهم يبطنون الكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كانوا يأمرون بالشريعة لعَوَامِّهم؛ فإنّهم كانوا يتظاهرون بالتشيع».

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٦٥، ٦٦).
(٢) الرّد علىٰ المنطقيّين (ص١٨٧).
(٣) الرّد علىٰ المنطقيّين (ص٢٧٩).

وقد أقام العبيديون المدارس لتعليم المنطق والفلسفة، وأقاموا المراصد للشرك بالنجوم والكواكب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كانوا لا يُدرِّسون في مدرستهم علوم المسلمين، بل المنطق، والطبيعة، والإلهيات ونحو ذلك من مقالات الفلاسفة، وبنوا أرصادًا علىٰ الجبال وغير الجبال، يرصدون فيها الكواكب، يعبدونها، ويُسبِّحونها، ويستنزلون روحانياتها التي هي شياطين تتنزَّل علىٰ المشركين الكفار، كشياطين الأصنام ونحو ذلك».

كان العبيديون من شرِّ الوُلاة وأخبثهم، انتزعوا مصرَ من الخلافة العباسية، وأعلنوا بسبِّ الصحابة، واستعملوا اليهود والنصارىٰ علىٰ ولاية الشام.

قال العلَّامة مَرْعِي الكرمي المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المعزُّ لدين الله: وهو أولُ مَن استولىٰ منهم علىٰ مصر، وانتزعها من أيدي الخلفاء العباسيين في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وبنىٰ الجامعَ الأزهر، وأمرَ بقطع صلاة التراويح، وأمرَ المُؤذِّنين بمصر والشام أنْ يُؤذِّنوا بـ: (حي علىٰ خير العمل)، وكان سبَّابًا خبيثًا، وكانت مملكته من الفرات وحلب والحجاز إلىٰ أقصىٰ المغرب، وكانت مُدّته أربعًا وعشرين سنة.

وهذا ابنه العزيز بالله: كان كذلك، وكان يدَّعي عِلْمَ المُغيَّبات.

ومن العجب: أنه اتخذَ له وزيرًا نصرانيًّا وولَّاه مصر، وآخر يهوديًّا وولَّاه الشام، فعزَّ النصارىٰ واليهود في أيامهما، وبَنوا البِيَع والكنائس، وخُطب له بالمَوْصِل واليمن زيادةً

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٣٨، ١٣٩).
(٢) قلائد العقيان (ص٤٨٤)، المطبوع ضمن مجموع رسائل العلَّامة مَرْعِي الكرمي، المجلد السابع.

علىٰ مُلك أبيه، وكانت مدته إحدىٰ وعشرين سنة وخمسة أشهر».

وعقيدة الحلولية والاتحادية لغلاة الصوفية من أعظم وأغلظ أنواع الشرك؛ فإنّهم صَرَّحوا أنّ مَن عبدَ الشمس والقمر والطواغيت فما عبدَ إلا الله، فهؤلاء الضالون يرون أن وجود الكائنات هو عينُ وجود الله[1].

واعتقاد الجهمية بأنّ الله بذاته في كل مكان هو من أسباب هذا الاعتقاد الإلحادي الصوفي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قولُ مَن يقول: إنَّ الحق -الله- حالٌّ في الأماكن كلها، فهذا كفرٌ قديم في الأمَّة من كفر الجهمية الذين كان السلف ينكرون قولهم، وهم الذين يقولون: إنّ الله بذاته في كل مكان؛ فإنّ هؤلاء الحلولية إخوان هؤلاء الاتحادية. أولئك قالوا: هو في جميع المصنوعات، وهؤلاء قالوا: هو نفس المصنوعات».

ومن شرِّ المذاهب المنتسبة للقِبلة: مذهب صوفية الفلاسفة، الذين جعلوا مِلَل الكفر والشرك ومِلَّة الإسلام سواءً، فالشرك والتوحيد عند ملاحدة الصوفية سواءٌ، فهذا من أعظم ما أفسدوا به أديان المسلمين؛ إذ جَوَّزوا لهم الرِّدَّة عن الإسلام إلىٰ مِلَلِ الكفر والشرك، والله المستعان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «متصوفة الفلاسفة كابن عربي وابن سبعين وغيرهما».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الثامنة (ص١٣٤).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثامنة (ص١٣٦).
(٣) الرد علىٰ المنطقيّين (ص٢٨١).

وقال شيخ الإسلام[(١)]: «هؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه يجوّزون أن يكون الرجل يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو مشركًا يعبد الأوثان، فليس الإسلام عندهم واجبًا، ولا التهوُّد والتنصُّر والشرك محرمًا. لكن قد يرجّحون شريعة الإسلام علىٰ غيرها.

وإذا جاء المريد إلىٰ شيخٍ من شيوخهم، وقال: أريدُ أنْ أُسلِّم علىٰ يديك. يقول له: علىٰ دين المسلمين، أو اليهود، أو النصارىٰ؟

فإذا قال له المريد: اليهود والنصارىٰ أما هم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمين خيرٌ منهم.

وهذا من جنسِ جُهَّال التَّتر أوَّل ما أسلموا؛ فإنَّ الإسلام عندهم خيرٌ من غيره، وإنْ كان غيره جائزًا، لا يُوَالون عليه ويُعادُون عليه».

وبين الشرك والكفر عمومٌ وخصوص، فكلُّ مشركٍ كافرٌ، وليس كلُّ كافرٍ مشركًا، فمِنَ الناس مَن كان كُفْرُه بجحود الله رب العالمين، وهو لا يُثبِتُ إلهًا ولا شريكًا، ومن الناس مَن كُفْرُه باستكباره عن عبادة الله، ومن الناس مَن كُفْرُه بترك عبودية الله ﷻ، ومن الناس مَن كُفْرُه لعبادته الله بغير ما شَرَع.

فمَن لم يتَّبع صراط الله المستقيم وتَعبَّد لله بالبدع أو بالمنسوخ من الشرائع، فهو كافر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

(١) الرد علىٰ المنطقيّين (ص٢٨٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنّ الله بعث محمدًا ﷺ إلىٰ جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أمّيِّهم وكتابيِّهم، إنسهم وجنِّهم، فلا يَقْبَل اللهُ من أَحدٍ عملًا يخالف شريعته، وإن كان ذلك العمل مشروعًا لبعض الأنبياء.

فمَنِ اتَّبعَ الشرعة والمنهاج الذي كان مشروعًا لموسىٰ وعيسىٰ ونُسخ علىٰ لسان محمد ﷺ، فهو كافر باتفاق المسلمين».

وبعضُ المخلوقين يَتعاظَمُ في نفسه لجاهِه، وسلطانه، ومالِه، وقوته، وقدرته، وأعوانه، فيجعل نفسه مُعظَّمًا مُطاعًا، فيضاهي الله كفرعون والنمرود وغيره، ويطيعه أتباعه في مضاهاته لله رب العالمين، فهذا شركٌ في الأتباع والمتبوعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إنّه -سبحانه- في الدنيا قد خلق أسبابًا تعلَّق بها كثيرٌ من الناس، وأشركوا بها خالقها، وأعرضوا عنه، واتخذوا عباده من دونه أولياء، ونازعه المستكبرون الربوبيَّة والإلهيَّة، ونازعوه العظمة والكبرياء، فوقع الإشراك من الأتباع والمتبوعين».

ومن شَرِّ وأشهر أنواع الكفر المعاصر: تركُ العمل، تركُ عبودية الله ﷻ، حظُّ المخلوق المعاصر من إيمانه اعتقاده بربوبية الله من غير عبادته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «الله سبحانه بعث الرسل بتوحيد الإلهية، وهو ألا يُعبد إلا الله، ولا يُخاف إلا إياه، ولا يُتوكل إلا عليه، ويُخلص له الدين،

(١) جامع المسائل، المجموعة الرابعة، (ص٧١).
(٢) جامع المسائل، المجموعة التَّاسعة (ص١٥٤).
(٣) جامع المسائل، المجموعة الثانية (ص٩٧، ٩٨).

ويطيع رُسُله، ويتبعهم، ويحبّ ما أحبّ ويُبغِض ما أبغض، ويُوَالِي مَن وَالَىٰ، ويُعادِي مَن عادَىٰ، ويأمر بما أمر وينهىٰ عما نهىٰ، حتىٰ يكون الدين كله له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]».

ومَن لا يُحقِّق إسلامه بعبودية الله، ولا يَتزكَّىٰ بطاعة الله بإقامة أركان الإسلام وشرائعه وشعائره، كان من الكافرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الربوبية العامة الشاملة لكل شيء يشترك فيها أولياؤه وأعداؤه، وأهل جنته وناره، وإنّما يفترقون في توحيد إلهيته، وهي عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، فمَن قام بهذا التوحيد والطاعة كان مؤمنًا سعيدًا، ومَن لم يَقُمْ بهما كان كافرًا شقيًّا».



(١) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٢٧٧).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ذَكَر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في المِلل والنِّحَل والآراء والديانات، فلم ينقلوا عن أحدٍ إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات.

بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية، الذين يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين: أحدهما أنها محدثة، فتكون من جملة المخلوقات له، والثاني أنها قديمة، لكنها لم تفعل إلا الشر، فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور[١].

الشَّرح

أغلظُ الشرك في الربوبية وقع من المجوسية؛ حيث قالوا: إنّ النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، وهذا من أضل الأقوال فطرةً وعقلًا، ومن أشنعها مخالفة للوحي.

فالنور يظهر مع طلوع الفجر، ويزداد النور بطلوع الشمس ثم يضمحل ويتلاشىٰ شيئًا فشيئًا مع غروب الشمس، وما ليس له حياة دائمة فليس بإلهٍ، واللهُ ﷻ هو الحي الذي لا يموت، وكل مخلوق فإنّه موجود بإيجاد الله، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هم -المجوس- أخبثُ بَنِي آدمَ نِحْلةً، وأَرْدَاهُم مذهبًا، وأسوؤهم اعتقادًا».

---

(١) التدمرية (ص١٧٧، ١٧٨).

(٢) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص١٧).

وكلُّ مَن أسند شيئًا من خَلْقِ اللهِ إلىٰ مخلوق فهو مجوسي من هذه الجهة، وهذا النوع من شركِ المجوس هو مذهب الصابئة المشركين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «شركُ مَن جَعَل معه إلهًا آخر، ولمْ يعطِّل أسماءه وصفاته وربوبيَّته، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا وأمَّه إلهًا.

ومن هذا: شركُ المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور، وحوادث الشرِّ إلىٰ الظلمة.

ومن هذا: شركُ القدرية القائلين بأنَّ الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنَّها تَحْدُث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا من أشباه المجوس.

ومن هذا: شركُ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا جَعَل نفسه نِدًّا لله، يحيي ويميت -بزعمه-، كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم أنَّ طَرْدَ قولِكَ أنْ تَقْدِرَ علىٰ الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها. وليس هذا انتقالًا كما زَعَم بعضُ أهل الجدل، بل إلزامًا علىٰ طرد الدليل إنْ كان حقًّا.

ومن هذا: شركُ كثيرٍ ممَّن يُشرِك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مُدبِّرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا: شركُ عُبَّاد الشمس وعُبَّاد النار وغيرهم».

---

(١) الجواب الكافي (ص٣٠٠، ٣٠١).

أمَّا الموحدون فقد أبصروا من سُنَّة الله الكونية في تعاقُبِ الليل والنهار، وظهور النور واضمحلاله؛ ما دَلَّهم على عظمة خالق الليل والنهار، والظلمات والنور، والشمس والقمر، وأنّه لو شاء الله لجعل الليل والنهار دائمين، ولكنّ الله ﷻ برحمته وحكمته جعلهما مُتعاقِبَين، يخلف أحدهما الآخر لمصالح العباد والبلاد والبهائم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فالسماوات والأرضون وما فيهما، والشمس والقمر والليل والنهار كله دالٌّ علىٰ ربوبية الله المستلزمة لعبوديته وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥].

وطلوعُ الشمسِ وغروبها الذي هو من أسباب ظهور النور وذهابه دلالةٌ علىٰ أن الشمس مخلوقة لله؛ فالشمس تجري بأمر الله، تطلع في كل يوم من المشرق، وتغيب من جهة المغرب، هذا دَأْبُها بأمر الله، لا يستطيع أَحدٌ أنْ يجعل طلوعها خلاف أمر الله، قال إبراهيم عليه السلام مُحَاجًّا النمرود: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «في ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيهٌ علىٰ ربوبيته السماوات وما حَوَته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضّمناه».

وخلقُ الله ﷻ للظلمات والنور دليلٌ علىٰ ربوبية الله المستلزمة لعبوديته وحده، ودليلٌ علىٰ عدم استحقاق الظلمة والنور للألوهية، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] : «هذا كلامٌ مَخْرَجُه مخرج الخبر، يُنْحىٰ به نحو الأمر، يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خلقكم أيُّها الناس، وخَلَق السماوات والأرض، ولا تُشركوا معه في ذلك أحدًا شيئًا؛ فإنّه المُسْتَوْجِبُ عليكم الحمدَ بأياديه عندَكم، ونعمِه عليكم، لا من تَعْبُدونه من دونه، وتَجْعَلونه له شريكًا من خلقه».

وقال العَلَّامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)] : «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، هذا إخبارٌ عن حَمْدِه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال عمومًا وعلىٰ هذه المذكورات خصوصًا، فحَمِدَ نفسه علىٰ خَلقِه السماوات والأرض الدالَّةِ علىٰ كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخَلْق والتدبير، وعلىٰ جَعْلِه الظلمات والنور، وذلك شامِلٌ للحسيِّ من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي كظلمات

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص١٨١).

(٢) جامع البيان (٩/ ١٤٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (ص٢٦٦).

الجهل والشَّكِّ والشِّرك والمعصية والغفلة ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كلُّه يدلُّ دلالةً قاطعةً أنّه تعالىٰ هو المستحقُّ للعبادة وإخلاص الدين له».

فالظلمات والنور، والليل والنهار مخلوقان مربوبان لله، جعلهما الله ظرفًا لعبادته وسببًا لشكره علىٰ نعمه وآلائه، ودليلًا علىٰ ربوبيته، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وتعاقُبُ الليل والنهار بغروب الشمس وطلوعها دالٌّ علىٰ المعاد، وإبداء الخَلق وإعادته.

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة: وهي القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر: علىٰ المعاد، لِمَا في القَسم من الدلالة علىٰ ثبوت المقسم عليه؛ فإنّه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخَلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتهما، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكلّ ذلك دليلٌ ظاهِرٌ علىٰ المبدأ والمعاد الذي أَخْبَرَتْ به الرسل كلهم عنه».



(١) التبيان في أيمان القرآن (ص١٦٤).

قال المصنف رحمه الله:

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بيّنه في كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

الشَّرح

هذه الآيات ذَكَرها شيخ الإسلام لمَن آمن بربوبية الله إلزامًا له بعبودية الله، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وذَكَر شيخ الإسلام هنا من الآيات ما يدلُّ علىٰ عدم استحقاق الشركاء للألوهية والعبودية؛ إذ ليس لهم مُلك السماوات والأرضين وما فيهن، ولا يملكون لمخلوق ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

---

(١) التدمرية (ص١٧٨، ١٧٩).

قال تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا إنكار من الله علىٰ المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تنتصر لعابديها».

فالواجب علىٰ الخَلق: عبادةُ مَن يستحق الألوهية؛ وهو الله الواحد القهار.

والواجب علىٰ الخَلق: التوجه إلىٰ الله بالعبادة والمسألة دون مَن سواه؛ فإنّه هو وحده الخالق الرازق الذي بيده الخير كله، وهو النافع الضار، الذي يحفظ وينصر ويدفع الضر ويكشف السوء.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نِدًّا، وهو خَلَقَكَ».

وقال تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

قال العَلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنّهم مخلوقون، فلا يصحُّ أن يكونوا شركاء لمَن هم خلقه».

السماوات والأرضون وما فيهن كلها مخلوقة لله، وهي مخلوقات عظيمة دالَّةٌ علىٰ عظمة خالقهن، وعلىٰ تفرُّدِه بالربوبية المستلزم لإفراده بالعبودية.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٧).

(٢) قرة عيون الموحدين (ص٩٥).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥].

قال العَلَّامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]: ليس له شريك في الإلهية، فأَخْلِصُوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥] أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المُدبِّر لها، فكما أنّه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته.

وكثيرًا ما يُقرِّر تعالىٰ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنّه دالٌّ عليه، وقد أقرّ به أيضًا المشركون في العبادة، فيُلْزِمهم بما أَقَرّوا به علىٰ ما أَنْكَرُوه».

الشرك في الألوهية أكثر في الخَلق منهم في الربوبية، من أَجْلِ هذا بُعثت الرسل عليهم الصلاة والسلام بالدعوة إلىٰ تصحيحه أكثر، وقد استدلَّ لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، يعني: أنّ أكثر الناس يؤمنون بربوبية الله ويشركون في ألوهيته، وهذا حالُ القوم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أمَّا توحيد الربوبية فقد أَقَرَّ به المشركون، وكانوا يعبدون مع الله غيره، ويحبونهم كما يحبونه، فكان ذلك التوحيد -توحيد الربوبية- حُجَّة عليهم، فإذا كان الله هو ربُّ كل شيء ومليكه، ولا خالق

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٨).
(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٦٥).

ولا رازق إلا هو، فلماذا يعبدون غيره معه، وليس له عليهم خلقٌ ولا رزقٌ، ولا بيده لهم منعٌ ولا عطاءٌ، بل هو عبدٌ مثلهم، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟!».

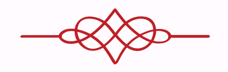
فالمستحق للعبودية هو إلهُ الحق وحده، فهو الذي يجب أنْ يتألّه له الخَلق وحده عبوديةً وخضوعًا وحبًّا ورغبةً ورهبةً، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

فمَن عَبدَ غير الله فقد أَفكَ في تألُّهِه لغير إلهِ الحق، قال تعالىٰ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦].

فالواجبُ: إخلاص الدين كله لله بعبادته والتألُّه له وحده، فمَن له الخَلق والأمر هو الذي لا تصحُّ العبادة لسواه.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «توحيد الله ﷻ، أن يكون الدين كله لله، فلا يُعبد غيره، ولا يُتوكَّلُ إلا عليه، ولا يُدْعَىٰ إلا هو، ولا يُتَّقىٰ إلَّا هو، ولا يُصَلَّىٰ ولا يُصَامُ إلَّا له، ولا يُنْذَرُ إلَّا له، ولا يُحْلَفُ إلَّا به، ولا يُحَجُّ إلَّا إلىٰ بيته».



(١) الجَوابُ البَاهِرُ في زُوَّار المقابر (ص٤٠).



قال المصنف رحمه الله:

وبهذا وغيره يُعرف ما وقع من الغلط في مسمىٰ «التوحيد»، فإنَّ عامة المتكلمين الذين يقرّرون التوحيد في كتب الكلام والنظر، غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث: وهو توحيد الأفعال، وهو أن خالق العالَم واحد، وهم يحتجون علىٰ ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنىٰ قولنا: لا إله إلا الله، حتىٰ قد يجعلون معنىٰ الإلهية القدرة علىٰ الاختراع.

ومعلومٌ أنَّ المشركين من العرب الذين بُعث إليهم محمد ﷺ أولًا، لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يُقِرُّون بأن الله خالِقُ كلِّ شيء، حتىٰ إنهم كانوا مُقِرِّين بالقَدَر أيضًا، وهم مع هذا مشركون[1].

الشَّرح

اعتقاد المتكلمين ضَلَالٌ، وليس بتوحيد، والتوحيد هو إفراد الله بالربوبية وبما ثبت له من أسماءٍ وصفات، وعبادته وحده لا شريك له.

والتوحيد لله ﷻ هو إفراده بربوبيته وأسمائه وصفاته المستلزمة لعبوديته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

---

(١) التدمرية (ص١٧٩، ١٨٠).

قال العلَّامة أبو عبد الله ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الإيمان: إقرارٌ لله بالربوبية، وخضوعٌ له في العبودية، وتصديقٌ له في كل ما قال وأَمَر ونَهَىٰ».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال العلَّامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «إن الله سبحانه إنما خلق الخَلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره».

والمسلمون الموحِّدون هم الذين رضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال شيخ المُفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، أي: الاستسلام لأمري، والانقياد لطاعتي، علىٰ ما شرعتُ لكم من حدوده وفرائضه ومعالمه.

﴿دِينًا﴾: يعني بذلك طاعةً منكم لي».

أمَّا الفلاسفة فاعتقادهم ينافي حقيقة الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فَهُم يعتقدون أنَّ لا يُعبَّر عن الله إلا بـ «هو» فقط، ولا يثبتون له اسمًا ولا صفةً ولا فعلًا ولا قدرةً، وهذا في حقيقته جحودٌ لله.

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٦٤).
(٢) تجريد التوحيد المفيد (ص١١٧).
(٣) جامع البيان (٨/ ٨٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته».

ويعتقدون أن الأفلاك خَلقتِ الموجودات والحوادث، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا شركٌ في الربوبية».

والفلاسفة جعلوا لله أندادًا، حيث قالوا بثبوتِ معلولٍ مساوٍ للرب تعالىٰ، وهي النفوس القديمة التي لم تزل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هذا القول مخالِفٌ لِمَا جاءت به الرسل، ومخالف لصريح العقل؛ فإنَّ الرسل وأتباعهم أهل المِلل متفقون علىٰ أن الله تعالىٰ خالق لكل ما سواه، فليس معه شيء قديم بقِدَمِه، لا نفسٌ، ولا عقلٌ، ولا غير ذلك من الأعيان».

والرسالة والنبوة عند الفلاسفة تَخْيِيلٌ، وهو ما يفيضه العقل علىٰ النفس، وجبريل عندهم خيالٌ يتخيل في نفس النبي[٤]، والقرآن عندهم إنشاءُ الرسول ﷺ وكلامه[٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٦]: «توحيد الفلاسفة فهو إنكار ماهية الرب الزائدة علىٰ وجوده».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٥١).
(٢) الأصبهانية (ص١٣٤).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٢٨٩).
(٤) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٤٦).
(٥) التسعينية (١/ ٢٧٤، ٢٧٥).
(٦) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٩، ٩٣٠).

وقال ابن القيم[(١)]: «هذا التوحيد هو نفس تكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله ﷻ وجحده».

وقال ابن القيم عن الفلاسفة[(٢)]: «عَطَّلوا الرب الذي فطر السماوات والأرض عن صفات كماله، ونعوت جلاله وأفعاله، فلم يُثْبِتُوا له ذاتًا ولا صفةً، ولا فعلًا، ولا تصرُّفًا باختياره في ملكه، ولا عالِمًا بشيءٍ ممَّا في العالَم العلوي والسفلي، وعاجزًا من أنشأ النشأة الأولىٰ أن يعيدها مرة ثانية.

وفي الحقيقة لم يثبتوا ربًّا أنشأ شيئًا، ولا ينشئه، ولا أثبتوا لله ملائكةً، ولا رسلًا، ولا كلامًا، ولا إلهيةً، ولا ربوبية».

وحقيقة التوحيد هي إثبات صفات الكمال لله ﷻ وحده، والتألُّه له وعبوديته وحده؛ لتفرُّده بالكمال.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «اسمه (الأحد) دلَّ علىٰ نفي المشاركة والمماثلة، واسمه (الصمد) دلَّ علىٰ أنه مُستحِقٌّ لجميع صفات الكمال».

والتوحيد عند الجهمية هو نفيُ صفاتِ الرب تعالىٰ، وأنه لو قامت به الصفات والأفعال للزم أن يكون مُحْدَثًا، وقالوا: التوحيد هو أن يجعل القديم شيئًا واحدًا، فلا تثبت له صفة قديمة؛ لأن إثبات صفة للقديم يوجب تعدُّد القديم في اعتقادهم[(٤)].

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١١٢).
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٦٣).
(٣) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٧/ ٢٥٧).
(٤) شرح الأصبهانية (ص١١٢).

وعلماء السُّنة يَذْكُرون الاعتقاد الصحيح في التوحيد، ويُبَيِّنُون ما يخالف ذلك مما ضَلَّت فيه فِرقُ الكافرين والمبتدعين.

فيَذْكُر علماءُ الحقِّ التوحيدَ الذي بَعَث الله به رسوله ﷺ، وما يخالفه من اعتقاد المتكلمين والفلاسفة والجهمية.

واعتقاد المُتكلِّمين ومَن وافقهم أنَّ الله واحد في أفعاله، وواحد في صفاته لا شبيه له، كان يوجب عليهم التأله لله وحده لا شريك وعبوديته باتباع صراطه المستقيم.

حذَّر شيخ الإسلام من عقيدة المتكلمين الذين يَحْتَجُّون بدليل التمانع علىٰ أن خالق العالَم واحِدٌ، يظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنىٰ قولنا: لا إله إلا الله، حتىٰ قد يجعلون معنىٰ الإلهية: القدرة علىٰ الاختراع[1].

ومدارسةُ القرآن والأخذ به فرقانٌ يتميَّز به صريح المعقول من ضَالِّه.

وصريحُ المعقول يُوافِق صحيحَ المنقول، ويُوافِق الفطرة الصحيحة، فالشريعة تُوافِق الفطرة والعقل.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧].

قال العلَّامة المجدد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشَرَعَهُ، وعَلِمَ بعقله حُسْنَهُ، فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

(١) التدمرية (ص١٧٩، ١٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٧٩٢).

والقرآن فيه أمثالٌ عقلية تهدي إلىٰ الحق بطريقٍ صحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «القرآن قد ضرب الله للناس فيه من كلِّ مَثلٍ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يُبيِّن الحق في الحكم والدليل -وما بعد الحق إلا الضلال-».

وقد بَيَّن الله في القرآن امتناع النظير والنِّدِّ والشريك الذي تُضَادّ مشيئته وإرادته وخلقه مراد الله وخلقه ومشيئته وأمره، فقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وعلماء أهل السُّنة يتدارسون معنىٰ الآية، وينظرون فيما يفرضه الذهن ممَّا يمتنع وقوعه فيبطلونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الذهن يفرضه ليعرف امتناع ثبوته في الخارج».

وقال شيخ الإسلام[(٣)]: «بيانُه: أنْ تَقدَّم مقدمةٌ تُبيِّن أن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، وأن العلم بذلك مستقرٌّ في الفطرة، معلوم بصريح العقل».

(١) شرح الأصبهانية (ص١٣٣).
(٢) شرح الأصبهانية (ص١٢٣).
(٣) شرح الأصبهانية (ص١٣٤).

وقال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ العالَم العلوي والسفلي - علىٰ ما يُرىٰ- في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيبٌ، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ مُدَبِّرَهُ واحِدٌ، وربه واحد، وإلهه واحد.

فلو كان له مُدبِّرانِ ورَبَّانِ، أو أكثر من ذلك، لاختلَّ نظامه، وتَقَوَّضَتْ أركانه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان.

وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه؛ فإنه مُحالٌ وجود مرادهما معًا.

ووجودُ مرادِ أحدهما دون الآخر يدلُّ علىٰ عجزِ الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما علىٰ مرادٍ واحد في جميع الأمور غيرُ ممكن.

فإذًا يتعيَّن أن القاهر الذي يُوجَد مراده وحده، من غيرِ مُمانِعٍ ولا مُدافِعٍ، هو الله الواحد القَهَّار».



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٢٧٣)، ط- دار المدني- جدة.

قال المصنف رحمه الله:

وقد تَبيَّن أن ليس في العالَم مَن ينازع في أصلِ هذا الشرك، ولكن غاية ما يُقال: إنَّ مِنَ الناس مَن جَعَل بعض الموجودات خلقًا لغير الله، كالقدرية وغيرهم، لكن هؤلاء يُقِرُّون بأنَّ الله خالِقُ العِباد وخالِقُ قدرتهم، وإن قالوا: إنهم خالقوا أفعالهم.

وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون بعض المخلوقات مُبدعةً لبعض الأمور، فهم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعةً مخلوقة، لا يقولون: إنها غنيّة عن الخالق، مشاركة له في الخَلق.

فأمَّا مَن أنكرَ الصانع فذلك جاحِدٌ مُعطِّل للصانع، كالقول الذي أظهره فرعون، والكلام الآن مع المشركين بالله المُقرِّين بوجوده.

فإذًا هذا التوحيد الذي قَرَّرُوه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون، بل يُقِرُّون به مع أنهم مشركون، كما ثبتَ بالكتاب والسُّنة والإجماع، وكما عُلم بالاضطرار من دِين الإسلام[1].

الشَّرح

توحيدُ الربوبية الذي جعله المتكلمون هو الغاية في تحقيق التوحيد بزعمهم أنَّ الله هو القادر علىٰ الاختراع، وهذا من جهلهم بالله وعدم معرفته، ومن جهلهم بحق الله الواجب علىٰ خَلقه من عبادته وحده لا شريك له، ومن جهلهم بدعوة رُسُل الله جميعًا عليهم الصلاة والسلام، فإنهم جميعًا بُعثوا بالدعوة إلىٰ توحيد الله بعبوديته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ

(١) التدمرية (ص١٨١-١٨٢).

إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]

ومعرفةُ الله ﷻ بأنه الخالق إذا لـمْ يَحْصُل معه تعظيم الله المستلزم لعبوديته وحده لم يُفِد شيئًا، فإنَّ الإيمان بربوبية الله يستلزم عبادته وتعظيمه.

فالمُتكلِّمون جمعوا بين الجهل والظلم، جهلوا حقيقة التوحيد، ولمْ يُؤدّوا حقَّ الله في عبوديته وحده، ولمْ يَدْعُوا إلىٰ ذلك، فكانوا من الظالمين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

كلمةُ التوحيد (لا إله إلا الله) معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، وشرائع الإسلام كلها تفصيل لكلمة التوحيد، فالتوحيدُ حقيقته عبودية الله بما شرعَ، والانقياد لأمره ونهيه، وتصديق خبره.

وجهلُ المُتكلِّمين ومَن تلقَّىٰ عنهم دِينَهُ من المُبتدِعِين يُبيِّن ضرورةَ شَرْحِ التوحيد وتعليمه للناس، فإنه حقيقةُ الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

قال العلَّامة عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ظنوا أنّ معناها: القدرة علىٰ الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون فلمْ يُدْخِلهم في الإسلام».

ومن جهلِ الناس بمعنىٰ التوحيد: إتيانهم بما يضاده من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، والشرك الاعتقادي والقولي والعملي.

---

(١) قُرَّة عيون الموحدين (ص٤٨).

ومن جهل الناس بمعنىٰ التوحيد: هو عدمُ كفرهم بما يُعبد من دون الله، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالتوحيدُ لا يتحقق إلا بعبودية الله وحده والكفر بكل ما يُعبد من دونه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إذا سألتهم مَن خلقَ السماوات والأرض، فيقولون: الله، وهم يعبدون غيره»، رواه الطبري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1]: «مَن كان هذا التوحيد هو غاية توحيده، انسلخَ من دين الله وجميع رُسُله».

وللمبتدعةِ والمشركين تفسيراتٌ متنوعة باطلة للتوحيد أضلَّتِ الناسَ، وكانت سببًا في شركهم بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قال العلَّامة محمد تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللهُ[2]: «من أعظم المصائب التي حلَّت بمُشرِكي هذا الزمان، ويأسف لها كلُّ مُشْفِقٍ عليهم: أنهم لا يعرفون معنىٰ (لا إله إلا الله)، وقد أضلّهم رؤساءُ جُهَّال يُنسبون إلىٰ العلم زورًا وبهتانًا، ففسّروا لهم (لا إله إلا الله) تفسيرًا ضلالًا، قال بعضهم: معنىٰ (لا إله إلا الله): لا مُسْتَغْنٍ عن كلِّ ما سواه ومفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله. فظنَّ هذا الجاهل أنَّ (لا إله إلا الله) يُقصد

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السابعة (ص١٦٣).
(٢) سبيل الرشاد في هدي خير العِباد (٢/ ٢٠٦، ٢٠٧).

بها توحيد الربوبية، وهو إثباتُ الغِنىٰ لله تعالىٰ، وإثبات الفقر لكل مَن سواه فقط، ولو فكَّر في معنىٰ: أَلهَ يأله إلاهَةً، أي: عبدَ يعبدُ عبادةً، لعَلِمَ أنّ كلمة (لا إله) فعال بمعنىٰ مفعول، أي: معبود.

فقائل: (لا إله إلا الله) العالِم بمعناها يشهد علىٰ نفسه أنه لا يعبد إلا الله، وأنه بريءٌ مما يُعبد من دونه، كما قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالىٰ في سورة الممتحنة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالىٰ في سورة مريم عن إبراهيمَ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم:٤٨]، وقال تعالىٰ في سورة هود عنه: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

وتَقدَّمتْ قِصَّةُ أبي طالب لمَّا قال له النبيُّ ﷺ: «يا عَمّ، قل: لا إله إلا الله»، فَهِمَ أبو طالب وأبو جهل وعبدالله بن أبي أمية أنَّ معنىٰ (لا إله إلا الله): أنْ يترك مِلَّة عبدالمطلب، وهي الشرك.

فهؤلاء الكُفَّار الثلاثة فَهِمُوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، وكثيرٌ ممن يُنسب إلىٰ الإمامةِ في العلم والدِّين يجهلُ معناها! وقال في هذه الآيةِ عن الكُفَّار: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦]، فَهِمُوا أنهم إنْ قبلوا (لا إله إلا الله) تحتَّم عليهم تَرْكُ عبادةِ آلهتهم، ووجبَ عليهم الكفرُ بها.

والمشركون في هذا الزمان يقولون: (لا إله إلا الله) في كل حينٍ، وهم يعبدون آلهتهم، ويستغيثون بها، فلا نسمع إلا: يا شيخنا، يا سيدي فلان، فسبحان مَن طبعَ على قلوبهم، وأعمى بصائرهم!».

وشيخُ الإسلام هنا بيَّن ما وقعَ فيه القدريةُ والفلاسفة والصَّابِئَة من الشرك في ربوبية الله، وحذَّر من ذلك، وحثَّ على الدعوة إلى توحيد العبودية أكثر؛ لأنَّ الشرك فيه وقعَ من عامَّة الخَلق إلا ما شاء الله.

والواجبُ: تبيين التوحيد وشرحه والاعتناء بأنواعه كلها، فإنه لا يصحُّ الإيمان بالله إلا بذلك، ويجب ملازمة شَرْح التوحيد لكل الناس حتى للمُوحِّدين؛ وِقايةً لهم من أسباب الشرك وحفظًا لدينهم، وذلك من منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد، حيث قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، قال إبراهيم التيمي رحمه الله: «فمَن يَأْمَن على نفسه بعد إبراهيم؟!»، رواه الطبري.



قال المصنف رحمه الله:

وكذلك النوع الثاني، وهو قولهم: لا شبيه له في صفاته، فإنه ليس في الأمم مَن أَثْبَتَ قديمًا مماثلًا له في ذاته، سواءٌ قال: إنه مُشارِكه، أو قال: إنه لا فِعْل له، بل مَن شبّه به شيئًا من مخلوقاته فإنما يشبّهه به في بعض الأمور.

وقد عُلم بالعقل امتناعُ أن يكون له مِثْلٌ في المخلوقات، يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع، فإنَّ ذلك يستلزم الجَمْع بين النقيضين كما تقدَّم، وعُلم أيضًا بالعقل أن كل موجودَيْن قائمين بأنفسهما فلا بدّ بينهما من قَدْرٍ مشترك، كاتفاقهما في مُسمَّىٰ «الوجود» و«القيام بالنفس» و«الذات» ونحو ذلك، وأنَّ نَفْيَ ذلك يقتضي التعطيل المحض، وأنه لا بدّ من إثبات خصائص الربوبية. وقد تقدَّم الكلام علىٰ ذلك[1].



الشَّرح

تفرَّدَ ربُّنا بالكمال، فليس له مثيلٌ ولا نظيرٌ ولا سَمِيٌّ، فهو أَحدٌ لا شريكَ له، هذا من خصائص ربوبية إله العالَمين.

ومن كمال الله: كثرةُ صفاتِ كمالِه، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «للهِ تسعةٌ وتسعون اسمًا، مَن أَحْصَاها دخلَ الجَنَّة»، ناهِيكَ عمّا استأثر اللهُ به في عِلْم الغيب عنده من أسمائه وصفاته.

قال شيخنا العلّامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «صفاتُ مدحٍ وكمالٍ، فكلما كَثُرت وتنوّعت دلالاتها، ظهرَ من كمال الموصوف بها ما هو أكثر».

---

(١) التدمرية (ص١٨٢).

(٢) القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ (ص٢٤).

تَفرَّد الرَّبُّ بالكمال، فالإلهيةُ وَصْفُه، والعبوديةُ وَصْفُ خَلْقِه، فباتصافه بصفات الكمال وتفرُّده بذلك استحقَّ أنْ يكون ربَّ العالمين، واستلزم ذلك إفراده بالعبودية.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنه ربُّ كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمالٍ دون خَلْقه، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء عليم».

وأعمالُ الخَلق وعُلومُهم التي هداهم اللهُ بها إلىٰ أسباب مصالحهم الدينية والدنيوية، إنما هي شيءٌ يسيرٌ مما أنعمَ اللهُ به علىٰ خَلقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وعِلمُ اللهِ أحاط بكل شيءٍ، وقدرته لا يعجزها شيءٌ، وصفةُ ونوعُ قدرته وقوته ليس لها مثيل ولا نظير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

فلا يجهل أحدٌ تفرُّدَ اللهِ بالكمال إلا مَن هو من أضلِّ الخَلق، فليس شيءٌ مما اتصف به المخلوق من الصفات كصفات الله، فالمخلوقُ له مشيئة وليست كمشيئة الله، فإنَّ المخلوق لا يشاء إلا أنْ يشاء الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٦٠).

وكلُّ كمالٍ وهُدًىٰ وخيرٍ في المخلوق، فالله المُنعِم به عليه سبحانه، قال موسىٰ ﵇: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولا قدرةَ لمخلوقٍ علىٰ شيءٍ من أعماله إلا بما أَقْدره اللهُ عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ما عند المخلوق يَنْفَد، وما عند الله باقٍ، قال تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وما أعطاه اللهُ خلقه في الدنيا من الخير العظيم لمْ ينقص من مُلكه شيئًا.

أدنىٰ أهل الجنة منزلةً يوم القيامة مَن له الدنيا وعشر أمثالها، وأهلُ الجنة جمٌّ غفير، فمُلكُ الله وعطاؤه عظيم، لا يحيط أحدٌ علمًا بقَدْرِه.

الكونُ كلُّه مِلْكٌ لله، يجري فيه أَمْرُه وقضاؤُه وحُكْمُه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، والمخلوقُ لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أنْ يملكه لغيره.

يَقْبِضُ اللهُ يومَ القيامة الأرضين السَّبع بيمينه، ويَطْوِي السماوات بيده الأخرىٰ.

وما السماواتُ السَّبْع والأرضون السَّبْع بالنسبة للعرش إلا كحلقةٍ في أرضِ فَلاةٍ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

هذا بعضُ ما يسَّر اللهُ شَرْحه علىٰ حقيقة المثل الأعلىٰ، رب عظيم. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أكبر من كل شيءٍ في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله».

هذا بعضُ ما أمكنَ تبيينه في فَرْق ما بين الخالق والمخلوق، فمُبايَنَةُ الله لخَلقه تفاصيلها لا تحيط بها عبارةٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

فالخَلقُ كلهم عبيدُ الله ومماليكه، أوجدهم الله من العدم ثم إليه يُرجعون، فيحاسبهم علىٰ عبوديته، فسبحان مَن لمْ نقدره حقَّ قَدْره! ولا نحصي ثناءً عليه.

فالحاصلُ: أنَّ معرفةَ كمالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، تدفع عن النفوس أوهامَ مماثلة الله لخَلقه، وتوجب التألُّه بقصد الله وحده دون خَلقه.



(١) شفاء العليل (١/ ٣٥٥).



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ إنَّ الجهمية من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفي الصفات في مسمى «التوحيد»، فصار مَن قال: إنَّ للهِ علمًا أو قدرةً، أو إنه يُرىٰ في الآخرة، أو إنَّ القرآن كلامُ الله منزّل غير مخلوق، يقولون: إنه مُشبِّه ليس بمُوحِّد.

وزاد عليهم غلاة الجهمية والفلاسفة والقرامطة فنفوا أسماءه الحسنىٰ، وقالوا: مَن قال: إنَّ الله عليم قدير عزيز حكيم، فهو مشبِّه ليس بموحِّد.

وزاد غلاةُ الغلاة، وقالوا: لا يُوصف بالنفي ولا الإثبات؛ لأن في كلٍّ منهما تشبيهًا له.

وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شرٌّ ممّا فروا منه، فإنهم شبّهوه بالممتنعات والمعدومات والجمادات فرارًا من تشبيههم -بزعمهم- له بالأحياء.

ومعلومٌ أنَّ هذه الصفات الثابتة لله لا تثبت له علىٰ حد ما يثبت لمخلوقٍ أصلًا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا فَرْقَ بين إثبات الذات وإثبات الصفات، فإذا لم يكن في إثبات الذات إثباتُ مماثلة للذوات لم يكن في إثبات الصفات إثباتُ مماثلة له في ذلك.

فصار هؤلاء الجهمية المعطلة يجعلون هذا توحيدًا، ويجعلون مقابل ذلك التشبيه، ويسمون نفوسهم «المُوحِّدين»[1].



الشَّرح

ضلَّ الجهمية عن توحيد المعرفة وتوحيد القصد والطلب، فأنكروا ما وصف الله به نفسه، ولم يَقُمْ بقلوبهم من التألُّه لله بحقائق أسمائه وصفاته ما يوجب عبوديته بذلك.

---

(١) التدمرية (ص١٨٢-١٨٤).

ومَن كذَّب بما أخبر الله به عن نفسه وكذَّب بما أخبر به رسوله ﷺ عنه، فهذا ليس من المؤمنين؛ فإنّه لم يؤمن بالله، ولم يُصدِّق المرسلين.

فزَعْمُه أنَّ كُفْرَه توحيد، هذا هذيان بتزييف الحقائق، كدعاوىٰ اليهود والنصارىٰ أنهم الموحدون، وأن الجنة مختصة بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وهذا شأن المُكذِّبين الضَّالِّين، كَذَبُوا علىٰ الله، وكفروا بما أخبر به عن نفسه، وكذبوا علىٰ الموحدين المؤمنين بألوهية الله وبما أخبر به عن أسمائه وصفاته، فسَمّوهم ضالِّين ومُشبِّهة كافرين! وحقيقةُ الأمر: أنهم هم الكافرون الكاذبون.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

ومَن أعرض عن كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ، وجَعَل بِدَعَ الجعد بن درهم والجهم بن صفوان دينه الذي يزعم أنّه صار به من الموحدين، فهو من المُفْتَرِين الكاذبين، الذي استبدل بالإيمان كفرًا، وبالهدىٰ ضلالة، وبالتوحيد شركًا.

فالإله الحق هو الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

فمَن كذَّب وكَفَر بأسماء الله وصفاته فهو من الملحدين وليس من الموحدين،

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠].

نحن أخذنا ديننا عن الصحابة الذين تَلَقَّوه عن النبي ﷺ، فأتباعهم بإحسان هم الموحدون، وأتباع الجهم هم الكافرون، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال شريك بن عبد الله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نحن أخذنا ديننا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ».

نحن أخذنا ديننا عن التابعين الذين تَلقَّوه عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا والتابعون متوافرون، نقول: إنّ الله في السماء، ونؤمن بما ورد من أسماء الله وصفاته».

والقرآن فُرقانٌ، مَن اهتدىٰ به بفهم السلف تَبيَّن له الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، والمُوحِّد من الكافر.

ومِنْ كُفْرِ الجهمية وفروعهم: عدولهم عن الاهتداء بالقرآن الذي جعله الله هداية للعالمين إلىٰ أقوال الجعد والجهم، وما ابتدعوه من القواعد والمعقولات الباطلة.

فالموحدون المؤمنون هم الذين اهتدوا بالقرآن، صَدَّقوا أخباره، وانقادوا لأوامره ونواهيه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

---

(١) السُّنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ٢٧٣)، والصفات للدارقطني (ص١٢٠).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: تَحْصُل للمؤمنين بهذا الكتاب: الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد.

ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك، الضلال والشقاء».



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٢/ ١١٦).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك النوع الثالث، وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته، أو لا جزء له، أو لا بعض له، لفظٌ مُجمَلٌ، فإنَّ الله ﷻ أَحدٌ صَمدٌ، لمْ يلد، ولمْ يُولد، ولمْ يكن له كفوًا أحد، فيمتنع أن يتفرق، أو يتجزأ، أو يكون قد رُكِّب من أجزاء، لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نَفْيَ عُلوِّه علىٰ عرشه، ومباينته لخلقه، وامتيازه عنهم، ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلك من التوحيد[1].



الشَّرح

الله ﷻ موصوف بصفات الكمال، وصفاته قائمة به، فهو قَيُّومٌ، أَحدٌ، صَمدٌ.

وصفات العظيم كمالٌ، بها استحقَّ ألا يكون له كفوًا أحد، ولا نِدَّ، ولا نظير، وألا تصح العبادة ولا التألُّه لغيره، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فصفات الكمال القائمة بذات العظيم دالَّة علىٰ مباينته لمخلوقاته؛ وأنّه ليس كمثله شيء، وأنّه ليس معدومًا.

وإثباتُ ما أثبته الله لنفسه من صفات هو من تصديق أخبار الله ﷻ، وهو أساس توحيد الله بمعرفته وتعظيمه بصفاته، وهو أساس توحيده بعبوديته بذِكره وحَمْدِه بأوصافه وعبادته بما شرع.

(١) التدمرية (ص١٨٤، ١٨٥).

وقد انشرحت صدور المؤمنين بمعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته، فقَوِيَ لذلك تَوَكُّلهم عليه، ورغبتهم إليه، ورجاؤهم له، وخوفهم منه، وقَصَدوه تألُّهًا وعبادةً بما شَرَع.

وكان السابقون الأولون من هذه الأمَّة في ذلك أعظم وأفضل الخَلق وخير الناس علمًا وإيمانًا.

وقد استعمل المبتدعة من الألفاظ المجملة غير الواردة في القرآن والسُّنة ما استخدموه لإبطال ما دلَّ عليه الوحي من الأخبار عن أسماء الله وصفاته.

فالجهمية والمعتزلة النافية لصفات الله ﷻ يُسَمّون إثبات ما أثبته الله لنفسه من صفاتٍ تجسيمًا وتشبيهًا، وأبعاضًا وأجزاءً، فيُسَمّون اللهَ بما لَمْ يُسَمِّ به نفسه، وينفون ما أثبت الله لنفسه، واللهُ ﷻ لا يخبر عن نفسه إلا بحق، وما أخبر الله ﷻ به عن نفسه إنما أراد الله منا أن نثني عليه بصفات كماله ونعبده بحقائقها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «النُّفاة يقولون: هذا -ما أثبته الله لنفسه- تشبيه. فهم بما عَنَوْه بلفظ التشبيه والتجسيم أوجبوا أن يكون الموصوف بنفي ذلك علىٰ المعنىٰ الذي قصدوه معدومًا، بل واجب العدم ممتنع الوجود؛ وإن كان اللفظ يحتمل نفي معانٍ باطلة، مثل: نفي كونه مشابهًا للمخلوقات مماثلًا لها من بعض الوجوه؛ فإنّ نفي هذا واجب، وكذلك نفي كونه يَقْبَل التفريق والتفكيك فلا يكون صمدًا أحدًا هو أيضًا واجب.

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٢٤).

فتكلَّموا أيضًا باللفظ المُجمَل المتشابه الذي يحتمل الحق والباطل، ولكن قصدوا به ما هو باطل، وإن قصدوا به ما هو أيضًا حق، أوهموا الناس أنهم لم يقصدوا به إلا نفي ما هو باطل، كما قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويوهمون جُهَّال الناس بما يشبهون عليهم»».



قال المصنف رحمه الله:

فقد تبيَّن أنَّ ما يسمونه «توحيدًا» فيه ما هو حقٌّ وفيه ما هو باطِلٌ، ولو كان جميعه حقًّا فإنَّ المشركين إذا أَقَرّوا بذلك كله لمْ يخرجوا فيه من الشرك الذي وَصَفهم الله به في القرآن، وقاتَلَهم عليه الرسول ﷺ، بل لا بدّ أن يعترفوا بأنه (لا إله إلا الله)(١).

الشَّرح

كلمة التوحيد تحقيقها هو الأساس الذي يَقُوم عليه بنيان الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

والباطل من بدعةٍ وشركٍ قد يُضادُّ أَصْلَ التوحيد فيحبطه، وقد يضاد كماله فينقصه.

وقد حذَّرنا الله ﷻ من باطلٍ يَعُود علىٰ الحق بالبطلان والفساد والحبوط كليًّا، فقد حذَّرنا من عقيدة المشركين الذين كانوا يؤمنون بربوبية الله ويشركون بعبوديته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

---

(١) التدمرية (ص١٨٥).

والجهمية والمعتزلة المعطلة النفاة لصفات الله ﷻ، حقيقةُ عقيدتهم ومذهبهم وضلالاتهم وشبهاتهم: إبطالُ ألوهيةِ الله ﷻ، وكان أصلُ نشأة مذهبهم إنكار صفة الكلام والمحبة لله، وفي ذلك قدحٌ في القرآن كلام الله الذي بَلَّغه محمد ﷺ.

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «إنّ الإله على الحقيقة هو الغني الصَّمد الكامل في أسمائه وصفاته، الذي حاجَةُ كلِّ أَحدٍ إليه، ولا حاجة به إلىٰ أَحدٍ، وقيام كل شيء به، وليس قيامه بغيره».

وقال ابن القيم[(٢)]: «الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العِباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات، ولذلك كان أكمل الخَلق فيه أعرفهم بالله وأسمائه وصفاته».

وهذه الجملة من العقيدة التدمرية هي دعوة لتحقيق التوحيد، ودَفْع شوائب الشرك عنه.

وتنقيةُ القلب من دَغَلِ الشرك والعقائد الباطلة، ومَلْؤُه بحقائق التوحيد ومعانيه هو من التزكية التي أمر الله بتغذية القلوب بها، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].



(١) طريق الهجرتين (ص١٣٩).
(٢) طريق الهجرتين (ص١٣٩).

قال المصنف رحمه الله:

وليس المراد «بالإله» هو القادر على الاختراع، كما ظنَّه مَن ظنَّه من أئمة المتكلمين، حيث ظنَّ أن الإلهية هي القدرة على الاختراع، وأنَّ مَن أقرَّ بأنَّ الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أنه لا إله إلا هو، فإنَّ المشركين كانوا يقرُّون بهذا وهم مشركون -كما تقدَّم بيانه-.

بل الإله الحق هو الذي يستحقُّ أنْ يُعبَد فهو إلهٌ بمعنى مَأْلُوه، لا إله بمعنى آلِه.

والتوحيد: أنْ يُعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك: أنْ يُجعل مع الله إلهًا آخر[(١)].

الشَّرح

التوحيد هو حقيقة الدين، وما خُلقت الدنيا إلا لعمارتها بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا يوجب على المسلمين طلب عِلْمِ التوحيد وتحقيقه وهداية الخَلق إليه بتعليمه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩].

قال العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «التوحيد في اللغة: مشتق من وحَّد الشيء إذا جعله واحدًا، فهو مَصْدَرُ وَحَّد يُوَحِّد، أي: جعل الشيء واحدًا.

وفي الشرع: إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

(١) التدمرية (ص١٨٥، ١٨٦).
(٢) شرح كتاب التوحيد (ص١).

وينقسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]».

والتوحيد ينقسم إلىٰ قسمين: توحيد علمي وتوحيد عملي.

فالتوحيد العلمي: هو توحيد الله بأفعاله، وإثبات صفات الكمال له، واعتقاد تفرُّده وحده بالألوهية، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والتوحيد العملي: هو قَصْدُ الله وحده بالعبادة، فهو إفراد الله بعبادات المُكلَّفِين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «المسلمون يقولون كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والتوحيد الذي جاءت به

(١) الصفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية، وهو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين: أحدهما: القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته، فلا يُوصف بنقصٍ بحالٍ، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فالصَّمَدِيَّةُ تُثْبِتُ له الكمال، والأَحَدِيَّةُ تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

والتوحيد العملي الإرادي: ألَّا يُعبد إلا إياه، فلا يُدعَىٰ إلا إياه، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]».

وليس معنىٰ الإله: القادر علىٰ الاختراع، فقد كان المشركون يعتقدون ربوبية الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

فالإله: هو الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا وإجلالًا.

وتعريف المتكلمين للتوحيد بالقدرة علىٰ الاختراع، أرادوا به أن يكون التوحيد قولًا بلا عبادة، وأرادوا به تعطيل كمال الله بنفي صفاته، فهذا التعريف من أسباب الشرك والكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هم إذا ادعوا التوحيد؛ فإنما توحيدهم بالقول، لا بالعبادة والعمل، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله، وعبادته وحده لا شريك له، وهذا شيء لا يعرفونه.

والتوحيد الذي يَدَّعونه: إنّما هو تعطيل حقائق الأسماء والصفات، وفيه من الكفر والضلال ما هو من أعظم أسباب الإشراك.

فلو كانوا مُوحِّدين بالقول والكلام -وهو أن يصفوا الله بما وصفته به رُسُله- لكان معهم التوحيد دون العمل، وذلك لا يكفي في السعادة والنجاة، بل لا بد من أنْ يَعبد الله وحده ويتخذه إلهًا دون ما سواه، وهو معنىٰ قول (لا إله إلا الله)، فكيف وَهُمْ في القول والكلام مُعَطِّلُون جاحدون، لا مُوحِّدُون ولا مخلصون».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإلهية تتضمَّن استحقاقه للعبادة والدعاء؛ لا أنها بمعنىٰ القدرة علىٰ الاختراع -كما يُذكر ذلك عن الأشعري-؛ فإنّ هذا هو الربوبية التي كان المشركون يُقِرُّون بها».

فتعريف المتكلمين والمبتدعين للتوحيد ليس فيه الأمر بعبودية الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، وفيه تعطيلٌ لتألُّه القلوب لله محبةً وتعظيمًا ورغبةً ورهبةً، فهو تعريفٌ يُبْطِل حقيقة التوحيد.



(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٣٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٤٢).

قال المصنف رحمه الله:

وإذا تَبيَّن أن غاية ما يقرّره هؤلاء النُّظّار، أهل الإثبات للقَدَر المنتسبون إلىٰ السُّنة، إنما هو توحيد الربوبية، وأنَّ الله ربُّ كلِّ شيء، ومع هذا فالمشركون كانوا مُقِرِّين بذلك مع أنهم مشركون، فكذلك طوائف من أهل التصوف المنتسبين إلىٰ المعرفة والتحقيق والتوحيد، غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد، وهو أن يشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، لاسيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية، بحيث يفنىٰ مَن لم يكن، ويبقىٰ مَن لم يزل.

فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها، ومعلومٌ أن هذا هو تحقيق ما أَقَرَّ به المشركون من التوحيد، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا، فضلًا عن أن يكون وَلِيًّا لله أو من سادات الأولياء.

وطائفة من أهل التصوف والمعرفة يُقِرُّون هذا التوحيد مع إثبات الصفات، فَيَفْنَوْنَ في توحيد الربوبية مع إثبات الخالق للعالَم المُبائِن لمخلوقاته.

وآخرون يَضُمُّونَ هذا إلىٰ نفي الصفات فَيَدْخُلُونَ في التعطيل مع هذا. وهذا شرٌّ من حالِ كثيرٍ من المشركين[١].


الشَّرح

توحيد الربوبية لا يصير به العبد مسلمًا؛ فقد كان هذا اعتقاد مشركي العرب، ومعرفةٌ قاصرة علىٰ توحيد الربوبية من غير تألُّهٍ لله بعبوديته وبإثبات كمال صفاته، فهذا كفرٌ وزيغٌ وضلالٌ.

(١) التدمرية (ص١٨٦-١٨٨).

ومَن كان مُعطِّلًا نافيًا لصفات الله فقد أبطل أساس التوحيد، ومَن كان كذلك ولم يتجاوز اعتقاده معرفة أنّ الله رب كل شيء، ولم يتألَّه لله بحقائق أسمائه وصفاته، ولم يُفرده بالعبادة -كحالِ بعض الصوفية-، فهو من الضالين.

وذاتٌ غير موصوفة بصفات الكمال فذلك ضلالٌ في الاعتقاد، وهو إبطالٌ لحقيقة الألوهية، فالمسلمون إنما أفردوا الله بالعبادة؛ لتفرُّده بالكمال، فهو أَحدٌ صَمدٌ.

فنفيُ صفات الله تجهُّمٌ وليس بتوحيد، ومَن لم يعبد الله وكان اعتقاده مجرد معرفة أنّ الله رب كل شيء فهو جهمي، وقد ابتُلي كثيرٌ من الخَلق والطوائف بضلال الجهمية كالصوفية والمرجئة.

فالتوحيد ليس هو مجرد العلم بأنّ الله رب العالمين، والتوحيد العلمي والعملي متلازمان، فمَن لم يعبد الله كان ضالًّا في معرفته بربوبيته؛ حيث لم تَهْدِهِ إلىٰ التألُّه لله.

وفِرَقُ التصوف أنواع، شرُّها الصوفية الباطنية الرافضية الجهمية.

ومِن شَطْحِ بعضِ الصوفية: ادِّعاء النبوة، وابن عربي الطائي الحلولي الاتحادي كان ينكر اسم الله (العَلِي)، ويقول: من أسمائه الحسنىٰ (العلي)، العلي علىٰ ماذا، وما ثَمَّ إلا هو؟ أعاذ الله المسلمين من هذيان الصوفية.

ومَن كان يعتقد الله خالقًا، لو صحَّ منه هذا الاعتقاد لاستلزم له عبودية الخالق، ولكنَّ فِرَق الجهمية بأنواعها ضالُّون في العلم الضروري الفطري، مُعطِّلون للعمل، فلا هم الذين عبدوا الله، ولا هم الذين تحققوا بالعلم الصحيح.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا يصلح أن يكون غير الله مرادًا مقصودًا لنفسه، كما لا يكون غيره موجودًا بنفسه، بل وحدانيته واجبة في كونه ربًّا خالقًا، وفي كونه إلهًا معبودًا، فمَن لمْ يكن الله معبوده الذي هو غاية مراده، فلا بد أن يعبد ما سواه، فيكون ذلك مراده، وحينئذٍ فيكون فاسِدَ الإرادة فاسد العمل، يَضرّه ذلك ولا ينفعه، وهذا مما يُبيِّن بعض معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والمعبود المراد المحبوب لا يكون إلا موجودًا؛ فإنَّ المعدوم لا يُراد لذاته، وما كان منفي الصفات لم يكن إلا معدومًا؛ فإنَّ إثباتَ ذاتٍ بلا صفات، أو وجود مطلق لا يتعين؛ إنما يتحقق في الأذهان، لا في الأعيان، فمَن لمْ يُثْبِتْ لله الصفات لمْ يُحقِّقْ عبادته له، فلهذا وغيره كان الشرك بعبادة غير الله واقعًا في نفاة الصفات».



(١) شرح الأصبهانية (ص١١٥، ١١٦).

قال المصنف رحمه الله:

وكان جَهْمٌ ينفي الصفات، ويقول بالجَبْر، فهذا تحقيقُ قولِ جهمٍ، لكنه إذا أثبت الأمر والنهي، والثواب والعقاب، فارَقَ المشركين من هذا الوجه، لكنّ جهمًا ومَن اتَّبعه يقول بالإرجاء، فَيَضْعُفُ الأمر والنهي والثواب والعقاب عنده[1].



الشَّرح

الجَهْمُ بنُ صَفوان ترمذيٌّ، مُتكلِّمٌ مُعطِّلٌ جَبْرِيٌّ مُرْجِئٌ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «كان ممَّا بَلَغنا من أمر الجَهْم -عدو الله- أنّه كان من أهل التِّرْمِذ، وكان صاحب خصومات وكلام».

وقال العلَّامة أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «الجهمية: أتباع جهم بن صفوان التِّرْمِذِي مولىٰ راسب، وقُتل في آخر دولة بني أُمَيَّة، وهو ينفي الصفات الإلهية كلها، ويقول: لا يجوز أن يُوصف الباري بصفة يُوصف بها خَلْقُه، وأنّ الإنسان لا يقدر علىٰ شيء، ولا يُوصف بالقدرة ولا الاستطاعة، وأنّ الجنة والنار يفنيان وتنقطع حركات أهلهما، وأنّ مَن عرف الله ولم ينطق بالإيمان لم يَكْفُر؛ لأنّ العلم لا يزول بالصمت، وهو مؤمنٌ مع ذلك.

وقد كفَّره المعتزلة في نفي الاستطاعة، وكفَّره أهلُ السُّنة بنفي الصفات وخَلْق القرآن ونفي الرؤية.

(١) التدمرية (ص١٨٨-١٩٠).

(٢) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص١٩٦).

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٧٦، ١٧٧).

وانفردَ بجواز الخروج علىٰ السلطان الجائر، وزَعَم أنَّ عِلْمَ الله حادِثٌ لا بصفة يُوصف بها».

ومَن أدرك الجهم من السلف حكىٰ إلحاده، قال مروان بن معاوية الفَزَاري رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «جهمٌ مكثَ أربعين يومًا لا يَعْرِفُ ربَّه».

والجهم شيخه الجعد بن درهم، وكان هو الأصل في بدعة التعطيل، وقد أوقعا في الأمَّة من الضَّلال والشر ما اللهُ به عليم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]: «إنّ أول مَن حُفظ عنه أنّه قال هذه المقالة -نفي صفات الله- في الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنُسبت مقالة الجهمية إليه».

وقد تَلقَّىٰ بدعة الجهم بِشْر المريسي، تلقَّاها من أتباع الجهم، ودعا إليها، وعَظُمَ بذلك شرُّ الجهمية، وأفسدت ضلالاتهم دين الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بِشْر المريسي كان من المرجئة، من كبار الجهمية»[(٣)].

وشُبهات المريسي التي أفسد بها دين الإسلام هي عقيدة الأشاعرة، فهم من فروع الجهمية، فهي الشبهات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتابه «التأويلات»،

---

(١) خلق أفعال العباد (ص٥٤٦- رقم ٧٢).

(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٣٢-٢٣٤).

(٣) منهاج السنة (٢/ ٦٠٤)، باختصار.

وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه «تأسيس التقديس»[١].

وتعطيل الجهمية كان من أسباب الشرك، ومن الجهمية مَن عطَّل عبادة الله، وهذا كله من شرور نفي صفات الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مَن غلب عليه التعطيل من الجهمية لا يعبد شيئًا، ومَن عَبد منهم شيئًا صار إلىٰ الحلول، ولهذا -كما قيل-: متكلِّمة الجهمية لا يعبدون شيئًا، ومتصوِّفة الجهمية يعبدون كل شيء».

فحقيقة دين الجهمية إنكار أحدية الله، وتعطيل صمديته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كان السلف والأئمة مطبقين علىٰ تكفير الجهمية، حيث كان ظهور مخالفتهم للرسول ﷺ مشهورًا معلومًا بالاضطرار لعموم المسلمين».

وأساس دين الجهمية نفيُ صفات الله ﷻ، فمَن اعتقد دين الجهمية لمْ يعبد الله.

قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي (ت: ٢٨٠هـ)[٤]: «فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمَن قصد بعبادته إلىٰ إلهٍ بخلاف هذه الصفات؛ فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده بإلهٍ».

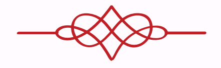
(١) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ (ص٢٤٥، ٢٤٦).
(٢) شرح الأصبهانية (ص١١٤).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٧٣).
(٤) الرد علىٰ الجهمية (ص٤).

ومِن ضلال الجهمية: اعتقادهم أنّ الله لا يفعل ولا يشاء لحكمة، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذهَبَ الجهم بن صفوان ومَن وافقه من متكلمة الصفاتية إلىٰ أنّه لا يفعل شيئًا لحكمة، فلا يَخْلُق لحِكْمة، ولا يأمر لِحِكْمة».

فدينُ الجهمية تكذيبٌ للقرآن والسُّنة، ومخالفة للفطر المستقيمة والعقول الصريحة، وهو في حقيقته إنكارٌ لحقيقة وجود الله ومباينته لخلقه.

وحاصِلُ دِين الجهم علىٰ ما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تَأَوَّلَ القرآن علىٰ غير تأويله، وكذَّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزَعَم أنّ مَن وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدّث عنه رسول الله ﷺ كان كافرًا، وكان من المشبهة، فأَضَلَّ بَشَرًا كثيرًا».



(١) شرح الأصبهانية (ص٤٠٩).
(٢) الرَّدُّ علىٰ الزنادقة والجهمية، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٣٠، ٣٣١).

قال المصنف رحمه الله:

والنَّجَّارِيَّةُ والضِّرارِيَّة وغيرُهم يَقْرَبُونَ من جهمٍ في مسائل القدَر والإيمان، مع مقاربتهم له أيضًا في نفي الصفات.

والكُلَّابية والأشعرية خيرٌ من هؤلاء في باب الصفات، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة، كما فَصَّلتُ أقوالهم في غير هذا الموضع. وأمّا في باب القدَر، ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة.

والكُلَّابية: هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، الذي سلك الأشعرئ خلفه، وأصحابُ ابن كلاب كالحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي ونحوهما خيرٌ من الأشعرية في هذا وهذا، فكلما كان الرجل إلىٰ السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلىٰ وأفضل[1].



الشَّرح

تَغلُّظُ ضَلالِ فِرَقِ المبتدعة يرجع إلىٰ شُعَبِ بِدَعِهم، فالمُعطِّلة أنواع، منهم: المعطلة التعطيل الكلي الذين ينفون كل أسماء الله وصفاته وهم الجهمية، وفي معنىٰ بدعتهم المعتزلة الذين يثبتون الأسماء دون الصفات؛ لأن نفي صفات الله حقيقته عدم الإيمان بمعاني أسماء الله. ويلي الجهمية والمعتزلة -وهم من فروعهم- مَن ينكر بعض الصفات دون بعض، وهم في ذلك درجات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في طبقات الجهمية[2]: «الجهمية علىٰ ثلاث درجات: فَشَرُّها الغالية: الذين ينفون أسماء الله وصفاته؛ وإن سَمَّوْه بشيء من

(١) التدمرية (ص١٩٠-١٩٢).

(٢) التسعينية (١/ ٢٦٥-٢٧٠)، باختصار.

أسمائه الحسنىٰ، قالوا: هو مَجاز.

والدرجة الثانية من التجهم: هو تجهُّم المعتزلة ونحوهم الذين يُقِرُّون بأسماء الله الحسنىٰ في الجملة لكن ينفون صفاته، وهم -أيضًا- لا يُقِرُّون بأسماء الله الحسنىٰ كلها علىٰ الحقيقة، بل يجعلون كثيرًا منها علىٰ المجاز، وهؤلاء هم الجهمية المشهورون.

وأمَّا الدرجة الثالثة: فهم الصِّفَاتِيَّةُ المثبتون المخالفون للجهمية؛ لكن فيهم نوعٌ من التجهم، كالذين يقرُّون بأسماء الله وصفاته في الجملة؛ لكن يردون طائفة من أسمائه وصفاته الخبرية أو غير الخبرية، ويتأوَّلونها كما تأوَّلَ الأوَّلُون صفاته كلها».

وذَكَر شيخ الإسلام هنا جملةً من فِرَقِ المبتدعة وطبقاتهم في التجهم.

ومبدأ التعطيل كان من الجهمية، وعنهم تَلقَّىٰ المعتزلة والأشاعرة بِدْعَتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «مقالة الجهمية؛ فإنّ الأئمة نسبوها إلىٰ مَن أحدث هذه المقالات، وابتدعها، ودعا الناس إليها، والمعتزلة إنّما أخذوها عنه، كما ذكر ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أنّه أَخَذَ ذلك عن الجهم قومٌ من أصحاب عَمْرو بن عُبَيْد، وأصحاب عمرو بن عبيد هم المعتزلة؛ فإنّه أول المعتزلة، هو وواصِلُ بنُ عَطاء.

وإنّما كان شعار المعتزلة أولًا هو: المنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، وبه اعتزلوا الجماعة، ثم دخلوا بعد ذلك في إنكار القدَر.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤).

وأمَّا إنكار الصفات فإنّما ظهر بعد ذلك».

أمَّا النَّجَّارِيَّة: فهم أتباع حسين بن محمد النجار الرازي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «ذهَبَ حسين النجار وطائفة من المعتزلة إلىٰ أنّ معنىٰ الواحد هو الذي لا شبيه له، كما يقولون: فلانٌ واحِدُ دَهْرِه. وقد يقولون: التوحيد يجمع المعنيين جميعًا، فالأول نفي التجسيم، وهذا نفي التشبيه، والتوحيد ينافي التشبيه والتجسيم».

ومقصود النجار: هو نفي صفات الله، وأنّه غيرُ موصوفٍ بصفةٍ تَقُوم به.

وأمَّا الضِّرارية: فهم أتباع ضرار بن عمرو القطفاني. والضرارية ينكرون الصفات الإلهية؛ فرارًا من أنْ تَقُوم بالله الأعراض -زعموا-.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «فصاروا لأجل هذا يقولون: إنّ الرب لا يَقُوم به صفةٌ: لا عِلْم، ولا قدرة، ولا كلام».

وقال شيخ الإسلام في الجهمية والمعتزلة والكَرَّامية والضرارية والهشامية[٣]: «قالوا: القرآن مخلوق، خَلَقَهُ منفصلًا عنه، بل قالوا: كلامُه مخلوقٌ خَلَقَهُ منفصلًا عنه».

علىٰ كلِّ حالٍ، شيخ الإسلام قال هنا في الرسالة التدمرية[٤]: «النجارية

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٠٦).
(٢) شرح الأصبهانية (ص٣٧٢).
(٣) شرح الأصبهانية (ص٣٧٢، ٣٧٣).
(٤) التدمرية (ص١٩٠، ١٩١).

والضرارية وغيرهم يَقْرُبُون من جهمٍ في مسائل القدَر والإيمان، مع مقاربتهم له أيضًا في نفي الصفات».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «دخلَ في التَّجَهُّم من أهل الكلام؛ كالضِّرارية والنَّجَّاريَّة».

والكُلَّابية: هم أتباع محمد بن سعيد بن كُلَّاب البصري، والكُلّابية وافقوا جهمًا في أنّ الله لا تقوم به الصفات، وهذا مما يعتقده أيضًا الضِّرارية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «سَلَّمَ -ابنُ كُلَّاب- لهم -الجهمية- ذلك الأصل، الذي هو يَنْبُوعُ البدع، فاحتاج لذلك أن يقول: إنّ الرب لا تَقُوم به الأمور الاختيارية، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا نادىٰ موسىٰ حين جاء الطُّور، بل ولا يقوم به نداءٌ حقيقي».

وقال ابن كُلَّاب: إنّ القرآنَ حكايةٌ عن كلامِ الله. وقولُه في حقيقته يؤول إلىٰ قول الجهمية بنفي الكلام عن الله، وفي أنّه مخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «قَبْلَ قول ابن كُلَّاب، لا يُعرف في الأُمّة أحدٌ فسَّر كلام الله بهذا».

علىٰ كلِّ حالٍ، محمد بن سعيد الكُلّاب خالف المعتزلة؛ لكنّه وافقهم في مسائل، وكذلك تلميذه أبو الحسن الأشعري.

---

(١) الحموية (ص١٢٠).
(٢) منهاج السنة (١/ ٣١٢).
(٣) التسعينية (٢/ ٦٨٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصريُّ وأبو الحسن الأشعري كانا يخالفان المعتزلة، ويوافقان أهل السنَّة في جُمَلِ أصول السُّنة، ولكن لتقصيرهما في عِلْمِ السُّنة وتسليمهما للمعتزلة أصولًا فاسدة، صار في مواضع من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به السُّنة، وإن كانا لم يوافقا المعتزلة مطلقًا».

أمَّا أبو الحسن الأشعري، فقد كان معتزليًّا، تتلمذ أربعين عامًا لأبي علي الجبائي،

وبعد ذلك تَلَقَّىٰ الأشعري دينه عن ابن كُلّاب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هو موافِقٌ لابن كُلَّاب علىٰ عامَّة أصوله».

وفارقَ الأشعريُّ ابنَ كُلَّاب في مسألة القرآن، واستنكر قوله: «القرآن حكاية عن كلام الله»؛ لأنّها تقتضي أن تكون مثل المَحْكيِّ، وليست الحروف مثل المعنىٰ، فقال الأشعري: هو عبارة عن كلام الله ودلالة عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هؤلاء وافقوا الجهمية في نفيهم عن الله من الكلام ما نفته الجهمية، وفي أنهم جعلوا هذا مخلوقًا كما جعلته الجهمية مخلوقًا».

وقال العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «قال الأشاعرة: كلام الله هو المعنىٰ

---

(١) الاستقامة (ص١٦٥).
(٢) التسعينية (٢/ ٤٣٨).
(٣) التسعينية (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).
(٤) شرح الأربعين النووية (ص٢٥١).

القائم بنفسه، وخَلَق أصواتًا سمعها جبريل عبارة عمَّا في نفسه، وعلىٰ هذا فالقرآن علىٰ مذهب الأشاعرة مخلوق، لكن قالوا: إنّه عبارة عن كلام الله».

وممَّا انتُقد علىٰ الأشعري: اعتقاده في القدر؛ فإنّ قوله في ذلك موافق للجهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الأشعري ومَن وافقه اتّبعوا جهمًا علىٰ قوله في القدَر، وإنّ كانوا يثبتون قدرةً وكسبًا، لكن ما أثبتوه لا حقيقة له في المعنىٰ، بل قولهم هو قولُ جهمٍ، وإن نازعوه في إثبات القدرة والكسب.

ولهذا كان قولهم في نفي ما في الشريعة من الحِكم والأسباب خلاف إجماع السلف والفقهاء؛ فإنّ من أصولهم أنّ الله لا يخلق لحكمةٍ ولا يأمر لحكمةٍ».

علىٰ كلِّ حالٍ، الجهمية هم سلفُ المعتزلة والأشاعرة، وبِئْسَ السَّلفُ والخَلَفُ، وكلهم مخالفون لاعتقاد خير القرون، وكلهم عارضوا الوحي بشبهات جهمٍ وبِشْرٍ المريسي.

ومَن نشأ علىٰ شبهات جهمٍ وبشرٍ المريسي ومَن أخذ عنهم كأبي بكر بن فورك وأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، وأَعْرَضَ عن تلقِّي الهُدىٰ والحق من القرآن والسُّنة بفهم سلفِ الأُمَّة، فهو من المبتدعين الضالين، فيه من التجهُّم بحسب ما اقتبسه من شُعَبِ التجهم، زاد ما زاد.

واجتمعت فرقُ الضَّلال كلها، الجهمية بفروعها علىٰ معارضة الوحي بشبهاتٍ خيالية.

---

(١) الصفدية (٢/ ٣٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أمَّا معارضة القرآن بمعقولٍ أو قياسٍ، فهذا لم يكن يستحلّه أحدٌ من السلف، وإنّما ابتدع ذلك لمَّا ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ممَّن بنوا أصول دينهم على ما سَمَّوْهُ معقولًا ورَدّوا القرآن إليه، وقالوا: إذا تَعارَضَ العقل والشرع: إمَّا أن يُفَوَّضَ أو يتأوَّل، فهؤلاء من أعظم المجادلين في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم».

وفِرَقُ المتكلمين المبتدعة كثرت اعتقاداتهم الضالة بسبب شبهاتهم التي كذَّبوا بها الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومنهم مَن انتهىٰ به الحال إلىٰ الإلحاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الإنسان قد يعتقد صحة قضية من القضايا وهي فاسدة، فيحتاج أن يعتقد لوازمها، فتكثر اعتقاداته الفاسدة، ومن هذا الباب دخلت القرامطة الباطنية والمتفلسفة ونحوهم علىٰ طوائف المسلمين».

والمقصود هنا: التنبيه علىٰ مبدأ بدعة التعطيل، نشأتها ومُؤسِّسها، والفِرق التي تَشعَّبت منها.

وقد ذكر شيخ الإسلام في هذه الرسالة (التدمرية) العقليات التي عارض بها الجهمية وفروعهم نصوص الوحي من القرآن والسُّنة، وأزال ما في شبهاتهم من التضليل، وأَبانَ ما في ألفاظهم المجملة من المعاني المشتبهة، وتبيَّنَ لمَن فَقهَ القرآن والسُّنة بفهم السلف أن معقولات الجهمية وفروعهم خيالاتٌ باطلة وأوهامٌ كاذبة.

---

(١) الاستقامة (ص٤٧).

(٢) الصفدية (١/ ٨٨).

وفي مدارستنا لتفاوُتِ فِرَقِ الجهمية في تغلُّظِ بِدَعِهم؛ إنّما ذكرنا ذلك بحسب ما مع هذه الفِرق من المخالفة للقرآن والسُّنة وإجماع السابقين الأولين، وإلا فكلُّ هذه الفِرق: الجهمية، والمعتزلة، والنجَّارية، والضِّرارية، والكُلَّابية، والأشعرية، والماتريدية، بِدَعُهم كلها مخالفة للقرآن والسُّنة.

وفي تبيين بدعة التعطيل بنفي صفات الله التي أَحْدَثها الجهمية في الإسلام، تحذيرٌ للمنتسبين للسُّنة من تَلقِّي دِينهم عنهم، والمُوَفَّق هو الذي يَتلقَّىٰ دِينه عن السابقين الأولين؛ الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنّهم معدن العلم.

وفيما ذَكَرناه من اعتقاد الجهم تحذيرٌ منه، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: ليس قومٌ أشدَّ نقضًا للإسلام من الجهمية.



قال المصنف رحمه الله:

والكَرَّامِيَّة: قولُهم في الإيمان قولٌ مُنكَرٌ لمْ يسبقهم إليه أَحدٌ؛ حيث جعلوا الإيمان قول اللسان، وان كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمنًا، لكنه يُخلَّد في النار، فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحُكم.

وأمَّا في الصفات والقدَر، والوعد والوعيد، فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التي في أقوالها مخالفة للسُّنة[١].



الكَرَّامية هم أتباع محمد بن كَرَّام السجستاني (ت: ٢٥٥هـ)، وقولهم في صفة الكلام لله هو من فروع التجهم الذي ضَلّوا به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «قالوا: إنّه صار قادرًا علىٰ الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادرًا عليه، لكونه صار الفعل والكلام مُمْكِنًا بعد أن كان ممتنعًا؛ وإنّه انقلب من الامتناع الذاتي إلىٰ الإمكان الذاتي، وهذا قولُ المعتزلة والجهمية ومَن وافقهم من الشِّيعة، وهو قول الكرامية وأئمة الشيعة كالهاشِمِيَّة وغيرهم».

وكان الكُرَّامية مُجَسِّمة فيما يثبتونه من الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]: «هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقيُّ وغيرهما، من المُجَسِّمة الرَّافضة وغير الرافضة كالكَرَّامية».

(١) التدمرية (ص١٩٢، ١٩٣).
(٢) منهاج السنة (١/ ١٥٦).
(٣) منهاج السنة (١/ ٣١١).

والكُرَّامية مخالفون للجماعة في اعتقاد الإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «طائفة من المُرْجِئَة وهم الكرامية، الذين قالوا: إنّ الإيمان هو مجرَّد التصديق في الظاهر، فإذا فعل ذلك كان مؤمنًا -وإن كان مُكذِّبًا في الباطن-، وسَلَّمُوا أنّه مُعذَّبٌ مُخَلَّدٌ في الآخرة، فنازعوا في اسمه لا في حُكْمِه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فتسميتهم له مؤمنًا بدعةٌ ابتدعوها، مخالِفة للكتاب والسُّنة وإجماع الأُمَّة، وهذه البدعة الشَّنْعَاء هي التي انفردت بها الكرَّامية».



(١) شرح حديث جبريل (ص٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٣٠٩).



وأمَّا المعتزلة: فهم ينفون الصفات، ويقاربون قولَ جهم، لكنهم ينفون القدَر، فهم وإنْ عظَّموا الأمر والنهي والوعد والوعيد، وغَلَوْا فيه، فهم يُكذِّبون بالقدَر، ففيهم نوعٌ من الشرك من هذا الباب.

والإقرار بالأمر والنهي والوعد والوعيد مع إنكار القدَر، خيرٌ من الإقرار بالقدَر مع إنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد، ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين مَن ينفي الأمر والنهي والوعد والوعيد، وكان قد نَبَغَ فيهم القدرية، كما نبغ فيهم الخوارج الحَرُورِيَّة[1].



المعتزلة ابتدأ ابتداعُهم في إخراج فاعِلِ الكبيرة من الإسلام، وقالوا بخلوده في النار، ولا يزال بهم الضلال في مسائل الدين حتىٰ صارت لهم الأصول البدعية التي عُرفوا بها.

وحاجَّ المعتزلة في الدين بالمعقولات، فصاروا بسبب ذلك يُكذِّبون بما دلَّ عليه الوحي من العقائد، وكَثُر لذلك ضلالهم؛ فإنّهم أعرضوا عن الوحي واتخذوا وساوس الشياطين دينًا يَضلون به ويُضلون المسلمين.

وكان من أعظم ضلالهم: القول بخلق القرآن، والدعوة إليه، واستغلوا منزلتهم عند الوُلَاة العباسيين (المأمون، والمعتصم، والواثق)، فأفسدوا بذلك دين الإسلام.

(١) التدمرية (ص١٩٣، ١٩٤).

وأنكر المعتزلة رؤية الله في الدار الآخرة، وأنكروا علو الله، وأنكروا صفات الله.

ويقول المعتزلة في وصفِ الله: إنّه ليس فوق العالَم ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، وليس في جهةٍ، ولا يقوم به علمٌ، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا كلام. فهم يصفون عدمًا.

والإيمان عند المعتزلة قطعة واحدة، إمَّا يبقىٰ كلُّه أو يذهب كلُّه، ولا يقولون بزيادة الإيمان ولا نقصانه، والزيادة عندهم: ما يلزم بعض المكلفين مما لا يجب علىٰ غيرهم.

والاعتقاد الحق: أنّ الإيمان ذو شُعبٍ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لا يذهب كلُّه إلا بنواقض الإسلام.

وأنكر المعتزلة شفاعة النبي ﷺ، وأنكروا أنّ الجنة والنار مخلوقتان.

ويُسمِّي المعتزلة نفي الصفات توحيدًا، ويسمون أنفسهم الموحدين.

ويسمي المعتزلة التكذيب بالقدر عدلًا، ويقولون بأنّ العِباد يخلقون أفعالهم، فكانوا بذلك مجوسًا، أثبتوا خالقًا مع الله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة: هو إلزام الغير بعقيدتهم في الأسماء والأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين لأصحاب الكبائر، ومسألة إنفاذ الوعيد، وجواز الخروج علىٰ الأئمة بالقتال.

وشيوخ المعتزلة أئمةُ ضَلالٍ، دعاة إلىٰ النار، منهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، وإبراهيم بن سيار النظام، وابن أبي دُؤَاد،

وحفص الفرد، وغيرهم كثير.

والمعتزلة والجهمية هم شيوخ الأشاعرة، فأبو الحسن الأشعري كان تلميذًا لأبي علي الجبائي أربعين عامًا.

وتأويلات أبي بكر بن فورك وشبهات محمد بن عمر الرازي هي بعينها تأويلات بِشْر المريسي.

وهكذا الأشاعرة في المغرب العربي تَلَقَّوا دينهم عن المعتزلة، وتَسَمَّوا باسمهم ودعوا إلىٰ عقيدتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعتزلة[1]: «يُسَمّون أنفسهم «الموحِّدين»، والعلم الذي يعلم له هذا «علم التوحيد»، وهذا عندهم أول «الأصول الخمسة» التي هي عندهم: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن هنا أخذ محمد بن التومرت هذا اللقب، وسَمَّىٰ طائفته «الموحِّدين»، ووضع لهم «المرشدة» المتضمنة لمثل عقيدة المعتزلة وغيرهم من الجهمية في التوحيد».



(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٠٢، ١٠٣).

قال المصنف رحمه الله:

وإنما يَظْهر من البدع أولًا ما كان أخف، وكلَّما ضَعُفَ مَن يقوم بنور النبوة قَوِيَتِ البدعةُ[(١)].

الشَّرْح

أفادنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن قيام العلماء بإنكار البدع والرد عليها من أسباب ضَعْفِها واضْمِحْلَالِها، وهذا ممَّا يدفع الله به فساد المبتدعين بجهاد العلماء الناصحين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والردُّ علىٰ البدع هو من أسباب حفظِ الدين من التحريف والتغيير والتبديل والإفساد، وهو من النصيحة لله ﷻ وكتابه، ورسوله وسُنَّتِه ﷺ، وأئمة المسلمين وعامتهم، وهو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن التواصي بالحق، ومن التعاون علىٰ البِر والتقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

والردُّ علىٰ البدع هو من الإحسان إلىٰ المسلمين؛ فإنَّ البدع مردودة، لا يَقْبَلها الله، والناس إنما يدخلون الجنة بما يُتقبَّل من أعمالهم، والبدع الشركية تُخرِج

(١) التدمرية (ص١٩٤).

الناس من الإسلام، فالواجبُ: هداية الناس إلىٰ الدين الصحيح، وتحذيرهم من الشرك والبدع.

فمِنَ البدع ما يُفضِي إلىٰ أن يعبد الإنسان عدمًا، لا إلهًا كاملًا، وهي بدعة التعطيل، كبدعة الجهمية والمعتزلة وفروعهم من الأشاعرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «حقيقة أَمْرِهم: عبادة العدم المحض، والنفي الصرف».

ومن البدع ما يفضي إلىٰ أن يعبد الناس مخلوقًا مثلهم، كالاستغاثة بالموتىٰ من المخلوقين.

ومن البدع ما يؤدي إلىٰ هدمِ الدين كله، كبدعة الرافضة الذين يُكفِّرون الصحابة نَقَلة الشريعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن هؤلاء[٢]: «هذا لا رَيْبَ في كُفرِه؛ لأنه مكذِّبٌ لِمَا نصّه في القرآن في غير موضع: من الرضا عنهم -الصحابة- والثناء عليهم، بل مَن يَشُكُّ في كُفرِ مثل هذا فإنَّ كُفْرَهُ مُتعيِّن.

فإنَّ مضمون هذه المقالة: أنَّ نَقَلة الكِتاب والسُّنة كُفَّار، أو فُسَّاقٌ، وأنَّ هذه الأُمَّة التي هي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرها هو القرن الأول، كان عامتهم كُفَّارًا أو فُسَّاقًا، ومضمونها: أنَّ هذه الأُمَّة شَرُّ الأمم، وأنَّ سابقي هذه الأمّة هم شرارها! وكُفْرُ هذا ممَّا يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام».

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٥٨).

(٢) الصارم المسلول (ص٥٨٦، ٥٨٧).

وبعض البدع تُوقِعُ الفُرقة والمُفارَقة للجماعة، وتكون سببًا للفوضىٰ والغَوْغَائِيَّة، وانقطاع السُّبُل، وتَهارُج الرَّعية، وإراقة الدماء، كبدعة الخوارج.

وفي عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية حثٌّ علىٰ طلبِ عِلْمِ نور النبوة؛ فإنه لا يدعو إليه وينصره إلا مَن عَرَفه وأخلص لله ﷻ في أدائه للخلق.

قال العلَّامة ابن شاهين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ الحق لا يُحِقّه إلا مَن عَرَفه، ولا يُبطِل الباطل إلا مَن عرفه، ولا يعرف الحق من الباطل إلا أهل العلم، فعَوْنُ أهلِ الحق علىٰ حقهم ودَفْعُ أهلِ الباطل عن باطلهم من أفضل الأعمال، وهو عملٌ بالقرآن؛ لأن الله يقول: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]».

فالواجب علىٰ المسلم: طلبُ العِلم، وتمييز السُّنة من البدعة، ونصرة الحق والدعوة إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، وما أراده بألفاظ القرآن والحديث، هو أصلُ العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب، لينظر المعاني الموافقة للرسول ﷺ والمعاني المخالفة لها».



(١) الكتاب اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة (ص٩٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٥٥).

قال المصنف رحمه الله:

فهؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي، شرٌّ من القدرية المعتزلة ونحوهم، أولئك يُشَبَّهون بالمجوس، وهؤلاء يُشَبَّهون بالمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، والمشركون شرٌّ من المجوس.

فهذا أصلٌ عظيم، على المسلم أن يعرفه؛ فإنه أصلُ الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[1].



الإيمان بالرسالة ضرورة؛ لأن الله ﷻ بعث رسوله ﷺ لبيان كيفية عبودية الله، فالإيمان بالله وبرسوله متلازمان.

والإيمان بالله واليوم الآخِر متلازمان، قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، فالحساب والثواب يكون علىٰ عبودية الله وتوحيده، فالله خلقنا لتوحيده، وتصديق خبره، والانقياد لأمره ونهيه، والحساب يكون علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

فالدين كله حقيقته ومعناه في الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فهو تجريد التألُّه والعبودية لله وحده، وتجريد الاتباع لرسول الله ﷺ.

(١) التدمرية (ص١٩٥).

قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المتابعة لكتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ هي حقيقة دين الإسلام الذي افترضه الله علىٰ الخاص والعام، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنة، والأشقياء أهل النار؛ إذ معنىٰ الإله: هو المعبود المطاع».

فالتوحيد والرسالة متلازمان؛ فإنَّ الرسالة تضمَّنت بيان كيفية عبودية الله ﷻ وصراط الله المستقيم الموصل إلىٰ دارِ كرامته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ثبوت الرسالة مَلْزُومٌ لثبوت التوحيد، وأنه «لا إله إلا الله» من جهة أن الرسول ﷺ أخبر بذلك، ومن جهة أنه لا يقدر أحد علىٰ الإتيان بهذا القرآن إلا الله».

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ ببيانه من الدين، أسألُ أنْ يهدينا صراطه المستقيم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «اقتضت الآية إثبات: الشرع، والقدر، والمعاد، والنبوة؛ فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمُنعَم عليهم رُسُله وأتباعهم ليس إلا، وهداية أتباعهم إنما يكون علىٰ أيديهم، فاقتضت إثبات النبوة بأقربِ طريقٍ وأَبْيَنِها وأَدَلِّها علىٰ عموم الحاجَةِ وشدة الضرورة إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المُنعَم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا علىٰ أيدي الرسل،

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ١١٨).
(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٥٠٥).
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٣).

وأنَّ هذه الهداية لها ثمرة، وهي: النعمة التامة المطلقة في دار النعيم».

والرسالة إنما أوحىٰ الله بها إلىٰ رسوله ﷺ ليعبدوه، والرسل بيَّنت العبادة التي يَحْصُل بها تحقيق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ التوحيد -وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله»- هو أنْ يُعبد الله، وهو تعالىٰ إنما يُعبد بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

فكلُّ عملٍ من أعمال البِر فهو جزءٌ من التوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن الله سبحانه جعَلَ الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يُصْلِحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعًا بالدعوة إلىٰ الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

فالأصل الأول يتضمَّن: إثبات الصفات والتوحيد والقدَر، وذِكْر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قَصَّها علىٰ عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني يتضمَّن: تفاصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث يتضمَّن: الإيمان باليوم الآخِر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ١٢١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٥، ٩٦).

وعلىٰ هذه الأصول الثلاثة مَدارُ الخَلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من جهة الرسل».

والإيمان بالله ﷻ يستلزم طاعة رسوله واتباعه ﷺ، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﷻ؛ لأنه الذي أرسله بالهدىٰ ليدلَّ إلىٰ صراط الله المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «مَن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول ﷺ، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسَّىٰ به فيما فعل، ومَن فَعَل هذا فقد فَعَل ما يحبه الله، فيحبه الله».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الله -ﷻ- قد جعل محبته موجبة لاتباع رسوله ﷺ، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذا لأن الرسول ﷺ هو الذي يدعو إلىٰ ما يحبه الله ﷻ، وليس شيء يحبه الله -ﷻ- إلا والرسول ﷺ يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازِمَين».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

---

(١) العبودية (ص٨٣، ٨٤).

(٢) الجامع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٦٠).

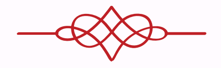
قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو ﷺ الذي جعل الرب طاعته طاعةً له في مثل قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وهو الذي لا سبيل لأحد إلىٰ النجاة إلا بطاعته، ولا يُسأل الناس يوم القيامة إلا عن الإيمان به واتباعه وطاعته، وبه يُمتحنون في القبور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وهو الذي أخذ الله له الميثاق علىٰ النبيين عليهم الصلاة والسلام، وأَمَرَهم أن يأخذوا علىٰ أممهم الميثاق؛ أنه إذا جاءهم أن يؤمنوا به، ويُصدِّقوه.

وهو الذي فَرَّق الله به بين أهل الجنة وأهل النار، فمَن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة، ومَن كذَّبه وعصاه كان من أهل النار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

والوعد بسعادة الدنيا والآخرة، والوعيد بشقاوة الدنيا والآخرة مُتعلِّقٌ بطاعته، فطاعته هي الصراط المستقيم، وهي حَبْلُ الله المَتِين، وهي العُرْوَة الوُثْقَىٰ».



(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص٤٤٥).

قال المصنف رحمه الله:

وقد وقعَ كثيرٌ من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين، أو أحدهما، مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة، فإقرار المرء بأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأن محمدًا رسول الله، فيجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فلا بد من الكلام في هذين الأصلين.

الأصل الأول: توحيد الإلهية، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عن المشركين -كما تقدَّم- بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يَدْعُونهم ويتخذونهم شفعاء من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فأخبر أن هؤلاء الذين اتخذوا هؤلاء الشفعاء مشركون، وقال تعالى عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فأخبر سبحانه عن شفعائهم أنهم زعموا أنهم فيهم شركاء، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

وقد قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، قالت طائفة من السلف: كان أقوامٌ يَدْعُون عُزيرًا والمسيح والملائكة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية بيَّن فيها أن الملائكة والأنبياء يتقرَّبون إلىٰ الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه[1].

الشَّرح

دَعا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ تحقيق التوحيد، وحذَّر من الشفاعة الشركية، وبيَّن أن اتخاذ الوسائط في دعاء الله شركٌ، وذَكَر من الآيات ما يدلُّ علىٰ أنَّ مَن يدعو من دون الله لا يملك لهم كَشْفَ الضّرِّ ولا جَلْبَ المنفعة، ولا إجابة الدعاء، ولا رزق الخَلق، وأن الله وحده هو مجيب الدعاء، ومنه يُبتغىٰ الرزق، وتجب له العبادة وحده.

(١) التدمرية (ص١٩٥-١٩٨).

ومَن دعا غير الله من مخلوق، من: نبيٍّ، أو وَلِيٍّ، أو مَلَكٍ، أو جِنٍّ، أو استغاث بغير الله فيما لا يَقْدِر عليه إلا الله فهو مشركٌ كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرَّد أيضًا من العقل؛ فإن أحدًا ليس عنده من النفع والضر مثقال ذرةٍ، لا عن نفسه ولا عن غيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] أي: المشركين».

فالذي بيده الرزق والضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، فلتقصده قلوب المسلمين وحده بكل خير، فهو وحده الذي يقدر المقادير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، تعليمًا له وللأُمَّة جميعًا: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله»، رواه أحمد والترمذي، وصحَّحه.

قال العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وَجَّهه إلىٰ أن يُوجِّه قَلْبَهُ إلىٰ الله في جميع حاجاته؛ لأنه سبحانه هو المعبود بالحق، هو المسؤول، وهو

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٠٤).
(٢) حديث الصباح (ص٢٦٨، ٢٦٩).

القائل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

فالمؤمن والمؤمنة كلاهما جدير بهما أن يُوَجِّهَا قلوبهما إلىٰ الله في جميع الحاجات: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله»، كما يقول سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، وهو المدعو والمرجو والمسؤول في جميع الأمور.

ولا يُستثنىٰ من ذلك إلا ما كان في قدرة العبد الحي الحاضر، ما كان في قدرته فلا بأس أن تسأله إياه علىٰ الوجه الشرعي، إذا كان حيًّا حاضرًا قادرًا يستطيع أن يُعِينَكَ علىٰ ما تريد، فلا بأس بالطُّرُق الشرعية، هذا مُستثنىٰ، كما قال ﷻ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]».

والنبي ﷺ علَّم الصحابة الذين سألوه أن يغيثهم من أذىٰ المنافق، أن يستغيثوا بالله، ولم يسارع إلىٰ كفِّ أذاه بما يقدر عليه ممَّا أَقْدَره الله إلا بعد أنْ شرحَ لهم توحيد الله بوجوب إفراده بالاستغاثة، وهذا من حُسنِ تعليمه صلوات الله وسلامه عليه.

فقد روىٰ الطبراني أنه كان في زمن النبي ﷺ منافِقٌ يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي؛ وإنما يُستغاث بالله».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «حقيقة قوله: «لا يُستغاث بي»، وإن كان مراده الاستغاثة الكلية، كما يُقال: لا يُستغاث بي، ولا يُتوكَّل عَلَيَّ، ولا أُدْعَا،

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

ولا أُسأل، ونحو ذلك، فمراده: النهي عن الطلب الذي لا يفعله إلا الله، كما نهىٰ عن السجود له، وكما نهىٰ أن يُقال: ما شاء الله وشاء محمد، وقال لمَن قال: ما شاء الله وشاء محمد، ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رَجُلٌ للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ، فقال: «أجعلتني لله نِدًّا، قلْ: ما شاء الله وحده»، رواه النسائي وابن ماجه، ورواه الإمام أحمد ولفظُه: «أجعلتني لله عَدْلًا، بل ما شاء الله وحده»».

ودعاء الميت أو اتخاذه واسطةً في دعاء الله شركٌ أكبر، قال تعالىٰ آمرًا نبيَّه ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله(١): «ما أَوْضَحها من آيةٍ في بيان أنَّ جُلَّ شركِ المشركين إنما هو بدعاء من أشركوا مع الله في العبادة!».

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فنزَّه الله نفسه عن شركِ مَن دعا من دونه ما لا يضر ولا ينفع، أو اتخذه شفيعًا في دعاء الله.

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله(٢): «أخبر أنه شركٌ، ونزَّه نفسه عنه».

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص١٤٩).
(٢) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج (ص٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ليس من دين المسلمين، ولا دين أحد من الرسل، لم يَسُنَّ أَحدٌ من الأنبياء للخلق أن يطلبوا من الصالحين الموتىٰ، والغائبين، والملائكة، دعاءً ولا شفاعةً، بل هذا أصلُ الشرك؛ فإن المشركين إنما اتخذوهم شفعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]».

فسؤال الموتىٰ أو اتخاذهم وسائط في دعاء الله شركٌ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا كان ﷺ نهىٰ عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور؛ لئلَّا يُفضِي ذلك إلىٰ نوعٍ من الشرك بربهم، فكيف إذا وُجد ما هو نوعٌ من الشرك من الرغبة إليهم، سواءٌ طَلَب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو طَلَب منهم أن يطلبوا ذلك من الله تعالىٰ».

أيها المسلم، إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ دعاكَ إلىٰ دعائه مباشرةً، ولم يَحْتَجِبْ دُونَ حاجتك، ونهاك أن تتخذ المخلوقين وسائط في دعاء الله وسؤاله، فالله اختار لخَلقِه الأحسن والأتقىٰ والأنفع، وهو أن تدعوه مباشرةً دون التجاءٍ إلىٰ مخلوقٍ بَشَرٍ مربوب مثلنا.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال العلَّامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أي: ذليلين صاغِرين، وهذا

(١) قاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإيمان وأهل الشرك (ص٤٢، ٤٣).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٠٤).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٩٨).

وعيدٌ شديد لمَنِ استكبر عن دعاء الله، وفيه لطفٌ بعباده عظيمٌ، وإحسانٌ إليهم جليل، حيث توعَّد مَن تَرَك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ وعاقبه بهذه العقوبة.

فيا عباد الله، وَجِّهوا رغباتكم وعَوِّلوا في كل طلباتكم علىٰ مَن أَمَركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلىٰ التعويل عليه، وكَفَلَ لكَ الإجابة به بإعطاء الطَّلِبَة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنَّ الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة».

وإنه لمِنْ سَفَهِ العقول: استغاثتها بمَن لا يستجيب لها، وبمَن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكه لغيره، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «تهدَّد سبحانه مَن دعا شيئًا من دون الله، وبيَّن أنهم لا مُلْكَ لهم مع الله، ولا شركاء في مُلكِه، وأنه ليس له عونٌ ولا ظهيرٌ من المخلوقين، فقطعَ تعلُّقَ القلوب بالمخلوقات رغبةً، ورهبةً، وعبادةً، واستعانةً».

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٧).
(٢) التوسل والوسيلة (ص٢٨٠).

فالذي اتخذ الميت مستغاثًا عَدلَ عن ربه إلىٰ مَن ليس له من الأمر شيء، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فالموحِّدون هم الذين قصدوا الله وحده في دعاء المسألة والعبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «آخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله، والشيخ الحي المُتعلّق به كالنبي، فمِنَ الميت يطلب قضاء الحاجات وكَشْف الكربات، وأمَّا الحي فالحلال ما أَحَلَّه والحرام ما حَرَّمه، وكأنهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهًا، وعزلوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يتخذوه رسولًا».



(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٠).

قال المصنف رحمه الله:

ومن تحقيق التوحيد: أن يُعلم أن الله تعالىٰ أَثْبَت له حقًّا لا يشركه فيه مخلوق، كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وكلُّ مَن أَرسَل من الرسل يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1].

الشَّرْح

(الرسالة التدمرية) كلها شرحٌ للتوحيد، وحثٌّ علىٰ تحقيقه، والتوحيد حقُّ الله علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقول النبي ﷺ لمعاذٍ رضي الله عنه: «حقُّ الله علىٰ العباد: أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» متفق عليه، فيه بيانُ أساسِ التوحيد وقاعدته، وهو التألُّه لله عز وجل وحده، ونفي التألُّه لغيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) التدمرية (ص١٩٩).

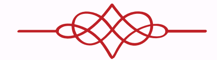
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنّها تنفي عن قَلْبِه ألوهية ما سوىٰ الحق، وتُثْبِت في قلبه ألوهية الحق.

فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين ورب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مُفرِّقًا في عِلمِه وقَصْدِه، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته: بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله تعالىٰ، ذاكرًا له، عارفًا به، وهو مع ذلك عالِمٌ بمباينتة لخَلقِه، وانفراده عنهم، وتوحّده دونهم.

ويكون مُحبًّا لله، مُعظِّمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مُحبًّا فيه، مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعينًا به، متوكِّلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره، والتوكل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره».

وتحقيق التوحيد هو حقيقة الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المقصود بجميع العبادات: أن يكون الدِّين كله لله وحده، فالله هو المعبود والمسئول الذي يُخاف ويُرجىٰ، ويُسأل ويُعبد، فله الدِّين خالصًا».



(١) العبودية (ص١٣٥، ١٣٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ١٥١).

قال المصنف رحمه الله:

وقد قال تعالىٰ في التوكل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، فقال في الإيتاء: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وقال في التوكل: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: ورسوله؛ لأن الإيتاء هو الإعطاء الشرعي، وذلك يتضمَّن الإباحة والإحلال الذي بَلَّغه الرسول، فإنَّ الحلال ما حَلَّلَهُ، والحرام ما حَرَّمَهُ، والدين ما شَرَعَهُ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

وأمَّا الحَسْبُ فهو الكافي، واللهُ وحده كافٍ عبده، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، فهو وحده حسبهم كلهم، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: حَسْبُكَ وحَسْبُ مَنِ اتَّبعك من المؤمنين هو الله، فهو كافيكم كلكم. وليس المراد أن الله والمؤمنين حسبك، كما يظنه بعض الغالطين؛ إذ هو وحده كافٍ نبيه وهو حسبه، ليس معه مَن يكون هو وإياه حسبًا للرسول. وهذا في اللغة كقول الشاعر: (فحسبك والضحاكَ سيف مهند)، وتقول العرب: حسبك وزيدًا درهم، أي: يكفيك وزيدًا جميعًا درهم.

وقال في الخوف والخشية والتقوىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ فأَثبَت الطاعة لله وللرسول، وأَثبَت الخشية والتقوىٰ لله وحده، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ فجعل العبادة والتقوىٰ لله وحده، وجعل الطاعة للرسول، فإنه مَن يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله[1].

---

(١) التدمرية (ص٢٠٠-٢٠٢).

الشَّرح

حقُّ الله الخالص لا شِرْكَةَ لأحدٍ فيه، فالإخلاص والعبادة لا تكون إلا لله وحده، لا تكون لمَلَكٍ مُقرّب ولا نبي مُرسَل.

فالتأله والعبادة والخضوع والمحبة والخشية والتوكل والاستعانة لا تكون إلا لله، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّ (الإله) هو الذي تَأْلَهُه القلوب بالمحبة والإجلال والتَّعظيم والذُّلِّ والخضوع، وتَعْبُده، والعبادة لا تصحُّ إلَّا له وحده.

والعبادة: هي كمال الحبّ مع كمال الخضوع والذُّلّ، والشِّرك في هذه العبودية من أظلم الظُّلم الذي لا يغفره الله».

والدين كله في الاستعانة بالله وعبادته وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تأمَّل ما في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾: التخصيص لذاته المُقَدَّسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ الذي هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنة من استيفاء أنواع العبادة حالًا واستقْبالًا، قولًا وعملاً، ظاهرًا

(١) الجواب الكافي (ص٥٣٢).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٦).

وباطنًا، والاستعانة علىٰ ذلك به لا بغيره، ولهذا كانت الطَّريق كلها في هاتين الكلمتين».

والدين كله في عبادة الله بما شَرَع، فعبادة الله بسلوك صراطه المستقيم هو حقيقة الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «جماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شَرَع، لا يُعبد بالبدع، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أنّ محمدًا رسول الله».

والالتجاء إلىٰ المخلوق، والخضوع له، ودعاؤه، وسؤاله ما لا يَقْدِر عليه إلا الله من الرزق والنصر، فهذا من أقبح أنواع الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنّ الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنّه المألوه المعبود، الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشَّدائد، وما سواه فهو مُفتَقِرٌ مقهور بالعبوديَّة، فكيف يصلح أن يكون إلهًا؟!

قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥]».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢].

---

(١) العبودية (ص١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٨).

قال العلَّامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا رَيْبَ أنَّ الدعاء يجتمع فيه من أنواع العبادة ما لا يجتمع في غيره من أنواع العبادات، والنداء كذلك، كتوجه الوجه والقلب واللسان للمدعوِّ، تذللًا له وخضوعًا واستكانةً ورغبةً، وهذا هو العبادة؛ لأنَّ أصل العبادة وأساسها أن يخضع غاية الخضوع والتذلل للمعبود، ولا بد مع ذلك من المحبة، فأنتَ ترىٰ ما يفعله المشركون من إقبالهم علىٰ الأموات بسؤالهم ما لا قدرة لهم عليه، وتجد عندهم من الخضوع والتذلل وإسلام الوجه والقلب والجوارح لسؤال صاحب القبر ما لا يُوجد مثله في المساجد».

ومهما عظمت رتبة المخلوق فإنّه مربوب لله، فمَن جعله في رتبة الله، أو نسب إليه شيئًا من أفعاله، أو صرف إليه حقًّا من حقوقه فقد أشرك، قال النبي ﷺ لمَن قال له: ما شاء الله وشئتَ!: «أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده»، رواه أحمد من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مَن جَعَل لله ندًّا من خلقه فيما يستحقه عَزَّ وَجَلَّ من الإلهية والربوبيَّة، فقد كفر بإجماع الأمَّة».

فالواجبُ: تعظيمُ حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يُصرف شيء منه إلىٰ مخلوق.

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس علىٰ قلب داود بن جرجيس (ص٧٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٨).

والواجبُ: التمييز بين حق الله وحق المخلوق، فالرسول محمد ﷺ واجبٌ طاعته؛ لأنّه مُبلِّغ عن الله شَرْعه، واللهُ ﷻ هو الذي أمر بطاعته، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، أمّا طاعة الله ﷻ فهي طاعةُ تألُّهٍ؛ لتفرُّدِه وحده سبحانه بالكمال.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].



قال المصنف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية شقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما هو الشرك، ألَمْ تسمعوا إلىٰ قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

الشَّرح

إيمان المسلم بربوبية الله عز وجل وأسمائه وصفاته يوجب عليه إفراده بالعبادة، والخشية، والتوكل، والطاعة، وألا يُشرِكَ بربه أحدًا.

وقد أَمَر الله عز وجل سيد ولد آدم محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس: إنّه لا حقَّ له في العبودية؛ إنّما هو رسولُ الله مُبلِّغ عنه وَحْيَهُ وشَرْعَه.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) التدمرية (ص٢٠٢-٢٠٤).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ عبدٌ من عبيد ربي، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: فُضِّلتُ عليكم بالوحي، الذي يوحيه إليّ، الذي أَجَلُّهُ الإخبار لكم، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرةٍ، وأدعوكم إلىٰ العمل الذي يقربكم منه، ويُنِيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه».

وحقُّ الله علىٰ عباده أَوْجَبَهُ تفرُّده بالكمال، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، فكما أنه لا كفؤ له في ذاته وصفاته، فلا تجعلوا له ندًّا في عبادته.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «فلمَّا قرَّر كماله المطلق، بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلوه علىٰ عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه؛ نتجَ من ذلك أنّه المستحق للعبادة، وأنّ عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ، ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء، إلا هو.

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنىٰ، من حُسْنِها:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ١٨٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٢٥).

أنّها كلها أسماء دالَّة على المدح، فليس فيها اسمٌ لا يدلُّ على المدح والحمد.

ومن حسنها: أنّها ليست أعلامًا محضة، وإنّما هي أسماء وأوصاف.

ومن حسنها: أنها دالَّة على الصفات الكاملة، وأنّ له من كل صفةٍ أكملها وأَعَمّها وأَجَلّها.

ومن حسنها: أنّه أَمَر العباد أن يدعوه بها؛ لأنّها وسيلة مُقرَّبة إليه يحبها، ويحب مَن يحبها، ويحب مَن يحفظها، ويحب مَن يبحث عن معانيها، ويَتعبَّد له بها».

وكلُّ عملٍ تضمَّن الشرك بالله، فهو ظلمٌ عظيم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهو مُحبِطٌ للعمل، قال تعالىٰ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمشرك مُخلَّدٌ في نار جهنم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومَن أَنْعَمَ علىٰ خلقه بنعمه، ورَبَّاهم بنور وحيه؛ وجب عليهم عبادته وحده، وقد ذَكَر شيخ الإسلام ابن تيمية حُسْنَ مَآب الموحدين، فلهم الأمن وهم مهتدون، مستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقولُ النبي ﷺ: «حقُّ الله علىٰ عباده: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا»، فيه أمرٌ بإخلاص العبادة لله وحده، وتحذيرٌ من الشرك بأنواعه في الإرادات والقول والعمل.

والعبادة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يدخل في العبادة جميع خصائص الرب، فلا يُتَّقىٰ غيره، ولا يُخاف غيره، ولا يُتوكل علىٰ غيره، ولا يُدعىٰ غيره، ولا يُصلىٰ لغيره، ولا يُصام لغيره، ولا يُتصدَّق إلا له، ولا يُحجُّ إلا إلىٰ بيته».

حقُّ الله: تعظيمه وعبادته وحده بما شرع، وحقُّ رسوله ﷺ: اتباعه وتصديقه فيما يُبلِّغه عن الله من خبرٍ وأمرٍ ونهيٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وفي الدعوة إلىٰ التوحيد وعبادة الله وحده: إعلاء كلمته ودينه، وإظهار ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهُدَىٰ ودِين الحق[(٢)].



(١) الإخنائية (ص٢٧٧)، ط- دار الخرّاز- جدّة، تحقيق: أحمد العنزي.
(٢) الإخنائية (ص٢٨٦).

قال المصنف رحمه الله:

ومن هذا الباب: أنَّ النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «مَن يطع الله ورسوله فقد رَشَدَ، ومَن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا»، وقال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد».

ففي الطاعة قرنَ اسم الرسول باسمه بحرف «الواو»، وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف «ثم»؛ وذلك لأن طاعة الرسول طاعةٌ لله، فمَن يطع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة للرسول.

بخلاف المشيئة، فليست مشيئةُ أحدٍ من العباد مشيئةً لله، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إلا أن يشاء الله[(١)].



الشَّرْح

واجِبُ المسلمين جميعًا: تعظيم الله وتوحيده، والدعوة إلىٰ ذلك، والتحذير من صرفِ شيء من حقوقه إلىٰ مخلوق، وقد قام النبي ﷺ وسادات الصحابة خير الأمَّة بذلك أحسن قيام، فقد أنكر النبي ﷺ علىٰ مَن قال: «ما شاء الله وشاء محمد»، وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ وقال: «مَن كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت».

وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

(١) التدمرية (ص٢٠٤-٢٠٦).

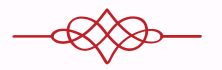
[آل عمران: ٧٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فهذا بيانُ أنّ اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفرٌ، مع وجوب الإيمان بهم».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «الملائكة والأنبياء -بل والصالحون- يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء، مع أنّه يحرم الغلو والشرك بهم».

فالعدل هو توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ بإخلاص الدين له، وعبادته وحده لا شريك له، وأعظمُ الظلم صرفُ شيء من حق الله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «التوحيد ضدُّ الشرك، فإذا قام بالتوحيد الذي هو حقُّ الله، فَعَبَدَه لم يشرك به شيئًا، ومن عبادته: التوكل عليه، والرجاء له، والخوف منه، فهذا يَخْلُصُ به العبد من الشرك. وإعطاء الناس حقوقهم وامتناعه من العدوان عليهم يَخْلُص به العبدُ من ظلمهم، وبطاعة الله يَخْلصُ من ظُلْمِ نفسه».



(١) الإخنائية (ص٤٨٥).
(٢) الإخنائية (ص٤٨٥).
(٣) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٥٢).

قال المصنف رحمه الله:

الأصل الثاني: حقُّ الرسول ﷺ، فعلينا أن نؤمن به، ونطيعه، ونتبعه، ونرضيه، ونحبه، ونُسلِّم لحُكْمِه، وأمثال ذلك، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وأمثال ذلك[1].

الشَّرْح

من وسطية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: حَثُّه علىٰ رعاية حق رسول الله ﷺ تحقيقًا لشهادة أنّ محمدًا رسول الله، وهذا من اتباع النبي ﷺ في دعوته؛ فإنّه كان يدعو إلىٰ توحيد الله مميزًا بين حق الله وحقه.

فدِينُ الله وسطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، والأمَّة الوسط هي التي أعطت كل ذي حقٍّ حقَّه، فلمْ تَغْلُ في رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولم تجعلهم أندادًا لله، ولم تصرف إليهم شيئًا من حقِّ الله الخالص، ولمْ تَجْفُوا عن حقوقهم كصفوة المخلوقين من الثناء عليهم، وإظهار فضائلهم، ونَشْر دعوتهم.

(١) التدمرية (ص٢٠٦، ٢٠٧).

ومن الاتباع للنبي ﷺ: الأخذ بسُنَّته وهَدْيِه؛ بإخلاص التوحيد لله، وعبادته وحده، وتعظيم حقه، والنهي عن الشرك، وصَرْف شيء من حقوق الله لغيره، والدعوة إلىٰ ذلك.

ومدارسة دعوة النبي ﷺ تدعو إلىٰ تعظيم حق الله، والنهي عن الشرك، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تمام العبودية: أن يُوَافِقَ الرسول ﷺ في مقصوده وَقَصْده وطريقه، فمقصوده: الله وحده، وقَصْدُهُ: تنفيذ أوامره في نفسه وفي خلقه، وطريقه: اتباع ما أُوحي إليه. فَصَحِبَهُ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ ذلك حتىٰ لحقوا به، ثم جاء التابعون لهم بإحسان، فمضوا علىٰ آثارهم.

ثم تفرَّقت الطُّرُقُ بالناس، فخيار الناس: مَن وافقه في المقصود والطريق، وأبعدهم عن الله ﷻ ورسوله ﷺ: مَن خالفه في المقصود والطَّريق، وهم أهل الشرك بالمعبود، والبدعة في العبادة، ومنهم مَن وافقه في المقصود وخالفه في الطريق، ومنهم مَن وافقه في الطريق وخالفه في المقصود».

فالواجب علىٰ المسلم: تعظيم حق الله ﷻ، وتوقير الأنبياء والصالحين بلا غلوٍّ فيهم، فيُعطىٰ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه.

وبيان انفراد الله بالربوبية والألوهية، ورتبة المخلوق وإن كان نبيًّا بالعبودية لله هو العدل الذي تجب إقامته والدعوة إليه.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧٤).

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ذَكَر هذا الوعيد في الملائكة، وخصَّهم بالذِّكر؛ تنبيهًا علىٰ أنّ **دعوىٰ الإلهية** لا تجوز لأحد من المخلوقين، لا مَلَك ولا غيره؛ وإنّه لو قُدِّر وقوع ذلك من الملائكة لكان جزاؤه جهنم، فكيف مَن دونهم؟!».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ مَن آتاه الله فضلًا من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبدًا، إذًا لا يرتقي إلىٰ منزلة الرُّبوبيَّة، فالرسول ﷺ عبدٌ من عباد الله، فلا نقول لمَن نزل عليه الوحي: إنّه يرتفع حتىٰ يكون ربًّا يملك النَّفع والضَّرر، ويعلم الغيب».

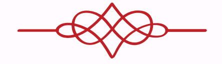
وقال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنّ النصارىٰ عظَّموا الأنبياء حتىٰ عبدوهم، وعبدوا تماثيلهم، واليهود استخفُّوا بهم حتىٰ قتلوهم، والأمَّة الوسط عرفوا مقاديرهم، فلم يَغْلُوا فيهم غلوَّ النصارىٰ، ولم يَجْفُوا عنهم جفاء اليهود،

(١) الرد علىٰ البكري (ص٢٣٣).
(٢) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٩٥).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٩٣).

ولهذا قال ﷺ فيما صَحَّ عنه: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم؛ فإنّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فمَن غَلَا فيهم واتخذهم أربابًا فهو كافر، ومَن كذَّب شيئًا مما جاءوا به، أو سبَّهم، أو عابَهم، فهو كافر، فلا بد من رعاية هذا الأصل وهذا الأصل».



(١) الإخنائية (ص٣٧٧).



فصلٌ.

إذا ثبتَ هذا، فمن المعلوم أنه يجب الإيمان بخلق الله وأمره: بقضائه وشرعه.

وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلىٰ ثلاث فِرَقٍ: مجوسية، ومشركية، وإبليسية.

فالمجوسية: الذين كذّبوا بقدر الله، وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدتهم أنكروا عموم مشيئة الله وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومَن وافقهم.

والفرقة الثانية: المشركية؛ الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾، فمَنِ احتجَّ علىٰ تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء، وهذا قد كَثُرَ فيمَن يدّعي الحقيقة من المتصوفة.

والفرقة الثالثة: الإبليسية؛ وهم الذين أَقَرّوا بالأمرين، لكن جعلوا هذا تناقضًا من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا في حكمته وعدله، كما يُذكر مثل ذلك عن إبليس مقدمهم، كما نَقَلَهُ أهلُ المقالات، ونُقِلَ عن أهل الكتاب.

والمقصود: أنَّ هذا ممَّا يقوله أهلُ الضلال، وأمَّا أهل الهدىٰ والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، فيؤمنون بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَلِيكُه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو علىٰ كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علمًا، وكل شيء أحصاه في كتاب مبين.

ويتضمَّن هذا الأصل من إثباتِ عِلْمِ الله، وقدرته، ومشيئته، ووحدانيته، وربوبيته، وأنه خالِقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَلِيكه ما هو من أصول الإيمان.

ومع هذا لا ينكرون ما خَلَقَهُ الله من الأسباب التي يخلق بها المُسَبِّبات، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ فأخبر أنه يفعل بالأسباب[1].

الشَّرح

تحدَّث شيخ الإسلام عن الإيمان بالقدَر، وذَكَر أنه من حقائق الإيمان بالله؛ لأنه يتضمَّن إثبات عِلْم الله، وقدرته، ومشيئته، ووحدانيته، وربوبيته، وخلقه لكل شيء، وتقديره للأسباب التي يخلق بها المُسَبِّبات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: «القدَر نظام التوحيد، فمَن وَحَّد الله ولم يؤمن بالقدَر كان كُفرُه بالقضاء نقضًا للتوحيد، ومَن وحَّد الله وآمن بالقدر كان العُروة الوُثقىٰ لا انفصام لها».

فبالإيمان بالقدَر يتحقَّق التوحيد، فإذا عَلِمَ العبد أن الله هو الذي يهدي مَن يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم، وأنه الذي يثبت العبد علىٰ لزومه إلىٰ أنْ يُوَافِيه، وأنه في سَيْرِه إلىٰ الله في هذه الحياة الدنيا هو الذي يحفظه ويرزقه ويعافيه ويكفيه؛ أوجب له ذلك سؤال ربه، ودعاءه، وعبوديته، والتوكل عليه، ورجاءه.

والله ﷻ يَذْكُر ما عنده وحده من خيري الدنيا والآخرة؛ ليحثَّ خَلْقَه علىٰ

(١) التدمرية (ص٢٠٧-٢١٠).

(٢) السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/ ٤٢٢).

عبادته وحده، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «مَن تَدبَّر طريقة القرآن تبيَّن له أن الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلىٰ الوجه الأول، فهذا الوجه يقتضي التوكل علىٰ الله، والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي -أيضًا- محبته وعبادته؛ لإحسانه إلىٰ عَبْدِه وإسباغ نعمه عليه، فإذا عَبده وأَحبَّه وتَوكَّل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول.

وهكذا كمَن نزل به بلاءٌ عظيم وَفَاقَةٌ شديدة، أو خوفٌ مُقْلِقٌ، فجعل يدعو الله، وتَضرَّع إليه حتىٰ فتح له من لذيذ مناجاته له: باب الإيمان، والإنابة إليه، وما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتىٰ يطلبه ويشتاق إليه، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه.

والقرآن مملوءٌ من ذِكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذِكر نعمائه عليهم، ومن ذِكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يُحقِّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

وجُمَلُ عقيدة التوحيد والإيمان كان يُعلِّمها النبي ﷺ الصبيانَ والغِلمان، يُربِّيهم بالعقيدة الصحيحة؛ ليستقبلوا سني عمرهم بالتوكل علىٰ الله والثقة به، مع أخذهم بأسباب نَصْرِ الله وحِفْظِه.

(١) طريق الهجرتين (ص١٧٢).

قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام، إني مُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفَّت الصحف»، رواه أحمد والترمذي، وصحَّحه.

والإيمان بالقدر من توحيد الله في ربوبيته، فلا يقع شيء إلا بمشيئة الله، واللهُ خالِقٌ لفعل العبد ولكل ما يُقدِّره ﷻ، والإيمان بالقَدَر مُتعلِّق بتوحيد العبودية من جهة كَسْبِ العبد وتألُّهِه لله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رحمه الله(١): «العبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول، وملاحظة الوجه الثاني، والكمال ألا يغيب بإحدى الملاحظتين عن الأخرى، بل يشهد قضاء الرب تعالى وقَدَره ومشيئته، ويشهد مع ذلك فِعْلَه وجِنايته، وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]».

والإيمان بالقدر له متعلق بتوحيد الأسماء والصفات أيضًا؛ بإثبات عِلْم الله ومشيئته وخَلْقه، ومن جهة براءة العبد من حَوْلِه وقُوَّتِه، واستعانته بربه في الإتيان بأموره الدينية والدنيوية.

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٣).

ومراتب القدر أربعٌ، قال الشاعر:

علــم كتابــة مولانــا مشــيئته خلقــه وهــو إيجــاد وتكــوين

فالمرتبة الأولىٰ: العلم؛ وهو الإيمان بعِلم الله السابق بما سيكون من أعمال العباد وأفعالهم، فاللهُ يَعْلم ما الخَلق عاملين قبل أن يوجدهم، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لو كان كيف يكون، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «القضاء والقدَر مَنْشَؤُه عن عِلْمِ الرب وقدرته، ولهذا قال قالَ الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القدر قدرة الله.

واستحسنَ ابنُ عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفىٰ بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر».

ثم قال ابن القيم مبينًا ذلك[(٢)]: «ولهذا كان مصدر الخَلق والأمر والقضاء والشرع عن عِلْمِ الرب وعِزَّتِه وحكمته، ولهذا يقرن تعالىٰ بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال في حم فصلت بعد ذِكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وذَكَر نظير هذا في الأنعام فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢٦٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص٢٦١-٢٦٣).

فارتباط الخَلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله علىٰ الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالىٰ.

وكذلك ارتباطُ أَمْرِه بعِلمه وحكمته وعِزَّته، فهو عليمٌ بخَلقِه وأَمْرِه، حكيمٌ في خَلقِه، عزيزٌ في خلقِه وأَمْرِه، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنىٰ، والحكمة من صفاته العلىٰ، والشريعة الصادرة عن أَمْرِه مبناها علىٰ الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوثٌ بالكتاب والحكمة، والحكمة هي سُنَّة الرسول ﷺ، وهي تتضمَّن العلم بالحق والعمل به، والخبر عنه، والأمر به، فكلُّ هذا يُسمىٰ حكمة.

فكما لا يخرج مقدورٌ عن عِلْمِه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمودٌ علىٰ جميع ما في الكون من خيرٍ وشرٍّ حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقُه وأمرُه، فمصدرُ ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكارٌ لحمده في الحقيقة».

فالإيمان بالله إيمانٌ بتقديره لخَلْقِه وحكمته في شَرْعِه، وهو موجب لحمد الله علىٰ كل ما قضاه وقدَّره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تُؤمِنُ الفرقة الناجية -أهل السُّنة والجماعة- بالقدَر خيره وشره.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

والإيمان بالقدَر علىٰ درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولىٰ: الإيمان بأن الله تعالىٰ عَلِمَ ما الخَلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزَلًا، وعَلِم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخَلق: «فأول ما خَلَق اللهُ القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جَفَّت الأقلام وطُوِيَتِ الصحف، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وهذا التقدير -التابع لعلمه سبحانه- يكون في مواضع جملةً وتفصيلًا، فقد كَتَب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا، فيُؤمر بأربع كلمات، فيُقال له: اكتب رِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وعَمَلَهُ، وشَقِيٌّ أو سعيدٌ، ونحو ذلك، فهذا القدَر كان ينكره غُلاة القدرية قديمًا، ومُنكِره اليوم قليل.

وأمَّا الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات والأرض من حركةٍ ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في مُلكِه إلا ما يريد، وأنه ﷻ علىٰ كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فما من مخلوقٍ في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه».

والمخلوق له إرادة ومشيئة يختار بها الفعل، لذلك يحاسبه الله علىٰ فِعله، قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومع هذا فإنَّ عبوديته لله هو حقٌّ لله، وهو لمصلحة المخلوق في دينه ودنياه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ: «حقُّ الله علىٰ العِباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»، متفق عليه.

وعبودية المخلوق لله وطاعته هي مصلحةٌ للعبد نفسه؛ فإنه يَعْتِقُ رقبته من النار، ويَصُون نفسه عن الضار؛ فإن الله لا ينهىٰ عباده إلا عما هو مُتَمَحِّض في الضرر، أو ضررُه أكثر من نفعه، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وينهَىٰ سبحانه عما يضر بالمجتمع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالله خَلقَ الأرض وفَطَر الخَلق علىٰ الإسلام والتوحيد، وبَعَث الرسل بذلك، فلزوم التوحيد وطاعة الرسل صلاحٌ للأرض وأهلها، والخروج عن الشرع بالشرك والبدع والمعاصي إفسادٌ لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات المخبرة بأنَّ العِباد فاعلون، لا تنافي آيات القدَر المتضمنة أن الله خلق أفعال العباد؛ فإن كثيرًا من الناس تاهوا في الغايات المقصودة، كما تَاهَ كثيرٌ من

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٥٥).

الناس في الأسباب الفاعلة، ولا بد من توحيد الربوبية بأن يكون الله خالق كل شيء، وبأن يكون الله هو المعبود المقصود بذاته بالأفعال، لا سواه.

ولا يدفع ذلك من إثبات فعل العبد وقدرته ومشيئته واعتقاده، كما أنه لا بد من إثبات انتفاع العبد بالفعل، وأنه يعمل مصلحته ومنفعته؛ وأنه وإن قصد غيره فمقصده هذا؛ لأن في كون ذلك مقصودًا معبودًا صلاحه وانتفاعه».

فإذا تبيَّن أن للعبد إرادة ومشيئة يختار بها فِعْلَهُ، فلا بد أن تكون إرادته تابعةً لشرع الله وأَمرِه؛ ليحقق عبوديته لله، ولتكون أعماله علىٰ السَّداد والصواب، وتكون مصلحةً له في سعادته في الدارين، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال النبي ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتىٰ يكون هَواه تبعًا لِمَا جئتُ به»، رواه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما[1].

وبهذا نعرف أنَّ خَلْقَ الله وأَمْرَهُ كله حكمة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأن مشيئة العبد كما أنها تابعة لمشيئة الله كونًا، فلا يقع في ملك الله إلا ما شاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، إلا أنه ينبغي للعبد أن يختار ويفعل ما أمر الله به؛ لأنه تحقيقٌ للعبودية لله، ولأن أوامر الله كلها حكمة.

(١) قال الحافظ النووي رحمه الله: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، جامع العلوم والحِكم (٢/ ٣٩٣).

قال العلَّامة عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «كما أنه تعالىٰ أخبر أنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه فعَّالٌ لِمَا يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كُنْ؛ فيكون، وأنَّ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ بقدَرٍ، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض ومَن فيهن بالحق، ولم يخلقهما باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالات علىٰ الأصلين، وهما: عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر.

هذا الذي يتعيَّن علىٰ المُكلَّفِين الاعتراف به واعتقاده».

والله خَلَق عِبادَهُ علىٰ الفطرة، وكونُ المولود يُولد علىٰ الفطرة -كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- غير كافٍ وحده للحكم بإسلامِ كلِّ مولود؛ إذ لا بُدَّ له من الإيمان بالإسلام ولزوم شرائعه؛ وإلا كان كافرًا؛ لعدم انقياده، وهو كفرُ التَّوَلِّي، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أُمَّتي يدخلون الجَنة إلا مَن أبىٰ»، قالوا: ومَن يَأْبىٰ؟ قال: «مَن أطاعني دخَلَ الجَنة، ومَن عصاني فقد أَبىٰ»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مُبيِّنًا معنىٰ حديث: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة»[(٢)]: «الصواب: أنها فطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها، وهي فطرة الإسلام،

(١) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص٢٩).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٥).

وهي الفطرة التي فَطَرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقيدة الصحيحة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا يلزم من كونهم مولودين علىٰ الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإنَّ الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو تُرِكَ من غير مُغَيِّرٍ ما كان إلا مسلمًا.

وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها».

وأهل السُّنة والجماعة يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة؛ إقرارًا بربوبية الله، وافتقارًا إلىٰ هدايته، لا احتجاجًا بالقدر علىٰ الذنوب والمعاصي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العبد إذا اعترف وأَقَرَّ بأن الله خالق أفعاله كلها، فهو علىٰ وجهين: إنِ اعترف به إقرارًا بخلق الله كل شيء بقدرته، ونفوذ مشيئته، وإقرارًا بكلماته التامات التي لا يُجَاوِزهن بَرٌّ ولا فاجِرٌ، واعترافًا بفقره وحاجته إلىٰ الله؛ وأنه إنْ لَمْ يَهْدِهِ فهو ضالٌّ، وإن لَمْ يَتُبْ عليه فهو مُصِرٌّ، وإن لم يغفر له فهو هالك، خضع لعزته وحكمته، فهذا حالُ المؤمنين الذين يرحمهم الله، ويهديهم، ويُوَفِّقهم لطاعته.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٧).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣١٦، ٣١٧).

وإنْ قال ذلك احتجاجًا علىٰ الرب، ودفعًا للأمر والنهي عنه، وإقامةً لعذر نفسه؛ فهذا ذنبٌ أعظم من الأول، وهذا من أتباع الشيطان، ولا يزيده ذلك إلا شرًّا.

وقد ذَكَرنا أن الرب سبحانه محمودٌ لنفسه ولإحسانه إلىٰ خلقِه، ولذلك هو يستحقُّ المحبة لنفسه ولإحسانه إلىٰ عباده، ويستحقُّ أنْ يرضىٰ العبد بقضائه؛ لأنَّ حُكْمَهُ عدلٌ، لا يفعل إلا خيرًا وعدلًا؛ ولأنه لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، «إنْ أصابته سَرَّاء شكرَ، فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضَرَّاء صبرَ، فكان خيرًا له».

فالمؤمن يرضىٰ بقضائه؛ لِمَا يستحقّه الرب لنفسه -من الحمد والثناء-؛ ولأنه مُحْسِنٌ إلىٰ المؤمن».

والبدعةُ في القدَر ظهرت في آخر عهْد الصحابة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في آخر عصر الصحابة حدثت «القدرية»، وأصلُ بدعتهم كانت من عجزِ عقولهم عن الإيمان بقدَر الله، والإيمان بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنوا أن ذلك ممتنع، وكانوا قد آمنوا بدين الله، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد عَلِمَ قبل الأمر مَن يطيع ومَن يعصي؛ لأنهم ظنوا أنَّ مَن عَلِمَ ما سيكون لمْ يَحْسُنْ منه أن يأمر وهو يَعْلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه، وظنوا أيضًا أنه إذا عَلِم أنهم يفسدون لمْ يَحْسُن أنْ يخلقَ مَن يَعْلم أنه يُفسِد.

فلمَّا بَلَغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابةَ، أنكروه إنكارًا عظيمًا، وتبرؤوا منهم، حتىٰ قال عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أخبر أولئك أني بريءٌ منهم، وأنهم مني برآء.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦).

والذي يحلف به عبد الله بن عمر ﵄: لو أنَّ لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه، ما قَبِلَهُ الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر. وذَكَر عن أبيه حديث جبريل، وهذا أول حديث في «صحيح مسلم»، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة ﵁ مختصرًا».

ونقصُ عِلْمِ المبتدعة في القدر، وعدم قدرتهم علىٰ فقه النصوص والجمع بين الشرع والأمر والنهي؛ جعلهم ينكرون مراتب القدر كلها: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وصاروا بسبب ذلك مُبطِلين ومُعطِّلِين لتوحيد الألوهية، ومشركين في توحيد الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀[(١)]: «أصلُ ضلالهم: ظنهم أن القدر يناقض الشرع؛ فصاروا حزبين: حزبًا يُعظِّمون الشرع، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، واتباع ما يحبه الله ويرضاه، وهَجْر ما يبغضه وما يسخطه، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يُجمع بينه وبين القدر؛ فقطعوا ما أمر الله به أن يُوصَل، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يُوصَل من اتفاق الكتاب والسُّنة وأهل الجماعة، ففرَّقوا بين الكتاب والسُّنة، وفَرَّقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين، وفَرَّقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يُوصل».

وبيّن شيخ الإسلام ما وقع القدرية فيه بسبب جهلهم بالجمع بين الشرع والأمر والنهي، فقال[(٢)]: «أنكروا أن يكون الله علىٰ كل شيء قدير، ومنهم مَن أنكر أن يكون الله بكل شيء عليمًا، وأنكروا أن يكون خالقًا لكل شيء، وأن يكون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنكروا أن يكون الله فعَّالًا لِمَا يشاء».

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢١١، ٢١٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢١٢).

وأزال شيخ الإسلام جَهْلَ مَن عجز عن الجمع بين الشرع والأمر والنهي وبين ائتلاف النصوص، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إرادته -سبحانه- قسمان: إرادةُ أمرٍ وتشريع، وإرادةُ قضاءٍ وتقدير.

فالقسم الأول: إنما يتعلق بالطاعات دون المعاصي، سواءٌ وقعت أو لم تقع، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأمَّا القسم الثاني: وهو إرادة التقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات، وقد أراد من العالَم ما هم فاعلوه بهذا المعنىٰ لا بالمعنىٰ الأول، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وفي قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ونظائره كثيرة.

وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي، دون ما لم يَحْدُث، كما أن الأولىٰ تتناول الطاعات؛ حَدَثَتْ أو لم تَحْدُث، والسعيد مَن أراد منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشقي مَن أراد به تقديرًا ما لَمْ يُرِدْ به تشريعًا.

والحُكْمُ يجري علىٰ وفق هاتين الإرادتين، فمَن نظر إلىٰ الأعمال بهاتين العينين كان بصيرًا، ومَن نظر إلىٰ القدر دون الشرع، أو الشرع دون القدر؛ كان أعور؛ مثل: قريش الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٩٧-٢٠٠).

[الأنعام: ١٤٨]، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فإنَّ هؤلاء اعتقدوا أن كل ما شاء الله وجوده وكونه وهي -الإرادة القدرية- فقد أَمَر به ورَضِيَهُ دون الإرادة الشرعية، ثم رأوا أن شِرْكَهُم بغير شرع مما قد شاء الله وجوده؛ قالوا: فيكون قد رضيه وأمر به. قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ بالشرائع من الأمر والنهي ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ بأن الله شَرَعَ الشرك وتحريم ما حَرَّمتموه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ في هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهو تَوَهُّمكم أن كل ما قَدَّرَهُ فقد شَرَعه ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ أي: تُكذِّبون وتَفْتَرُون بإبطال شريعته ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] علىٰ خَلْقِه حين أرسلَ الرُّسل إليهم، فدَعَوْهم إلىٰ توحيده وشريعته.

ومع هذا فلو شاء هدىٰ الخَلق أجمعين إلىٰ متابعة شريعته، لكنه يَمُنُّ علىٰ مَن يشاء فيهديه؛ فضلًا منه وإحسانًا، وَيَحْرِمُ مَن يشاء؛ **لأن المُتفضِّل له أنْ يتفضَّل، وله ألا يتفضَّل؛ فتركُ تَفضُّله علىٰ مَن حَرَمه عدلٌ منه وقِسْطٌ، وله في ذلك حكمةٌ بالغة.**

وهو يُعاقِبُ الخَلق علىٰ مخالفة أَمْرِه وإرادته الشرعية، وإن كان ذلك بإرادته القدرية فإنَّ القدَر كما جرىٰ بالمعصية جرىٰ أيضًا بِعِقَابِهَا.

كما أنه سبحانه قد يُقدِّر علىٰ العبد أمراضًا تُعْقِبُهُ آلامًا؛ فالمرض بقدَره والألم بقدَره، فإذا قال العبد: قد تقدَّمت الإرادة بالذنب فلا أُعَاقَبُ، كان بمنزلة قولِ المريض: قد تقدَّمت الإرادة بالمرض فلا أَتَأَلَّمُ، وقد تقدَّمت الإرادة بأكل الحارِّ فلا يُحَمُّ مِزَاجِي، أو قد تقدَّمت بالضرب فلا يَتألَّم المضروب.

وهذا مع أنه جهلٌ، فإنه لا ينفع صاحبه؛ بل اعْتِلَالُه بالقدَر ذنبٌ ثانٍ يُعاقب عليه أيضًا، وإنما اعْتَلَّ بالقدَر إبليس؛ حيث قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، وأمَّا آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فمَن أراد الله سعادته أَلْهَمَهُ أن يقول كما قال آدم عليه السلام أو نحوه، ومَن أراد شقاوته اعتلَّ بعِلَّةِ إبليس أو نحوها، فيكون كالمُستَجِير من الرَّمْضَاءِ بالنار.

وَمَثَلُهُ: مَثَلُ رَجُلٍ طار إلىٰ داره شرارةُ نارٍ، فقال له العقلاء: أَطْفِئْهَا؛ لِئَلَّا تحرق المنزل، فأخذ يقول: من أين كانت؟ هذه رِيحٌ أَلْقَتْهَا، وأنا لا ذَنْبَ لي في هذه النار. فما زال يَتعلَّل بهذه العِلل، حتىٰ اسْتَعَرَتْ وانتشرتْ وأَحرقتِ الدَّارَ وما فيها.

هذه حالُ مَن شَرَع يُحِيل الذنوب علىٰ المقادير، ولا يَرُدّها بالاستغفار والمَعاذِير، بل حالُه أسوأ من ذلك بالذنب الذي فعله؛ بخلاف الشرارة؛ فإنه لا فِعْلَ له فيها، واللهُ سبحانه يُوفِّقنا -وإياكم وسائر إخواننا- لِمَا يُحِبّه ويرضاه؛ فإنها لا تُنال طاعته إلا بِمَعُونَتِهِ، ولا تُترك معصيته إلا بعصمته، واللهُ أعلم».

ومعرفة مرتبة المشيئة في القدَر توجب علىٰ الموحِّد ردَّ الأمور إلىٰ مشيئة الله، والاستعانة به في فِعل الأمور، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالىٰ عن شُعَيب عليه السلام: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «قد عَلِمَتِ الرُّسلُ أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في مِلَّة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضِلُّ بها مَن يشاء ويهدي مَن يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فرَدَّ الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه؛ فإنَّ له سبحانه في خلقه (علمًا محيطًا)، ومشيئةً نافذة وراء ما يَعْلمه الخلائق؛ فامتناعنا من العَوْدِ فيها هو مَبْلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علمٌ آخَر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك ردَّ الأمر إليه.

ومثله: قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلىٰ مشيئة الرب وعِلْمه، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ ألا يقول لشيء إنه فاعله حتىٰ يستثني بمشيئة الله؛ فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله».

فعلاقة القدَر بتوحيد الأسماء والصفات ظاهرة جدًّا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] : «تأمَّل قول النبي ﷺ: «ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤكَ»، كيف ذَكر العدل في القضاء مع الحُكم النافذ، وفي ذلك ردٌّ لقول الطائفتين القدرية والجبرية؛ فإن العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، مُعطِّل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل.

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٠٢).

والعدل الذي هو اسمُه وَصِفَتُه ونَعْتُه سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]؛ فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرُّفه في خلقِه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرُّف والحُكم علىٰ صراطٍ مستقيم».

والإيمان بالقدَر يوجب تحقيق توحيد العبودية، فإذا علم العبد أن أَزِمَّة الأمور كلها بيد الله، وأنه هو الذي يُقدِّر المقادير؛ اجتهد في الطاعة التي توجب رضا الرب؛ فيتولاه الله ويكفيه ويرزقه ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، والكفاية علىٰ قدر العبودية، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[(١)]: «إن العبد إذا عَلِمَ أنه لن يصيبه إلا ما كَتَب الله له من خيرٍ وشرٍّ ونَفْعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهاد الخَلق كلهم علىٰ خلاف المقدور غيرُ مفيدٍ الْبَتَّة؛ عَلِمَ حينئذٍ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع؛ فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالطاعة، وحِفْظ حدوده؛ فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جَلْب المَنافع ودَفْع المَضارّ، ولهذا ذَمَّ الله مَن يعبد مَن لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عابده شيئًا.

فمَن عَلِمَ أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله؛ أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء، والمحبة والسؤال، والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته علىٰ طاعة الخَلق جميعًا، وأنْ يَتَّقِي سُخْطَهُ، ولو كان فيه سَخَطُ الخَلق جميعًا، وإفراده

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٣٦٤، ٣٦٥).

بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء مَن يرجون نَفْعَهُ من دونه، قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]».

فعلاقة القدَر بالتوحيد ظاهرة جدًّا، فالإيمان بالقدَر من توحيد الله في ربوبيته؛ لأنه من توحيد الله بأفعاله، والفرقتان الجبرية والقدرية ضَلَّت في توحيد الله في هذا الباب، فالجبرية نَفَوا فِعْلَ العبد الذي جعل الله له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فِعْلَهُ، وقالوا: هو مجبور، والقدرية نفوا تقدير الله لفعل العبد، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته وإرادته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهَدَىٰ اللهُ أهلَ السُّنة لِمَا اختلف فيه الجبرية والقدرية من الحق في أفعال العبد والقدَر، فقالوا: العبد مختار لفعله، يفعل بقدرة وإرادة جازمة، واللهُ خالِقٌ لِفعله، ولا يقع شيء في مُلكِ الله إلا بقدره ومشيئته.

قال المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «والذين أشركوا به تعالىٰ في الربوبية، منهم مَن أثبت معه خالقًا آخَر، وإن لم يقولوا: إنه إلهٌ مُكافِئٌ له، وهم المشركون ومَن ضَاهَاهُم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالَم الكاملة المطلقة تُبطِل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات».

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٥٩-٦١).

وقال العلامة تقي الدين أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ مُبيِّنًا العلاقة بين الإيمان بالقدَر والتوحيد، وما وقع فيه القدرية من شركٍ[١] : «وشركُ القدرية مُختَصَر من هذا الباب، وبابٌ يُدخل منه إليه، ولهذا شبَّههم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد روىٰ أهل السُّنن منهم في ذلك مرفوعًا: «أنهم مجوس هذه الأمَّة»، وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر.

والقرآن الكريم، بل الكتب المنزّلة من عند الله تعالىٰ كلها مُصَرِّحة بالرد علىٰ أهل هذا الإشراك، كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شِرْكَ المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شِرْكَ الخَلق والربوبية.

فتضمَّنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات.

وحقيقةُ قول القدرية المجوسية: إنه تعالىٰ ليس ربًّا لأفعال الحيوان، ولا تتناوله ربوبيته؛ إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] : «ليس في الوجود مُوجبٌ ومُقتضٍ علىٰ الحقيقة إلا الله وحده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، **هذا عمودُ التوحيد الذي لا يقوم إلا به**، والمسلمون من أولهم إلىٰ آخرهم مجمعون علىٰ أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٦٥، ٦٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٣٩٩).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ[١] : «إنَّ الواقع بمشيئته، وإنَّ ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنىٰ كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده؛ فلا خَلْقَ ولا رِزْقَ، ولا عطاءَ ولا مَنْعَ، ولا قَبْضَ ولا بَسْطَ، ولا موتَ ولا حياة، ولا إضلال ولا هدًىٰ، ولا سعادة ولا شقاوة، إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مُدبِّر سواه، ولا رب غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورىٰ: ٤٩، ٥٠] وقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: المشيئة إرادة الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأَعْلَمَ اللهُ خَلْقَهُ أنَّ المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيُقال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله ثم شئتَ. ولا يُقال: ما شاء الله وشئتَ[٢].

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ لا يحاسب عباده بما يكون من أفعالهم بسابق عِلْمه، وإنما يُحاسبهم بعد وقوع الفعل منهم؛ لكمال عَدْلِه، ولا تخرج أفعال العباد عن قضاء الله السابق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[٣] : «واللهُ سبحانه قد عَلِمَ قبل أن يوجد أحوالهم، وما هم

(١) شفاء العليل (١/ ٤٠٧).
(٢) شفاء العليل (١/ ٤١٣).
(٣) شفاء العليل (١/ ٣٥٦، ٣٥٧).

عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلىٰ هذه الدار؛ ليظهر معلومه الذي عَلِمَهُ فيهم كما عَلِمَهُ، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب؛ بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في عِلْمِه قبل أن يعملوها، فأرسلَ رُسُلَهُ، وأنزلَ كُتُبَهُ، وشَرع شرائعه؛ إعذارًا إليهم وإقامةً للحُجَّة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا علىٰ عِلْمِكَ فينا، وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلمَّا ظَهرَ علمُه فيهم بأفعالهم حصل العقاب علىٰ معلومه الذي أظهره للابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زَيَّنه لهم من الدنيا، وبما رَكَّب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاءٌ بشرعِه وأَمرِه، وهذا ابتلاءٌ بقضائه وقدَرِه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فأخبَرَ في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به الخَلق.

وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضًا، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدَّر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب».

والعلاقة بين مرتبة العلم والكتابة معلومةٌ ظاهرة؛ فالكتابة دالَّة علىٰ عِلْمِ الله السابق بما كان، وما يكون، وما لو كان كيف يكون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «كتابته السابقة تدلُّ علىٰ عِلْمِه بها قبل كونها، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال مجاهد: عَلِمَ من إبليس المعصية، وخَلَقه لها، وعَلِمَ من آدم الطاعة، وخَلَقه لها».

والتقدير خمسة أقسام:

التقدير الأول: التقدير السابق قبل خَلْقِ السماوات والأرض، ودليله: ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كتبَ اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سَنةٍ، وكان عرشُه علىٰ الماء».

التقدير الثاني: عقيب خَلْقِ آدم، قدَّر اللهُ أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ الله أخذ علىٰ آدم ميثاقه أنه ربُّه، وكَتَب أَجَلَهُ ورِزْقَهُ ومُصِيباته، ثم أَخْرَجَ من ظهره ولده كهيئة الذَّرِّ، فأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم، وكَتَب أَجَلَهُم ورِزْقَهُم ومصيباتهم. رواه الطبري.

التقدير الثالث: عند نفخِ روح الحنين، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثل ذلك، ثم يُرسِلُ اللهُ إليه المَلَكَ فينفخ

(١) شفاء العليل (١/ ٣٢٥).

فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رِزْقِه، وأَجَلِه، وعَمَلِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ».

التقدير الرابع: التقدير الحَوْلِي في ليلة القَدْر، والدليل: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٣-٥].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «يُكتب من أُمِّ الكتاب في ليلة القَدْر ما يكون في السَّنة؛ من موتٍ وحياةٍ ورزقٍ ومطرٍ، حتىٰ الحُجَّاج، يُقال: يَحُجُّ فلانٌ، ويَحُجُّ فلان».

التقدير الخامس: التقدير اليومي في كل يوم، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال مجاهد[2]: من شأنه: أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويُعِزّ ويُذِلّ، ويَفُكّ عَانِيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويتوب علىٰ قومٍ، ويكشف كَرْبًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويرفع آخرين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «كلُّ واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق».

والله عَزَّ وَجَلَّ كما نَعَتَ نفسه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فمَن أَقْبَلَ علىٰ الله وفَّقه لكل خيرٍ وهَدَاه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٦٩).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٧٦).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

فإنْ قلتَ: ما هو الجواب عن قوله ﷺ: «إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ لمْ يبقَ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار»؟!

فالجواب: أنَّ عَمَلَ هذا الصِّنف مَدْخُولٌ؛ إمَّا من جهة عدم الإخلاص، أو خبيئة كِبْرٍ، أوجب له سوء الخاتمة؛ وإلا فإنَّ سُنَّة الله أن يزيد الذين اهتدوا هدًىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأمَّا كون الرجل «يعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب» فإنَّ هذا عَمَلُ أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنةِ قد أحبه الله ورَضِيَهُ، لمْ يُبطله عليه.

وقوله: «لم يبقَ بينه وبينها إلا ذراع» يُشْكِلُ علىٰ هذا التأويل، فيُقال: لمّا كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل علىٰ عملِه حتىٰ يتمَّ له، بل كان فيه آفَةٌ كامنةٌ ونُكْتَةٌ خُذِلَ بها في آخِرِ عُمُره، فخانته تلك الآفة والدَّاهِيَة الباطنة في وقت الحاجَة، فرَجَعَ إلىٰ موجبها، وعملت عملَها، ولو لم يكن هناك غِشٌّ وآفةٌ لمْ يَقْلِبِ اللهُ إيمانه كفرًا ورِدَّةً مع صدقه فيه وإخلاصه بغيرِ سببٍ منه يقتضي إفساده عليه، واللهُ يعلم من سائر العِباد ما لا يَعْلمه بعضهم من بعضٍ.

وأمَّا شأن إبليس؛ فإن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فالرب تعالىٰ كان يَعْلم ما في قَلْبِ إبليس من الكفر والكِبْر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلمَّا أُمروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية

(١) الفوائد (ص٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦).

والانقياد، فبادروا إلىٰ الامتثال، وظهر ما في قَلْبِ عدوِّه من الكِبْر والغش والحسد، فأَبَىٰ واستكبر وكان من الكافرين.

وأمَّا خوفُ أوليائه من مُكرهٍ فحقٌّ؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلىٰ الشقاء؛ فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنما هو في حقِّ الفُجَّار والكُفَّار، ومعنىٰ الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له علىٰ مكرِ السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره:

أنْ يُؤَخِّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوعُ اغترارٍ، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب علىٰ غِرَّةٍ وفترةٍ.

وأمرٌ آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذِكْرَهُ، فيتخلىٰ عنهم إذا تخلوا عن ذِكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمرٌ آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمرٌ آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه؛ فيفتنون به، وذلك مكرٌ».

وحديث جبريل في أركان الإيمان أن النبي ﷺ قال: «أن تؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه»، فالشر في المقدور وليس في فِعل الله، من ذلك: ما يصيب العبد من مصائب فتكون سببًا في تكفير ذنوبه مع احتسابه، وسببًا في رفعة درجاته، وسببًا في انكساره لله

وافتقاره إليه، قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أَمْرَهُ كله له خير: إنْ أصابته سَرَّاء شكَرَ فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضَرَّاء صبرَ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»، رواه مسلم.

فالشرُّ في المَقْضِيِّ، وليس في قضاء الله، وهذا الشرُّ نِسْبِيٌّ، تأمَّل هذا في آدم عليه السلام في أَكْلِه من الشجرة، كيف ترتَّب علىٰ ذلك من: إهباطه للأرض، وتكليفه وذريته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وظهور مَن يعبد الله من عباده المؤمنين، وما يقومون به من إصلاح الأرض؛ بالدعوة، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)] : ««لا يقضي الله للمؤمن»، والمؤمن: هو الذي لا يُصِرُّ علىٰ ذنبٍ، بل يتوبُ منه؛ فيكونُ حسنةً -كما قد جاء في عِدَّة آيات-.

إنَّ العبد ليَعْمَلُ الذنبَ فيَدْخُلُ به الجنةَ بعمله؛ لا يزال يتوب منه حتىٰ يدخل بتوبته منه الجنة.

والذنبُ يُوجِبُ ذُلَّ العبدِ، وخضوعه، ودعاء الله، واستغفاره إياه، وشهوده بفقره، وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو؛ فيحصل للمؤمن -بسبب الذنب- من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك؛ فيكون هذا القضاء خيرًا له.

فهو في ذنوبه بين أمرين: إمَّا أن يتوب؛ فيتوب الله عليه، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله، وإمَّا أن يُكفّر عنه بمصائب؛ تصيبه ضَرَّاء فيصبر عليها، فيكفّر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته».

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٠).

ولا حُجَّةَ لأَحدٍ في الاحتجاج بالقدَر علىٰ كُفرِه، أو معصيته، أو نَقْصِه، أو تضييعه لمصالح دينه ودنياه؛ فكلُّ إنسانٍ له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فِعْلَهُ، ومن ذلك: سبيل الهداية أو الغواية، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

والله خلق كل مخلوق علىٰ الفطرة التي لو لَزِمَها ولم ينحرف عنها؛ كان من أهل السعادة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأَبَواهُ يُهَوِّدانِه، أو يُنَصِّرانِه، أو يُمَجِّسانِه».

وليس لأحدٍ أن يحتجَّ بالقدَر علىٰ ذنوبه ومعاصيه، أو كُفرِه؛ بدعوىٰ أن الشيطان هو الذي أغواه، فنقول: إنكَ أنتَ الذي اخترتَ أن يكون له سلطانٌ عليكَ بطاعته ومعصية ربك؛ وإلا لو أطعتَ ربك وأخلصتَ له؛ لَمْ يكن للشيطان عليكَ سبيلٌ، قال تعالىٰ للشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وكلُّ مخلوق قد وُكل به قرينه من الملائكة والشياطين، كما جاء في صحيح مسلم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن للقلب لَمَّة من المَلَك ولَمَّة من الشيطان؛ فلمَّةُ المَلك: إيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق، ولمَّةُ الشيطان: إيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إذا كانت حسنات الإنسان أقوىٰ أُيِّدَ بالملائكة تأييدًا يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوىٰ كان جُنْدُ الشيطان معه

(١) النبوات (٢/ ١٠٦٢، ١٠٦٣).

أقوىٰ، وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزولٌ ضعيفٌ، وشيطان الكافر سمينٌ قويٌّ.

فكما أن الإنسان بفجوره يُؤَيِّد شيطانَهُ علىٰ مَلَكِه، وبصلاحه يُؤَيِّد مَلَكَهُ علىٰ شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر؛ لأن الآخر لمْ يُؤَيِّد مَلَكَه؛ فلم يؤيده، أو ضَعُفَ عنه؛ لأنه ليس معه إيمانٌ يُعِينه».

وقد أبطل الله مذهب المُحتجِّين بالقدَر علىٰ الكفر والمعاصي والذنوب؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فهذه أربعة مواضع في القرآن بيّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدَر من فِعل المشركين المُكذِّبين للرسل».

ومشركو قريش كانوا يحتجُّون بالقَدَرِ علىٰ شركهم وكفرهم، ثم أسلم عامتهم.

وقد يقول قائل معترضًا علىٰ ما قاله أهل السُّنة والجماعة من أن الاحتجاج

(١) طريق الهجرتين (ص٢٥٤).

بالقدَر لم يقع إلا من الكافرين والمشركين بأنه وقع من آدم عليه السلام وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإنَّ موسىٰ عليه السلام قال لآدم: أنتَ أَبُونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة!

فقال آدم عليه السلام: لِمَ تلومني علىٰ ذنبٍ كتبه اللهُ عليَّ؟!

قال نبينا صلى الله عليه وسلم: «فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم موسىٰ»، متفق عليه.

فهذا احتجاجٌ بالقدَر علىٰ المصائب لا علىٰ المعايب، قال ابن القيم رحمه الله[1]: «احتجَّ آدم بالقدَر علىٰ المصيبة».

وقال[2]: «والقدَر يُحْتَجُّ به في المصائب دون المعائب».

وأمَّا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم طَرَقه وفاطمة ليلًا، فقال لهم: «ألا تصليان؟»، فقال عليٌّ رضي الله عنه: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثها بَعَثَها، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]»، رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله[3]: «عليٌّ رضي الله عنه لم يَحْتَجَّ بالقدَر علىٰ تركِ واجبٍ، ولا فِعلِ مُحرَّمٍ».

وقال[4]: «واحتجاجُ غيرُ المُفرِّط بالقدَر صحيحٌ».

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).
(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).
(٣) شفاء العليل (١/ ٢٢٨).
(٤) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

ونظير الاحتجاج بالقدَر في حقِّ غير المُفَرِّط ما وقع للنبي ﷺ وأصحابه في رجوعهم من غزوة تبوك، فقد غلبهم النوم عن صلاة الفجر، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله قَبَض أرواحنا حيث شاء، ورَدَّها حيث شاء»، رواه البخاري.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] : «هذا احتجاجٌ صحيح، صاحِبُه يُعذر فيه؛ فإن النائم غير مُفرِّط».

وإنْ قلنا: إنَّ أفعال العباد مخلوقة، فإنه لا ينبغي أن يَغتَرَّ الإنسان بحوله وقوته؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

فإنه وإنْ قلنا: إنَّ العبد له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فِعله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يقع في مُلكِ الله إلا ما أراده، ولا مشيئة لمخلوق إلا بتمكين الله لعبده في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ومع ما قَرَّره أهلُ السُّنة والجماعة من أن أفعال العباد مخلوقة، كما دلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله ﷺ: «واللهُ خَلَقَ كلَّ صانِعٍ وصَنْعَتَهُ»[(٢)] .

فإنه لا يُنسب لله شيء مما يقع من أفعال العباد من الشر أو الظلم، فهذا كسبٌ للعبد وأعماله، واللهُ عدلٌ لا يظلم أحدًا، والشر ليس إليه.

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (رقم ١١٧)، وصححه الألباني في (الصحيحة) (رقم ١٦٣٧).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1] : «وكونه خَلَق أفعال العباد وفيها الظلم لا يقتضي وَصْفَهُ بالظلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أنه لا يُوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد، وهي خَلْقُه وتقديرُه؛ فإنه لا يُوصف إلا بأفعاله، لا يُوصف بأفعال عباده؛ فإن أفعال عباده مخلوقاته ومفعولاته، وهو لا يُوصف بشيءٍ منها، إنما يُوصف بما قام به من صفاته وأفعاله».

ونكتة المسألة: أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فِعْل الله، بمعنىٰ المصدر؛ فهذا باطلٌ باتفاق المسلمين وبصريح العقل، وإن قال: فِعْل الله. وأراد بها أنها مفعولة مخلوقةٌ لله كسائر المخلوقات، فهذا حقٌّ[2] .

فالشر ليس في قضاء الله وقدَره وفِعله -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، وإنما الشر في مفعوله، لا في فِعله تعالىٰ، فقضاء الله مُنزَّهٌ عن الشر، يدلُّ لذلك أمور كثيرة، منها:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فتصرفاته كلها خير.

٢- ثناء النبي ﷺ علىٰ ربه؛ بتنزيهه عن الشر في دعاء الاستفتاح في صلاته في قوله: «لبَّيكَ وسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يَديكَ، والشرُّ ليس إليكَ»، رواه مسلم.

٣- تَنزُّه الله عن الظلم، وتَمدُّحه نفسه بذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٢٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٢٢).

والظلم: هو وضعُ الشيء في غير محله، واللهُ منزَّهٌ عن ذلك؛ لا يضع الأشياء إلا في مواضعها.

٤- معاني أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا، وهي كثيرة متنوعة في الدلالة علىٰ أن الشر ليس إلىٰ الله، فمنها:

(القدوس)، وهو المنزَّه عن كل شرٍّ ونقصٍ وعيبٍ.

و(السلام) وهو الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن فِعْلِه ونسبته إليه.

ومن أسمائه: (الكبير) وهو الذي تَكبَّر وتَعظَّم عن كل سوء.

و(العزيز) الذي عَزَّ عن كل سوءٍ وشرٍّ.

و(العليُّ) الذي عَلَا عن كل عيبٍ وسوءٍ ونقصٍ.

وهو (المُحسِن الجَوَاد الحكيم العدل) في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله وهَيَّأه له.

وهو (السُّبُّوح) الذي تَنزَّه عن كل سوء[١].

والشر الذي في المقضي ليس شرًّا محضًا، بل هو شرٌّ نسبي، وهذا مقتضىٰ حكمة الله تعالىٰ، وتأمَّل هذا في مثال آدم عليه السلام في أكله من الشجرة، وما حصل لذريته من التكليف بعد ذلك.

---

(١) شفاء العليل (ص٣٠١-٣٠٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «لولا المعصية من أَبِي البشر بأكله من الشجرة، لَمَا ترتَّب علىٰ ذلك ما ترتَّب من وجود هذه المحبوبات العِظَام للرب تعالىٰ، من: امتحان خلقه، وتكليفهم، وإرسال رُسُله، وإنزال كُتُبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها، وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عَدْلِه وفَضْلِه، وعِزَّتِه وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصَفْحِه وحِلْمِه، وظهور مَن يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قُدِّر أنَّ آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده؛ لم يكن شيء من تلك، ولا ظهر من القوة إلىٰ الفعل ما كان كامنًا في قلب إبليس يَعْلمه الله ولا تَعْلمه الملائكة، ولم يَتميَّز خبيثُ الخَلق من طيبهم، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرامٌ وثواب، وعقوبة وإهانة، ودارُ سعادةٍ وفضلٍ، ودارُ شقاوةٍ وعدلٍ».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : «إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة؛ فهو الذي يجعل الإيمان والهُدىٰ في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبدُ في كلِّ لحظةٍ مُفتَقِرٌ إلىٰ هدايةٍ يجعلها الله في قلبه، وحركاتٍ يُحرِّكه بها في طاعته، وهذا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو خَلَقَهُ وقَدَّره، وكان من دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم آتِ نفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أنتَ خيرُ مَن زَكَّاها، أنتَ وَلِيُّها ومَوْلَاها». وعَلَّم حصين بن المنذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «اللَّهُمَّ، أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وقِنِي شرَّ نَفْسِي».

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) طريق الهجرتين (ص٦١٤، ٦١٥).

وعامَّةُ أدعيته ﷺ متضمِّنة لطلبِ توفيقِ ربِّه، وتزكيته له، واستعماله في مَحابِّه».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إنَّ الله كَتَب الحسنات والسيئات».

فالخير والشرُّ، والحلو والمُرُّ كله قَدَّره الله سبحانه، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن أيضًا والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والمعنىٰ: أنَّ ما أصابك من سيئة من الله، فبذنبِ نَفْسِكَ؛ عقوبةً لكَ، كما قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهذا مما كان يعتقده العرب في جاهليتهم، فضلًا عن إسلامهم، قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب: «لا أَعْلَمُ عربيًّا قَدَرِيًّا.

قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدَر؟

قال: معاذ الله! ما في العرب إلا مُثبِت القدَر خيره وشره، أهل الجاهلية والإسلام؛ ذلك في أشعارهم وكلامهم كثير»[١].

وقد حكىٰ الإجماع علىٰ هذا الاعتقاد أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال[٢]: «وهو مذهب أهل السُّنة والجماعة، يتوارثونه خلفًا عن سلفٍ، من لَدُن

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٣، ٥٩٤- رقم ٩٤١).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٤).

رسول الله ﷺ بلا شكٍّ ولا رَيْبٍ».

ولمَّا ظَهَر مَن يُنكِر أن الشر بقدَرٍ أنكر عليهم الصحابة ذلك، فقد سمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلًا يقول: الشرُّ ليس بقدَرٍ. فقال ابن عباس رضي الله عنهما[1]: «بيننا وبين أهل القدر ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] حتىٰ بلغ ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، والعجز والكَيْسُ بقدَرٍ».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله[2]: «لو أراد الله تعالىٰ ألا يُعصىٰ ما خلق إبليس، وهو رأسُ الخطيئة».

قال أبو بكر الآجري رحمه الله[3]: «يُقال للقَدَرِيِّ: يا مَن لَعِبَ به الشيطان، يا مَن يُنكر أن الله تعالىٰ خلق الشر، أليس إبليسُ أَصْلَ كلِّ شرٍّ؟! أليس الله خلقه؟! أليس الله تعالىٰ خَلَق الشياطين، وأرسلهم علىٰ مَن أراد ليضلوهم عن طريق الرشد؟! فأيُّ حُجَّةٍ لكَ يا قَدَرِيّ؟ يا مَن قد حُرم التوفيق، أليس الله تعالىٰ قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ... إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]».

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ١١٤- رقم ٢٠٠٧٣) عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن رجلًا قال لابن عباس رضي الله عنهما، فذكره، إسناده صحيح.

(٢) رواه الآجري في الشريعة (١/ ٤٤٠- رقم ٥٦١).

(٣) الشريعة (١/ ٤٦٢).

وقال أبو بكر المروذي: قال رَجُل لأبي عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ عندنا قومًا يقولون: إن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، ويقولون: القرآن مخلوق.

فقال: هذا كفرٌ، هؤلاء قدرية جهمية، الخير والشر مُقَدَّرٌ علىٰ العباد.

قيل له: الله خلق الخير والشر؟ قال: نعم، الله قدَّره(١).

وقال أبو الحارث: سمعتُ أبا عبد الله وقد سُئل عن القدر، فقال: الخير والشر بقَدَرٍ، والزِّنا والسرقة وشُرْب الخمر كله بقَدَرٍ(٢).

وقال حنبل: قلتُ لأبي عبد الله: إنَّ قومًا يَحْتَجُّون بهذه الآية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]!

قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: ما أصابكَ من حسنةٍ فمِنَ الله، وما أصابكَ من سيئةٍ فمِنَ نَفْسِكَ، واللهُ قَضاها(٣).

والله يُضِلُّ مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب، فاللهُ لكمال عَدْلِه ركَّب وخلق في عباده كلهم أسباب فِعْلِ الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فهدىٰ الله مَن أَنابَ إليه، وزَكَّىٰ نفسه بطاعة الله، ويَسَّر اللهُ لمَن أَقْبَلَ عليه طريقَ الجنة وفِعْلَ الطاعات، قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

(١) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٠).
(٢) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٢).
(٣) السنة، للخلال (١/ ٥٤٥- رقم ٩٠٩).

وأضلَّ اللهُ بعَدْلِه مَن أعرضَ عنه ولم يَقْبَلْ وَحْيَهُ وهَدْيَهُ، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فهذه الآيات -وغيرها كثير- دالَّةٌ علىٰ أنَّ ضلال العبد بسببه، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أخبر سبحانه عن حُكمِه وقضائه فيهم، وعَدْلِه، وأن إِرْكَاسَهُم بسبب كَسْبِهم وأعمالهم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يَدْخُلُ بسببه الإيمان إلىٰ قلوبهم، فلمْ يُسمعهم سماعَ إفهامٍ ينتفعون به، وإنْ سَمِعُوهُ سماعًا تَقُومُ به عليهم حُجَّته، فسماعُ الفهم الذي سَمِعَهُ به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانِعٍ آخَرَ قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكِبْر والتَّوَلِّي والإعراض؛ فالأول مانعٌ من الفهم، والثاني مانعٌ من الانقياد والإذعان؛ فأفهامٌ سيئة، وقُصودٌ رَدِيئة، وهذه نسخة الضلال وعلمُ الشقاء، كما أنَّ نسخة الهُدىٰ وعِلْمَ السعادة فهمٌ صحيحٌ وقصدٌ صالحٌ، والله

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٦٢).
(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤٣).

المستعان».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١] : «وأمَّا الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولًا والاهتداء به، فهو إضلالٌ ناشئ عن عِلْمِ الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدىٰ ولا يليق به، وأنَّ محله غيرُ قابِلٍ له.

فاللهُ أَعْلَمُ حيث يضع هُدَاه وتوفيقه، كما هو أَعْلَمُ حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا، وكما أنه ليس كلُّ محلٍّ أهلًا لتحمُّلِ الرسالة عنه وأدائها إلىٰ الخَلق، فليس كلُّ محلٍّ أهلًا لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]».

فتأمَّل خَتْمَ الآية بقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فعِلْمُ الله السابق مطابِقٌ للواقع في عدم شُكْرِ الكافرين لرب العالمين، وهو الموجب لإضلالهم؛ فسبحان الله لكمال عِلْمِه وعَدْلِه، لا إله إلا هو.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] : «ولتكن قصة إبليس منكَ علىٰ ذُكْرٍ تنتفع بها أَتَمَّ انتفاع؛ فإنه لمَّا عصىٰ ربه تعالىٰ ولم يَنْقَدْ لأمره وأَصَرَّ علىٰ ذلك؛ عاقبه بأنْ جَعَلَه داعيًا إلىٰ كل معصية، فعاقبه علىٰ معصيته الأولىٰ بأصول المعاصي وفروعها؛ صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبةً لذلك الإعراض والكفر السابق،

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤٤).

فمن عقاب السيئةِ السيئةُ بَعْدَها، كما أنَّ من ثواب الحسنة الحسنة بعدها».

والقدَر سرُّ الله، لا يَعْلمه العباد إلا بعد وقوعه، ونحن مأمورون بفعل ما أمرنا الله به، وموجب الإيمان بالقدَر خيره وشره تَرْكُ الاعتراض علىٰ ما يقضيه الله كونًا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

واللهُ لا يفعل إلا لحكمةٍ، ولا يقضي إلا بعدلٍ، فهذا ما يُسَلِّمُ به الموحِّدُون إذا حارت عقولهم؛ لنقصها عن فَهْمِ حكمة الله وعَدْلِه في قضائه وقدَرِه.

والخوض في تعليل ما تَحارُ فيه العقول يقع من المُرتابين، وربما يوقعهم في الكفر والإلحاد، لمثل هؤلاء واجب عليهم الأخذ بنصيحة النبي ﷺ حيث قال: «وإذا ذُكر القدَر فأَمْسِكُوا».

فالموحِّدون عقولهم شاهدة بصحة الشرع وحكمة الرب، وهم في أحوالهم كلها مُصدِّقون للشرع سواءٌ أدركوا الحكمة في أفعال الله، أو خَفِيَتْ عليهم لنقص عقولهم، فهذا مقتضىٰ إيمانهم بحكمة الله في أَمْره وقَدَره وشَرْعه.

قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ(١) : «الوقوف مع النقل مقامُ الصِّدِّيقين».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢) : «والنهي عن الخوض في القدَر يكون علىٰ وجوه:

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

(٢) فضل علم السلف علىٰ علم الخلف (ص٥١-٥٤).

منها: ضَرْبُ كتابِ الله بعضه ببعض؛ فينزع المُثبِت للقدَر بآيةٍ والنافي له بأخرىٰ، ويقع التجادل في ذلك، وهذا قد رُوي أنه وقع في عهد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ غضب من ذلك ونهىٰ عنه، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نُهي عن ذلك.

ومنها: الخوض في القدَر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قَدَّر وقضىٰ ثم عَذَّب كان ظالمًا. وقولِ مَن خالفهم: إنَّ الله جَبَرَ العِباد علىٰ أفعالهم، ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سرِّ القدَر، وقد وَرَد النهي عنه عن عليٍّ رضي الله عنه وغيره من السلف؛ فإن العباد لا يطلعون علىٰ حقيقة ذلك».




قال المصنف رحمه الله:

ومَن قال: يفعل عندها لا بها، فقد خالف ما جاء به القرآن، وأنكر ما خَلَقه الله من القُوَىٰ والطبائع، وهو شبيهٌ بإنكار ما خَلَقه الله من القوىٰ التي في الحيوان، التي يفعل الحيوان بها مثل قدرة العبد.

كما أنَّ مَن جَعَلها هي المُبدعة لذلك فقد أشرك بالله، وأضاف فِعْلَه إلىٰ غيره؛ وذلك أنه ما من سببٍ من الأسباب إلا وهو مفتقر إلىٰ سببٍ آخَرَ في حصول مُسَبَّبِه، ولا بدّ له من مانعٍ يمنع مقتضاه إذا لم يدفعه اللهُ عنه، فليس في الوجود شيءٌ واحد يستقلُّ بفعلِ شيءٍ إلا الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فتَعْلَمُون أنَّ خالق الأزواج واحد.

ولهذا مَن قال: إن الله لا يصدر عنه إلا واحد؛ لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد؛ كان جاهلًا، فإنه ليس في الوجود واحِدٌ صَدَر عنه وحده شيء، لا واحد ولا اثنان، إلا الله الذي خَلَق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، فالنار التي جعلَ اللهُ فيها حرارة، لا يَحْصُل الإحراق إلا بها وبمحلٍّ يَقْبَل الاحتراق، فإذا وقعتْ علىٰ السَّمَنْدَل والياقوت ونحوهما لمْ تحرقهما، وقد يُطلىٰ الجسم بما يمنع إحراقه، والشمس التي يكون عنها الشعاع لا بُدَّ من جسمٍ يَقْبل انعكاس الشعاع عليه، وإذا حصلَ حاجِزٌ من سَحابٍ أو سقفٍ لمْ يحصل الشعاع تحته، وقد بُسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أنه لا بدّ من الإيمان بالقَدَر، فإن الإيمان بالقدَر من تمام التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو نظام التوحيد، فمَن وحّد الله وآمَن بالقدَر تَمَّ توحيدُه، ومَن وحّد الله وكذَّب بالقدَر نَقَض تكذيبه توحيده.

ولا بدّ من الإيمان بالشرع، وهو الإيمان بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، كما بَعَث اللهُ بذلك رُسُلَهُ، وأنزلَ كُتُبه[١].

الشَّرح

إنكارُ القُوَىٰ والطبائع والغرائز أنْ تكون أسبابًا، وإنكارُ تأثير الأسباب في وجودِ الأشياء، من بِدَعِ الجهم بن صفوان التي أفسدَ بها عقول الناس وأديانهم.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[٢]: «لمْ يقل هذا القول أحدٌ من سلفِ الأُمة وأئمتها، وأولُ مَن قال هذا القول في الإسلام: الجهم بن صفوان الذي أجمعتِ الأُمةُ على ضلالته، فهو أولُ مَن أنكر الأسباب والطبائع، كما أنه أول مَن ظهر عنه القول بنفي الصفات، وخَلْق كلام الله، وإنكار رؤيته، وغير ذلك».

وأدلةُ القرآن والسُّنة وإجماع السلف والحِسّ والعقل، تُبطِلُ قولَ الجهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[٣]: «إنَّ هؤلاء يقولون: لا ينبغي للإنسان أنْ يقول: إنه شَبِع بالخبز ورُوي بالماء، بل يقول: شَبِعْتُ عنده ورُوِيتُ عنده؛ فإنَّ الله يخلق الشّبع والرِّي ونحو ذلك من الحوادث عند هذه الْمُقْتَرِنَاتِ بها عادةً، لا بها.

وهذا خِلافُ الكتاب والسُّنة، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧] الْآيَةَ، وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ

(١) التدمرية (ص٢١٠-٢١٣).
(٢) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٢٢).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٣٧، ١٣٨).

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [البقرة:١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة:١٤]، وَقَالَ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة:٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق:٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٩٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ [فاطر:٢٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:١٠، ١١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ -إِلَى قَوْلِهِ- ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦]، وَقَالَ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٥، ١٦]، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ».

وأبو الحسن الأشعري كالجهم بن صفوان ينكر القوىٰ والطبائع، وينكر الأسبابَ، ويقول: إنَّ الله يفعل عندها لا بها.

والله سبحانه خلقَ الأسبابَ ومُسَبِّباتها، وجعلَ هذا سببًا لهذا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «مذهبُ الفقهاء: أنَّ السببَ له تأثيرٌ في مُسبِّبه، ليس علامةً محضةً وإنما يقول: إنه علامةٌ محضة، طائفة من أهل الكلام الذين بنوا علىٰ قولِ جهم».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ قدرة العبد مع فِعْلِه لها تأثيرٌ كتأثير سائر الأسباب في مُسبباتها، واللهُ تعالىٰ خلقَ الأسباب ومُسبباتها.

والأسبابُ ليست مُستَقِلَّةً بالمسببات، بل لا بُدَّ لها من أسبابٍ أُخَر تُعاوِنها. ولها -مع ذلك- أضداد تُمانِعها، والمُسبِّب لا يكون حتىٰ يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المُعارِضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرةُ العبد سببٌ من الأسباب».

وإثباتُ الأسباب هو من حكمةِ الله التي أوجدَ الأشياء بأسبابها، وخَلْقُ اللهِ لأفعال العِباد توحيدٌ.

وقد أنكرَ الجهم بن صفوان فِعْلَ العبدِ، فهو جبريٌّ؛ يقول: ليس للمخلوق فعلٌ، والأشعري مثله موافقٌ له في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الجهم بن صفوان رأسُ الجبرية، يقول: ليس للعبد فعلٌ الْبَتَّةَ. والأشعريُّ يوافقه علىٰ أنَّ العبد ليس بفاعلٍ، ولا له قدرةٌ مُؤثِّرة في الفعل، ولكن يقول: هو كاسِبٌ. وجهم لا يُثْبِتُ له شيئًا، لكنَّ هذا الكسبَ يقول أكثرُ الناس: إنه لا يُعقل فَرْقٌ بين الفعل الذي نَفَاه والكسب الذي أَثْبَتَه».

واللهُ ﷻ جعلَ أسبابًا يُتوصَّل بها إلىٰ حصول الأشياء، قال تعالىٰ عن المَلِكِ العادل ذي القَرْنَين: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]، فقد آتاهُ من العلم والقدرة ما أمكنه من قضاء حوائجه.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٨٧).
(٢) النبوات (١/ ٥٨٠، ٥٨١).

وهذا من حكمة الله؛ أنْ جعلَ للأشياء أسبابًا يُتوصَّل بها إلىٰ حصولها، فالأشياء لا تُوجد من العدم، وهذا مما اتفقَ فيه الحسُّ والعقلُ مع دليل الكتاب والسُّنة وإجماع سلف الأُمة.

والله ﷻ خلقَ في المخلوق قدرةً تامَّةً وإرادةً جازمةً يفعل بها الأشياء، وخالقُ السبب التام خالقٌ للمُسبِّب، فالله خالق المخلوق وأفعاله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وارتباطُ الأسبابِ بمُسبِّباتها معلومٌ، ولو شاء الله تعطيلها فعلَ، كما جعلَ النارَ بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيمَ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فسَلَبَ النار طبيعة الحرارة التي بها تَسْخُن، وجعلها بردًا وسلامًا، ولو كان ما يحصل عند ملاقاتها لا أَثَرَ لها فيه لَمْ يَحْتَجْ إلىٰ ذلك، بل كان يكفي ألا يخلق الأثر عند الملاقاة، بل قوله: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ يقضي أنه جعلَ فيها ما تُوجب برودته وسلامته».

فالله ﷻ خلقَ الأسبابَ والمُسبِّبات، وهذا من حكمة الله، والله خالق الأسباب وأفعال العباد، ولو شاء لجعلَ لها معارضات تمنع حصولها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإنسان إذا أكل أو شربَ حصلَ له من الرِّيِّ والشِّبع، وقد ربطَ اللهُ تعالىٰ الشِّبع والرِّي بالأكل والشرب ربطًا محكمًا، ولو شاء ألا يُشْبعه ويُرْوِيه مع وجود الأكل والشرب فعلَ؛ إمَّا بألا يجعلَ في الطعام قوةً

(١) جامع المسائل، المجموعة الثالثة (ص٢٢٢، ٢٢٣).
(٢) جامع المسائل، المجموعة التاسعة (ص١٠٧، ١٠٨).

مُغذِّيةً، أو يجعل في المحلِّ قوةً مانعةً، أو بما شاء ﷻ، ولو شاء أنْ يشبعه ويرويه بلا أكلٍ وشربٍ لفَعَل، أو بأكلِ شيءٍ غير معتادٍ».

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣، ٦٤]، وغايةُ ما يفعله المُزارع أنه يحرث الأرض، ويُلقِي فيها البذرَ، واللهُ هو خالقُ قدرة المُزارع التي قام بهذه الأعمال، وهو خالقُ البذرَ والماء، وخالق التراب والهواء، وهو الذي يحفظ الزرعَ ويُقِيم أسبابَ يَنْعِهِ ونُضْجِه، ولو شاء الله لجعلَ الزرع حُطامًا، وربما عطَّله عن كماله ونمائه. عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس السَّنَةُ ألا تُمطروا، ولكن السَّنَةَ أنْ تُمطروا ولا تُنْبِت الأرضُ»، رواه مسلم.

لا يُوجد شيءٌ إلا بإيجاد الله له، هذا من العلم الضروري الذي لا يخالف فيه إلا مُسَفْسِطٌ جاحِدٌ للحقائق، فيجب علىٰ كلِّ مخلوقٍ السعي فيما يجلب له خيري الدنيا والآخرة، وأنْ يأخذَ بأسبابِ إدراك ذلك.

فتقوىٰ الله والاستغفار سببٌ لإدراك الرزق من حيث لا يحتسب المخلوق، والذنوب والمعاصي سببُ الشدة والبلاء، وقد يُدرك المخلوق أنواعًا من الرزق من غير سببٍ منه؛ فضلًا من الله وإحسانًا، فاللهُ يرزق مَن شاء من عباده من حيث لا يحتسبون.

وأهلُ السُّنة متحقِّقون بأنَّ الله ربُّ العالمين، وأنه خالقُ أفعال عباده، وأنّ أعمال الخَلق أسبابٌ لحصول الأشياء، وأنَّ أَمْر الله الكوني مُترتِّب علىٰ الأعمال التكليفية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنه سبحانه ربطَ الأسبابَ بمُسبِّباتها شرعًا وقَدرًا، وجعلَ الأسبابَ محلَّ حكمته في أَمْرِه الديني الشرعي وأَمْره الكوني القدري، ومحلَّ ملكِه وتصرُّفه، فإنكارُ الأسبابِ والقُوَىٰ والطبائع جحدٌ للضروريات، وقدحٌ في العقول والفِطَر، ومُكابَرةٌ للحِسِّ، وجحدٌ للشرع والجزاء.

فقد جعلَ اللهُ تعالىٰ مصالحَ العِباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب، والحدود والكفّارات، والأوامر والنواهي، والحِلّ والحرمة، كل ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سببٌ لِمَا يَصْدُر عنه، بل الموجودات كلها أسبابٌ ومُسبِّبات، والشرعُ كله أسبابٌ ومُسبِّبات، والمقادير أسبابٌ ومُسبِّبات، والقدَر جارٍ عليها، مُتصرِّف فيها، فالأسبابُ محل الشرع والقدَر».

فالقول بنفي الأسباب هو من إنكار العلم الضروري الذي دلَّ عليه القرآن والسُّنة والإجماع والحِسّ والعقل.

وإثباتُ الأسبابِ توحيدٌ وليس بشركٍ، فالله خالقها، وهو خالقُ أفعال العِباد، وهو الذي إذا شاء جعل لها عوارض وأضداد تمنع حصولها.

فالشرك هو في إثباتِ سببٍ لَمْ يجعله اللهُ سببًا شرعيًّا ولا قدرًا، أمَّا الأسبابُ الشرعية والقدرية فإثباتها توحيدٌ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لهذا قال مَن قال من أهل العلم: تكلَّم قومٌ في إنكار الأسباب فأضحكوا ذَوِي العقول علىٰ عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون

---

(١) شفاء العليل (٢/ ١٠٨).

(٢) شفاء العليل (٢/ ١١١).

التوحيدَ، فشابهوا المُعطِّلة الذين أنكروا صفات الرب، ونُعوت كماله، وعلوّه علىٰ خَلقه، واستواءه علىٰ عرشه، وتكلُّمَه بكتبه، وتكليمه لملائكته وعباده، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد، فما أفادهم إلا تكذيب الله ورُسُله، وتنزيهه عن كلِّ كمالٍ، ووَصْفه بصفاتِ المعدوم والمستحيل.

ونظيرُ مَن نزَّه اللهَ عن أفعاله، وأنْ يقومَ به فِعْلٌ البَتَّة، وظنَّ أنه ينصر بذلك حدوث العالَم، وكونه مخلوقًا بعد أنْ لَمْ يكن، وقد أنكرَ أَصْلَ الفعل والخَلق جملةً.

ثم من أعظم الجناية علىٰ الشرائع والنبوات والتوحيد، إيهامُ الناس أن التوحيد لا يتم إلا بإنكار الأسباب، فإذا رأىٰ العقلاء أنه لا يمكن إثباتُ توحيد الرب إلا بإبطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمَن جاء به، وأنتَ لا تجد كتابًا من الكتب أعظم إثباتًا للأسباب من القرآن».



قال المصنف رحمه الله:

والإنسان مضطر إلىٰ شَرْعٍ في حياته الدنيا، فإنه لا بدّ له من حركةٍ يجلب بها منفعته، وحركةٍ يدفع بها مَضرَّته، والشرع هو الذي يميّز بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تَضرُّه، وهو عدلُ الله في خلقه، ونورُه بين عباده، فلا يمكن الآدميين أن يعيشوا بلا شرعٍ يميّزون به بين ما يفعلونه ويتركونه.

وليس المرادُ بالشرع مُجرَّد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الإنسان المنفرد لا بدّ له من فِعْلٍ وتَرْكٍ، فإنَّ الإنسان هَمَّامٌ حارِث، كما قال النبي ﷺ: «أَصْدَقُ الأسماء: حارِثٌ وهَمَّام»، وهو معنىٰ قولهم: مُتحرِّك بالإرادة، فإذا كان له إرادة هو مُتحرِّك بها، فلا بد أن يعرف ما يريده هل هو نافِعٌ له أو ضار؟ وهل يصلحه أو يفسده؟[1]

الشَّرْح

لا تنتظم أحوال الخَلق في الأرض بدون تشريعٍ إلهي يدلُّ الخَلق علىٰ كلِّ خيرٍ ويُحذِّرهم من كلِّ شرٍّ؛ لأن الناس أهواؤهم مختلفة لا يجمعهم هوىٰ واحد، والأهواء لو اجتمع عليها الخَلق لضلوا وفسدوا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

من أَجْلِ هذا بَعَث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ داعيًا إلىٰ الله بالهدىٰ الذي أُوحِي إليه، فكان القرآن هو الشرع الذي يهتدي به الخَلق، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

(١) التدمرية (ص٢١٣، ٢١٤).

ﭐلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فلمَّا كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حُجَّةَ الله علىٰ العباد كلهم، فانقطعت به حُجَّة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدىٰ لهم، يهتدون به إلىٰ أَمْرِ دينهم ودنياهم، ورحمةً ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.

فالهدىٰ ما نالوا به من علمٍ نافع وعملٍ صالح، والرحمة ما ترتَّب علىٰ ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبِرِّه وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته علىٰ معانيه التي هي أَجَلُّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر علىٰ الأعداء بالقول والفعل، ونَيْل رضا الله تعالىٰ، وكرامته العظيمة التي لا يَعْلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم».

خَلَقَ اللهُ الخَلق، وهو أعلم بما ينفعهم وما يضرهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فأمرهم بما يجب عليهم من حقِّه الخالص، وهو توحيده وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ونهاهم عن كل ما يضرهم من الاعتقادات الباطلة والأقوال والأفعال الفاسدة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

وبيَّن اللهُ حكمته في تحريم المُحرَّمات وأنها لمصلحة الخَلق ولحمايتهم من مَضارِّها ومَفاسدها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٧٨).

ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

والإنسانُ إذا لَمْ يَهْتدِ بشرع الله ﷻ تاهَ في ضلالِ هَوَاه، وصار ساعيًا فيما يضره في دنياه ودينه، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالكافر المُتَّبع هَواهُ الذي لَمْ يَهْتَدِ بنور الله ووحيه وشَرْعِه، ضالٌّ في سعيه، عاقبته الخسران.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وشرعُ اللهِ عصمةٌ من الضلالة، وحميةٌ من العَنَتِ والمشقة والحرج، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

والاهتداء بالوحي من أسباب استقامة الناس وصلاح أحوالهم، فتجد مَنِ اهتدىٰ بتعاليم القرآن أصبح أحسن دينًا واعتقادًا ونُسُكًا وخُلُقًا.

قال تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٩٦).

ٱللَّهِ﴾، «الصبغة»: معناها اللون.

وقالوا: المراد بـ ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ دِينَ الله، وسُمِّي «الدِّين» صبغةً؛ لظهور أَثَرِه علىٰ العامل به؛ فإنَّ المُتديِّن يظهر أثر التَّديُّن عليه؛ يظهر علىٰ صفحات وجهه، ويظهر علىٰ مسلكه، ويظهر علىٰ خشوعه، وعلىٰ سَمْتِه، وعلىٰ هيئته كلها، فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه.

وقيل: سُمِّي صبغةً للزومه كلزوم الصبغ للثوب، ولا يمنع أن نقول: إنه سُمِّي بذلك للوجهين جميعًا، فهو صبغةٌ للزومه، وهو صبغةٌ أيضًا لظهور أَثَرِه علىٰ العامل به».

فالاهتداء بالشرع من أسباب صلاح البشر وسعادتهم، قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا وعدٌ من الله تعالىٰ لمَن عَمِل صالحًا، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالىٰ وسُنَّة نبيه ﷺ من ذَكرٍ أو أنثىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروعٌ من عند الله بأن يحييه الله حياةً طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهةٍ كانت، وقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وجماعة أنهم فَسَّروها بالرزق الحلال الطيب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧١٠).

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فَسَّرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن مُنبِّه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأَحدٍ حياةٌ إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا.

وقال الضحاك أيضًا: هل العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح: أنَّ الحياة الطيبة تشمل هذا كله».

فالسعيد هو الذي اهتدىٰ بالقرآن، وجعل هواه تبعًا لأمر الله ونهيه، فتكون اعتقاداته وأقواله وأعماله عن اتباعٍ لنور الوحي.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالاهتداء بالقرآن عصمةٌ من أنواع الشرور، وسلامةٌ من ضلالات الاعتقادات الزائغة والأعمال الضارة، وهو السبيل الموصل إلىٰ جنات رب العالمين.

فاتباعُ القرآن هدايةٌ في الدنيا، وأمانٌ في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تكفَّل الله لمَن قرأ القرآن وعَمِل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة»، رواه الطبري.

فالقرآن يهدي لخيري الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

فالسعيد هو الذي اهتدىٰ وتَزكَّىٰ بالقرآن، فإنه يهدي للتي هي أقوم في الاعتقاد والقول والعمل، فيكون المسلم مُتزكِّيًا بتوحيد الله وطاعته، وباتخاذ القرآن فُرقانًا يَعْرِف به المسلم هداية مَن اهتدىٰ، وضلالة مَن ضلَّ، ويُميِّز به بين العقائد والمناهج الصحيحة الموافقة للقرآن، والعقائد والمناهج والدعوات الباطلة المخالفة للقرآن.



قال المصنف رحمه الله:

وهذا قد يَعْرِفُ بعضَهُ الناسُ بفطرتهم، كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضُه يعرفونه بالاستدلال الذي يهتدون به بعقولهم، وبعضُه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم، وهدايتهم إياهم.

وفي هذا المقام تَكلَّم الناس في أنَّ الأفعال هل يُعرف حُسْنُها وقُبْحُها بالعقل، أَمْ ليس لها حُسْنٌ وقُبْحٌ يُعرف بالعقل؟ كما قد بُسط في غير هذا الموضع، وبيّنا ما وقع في هذا الموضع من الاشتباه، فإنهم اتَّفقوا علىٰ أن كون الفعل يلائم الفاعل أو يُنافِره يُعلم بالعقل، وهو أن يكون الفعل سببًا لِمَا يحبّه الفاعل ويلتذّ به، وسببًا لِمَا يبغضه ويؤذيه.

وهذا القدرُ يُعلم بالعقل تارةً، وبالشرع أخرىٰ، وبهما جميعًا أخرىٰ، لكن معرفة ذلك علىٰ وجه التفصيل، ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الدار الآخرة لا تُعلم إلا بالشرع، فما أَخبرتْ به الرسل من تفاصيل اليوم الآخِر، وأَمرتْ به من تفاصيل الشرائع لا يَعْلمه الناس بعقولهم، كما أنَّ ما أَخبرتْ به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جُمَلَ ذلك.

وهذا التفصيل الذي يَحْصُل به الإيمان وجاء به الكتاب، هو مِمَّا دَلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾.

ولكن طائفة تَوهَّمتْ أنَّ للحُسْنِ والقُبْحِ معنىٰ غير هذا، وأنه يُعلم بالعقل، وقَابَلتهم طائفة أخرىٰ ظنَّتْ أنَّ ما جاء به الشرع من الحُسْن والقُبْح يخرج عن هذا، فكلتا الطائفتين اللتين أثبتتا الحُسْن والقُبْح والعقليين أو الشرعيين، وأخرجتاه عن هذا القسم، غَلطتْ[1].

الشَّرح

بدايةً في شرحِ هذا الموضوع لا بد من شرحِ معنىٰ الحَسَن والقَبِيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]: «أَخَصُّ صفات العقل عند الإنسان أنْ يَعْلم الإنسان ما ينفعه ويفعله، ويَعْلم ما يضره ويتركه.

والمراد بالحَسَن: هو النافع، والمراد بالقبيح: هو الضار.

فيكف يُقال: إنَّ عَقْلَ الإنسان لا يُميِّز بين الحسن وبين القبيح؟! وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟».

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلق عباده علىٰ فطرة الحنيفية، وجعلَ في عقولهم وفِطَرِهم معرفة ما ينفعهم والرغبة فيه، ومعرفة ما يضرهم والرغبة عنه، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

والكلام في التحسين والتقبيح العقلي فيه حثٌّ علىٰ تدبُّرِ معاني «الحكمة» في أمر الله ونهيه وأحكامه وشَرْعِه.

---

(١) التدمرية (ص٢١٥-٢١٧).

(٢) الرد علىٰ المنطيقيين (ص٤٢٩، ٤٣٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا كان «الحكيم» من أسمائه الحسنىٰ، والحكمة من صفاته، والشريعة الصادرة عن أَمْرِه مبناها علىٰ الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوثٌ بالكتاب والحكمة، والحكمة هي سُنَّة الرسول ﷺ، وهي تتضمَّن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به، فكلُّ هذا يُسمىٰ «حكمة»».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الله تعالىٰ عليمٌ حكيم، عَلِم بما تتضمنه الأحكام من المصالح، فأَمَر ونهَىٰ لعلمه بما في الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم».

وتَحدَّث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن استقرائه لمنهج الصحابة والتابعين في عِلَلِ الأحكام ومعاني الشرع، فقال[٣]: «يُصرِّحون بالحكم والأسباب، وبيان ما في المأمور به من الصفات الحسنة المناسبة للأمر به، وما في المنهي عنه من الصفات السيئة للنهي عنه، ومن تفضيل بعض الأقوال والأعمال في نفسها علىٰ بعض».

والله جَعَل في فِطَرِ وعقول عباده معرفة الحَسَن والقبيح، وهي معرفة مُجْمَلةٌ، قد جاء الشرع بتفصيلها، والأمر بالمعروف والخير والحسن، والنهي عن المُنكَر والشر والقبيح.

قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٩٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٣٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ١٨٢).

فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهىٰ عمَّا هو مُنكَر، ويُحِلّ لهم ما هو طَيِّبٌ، ويُحرِّم ما هو خبيثٌ.

ولو كان المعروف لا معنىٰ له إلا المأمورُ به، والمُنكَر لا معنىٰ له إلا ما حُرِّمَ لكان هذا كقول القائل: يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم، وَيُحِلُّ لهم ما أَحَلَّ لهم وَيُحَرِّمُ عليهم ما حَرَّمَ عليهم. وهذا كلامٌ لا فائدةَ فيه، فضلًا عن أن يكون فيه تفضيلٌ له علىٰ غيره.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ مَن أَمَر بأمرٍ يُوصف بذلك، وكلُّ نبيٍّ بُعث فهذه حالُه.

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فعُلم أنَّ الطيب وصفٌ للعين، وأنَّ الله قد يُحرِّمها مع ذلك عقوبةً للعباد».

والله خَلَق عباده علىٰ الفطرة، وجَعَل في فِطَرِهم وعقولهم معرفة الحسن والقبيح، وجاء الشرع بتكميل الفطرة والعقل، وتعليمها تفاصيل الحسن والقبيح.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فلمَّا قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، كان الكلام تفريقًا بين الحَسَن المأمور به والقبيح المنهي عنه،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ١٧٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٢٣٥).

وأن الأفعال منقسمة إلىٰ حَسَنٍ وسَيِّئٍ».

ومسألة التحسين والتقبيح العقلي بَحْثُها يرجع إلىٰ معرفة ما شَرَعه الله ممَّا يحبه ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «محبة الله؛ أي: أنه محبوب في نفسه، وهو مُحِبٌّ لنفسه ولعباده المؤمنين، وهي أصلُ هذا الباب، وهي أصلُ مِلَّة إبراهيم التي بَعَث الله بها موسىٰ وعيسىٰ ومحمدًا ﷺ أجمعين، بل هي أصلُ دِين الإسلام الذي بَعث الله به رُسُله وأنزل به كُتُبه.

وبها تزول عامَّة الشبهات الواقعة في هذا الباب في مسألة فعله؛ هل هو مُعَلّل أَمْ لا؟ وفي الإرادة والمحبة، وفي مسألة التحسين والتقبيح، وفي عامَّة مسائل الخَلق والأمر».

والأشاعرة خالفوا الإجماع في نفي ما في الشريعة من الحِكَم والأسباب، ونفوا الحُسْنَ والقُبْحَ العقليين مطلقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ نَفْيَ ذلك هو من البدع التي حَدَثَتْ في الإسلام في زمن أبي الحسن الأشعري لمَّا ناظَرَ المعتزلة في القدَر بطريق الجهم بن صفوان ونحوه من أئمة الجبر، فاحتاج إلىٰ هذا النفي.

قالوا: وإلا فنفيُ الحسن والقبح العقليين مطلقًا لمْ يَقُلْهُ أَحدٌ من سَلفِ الأمَّة ولا أئمتها، بل ما يُؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام، وبيان

---

(١) الصفدية (٢/ ٢٦٥).

(٢) الرد علىٰ المنطقيين (ص٤٢١).

حكمة الله في خلقه وأمره، وبيان ما فيما أمر الله به من الحسن الذي يُعلم بالعقل، وما في مَناهِيه من القبح المعلوم بالعقل، ينافي قَوْلَ النُّفاة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الأشعري ومَن وافقه اتَّبعوا جهمًا علىٰ قوله في القدَر، وإن كانوا يثبتون قدرةً وكسبًا، لكن ما أثبتوه لا حقيقة له في المعنىٰ، بل قولهم هو قولُ جهم -وإن نازعوه في إثبات القدرة والكسب-.

ولهذا كان قولهم في نفي ما في الشريعة من الحِكم والأسباب خِلافَ إجماعِ السلف والفقهاء؛ فإنَّ من أصولهم: أنَّ الله لا يخلق لحكمةٍ، ولا يأمر لحكمة، بل ليس عندهم في القرآن لام تعليل في خَلقِهِ وأَمرِهِ، وإذا تكلموا معهم في الأمور الطبيعية أحالوا جميع ذلك علىٰ مجرد ترجيح القادر بلا سببٍ، وأنَّ ما وُجد من الاقتران فهو عادةٌ محضة، لا لارتباط بين هذا وهذا، ثم قد يضيفون هذا القول إلىٰ السُّنة».

والكلام في الحسن والقبيح بيانُه يكون فيما يتعلق بأفعال الله ﷻ، وكذلك في أفعال العباد.

أمَّا بالنسبة للتحسين والتقبيح في أفعال الله: فأهلُ السُّنة والجماعة يثبتون الحكمة في خَلْقِ الله وأحكامه، وقد ضلَّ عنهم الكُلَّابية في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «مَن قال: إنه لا يخلق شيئًا بحكمة، ولا يأمر بشيء بحكمةٍ؛ فإنه لا يُثبِتُ إلا محض الإرادة التي تُرجِّح أَحَدَ المتماثلين علىٰ الآخر

(١) الصفدية (٢/ ٣٣١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٣٢).

بلا مُرجِّحٍ، كما هو أصلُ ابنِ كُلَّاب ومَن تابعه، وهو أصلُ قولي القدرية والجهمية».

وأمَّا بالنسبة للكلام في الحسن والقبيح في أفعال العباد: فهي تابعة لأمر الله ونهيه الذي عَلِمَ العقلُ أنه يدلُّ على الحَسَن، وينهَىٰ عن القبيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحُسْنُ والقُبْحُ من أفعال العباد يرجع إلىٰ كون الأفعال نافعةً لهم وضارَّةً لهم، وهذا ممَّا لا رَيْبَ فيه أنه يُعرف بالعقل».

وقال شيخ الإسلام[2]: «يُدرِكُ الناس بعقولهم أمور الدنيا، فيعرفون ما يجلب لهم منفعةً في الدنيا وما يجلب لهم مَضرَّةً، وهذا من العقل الذي مُيِّز به الإنسان، فإنه يُدرِكُ من عواقب الأفعال ما لا يدركه الحِسُّ، ولفظُ العقل في القرآن يتضمَّن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المَضرَّة».

وكما أن المُسلِم فَطَره الله علىٰ معرفةِ الحق وإرادته معرفةً مجملة، فإنَّ دِينه وعقيدته أنَّ خَلْقَ اللهِ وأَمْرَهُ كلَّهُ حكمةٌ، ومتىٰ رُزق مدارسة معاني الشريعة من خلال استقراء نصوص القرآن والسُّنة؛ أدركَ مقاصد الشريعة، وحكمة الله في خَلقِه وشَرعِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا عَلِم العبد من حيث الجملة أنَّ الله فيما خَلَقه وما أَمَر به حكمة عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علمًا وإيمانًا ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يُبهِرُ عقله، ويُبيِّن له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال:

---

(١) الرد على المنطقيين (ص٤٢٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣١١)، باختصار وتصرف يسير.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٩٧).

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فإنه ﷺ قال في الحديث الصحيح: «للهُ أَرْحَمُ بعباده من الوالدة بولدها»، وفي الصحيحين عنه أنه قال: «إنَّ الله خَلَق الرحمة يوم خَلَقها مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدة، فبها يتراحم الخَلق، حتىٰ إنَّ الدابَّة لترفع حافِرَها عن وَلَدِها من تلك الرحمة، واحتبس عنده تسعًا وتسعين رحمة، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلىٰ تلك فرَحِمَ بها عباده»، أو كما قال رسول الله ﷺ».



قال المصنف رحمه الله:

ثُمَّ إنَّ كلتا الطائفتين لمَّا كانت تنكر أنْ يُوصف الله بالمحبة والرضا والسُّخْط والفرح ونحو ذلك ممَّا جاءت به النصوص الإلهية، ودَلَّت عليه الشواهد العقلية، تنازعوا بعد اتفاقهم علىٰ أن الله لا يفعل ما هو منه قبيح، هل ذلك ممتنع لذاته وأنه لا تُتصور قدرته علىٰ ما هو قبيح، أو أنه سبحانه وتعالى مُنزَّه عن ذلك لا يفعله لمجرد القُبْح العقلي الذي أثبتوه؟ علىٰ قولين.

والقولان في الانحراف من جنس القولين المتقدمين؛ أولئك لم يُفرِّقوا في خَلْقِه وأَمْرِه بين الهدىٰ والضلال، والطاعة والمعصية، والأبرار والفُجَّار، وأهل الجنة وأهل النار، والرحمة والعذاب، فلا جعلوه محمودًا علىٰ ما فَعَله من العدل، أو ما تَرَكه من الظلم، ولا ما فَعَله من الإحسان والنعمة، أو تَرَكه من العذاب والنقمة.

والآخرون نَزَّهُوه بناءً علىٰ القُبح العقلي الذي أَثْبَتُوه، ولا حقيقة له، وسَوّوه بخَلْقِه فيما يَحْسُن ويَقْبُح، وشَبَّهوه بعباده فيما يُؤمر به ويُنهىٰ عنه[(١)].

الشَّرح

دِينُ الله هو وَحْيُه الذي أوحاه إلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم وبلّغه للناس، واللهُ عز وجل أوحىٰ إلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم الحكمة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

والأوامر والنواهي الإلهية ليست لمجرد محض المشيئة الإلهية، بل هي بحكمة إلهية ولمصلحة الخَلق.

وما من شيءٍ أَمَرَ الله عز وجل به إلا لأنّه هو العدل والمعروف، ولا نهىٰ عن شيء إلا

(١) التدمرية (ص٢١٧، ٢١٨).

لأنّه ظلمٌ ومُنكَرٌ وفَحْشَاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

ومن البدع المُحدَثة التي أَحْدَثَها أبو الحَسَن الأشعري في الإسلام: قوله: إنّ جميع الأعيان والأفعال سواءٌ في نفس الأمر، ليس لبعضها صفة توجب أنْ يفضل بها علىٰ الأخرىٰ حتىٰ يُحِبَّ اللهُ تعالىٰ هذا ويأمر به، ويبغض هذا وينهىٰ عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مَن تَدبَّر القرآن العزيز وجده مخالفًا لهذا القول، بل هذا مخالف لِمَا فَطَر الله تعالىٰ عليه العقلاء، ولهذا لَمْ يُعرف هذا القول عن أحد من سلفِ الأُمة وأئمتنا الأربعة، ولا غيرهم.

بل قد ذَكَره أبو نصر السجزي وأبو القاسم سعد بن علي الزنجاني وغيرهما من أهل الحديث والسُّنة، من البدع المُحدَثة في الإسلام، وأضافوه إلىٰ أبي الحسن، وعَدُّوه مِمَّا يُنكر علىٰ أبي الحسن».

والله ﷻ أخبرنا عن حكمته في أمره ونهيه لتجري أحكامنا وفق أَمْرِه وحكمته، فقال الله ﷻ في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنّي حرَّمتُ الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا»، رواه مسلم من حديث أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالىٰ مبيّنًا ما في أوامره ونواهيه من الحكمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وأخبرنا الله ﷻ عن حكمته في تحريم أنواع الأطعمة، ومعنىٰ ذلك يرجع إلىٰ

(١) شرح الأصبهانية (ص٤٤٩، ٤٥٠).

نَجاستها وخُبْثِها وضَرَرِها، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وأخبرنا الله عن حكمته في كلِّ ما أَحلَّه وحرَّمه، فما كانت مصلحته خالصةً أو راجحة أحلَّه، وما كانت مفسدته خالصةً أو راجحة حرَّمه، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وأخبرنا الله ﷻ عن حكمة خلقنا، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصدٍ ولا إرادةٍ منكم، ولا حكمة لنا».

وكما أخبرنا الله تعالىٰ عن حكمته في أحكامه الشرعية، أخبرنا عن حكمته في قضائه الكوني القدَرِي، فأخبرنا سبحانه أنّه يبتلي عباده بالسرَّاء والضرَّاء؛ ليستخرِجَ عبوديتهم في الأحوال كلها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٨٣).

وأَعْلَمَنا اللهُ ﷻ ما في ابتلاء عباده بالمصائب من الحكمة، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أخبرهم بما لهم فيها من الحِكَم؛ لئلَّا يتَّهموه في قضائه وقدَرِه، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسَلَّاهم بما أعطاهم ممَّا هو أَجَلُّ قدرًا، وأعظم خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعَزَّاهم عن قتلاهم بما نَالُوه من ثوابه وكرامته، لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله».

وأخبرنا سبحانه بما في حكمته من خَلْقِ الأضداد، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكلُّ ما أَمَر الله به فهو عدلٌ وخيرٌ وزَكاءٌ، وكلُّ ما خالفه فهو من غرور الشيطان الذي يأمر بكل سوءٍ، من الظلم والشرك والفواحش والخبائث.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وشَرْعُ اللهِ كلُّه خبرٌ وأمرٌ، والخبر كلُّه صِدْقٌ، والأمر كلُّه عدلٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فالله ﷻ مُنزَّه عن الظلم وعن الفعل لا لحكمة.

(١) زاد المعاد (ص٤١٠).

وضُلَّالُ المبتدعة احتجُّوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] علىٰ أنَّ الله لا يفعل لحكمةٍ، وهذا من سوءِ فَهْمِهِم لمعنىٰ الآية وقَطْعِها عن سياقها، واجتزائها عن كل النصوص القرآنية التي أخبرنا الله فيها عن حكمته الشرعية والقدرية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ الآية إنّما سِيقَتْ لبيان توحيده سبحانه، وبطلان إلهية ما سواه، وأنّ كلَّ مَن عَدَاهُ مربوبٌ مأمورٌ منهيٌّ مسئولٌ عن فِعْله، وهو سبحانه ليس فوقه مَن يسأله عمَّا يفعله.

قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣]، فلم تكن الآية مَسُوقةً لبيان أنّه لا يفعل بحكمة ولا لغاية محمودة مطلوبة بالفعل، وأنّه يفعل ما يفعله بلا حكمةٍ ولا سببٍ ولا غايةٍ.

بل الآية دلَّت علىٰ نقيض ذلك، وأنّه لا يُسأل عمَّا يَفْعَل؛ لكمال حكمته وحَمْدِه، وأنّ أفعاله صادرة عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، فكمالُ عِلْمِه وحكمته وربوبيته ينافي اعتراض المعترضين عليه، وسؤال السائلين له».



(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٧)، ط- دار الحديث- القاهرة، ط- الأولىٰ- ١٤١٢هـ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمَن نَظَر إلىٰ القدَر فقط، وعظَّم الفناء في توحيد الربوبية، ووقف عند الحقيقة الكونية، لم يُميِّز بين العلم والجهل، والصدق والكذب، والبِر والفجور، والعدل والظلم، والطاعة والمعصية، والهدىٰ والضلال، والرُّشد والغَي، وأولياء الله وأعدائه، وأهل الجنة وأهل النار، وهؤلاء مع أنهم مخالفون بالضرورة لكُتُبِ الله ودينه وشرائعه، فهم مخالفون أيضًا لضرورة الحِسِّ والذَّوق، وضرورة العقل والقياس؛ فإنَّ أحدهم لا بُدَّ أنْ يَلتذَّ بشيء ويتألَّم بشيء، فيميّز بين ما يُؤكل ويُشرب، وما لا يُؤكل ولا يُشرب، وبين ما يؤذيه من الحر

والبرد، وما ليس كذلك، وهذا التمييز بين ما ينفعه ويضره هو الحقيقة الشرعية الدينية.

ومَن ظَنَّ أنَّ البشر ينتهي إلىٰ حدٍّ يستوىٰ عنده الأمران دائمًا فقد افترىٰ، وخالف ضرورة الحِسِّ، ولكن قد يعرض للإنسان بعض الأوقات عارِضٌ كالسُّكْرِ والإغماء ونحو ذلك ممَّا يشغله عن الإحساس ببعض الأمور، فأمَّا أنْ يَسْقُطَ إحساسُه بالكلية مع وجود الحياة فيه فهذا ممتنعٌ، فإنَّ النائم لمْ يسقط إحساس نفسه، بل يرىٰ في منامه ما يَسرّه تارةً وما يَسُوؤه أخرىٰ، فالأحوال التي يُعبر عنها بِالِاصْطِلَامِ والفناء والسُّكر ونحو ذلك إنما تتضمن عدم الإحساس ببعض الأشياء دون بعضٍ، فهي مع نقصِ صاحبها لضعف تمييزه لا تنتهي إلىٰ حدٍّ يَسْقُطُ فيه التمييز مطلقًا.

ومَن نفىٰ التمييز في هذا المَقام مطلقًا، وعظَّم هذا المَقام فقد غَلِطَ في الحقيقة الكونية والدينية قدرًا وشرعًا، وغَلِطَ في خَلْقِ الله وفي أَمْرِهِ؛ حيث ظَنَّ وجود هذا، ولا وجود له، وحيث ظَنَّ أنه ممدوح، ولا مَدْحَ في عدم التمييز والعقل والمعرفة.

وإذا سمعتَ بعض الشيوخ يقول: أريد ألا أريد، أو إنَّ العارف لا حَظَّ له، أو إنه يصير كالميت بين يدي الغاسل، ونحو ذلك، فهذا إنما يُمْدَحُ منه سقوطُ إرادته التي لم يُؤمر بها، وعدمُ حظِّه الذي لم يُؤمر بطلبه، وأنه كالميت في طلب ما لمْ يُؤمر بطلبه، وتَرْكِ دَفْعِ ما لمْ يُؤمر بدفعه.

ومَن أراد بذلك أنه تَبْطُلُ إرادته بالكلية، وأنه لا يُحِسُّ باللذة والألم والنافع والضار، فهذا مخالِفٌ لضرورة الحس والعقل، ومَن مَدَح هذا فهو مخالِفٌ لضرورة الدِّين والعقل[(١)].

الشَّرْح

توحيدُ الربوبية هو توحيد الله ﷻ في أفعاله، فالله خالِقُ كلِّ شيء، والله خَلَق الإنسان وخَلَق فيه القدرة والقوة على الفعل، وهَيَّأ له أسباب أفعاله.

والله ﷻ شَرَع الدين، فنؤمن بالله، ونَتَّبع شَرْعَهُ، وقَدَّر مقادير الخَلق، فنؤمن بالقدر خيره وشره، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اعتقاد أهل السُّنة والجماعة[(٢)]: «الحق الذي دلَّ عليه المنقول والمعقول: أنّ أفعال العباد مخلوقة لله، مفعولة له، وهي فعلٌ للعباد حقيقةً لا مَجازًا، وهم يُثبتون ما لله في خَلقِه وأمرِه من الأسباب والحِكَم، وما جَعَله الله في الأجسام من القُوَىٰ والطبائع في الحيوان وفي الجماد.

لكنّهم مع إثباتهم للأسباب والحِكَم لا يقولون بقول الطبعائية من الفلاسفة وغيرهم، بل يقولون: إنّ الله خالِقُ كلِّ شيءٍ وربه ومَلِيكه، وأنّه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنّه لا حول ولا قوة إلا به، ويَعْلمون أنّ الأسباب هي مخلوقة لله

---

(١) التدمرية (ص٢١٨-٢٢٠).

(٢) الصفدية (١/ ١٥٤، ١٥٥).

بمشيئته وقدرته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كثيرٌ من الناس يتكلم بلسان «الحقيقة»، ولا يفرِّق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته، ولا يُفرِّق بين مَن يقوم بالحقيقة الدينية موافقًا لما أمر الله به علىٰ ألسن رُسُله، وبين مَن يقوم بوَجْدِه وذَوْقِه غير معتبر ذلك بالكتاب والسُّنة».

وضُلَّالُ الصوفية يقولون: مَن حصل له معرفة وحالٌ لَمْ يجب عليه التمسك بالشريعة، بل له حينئذٍ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية، أو يفعل بمقتضىٰ ذَوْقِه ووَجْدِه، من غير اعتصامٍ بالكتاب والسُّنة[(٢)].

والواجب علىٰ المسلم: التفقُّه في الدين والعمل به، أمَّا العلم الذي ينهىٰ عن العمل وعبودية الله فهو ضلالةٌ وعِلمٌ غيرُ نافعٍ، كضلال الصوفية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «مِنْ هؤلاء مَن يحتجُّ بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، ويقول معناها: اعبدْ ربَّكَ حتىٰ يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة».

واليقين في الآية هو الموت، والأنبياء فضلًا عن سائر المخلوقات مأمورون بعبادة الله حتىٰ الموت، قال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أمر الله له: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٦٢).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤١٨).
(٣) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤١٧).

فالواجب على المسلم: ملازمة «الحقيقة الشرعية» ومحاذرة «الحقيقة البدعية»، فالإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسول ﷺ هي الحقيقة الشرعية، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أمَّا «الحقيقة البدعية»، فهي سلوكُ طريقِ الله ﷻ، ممَّا يقع في قلب العبد من الذَّوْق والوَجْد، والمحبة والهوىٰ، من غير اتباع الكتاب والسُّنة، كطريق النصارىٰ، فهم تارةً يعبدون غير الله، وتارةً يعبدون بغير أمر الله، كالنصارىٰ المشركين الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا من الدين ما لم يَأْذَن به الله.

وأمَّا دين المسلمين فكما قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

قال الفُضَيْل بن عِيَاض: أَخْلَصُه وأَصْوَبُه، قالوا: وما أخلصه وأصوبه؟! قال: إنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا.

والخالص: أن يكون لله.

والصواب: أن يكون علىٰ السُّنة.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٠٨، ٥٠٩).

وأمَّا «الحقيقة الدينية» وهي تحقيق ما شَرَعه الله ورسوله، مثل: الإخلاص لله، والتوكل على الله، والخوف من الله، والشكر لله، والصبر لحُكْمِ الله، والحب لله ورسوله، والبغض في الله ورسوله، ونحو ذلك مما يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهذا حقائق أهل الإيمان، وطريق أهل العرفان».

وأمَّا أولياء الله: فوَصَفهم اللهُ ﷻ بالوصف الذي صاروا به أولياءه، فقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وَلِيُّ الله: هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه».

وأمَّا أصحاب السماع الشيطاني: فهؤلاء أولياء الشيطان، سماعهم مُبتدَعٌ، وذِكرهم مُحدَثٌ، فإذا غابت عقولهم، وتكلموا بالشرك، وفعلوا الفواحش، وأتوا الظلم؛ صارت وِلَايَتهم للشيطان أشد وأعظم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرُّفات خارقة من جنس السِّحْر، وهم من جنس الكُهَّان والسَّحَرة الذين تَنَزَّل عليهم الشياطين، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٦١).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلىٰ المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا مُتَّبِعِين للرُّسل فلا بُدَّ أن يَكْذِبُوا، وتَكْذبهم شياطينهم.

ولا بُدَّ أنْ يكون في أعمالهم ما هو إثمٌ وفجورٌ، مثل: نَوْع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو، أو البدع في العبادة؛ ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]».

والتكليف في حق البالغ ثابتٌ ما دام معه عقله، وما يفعله الصوفي من أسباب ذهاب عقله بالرقص، والذِّكر المُبتدَع، والسماع للمعازف من الوجد مما يسمونه السُّكر والفناء؛ فإنّه يأثم بذلك علىٰ عباداته المبتدعة، وعلىٰ ما يقوله من الكفر، ويفعله من الظلم والفواحش.

وتحصل لهؤلاء الضالين أحوالٌ شيطانية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تلك عباداتٌ بدعية شركية شيطانية فلسفية، تستجلب الشياطين».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «ولهذا يُورِثُ أصحابه سُكْرًا أعظم من سُكْرِ الخمر، فيجدون لذةً بلا تمييز، كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدهم ذلك عن ذِكر الله وعن الصلاة، أعظم مما يَصدّهم الخمر، ويُوقِع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر».

وذَكَر الإمام الشافعي أنَّ هذا السماع المُحدَث أَحْدَثَته الزَّنادِقَة يُسَمّونه

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٧٥).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٧٤).

التغيير[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ذلك أنّه يُهَيِّجُ الوَجْدَ المشترك، فيثير من النفس كوامِنَ تَضرّه آثارها».

وقال شيخ الإسلام[٣]: «إنَّ الصوت يُؤثِّر في النفس بحُسْنِه: فتارةً يُفْرِحُ، وتارةً يَحْزَن، وتارة يغضب، وتارة يرضىٰ، وإذا قَوِيَ أَسْكَرَ الروح؛ فتصير في لذة مُطْرِبَةٍ من غير تمييزٍ».

فالواجب علىٰ المسلم: التمييزُ بين الذِّكر المشروع والذِّكر المُبتدَع، والأحوال الإيمانية والأحوال الشيطانية.

فذِكرُ الله المشروع سببٌ لِوَجَلِ القلوب وزيادة الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، والذِّكر المبتدع من أسباب ذهاب العقل والهَذَيان بالكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «أمَّا المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فصلاتهم وعبادتهم القرآن واستماعه، والركوع والسجود، وذِكر الله ودعاؤه، ونحو ذلك مما يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فمَنِ اتَّخذَ الغِناءَ والتَّصْفِيقَ عبادةً وقُرْبَةً فقد ضاهَىٰ المشركين في ذلك، وشابههم فيما ليس من فِعْلِ المؤمنين: المهاجرين والأنصار.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩٣).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩٤).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٩٦).

فإنْ كان يفعله في بيوت الله فقد زاد في مشابهته أكبر وأكبر، واشتغل به عن الصلاة وذِكر الله ودعائه، فقد عَظُمَتْ مشابهته لهم، وصار له كِفْلٌ عظيم من الذم الذي دلَّ عليه قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]».

فاعتقاد الصوفية هَذَيانٌ باطِلٌ راجَ على كثير من الجُهَّال، ومَن تَحقَّق بضَلَالِ الصوفية وإلحادهم في تعطيل أسماء الله وصفاته، وإلحادهم بقولهم بالحلول ووحدة الوجود، وإنكارهم مباينة الله لخلقه، وترك عبودية الله متى ما أدركوا اليقين، حَذَّرَ المسلمين من عقيدتهم ودعوتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هو -ابن سبعين- وابن عربي وأمثالهما في ترتيب دعوتهم من جنس ملاحدة الشيعة الباطنية؛ فإنَّ عقيدتهم في الابتداء عقيدة الشيعة، ثم ينقلون المستجيب لهم إلى الرفض، ثم ينقلونه إلى تركِ الأعمال، ثم ينقلونه إلى الانسلاخ من خصوص الإسلام، ثم إلى الانسلاخ من المِلَل، إلى أن يصل إلى البلاغ الأكبر والناموس الأعظم عندهم، فيصير مُعطِّلًا محضًا، حتى يقولون: ليس بيننا وبين الفلاسفة خلافٌ إلا في إثبات الوجود، يعنون المُبدِع للعالَم، فلو تَرَكته الفلاسفة لَمْ يَبْقَ بيننا وبينهم خلافٌ.

وهذا -في الحقيقة- هو منتهى دعوة أولئك الملاحدة».



---

(١) الصفدية (١/ ٢٧٣).


قال المصنف رحمه الله:

والفَناءُ يُراد به ثلاثة أمور:

أحدها: هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وهو أن يَفْنَىٰ عمَّا لَمْ يَأْمُرِ اللهُ به بفعل ما أَمَرَ الله به، فيفنىٰ عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل علىٰ غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث لا يَتَّبِعُ العبد هواه بغير هدىٰ من الله، وبحيث يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، فهذا كله هو ممَّا أَمَر الله به ورسوله.

وأمَّا الفناء الثاني: وهو الذي يَذْكُرُه بعضُ الصوفية، وهو أنْ يَفْنَىٰ عن شهود ما سوىٰ الله تعالىٰ، فيفنىٰ بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذِكْرِه، وبمعروفه عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شعوره بنفسه وبما سوىٰ الله، فهذا حالٌ ناقِصٌ قد يَعْرِضُ لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله، ولهذا لَمْ يَعْرِضْ مثلُ هذا للنبي ﷺ والسابقين الأوَّلين.

ومَن جَعَل هذا نهاية السالكين فهو ضالٌّ ضلالًا مبينًا، وكذلك مَن جَعَله من لوازم طريق الله فهو مخطئٌ، بل هو من عَوَارِضِ طريق الله التي تَعْرِضُ لبعض الناس دون بعضٍ، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكلِّ سالِكٍ.

وأمَّا الثالث: فهو الفناء عن وجود السَّوِيِّ، بحيث يَرَىٰ أن وجود المخلوق هو عينُ وجود الخالق، وأنَّ الوجود واحِدٌ بالعين، فهذا قولُ أهلِ الإلحاد والاتحاد الذين هم من أضلِّ العِباد[1].

---

(١) التدمرية (ص٢٢١-٢٢٢).

الشَّرح

الفَناءُ: لفظٌ لَمْ يَرِدْ في الكتاب والسُّنة، وتَكلَّم العلماء في معناه بحسب ما تقتضيه أدلة الوحي.

والفناء في توحيد الألوهية: هو النوع المشروع المحمود، وهو حقيقة الدين.

والمقصود بالفناء في توحيد الإلهية: هو هجرة القلب إلىٰ الله في كل لحظة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلىٰ محبته، ومن عبودية غيره إلىٰ عبوديته، ومن خوف غيرِه ورجائه والتوكل عليه إلىٰ خوفِ الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذلِّ له والاستكانة له، إلىٰ دعاء ربه وسؤاله والخضوع له والذلِّ والاستكانة له.

وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه».

والفناء في توحيد الإلهية معناه تحقيق التوحيد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ الفرار إليه سبحانه يتضمَّن إفراده بالطلب والعبودية، ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمِّنٌ لتوحيد الإلهية التي اتَّفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

(١) الرسالة التبوكية (ص١٦).
(٢) الرسالة التبوكية (ص١٧).

ومَن تَحقَّق بتوحيد الربوبية أدَّاه ذلك إلىٰ تحقيق توحيد الألوهية، فأَزِمَّةُ الأمور كلها بيد الله، وهو الذي يُقدِّر المقادير، وهو الذي بيده الخير ويكشف السوء وحده، فمَن آمن بذلك حقًّا تَوجَّه إلىٰ رب العالمين، وقَصَدَهُ وحده بالرجاء والمسألة، قال النبي ﷺ: «لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَىٰ منكَ إلا إليكَ»، متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلمْ أنَّ الأُمَّة لو اجتمعتْ علىٰ أنْ ينفعوكَ بشيءٍ لَمْ ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لكَ، وأنهم لو اجتمعوا علىٰ أنْ يضروكَ لَمْ يضروكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليكَ»، رواه أحمد والترمذي، وصحَّحه.

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «الغاية التي لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها، الفناء في توحيد الإلهية، وهو أن يفنىٰ بمحبة ربه عن محبة كلِّ ما سواه، وبتألُّهِه عن تألُّهِ ما سواه، وبالشوق إليه وإلىٰ لقائه عن الشوق إلىٰ ما سواه، وبالذلِّ له والفقر إليه من جهة كونه معبوده وإلهه ومحبوبه عن الذلِّ إلىٰ كلِّ ما سواه، وكذلك يفنىٰ بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه، فيرىٰ أنه ليس في الوجود ما يصلح له ذلك إلا الله، ثم يتَّصف بذلك حالًا ويَنْصَبِغ به قلبُه صبغةً، ثم يفنىٰ بذلك عمَّا سواه».

والمقصود بالفناء في توحيد الإلهية: هو أن يكون اللهُ عز وجل ورسوله ﷺ أحبَّ إلىٰ المسلم ممَّا سواهما، فيُؤْثِرُ مَراضي الله ومَحابّه علىٰ كل ما سواه، فيكون هواه تبعًا لِمَا يُرضِي الله، ويكون سعيُه في عبودية الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا يَصُدّه، ولا يُلْهِيه، ولا يُشغِلُه شيءٌ عن هذا المقصود العظيم الذي خُلق له، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٢٩).

أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وهذا الفناء في توحيد الإلهية هو أن تكون نية المسلم كلها في طاعة الله، فيحتسب المسلم نيته بالتعبُّد لله في كل ما يأتي ويَذَر، حتىٰ تكون المباحات في حقه عبادات، وهذا مَقام الحُنفاء الموحِّدِين، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال معاذ رضي الله عنه: «إني لأحتسبُ نَوْمَتِي كما أحتسبُ قَوْمَتِي»، رواه البخاري.

الفناء في توحيد الإلهية: هو أن يعكف قلبُكَ علىٰ قصدِ الله ورجائه وحده، فهو جمعية القلب علىٰ الله وحده.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «الإنابة: هي عكوف القلب علىٰ الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يُفارقه.

وحقيقة ذلك: عكوف القلب علىٰ محبته وذِكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح علىٰ طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ.

ومَن لم يعكف قلبُه علىٰ الله وحده عَكفَ علىٰ التماثيل المتنوعة، كما قال إمام الحُنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظُّ قومِه العكوف علىٰ التماثيل، وكان حظُّه العكوف علىٰ الرب الجليل.

والتماثيل: جَمْعُ تمثال، وهي الصور المُمَثَّلَة.

---

(١) الفوائد (ص٢٨٤، ٢٨٥).

فتعلُّقُ القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه، عكوفٌ منه علىٰ التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف علىٰ تماثيل الأصنام، ولهذا كان شركُ عُبَّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهِمَمِهم وإراداتهم علىٰ تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد مَلَكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظيرُ عكوفِ عُبَّاد الأصنام عليها، ولهذا سَمَّاه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه بالتَّعَس والنَّكس، فقال: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ وانْتكَس، وإذا شِيْكَ فلا انْتَقَش»».

والمقصود بتحقيق توحيد الألوهية: أن تعيش وتعمل ليكون الدِّين كله لله، وهذه حقيقة عبودية المسلم لربه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة المؤمن(١): «مُنتصِبٌ لتنفيذ أَمْرِ الله، وآمِرٌ العِباد بطاعة الله تعالىٰ، وناهٍ لهم عن مَحارِمِ الله، ناصِحٌ لعِباد الله بدعائهم إلىٰ الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العِزَّة لله».

فالموحِّدون عاشوا لعبودية الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، ونُصْح الخَلق، ونُصْرة الحق، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

ومَن عاشَ هكذا ليكون الدِّين كله لله، فما أَقْرَبَهُ من الله! وما أعظم ثوابه! قال النبي ﷺ: «مَن دَعا إلىٰ هُدًىٰ كان له مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ من غيرِ أنْ يَنْقُصَ من أُجُورِهم شيءٌ»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٧٦).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يدخل فيمَن دعا إلىٰ الهدىٰ: مَن دعا إلىٰ التوحيد من الشرك، وإلىٰ السُّنة من البدعة، وإلىٰ العلم من الجهل، وإلىٰ الطاعة من المعصية، وإلىٰ اليقظة من الغفلة، فمَنِ استُجيب له إلىٰ شيء من هذه الدعوات فله مثلُ أَجْرِ مَن تَبِعَهُ».

والفناء بالتوكل علىٰ الله دون مَن سواه يكون بالتوجه إلىٰ الله وحده وعبوديته ومُوَالاته، فمَن كان لله وبالله، كان الله له.

ومَن تَولَّىٰ اللهَ تَوَلَّاهُ اللهُ وهَدَاه وكَفاه، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا وفَّقَ الله عبدًا تَوكَّل بحفظه وَكَلاءَتِه، وهدايته وإرشاده، وتوفيقه وتسديده، وإذا خَذَله وَكَلَهُ إلىٰ نفسه أو إلىٰ غيره، ولهذا كانت هذه الكلمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل» كلمةً عظيمة، وهي التي قالها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقالتها عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين ركبت الناقة لمَّا انقطعت عن الجيش، وهي كلمة المؤمنين.

فمَن حقَّق التوكل علىٰ الله لمْ يَكِلْهُ إلىٰ غيره، وتَوَلَّاه بنفسه.

وحقيقة التوكل: تَكِلَةَ الأمور كلها إلىٰ مَن هي بيده، فمَن تَوكَّل علىٰ الله في هدايته وحراسته وتوفيقه وتأييده ونصره ورزقه وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه،

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٨٥).
(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٤١).

تَولَّىٰ الله مصالحه كلها؛ فإنه تعالىٰ وَلِيُّ الذين آمَنوا».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه ليس في الوجود شيءٌ يفر منه ويلجأ منه إلا وهو من الله خلقًا وإبداعًا.

فالفارُّ والمُستعيذ فارٌّ ممَّا أَوْجَبه قَدَرُ الله ومشيئته وخَلْقُه، إلىٰ ما تقتضيه رحمتُه وبِرُّه ولُطْفُه وإحسانُه، ففي الحقيقة هو هارِبٌ من الله إليه، ومُستعيذٌ بالله منه.

وتَصوُّرُ هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاعَ عَلَقِ قلبِهِ من غير الله بالكلية خوفًا ورجاءً ومحبةً».

ومن هنا تَعْرِفُ فَضْلَ عِلْمِ السلف وتحقُّقهم بالتوحيد، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اليقين بالله هو الإيمان كله»، ذَكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، ورواه الحاكم[٢].

وظهرَ فَضْلُ عملِ السلف وتحقّقهم بالتوحيد علىٰ مَن بَعْدَهم، فكانوا أَرْغَبَ في الآخرة، وأَزْهَدَ في الدنيا.

واستشعارُ مَعِيّة الله ﷻ من أعظم أسباب تحقيق التوحيد، فقد سُئل النبي ﷺ: ما تزكية المرء نفسه؟ قال: «أنْ يَعْلمَ أنَّ الله معه حيث كان»، رواه الطبراني في المُعجم الصغير.

(١) الرسالة التبوكية (ص١٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا موقوفٌ صحيحٌ»، تغليق التعليق (٢/ ٢٢).

ما أحوجنا جميعًا إلىٰ استحضار مَعِيَّة الله ﷻ؛ فإنَّ الغفلة عن ذلك من أسباب الشغل عنه بما لا يرضيه.

وهذا مقام الإحسان الذي يكون مَن حقَّقَه، من عِباد الله الصادقين المُتَّقِين.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حُسْنُ العبادة، وحسن إتقانها والإتيان بها علىٰ أكمل وجوهها، وإلىٰ هذا أشار النبي ﷺ لمَّا سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «أنْ تعبدَ الله كأنك تراه؛ فإنْ لم تكن تراه فإنه يراكَ»، فأشار إلىٰ مقامين:

أحدهما: أنْ يَعبدَ اللهَ العبدُ مستحضرًا لرؤية الله إياه، ويستحضر قُرْبَ الله منه، واطِّلاعه عليه، فيخلص له العمل، ويجتهد في إتقانه وتحسينه.

والثاني: أن يعبده علىٰ مشاهدته إيَّاه بقلبه، فيعامله معاملةَ حاضِرٍ لا معاملةَ غائِبٍ، وقد وَصَّىٰ ﷺ رَجُلًا أن يصلي صلاةَ مُوَدِّعٍ؛ يعني يستشعر أنه يصلي صلاةً لا يصلي بعدها صلاةً أخرىٰ، فيحمله ذلك علىٰ إتقانها وتكميلها وإحسانها».

والفناء في توحيد الله: أنْ يكون شُغْلُكَ فيما يرضي الله ويُقرِّبكَ إليه، فتفنىٰ بذلك عن مَحْمَدَة الناس وثنائهم، فالإخلاص لله أن تلتفت عن قصدِ غيره، وأن تعبده بما شرع.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «مَنِ اشتغل بتربية منزلته عند الله بما ذَكَرنا من العلم الباطن وَصَل إلىٰ الله، فاشتغل به عمَّا سواه، وكان له في ذلك شغلٌ

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي(١/ ٣٥١).
(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٩٥).

عن طلب المنزلة عند الخَلق، ومع هذا؛ فإن الله يعطيه المنزلة في قلوب الخَلق والشرف عندهم؛ وإن كان لا يريد ذلك ولا يقف معه، بل يهرب منه أشد الهرب ويَفِرُّ أشدَّ الفرار؛ خشيةَ أنْ يقطعه الخَلق عن الحق جل جلاله.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي في قلوب عباده، وفي حديث: «إنَّ الله إذا أَحبَّ عبدًا نادىٰ: يا جبريل، إني أُحِبُّ فلانًا، فيحبه جبريل، ثم يحبه أهل السماء، ثم يُوضَعُ له القَبول في الأرض»، والحديث معروف، وهو مُخرَّج في «الصحيح»».

والفناء في توحيد الله: أن يكون عملك كله لله، وباتباع شرعه، وبالموالاة في الله؛ فإن مَن تحقَّق بالتوحيد وَالَىٰ في الله وأَبْغَضَ في الله، فإنَّ أَوْثَقَ عُرَىٰ الإيمان: الحب في الله والبغض في الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مَوْلَاهُ الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكّل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يُوَالِي إلا مَن وَالَاهُ الله، ولا يعادي إلا مَن عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله».

وسَبقَ السلف الخَلف ببر القلوب، فكانت قلوبهم أعلم بالله، وأكثرها خشيةً له، وأعظمها يقينًا بالله.

فالواجب علينا جميعًا: العناية بقلوبنا، وتزكيتها، والأخذ بأسباب تنميتها

(١) العبودية (ص٨٢).

بحقائق التوحيد؛ من إخلاص النية والقصد لله، وعبادته، والتوكل عليه، وخشيته، والالتفات عمَّا سواه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العلم الباطن المُودَع في القلوب من معرفة الله وخشيته، ومحبته ومراقبته، والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، والتوكل عليه والرضا بقضائه، والإعراض عن عَرَضِ الدنيا الفاني، والإقبال علىٰ جَوْهَر الآخرة الباقي».

الفناء المشروع: هو أن ترتحل الدنيا من القلب، فاجعل الآخرة مقصودك، واتخذ من الدنيا سببًا لبلوغ الآخرة بما يرضي الله، ولا تفنىٰ بمتاع الدنيا عن عبودية الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وهذا الفناء تحقيقه هو أن يكون قلبك سليمًا، وهذا الذي تُدْرِكُ به رضا الله وجنته.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القلب السليم: هو الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله، فدَخَل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي -كبائرها وصغائرها- الظاهرة

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٩٤).
(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٥٤).

والباطنة، كالرياء والعُجْب، والغِلّ والغِشّ، والحِقد والحَسد، وغير ذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، قالوا: هو السليم ممَّا سوىٰ الله، أو مما سوىٰ عبادة الله، أو مما سوىٰ إرادة الله، أو مما سوىٰ محبة الله، فالمعنىٰ واحد.

وهذا المعنىٰ -إنْ سُمِّيَ فناءً أو لَمْ يُسَمَّ- هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره».

الأنس بالله يقطع علائق القلب عن سواه، والأنس بالله هو قُرَّة العين، وتلك جنة مُعَجَّلة في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وسُئل أبو سليمان الدَّاراني عن أفضل الأعمال؟ فبكىٰ، وقال: أن يطَّلع علىٰ قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره[٢].

وأكملُ الخَلق فناءً في توحيد الله هما الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الخُلَّة لا تحتمل الشِّركة».

والمسلمون يتفاضلون في توحيدهم تفاضلًا عظيمًا لا يحصيه إلا الله، فمنهم مَن في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان، ومنهم مَن يرجح إيمانه بالأُمَّة كلها.

(١) العبودية (ص١٠٨).
(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٢٨).
(٣) العبودية (ص٨٨).

الفناء في التوحيد هو حقيقة الحنيفية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه[١]: «القلب إنْ لم يكن حَنِيفًا مُقبِلًا علىٰ الله، مُعرِضًا عما سواه، كان مشركًا، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]».

ومهما فنىٰ المسلم بعبودية الله ﷻ، فإنه مع ذلك يشهد تقصيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا شهد العبد من نفسه أنه لَمْ يُوَفِّ ربَّهُ في عبوديته حقَّهُ، ولا قريبًا من حقِّهِ، عَلِم تقصيره، ولَمْ يَسَعْهُ مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقِّه، وأنه إلىٰ أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها أحوج منه إلىٰ أن يطلب منه عليها ثوابًا.

وهو لو وَفَّاها حقَّها كما ينبغي لكانت مستحقةً عليه بمقتضىٰ العبودية؛ فإنَّ عَمَلَ العبد وخدمته لسيده مستحقٌّ عليه بحُكمِ كونه عَبْدَه ومملوكَهُ، فلو طلب منه الأجرة علىٰ عملِهِ وخدمته لعَدَّه الناس أحمقَ وأخرقَ، هذا وليس هو عبده ولا مملوكه علىٰ الحقيقة، وهو عبدُ الله ومملوكه علىٰ الحقيقة من كل وجه.

فعملُه وخدمته مستحقٌّ عليه بحُكمِ كونه عَبْدَه، فإذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضلٍ ومِنَّة وإحسان إليه لا يستحقه العبد عليه.

ومن ههنا يُفهم معنىٰ قول النبي ﷺ: «لن يَدْخُلَ أَحدٌ منكم الجنةَ بعمله».

---

(١) العبودية (ص١٠٤، ١٠٥).

(٢) رسالة إلىٰ أحد إخوانه (ص٥٠-٥٢).

قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أنْ يَتغمَّدَنِي الله برحمةٍ منه وفَضْلٍ»».

فالحاصل: أن الفناء المشروع عاد معناه إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هي تتضمَّن طَلَبَ العبد من ربه لأهم الأمور الدينية، فقوله ﷺ: «أسألُكَ الثبات في الأمر»، المراد بالأمر: الدين والطاعة.

فسألَ الثبات علىٰ الدِّين إلىٰ الممات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، الذين قالوا: ربنا الله كثير، ولكن أهل الاستقامة قليل.

كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبته: «اللهم اعصمنا بحفظِكَ، وثَبِّتنا علىٰ أمرِكَ»».

فالاستقامة والثبات، لا قدرة للعبد عليه بنفسه، فلذلك يحتاج أن يسأل ربه.

كان الحسن إذا قرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، يقول: اللهم أنتَ ربُّنا، فارزقنا الاستقامة، رواه عبدالرزاق.

كان النبي ﷺ كثيرًا ما يقول: «يا مُقلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دِينك»، فقيل له في ذلك، فقال: «إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يُقلِّبها كيف يشاء»، رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

وأمَّا النوع الثاني من الفناء: وهو الفناء عن شهود السوىٰ، فيفنىٰ الذاكر لله عن شهود غير الذِّكر الذي هو فيه، ويضعف بسبب ذلك إدراكه وتمييزه، ومنهم مَن

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٣٩).

ينبسط ويسترسل مع هواه في ذلك، ويَهْرِف ويَهْذِي بالكفر والشرك، ويَدَّعِي مقام الولاية وأشياء تستحيل في حقِّ المخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وُجد في المستأخرين مَن انبسط في دعوىٰ المحبة، حتىٰ أخرجه ذلك إلىٰ نوع من الرُّعُونة والدعوىٰ التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوعٍ من الربوبية التي لا تصلح إلا لله، ويَدَّعِي أحدهم دعاوىٰ تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، ولا يصلح للأنبياء.

وهذا بابٌ وقع فيه كثير من الشيوخ، وسببُهُ ضَعْفُ تحقيقِ العبودية التي بَيَّنها الرسل، وحَرَّرها الأمر والنهي الذي جاؤوا به، بل ضعفُ العقل الذي به يَعْرِف العبد حقيقته.

وإذا ضَعُفَ العقل، وقَلَّ العلم بالدين، وفي النفس محبةٌ طائشة جاهلة، انبسطت النفس بحُمْقِها في ذلك».

والفناء عن شهود السوىٰ ضلالٌ سببُه الذِّكر البدعي، والقصد إلىٰ ادِّعاء الولاية، فهو من فساد النية، والابتداع في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أكمل وأقوىٰ وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غَشْيٌ، أو ضعفٌ، أو سُكْرٌ، أو فناءٌ، أو وَلَهٌ، أو جنونٌ».

---

(١) العبودية (ص٩٣، ٩٤).
(٢) العبودية (ص١١٠).

فالواجب على المسلم: عبادة الله ﷻ بالذِّكر المشروع، واجتناب الأحوال الشيطانية والهَذيان بالكفر والشرك والبدع؛ فإن ولاية الله إنما تُنال بالتوحيد والسُّنة، لا بالشرك والبدع.

والصوفية المَلَاحِدَة مروا مع رُعونات أنفسهم وخيالات أوهامهم الكاذبة، فصارت الحقيقة عندهم أذواقهم، وجعلوا أذواقهم حاكمةً على الشرع، واجبةَ الاتِّباع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ضَلَال الصوفية[١]: «طريق الحقيقة عندهم: هو السلوك الذي لا يتقيَّد صاحِبُه بأمر الشارع ونَهْيِه، ولكن بما يراه ويَذُوقه، ويجده في قلبه، مع ما فيه من غفلةٍ عن الله ﷻ ونحو ذلك.

وهؤلاء لا يحتجّون بالقدَر مطلقًا، بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم، وجعلهم لِمَا يرونه ويَهْوونه حقيقةً، وأمرُهم باتِّباعها دُونَ اتِّباعِ أمرِ الله ﷻ ورسوله ﷺ نظيرُ بِدَعِ أهلِ الكلام من الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسُّنة حقائِقَ عقلية يجب اعتقادُها دُونَ ما دلَّت عليه السمعيات.

ثم الكتاب والسُّنة؛ إمَّا أنْ يُحرِّفوا القول فيهما عن مواضعه، وإمَّا أنْ يُعرِضُوا عنه بالكلية، فلا يتدبَّرونه، ولا يعقلونه، بل يقولون: نُفَوِّضُ معناه إلى الله، مع اعتقادهم نَقِيض مَدْلُولِه.

وإذا حُقِّقَ على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسُّنة، وُجِدَتْ جَهْلِيَّات واعتقادات فاسدة.

---

(١) العبودية (ص٤٤، ٤٥).

وكذلك أولئك إذا حُقِّق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسُّنة، وُجدت من الأهواء التي يتّبعها أعداء الله لا أولياؤه».

وأمَّا النوع الثالث من الفناء: فهو الفناء عن وجود السوىٰ، وهو فناء الملاحدة الصوفية الاتحادية القائلين بوحدة الوجود.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هو فناء القائلين بوحدة الوجود، وهو فناءٌ باطِلٌ في نفسه، مستلزِمٌ جَحْد الصانع، وإنكار ربوبيته وخَلْقه وشَرْعه، وهو غاية الإلحاد والزندقة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أمَّا النوعُ الثالث -ممَّا قد يُسَمَّىٰ فناءً- فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فَرْقَ بين الرب والعبد! فهذا فناءُ أهلِ الضلال والإلحاد الواقعين في الحُلول والاتحاد».

وهذا الإلحاد الصوفي الحلولي الاتحادي لا يصحُّ تسميته «شهود الحقيقة»؛ فإنهم لم يشهدوا حقيقةً كونيةً ولا شرعية؛ وإنما هم في عَمَىٰ أوهامهم وكُفْرِ اعتقادهم، يعتقدون أن الخالق هو المخلوق!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «قال الله تعالىٰ عنهم -المشركين-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، بل قد آلَ الأمر بهؤلاء إلىٰ أن سَوَّوا اللهَ بكلِّ موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًّا لكل موجود؛ إذ جعلوه هو وجود المخلوقات! وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٦٥).
(٢) العبودية (ص١١٢).
(٣) العبودية (ص٣٧، ٣٨).

وهؤلاء يَصِلُ بهم الكفر إلىٰ أنهم لا يشهدون أنهم عِباد، لا بمعنىٰ أنهم معبدون، ولا بمعنىٰ أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صَرَّح بذلك طَواغيتهم، كابن عربي صاحِب «الفُصوص»، وأمثاله المُلحِدِين المفترين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون.

وهذا ليس بشهود لحقيقةٍ، لا كونية، ولا دينية، بل هو ضَلَالٌ وعَمًىٰ عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كلَّ وصفٍ مذمومٍ وممدوح نعتًا للخالق والمخلوق، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم!».

أمَّا المسلمون الموحِّدون فشهدوا أن «لا إله إلا الله»، وحقيقتها: إفراد الخالق بالألوهية، وشهدوا أنَّ كلَّ ما سوىٰ الله مربوب، ليس بإلهٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل: ٢٦]؛ فإنه يقتضي انفراده بالألوهية، وذلك يتضمن انفراده بالربوبية، وأن ما سواه عبدٌ له، مُفتقرٌ إليه، وأنه خالق ما سواه ومعبوده».

والله ﷻ هو القيوم، فلا يمكن أن نُسَوِّيَ بين مَن هو قائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت بمَن هو مربوبٌ لله، يُدبِّر اللهُ أَمْرَه، ويقضي فيه بقدَرِه.

فالمسلمون الموحِّدون شهدوا غنىٰ الله عن خلقه، وافتقار الخَلق إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

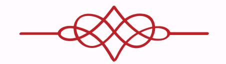
---

(١) الصفدية (٢/ ٦٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الناس يعلمون افتقار أنفسهم إلىٰ الله تعالىٰ في أن يهديهم ويُعِينهم علىٰ الإيمان والعمل الصالح».

ومَن لمْ يَعْرِف مباينة الخالق للمخلوق، وفَرْق ما بين مَن أَوْجَد الخَلق من العدم، والموجود بإيجاد الله له، والذي يميتهم ثم يحييهم ليحاسبهم علىٰ عبادتهم وطاعته، وتفرُّده بالخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهو في فناءِ ضَلَالِه وكُفْرِه وإلحاده.

فأيُّ إلحادٍ أعظم من إلحاد الصوفية الذين جعلوا لله أندادًا، حيث جعلوا المخلوقات هي الله -تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-.



(١) الصفدية (٢/ ١٠٨).

قال المصنف رحمه الله:

وأمَّا مخالفتهم لضرورة العقل والقياس: فإن الواحد من هؤلاء لا يُمْكِنُهُ أن يَطْرُدَ قوله، فإنه إذا كان مشاهِدًا للقدَر من غير تمييزٍ بين المأمور والمحظور، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذلك، مِثْلَ: أن يُضرب ويُجاع حتىٰ يُبتلىٰ بعظيم الأَوْصَاب والأوجاع، فإنْ لَامَ مَن فَعَل ذلك به وعابه فقد نقض قوله، وخرج عن أصل مذهبه، وقيل له: هذا الذي فَعَله مَقضِيٌّ مقدور، فَخَلْقُ اللهِ وقدرُه ومشيئته مُتناوَلٌ لكَ وله وهو يَعُمُّكُما، فإنْ كان القدَرُ حُجَّةً لكَ فهو حُجَّة لهذا، وإلا فليس بحُجَّةٍ لا لكَ ولا له. فقد تَبيَّن بضرورة العقل فسادُ قولِ مَن ينظر إلىٰ القدَر، ويُعرِضُ عن الأمر والنهي.

والمؤمن مأمورٌ بأنْ يفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر علىٰ المقدور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالىٰ في قصة يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فالتقوىٰ: فعلُ ما أَمَر الله به، وتَرْكُ ما نهىٰ الله عنه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فأَمَره مع الاستغفار بالصبر؛ فإنَّ العِباد لا بدّ لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يا أيها الناس، توبوا إلىٰ ربكم، فوالذي نفسي بيده، إني لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وقال: «إنه ليُغَانُ علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة».

وكان يقول: «اللهم، اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلم به مني، اللهم، اغفر لي خطئي وعَمْدِي، وهَزْلِي وجِدِّي، وكلَّ ذلك عندي، اللهم، اغفر لي ما قدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنتَ أعلمُ به مني، أنتَ المُقدِّم وأنتَ المُؤخِّر، لا إله إلا أنت».

وقد ذكَر عن آدم أبي البشر أنه استغفر ربّه وتاب إليه، فاجتباه ربّه فتاب عليه وهداه، وعن إبليس أبي الجن أنه أصرَّ متعلِّقًا بالقدَر فلعَنَهُ وأَقْصاه، فمَن أذنبَ وتابَ ونَدِمَ فقد أشبه أباه، ومَن أَشْبَهَ أباه فمَا ظلَمَ، قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

الشَّرْح

الواجب علىٰ المسلم: تحقيق إيمانه بتقوىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١١]، وذلك بطاعته واجتناب نهيه.

فالمسلم في جهادٍ مع نفسه وهَواه وشيطانه، ومتىٰ أَخَذ العُدَّة لجهاده نَصَرَهُ اللهُ علىٰ عدوِّه، وصار هواه تبعًا لأمر الله ونهيه.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «والمجاهِدُ مَن جاهَدَ نفسه في طاعة الله»، رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حَسَنٌ صحيح.

وفعلُ المحظور وتركُ المأمور إنما يأتي من غفلة القلب، أو ضَعْفِ إيمانه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: إنَّ أصحاب محمد ﷺ كانوا يقولون: كلُّ مَن عَمِلَ سوءًا فهو جاهِلٌ، رواه الطبري.

---

(١) التدمرية (ص٢٢٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «سببُ ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يُصْدِرَ ما يخالفه من قولٍ، أو فعلٍ، فمتىٰ صدرَ خلافُه، فلا بد من غفلة القلب عنه، أو ضَعْفِه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوالٌ تُناقِضُ العلم، فيصير جهلًا بهذا الاعتبار».

والتلازم بين عِلْم القلب وعَمَلِ القلب والجوارح معلومٌ، قال النبي ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا فيه حثٌّ علىٰ زيادة إيمان القلب وتنميته وتنقيته من شوائب الأهواء والإرادات المذمومة، فإذا تَزكَّىٰ القلب بالعلم بالله وتَنقَّىٰ من الأهواء المذمومة، صارت عَزَمَات القلب في الخيرات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا كانت الأعمال والتُّروك الظاهرة لازمة للإيمان الباطن، كانت من مُوجَبِه ومُقْتَضاه، وكان من المعلوم أنها تَقْوَىٰ بقُوَّتِه، وتَضْعُف بضَعْفِه، وتزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه».

ومعنىٰ قول الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ»: أنَّ ما يطلبه العاصي من اللذة في تركِ المأمور، أو فِعْل المحظور فهو مَضرَّةٌ له، وبذلك جَهِلَ ما ينفعه ،وأتىٰ ما يَضُرّه.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٩٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٨٤-٥٨٥).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ ما أَمَر الله به عباده فهو من عَيْنِ صلاحهم وفلاحهم في دنياهم وآخرتهم؛ فإن نفس الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده وعبادته ومحبته وإجلاله وخشيته وذِكره وشُكْره، هو غذاء القلوب وقُوتُها وصلاحها وقوامها، فلا صلاح للنفوس ولا قُرَّة للعيون، ولا طمأنينة، ولا نَعِيم للأرواح ولا لذة لها في الدنيا -علىٰ الحقيقة- إلا بذلك، فحاجتها إلىٰ ذلك أعظم من حاجة الأبدان إلىٰ الطعام والشراب والنفس بكثير.

فإنَّ حقيقة العبد وخاصيته هي قلبُه وروحُه، ولا صلاح له إلا بتألُّهِه لإلهِهِ الحق، الذي لا إله إلا هو، ومتىٰ فَقَدَ ذلك هَلَكَ وفَسدَ ولم يصلحه بعد ذلك شيءٌ الْبَتَّةَ.

وكذلك ما حَرَّمه الله علىٰ عباده هو عَيْنُ فسادهم وضررهم في دينهم ودنياهم، ولهذا حَرَّم عليهم ما يَصُدّهم عن ذِكْرِه وعن الصلاة، مع مَفاسِدَ أُخَر ذَكَرها فيهما.

وكذلك سائر ما حرَّمه الله؛ فإنه مَضرَّة لعباده في دينهم ودنياهم وآخرتهم، كما ذَكَر ذلك السلف.

وإذا تَبيَّن هذا، وعُلم أن صلاح العباد ومنافعهم ولذَّاتهم في امتثال ما أَمَرهم الله به، واجتناب ما نهاهم الله عنه؛ تَبيَّن أنَّ مَن طلب حصول اللذَّة والرَّاحة من فعلِ المحظور، أو تركِ المأمور فهو غاية الجهل والحُمْق، تَبيَّن أنَّ كلَّ مَن عصىٰ الله فهو جاهل كما قاله السلف».

وملاحظة ثمرات الطاعات بفعل المأمورات وتركِ المحظورات، من أسباب تزكية النفوس وتَقْوَاها وصلاحها، ومن أسباب إقبالها علىٰ فعلِ المعروف

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٨٠٣، ٨٠٤).

وتركِ المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المقصود بالعبادات التي أَمَرت بها الرسل: تكميل النفس بمحبة الله تعالىٰ وتألُّهِه».

فالمأمورات الشرعية -خصوصًا العبادات- من أهم مقاصدها: تحقيق العبودية لله، وتَقْوَاه، وخشيته، وتزكية النفوس، وإحياء القلوب بذِكْر الله، فتصبح محبته مُنقادةً لأمر الله ونهيه، وقد أخبرنا الله بمعاني هذه المقاصد، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ مقصود العبادات الخضوع لله، والتوجه إليه، والتذلل بين يديه، والانقياد تحت حُكمِه، وعمارة القلب بذِكره، حتىٰ يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضرًا مع الله، ومراقبًا لله غير غافِلٍ عنه، وأن يكون ساعيًا في مَرْضاته، وما يُقرِّب إليه علىٰ حسب طاقته».

فصلاح المسلم بِدَوَام هجرة قلبِهِ إلىٰ الله ﷻ، وإجابة داعي الإيمان، ومُحاذَرة داعي النفس والشيطان.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

(١) الرد علىٰ المنطقيين (ص٤٦٠).
(٢) الموافقات (١/ ٥٢٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال النبي ﷺ: «المُهاجِر: مَن هَجَر ما نَهىٰ الله عنه».

ولهذا يَقْرِنُ سبحانه بين الإيمان والهجرة في القرآن في غيرِ موضعٍ؛ لتلازمهما، واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود: أن الهجرة إلىٰ الله تتضمن هجران ما يكرهه، وإتيان ما يُحبّه ويرضاه، وأصلُها الحب والبغض؛ فإنَّ المُهاجِر مِن شيءٍ إلىٰ شيءٍ لا بُدَّ أنْ يكون ما يهاجر إليه أَحَبّ إليه مما يهاجر منه، فيُؤْثِرُ أَحَبّ الأمرين إليه علىٰ الآخر.

وإذا كان نفسُ العبد وهَوَاهُ وشيطانه؛ إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبه الله ويرضاه، وقد بُلِيَ بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مَرْضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه.

فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا يَنْفَكّ في هجرةٍ حتىٰ المَمَات».

والمسلم طبيعته البشرية توجب عليه محاذرة الذنوب، وأن يسعىٰ في تكميل نفسه، فإذا أخطأ استغفر وتاب، وإلىٰ الله أناب.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ إشارة إلىٰ أنه لا بد من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة، والرجوع إلىٰ الاستقامة».

---

(١) الرسالة التبوكية (ص١٩، ٢٠).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠).

وقال النبي ﷺ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَأَتَى بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَتُوبُونَ، فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ»، رواه مسلمٌ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «العبد دائمًا بين نعمةٍ من الله يحتاج فيها إلىٰ شُكرٍ، وذنبٍ منه يحتاج فيه إلىٰ استغفارٍ، وكلٌّ من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا؛ فإنه لا يزال يتقلَّب في أَنْعُمِ الله وآلائه، ولا يزال محتاجًا إلىٰ التوبة والاستغفار».

والواجب علىٰ المؤمن: تعاهُد دِينه بالحفظ، وتَقْوِيَته، وصيانته، وتجديده، وكلما قَوِيَ يقينُ المسلم بوعد الله علىٰ الطاعة، ووعيده علىٰ المعصية، أتىٰ الطاعة واجتنب المعصية.

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «إنَّ مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لا يكفي في تركِهِ، فإذا صار له عِلْم اليقين، كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عَيْنَ اليقين كجملة المُشاهَدات، كان تَخلُّفُ مُوجبه عنه من أَنْدَر شيءٍ».

والنفس أمَّارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي، فاجعلها زاكية بِالْهَمِّ بالخير، والطاعات وفِعْلها، واجتناب المُحرَّمات، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

فالإقبال علىٰ الله، ولزوم طاعته، والتباعد من أسباب المعصية، والاستعانة

(١) التحفة العراقية في أعمال القلوب (ص٤٥٧).
(٢) عدة الصابرين (ص٢٨٣).

بالله في تزكية النفس، واجتناب المعاصي، هو من أعظم الأسباب للاحتراز من الذنوب والآثام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «القلب محتاج إلىٰ ما يحفظ عليه قُوَّتَهُ، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلىٰ حِمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلىٰ استفراغه من كل مادةٍ فاسدة تَعْرِض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات».

والوقاية من الذنب أَيْسَرُ من معالجة آثاره، قال تعالىٰ: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ [غافر: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المعاصي تقطع هذه المواد، وتغلق أبواب هذه الجنة المُعجَّلة، وتفتح أبواب الجحيم العاجلة؛ من الهَمِّ، والغَمِّ، والضيق، والحزن، والتَّكَدُّر، وقسوة القلب وظُلْمَته وبُعْده عن الرب جَلَّ وَعَلَا، وعن مواهبه السَّنِيَّة الخاصة بأهل التقوىٰ».

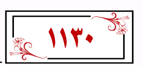
وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنَّ للحسنة ثوابًا في الدنيا، وثوابًا في الآخرة، وإنَّ للسيئة ثوابًا في الدنيا وثوابًا في الآخرة.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٥٧).
(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٨٠٢).
(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٨٠٢).

فثواب الحسنة في الدنيا: البصر في الدين، والنور في القلب، والقوة في البدن، مع صحبةٍ حَسَنةٍ جميلة، وثوابها في الآخرة: رضوان الله ﷻ.

وثواب السيئة في الدنيا: العَمَىٰ في الدين، والظلمة في القلب، والوَهَن في البدن، مع عقوباتٍ ونِقْمَات، وثوابها في الآخرة: سَخَطُ الله ﷻ، والنار».





قال المصنف رحمه الله:

ولهذا قَرَن سبحانه وتعالى بين التوحيد والاستغفار في غير آية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره: «يقول الشيطان: أهلكتُ الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ (لا إله إلا الله)، والاستغفار، فلمَّا رأيتُ ذلك بَثَثْتُ فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا».

وقد ذكَر الله سبحانه وتعالى عن ذِي النُّون أنه نادىٰ في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال النبي ﷺ: «دعوةُ أخي ذي النون ما دعا بها مَكْروبٌ إلا فرَّج الله بها كَرْبَه».

وجِماعُ ذلك: أنه لا بدّ له في الأمر من أصلين، ولا بدّ له في القدر من أصلين.

ففي الأمر: عليه الاجتهاد في الامتثال علمًا وعملًا، فلا يزال يجتهد في العلم بما أَمَر الله به، والعمل بذلك، ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في المأمور، وتَعدِّيه الحدود.

ولهذا كان من المشروع أن تُختتم جميع الأعمال بالاستغفار، فكان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقاموا الليل ثم ختموا بالاستغفار، وآخر سورة نزلتْ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ

وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، وفي الحديث الصحيح أنه كان ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوَّل القرآن[(١)].

الشَّرح

الاستغفارُ يُزِيل أسباب سَخَطِ الله، ويجلب رضاه، فيدرك المسلم بذلك أسباب جَلْب الخير والمَنافع، ويندفع عنه الضُّر والشُّرور، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لَزِم الاستغفار جعل الله له من كلِّ ضيقٍ مخرجًا، ومن كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ورزَقه من حيث لا يحتسب»، رواه أبو داود.

وقال الله تعالىٰ مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وابتلىٰ الله عز وجل أَحَبَّ عِباده إليه بالذنوب، ليستغفروه ويتوبوا إليه، فيكون حالهم بعد التوبة أكمل منه قبل الذنب.

قال غيرُ واحدٍ من السلف: كان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة. قال تعالىٰ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥].

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «زادَهُ علىٰ المغفرة أمرين:

الزُّلْفَىٰ: وهي درجة القرب منه.

والثاني: حُسْن المَآب، وهو حُسْن المُنْقَلَب وطِيب المَأْوَىٰ عند الله».

---

(١) التدمرية (ص٢٢٦-٢٢٩).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٥١١)، باختصار.

وخيرُ الناس صحابة رسول الله ﷺ، وَقَع من بعضهم المعصية في غزوة أُحُدٍ؛ حيث خالفوا أَمْرَ النبي ﷺ بالنزول من جبل الرُّماة، فاستعتبهم اللهُ وتاب عليهم وعفا عنهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الله تعالىٰ يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه؛ ليحصل له بذلك من تكميل العبودية، والتضرُّع، والخشوع لله، والإنابة إليه».

وابتلاء الله عباده بأسباب الذنوب، تمحيصٌ لإيمانهم، فالمسلم يَفِرُّ من الله إليه، فيستعين بالله ليصرف عنه السوء والفَحْشاء، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

والمسلم إذا صَقلَ قلبه بالفرار إلىٰ الله، ازداد تقوًىٰ لله، وفرارًا إليه، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ما ابتلىٰ الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي ومَيْل نفسه إليها، إلا ليسوقه بها إلىٰ محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه علىٰ تَرْكِها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلىٰ المحبوب الأعلىٰ.

(١) زاد المعاد (ص٤٠٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٥٥).
(٣) الفوائد (ص١٦٠).

فكلما نازعته نفسه إلىٰ تلك الشهوات، واشتدت إرادته لها وشَوْقه إليها، صَرفَ ذلك الشوق والمحبة إلىٰ النوع العالي الدائم، فكان طلبُه له أشد، وحرصُه عليه أتم».

وفي الاستغفار تزكيةٌ للنفوس من شرورها من الشرك والبدع والذنوب، قال تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «القلب خُلق يحب الحق، ويريده، ويطلبه، فلمَّا عرضت له إرادة الشر طلب دَفْع ذلك؛ فإنها تُفسِد القلب، كما يَفْسُد الزرع بما يَنْبُت فيه من الدَّغَل، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

فجَعَل سبحانه غَضَّ البصر وحِفْظَ الفَرْج، هو أزكىٰ للنفس، وبيَّن أنَّ تَرْكَ الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمَّن زوال جميع الشرور، من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب وغير ذلك».

فالذنوب تُضعِفُ القلب، وتُعِيقُه عن سيره إلىٰ الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أمَّا العوائق؛ فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها؛ فإنها تَعُوق القلب عن سيره إلىٰ الله، وتقطع عليه طريقه.

(١) العبودية (ص٧٠، ٧١).

(٢) الفوائد (ص٢٢٦).

وهي ثلاثة أمور: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ، فيزول عائِقُ الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السُّنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة».

وما دام المسلم في وقت المُهلَة والسَّعة فعليه بملازمة الاستغفار والعمل الصالح.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ينبغي للمؤمن أن يكون طول عمره زيادةً في عمله، كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «أنه كان يدعو: واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ».

قال بعضهم: مَن لا خير له في الموت، لا خير له في الحياة.

يعني: مَن لا تكون حياته زيادةً في حسناته، فلا خير له في الموت ولا في الحياة.
وقد رأىٰ بعضهم النبي ﷺ في منامه، فقال له: «مَنِ استوىٰ يوماه فهو مَغْبُون، ومَن كان يومه شرًّا من أمسه فهو ملعون، ومَن لم يتفقد الزيادة في عمله فهو في نقصانٍ، ومَن كان في نقصان فالموت خيرٌ له».

وقال ميمون بن مهران: لا خير في الحياة إلا لتائبٍ، أو لرَجُلٍ يعمل في الدرجات.

يعني: أن التائب يمحو بتوبته ما سلف من السيئات، والعامل في الدرجات تعلو درجاته بما يعمل من الحسنات، فهذا يزيد حسناته والأول يمحو سيئاته، فما عدا هذين الرجلين فلا خير لهما في الحياة.

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٦١).

ولهذا قال بقية: «عُمْرُ المؤمن لا قيمة له إلا أن يتوب فيه من السيئات، ويستدرك فيه ما فات»».

والاستعانة بالله في الإخلاص له، وقَهْر هَوىٰ النفس، من أسباب الوقاية من الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

والمسلم يغلبه هواه، وتصيبه الغفلة، فيقع في الذنب، والاستغفار يصقل القلب، ويزيل آثار الذنب.

فالمسلم أَوَّاب إلىٰ ربه، لا يُصِرُّ علىٰ معصيته، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والمسلم إذا كان حنيفًا، مُقبِلًا علىٰ الله، مُعرِضًا عما سواه، ذاكرًا لله؛ وَقَاهُ الله الذنوب.

وملاحظة شرور الذنوب وآفاتها من أسباب اجتنابها، وملاحظة ما تورثه طاعة الله من لذة الإيمان، من أسباب اشتغال النفس بالطاعة عن المعصية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لو لم يكن في تركِ الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصَوْن العِرْض، وحِفْظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا

(١) الفوائد (ص٢٢٢، ٢٢٣).

لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخَلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفُسَّاق والفُجَّار، وقِلَّة الهَمِّ والغَمِّ والحزن، وعِزِّ النفس عن احتمال الذلِّ، وصَوْن نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المَخْرج له ممَّا يُضاق علىٰ الفُسَّاق والفُجَّار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عَسُرَ علىٰ أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحَسَن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمَهَابَة التي تُلقىٰ له في قلوب الناس، وانتصارهم وحِميتهم له إذا أُوذِيَ وظُلِمَ، وذَبّهم عن عرضه إذا اغتابه مُغتابٌ، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْب الملائكة منه، وبُعْد شياطين الإنس والجن منه، وتنافُس الناس علىٰ خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به؛ لقدومه علىٰ ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا في قلبه، وكِبَر الآخرة عنده، وحِرْصه علىٰ الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومَن حوله مِن الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرحٍ وسرور لا نسبة له إلىٰ فرحه سروره بالمعصية بوجهٍ من الوجوه. فهذه بعضُ آثار تركِ المعاصي في الدنيا».

وفي مدارستنا لعقيدة التوحيد في أسماء الله وصفاته، لا بد أن نفهم معنىٰ ابتلاء الله خَلْقه بالذنوب، وما يحصل من توحيد الله للمؤمنين التائبين من مَحْوِ الذنوب، وظهور آثار أسماء الله الحسنىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده، ولا الجرأة علىٰ مَحارِمه، ولكن غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقَهْر الهوىٰ، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة. هذا من جانب العبد.

وأمَّا من جانب الربوبية: فجريان الحكم، وإظهار عِزّ الربوبية، وذُلّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنىٰ، كالعَفُوِّ والغفور والتواب والحليم لمَن جاء تائبًا نادمًا، والمنتقم والعدل وذي البَطْش الشديد لمَن أَصَرَّ ولزم المعرة.

فهو سبحانه يريد أن يُرِي عَبْدَهُ تفرُّدَه بالكمال، ونَقْص العبد وحاجته إليه، ويُشهِده كمال قدرته وعِزَّته، وكمال مغفرته وعَفْوِه ورحمته، وكمال بِرِّه وسَتْرِه وحِلْمه وتَجاوُزِه وصَفْحِه، وأن رحمته به إحسانٌ إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفَضْلِه، فهو هالِكٌ لا مَحالَةَ».

والمسلم كما أنه يستغفر رَبَّه من فِعْلِ المحظور، فإنه يستغفر ربه من تقصيره في فعلِ المأمور، وقد حَثَّنا الله ﷻ علىٰ استغفاره بعد فعلِ الطاعات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فهذا حالُ هذا العبد مع ربه في جميع أعماله، فهو يَعْلَم أنه لا يُوَفِّي هذا المقام حقَّه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كل عملٍ.

وكان النبي ﷺ إذا سلَّمَ من الصلاة استغفر ثلاثًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلىٰ السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم.

(١) الفوائد (ص٩٤).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٤٦٧، ٤٦٨).

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فأَمَر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة، وشَرَع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه: «اللهم اجعلني من التوَّابين، واجعلني من المُتطهِّرين». فهذه توبةٌ بعد الوضوء، وتوبةٌ بعد الحج، وتوبةٌ بعد الصلاة، وتوبةٌ بعد قيام الليل.

فصاحِبُ هذا المقام مضطرٌّ إلىٰ التوبة والاستغفار كما تَبيَّن، فهو لا يزال مستغفرًا تائبًا، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره».

وقول شيخ الإسلام: «قَرَنَ ﷻ بين التوحيد والاستغفار في غير آية» فيه حثٌّ من شيخ الإسلام للمسلمين لتحقيق التوحيد؛ لأنه من أعظم أسباب مغفرة الذنوب.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ التوحيد أعظم الأسباب التي تُستجلب بها المغفرة، وعَدَمُه مانِعٌ من المغفرة بالكلية، وفي الحديث: «ابن آدم! إنْ جئتني بقُرابِ الأرض خَطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لقيتكَ بقُرابها مغفرة».

وفي حديث سيد الاستغفار البداية بذكر التوحيد قبل طلب المغفرة، وإذا اعترف العبد بذنبه وطلب المغفرة من ربه، وأَقَرَّ له أنه لا يغفر الذنوب غيره كان جديرًا أن يغفر له، ولهذا قال في الحديث: «فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنتَ»، وكذلك في دعاء سيد الاستغفار، وكذلك في الدعاء الذي علمَّه الصِّدِّيق أن يقوله في صلاته.

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٤٧).

وإلىٰ هذا، الإشارة في القرآن ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وفي حديث أبي ذَرٍّ المرفوع: «يقول الله ﷻ: مَن عَلِمَ أني ذو قدرة علىٰ المغفرة ثم استغفرني، غفرتُ له ولا أُبالِي».

وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنَّ ربَّكَ ليعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري».

وفي «الصحيح»: حديث الذي أذنب ذنبًا، فقال: «ربِّ، عملتُ ذنبًا فاغفر لي. قال الله ﷻ: عَلِمَ عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرتُ لعبدي. ثم قال في الرابعة: فليعملْ ما شاء»؛ يعني: ما دام علىٰ هذا الحال، كلما أذنبَ استغفر».




قال المصنف رحمه الله:

وأمَّا في القدَر: فعليه أن يستعين بالله في فعلِ ما أُمر به، ويَتوكَّل عليه، ويدعوه، ويرغب إليه، ويستعيذ به، فيكون مفتقرًا إليه في طلبِ الخير وتركِ الشر، وعليه أن يصبر على المقدور، ويَعْلَم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإذا آذاه الناس عَلِم أنَّ ذلك مُقدَّر عليه.

ومن هذا الباب احتجاجُ آدم وموسى، لمَّا قال: يا آدم، أنتَ أبو البشر، خلقكَ اللهُ بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنتَ موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، فبكم وجدتَ مكتوبًا عليَّ قبل أن أُخلق ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: بكذا وكذا سَنة، قال: فحجّ آدم موسى.

وذلك أن موسى لم يكن عَتْبُه لآدم لأَجْلِ الذنب؛ فإنَّ آدم كان قد تاب منه، والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له، ولكن لأَجْلِ المصيبة التي لحقتهم من ذلك، وهم مأمورون أن ينظروا إلى القدَر في المصائب، وأن يستغفروا من المَعائب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.

فمَن راعى الأمر والقدَر -كما ذُكر- كان عابدًا لله، مطيعًا له، مستعينًا به، متوكلًا عليه، من الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد جَمَع الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، فالعبادة

له، والاستعانة به، وكان النبي ﷺ يقول عند الأضحية: «اللهم منكَ ولكَ»، فما لم يكن بالله لا يكون، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وما لم يكن لله لا ينفع ولا يدوم[(١)].

الشَّرح

على المسلم اتِّباع الشرع، والاستعانة بالله في عبادته، والتوكل عليه في أموره كلها، ولا يجوز لأحد أن يحتجَّ بالقدَر على مخالفة الشرع، كالمشركين فإنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فرَدَّ الله عليهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والمخلوق يفعل فِعْلَهُ بإرادةٍ تامَّةٍ وقدرةٍ جازمة؛ فلذلك يؤاخذه الله بما كسب، والمخلوق له مشيئة يختار بها عَمَلَهُ، فيحاسبه الله على أعماله، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

والله ﷻ يهدي مَن يشاء من خَلْقِه فضلًا لإقبال المخلوق على الله، ويُضِلُّ مَن يشاء عدلًا بأسبابٍ من المخلوق لاتباعه غير هُدَى الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولا حُجَّةَ لأحَدٍ بالاحتجاج بالقدر على الكفر والمعاصي؛ فإنّ الله خلق عباده على فطرة الإسلام، فمَن استقام عليها كان من المهتدين، ومَن خالف الفطرة واتَّبع

---

(١) التدمرية (ص٢٣٠-٢٣٢).

الشياطين ضلَّ عن الفطرة، وكان من الغاوين، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأَبَواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه».

والإيمانُ بالقَدَر يوجب تحقيق توحيد العبودية لله وحده، فإذا عَلِم العبد أنّ أَزِمَّة الأمور كلها بيد الله، وأنّه هو الذي يُقدِّر المقادير، استعان بالله في عبادته وتَوكَّل عليه، فيَتولَّاه الله هدايةً ورزقًا وكفايةً، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والمسلم إذا أخذَ بأسباب الهداية والولاية، تَولَّاه الله وهداه، ويَسَّرَ له أسباب طاعته وعبوديته، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وخروج آدم من الجنة بقَدَرِ الله، وهو ابتلاءٌ ابتُلِيَ به ليكون هبوطه إلىٰ الأرض تكليفًا له ولبنيه جميعًا بعبودية الله، وليعود إلىٰ الجنة فيدخلها ثوابًا لعبوديته لله، ويكون دخوله الجنة دخولًا أبديًّا وسَرْمَدِيًا، فبهذا تبيَّن ما في ابتلاء آدم من الحكمة.

فالاستعانة بالله وسؤاله الهداية والاستقامة عليها، هو من أعظم أسباب الهداية، وحاجَةُ الخَلق جميعًا إلىٰ هداية الله ضروريةٌ، لذلك أمرنا الله أن نسأله ذلك في كل ركعة من صلاتنا ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة، فهو الذي يجعل الإيمان والهدىٰ في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبد في كلِّ لحظةٍ مُفتقِرٌ إلىٰ هدايةٍ يجعلها الله في قلبه، وحركاتٍ يُحرِّكه بها في طاعته، وهذا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو خَلقَهُ وقَدَّره، وكان من دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم آتِ نَفْسي تَقْوَاها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زَكَّاها، أنتَ وَلِيُّها ومَوْلَاها»، وعَلَّم حصين بن المنذر رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن يقول: «اللهم، أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِني شرَّ نفسي».

وعامة أدعيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متضمنة لطلب توفيق ربه، وتزكيته له، واستعماله في مَحابِّه».



(١) طريق الهجرتين (ص٦١٤، ٦١٥).


قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا بد في عبادته من أصلين:

أحدهما: إخلاص الدين له.

والثاني: موافقة أمره الذي بَعَث به رُسُله، ولهذا كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: اللهم، اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحَدٍ فيه شيئًا. وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السُّنَّة.

ولهذا ذَمَّ الله المشركين في القرآن علىٰ اتباع ما شَرَع لهم شركاؤهم من الدِّين الذي لم يأذن به الله من عبادةِ غيرِه، وفِعْل ما لم يَشْرَعْهُ من الدِّين، قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، كما ذَمَّهم علىٰ أنهم حَرَّموا ما لم يُحرِّمه الله، والدِّين الحق أنه لا حرام إلا ما حَرَّمه الله، ولا دين إلا ما شَرَعه الله[1].


الشَّرح

شَرَح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الجملة شروطَ العملِ الصالح الذي يَقْبله الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الإخلاص لله وحده، والمتابعة لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو حقيقة الإسلام، ومقتضىٰ الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

(١) التدمرية (ص٢٣٢-٢٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «أصل الدين ألا يُعبد إلا الله، وألا يُعبد إلا بما شَرَع».

والعمل بالإخلاص لله ﷻ، والمتابعة للنبي ﷺ هو الإحسان الذي أمر الله به في عبادته، فهو إحسانُ العمل، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الدِّين هنا بمعنىٰ: العمل».

وقال شيخنا العثيمين[٣]: «قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، الإسلام بمعنىٰ: الإخلاص».

وقال العثيمين[٤]: «قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية من ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾، والإحسان هنا: الموافقة للشريعة، فيكون في الآية دليلٌ علىٰ شَرْطَيِّ العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة».

وشهادةُ أن محمدًا رسول الله ﷺ توجب متابعته، ومتابعته لا تأتي إلا بطلبِ عِلْمِ شريعة الإسلام التي بُعث بها، وتحقيق عقائدها، والقيام بأداء عباداتها التي توجب علينا معرفة الصفة التي أدَّاها عليها صلوات الله وسلامه عليه، قال ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي»، رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

(١) الرد علىٰ البكري (ص٢٨١).
(٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٦٩).
(٣) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٦٩).
(٤) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٦٩).

وقال النبي ﷺ: «مَن تَوضَّأ نحو وضوئي هذا ثم صَلَّىٰ ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه؛ غُفر له ما تَقدَّم من ذنبه»، متفق عليه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقال ﷺ: «لتأخذوا عني مَناسِككُم»، رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «كلما كان الإنسان أقوىٰ إيمانًا، كان أقوىٰ اتباعًا لرسول الله ﷺ، حتىٰ كأنه يشاهد الرسول ﷺ أمامه فيتبع أثره».

إنَّ العمل الصالح شرطاه: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة لرسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الصحيحين من حديث الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنِّيَّات»، وفي الصحيحين -واللفظ لمسلم- من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ».

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري رحمه الله[2]: «مِنَ السُّنة: اتباع رسول الله ﷺ، والاقتفاء لأمره، والاقتداء بهديه، والأخذ بأفعاله، والانتهاء إلىٰ أمره، وإكثار الرواية عنه في كل ما سَنَّه، واستحسنه، ونَدَب إليه، وحرَّض أُمَّته عليه، ليتأدبوا به، فتَحْسُن بذلك في الدنيا آدابهم، ويَعْظُم عند الله قَدْرُهم».



(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٣١).
(٢) الإبانة عن أصول الديانة (ص٣٢٣، رقم ٣٣٣).


قال المصنف رحمه الله:

ثُمَّ إنَّ الناس في عبادته واستعانته علىٰ أربعة أقسام:

فالمؤمنون المتقون هُمْ له وبه، يعبدونه ويستعينونه.

وطائفة تعبده من غير استعانةٍ ولا صبرٍ، فتجد عند أحدهم تحرِّيًا للطاعة والورع، ولزوم السُّنة، لكن ليس لهم تَوكُّلٌ واستعانةٌ وصبرٌ، بل فيهم عجزٌ وجزعٌ.

وطائفة فيهم استعانةٌ وتوكُّلٌ وصبرٌ، من غير استقامة علىٰ الأمر ولا متابعة للسُّنة، فقد يُمَكَّن أحدهم، ويكون له نوعٌ من الحال باطنًا وظاهرًا، ويُعطىٰ من المكاشفات والتأثيرات ما لم يُعْطَهُ الصنف الأول، ولكن لا عاقبة له، فإنه ليس من المتقين، والعاقبة للتقوىٰ، فالأوَّلُون لهم دِينٌ ضعيف، ولكنه مستمرٌّ باقٍ إن لم يفسده صاحبه بالجزع والعجز، وهؤلاء لأحدهم حالٌ وقوة، ولكن لا يبقىٰ له إلا ما وَافقَ فيه الأمر، واتبع فيه السُّنة.

وشرُّ الأقسام مَن لا يعبده ولا يستعينه، فهو لا يشهد أنَّ عِلْمَهُ لله، ولا أنه بالله[١].


الشَّرح

الدين كله في تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ومَن استعان بالله في طاعته أعانه الله، فمبدأ الأمور من الله وتمامها علىٰ الله.

والمسلم لا حياة له إلا بالاستعانة بالله علىٰ طاعته وعن معصيته، وبالصبر علىٰ أقداره.

(١) التدمرية (ص٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به على حصول المطلوب ودَفْع المكروه.

فالأول من مقتضى ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته؛ لأن الإله هو الذي يُؤْلَهُ فيُعبد محبةً وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والرب هو الذي يُرَبِّي عَبْدَهُ فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فسادُه وهلاكُه.

وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

السادس: قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩]».

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ١١٧، ١١٨).

وحذَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مَن فيه جَزَعٌ، وقِلَّةُ صَبْرٍ، وضَعْفُ تَوكُّلٍ واستعانة، أن يكون ذلك سببًا في إفساد عبادته؛ وذلك أنَّ مَن لم يصبر علىٰ قدَرِ الله ربما كَفَر.

وكلُّ مسلمٍ حاجته ضرورية إلىٰ تنمية تَوكُّلِه علىٰ الله واستعانته به، وكان النبي ﷺ يُرَبِّي صبيان الصحابة علىٰ تحقيق ذلك فضلًا عن كِبارهم، حيث قال لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعتْ علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لكَ، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك».

فالمسلم دائمُ التوكل علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السِّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، تُوكَل إليه الأمور، فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد؛ وذلك لعِلْمِه بمصالح عَبْدِه من حيث لا يَعْلَم العبد، وقدرته علىٰ إيصالها إليه من حيث لا يَقْدِر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أَحَدٍ خصوصًا خَوَاصّ عبيده، الذين لم يَزَلْ يُرَبِّيهم ببِرِّه، ويُدِرّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة خصوصًا وقد أَمَره بإلقاء أموره إليه، ووعده أن يقوم بها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/ ١٣٤).

فهناك لا تسألْ عن كلِّ أمرٍ يَتيسَّر، وصَعْبٍ يَتسهَّل، وخُطُوبٍ تَهُون، وكُرُوبٍ تَزُول، وأحوال وحوائج تُقضىٰ، وبركاتٍ تنزل، ونِقَمٍ تُدفع، وشرورٍ تُرفع.

وهناك ترىٰ العبد الضعيف الذي يُفوِّض أَمْرَه لسيده، قد قام بأمورٍ لا تقوم بها أُمَّة من الناس، وقد سَهَّل الله عليه ما كان يَصْعُب علىٰ فُحُولِ الرجال، وبالله المستعان».

والحُنفاء حقَّقُوا توحيد الربوبية والأسماء والصفات والألوهية، فاستعانوا بالله علىٰ طاعته، فعبدوه بالاستعانة به، وشهدوا مِنَّة الله في تيسيره لهم أسباب دخول الجنة في الدنيا، فإذا دخلوا الجنة ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وشَهِدَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مشهد الاستعانة بالله في هدايتهم وعبوديتهم لربهم، فقالوا:

لولا الله ما اهتدينا ... ولا تَصدَّقنا ولا صَلَّينا

وفي قول النبي ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأَحَبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تَعْجَزْ»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حثٌّ علىٰ الاستعانة بالله في إدراك خيري الدنيا والآخرة.

قال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «قوله: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»؛ أي: استعمل الحرص والاجتهاد في تحصيل ما تنتفع به

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦٨٢، ٦٨٣).

في أَمْرِ دينك ودنياك التي تستعين بها علىٰ صيانة دينك، وصيانة عِيالِكَ، ومكارم أخلاقك، ولا تُفرِّط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه مُتَّكِلًا علىٰ القدَر، فتُنسب للتقصير، وتُلام علىٰ التفريط شرعًا وعادةً.

ومع إنهاء الاجتهاد نهايته، وإبلاغ الحرص غايته، فلا بد من الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، والالتجاء في كل الأمور إليه، فمَن سَلكَ هذين الطريقين حصل علىٰ خير الدارين».



قال المصنف رحمه الله:

فالمعتزلة ونحوهم من القدرية الذين أنكروا القدَر هم في تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد خيرٌ من هؤلاء الجبرية القدرية الذين يُعرِضُون عن الشرع والأمر والنهي، والصوفية هم في القدر ومشاهدة توحيد الربوبية خيرٌ من المعتزلة، ولكن فيهم مَن فيه نوعُ بِدَعٍ مع إعراضٍ عن بعض الأمر والنهي، والوعد والوعيد، حتىٰ يجعلوا الغاية هي مشاهدة توحيد الربوبية والفناء في ذلك، فيصيرون أيضًا معتزلين لجماعة المسلمين وسُنَّتِهم، فهم معتزلة من هذا الوجه، وقد يكون ما وقعوا فيه من البدعة شرًّا من بدعة أولئك المعتزلة، وكلتا الطائفتين نشأتْ من البصرة.

وإنما دِينُ الله ما بَعَث به رُسُله، وأنزل به كُتُبه، وهو الصراط المستقيم، وهو طريق أصحاب رسول الله ﷺ خير القرون، وأفضل الأُمَّة، وأكرم الخَلق علىٰ الله بعد النبيين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، فرَضِيَ عن السابقين الأوَّلِين رضاءً مطلقًا، ورَضِيَ عن التابعين لهم بإحسان، وقد قال النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «خيرُ القرون: القرن الذي بُعثتُ فيهم، ثُمَّ الذين يَلُونهم، ثُمَّ الذين يلونهم».

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: مَن كان منكم مُسْتنًّا فليَسْتَنَّ بمَن قد مات؛ فإنَّ الحيّ لا تُؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبرّ هذه الأُمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلُّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكُوا بهديهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم.

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: يا معشر القراء، استقيموا، وخذوا طريق مَن كان قبلكم، فواللهِ، لَئِنْ اتَّبعتموهم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، وَلَئِنْ أخذتُم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا[(١)].

الشَّرح

في خاتمة «الرسالة التدمرية» ذَكَر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله منهج الناصح لنفسه، الذي يلزم الصراط المستقيم، ويَتلقَّىٰ معاني القرآن والسُّنة بفهم السابقين الأوَّلِين، فذلك الذي يرضىٰ الله عنه؛ لإحسانه في اتباع الصحابة.

وهذا المنهج هو سبيل المؤمنين وطريق الناجين.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «أصول السُّنة عندنا: التمسُّكُ بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم، وتَرْكُ الابتداع».

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «خيرُ الناس قرني»، متفق عليه، حثٌّ علىٰ تَلقِّي الدين عنهم، فهم خير الناس: دينًا، واعتقادًا، وقولًا، وعملًا، وجهادًا، وتقوىٰ، وورعًا عن القول علىٰ الله بغير علمٍ، فالأخذ عنهم هو مِن تَلقِّي العلم من مَعْدنه الأول الذي لم يكن فيه بِدعٌ ولا ضلالات.

فطلبُ معاني القرآن والسُّنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم هو من أسباب الهدىٰ، والتحقق بالفقه، والسلامة من البدع.

(١) التدمرية (ص٢٣٥-٢٣٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «انظر في عموم كلام الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لفظًا ومعنًى حتى تعطيه حقَّه، وأحسن ما تستدل به على معناه آثار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين كانوا أعلم بمقاصده؛ فإنَّ ضَبْطَ ذلك يوجب توافق أصول الشريعة».

الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هم الذين أَمَرهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإبلاغ الدين، فأدّوه إلينا كما أَمَرهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال العلَّامة محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فَهُمْ حُجَّة الله على خَلقِه بعد رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يُؤدُّون عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما أَدَّى إليهم؛ لأنه بذلك أَمَرهم، فقال: «ليُبلِّغِ الشاهِد منكم الغائب»، فمضوا على منهاج نبيهم مُتَّبِعين حُكْمَ القرآن وسُنَّة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

وقال ابن القصار المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصحابة[(٣)]: «هم الذين أُمرنا بالاقتداء بهم؛ لأنهم المُبلِّغون للسُّنن، والمُفسِّرون لها، فوجبَ اتِّباع سَبِيلهم».

والاهتداء بالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أمانٌ لأهل الأرض، فقد روى مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «النجوم أَمَنةٌ لأهل السماء، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى أهل السماء ما يُوعدون، وأنا أَمَنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أَمَنةٌ لأُمَّتي، فإذا ذَهَب أصحابي أتى أُمَّتي ما يُوعدون».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جعل نسبة أصحابه إلى مَن بعدهم كنسبته إلى

---

(١) القواعد النورانية الفقهية (٢/ ٣٩٤).
(٢) السنة (ص١٥).
(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٣٦٩).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٦٠٤).

أصحابه، وكنسبة النجوم إلىٰ السماء، ومن المعلوم أن هذا التشبيه يعطي من وجوب اهتداء الأمَّة بهم ما هو نظير اهتدائهم هم بنبيهم ﷺ، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم.

وأيضًا فإنه جَعَل بقاءهم بين الأمَّة أمنةً لهم وحِرْزًا من الشرِّ وأسبابه».

وتشبيهُ أمانِ الصحابة رضي الله عنهم بنجوم السماء في الأمان، فيه دلالةٌ علىٰ أن الله يحفظ بالصحابة ميراث النبوة ممَّن يسعىٰ في تحريفه، أو الابتداع فيه.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «النجوم زينةٌ للسماء، فكذلك العلماء زينةٌ للأرض، وهي رُجومٌ للشياطين، حائِلةٌ بينهم وبين استراق السمع، لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد إلىٰ المُرسَل من الله علىٰ أيدي ملائكته.

وكذلك العلماء رُجومٌ لشياطين الإنس والجن الذي يُوحِي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زُخْرف القول غُرورًا.

فالعلماء رجومٌ لهذا الصنف من الشياطين، ولَوْلَاهم لطُمِسَتْ مَعالِمُ الدِّين بتلبيس المُضِلِّين، ولكن الله سبحانه أقامهم حُرَّاسًا، وحَفَظةً لدينه، ورُجومًا لأعدائه وأعداء رُسُله، فهذا وجهُ تشبيههم بالنجوم».

والصحابة رضي الله عنهم اختصوا بحضور التنزيل، وإدراك قرائن الأحوال التي خُوطبوا بالوحي فيها، فهذه الخصائص في أسباب صحة الفهم لمعاني القرآن والسُّنة ليست لغيرهم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سمعوا من النبي ﷺ من الأحاديث الكثيرة، ورأوا منه من الأحوال، وعلموا بقلوبهم من الأمور ما يوجب لهم من فَهْمِ ما أراد بكلامه ما يَتعذَّر علىٰ مَن بَعْدَهم.

فليس مَن سَمِعَ ورأىٰ وعَلِمَ حال المتكلم، كمَن كان غائبًا، ولمْ يَرَ، ولم يسمع منه، ولكن عَلِمَ بعضَ أحواله، وسَمِعَ بواسطة.

وإذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سمعوا لَفْظَهُ وفَهِمُوا معناه، كان الرجوع إليهم في ذلك واجبًا متعينًا».

وقال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حضروا التنزيل، وفهموا كلام الرسول ﷺ، واطَّلعوا علىٰ قرائن القضايا، وما خرج عليه الكلام من الأسباب والمَحامِلِ التي لا تُدرك إلا بالحضور، وخَصَّهم الله تعالىٰ بالفهم الثاقب، وَحِدَّة القَرائح، وحُسْن التصرف، لِمَا جَعَلَ الله فيهم من الخشية والزهد والورع، إلىٰ غير ذلك من المناقب الجليلة».

وقد نقل إلينا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قرائن أحوال النبي ﷺ، وما أفادتهم من الأحكام، فحفظوا علينا الدين، فكانوا ورثة النبي ﷺ حقًّا وصدقًا، أمناء في أداء ميراثه.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ وارِثَ النبي ﷺ، يلزمه إجراء الأحكام علىٰ موضوعاتها في أنفسها، وفي لواحقها وسوابقها، وقرائنها، وسائر ما يتعلق بها شرعًا، حتىٰ يكون دين الله بينًا عند الخاصِّ والعامِّ».

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٥).
(٢) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة (ص٦٤).
(٣) الموافقات (٣/ ٢٨٢).

تَلقِّي الدِّين عن الصحابة ﵃؛ لأنهم أئمةُ صِدْقٍ، فبهم يَأْتَمُّ الصادقون.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن القيم ﵀[(١)]: «قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ، ولا رَيْبَ أنهم أئمة الصادقين، وكلُّ صادقٍ بَعْدَهُم فبهم يَأْتَمُّ في صِدْقِه، بل حقيقةُ صِدْقِه اتباعه لهم، وكونه معهم».

واللهُ ﷻ رَضِيَ عن الصحابة، وزَكَّاهم، وجعلهم شهداء للرسول ﷺ في تبليغه الدين، وتبليغهم عنه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال ابن القيم ﵀[(٢)]: «إنه سبحانه أخبر أنه جعلهم أُمَّةً خِيَارًا عدلًا، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل علىٰ أُمَمِهم يوم القيامة، واللهُ سبحانه يَقْبَل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نَوَّه بهم، ورَفَع ذِكْرَهم، وأثنىٰ عليهم».

وتَلقِّي الدين عن الصحابة ﵃ هو من الأخذ بوصية النبي ﷺ في تَلقِّي الدين عنهم، حيث جَعَل النبي ﷺ النَّجاة من النار في موافقتهم، فقال: «افترقت اليهود والنصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أُمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين فِرقة، كلُّها في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي»، رواه أحمد وأصحابُ السُّنن، وهو حديثٌ صحيحٌ.

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٥٩٧).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٥٩٨).

الصحابة رضي الله عنهم تَلَقَّوا عن النبي ﷺ مباشرةً ألفاظ ومعاني القرآن، وأَدّوه إلىٰ مَن بَعْدَهم، وهذا الذي أوجب للمسلمين تَلقِّي الدين عنهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين، فذلك إنما قبلوه؛ لأنهم قد علموا أن الصحابة رضي الله عنهم بَلَّغُوا عن النبي ﷺ لَفْظَ القرآن ومعانيه جميعًا».

والصحابة رضي الله عنهم الذين تَلَقَّوا عن النبي ﷺ ألفاظ ومعاني القرآن أَدّوه إلينا، ولم يكن للمؤمنين سبيلٌ غير ذلك في تَلَقِّي الدين.

قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: «حدَّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان، وابن مسعود رضي الله عنهما؛ أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يعلموا ما فيهن، ويعملوا بهن، فتعلّمنا العلم والعمل معًا»، رواه أحمد بإسنادٍ صحيحٍ.

والموجب لاتباع الصحابة رضي الله عنهم هو أن القرآن نزل بلغتهم، فهم أول الأُمَّة إيمانًا به، وهم أعلم بمعانيه ممَّن بعدهم.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «إنه شرفٌ لهم من حيث إنه أُنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّصِ من المهاجرين السابقين الأوَّلين ومَن شابَهَهم وتابَعَهم».

---

(١) السبعينية (ص٣٣٠).

(٢) تفسير القرآن (٤/ ٢١٠).

وقال العلَّامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كفىٰ بالصحابة قدوةً في فهم معنىٰ القرآن، فهم أوَّلُ مُخاطَبٍ به من الأُمَّة، وبلسانهم نزل، وهم أَخَصُّ من غيرهم من أهل اللسان».

وبمعرفة اعتقاد وَفِقْهِ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَعْرِف هداية المُهتدين، وضلالة المُبتدعين.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مَن تَكلَّم بكلامٍ في الدين، أو في شيء من هذه الأهواء، ليس فيه إمامٌ مُتقدِّم من النبي ﷺ وأصحابه، فقد أَحْدَثَ في الإسلام حَدَثًا، وقال رسول الله ﷺ: «مَن أَحْدث حَدثًا، أو آوَىٰ مُحْدِثًا في الإسلام، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يَقْبَل الله منه صَرْفًا ولا عدلًا»».

وقال العلَّامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أصلُ كلِّ بدعةٍ في الدين: البعدُ عن كلام السلف، والانحراف عن اعتقاد الصَّدر الأول».

وقال العلَّامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «المذهب الحقُّ الذي لا يَتمذَّهب به إلا أهل التوفيق: هو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين».

---

(١) التنبيه علىٰ مشكلات الهداية (٣/ ١١٣٥).
(٢) سير السلف الصالحين (٣/ ١١٧).
(٣) المواعظ والاعتبار (٤/ ١٩٨).
(٤) نثر الجوهر علىٰ حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (ص١٣٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المُرسَلِين، فمن المعلوم أنَّ أحقَّ الناس بذلك أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمانٍ ومكان، وهم الطائفة الناجية من أهل كلِّ مِلَّةٍ، وهم أهل السُّنة والحديث من هذه الأُمَّة».

فمَنِ اهتدىٰ بسلفِ الأُمَّة، خير الناس، وتَلقَّىٰ عنهم دِينَهُ، فقد نصح لنفسه، وتلقَّىٰ ميراث النبوة من مَعِينه الصافي، ومعدنه الأول، وسَلِمَ من مذاهب المُبتدعة المُضِلِّين الضَّالِّين.

قال العلَّامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٢٨٠هـ)[2]: «النَّهج الذي دَرجَ عليه المسلمون، وكانت إمامهم في دِينهم بعد كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، منها يقتبسون العلم، وبها يقضون، وبها يُقِيمُونَ، وعليها يعتمدون، وبها يَتزيَّنُون، يُوَرِّثُهَا الأولُ منهم الْآخِرَ، وَيُبَلِّغُهَا الشاهِدُ منهم الغائب، احتجاجًا بها، واحتسابًا في أدائها إلىٰ مَن لم يسمعها، يسمونها السُّنن والآثار والفقه والعلم، ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها، يُحِلُّونَ بها حلال الله وَيُحَرِّمُونَ بها حرامه، وَيُمَيِّزُونَ بها بين الحق والباطل والسُّنن والبدع، ويستدلون بها علىٰ تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه، وَيَعْرِفُونَ بها ضلالة مَن ضلَّ عن الهُدَىٰ.

فمَن رَغِبَ عنها؛ فإنما يرغب عن آثار السلف وهَدْيِهم، ويريد مخالفتهم ليتخِذَ دِينَهُ هواه، وَلِيَتَأَوَّلَ كتاب الله برأيه، خلاف ما عَنَىٰ الله به.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٦).

(٢) الرد علىٰ الجهمية (ص٦٣).

فإنْ كنتم من المؤمنين وعلىٰ منهاج أسلافهم فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدىٰ في سبيله، وارضوا بهذه الآثار إمامًا، كما رَضِيَ بها القوم لأنفسهم إمامًا، فَلَعَمْرِي ما أنتم أعلم بكتاب الله منهم ولا مِثْلَهُمْ، ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار علىٰ ما ترون، فمَن لَمْ يَقْبَلْهَا؛ فإنه يريد أن يَتَّبِعَ غير سبيل المؤمنين، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]».

وظَهَر فضلُ أهلِ السُّنة والجماعة علىٰ سائر الفِرق بتلقيهم معاني الكتاب وصحيح ما يُروىٰ عن النبي ﷺ بفهم الصحابة رضي الله عنهم، فأدركوا بذلك الحق، وصاروا علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله[١]: «إنَّ الله أَبَىٰ أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار؛ لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفًا عن سلفٍ، وقرنًا عن قرنٍ، إلىٰ أن انتهوا إلىٰ التابعين، وأخذه التابعون من أصحاب رسول الله ﷺ، وأخذه أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ، ولا طريق إلىٰ معرفة ما دعا إليه رسول الله ﷺ الناسَ من الدين المستقيم والصراط القويم، إلا هذا الطريق الذي سَلَكه أصحاب الحديث».

فالحاصل: أنَّ الصراط المستقيم هو اتِّباعُ القرآن والسُّنة بفهم السابقين الأوَّلِين، فهذا سبيل المؤمنين.

(١) الحجة في بيان الحجة (٢/ ٢٢٣، ٢٢٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنما الصراطُ المستقيم، صراطُ الذين أَنْعَمَ الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقِين والشهداء والصالحين، هي سبيل نبينا محمد ﷺ، وسبيل خلفائه وأصحابه، ومَن سَلَكَ سبيلهم، وهم السابقون الأوَّلُون من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ -رضي الله عنهم ورضوا عنه-».

ومَن عَدلَ عن تَلقِّي الدِّين عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهو مُشاقٌّ للرسول ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال العلَّامة المُوَفّق أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «مَن أَحَبَّ الكون مع السلف في الآخرة، وأن يكون موعودًا بما وُعدوا به من الجَنَّات والرِّضوان، فليتبعهم بإحسانٍ، ومَنِ اتَّبع غير سبيلهم دَخَل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «الآية دلَّت علىٰ أنَّ مُتَّبِعَ غير سبيل المؤمنين مستحقٌّ للوعيد، كما أنَّ مُشاقَّ الرسول ﷺ من بَعْدِ ما تَبيَّن له الهُدىٰ مُستحِقٌّ للوعيد، ومعلومٌ أنَّ هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل في ذلك لكان لا فائدة في ذِكره».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٣٩٥).
(٢) ذم التأويل (ص٩، ١٠).
(٣) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٣٣٧).

وقال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إجماع الصحابة رَضِوَالِلَّهُعَنْهُمْ حُجَّةٌ ثابتة، وعِلْمٌ صحيح، إذا كان طريق ذلك الإجماع التوقيف، فهو أقوىٰ ما يكون من السُّنن؛ وإن كان اجتهادًا ولم يكن في شيء من ذلك مخالفًا، فهو أيضًا علمٌ وحُجَّة لازِمةٌ، قال الله عَجَلَّ: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهكذا إجماعُ الأمَّة، إذا اجتمعت علىٰ شيءٍ فهو الحق الذي لا شَكَّ فيه؛ لأنها لا تجتمع علىٰ ضلالة».



(١) التمهيد (٤/ ٢٦٧).

قال المصنف رحمه الله:

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وخَطَّ خُطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سُبُل على كلِّ سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾».

وقد أَمَرنا ﷻ أن نقول في صلاتنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالُّون»؛ وذلك أنَّ اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم. ولهذا كان يُقال: تَعَوَّذُوا بالله من فتنة العالِم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مَفْتُونٍ.

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفَّلَ اللهُ لمَن قرأ القرآن، وعَمِلَ بما فيه ألَّا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية.

وكذلك قوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فأخبر ﷻ أن هؤلاء مهتدون مُفلِحون، وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالِّين.

فنسأل اللهَ العظيم أن يهدينا -وسائر إخواننا- صراطَهُ المستقيم: صراط الذين أَنْعَمَ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، ولا حول

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمدُ لله رب العالمين، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ خير خَلْقِه عَبْدِه ورسوله محمد، وآله وصحبه وسَلّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدِّين[١].

الشَّرْح

في خاتمة «الرسالة التدمرية» حَثَّ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الاعتصام بالكتاب والسُّنة، وهذه وصية النبي ﷺ لأُمَّتِه؛ حيث أخبر عن الاختلاف والتفرُّق الذي سيصيبها، وأَمَر بلزوم سُنَّتِه وما عليه أصحابه.

ومصدرُ تَلقِّي العلم عن الصحابة هو منهجُ أهل السُّنة، وهو أَحَدُ أَهَمِّ أصولهم الذي أدركوا به الحق، واهتدوا إليه.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصول السُّنة عندنا: التمسُّكُ بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ».

فالقرآن ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، والقرآن ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] من ضلالات الاعتقادات والأهواء، فمَنِ اهتدىٰ بالقرآن هُدي إلىٰ الحق والصواب.

فمَن أراد الحق فعليه بتدبُّرِ القرآن وتَلَقِّي معانيه عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين تَلَقَّوا معناه من النبي ﷺ مباشرةً.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) الرسالة التدمرية (ص٢٣٨-٢٤١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّما ينجو العبد منها -البدع- بملازمة أَمْرِ الله تعالىٰ الذي بَعَث به رسوله ﷺ في كلِّ وقتٍ، كما قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان مَن مَضَىٰ مَن سلفنا يقولون: «الاعتصام بالسُّنة نَجاة»؛ وذلك أنّ السُّنَّة كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل سفينة نوح، مَن رَكِبَها نَجا، ومَن تَخلَّفَ عنها غَرِقَ»».

ومن أسباب ضلال الخَلق باعتقاد الباطل والعمل المُبتدَع: العدول عن تَلقِّي الهُدىٰ من القرآن والسُّنة بفهم خير القرون، وتَلقِّي الدِّين من أهواء المتكلمين والمبتدعين بأنواعهم.

والبدع والضلالات في الدِّين أساسُها القول علىٰ الله بغير علمٍ، وتحريف كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ عن مواضعه، وتغيير الدين وتبديله.

والاعتصام بالكتاب والسُّنة، وتَلقِّي معانيهما عن الصحابة والذين أخذوا عنهم من التابعين، هو من اتباع السابقين الأوَّلِين بإحسان، وهو من أسباب رضا الله وموافقة الحق، والسلامة من الشرك والبدع.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الرسالة التدمرية» شبهات الجهمية العقلية، وأَظْهَرَ فسادها وبطلانها، ومخالفتها للكتاب والسُّنة وصريح المعقول، فكانت «التدمرية» من أنفع المُؤَلَّفات في بيان الحق الواجب اعتقاده في توحيد الأسماء والصفات.

(١) العبودية (ص٥٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أهل الكلام من الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسُّنة حقائق عقلية يجب اعتقادها، دُونَ ما دَلَّت عليه السمعيات.

ثم الكتاب والسُّنة إمَّا أنْ يُحرِّفوا القول فيهما عن مواضعه، وإمَّا أن يُعرِضُوا عنه بالكلية، فلا يتدبرونه، ولا يعقلونه، بل يقولون: نُفَوِّضُ معناه إلىٰ الله، مع اعتقادهم نَقِيض مدلوله.

وإذا حُقِّق علىٰ هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسُّنة، وُجدت جَهْلِيَّات واعتقادات فاسدة».

وعلماء السُّنة وأئمتهم من كل طبقةٍ يُحذِّرون من البدع؛ حفظًا للدِّين من التغيير والتبديل والتحريف، وصيانةً لعقائد المسلمين من الضَّلَال، ونصيحةً لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتِهم، عن تَمِيمٍ الدَّارِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «الدِّين النصيحة»، قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: لمَن؟ قال: «للهِ، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامَّتِهم»، رواه مسلم.

والدِّينُ قد تَكفَّل الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وبَشَّرَ النبي ﷺ بالطائفة المنصورة التي تدعو إلىٰ الحق، ويَتوَلَّاهم الله بنصره، فقال: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم مَن خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمرُ الله»، رواه البخاري ومسلم.

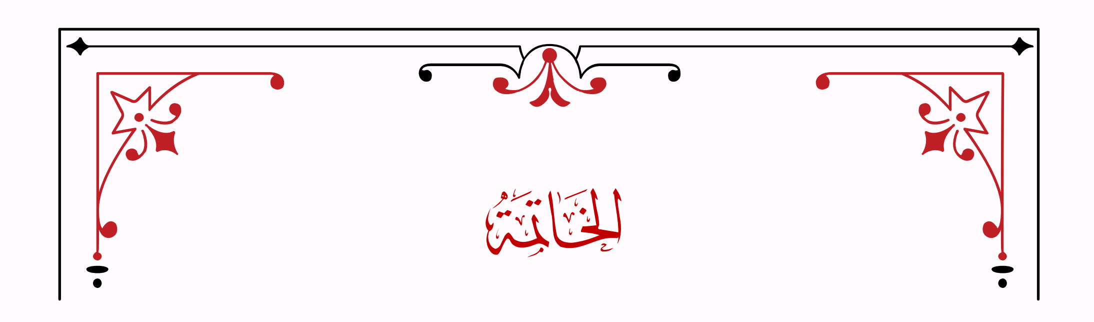
---

(١) العبودية (ص٤٩، ٥٠).

والواجب علينا جميعًا: التواصي بالحق والصبر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣]؛ وذلك بدعوة الخَلق إلىٰ الحق، وهذا من خصائص منهج أهل السُّنة والجماعة فإنهم ينصحون الخَلق ويرحمونهم.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن دعا إلىٰ هُدًىٰ كان له أَجْرُها وأَجْرُ مَن عَمِلَ بها إلىٰ يوم القيامة، ومَن دعا إلىٰ ضلالةٍ كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلىٰ يوم القيامة، دُونَ أنْ ينقص من أَوْزَارِهم شيئًا»، رواه مسلم.





الخاتمة

«الرسالة التدمرية» شَرَح فيها شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ توحيد المعرفة، بما دلَّ عليه الوحي من القرآن والسُّنة ممَّا تجب معرفته واعتقاده والتألُّه لله وحده بحقائقه.

وذَكَر شيخُ الإسلام في هذه الرسالة نصوصَ القرآنِ والسُّنة والمأثور عن سلفِ الأُمَّة في شَرْحِ توحيد أسماء الله وصفاته، ورَدَّ فيها علىٰ أباطيل وشبهات المُعطِّلَة الذين نَفَوْا ما أَثبَتَه اللهُ لنفسه تكذيبًا وتحريفًا، فشَرْحُ هذه العقيدة ضرورةٌ لنصرة الحق وإبطال الباطل.

وأَحْمدُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا علىٰ تيسيره شَرْحَ «مَتْنِ التدمرية»، وأرجو أن يكون الشرح قد قَرَّبَ فَهْمَ معانيها، خصوصًا في الردِّ علىٰ معقولات واصطلاحات المُعَطِّلة الضَّالة.

وحرصتُ في شرحِ «التدمرية» أنْ أشرحَ جُمَلَها كلَّها، ولو تكرَّرتْ من شيخ الإسلام بعض العبارات والموضوعات.

شرحُ الاعتقادِ الصحيح لتوحيد المعرفة والإثبات من أسباب التألُّه لله وحده، وأنْ نقصدَهُ وحده بالتوجُّهِ إليه، وهو من أعظم الدَّوَاعِي لتعظيم الله وتَقْوَاه.

ومتىٰ ما عَرفَ المسلم اعتقاد السابقين الأوَّلِين من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين في توحيد الله بأسمائه وصفاته، أَوْرَثَهُ ذلك طمأنينةً في صحة اعتقاده، وكان ذلك من أسباب محاذرته ضلالات المُعطِّلة المبتدعين.

شرحُ التدمرية هو من شرحِ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وهو فرضُ كفايةٍ علىٰ العلماء وطلبة العلم في رَدِّ إلحاد المُعطِّلة الذين كذَّبُوا بنصوص القرآن والسُّنة فيما أَخْبـرَ الله عن نفسه، وأخبر عنه رسوله ﷺ.

ودلالةُ نصوصِ القرآن علىٰ المعاني الصحيحة في غاية الظهور، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

وقد بيَّن شيخُ الإسلام في «العقيدة التدمرية» مُوَافَقة صريح المعقول لصحيح المنقول في توحيد الله في أسمائه وصفاته، وكَشْفَ ضَلَالِ معقولات المُعطِّلة الباطلة، فكان بذلك ناصحًا لكتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامتهم.

فمَن هُدي لتَلقِّي معاني القرآن والسُّنة عن السابقين الأوَّلِين، فقد تَبِعَهُم بإحسانٍ، وكان ذلك من أسباب رضا الله عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فاحذرْ -أيها المسلم- من مُشاقَّتِهم ومخالفتهم إلىٰ موافقة المُحرِّفِين للكَلِم عن مواضعه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

شرحُ الاعتقاد في توحيد الله في أسمائه وصفاته، هو من ذِكْرِ الله والثناء عليه بصفات الكمال، فالحمدُ لله علىٰ توفيقه للاهتمام بهذا النوع من العلوم، ومُدارَسَته، وتَبيينه، ونَفْي التعطيل والتحريف لنصوص الوحي في أسماء الله وصفاته.

والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.





محتويات الموضوعات


تم بحمد الله